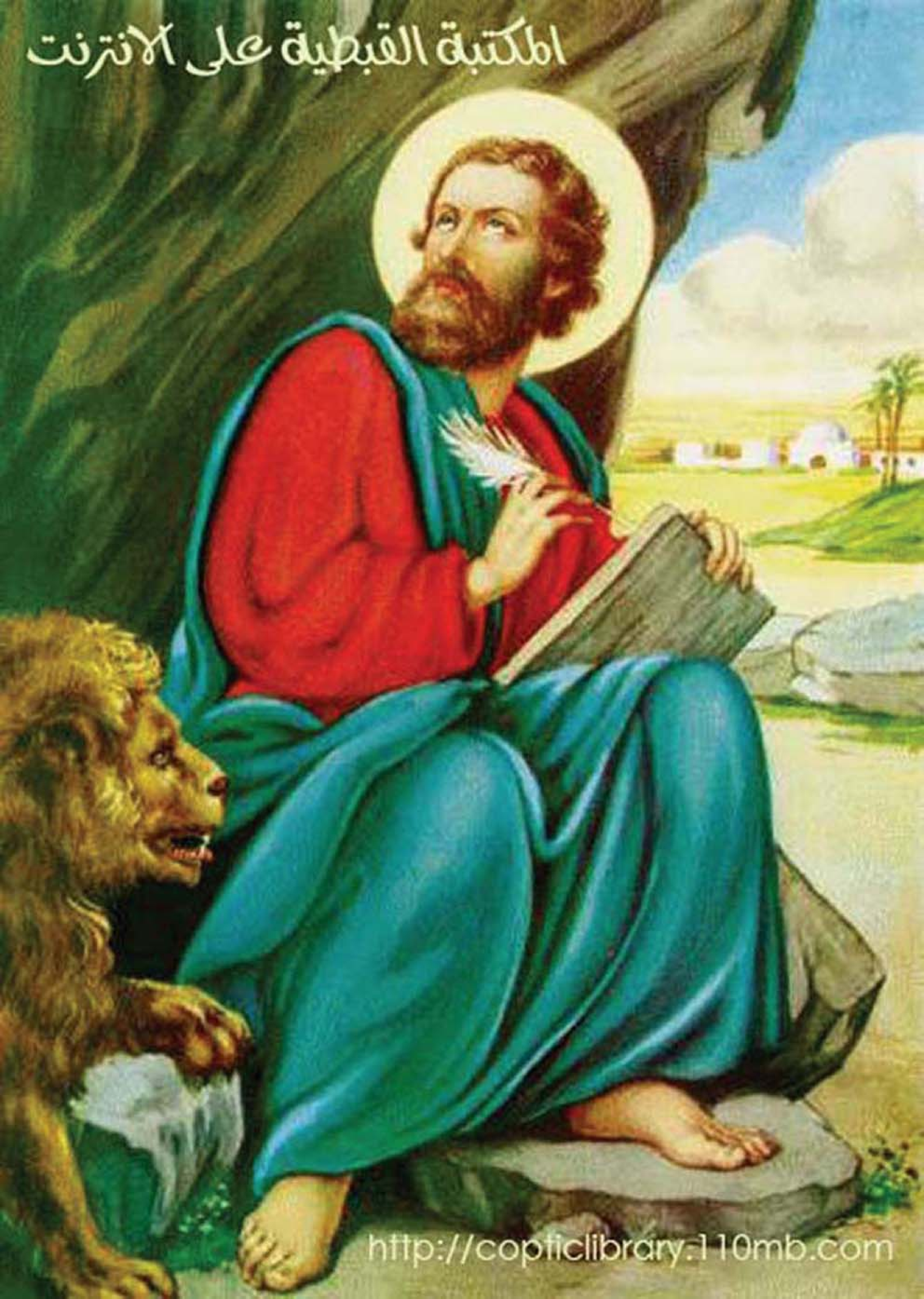
المكتبة القبطية على الانترنت
http://copticlibrary.110mb.com

وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها

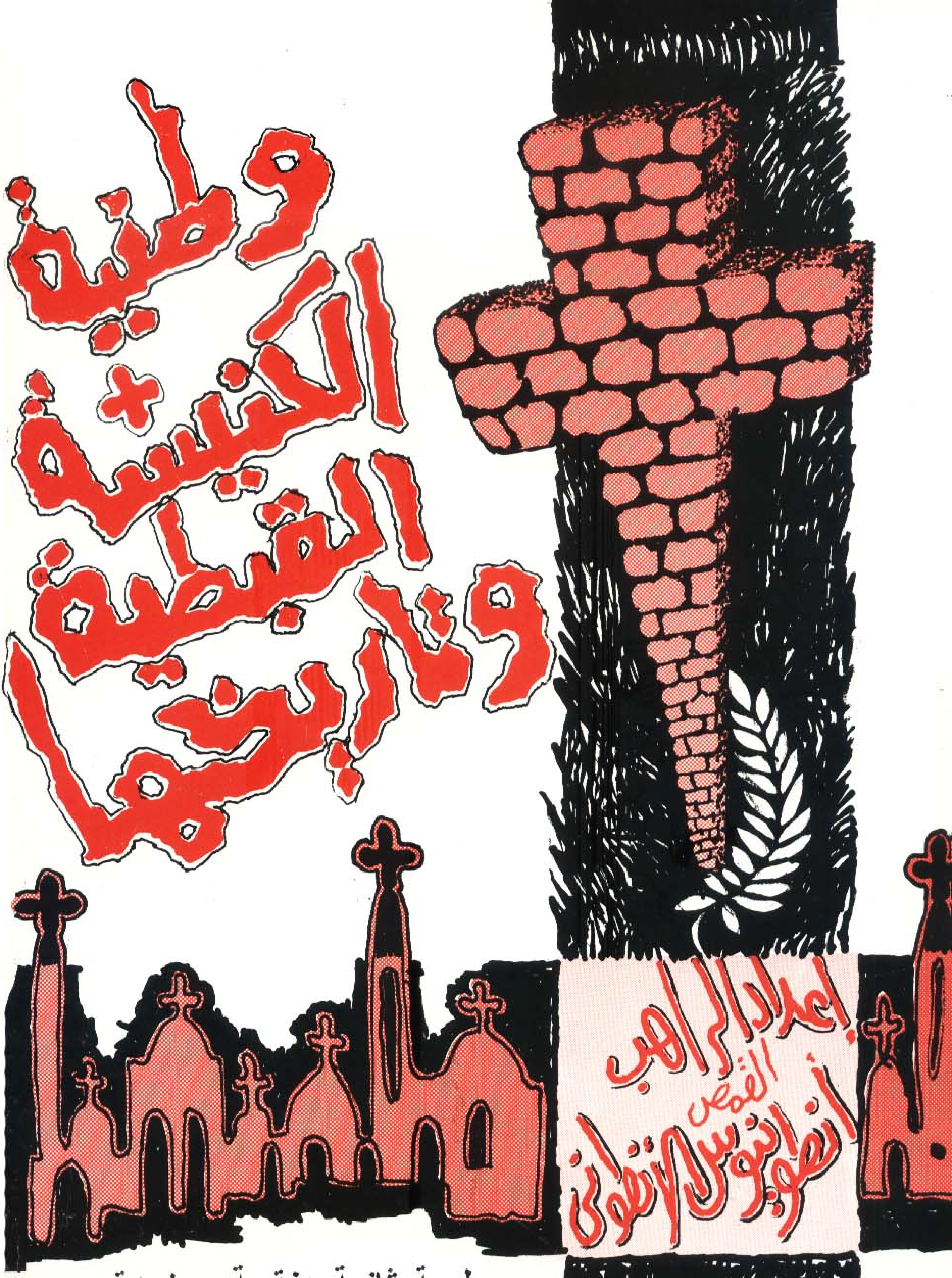

إعداد الراهب
القمص
أنطونيوس الأنطوني

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها

من بعد الآباء الرسل
حتى الانتداب البريطانى على مصر
(منذ عام ١٥٠ م إلى عام ١٨٨٢ م)

إعداد

الراهب القمص
أنطونيوس الأنطونى

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

قداسة البابا شنوده الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

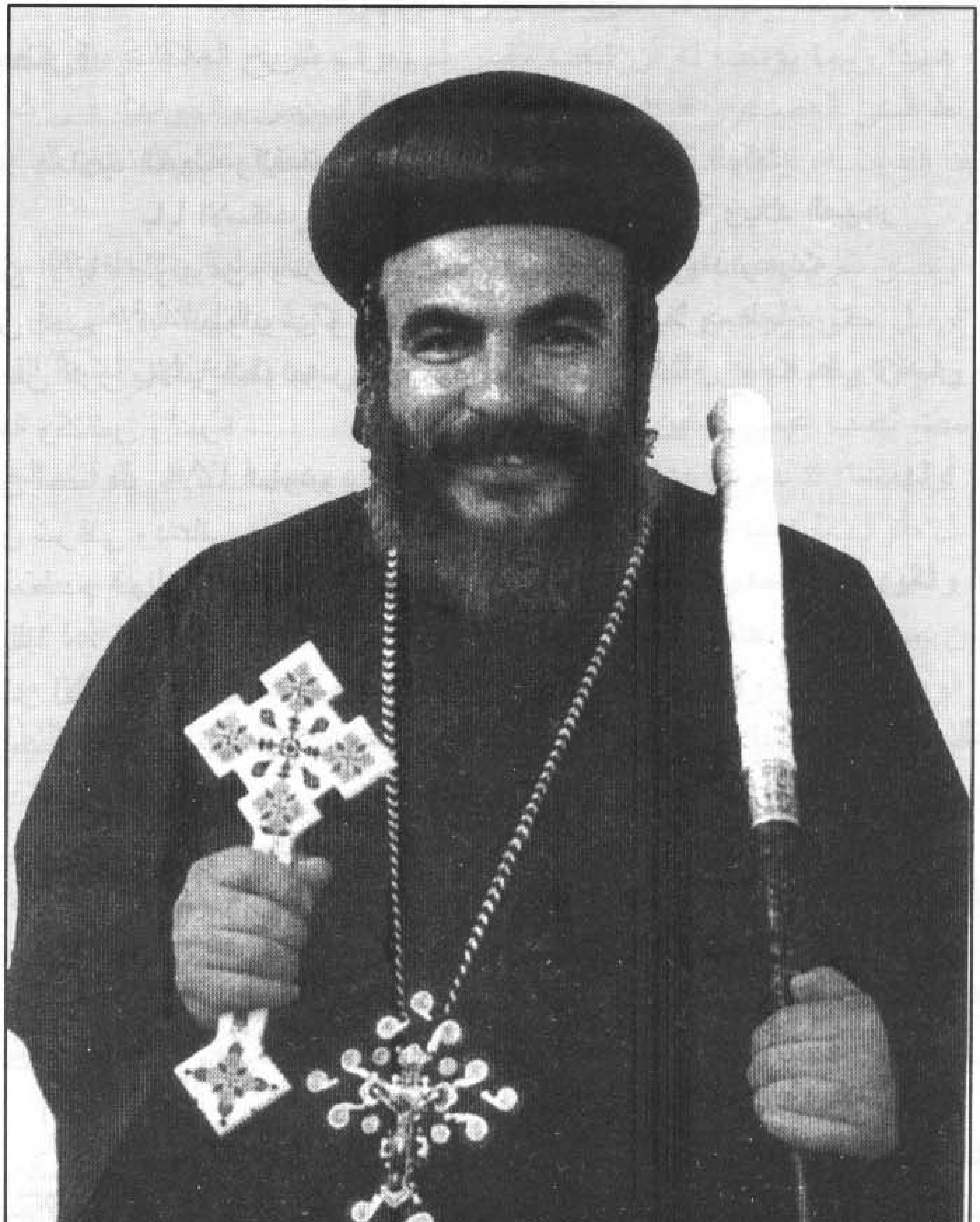

نيافة الحبر الجليل **الأنبا يسطس**

اسقف ورئيس دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر

إهـــــــداء

بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

إلى حضرة

صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية وبلاد المهجر

إلى ابن الأنبا أنطونيوس، ومن تسمى بهذا الاسم المطوّب منذ رهبنته ....
إلى من أحب الأنبا أنطونيوس وعاش حياته متأملاً وعاملاً ومعلماً ....
إلـــى من كرز بالأنبا أنطونيوس بطرق وأنواع شتى وأطلق أسمه على رهبان وكهنة وأساقفة وكنائس وأديرة ....
إلى من أحب دير الأنبا أنطونيوس ورعاه.
إلى من شرفنى ودعانى بالاسم المطوّب.
إلـــى معلـــم الجيل وكل الأجيال ورائد التعليم الإكليريكى فى مصر وأمريكا وأوروبا واستراليا ...
إلى فخر الأقباط فى كل مكان ... بعلمه وعمله ...
إلى واضع لبنة إعادة وحدة كنيسة المسيح فى وثيقة دير الأنبا بيشوى ووحدة الكنائس الأرثوذكسية ...
إلى أب رهبان جيلنا والأجيال القادمة ...
إلـــى بطل الأرثوذكسية وحامى الإيمان الرسولى وذهبى الفم لجيلنا الحاضر والأجيال القادمة ...
إلـــى النجم الساطع الذى استنارت الكنيسة والإكليركية والعالم أجمع من علمه الغزير ومن حكمته السامية ومن إدارته المثالية

أهدى ...

قبسا من علمه الغزير ونبتا من غرسه النامى العتيد طالبا صلواتكم عنى وعن كل أبناءك الرهبان فى كل المسكونة بفضل مؤازرتكم وتعاليمكم.
أدام الله لنا وعلينا حياتكم وقيامكم ثابتاً على كرسيكم سنين عديدة وأزمنة هادئة مديدة.
الرب عن يمينكم.آمين.

أبنكم الراهب
القمص أنطونيوس الأنطونى

المقدمـــــة

عاشت المسيحية فى مصر فى جو ساده الاضطراب والقلق. ولا غرابة حينئذ إذا رأينا الكتّاب والمؤرخين قد عكفوا مبكرين على سرد تاريخها.

هــذا ومما يؤسف له أن شعب مصر لم يعرف تاريخ العلاقات بين المسلمين والأقـباط فـى العصـور السابقة إلا عن طريق الأقاصيص والحوادث التى شوهتها الأحقـاد القديمـة، ونقلها ــ أو بالغ فيها ــ أناس لم يعتمدوا على المنطق السليم فى تفكيرهم.

ومــن ثم شرعت فى كتابى هذا (وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها) من بعد عصر الرسل حتى ثورة عرابى. لإيضاح الحقائق وإجلائها والتى تدل على أن تاريخ الخلفاء والولاة والسلاطين والأمراء وأتباعهم فى مصر هو تاريخ قهر للأمة القبطية.

وقد وضعت نصب عينى هدفين: -

أولهمــا: تدعيم الوحدة الوطنية وهو هدف كل مصرى لا فى الوقت الحاضر فحسب بل طوال تاريخنا كله.

وثانيهما: التصدى لعملاء الاستعمار وسيئى النية والحاقدين والدساسين الذين لا يفتأون يسيئون إلى هذا الوطن، بترديد دعوى أن المسيحيين تواكلوا دائما عن أداء دورهم الوطنى، بل كانوا فى أوقات كثيرة دعائم الاستعمار الأجنبى، والادهى من ذلك أرادوا طمس أعلامهم الخفاقة فى الوحل، بتشويه الحقائق وقلب الأوضاع، للنيل بمن برز نجمهم أمثال الجنرال يعقوب، وآخرين ...

والكـتاب هــو دراسة علمية لتبيّن الحقيقة المجردة من كل زيف، وفى نفس الوقت تحليل وإبراز للحوادث الهامة التى تدعم روابط الوحدة الوطنية، معتمدين على وقائع مشهود بها فى أمهات الكتب الإسلامية كابن الحكم والمقريزى والجبرتى وكتّاب مسلمين معاصرين مثل د.سيدة إسماعيل كاشف ود.قاسم عبده قاسم وأحمد صادق سعد ومحمــد عمــارة والأستاذ أبو سيف يوسف وآخرون...بالإضافة إلى المراجع القبطية والأجنبية.

والكـتاب أيضـا مـرآة يعكـس أحداث التاريخ، وبذلك يهم القارىء المصرى عامة والقبطــى خاصة لأنه يوضح للأقباط سلالة المصريين القدماء كيف أصبحوا أقلية فى بلدهم، ولماذا تدهورت قوميتهم وانقرضت لغتهم.

هــذا وإن كـنت قد ألمحت إلى الجور الواقع بالأقباط فى بعض فترات التاريخ، فانى أرجو بذلك هدفين:

الأول: أن ذلــك الظلــم لم يكن الصفة الغالبة والسياسة العامة، بل هى دوافع شخصية، ومواقف فردية، لبعض الحكام من الولاة والسلاطين أو ربما استجابة للدول الأجنبية.

الثانى: هو أن يشكر الأقباط الله على ما هم فيه الآن من أمن وطمأنينة وسلام

وحـــرية يحســـدهم عليها كثيرون ... وأن يحرص المسلمون على أن لا تتكرر هذه المظالم فى المستقبل لأخوتهم الأقباط.

وخلاصـــة القول إن هذه الدراسة لا تهدف كما يتصور البعض إلى إذكاء نار عـــداءات قديمة لما حوته من أحداث أليمة، ذلك لأن الأهواء الدينية فى الشرق لم تفقد مـــن حـــدتها بـــين المسلمين والأقباط وإن كانت فاترة فى الظاهر فإن القلق المكبوت مـــازال جاثماً، رغم التصريحات الرسمية وحسن استعداد الرؤساء والقادة فى التعاون لإزالـــة ما فى النفوس من ضغائن ليتحد العنصران، إذ أن الإتحاد أول الأسس المتينة لانتشار الآمن والأمان والسلام والاطمئنان بين أفراد الشعب الواحد.

وفـــى هذا الوقت الذى يحبذ فيه نخبة من المسلمين بعث الإمبراطورية العربية القديمة مـــن مـــرقدها فإننا لا نشك إطلاقاً فى ترحيب عدد كبير من أقطاب السياسة بكل ما يساعدهم على فهم الأوضاع الصحيحة وتوجيه تفكيرهم فى سبيل المحافظة على الوئام بين الأقباط والمسلمين ولنأخذ منها دروسا متعددة تفيدنا نحن والأجيال القادمة.

أخيراً عزيزى القارئ:

أرجـــوا مـــن الله كل منفعة لك بشفاعة كلية الطهر والقداسة العذراء مريم والدة الإله المكـــرمة وكاروزنـــا المحبوب القديس العظيم ناظر الإله الإنجيلى الشهيد مارمرقس والقـــديس العظيم الأنبا أنطونيوس أبو جميع الرهبان وبصلوات أبينا الطاهر والقديس صـــاحب القداســـة والغبطة البابا المعظم ذهبى فم القرن العشرين الأنبا شنودة الثالث وشـــريكه فى الخدمة الرسولية أبينا الأسقف المكرم الأنبا يسطس أسقف ورئيس دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس أطال الله حياتهما لنا سنينا عديدة وأزمنة هادئة مديدة.

إعداد

الراهب القمص

أنطونيوس الأنطونى

عيد النيروز ـــ توت ١٧٢١ ش / ١١ سبتمبر ٢٠٠٤ م

تمهيـــــــــــــد وشكـــــــــــر

هــذا الكـــتاب يؤرخ لجزء من تاريخ بلدنا مصر ولشعب هو شعب مصر فى حقبة من تاريخه.والأقباط أولاً وقبل كل شيء مصريون. وبالتالى فهم قطعة أصيلة فى نســيج الكــيان المصرى الذى يجمع بينهم وبين إخوانهم المصريين المسلمين، أما أن الأقـــباط مسيحيون فالمسيحية عقيدتهم وديانتهم، أما من حيث عرقيّتهم وجنسيّتهم فهم المصـــريون الوارثـــون مـــع مواطنـــيهم المسلمين لأعرق حضارة إنسانية تمتد إلى "مصـــرايم" بن حام بن نوح (تك ٦:١٠، ١٣)، (تك ١١:٥٠)، (أخبار أيام أول ٨:١، ٩) وإلى مصرايم يرجع اسم مصر.

وحقـــاً ما قاله الرئيس الراحل السادات فى إحدى خطاباته " إن الأقباط من نسيج هذا البلد مصر " وما قاله الدكتور طه حسين "الكنيسة القبطية مجد مصرى قديم"

ومـــن هنا فإن هذا الكتاب " وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها" يهتم بتاريخ أقباط مصر والمصريين جميعاً أقباطاً ومسلمين.

وإذ أضع هذا الكتاب بين يدى الله لا يفوتنى أشكر من أعماق قلبى كل الآباء الذين لم يدخروا جهدا فى تنسيق هذا الكتاب ومراجعة كلماته، وأخص بالذكر الآباء الموقرين المحبوبين أبونا القمص رويس الأنطونى وأبونا القمص شنودة الأنطونى وأبونا القس ويصـــا الأنطونى وأبونا الراهب شيشوى الأنطونى وأبونا القس شنودة مرقس راعى كنيسة السيدة العذراء والشهيد مار جرجس بمنطقة غبريال ـ بالإسكندرية ...

كما أشكر الأستاذ يوسف سيدهم رئيس تحرير وطنى والأستاذ مجدى خليل والدكتور سليم نجيب عضو المنظمة المصرية لحقوق الإنسان وعضو الرابطة الدولية للقانونيين والأســـتاذ ســـامح فوزى الباحث والكاتب والأستاذ فخرى فايق، لتعبهم وتشجيعهم فى إصـــدار هذا الكتاب. راجيا من الرب يسوع أن يبارك حياتهم ويعوض تعب محبتهم خيرا.

الراهب القمص
أنطونيوس الأنطونى

أصل الأقباط أو المصريـــــين

الأقباط هم بقايا تلك الأمة المصرية العريقة فى الحضارة التى اجمع الكل على إنهـــا أقـــدم الأمم فى المدنية واسبقها إلى التمدن. وقد شهدت التواريخ على إنها هى السبب الوحيد والعامل الأكيد على إيجاد التمدن فى العالم وانتشاره على وجه البسيطة.

+ ومصـــر اســـم لـــتلك البلاد التى كانت استوطنتها هذه الأمة ، وهى كلمة عبرانية الأصل مشتقة من مصرايم بن حام بن نوح الذى أتى بعشيرته إلى وادى النيل واتخذه مقرا له ولأولاده من بعده وذلك عقب تبلبل الألسنة ببابل وتفرق أولاد نوح على وجه الأرض كمـــا جـــاء فى التوراه، ومن هنا كانت تسمية سكان وادى النيل (المصريين) نسبة إليه.

+ أمـــا اســـم مصر فى اللغة القبطية فهو كيمى (xhui)أو "خيمى " أو " حيمى " وهـــى تسمية مشتقة من كلمة "كيم " ، ويذهب البعض إلى أن " حيمى " نسبة إلى حام والـــد مصرايم كما سمى الوادى فى لغة التوراة " أرض حام " وقد تكون محرفة عن كلمة "كام " ومعناها أسود" إشارة إلى سواد تربته".

+ ويسمى الإفرنج هذه البلاد مصر " EGYPTE" (ايجيبت) وقد نقلوا هذه التسمية عن اليونان الذين أطلقوا عليها اسم " Aiguptos" تحريفا للكلمة المصرية " هاكابتاح " المركبة من "ها" بمعنى بيت أو معبد و "كان" بمعنى روح و "بتاح" وهو الإلة " فتاح" معـــبود " منف".وهذه الكلمة بتاح احد أسماء منف عاصمة مصر ثم أطلق اسم (ها كابتاح) على القطر كله.

وإن لفـــظ ايجبتوس مركبة من كلمتين (اى) بمعنى أرض أو دار و(جيبتوس) أى (قفـــط) أو (جفط) كما ينطقها أهل الصعيد للآن فيكون معنى الكلمتين معا أرض القبط أو دار القبط . وقد دعا العرب مصر بهذا الاسم (دار القبط).

و يقـــال إن قبط (جفط) من قفطايم احد أولاد مصرايم، وهو الذى ابتنى مدينه قفط بالصـــعيد الأعلى (وهى اقرب مدن وادى النيل إلى البحر الأحمر) وعليه تكون كلمتا قبطى ومصرى بمعنى واحد.

أى أن القبطى هو المصرى و جمعها أقباط أى مصريون

ومما هو جدير بالذكر

فقـــد قيل أن مصر عند العبرانيين مشتقه من (حر) أى الشدة ويعنون بذلك ما لاقوة مـــن الشدة والعنف فى الاستعباد فيها. والبعض من المؤرخين يدعون أن مصرايم هو مينا أول ملوك مصر ولكن لا دليل على ذلك.

القسم الأول

(١٥٠م ـــ ٦٤١م)

من بعد عصر الرسل

حتى

الاحتلال الفارسى لمصر

مدخـــــــــــل
الأقباط تحت حكم الدولة الرومانيـــة

دخلت مصر فى حكم الرومان فى سنة ٣٠ **قبل الميلاد** وظلت مصر تابعة لهم مـــن ســـنة ٣٠ قبل الميلاد إلى سنة ٦٤٠ م ولم يحدث فى كل هذه المدة الطويلة ما يســتحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية ودخولها مصر فى منتصف القرن الأول للميلاد على يد البار مرقس الانجيلى ودخول الناس أفواجا فيها، كما ظهرت بعد ذلك مدرسة الإسكندرية اللاهوتية واشتهرت أساتذتها وعلماؤها على مستوى العالم أجمع.

ولا يمكـــن أن ننســـى الاضـــطهاد الـــذى أثارة دقلديانوس قيصر روما ضد المســيحيين عموما والمصريين خصوصا، حينما جاء إلى مصر وما ظهرت فيها من نماذج رائعة من الشهداء رجالا كانوا أو نساء أو أطفال.

كمـــا لـــم تســلم المسيحية أيضا من تشويه على يد الاميين الداخلين الإيمان فقامت محـــاولات مـــن جانب بعض المفكرين والفلاسفة الداخلين حديثا فى الإيمان المسيحى لتفســـير المسيحية على ضوء الآراء والفلسفات الوثنية لتقريبها للعقول فنتج عن ذلك انحـــرافات فكرية وعقيدية كثيرة . أضف إلى ذلك ضعيفى الإيمان أو ذوى المطامع الـــذين حاولوا تكييف المعتقدات المسيحية على مقتضى تصورهم أو هواهم محتجين تارة بطبائع الأشياء أو متشبثين تارة أخرى بالنص الحرفى لآية من آيات الإنجيل مما أعثر البسطاء فى الإيمان.

كان أمرا طبيعيا أمام هذا أو ذاك _ أن تواجه الكنيسة المسيحية هذه المشكلات الإيمانية العقيدية مجتمعة وكان لابد أن تجد لها حلاً ، ولا تعطى لها حِلاً.

لذلك أخذت الكنيسة منذ أول عهدها بمبدأ حل المشاكل بواسطة " مجامع دينية " وعلـــى هـــذا فـــيمكن القـــول أن فكرة المجامع قد انبثقت فى الكنيسة الأولى لحل المشـــكلات الإيمانـــية.وهـــذا مـــا سوف نذكره باختصار فى هذا الكتاب عن مدرسة الإســـكندرية وأشـــهر أســـاتذتها بالإضافة إلى فكره مبسطة عن المجامع المسكونية. وســـوف يكـــون حديثـــنا مختصـــرا لان كثيرا من الكتّاب و الكتب تكلمت عن هذه المواضيع باستفاضة وذكرناها كمدخل لتاريخ الكنيسة على مر العصور وليس ابلغ من التاريخ حجة ومن الوقائع ، سنداً ، ومن الأحداث دليلاً.

الباب الأول
مدرسة الإسكندرية وأشهر فلاسفتها
" الفصل الأول "
مدرسة الإسكندرية اللاهوتية

نشأة هذه المدرسة وشهرتها:

عـندما حضـر مارمرقس الرسول إلى مصر كانت الإسكندرية مركزاً هاماً للـثقافة الوثنـية ومـن مدرسـتها الوثنية ومكتبتها الشهيرة تخرج كثير من الفلاسفة والعلماء – فكان لابد أن يقيم مدرسة لاهوتية لتثبيت الناس فى الدين وترد على أفكار الوثنيين وكان مارمرقس نفسه مثقفاً باللغات العبرية واللاتينية واليونانية وحسب ثقافته أدرك مقـدار خطر الفكر الوثنى وهكذا انشأ مدرسة لاهوتية مسيحية فى الإسكندرية عين لرئاستها العلامة يسطس.

المدرسة الوثنية والمدرسة المسيحية ومدى العلاقة بينهما:

المدرسة الوثنية هى التى أنشأها بطليموس الأول ملك مصر وقد بلغت ذروتها فـى العلوم والفلسفة فى القرن الأول للمسيحية ولم توجد مدرسة تعادلها فى دراستها الطبيعـية والعلمـية فـى الطب والتشريح والرياضة والفلك من أجل هذا كانت هذه المدرسـة منافسا للمدرسة المسيحية. ومع ذلك عاشت المدرستان جنباً إلى جنب لكل منهما طابعه الجامعى الخاص.

ولكن هدف التعليم فى المدرستين يختلف:

أولا: هـدف الدراسـة فى المدرسة الوثنية هو الوصول إلى مركز مرموق فى الدولة بيـنما فـى المدرسة المسيحية لم يكن هدفاً على الرغم من أن خريجى هذه المدرسة كانوا يصلحون لذلك.

ثانـيا: كـان مسـتوى طلبة المدرسة الوثنية الاخلاقى وكذلك الأساتذة منحطا بعكس المدرسة المسيحية فالأخلاق كانت من أبرز مميزات المدرسة أساتذة وطلبة.

ثالـثا: إن الفلسـفة والعلوم كانت تدرس فى المدرسة الوثنية بقصد الثقافة بينما كانت تدرس فى المدرسة المسيحية لغرض دينى.

رابعـا: كـان طلبة المدرسة الوثنية من مستوى ثقافى واجتماعى معين والطلبة كانوا ذكـورا فقـط عكـس المدرسـة اللاهوتـية كـان التعلـيم عامـا للجميع لا تميز بـين السـيد والعـبد والذكر والأنثى الجميع واحد فى المسيح يسوع بالإضافة إلى أن سـنوات الدراسـة فى المدرسة الوثنية كانت محدودة عكس المدرسة اللاهوتية فكانت غير محدودة.

المدرسة اللاهوتية (سماتها ومنهجها وخطة الدراسة فيها):

كان فلاسفة الوثنيين يدرسون الكتاب المقدس لكي يناقضوه ويشككوا الناس فيه ولــذلك وقفت المدرسة اللاهوتية تناهض الوثنية بكل طاقاتها وأصبح لها دور هام فى المنافســة الفكرية حتى أنها أدخلت فى برامجها الفلسفة الوثنية بشتى فروعها على يد القــديس اكليمنضــس الإسكندرى (حتى تستطيع أن ترد على هجمات الوثنيين) كما نــادى القديس اكليمنضس بأن الفلسفة خادمة لعلم اللاهوت وارتقت المدرسة اللاهوتية فــى دراسة الفلسفة حتى كان يستمع إلى محاضراتها امونيوس السقاف زعيم فلاسفة الوثنيين.

أما عن خطة الدراسة ونظامها فى الدراسة اللاهوتية:

* لــم تكــن الدراسة بالمدرسة اللاهوتية دراسة عقلانية كما توهم البعض لكن كانت هناك رياضيات روحية فكانوا يصلون ويقرأون ويصومون.

* وقــد كانت الاكليريكية فى عهدها الأول مدرسة دينية مسيحية تعتنى بشرح التعليم المسيحى وتبسيطه بطريقة السؤال والجواب.

وكان طلابها من ثلاثة أنواع:

١ – فريق كان وثنياً يريد أن يعرف الحقيقة (حقيقة المسيحية) فيفتش عليها بالدراسة فى هذه المدرسة.

٢ – الفــريق الثانى من كان وثنياً وأمن بالمسيحية ولكنه لم يكن قد حصل على سر المعمودية (أى كان فى صفوف الموعوظين) وما زال يدرس ويؤدى امتحانات حتى إذا جاز الامتحان النهائى يسمح له بالعماد.

٣ – الفريق الثالث والأخير وهم المسيحيون، ولكن للدخول للعمق أكثر، ولكى يزداد رســوخاً وإيمانا يدرس فى هذه المدرسة، ولكى يتمكن من الخدمة فى الكنيسة والعمل على نشر المسيحية.

ولقــد تناظر أساتذة وعلماء المدرستين الوثنية واللاهوتية وكان نتيجة لذلك أن اهتمت المدرســة اللاهوتــية بدراســة العلوم والثقافات المختلفة فقد أدخلت فيها علوم الطب والكيمــياء والطبــيعة والحســاب والهندســة والفلك والجغرافيا والتاريخ والموسيقى واللغات.

* ولــم يكن للمدرسة الاكليريكية اللاهوتية فى عهودها الأولى مبنى خاص إنما كانت مركــزة فى علمائها. وحيثما يوجد أستاذها كانت توجد المدرسة – وكان الأستاذ يأخذ تلامــيذه فــى بيته الخاص. وقد ذكر عن العلامة أوريجانوس أشهر أساتذتها أنه كان يستأجر قاعات ليعظ فيها فى أيام الاضطهاد والاستشهاد فلما كانت تلك القاعات تحطم بســببه كان يستأجر غيرها أو يعلم فى أى مكان . وقد كان الأستاذ له الحرية أن يعلم طلبــته كمــا يتهيأ له الظروف أو كما توصى إليه طبيعته الخاصة أو حاجة الطلاب وظروفهم.

ولكن بعد ذلك بدأت الاكليريكية تعد منهج خاص للدارسين ينقسم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

مرحلة العلوم فيها يدرسون الهندسة والفسيولوجيا والفلك (هذه الدراسة لتنمية ملكات الاستدلال والملاحظة والنظام).

المرحلة الثانية: -

دراسة الفلسفة وأقوال الفلاسفة وتفسيرها.

المرحلة الثالثة: -

مرحلة دراسة العلوم اللاهوتية وكان المنهج الجدلي هو المنهج المتبع في دراسة اللاهوت. هكذا كان لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية أهمية خاصة حتى أن الإمبراطور ثيؤدوسيوس قال مرة " أن الذي يهرب من هذه المدرسة يعد كافراً ".

مدرسة الإسكندرية والتفسير الرمزي:

كان عمل المدرسة الرئيسي هو شرح كلمة الله بطريقة روحية وإعلان ما تحمله من أعماق داخلية وراء الرموز. وكانت مدرسة الإسكندرية التعليمية بلا شك أشهر معهد عقلي في العالم المسيحي الأول وكان اهتماما منصبًا على دراسة الكتاب المقدس وقد ارتبط اسمها بالتفسير الكتابي.

دور المدرسة في حياة الكنيسة وآثار طلابها وخريجها وأساتذتها: -

كانت المدرسة جزءا لا يتجزأ من الحياة الكنسية وقدمت ضوءا جديداً على أهمية العلم والتعليم بوجه عام كما خلقت قادة في الفكر وفي العمل الكنسي الرعوي على المستوى المحلي والمسكوني.

١ - إهتمام المدرسة بالفلسفة اليونانية تنزع عنها أي نظرة ضيقة نحو المسيحية كتراث اقليمي يرتبط بجماعة محلية أو ثقافة خاصة وبهذا ربحت الكنيسة نفوس كثيرة للسيد المسيح من عينات مختلفة على كافة المستويات الفلسفية والفكرية.

ووصف " شان " قدرة المدرسة على الكرازة بين الفئات المتباينة خلال اتساع نظريتها قائلاً كانت من جهة حصنا للكنيسة ضد الأشرار .. ومن جهة أخرى كانت جسراً للعبور من العالم إلى الكنيسة.

٢ - هذا الاتجاه جعل من أساتذة المدرسة رجالاً مسكونيين (أمثال اكليمنضس وأوريجانوس) وفي القرون التالية حمل رجالها أمثال القديس اثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير مسئوليات كنسية على مستوى مسكوني.

وجاء من تلامذتها قادة فكر مسيحي أمثال القديس غريغوريوس أسقف نيصص الذي يفتخر دوما بمعلمه القبطي العلامة أوريجانوس.

٣ - استطاعت المدرسة أن تروى ظمأ المسيحيين بالإسكندرية نحو المعرفة الدينية وتحثهم على الدراسة والبحث وبهذا ساهمت فى إنشاء أول نظام للدراسات اللاهوتية فى العالم أو كانت بحق " مهد اللاهوت المسيحى " منها خرج رجال قادرون على الرد أمثال كليمنضس واوريجانوس والدفاع ضد الاريوسية مثل القديس اثناسيوس وضد نسطور مثل القديس كيرلس الكبير.

٤ - قيام هذه المدرسة أعطى إمكانية الحصول على التعليم الذى تقدمه المدرسة الوثنية العظمى لكن بواسطة معلمين مسيحيين.

المدرسة الاكليريكية والكرسى المرقسى:

عندما انشأ القديس مارمرقس المدرسة الاكليريكية كان قد أمن برسالتها وانه لا يمكن أن تعيش الكنيسة بدونها " لان الكنيسة لا تعيش بدون اللاهوت " لذلك انشأ هذه المدرسة وعين القديس انيانوس أول أسقف لإدارتها وبعد ذلك تولى إدارتها فى أواخر حياة مارمرقس أساتذة ومديرون اشتهروا بالعلم والتقوى والغيرة الكبيرة على خدمة كلمة الرب كما شهد لهم يوسابيوس.

واختير منهم الكثيرون للكرسى المرقسى وبخاصة إن الرهبنة لم تكن قد ازدهرت ولا حتى قد ظهرت فى ذلك الزمان.

وأول مدير لهذه المدرسة اللاهوتية القديس العلامة يسطس الذى جلس على كرسى مامرقس وصار السادس فى عداد البطاركة. وعين القديس امونيوس مديرا للمدرسة - ولما جلس امونيوس " السابع على الكرسى المرقسى عين مركيانوس لإدارة المدرسة وصار مركيانوس الثامن فى عداد البطاركة.

وكان البابا يوليانوس (البطريرك الـ ١١) من تلاميذ هذه المدرسة اللاهوتية وفى عهد البابا ديمتريوس (البطريرك الـ ١٢) تعين ياروكلاس مديرا للمدرسة بعد أوريجانوس وصار البابا الثالث عشر وفى عهده عين القديس ديونسيوس للتدريس فى المدرسة اللاهوتية وصار هو أيضا البابا الرابع عشر وكان ياروكلاس وديونسيوس من تلاميذ أوريجانوس.وتخرج من هذه المدرسة أيضا البابا بطرس (البطريرك الـ ١٧) خاتم الشهداء والبابا ارشيلاوس (البطريرك الـ ١٨) والبابا اثناسيوس (البطريرك الـ ٢٠) والبابا تيموثاوس (البطريرك الـ ٢٢)

فقد كان التقليد الجميل المتبع أن مدير الاكليريكية هو الذى يعين بطريركا لعمق روحانياته ولسعة دراساته اللاهوتية...أى أن مدير الاكليريكية يعتبر الرجل الثانى بعد البطريرك.

وعن طريق هذه المدرسة حفظت التعاليم اللاهوتية المسلمة بالتسليم الرسولى والتقليد دون حذف أو زيادة ولذلك كان باباوات هذه الكنيسة هم الذين يرأسون المجامع

المســكونية لان هذه الكنيسة بفضل مدرستها اللاهوتية كانت معلمة المسكونة كلها فى اللاهوت الارثوذكسى. لذلك فقد نجحت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية فى قيادة الكنيسة الجامعــة إذ أن أبطالهــا فى المجامع المقدسة من خريجى هذه المدرسة الذين درسوا اللاهــوت الارثوذكســى دراســة خالية من الهرطقات لذلك كان الاتجاه الفكرى فى الإســكندرية مطــبوعا بنظــرة تصــوفية كما كان الاتجاة فى تفسير الكتاب المقدس بالإضافة إلى المعنى الحرفى كان هناك معنيين آخرين وهما المعنى الرمزى والمعنى الروحى.

المدرسة الاكليريكية والكنائس (الكراسى) الأخرى:

لــم يقــف عمل المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية على حد تخريج البطاركة أو أبطـــال المجامع المسكونية ولكن عملها امتد خارج الكرازة المرقسية، فقد تخرج من هذه المدرسة كثير من الأساقفة المشهورين لإيبارشيات خارج الكرازة المرقسية ومن أمثلــتهم القديس اغريغوريوس العجائبى الذى كان قد آمن على يد أوريجانوس وصار تلمــيذاً لــه وكتب رسالة كبيرة يمتدح فيها ما قاله من دراسة عميقة فى المدرسة وما أخذه من قدوة صالحة من الأساتذة.

وكثيرون لم يتتلمذوا شخصيا فى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ولكنهم تتلمذوا علــى كــتب علمائهــا ومن هؤلاء القديسين باسيليوس الكبير واغريغوريوس الناطق بالإلهــيات ويوحــنا ذهبى الفم الذين تتلمذوا على كتب أوريجانوس ودافعوا عنه وقد احتمل ذهبى الفم المحاكمة فى سبيله ومن هنا جاء تسمية بطاركة الإسكندرية " بقضاة المسكونة ".

علماء المدرسة وفلاسفتها الأفذاذ:

*مــن علمــاء هــذه المدرســة المشهود لهم الفيلسوف اثيناغوراس وهو من المدافعين المشهورين عن المسيحية وعقائدها.

ومــن فلاســفتها أيضــا القديس بنتينوس الذى بشر فى الهند وبلاد العرب. والذى له الفضــل الكبيــر علــى اللغــة القبطية. ثم القديس اكليمنضس الإسكندرى الذى آمن بالمســيحية علــى يــد بنتينوس وصار من أشهر علماء المسيحية ووضع كتبا عديدة اشهرها المتفرقات (Stromats)

*وخلــف هذين العالمين القديسين العلامة أوريجانوس أشهر فلاسفة المسيحية وكــتابها فــى شتى العصور، وهو يعد من علماء المدرسة الرمزية فى التفسير وسار على منهجه فيما بعد القديس اوغسطينوس.

*ومن علماء المدرسة أيضا البابا ديونيسيوس (البطريرك الــ ١٤) وقد اعتبر حجــة فــى اللاهوت ومن العلماء الأفذاذ الذين تخرجوا منها البابا القديس اثناسيوس

الرسولى(البطريرك الـ ٢٠) الذى يعتبر أبا لجميع علماء اللاهوت والذى وضع قانون الإيمان المسيحى وتزعم الدفاع عن لاهوت الابن فى مجمع نيقية وباقى أيام حياته، ووضع كتباً كثيرة اشهرها " الرد على الاريوسيون " وتجسد الكلمة " والرسالة ضد الوثنيين " ورسائل عن الروح القدس وحياة القديس انطونيوس وقد نقل هذه الكتب الأربعة الأخيرة إلى اللغة العربية الآب الموقر المتنيح القمص مرقس داود راعى كنيسة مارمرقس بحدائق شبرا.

*وفى عهد القديس اثناسيوس الرسولى تولى قيادة هذه المدرسة اللاهوتية العالم الكبير القديس ديديموس - وقد اشتهر بعلمه الكبير حتى أتى القديس جيروم ليدرس على يديه بالإسكندرية وترجم له كتابه عن " الروح القدس " إلى اللاتينية كما امتدحه القديس انطونيوس الكبير وقال له لا تحزن يا ديديموس لفقدك بصراً جسدياً يوجد لدى الحيوانات والحشرات لكن ينبغى أن تفرح أن لك عينان روحانيتان تستطيع أن تنظر بهما نور اللاهوت. وقد امتاز ديديموس بقوة إقناعه وبأدبه الجم فى مناقشاته اللاهوتية حتى درس عليه كثير من فلاسفة الوثنيين وخلف لنا كتباً كثيرة فى اللاهوت والعقيدة والتفسير.

* ومن الأساتذة الآخرين لهذه المدرسة ثاؤغنست وبيروس والقديس ديونسيوس ولقد لقب بيروس لعمق علمه بأنه (أوريجانوس الجديد) وتولى قيادة المدرسة أيضا سرابيون ومقار قبل القديس ديديموس ورودون فى عهد البابا كيرلس الكبير(البطريرك الـ ٢٤).

ومن أكثر الذين قاموا بترجمة تاريخ علماء المدرسة اللاهوتية يوسابيوس القيصرى وفى الوقت الحاضر نيافة الحبر الجليل مثلث الرحمات الأنبا اغريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمى وجناب الأب الورع القمص تادرس يعقوب ملطى كاهن كنيسة مارجرجس بسبورتنج سابقا .

اضمحلال المدرسة اللاهوتية: -

وبالحقيقة كانت الكنيسة مزدهرة ونامية طوال العصور التى ازدهرت فيها مدرسة الإسكندرية إذ كانت مصدرا للنور والمعرفة اللاهوتية والدينية لا يمكن الاستغناء عنه وكانت أيضا سر القوة الخفية وراء كنيسة الإسكندرية فى القرون الخمسة الأولى - إذ هو سر شهرة باباواتها وبطاركتها إذ كانوا يحسبون كحراس للإيمان الارثوذكسى وبسبب اتساع علمهم كانوا شغوفين بالمعرفة فحسبوا " معلمى المسكونة " وكانت لهم الكلمة الأخيرة الفاصلة.

وفى أواخر القرن الخامس الميلادى ضعف الإقبال على المدرسة اللاهوتية وأصابها الذبول والانحلال وقد رأينا العلامة رودون وهو أخر مدير للمدرسة نقلها من الإسكندرية إلى صيدا.

وأخيـرا بعـد أن كانت المدرسة منارة للمسيحية فى العالم كله بدأت تضعف نتيجة انقسام الكنيسة فى مجمع خلقدونية المشئوم سنة ٤٥١ م وهكذا تخلفت المدرسة وانتقل التراث العلمى واللاهوتى إلى الأديرة فى وادى النطرون.

اكليريكية القاهرة بالأنبا رويس امتدادا لمدرسة الإسكندرية:

هكـذا بعـد أن خمـدت ضـياء هذه المدرسة وانطفأ نورها فأصاب الكنيسة المصرية الذهول والضعف فلم يعد لباباواتها ما كان لهم فى العصور المسيحية الأولى مـن الثقافة اللاهوتية التى تمكنهم من قيادة الكنيسة القيادة الحكيمة - وأخيرا لم يصح القـبط لأهمـية هـذه المدرسـة إلا بعد أن جاء البابا كيرلس الرابع المعروف بأبي الإصلاح إذ مهد لإنشاء مدرسة اكليريكية لتعليم رجال الدين فى الفجالة سنة ١٨٦٢ ثم بعـد ذلـك فتح مدرسة اكليريكية سنة ١٨٧٤ وما أن جاء البابا كيرلس الخامس ففتح الاكليـريكية الجديـدة التى لم يستطع سلفه أن يكمل العمل فيها وقد عهد بإدارتها إلى القمص فيلوثيئوس إبراهيم علم الدين الذى كان عالما لاهوتيا شهيرا ولكن هذه النبتة لم تستمر كثيرا إلا بضعة شهور.

ولكـن شاء الرب الإله أن تفتح الاكليريكية من جديد سنة ١٨٩٢ ويديرها المرحوم يوسف بيك منقريوس الذى بعد نياحته عين الأستاذ الارشدياكون حبيب جرجس أستاذا ثـم مديرا لها، ثم بعد نياحته صار القمص إبراهيم عطية مديرا لها حتى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٢ حيث رسم قداسة البابا كيرلس السادس القمص انطونيوس السريانى أسقفاً للمعاهـد الدينية والتربية الكنسية باسم " نيافة الأنبا شنودة " وصار للاكليريكية أسقفاً ودخلت بذلك المجمع المقدس.

وأخيرا رجعت الكنيسة إلى عصورها الأولى حيث مدير الاكليريكية يصير بطريركا كتقلـيدها القديم فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٧١ جلس نيافة الأنبا شنودة أسقف الاكليريكية على السدة المرقسية باسم قداسة البابا شنودة الثالث وأصبح أبو الآباء وراعى الرعاة وراعى الاكليريكية الأكبر أطال الله حياته .

وإننـى أرجو من الرب أن أقدم عرضا سريعا مختصرا ومركزا للقديس أوريجانوس كأشـهر كـتّاب وفلاسـفة ومديرى وعلماء مدرسة الإسكندرية والمسيحية فى شتى العصور .

" الفصل الثانى "
العلامة أوريجانوس

لســت أظن مطلقاً أن كتاباً واحداً يكفى للحديث عن حياة عالم كبير مثل هذا الإنسان الذى وضع من الكتب ما يعجز عقل واحد أن يعيها كلها.

إنـــه لغــز حيــر التاريخ وبسببه تشاجر قديسون مع قديسين بعضهم يهاجمه وبعضـــهم يدافــع عـــنه. لقد تلمذ جيلا بأكمله فى بداية القرن الثالث وتلمذ أجيالا لا تحصى بعد مماته ولا يزال يتتلمذ كثيرون على كتبه.

قـــال عـــنه الكسندروس أسقف أورشليم أنه أمير الشراح للكتب المقدسة وقال عنه القديس اغريغوريوس أسقف نيصص أنه أمير الفلسفة المسيحية وقال عنه كثيرون أنه أستاذ الأساقفة لان أساقفة كثيرون تتلمذوا على يديه.

أنـــه عالم كبير فى الكنيسة لاهوتى من اللاهوتيين المشهورين فى العالم كله وأشهر فلاسفة المسيحية وكتابها فى شتى العصور.

نشأتـــــــه:

عاش أوريجانوس بين سنتى ١٨٥ م - ٢٥٤ م وولد فى الإسكندرية من أبوين مســيحيين وكانـــت أسرته أسره مسيحية متدينة وكان أبوه رجلا عالما وقديسا (وهو يعتبر الوحيد من الآباء الأولين الذى شاء الله أن يولد من أبوين مسيحيين كما شاء أن يمـــنحه نعمة البنوة لأب شهيد) وقد درس على أبيه أولا المبادئ المسيحية مع اللبن ويستفسر منه عن الله وعن الوجود وعن الكائنات، ومما يؤثر عن أبيه انه كان يتسلل إلـــى غرفة نوم أوريجانوس ليلا ويقبل صدر أوريجانوس فى خشوع اعتقادا منه انه مسكن ممتاز للروح القدس، ثم قبض على أبيه ونال إكليل الشهادة.

ولما كان أبوه فى السجن وهو ما يزال صبيا أرسل إلى أبيه رسالة يحثه فيها على الاستشهاد ويشجعه ويقويه.

كان أوريجانوس كثير القراءة: -

كـــان شغوفا بالقراءة عكوفا عليها ولم تكن فى أيامه كتب مطبوعة بل كانت هناك مخطوطات - وقد حدث انه كان يستأجر المكتبات ويبيت فيها الليالى يقرأ حتى تحول أوريجانوس نفسه إلى خزانة كتب.

قـــال عنه القديس جيروم انه كان يقرأ وهو يأكل ويقرأ وهو يمشى ويقرأ فى كل وقت. وامتدت فيه المعرفة إلى حد لا يقاس بالنسبة للأشخاص العاديين وفيما بعد عندما كان يحاضر كان يمكنه أن يملى على عدد من النساخ فى وقت واحد.

أوريجانوس المعلم:-

اضطر أوريجانوس إلى أعالة أسرته بعد وفاة أبيه فإشتغل بالتعليم حتى أشتهر أمره فاستدعاه البابا ديمتريوس الكرام (الـ ١٢) وولاه أستاذيه المدرسة الاكليريكية فصار ناظراً لها بعد كليمندس.

واستطاع أوريجانوس أن يعلى من شأن الاكليريكية ويجعلها منارة للعلم فى العالم المسيحى كله يقصدها الناس من كافة البلاد وادخل فيها علوم الرياضة والطبيعة والفلك والموسيقى.وهكذا نال أوريجانوس شهرة عظيمة ما بعدها شهرة فى العالم كله. وقد حقد الوثنيون على أوريجانوس واعتبروه عمود المسيحية فى جيله فيجب القضاء عليه وهكذا طاردوه فى كل مكان.

ولم يكن للاكليريكية مكان ثابت فى عهده وإنما حيثما يوجد أوريجانوس تكون هـذه هى الاكليريكية. فالاكليريكية كانت هى الأستاذ وليس المبانى.وكان أوريجانوس يستأجر القاعات ليلقى فيها دروسه فكان يهجمون عليها ويحطمونها فيلجأ إلى غيرها حتـى رفض أصحاب القاعات أخيرا أن يؤجروا له قاعاتهم خوفا عليها من هجمات الوثنيين. فكان يلقى محاضراته أحيانا فى الخلاء أو على شاطئ البحر، وكان يتتلمذ على يديه رجال وسيدات وشباب وشابات وكل من يطلب العلم.

أوريجانوس والتفسير الرمزى:

كان أوريجانـوس صـاحب مدرسة فى التفسير هى مدرسة التفسير الرمزى. وهى مدرسة قوية عميقه فى التفسير انتشرت فى العالم كله فيما بعد ونبغ فيها كثيرون مثل القديس اوغسطينوس وتختلف عن مدرسة التفسير الحرفى التى اشتهر فيها القديس باسيليوس الكبير ويظهر أسلوب أوريجانوس فى التفسير لمن يقرأ مثلاً : -

تفسيره المشهور لسفر نشيد الأناشيد فهو يتكلم عن العروس باعتبارها إنها الكنيسة ويقول إن عبارة (أنا سوداء وجميلة) إنما تقولها كنيسة الأمم لكنيسة اليهود وعبارة" سوداء" لأنها بلا شريعة بلا أنبياء بلا وعود ولكنها جميلة باختيار الرب لها ويرى رمزاً لهذه السوداء الجميلة المرأة الكوشية إلى تزوجها موسى النبى (عدد ٩٢: ١) وأيضا ملكه سبأ إلى زارت سليمان الحكيم ويرى فى ملكه سبأ وكلماتها لسليمان معانى رمزية جميلة منها:

" لما رأت ملكة سبأ كل حكمه سليمان والبيت الذى بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح (١ مل ١١ :٤. ٥) فملكة سبأ رمزا لكنيسة الأمم السوداء وسليمان وحكمته رمزاً للسيد المسيح أقنوم الحكمة وصانع السلام - والبيت الذى بناه هو الكنيسة وخدامه هم الكهنة وملابسهم ومائدته فى سر الافخارستيا.. الخ .

شخصيته:

قد لاقى أوريجانوس آلاما كثيرة لأجل المسيح والإيمان والدفاع عنه والقى فى السجن وصمد وثبت إيمانه.كان رجلاً ناسكاً مشهورا بالصوم، يصوم معظم الأيام ولا يأكل إلا قليلاً، وكان ينام على الأرض ويلبس ملابس النسك، وأحيانا كان يمشى حافيا ويـنام بلا غطاء ولا وساده ويسهر الليل فى العبادة.وقد تحدث القديس أغريغوريوس أسقف قيصارية الجديد كثيراً فى مدح أوريجانوس.

مؤلفات أوريجانوس:

قال القديس أبيفاينوس أن مؤلفات أوريجانوس تزيد على الستة آلاف صنفاً ولعله كان مـنها أكثر من ألف عظة.وقد كتب أوريجانوس باليونانية وترجمت كثير من مؤلفاته فى حياته وبعد وفاته باللاتينية.

ومن أشهر كتب أوريجانوس:

١ - كتاب المبادئ (Principes)

٢ - كتاب ضد كلوس (Contra Celsum)

٣ - كتاب الحث على الاستشهاد.

٤ - كتاب عن الصلاة.

٥ - كتاب عن القيامة.

٦ - كتاب الهكسابلا أى السداسية (Hexapela)

ويشـمل خلاصـة مجهود لمده ٢٨ عاما فى دراسة مقارنة لنصوص الكتاب المقدس فى ستة أعمدة (مقارنة نسخة وترجماته) وتشمل النص العبرانى وهذا النص بحروف يونانية وفى العمود الثالث الترجمة السبعينية ثم ترجمة أكيلا ثم ترجمة سيما خـوس ثم ترجمة ثيؤدوروس وفى بعض الكتب وجدت ترجمات أخرى وللأسف كل هذا المجهود قد ضاع باحتراق مكتبة الإسكندرية ولم يبقى إلا قصاصات تدل عليه.

٧ - وضع تفاسير لا تحصى لغالبية الكتاب المقدس.

مـنها تفاسيره لأسفار موسى الخمس وأيوب وبعض كتب الأنبياء وكتابه عن يشـوع وتفسـيره نشيد الأناشيد والمزامير والأنبياء الكبار وقد نشرت ترجمة بعض مؤلفاته فى مجموعات ما قبل نيقيه.

١ - Ante Nicene Fathers.

٢ - Ancient Christian Writers.

٣ - Sources Christians.

أخطائه الشائعة:

١ - على أنه من الأخطاء التى وقع فيها أوريجانوس أنه خصى نفسه . ولم يفعل ذلك هروبا من الشهوة فقد كان نقيا ناسكا إنما منعا لتقولات الناس إذ كان من ضمن تلاميذه الكثير من السيدات والفتيات. على أن هذا الخطأ أخذ عليه إذ تحرمه قوانين الكنيسة.

٢ - أما مشكلته الثانية فقد سافر أوريجانوس إلى بلاد العرب لمقاومة بعض الهرطقات هناك كما أوفده البابا ديمتريوس الكرام سنة ٢٢٦ م إلى أخائية لمقاومة بعض الهرطقات أيضا - وعند رجوعه حدثت مشكلته الثانية فى حياته وهى أنه قبل الكهنوت من غير أسقفه البابا ديمتريوس إذ أن الكسندروس أسقف أورشليم وثيئودسيوس أسقف قيصرية فيلبس قاما بسيامته كاهنا إذ عز عليهم أن معلم الجيل وأستاذ الأساقفة لا يكون حاصل على درجة كهنوتية، وقد أستاء البابا ديمتريوس الكرام من هذه السيامة.

٣ - كما نسبت إلى أوريجانوس أخطاء لاهوتية كثيرة يتعلق بعضها بالأرواح والملائكة والشياطين والنفس البشرية ونفس المسيح والفداء والأجساد.

حرمه:

عقد البابا ديمتريوس مجمعا سنة ٢٣١ م (قبل نياحته بعامين) وحكم بحرم أوريجانوس ثم توالت الأقاويل بعد ذلك عن محاللته من تلميذه القديس أغريغوريوس أسقف قيصارية الجديد.

على أن حرمه لم يصدر من البابا ديمتريوس فقط وإنما قديسون آخرون تكلموا على أخطائه واستحقاقه للحرمان.وقيل أن أوريجانوس قال عن نفسه (أيها البرج العالى كيف سقطت)

أوريجانوس بعد حرمه:

* أسس أوريجانوس مدرسة لاهوتية أخرى فى فلسطين وتتلمذ عليه الكثيرون ونالت مدرستة شهرة كبيرة.

* وقيل أنه هدى إلى الإيمان أسقف البصرة وكذلك هدى رجلاً أسمه أمبروسيوس كان واقعا فى الغنوسية وقد تبعه أمبروسيوس هذا وكان غنياً جداً فانفق عليه الكثير من ماله فأمكنه بهذا أن يكون له الكثير من النساخ وبالتالى الكثير من الكتب.

معاصروه: كان أوريجانوس معروفا من الأباطرة والملوك فى أيامه.

وقد عاصر ثلاثة من البطاركة هم : -

١ - البابا ديمتريوس الكرام (الـ ١٢) (١٨٨ - ٢٣٠ م)

٢ - البابا ياروكلاس (الـ ١٣) (٢٣٠ - ٢٤٦ م)

٣- البابا ديونيسيوس (الـ ١٤) (٢٤٦ - ٢٦٤ م)

وفاتـــــــــــــــــــه:
توفى أوريجانوس فى مدينة موره بفلسطين سنة ٢٥٤ وله من العمر ٦٩ سنة واختلفت الأقـوال فـيه.وشـهد القرن الرابع بالذات وبداية الخامس صراعا ضخما حول هذه الشخصية ما بين أصدقائه وخصومه.

قديسون ضد أوريجانوس:

لعلنا من ناحية التسلسل التاريخى نذكر فى مقدمه هؤلاء القديسين.

١ ـــ القديس ديمتريوس الكرام:

وهـو الـبابا الثانى عشر من باباوات الكرسى المرقسى وأحد قديسى المجمع وتحـتفل الكنيسة بذكرى ظهور بتوليته بمعجزة أظهرها الله على يديه وهو الذى حرم أوريجانوس وعزله من إدارة وأستاذية مدرسة الإسكندرية وما كان ممكنا أن يقدم على خطوة جريئة كهذه بالنسبة لأستاذ عظيم ومشهور كأوريجانوس إلا إن كانت الأسباب التى دفعته إلى ذلك خطيرة وقوية.

وبعض العلماء الذين دافعوا عن أوريجانوس كانوا يهاجمون البابا ديمتريوس بأنه كان يحسـد أوريجانوس ولكن هذا لا يمكن أن يصدّق بالنسبة إلى قديس عظيم مثل البابا ديمتـريوس كما أن هذا البابا القديس لم يكن هو الوحيد الذى وقف ضد أوريجانوس فهناك قديسون كثيرون غيره نذكر من بينهم.

٢ ـــ القديس البابا ثاؤفيلوس :

وهـو الـبابا الـثالث والعشرون من باباوات الكرسى المرقسى وأحد قديسى المجمـع وقـد حرم أوريجانوس لدرجة أنه أختلف مع القديس يوحنا ذهبى الفم الذى أحتضن بعض تلاميذ أوريجانوس المعروفين بلقب " **الإخوة الطوال** " .

٣ ـــ القديس ابيفانيوس أسقف قبرص:

فى أواخر القرن الخامس قاد هذا القديس العظيم حملة كبيرة ضد أوريجانوس وكـان يجـول مـن بلـد إلى أخر يهاجم بدع أوريجانوس وله عبارة مشهورة ضد أوريجانـوس فـى بستان الرهبان يفهم منها أن هذا العلامة كان عليه شيطان وروح ضـلالة.وقـد كـتب القـديس ابيفانيوس كتابا ضد الهرطقات وأقنع كثيرين بأخطاء أوريجانـوس ولعل من بين هؤلاء القديس جيروم الذى كان فى مبدأ حياته معجبا جداً بأوريجانوس.

٤ ـــ ميثوديوس أسقف أولمبا (ميناء فى كيليكية):

قـد صـار فـيما بعد أسقفاً على مدينة صور وتنيح سنة ٣١٢ م.وقد ألف كتابا ضد أوريجانوس ويقال أنه أول من كتب كتابا ضده.

٥ ــ القديس جيروم (ايرينيموس):

وهــو من أعظم علماء الكنيسة اللاتينية فى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخـــامس وكـــان أول عهـــده من المعجبين بأوريجانوس وكتب كثيراً فى مدح قدرته العلمية ثم تحول ضده فى عنف ربما بعد أن تأثر بالقديس ابيفانيوس لدرجة أن القديس جيروم هاجم القديس كيرلس الاورشليمى كما هاجم فى ذلك روفينوس أيضا.

٦ ــ قديسون آخرون:

كثيــرون هاجمــوا أوريجانوس عبر العصور فى نقاط عديدة ونذكر من بين هــؤلاء القديســين أوغسطينوس الذى لم ينشغل بمشكلة أوريجانوس فى عهده إذ كان يشغله البلاجيون بالأكثر ولكنه عارض أوريجانوس فى تفاسير عديدة.

ومن أشهر كتب أوريجانوس التى هوجمت كتابه (المبادئ).

اتهامات ضد أوريجانوس:

١ ـــ قــيل أنـــه تأثــر بالفلسفة اليونانية وهو نفسه لم يذكر قراءته للفلسفة اليونانية واقتباســه منها ولكنه دافع عن ذلك بقوله" إن الذهب الذى أخذه الشعب من المصريين استخدموه فى صنع تابوت العهد واوانى المذبح فعلينا نحن أن ننقل إلى هيكل الحكمة الإلهية هذه الزينات التى ليس على أربابها القدرة على استعمالها".

٢ ــ قيل انه بالغ فى استخدام الطريقة الرمزية فى التفسير.

وظهر واضحاً فى تفسيره لخطية آدم وحواء التى اعتبرها خطية زنا واعتبر أن شجرة معــرفة الخير والشر التى فى وسط الجنة ترمز إلى الأعضاء التناسلية التى فى وسط جسم الإنسان وكأنه بهذا يجعل الجنة بكل أشجارها وأنهارها مجرد رموز لا حقائق.

٣ ــ ومن تهمة انه خصى نفسه وهذا أمر تحرمه الكنيسة فى قوانينها.

٤ ــ وهناك تهمتان فى قبوله الكهنوت:

أحداهما انه قبل الكهنوت من أسقفين غريبين متجاوزا أسقفه البابا ديمتريوس والخطأ الآخــر انه لا يجوز أن يسام كاهنا من خصى نفسه وإن كان يجوز سيامه من خصاه أعداء الكنيسة.

٥ ــ هناك أخطاء لاهوتية:

نذكر منها اتهامه بالمناداة بخلاص الشياطين وبخلاص الأشرار أيضا.

٦ ـــ ومـــن الـــتهم الأخرى أن النفوس خلقت قبل الأجساد ثم انحدرت إلى الأرض واتحدت بالأجساد.

٧ ـــ ولعـــل اخطـــر مـــن هذا اتهامه بأن نفس المسيح أيضا قد خلقت واتحدت مع اللاهوت قبل التجسد.

٨ ــ ومن الاتهامات التى وجهت إليه أيضا المناداة بتقمص الأرواح.

٩ ـــ واتهمـــه البعض بأنه ينادى بقوله أن فديه المسيح التى كانت عن خطايانا أنما

قُدمت إلى الشيطان.

١٠ ـــ هناك اتهامات أخرى خاصة بقيامه الأجساد وان أجسادنا هذه سوف لا تقوم إنما تتحد الأرواح بأجساد أخرى غيرها. وأن الأبرار سيتحولون إلى نجوم السماء وان الله خلق عوالم أخرى قبل عالمنا وعوالم أخرى بعده.

ردود أصدقاء أوريجانوس:

كانت ردود أصدقائه على كل التهم السابقة وعلى غيرها مركزه فى نقطتين أساسيتين هما:

١ ـــ كل الاتهامات هى أخطاء النساخ وإنها ليست أفكار أوريجانوس لأنه كان يملى بسرعة وعلى نساخ كثيرين فبعضهم اخطأ فى نقل أفكاره وربما أنهم سارعوا فى نشرها قبل مراجعته لها. كذلك لم تظهر هذه الأخطاء إلا فى الترجمة الخاطئة التى نشرها له روفينوس الاكوينى وقيل أن انسطاسيوس بابا رومه فى أواخر القرن الرابع حرم ترجمة روفينوس هذه.

٢ ـ ومن الردود الهامة لأصدقاء أوريجانوس على التهم الموجهة إليه.أن أوريجانوس ذكر عكس هذه الاتهامات فى كتب أو محاضرات أخرى.

وقد أوردوا لهذا الإيضاح أمثله كثيرة من مؤلفاته ولهذا ليس من السهل البت فى هذه الاتهامات إلا بالرجوع إلى الأصول اليونانية لمؤلفاته مع الترجمات القديمة ومقارنة النصوص.

أصدقاء أوريجانوس:

ذكر التاريخ أسماء قديسين كثيرون دافعوا عن أوريجانوس وقالوا أنهم كانوا من أصدقائه وسنورد هنا أهم هذه الأسماء:

١ ـ القديس غريغوريوس العجائبى:

أسقف قيصرية الجديدة وقد ولد سنة ٢١٥ م وتنيح سنة ٢٧٠ م.

وقد تتلمذ على يد أوريجانوس وكتب كتاباً يمدحه فيه ويدافع عنه.

٢ ـ القديس يوحنا ذهبى الفم:

وقد اختلف مع القديس ثاوفيلس الإسكندرى بسبب دفاعه عن الإخوة الطوال محبى أوريجانوس.

٣ ـ القديس اغريغوريوس أسقف نيصص:

(فى القرن الرابع) وهو اخو القديس باسيليوس الكبير وكان يدعو أوريجانوس أمير الفلسفة المسيحية.

٤ ــ القديس بمفيليوس :

وهو احد قساوسة قيصارية فلسطين واشتهر سنة ٣٠٩ م وكان من أكثر المدافعين عن أوريجانوس وكتب كتابا يدافع فيه عنه.

٥ ــ روفينوس المؤرخ:

قد ترجم بعض كتب، أوريجانوس إلى اللاتينية ودافع عنه دفاعا اضطر جيروم إلى مهاجمة روفينوس فيه.

٦ ــ القديس ديونسيوس الإسكندرى:

وهو البابا الرابع عشر من باباوات الكرسى المرقسى وقيل انه دافع عن أوريجانوس ودعاه إلى متابعة تدريسه فى الإسكندرية وهذا الخبر موضع بحث.

٧ ــ علماء وقديسيون أخرون

وقيل أن قديسين وعلماء كثيرون دافعوا عن أوريجانوس ومازال البعض يدافع عنه إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من كل هذا يبقى اسم أوريجانوس لغزا فى التاريخ بين أصدقاءه ومعارضيه.وحل مشكلته ليس فى يد كنيسة الإسكندرية وحدها وإنما فى يد العلم وفى يد العالم كله والتاريخ.[i]

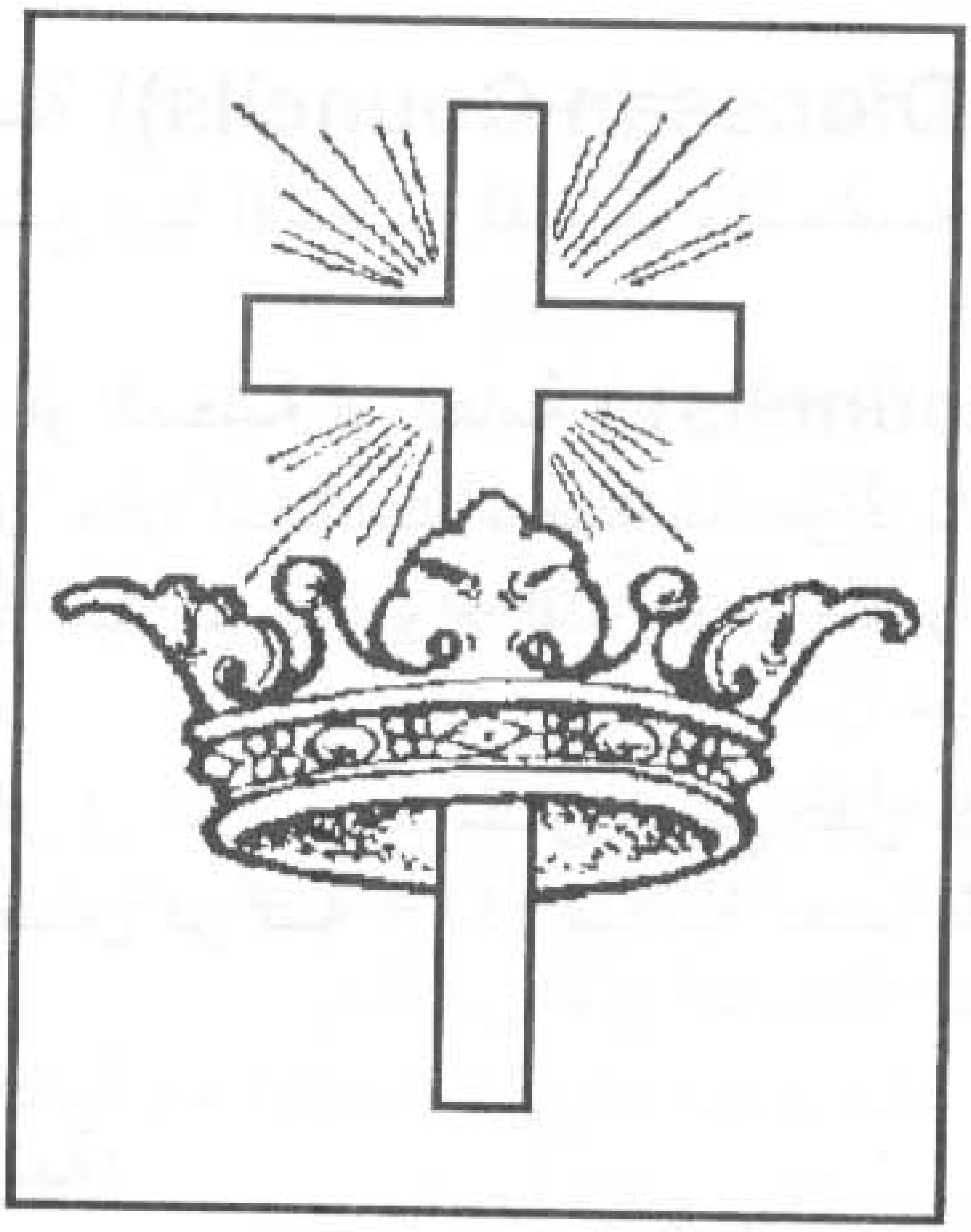

الباب الثانى

المجامع الكنسية

من الثابت تاريخيا أن النظام المجمعى كان معمولا به منذ أقدم العصور التى وجدت فيها روح الشورى أو تبادل الرأى فقد عمل به فى الوثنية كما أن الفكرة المجمعية لها جذور فى اليهودية فقد عقد رؤساء كهنة اليهود مجامع للسيد المسيح (مت ٢٦: ٣) (مر ١٥: ١) ومجمع لمحاكمة التلاميذ لكرازتهم بالإيمان المسيحى (أع ٥ :١٢)

+ **وفى عصر الرسل:** عقدت الكنيسة أول مجمع فى أورشليم عام ٥٠ ميلادية برئاسة القديس يعقوب الرسول أسقف أورشليم (أع ١٥) للنظر فى بحث شروط قبول الداخلين من الأمم إلى المسيحية.و بعد ما حصلت مباحثات كثيرة صدر القرار بالقول " لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليهم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن يمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا " وضاعت على الشيطان فرصة شق الكنيسة الأولى.

+ ولقد أخذت الكنيسة عن الرسل الأطهار هذا المبدأ الجليل فكانت تعقد المجامع كلما حدث خلاف فى البيعة، أو وجد من الأمور ما يستدعى ذلك.

أقسام المجامع:

١ــ المجامع المكانيــة ((Diocesan Councils

وهى التى يجتمع فيها الأسقف والقسوس والشمامسة فى مركز كل ابروشية لتدبير أمورهم الخاصة.

٢ــ المجامع الإقليمية أو المحلية أو العامة (Provincial Councils)

وهو ما يقابل حاليا اجتماعات المجمع المقدس برئاسة البابا ويجتمع بصفة دورية فى السبت السابق لعيد حلول الروح القدس لتدبير أمور البيعة أو عندما يواجه الكنيسة من أخطار.

والجدير بالذكر إن آخر مجمع مقدس اجتمع على غير العادة فى مصر فى الصوم الاربعينى المقدس فى سنة ١٩٧٨ ميلادية عندما فكرت الدولة فى إصدار قانون الردة.

٣ــ المجامع المسكونية:

ينبغى أن يتوفر فيها بضع شروط نوجزها فيما يلى

١ــ أن تنعقد بسبب بدعة أو انشقاق.

٢ــ أن تنعقد بدعوة من الإمبراطور المسيحى (كما فى المجامع الثلاثة الأولى)

٣ ـ أن يحضرها غالبية أساقفة الكنيسة - شرقا وغربا - لتتمثل فيها المسكونية
٤ـ تقرر شيئاً جديداً لم يكن مقرر من قبل.

ولسـنا نجـد فى تاريخ الكنيسة من المجامع تنطبق عليها الشروط السابقة سوى ثلاثة فقط تطلق عليها اسم المجامع المسكونيه وهى :

١ـ مجمع نيقيـة الذى انعقد عام ٣٢٥ م
٢ ـ مجمع القسطنطينية الذى انعقد عام ٣٨١ م
٣ ـ مجمع أفسس الأول الذى انعقد عام ٤٣١ م

ولقـد اعترفت كافة الكنائس المسيحية - شرقاً وغرباً - بهذه المجامع الثلاثة وتمسكت بقانون إيمانها كما نفذت قراراتها وقوانينها.

اختصاص المجامع:

أبانت لنا القوانين ما للمجامع من اختصاصات فقالت:

١- فحص المسائل المتعلقة بالإيمان
٢- وضع النظم والقوانين اللازمة لسياسة الكنيسة
٣- حل المشاكل العامة التى تعترض الكنيسة
٤- فـض المـنازعات والخصومات التى تنشأ بين الأكليروس أو بين الشعب أو بين كليهما
٥- محاكمـة رجـال الاكليروس إذا صدر منهم ما ينافى الإيمان القويم أو يخالف ما تقرره البيعة من قوانين.

الأحكام الباطلة لبعض المجامع:

جديـر بالذكر إن الكنيسة رفضت كثير من الأحكام الجائرة التى أقرّتها بعض المجامع ظلما على بعض آباء الكنيسة المشهورين والمشهود لهم بسلامه الرأى وحسن العقيدة وشده التمسك بالإيمان.

ومن أمثلة هذه المجامع ما يلى:

١ـــ مجمع صور المنعقد سنة ٣٣٤م الذى حكم على البابا اثناسيوس الرسول حامى الإيمان بعزلة من وظيفته الكهنوتية وبالنفى أيضا.
٢ - مثل المجمع الذى عقده يوحنا بطريرك انطاكية مع أساقفته النساطرة بعزل البابا القديس كيرلس الكبير عمود الدين ونفيه أيضا
٣- مجمـع خلقدونـية الذى حكم على القديس ديسقورس البابا السكندرى بالنفى فى أكتوبر سنة ٤٥١ م إلى جزيرة غاغرا.
٤- كمـا رفضـت الكنيسة أيضا الاعتراف بالحكم الذى أصدره مجمع القسطنطينية

المكانى على القديس يوحنا ذهبى الفم، ورغم أن البابا ثاوفيلس الإسكندرى كان رئيسا لهذا المجمع الذى أصدر ذلك الحكم إلا أن الكنيسة عادت سريعا فى عهد خليفته القديس كيرلس البطريرك الرابع والعشرين واعترفت ببراءة القديس يوحنا ذهبى الفم كما قام القديس كيرلس بتسجيل اسمه فى" قائمة الآباء القديسين " الذين تقرأ أسمائهم فى القداس الإلهى.

الكنيسة الغربية والمجامع المسكونية:

بالتوثيق فى قرارات المجامع نلاحظ مقاومة أساقفة روما لسلطان المجامع فرغم ما تثبته القوانين من أن سلطان الأساقفة مجتمعين (أى فى هيئة مجمع عام) فوق سلطان أى أسقف مهما عظمت قيمته أو كرامته، نراهم تارة يدعون وجوب عقد المجامع بأمر منهم أو أخرى ينادون بضرورة تثبيت الأحكام لديهم.ومن المؤسف أيضا فى موقفهم بازاء المجامع هو قيامهم بإدخال زيادة على قانون الإيمان الذى قرره مجمعا نيقية والقسطنطينية المسكونيين كما سنرى فيما بعد.

وسوف نقدم فى الصفحات التالية فكرة عن المجامع المسكونية التى عقدت فى القرنين الرابع والخامس الميلادى وانقسمت بسببهم الكنائس. مع التركيز على المجامع المسكونية الثلاثة الأولى.

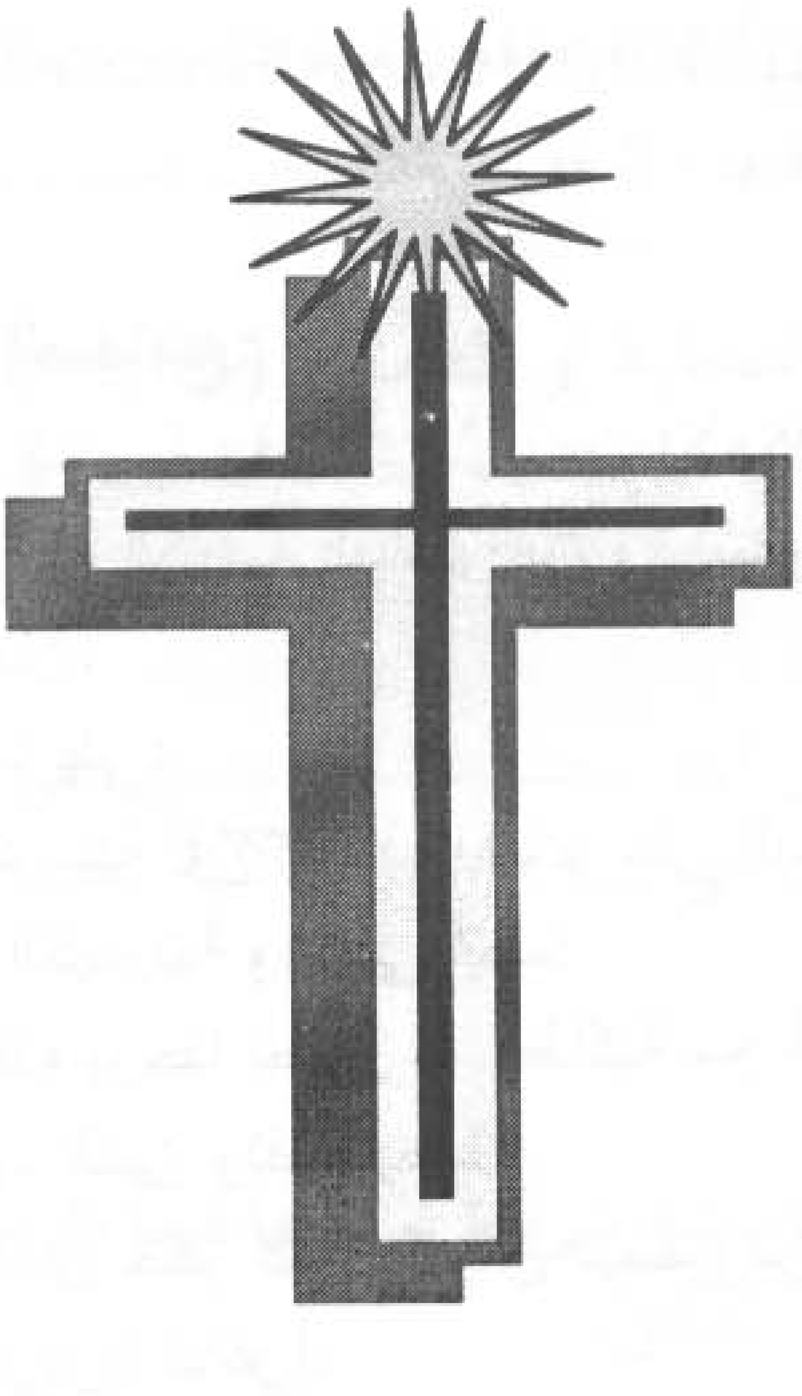

" الفصل الأول "
المجمع المسكوني الأول
مجمع نيقيـــــــة (سنة ٣٢٥ م)

انعقـد هـذا المجمـع فـي مدينه نيقية فى شهر مايو سنة ٣٢٥م بدعوة من الإمبـراطور قسـطنطين الكبير وحضره ٣١٨ أسقفا من جميع أنحاء المسكونة وكان برئاسة اوسيوس أسقف قرطبة لكبر سنة، ومثل الكنيسة القبطية فيه البابا الكسندروس (البطريرك الـــ ١٩) وأثناسيوس رئيس شمامسته.

.أسباب انعقاد هذا المجمع:

١ ــ الخلاف حول تحديد يوم عيد القيامة.

٢ــ الشقاق الذى أحدثه ملاتيوس أسقف أسيوط.

٣ــ موضوع إعاده معمودية الهراطقة.

٤ـــ بدعـــة آريوس الذى أنكر لاهوت السيد المسيح وادعى أنه مخلوق وغير مساو للآب فى الجوهر.

ومن الجدير بالذكر أنه عندما وقف البابا بطرس على بدعه آريوس هذه حاول أن يثنـيه عــنها فلم يقبل وعندئذ أعلن حرمه، وعندما القى القبض على البابا بطرس خـاتم الشـهداء و أودع فى السجن وبدأ بعض أعوان آريوس فى التوسل إليه ليقبله ويحله من حرمه ، رفض ثم استدعى تلميذه أرشيلاوس والكسندروس وقال لهما " الله الـه السموات يعيننى على إكمال شهادتى فلن تعودا تريياننى بعد هذا اليوم فى الجسد وأنت يا ارشيلاوس.القس تكون بطريركاً بعدى وأخوك الكسندروس بعدك، ولا تقولا أنى عديم الرحمة من أجل آريوس فان فيه مكراً مخفياً ولست أنا الذى حرمته بل السيد المسيح لأنى فى هذه الليلة لما أكملت صلاتى ونمت رأيت شابا قد دخل علىّ ووجهه يضـئ كضوء الشمس وعليه ثوب متشح به إلى رجلية وهو مشقوق وقد امسك بيده القطعة الممزقة فصرخت وقلت له يا سيدى من الذى شق ثيابك ؟ فأجابنى آريوس هو الــذى مــزق ثوبى فلا تقبله ! واليوم يأتيك قوم طالبين إرجاعه فلا تطعهم ، أوصى أرشيلاوس و ألكسندروس بأن يمنعاه من شركتهما !!

من هو آريوس وماهى نهايته:

ولــد آريــوس فى مدينه القيروان (بليبيا) سنة ٢٧٠م ثم نزح إلى الإسكندرية حيث التحق بمدرستها اللاهوتية وقد سامه البابا بطرس خاتم الشهداء قسا سنة ٣٠٦م

نهايته الوخيمـــــــة:

بعــد أن حكم المجمع النيقاوى بحرم آريوس كما سيجئ نفى إلى الاليريكون ولكــنه تمكن من الرجوع إلى الإسكندرية بعد نفى البابا اثناسيوس إلى تريف فرفضه الاكليــروس والشــعب وخــاف الوالــى من حدوث ثورة نتيجة لوجوده فأرسله إلى

القسطنطينية حيث استطاع بمعاونة بعض أتباعه من مقابلة الإمبراطور قسطنطين وفى ريـــاء وخداع أظهر له انه يتمسك بالإيمان المستقيم وكم حاول الأنبا اسكندر بطريك القســطنطينية توضيح خداع آريوس وعدم استطاعته قبوله غير أن الملك بقى مصرا علـــى تنفيذ أوامره وحدد لذلك يوماً معلوماً. ذهب اسكندر البطريرك ويعقوب أسقف نصـــيبين إلـــى كنيسة ايرينى وصليا بدموع إلى الله كى يرفع عن كنيسته هذا السخط وكـــان البطـــريك يطلـــب منه تعالى أن يميته قبل أن يرى آريوس مصليا فى احدى كنائسه.وفى مساء اليوم المحدد لمجئ آريوس احضروه باحتفال عظيم وما أن اقترب مـــن الكنيسة حتى شعر بمغص مفاجئ و أحس كأن أحشاءه تتمزق وهكذا قضى نحبه واستراحت الكنيسة من شره.

ومـــا أعظـــم مـــا قالـــه سقراط المؤرخ فى كتابه صفحة ٦٨ " أمات الله آريوس فى مرحاض عمومى حيث اندلقت أمعاؤه ! وقد اعتبر الشعب هذه الميتة انتقاما من العدل الإلهى.

مشاهير الحاضرين فى المجمع:

١ــ القديس اثناسيوس الرسولى " البطريرك الـــ ٢٠ "

وقـــد ولد عام ٢٩٦ بمدينه الإسكندرية وتتلمذ للقديس انطونيوس آب الرهبان وكان بطلاً فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م وسيم بطريركا عام ٣٢٦م.

ومـــن الجديـــر بالذكر انه فى الوقت الذى ارتقى فيه اثناسيوس كرسى القديس مرقس رأى القـــديس باخومـــيوس آب الشـــركه رؤيـــا خاطبه فيها روح الله " أنى قد أقمت اثناسيوس عموداً ونوراً لكنيستى وستقابله شدائد وتلقى عليه تهم كثيرة لأجل مناضلته عن حق الديانة إلا انه بالقوه الإلهية يظفر بكل التجارب ويبشر الكنائس بحق الإنجيل"

ii

ولـــذلك فقـــد نفـــى البابا اثناسيوس خمسه مرات وكان يقال له " العالم كله ضدك يا اثناسيوس"فكان يقول وأنا ضد العالم " وقد تنيح سنه ٣٧٣ م

٢ــ الإمبراطور قسطنطين:

أ ـــ وهو الذى دعى لعقد المجمع المسكونى الأول.

ب ـــ وهـــو الذى شاهد فى أفق السماء صليبا من نور مكتوب عليه هذه الكتابة " بهذا تغلـــب " وفى رؤيا الليل ظهر السيد المسيح للملك ومعه صليب وأمره أن يصنع مثاله ويجعله شعاره.

ج ـــ وهو الذى أصدر مرسوم التسامح الدينى:

د ـــ أصدر مرسوم حفظ يوم الأحد فى جميع بلاد الإمبراطورية.

هـــ ـــ أدخل الصلاة فى الجيش والغى العقوبة بالصلب.

و ـــ شجع على تحرير العبيد لإبطال الرق والحض على قتل الأطفال وتحريم الغرامة وتحريم ألعاب المصارعة.

أهم قرارات المجمع:

بعد الانتهاء من المجمع المسكونى سن الآباء ٢٠ قانونا لسياسة الكنيسة وحل القضايا الأخرى وأهم هذه القرارات:

١ ـ حرم آريوس ووضع قانون الإيمان.

٢ ـ تحديد موعد عيد القيامـــــــــــــــة:

وقــد قـــرر المجمع أن يعيد جميع المسيحيين فى موعد واحد وهو يوم الأحد الــذى يلى عيد الفصح اليهودى. وقرر أن بابا الإسكندرية هو الذى يقوم سنويا بإبلاغ أساقفة العالم عن موعد عيد القيامة.

٣ ـ بخصوص الشقاق الذى أحدثه ملاتيوس أسقف أسيوط:

فقد قرر المجمع حفظ حقوق بابا الإسكندرية الواجبة فى رئاسته على الأساقفة الذين فى إقليم مصر.

٤ ـ مشكلة معمودية الهــراطقة:

فقد أيد المجمع رأى الكنائس الشرقية فى انه لا تعاد معمودية من هرطق عند رجوعه وأوجب إعادة معمودية من يعمدهم الهراطقة.

٥ ـ موضوع زواج الكهنـــــــة:

قـــرر المجمـــع السماح لمن يريد من الكهنة أن يتزوج مع الاحتفاظ ببتولية الأسساقفة وعدم زواج الكهنه المترملين.

على هامش المجمع المسكونى الأول:

ندون هنا بعض الحوادث الطريفه : التى أثبتها المؤرخون عندما عرضوا لمجمع نيقية لعلها تساعدنا على تكوين فكره صحيحه عن هذا المجمع ومن شهده.

فى الطريق إلى المجمع:

كـــان ضمن الآباء الذين اهتموا بالذهاب لحضور المجمع الأسقف اسبريدون اليونانـــى نائباً عن جزيرة قبرص وكان هذا الأب مشهوراً بسذاجته وبساطته الكاملة وفـــى الطـــريق مال إلى فندق يستريح فوجد هناك عددا ليس بقليل من الأساقفة الذين جاءوا لنفس الغرض وكان هذا الأسقف البسيط يحمل أمتعته على بغلين احديهما أبيض والآخـــر أســـود وعندما رأى الأساقفة الأنبا اسبريدون خافوا لئلا يخدعه الاريوسيون لبســـاطته إذا ذهـــب إلى نيقية وفكروا فيما بينهم فى الطريقه التى تؤخره عن متابعه ســـيره وأخيـــرا قـــرروا ذبح البغلين. وبعد أن نفذوا ذلك قاموا مبكرين وساروا فى طريقهم إلى مقر انعقاد المجمع.

ولما قام الأسقف اسبريدون أمر خادمه بإعداد العدة وإحضار الدابتين لمتابعة السير وكم كانت دهشة الأسقف عظيمة عندما عاد إليه الخادم بعد قليل يقول فى رعب لقد ماتت الدابتان ذبحاهما الاريوسيون وهنا ذهب مع خادمه إلى الحظيرة وكان الظلام

باقــيا وأمره أن يلصق الرأسين المقطوعتين بالجثتين ثم صلى ورسم علامة الصليب فنهضــت الدابتين سليمتين كما كانتا ثم استأنف سيره وما أن أشرق النور حتى أبصر الأسقف فإذا برأس البغل الأسود قد صارت على جسد الأبيض ورأس الأبيض لصقت بجسد الأسود فسجد لله شاكرا..ولما وصل إلى مدينه نيقية استقبله الأساقفة الذين عملوا معــه هــذه الحادثة كى يعيقوه عن الحضور وتأكدوا من قداسته عندما رأوا اختلاف اللونين فى الدابتين.

ولقــد ذكــر المؤرخ روفينوس أن هذا الأسقف الساذج قد اشترك فى مجادله الآريوسيون وإقناعهم بالمبادىء القويمة وكان مدفوعا فى مناقشته بقوه إيمانه وحسن عبادته.

وقت انعقاد المجمع:

أولا: ذكــر بعــض المؤرخون أنه عندما عقد المجمع أولى جلساته كانوا كلما أرادوا إحصــاء عدد الحاضرين يجدوهم ٣١٩ وليس ٣١٨ ولذلك أضافوا مقعدا إضافيا إلى العدد الاصلى ليشيروا إلى وجود الله وسطهم إثباتا لقول الكتــاب " إذا اجتمع اثنين أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم "

ثانيا: عندما وقف آريوس وأعلن عقيدته الفاسدة غضب الأساقفة واندفع القديس نيقولا احد الآباء اليونانيين وضرب المبتدع على فمه.

ولمــا شكا آريوس أمره للقيصر حكم الآباء باستبعاد هذا القديس من المجمع وسجنه بعــد أن اخــذوا قلنسوته وإنجيله ولكن ما إن ذهب نيقولا إلى السجن حتى ظهرت له السيدة العذراء ليلا ممسكة بذراع يسوع ابنها الحبيب الذى اقترب من الأسقف وسلمه الإنجــيل مبتســما، كما وضعت العذراء القلنسوة على رأسه وعندئذ خرج من الحبس فرحا، وذهب إلى آباء المجمع حيث أراهم الإنجيل والقلنسوة فتعجبوا وباركوا غيرته وأبطلوا الحكم الذى أصدروه ضده قبلاً.

ثالــثا: انتهــز الــبعض فرصـــه حضور الإمبراطور فى المجمع وقدّموا إليه بعض الشــكاوى فى حق بعض الأساقفة وكم كان موقف الإمبراطور عظيما عندما احضر مــوقد احرق فيه كل ما تسلمه من الشكاوى قبل أن يقرأها ثم قال للجميع "لو رأيت بعينى أحد رجال الكهنوت فى ريبة لسترته بأرجوانيتى "

رابعــا: رأى الإمبراطور احد الأساقفة المسمى اكاكيوس جالسا وحده فسأله عن سبب ذلك ولماذا يرفض الجلوس مع بقيه الأساقفة فقال اكاكيوس انه لا يقبل الجلوس مع من يخالفــونه فــى العقيدة فنظر إليه الإمبراطور وقال " انصب سلّما ياأكاكيوس واصعد وحدك إلى السماء.

" الفصل الثانى "
مجمع القسطنطينية المسكونى
(سنة ٣٨١م)

انعقــد هذا المجمع – وهو ثانى المجامع المسكونية ــ فى مدينه القسطنطينيه ســنة ٣٨١م – بدعــوة من الإمبراطور ثيئودوسيوس وحضرة ١٥٠ أسقفاً من جميع أنحــاء المسكونة برئاسة القديس ملاتيوس بطريرك إنطاكية ومثل الكنيسة القبطية فيه الأنــبا تيموثاوس البابا الإسكندرى (البطريرك الــ ٢٢) وذلك للنظر فى بعض البدع التى ظهرت عقب مجمع نيقية وأهمها:

١ ــ بدعة ابوليناريوس أسقف اللاذقية بالشام:

إذ كــان يعلــم بأن لاهوت المسيح قد قام مقام الروح الجسدية وتحمل الآلام والصلب والموت مع الناسوت كما اعتقد بعدم مساواة الاقانيم لبعضها فقال إن الروح القدس عظيم والابن أعظم والآب أعظم منهما.

٢ ــ بدعة أوسابيوس:

الــذى علم بأن الثالوث القدوس اقنوم واحد ظهر فى العهد القديم كأب وصار إنســانا فى العهد الجديد بصفه ابن وحل على الرسل فى عليه صهيون بصفه الروح القدس .

٣ ــ بدعة مكدونيوس :

كــان أســقفاً علــى القسطنطينيه وعندما أبعد عن اسقفيته نادى ببدعة غريبة مؤداها " أن الروح القدس عمل الهى منتشر فى الكون وليس اقنوما متميزا عن الآب والابن. بل هو مخلوق يشبه الملائكة لكنه ذو رتبه اسمى.

فكره مختصره عن الملك ثيئودوسيوس الأول أو الكبير:

هــو الذى أصدر منشور سنة ٣٨١م يجعل الديانة المسيحية الديانة الرسمية للدولة ثم أمر بهدم المعابد الوثنية فهدم فى روما وحدها أكثر من ٤٠٠ معبد.

كمــا صــرح للــبابا الإسكندرى الأنبا ثاوفيلس بتحويل كافة البرابى ومعابد الأوثــان فى مصر إلى كنائس وكان ضمن هذه المعابد هيكل سير أبيس بالإسكندرية الذى حوله الأنبا ثاوفيلس إلى كنيستين باسمى اركاديوس وهاندريوس ابنا الإمبراطور.

وفى ايامة ثار شعب تسالونيكي وقتلوا حاكمهم فأصدر الملك ثيئودوسيوس أمره بقتلهم جمــيعا بــدون تحقيق فقتل فى وقت واحد سبعة آلاف نسمه. عندئذ أوضح له القديس

امبروسيوس الأسقف خطأه وحرمه من دخول الكنيسة حتى يتوب وقال له " كيف تقف أمام الله بذنب الجميع؟:
أتستطيع أن تطأ المكان المقدس ويداك ملطختان بدم الأبرياء ؟ وهكذا ظل ثمانية اشهر لا يـدخل الكنيسـة ولما أراد الذهاب إلى الكنيسة ذهب إلى مكان قريب منها وأرسل ليستأذن فى الدخول فقال له " إن خطيئتك الجهارية تقتضى إعلان توبة جهارية وطلب مـنه أن يصدر أمرا بوقف حكم القتل مده شهر حتى يظهر البرىء من المدان فوافق ودخـل الكنيسـة وسجد أمام هيكل الله باكيا ونادما ومرددا كلمات داود فى المزمور (لصـقت بالتـراب نفسى فأحيينى بكلمتك) (مز ١١٩: ٢٥) "ولقد تأثر الشعب من موقفه هذا ولمسوا فيه مثلا حيا للتوبة الحقيقية.

قرارات المجمـــــع:-

١ ــ إزاء إصرار مكدونيوس على التمسك برأيه قضى المجمع الكبير بحرمه وفرزه كمـا حكم الإمبراطور بنفية وقرر الآباء أن الروح القدس هو الاقنوم الثالث القدوس وانــه مسـاو لـلآب والابن و أكملوا قانون إيمان مجمع نيقية من عبارة " نعم نؤمن بالروح القدس ....حتى نهايته ..." .
٢ - استدعى المجمع كل من ابوليناريوس و اوسابيوس وناقشهما فى آرائهما الفاسدة وإذ أصرا عليها، حكم الآباء بحرميهما وقطعاهما من شركه الكنيسة والمؤمنين.
٣ - وضع المجمع سبع قوانين لسياسة الكنيسة الأول منها يعلن التمسك بدستور إيمان مجمع نيقية ورفض كل التعاليم الغريبة عنه.

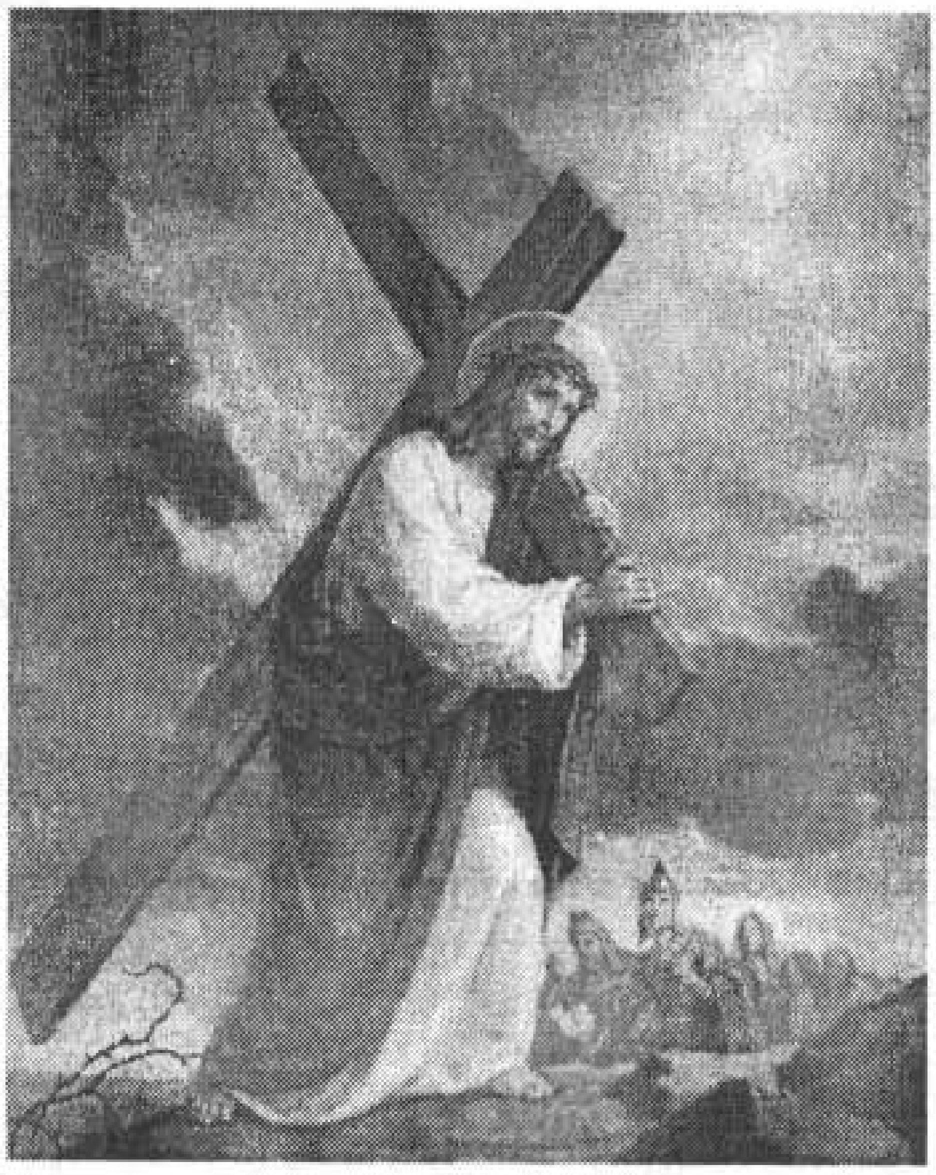

" الفصل الثالث "
المجمع المسكونى الثالث
أفسس – سنة ٤٣١م

عقد هذا المجمع سنة ٤٣١ م بأمر الإمبراطور ثيئودوسيوس الصغير وحضر مائتان أسقف ورأسة القديس كيرلس عمود الدين بابا الإسكندرية الذى حضر بصحبته خمسون أسقفاً مصريا كما حضر المجمع الأنبا شنودة رئيس المتوحدين والأنبا بقطر السوهاجى رئيس دير فاو.وذلك للنظر فى بعض البدع التى ظهرت فى مقدمتها بدعه بيلاجيوس وبدعه نسطور وهذه الاخيره كانت هى السبب المباشر فى عقد المجمع.

بدعه بيلاجيوس:

ولد ببريطانيا سنة ٤٠٥ م ورسم راهبا، ثم سيم قساً ، وقد نادى بتعاليم غريبة مضمونها أن خطيئة آدم قاصرة عليه دون بقيه الجنس البشرى وان كل إنسان عند ولادته كآدم قبل سقوطه ثم قال إن الإنسان بقوته الطبيعية يستطيع الوصول إلى اسمى درجات القداسة بدون احتياج إلى مساعده النعمة الإلهية!!

بدعه نسطور:

كان أسقفاً للقسطنطينية نادى بأن السيد المسيح اقنومين وطبيعتين،ولا ينبغى _ تبعا لذلك _تسميه العذراء " والده الإله " كما عاب على المجوس سجودهم للطفل يسوع (مت ٢ :١١) واستقطع الجزء الأخير من كل من الثلاث تقديسات التى ترتلها الكنيسة فى صلواتها .

موقف البابا كيرلس من بدعه نسطور:

عقد البابا كيرلس الكبير الذى انتخب بطريكا سنة ٤١٢ م (البطريك الــ ٢٤) مجمعا مكانيا بالإسكندرية سنة ٤٢٨م وأثبت خطأ تعليم نسطور ووضع اثنى عشر بنداً فصل فيها العقيدة المسيحية وختمها بحرم من لا يؤمن بها عرفت باسم (**حرومات القديس كيرلس**).(**THE ANATHEMAS OF SR CYRIL**). وأكد إن مريم العذراء لم تلد إنسانا عاديا بل ابن الله المتجسد لذلك فهى بحق أم الرب وأم الله وأرسل إلى نسطور رسائل تحوى كل ذلك ولكنه رفض ولم يرتدع.

القوانين التى وضعها المجمع وقراراته:

أصدر المجمع ثمانى قوانين لسياسة الكنيسة.كما أصدر قرارا بحرم نسطور وتعاليمه معــه ونفيه إلى اخميم بصعيد مصر حيث أدركته المنية هناك وقد اختلف المؤرخون فى سبب موته فقال البعض انه لما تملك عليه اليأس لعدم تمكنه من الرجوع مره ثانية شــدخ رأسه بحجر ومات منتحرا وقال البعض الآخر إن الرب قد ضربه بالدود الذى أكل لسانه وأماته شر ميتة.

كمــا حكــم المجمع أيضا بحرم بيلاجيوس المبتدع مع تعاليمه وقرر المجمع إن سر التجسد المجيد قائم فى اتحاد اللاهوت والناسوت فى اقنوم الكلمة الازلى بدون انفصال ولا امتزاج ولا تغيير وان السيدة العذراء والده الإلة"

كما وضع الآباء مقدمه قانون الإيمان كالآتى :" نعظمك يا أم النور......آمين "

ذيــــول النسطوريــــــة:

لم تمت النسطورية بحرم نسطور ولا بموته وان كانت قد ضعفت كثيرا ذلك لان معلمى الرها بالعراق ومن تتلمذ فيها تمسكوا بتعاليم نسطور ونشطوا فى نشرها، ولما طردهم أسقف المدينة هربوا إلى مدينه نصين بالشام ومعهم بعض الكهنة وهناك شيدوا مقرا لهم وأقاموا رئيسا عليهم دعوه "جاثليق " وعملوا على نشر بدعتهم فى بلاد فارس وآشور والهند وغيرها ومازال بعض النساطره حتى الآن فى بعض هذه الأقاليم خاصة فى شمال العراق.

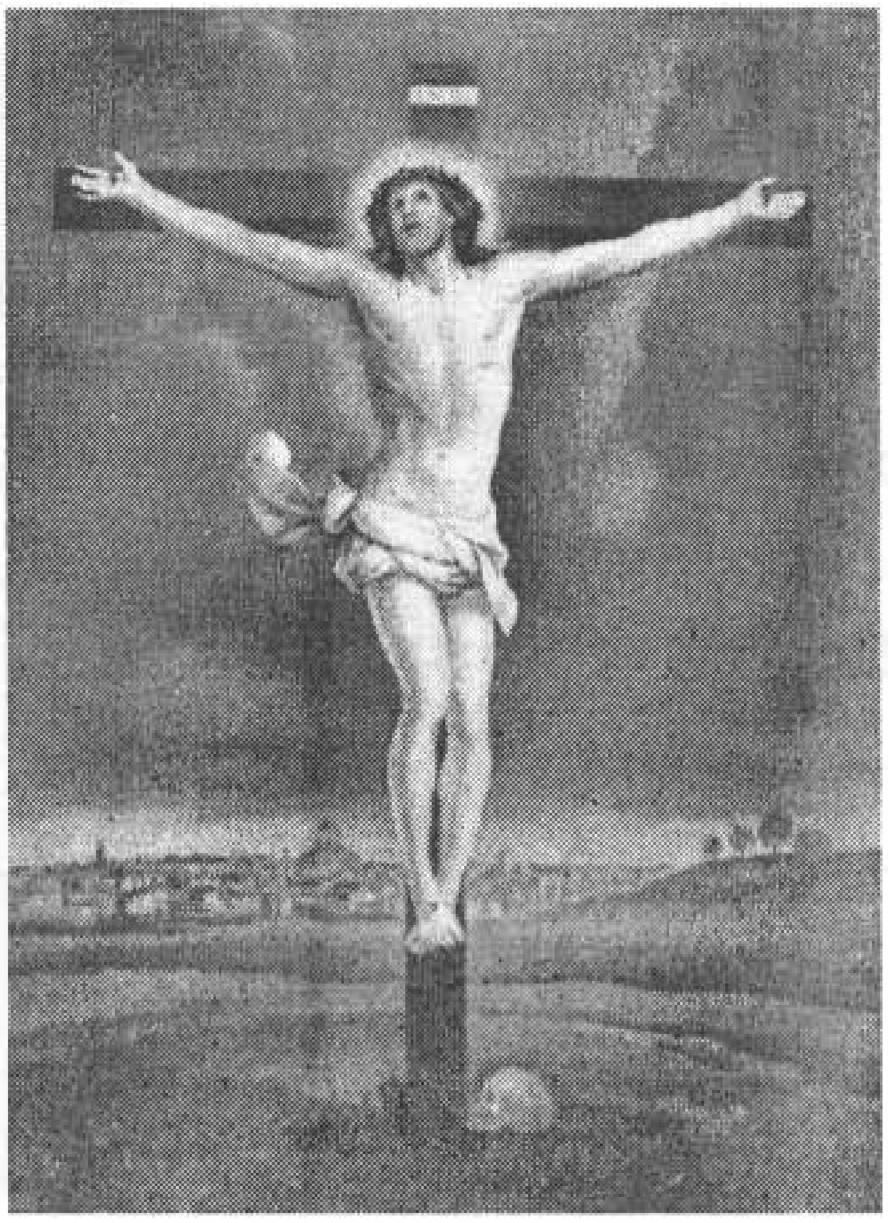

" الفصل الرابع "

مجمع أفسس الثانـــــــــــى سنة ٤٤٩ م
أوطاخى وبدعتـــــه

كـــان أوطاخـــى رئيســـاً لدير فى ضواحى القسطنطينية وكان يعتبر من آباء الكنيســـة المدافعين عن الإيمان القويم ولكنه تطرف فى التعبير عن عقيدته فسقط فى بدعه شنيعة مؤداها" إن طبيعة السيد المسيح الناسوتيه تلاشت فى طبيعته الإلهية فصار المسيح طبيعة واحده ممتزجة".فانبرى إليه فلابيانوس أسقف القسطنطينية وعقد مجمعا برئاســـته بالقســـطنطينية فى عام ٤٤٨م وبعد مناقشة أوطاخى فى آرائه حكم المجمع بحرمه وعزله عن رئاسة ديره.

وبكل أسف أعضاء هذا المجمع فى تطرفهم فى مقاومة بدعه أوطاخى وقعوا فى بدعه أخرى (مجددين بدعه نسطور).

انعقـــــاد المجمـــع:

انعقــد المجمـــع بدعـــوة من الإمبراطور ثيئودوسيوس الصغير برئاسة البابا ديســـقورس (البطريـــرك الـــ ٢٥) الذى تم تنصيبه بطريركا عام ٤٤٤م وكان ممثلا للكنيسة القبطية ومعه عشرة مطارنة وعشره أساقفة.

وبعد البحث الكثير توصل المجمع إلى القرار الآتى:

" للمـــرة الثانية نجدد القول بطبيعة واحده بعد الاتحاد للكلمة المتجسد بدون اختلاط أو امتزاج أو استحالة ".وأخيرا قرر المجمع تبرئة أوطاخى ورهبانه لاعترافهم بالإيمان القويم وقرارات المجامع السابقة وحرم فلابيانوس بطريرك القسطنطينية وستة أساقفة معـــه لتمسكهم بأقوال الهراطقه و المبتدعين وإصراره على القول بطبيعتين فى السيد المسيح بعد الاتحاد.

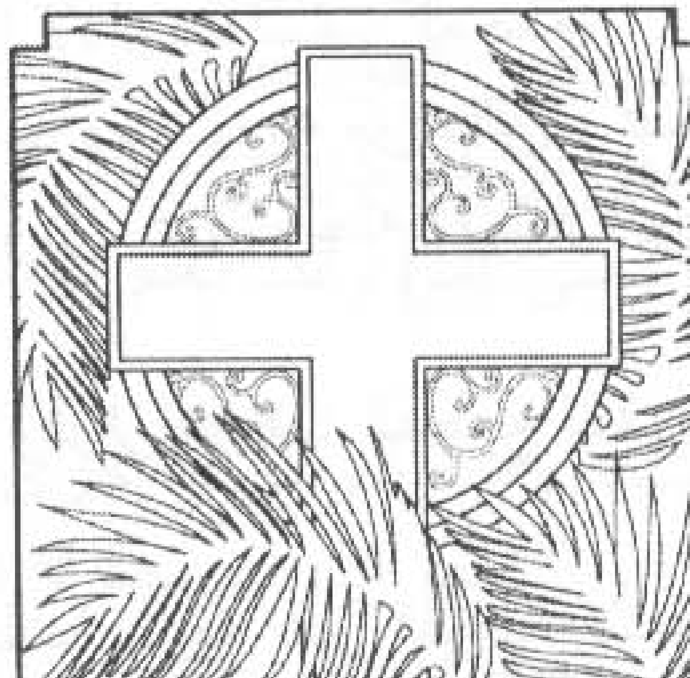

" الفصل الخامس "

مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م

سـمع البابا ديسقورس برفض لاون أسقف روما لقوانين مجمع أفسس الثانى وقـرارته فعقد مجمعا من أساقفته فى مدينه الإسكندرية انتهى إلى إصدار قرار بحرم لاون عـندما تأكـد من ثبوت انحراف اعتقاده وتمسكه بآراء فلابيانوس الذى حرمه مجمع أفسس الثانى.

البابا ديسقورس والملك مركيان وزوجته بوليكاريا:

بعد موت الإمبراطور ثيئودوس الذى لم يخلف نسلا، تولى الملك بعده أخته ــ إذ لم يكن له أخوات سوى أخت نذرت الرهبنة ثم نكثت عهدها ونزعت عنها مسوحها ـــ وكانت تدعى بوليكاريا وقد وتزوجت بمركيان أحد قواد جيش أخيها الذى انحاز إلى لاون كما كانت بوليكاريا تميل إلى فلابيانوس وتعاليمه .

وقد عقد الإمبراطور مركيان مجمعا فى مقره بالقسطنطينية دعا إليه كثير من الأسـاقفة كان معظمهم من النساطره كما حضر البابا ديسقورس الذى اخذ يشرح لهم المعـتقد السـليم للسيد المسيح وهو (واحد بالطبع والجوهر بالعقل والمشيئة) بأمثلة كثيرة حتى اقتنع اغلب الأساقفة برأيه.

ولكـن الأمـر لم يكن مسألة اقتناع بل كانت هناك أسباب خفيه للحد من نفوذ الـبابا ديسقورس فرفع مركيان الجلسة وأصدر أوامره بعقد مجمع فى مدينه خلقدونيه (وهى مدينه تقع مقابل القسطنطينيه).

جلسات المجمع وقراراته:

اخـتلف المؤرخون فى عدد آباء هذا المجمع فمنهم قال أنهم كانوا ٣٣٠١ أسقفاً ومن قال أنهم بلغوا ٦٣٠ أسقفاً.

وقـد حرص الملك مركيان وزوجته بوليكارية على حضور المجمع ومعهما رهـط كبيـر من أفراد حاشيتهما وكثير من الضباط والجنود بملابسهم الرسمية كما حضر القضاة الذين اختيروا لإدارة جلسات المجمع.

وبعـد الجلسة الأولى والثانية وما حوته من نفاق وعنف وخداع أصدر المجمع حكمه الـزائف بنزع البابا ديسقورس عن درجته الاسقفيه وعزله من خدمه الكهنوت ونفيه إلى جزيرة غاغرا.

وثمة نظره بسيطة لأحكام وقرارات هذا المجمع تكفى لأن تثبت لنا سقوطه وبطلانه للأسباب الآتية:

١ ـــ صدور الحكم فى جلسة سريه غير قانونية لانعقادها فى موعد مخالف لما نص عليه المجمع فى جلسته الأولى

٢ ـ صدور الحكم عن هيئة لا تملك إصداره ولا تمثل مجمعا مسكونيا أو عاما لعدم حضور الأساقفة الارثوذكسيين ولعدم حضور القضاة ونواب الملك أيضا
٣ ـ صدور الحكم غيابيا رغم وجود المدعى عليه قريبا من مقر الجلسة.
٤ ـ جاء الحكم مشتملا على بعض تهم موجه للبابا ديسقورس ثبتت براءته منها فى الجلسة الأولى بحضور المجمع فى كامل هيئته إذا اعترف المدعين قائلين " **أخطأنا ونطلب الغفران**".
٥ ـ صدور الحكم تحت ضغط وتهديد نواب الأسقف الرومانى لبقية الأساقفة الحاضرين
٦ ـ لم يصرّح الأساقفة قط فى أقوالهم ولا فى حكمهم ولا فى اتهاماتهم المغرضة إن البابا ديسقورس قد انحرف عن التعليم القويم أو ابتعد عن الإيمان المستقيم وتلك هى المسألة الوحيدة التى تجيز الحكم على الأساقفة بالقطع.ومادامو قد اثبتوا براءة البابا ديسقورس منها فحكمهم ساقط بالبداهه.

ومن الجدير بالذكر:

أن الكنيسة القبطية لا تعترف بمجمع أفسس الثانى ومجمع خلقيدونيه ولا قراراتهما لأنهما لم ينعقدا بسبب بدعه جديدة لم تأخذ المجامع السابقة موقفا ازائها كما أنهما لم يصدرا قرارات جديدة تضاف إلى قرارات المجامع السابقة التى تنظم سياسة الكنيسة ولذلك تعتبرهما مجامع باطله وترفض قرارتهما وقوانينهما.

عظمة البابا ديسقورس:

ولا نود أن ننهى هذا الفصل من دراستنا دون أن نشير إلى موقفا عظيما للبابا ديسقورس فقد حدث أثناء حضوره فى المجمع الذى انعقد فى القصر الامبراطورى إن احد الأساقفة الحاضرين اخذ يوجه إلى ديسقورس الكلام طالبا إليه أن يذعن لرغبه الإمبراطور ولا يخالفه كى يبقى فى منصبه فما كان من البابا ديسقورس إلا أن قال له " إن القيصر لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الإيمان المستقيم فإنهم يعرفون الكتب وخير له أن لا يميل مع الهوى ولا يتبع غير الحق" فقد اندهش الجميع من جراءة ديسقورس وهنا قالت بوليكاريا " ياديسقورس لقد كان فى زمان والدتى الملكة افدوكسيا إنسان قوى الرأى مثلك (تقصد يوحنا ذهبى الفم) وأنت تعلم انه لم يجنى نتيجة مخالفتها خيرا و أنى أرى حالك سيكون مثله"
فأجابها ديسقورس بكل شجاعة وأنت تعرفين ما جرى لامك نتيجة اضطهادها لهذا القديس وكيف ابتلاها الله بالمرض الشديد الذى لم تجد له دواء ولا علاجا حتى مضت إلى قبره وبكت واستغفرت الرب فعوفيت.

الباب الثالث
الشرق بعد مجمع خلقيدونية

" الفصل الأول "
الشرق فى الفترة ما بين سنه(٤٥١م - ٦٤١م)

كانت نتيجة المشاحنات والانقسامات الدينية بعد قرارات مجمع خلقيدونيه سنة ٤٥١م أن انقسمت المملكة الرومانية إلى مملكتين شرقية وعاصمتها القسطنطينية وغربية وقاعدتها روما.

وأطلقت الكنائس الغربية على الكنائس الشرقية بأنها مونوفيزيه(**(Monophysite (أى تـؤمن بطبيعة واحده فى المسيح)** ووصفت الكنائس الشرقية الكنائس الغربية بأنها((**DIOPHYSITE** أى تؤمن بطبيعتين فى المسيح كما اتهم الغربيون كنيسة الإسكندرية بالأوطاخيه كنتيجة للتآمر الذى حدث فى خلقيدونيه ضدها فى الوقت الذى اعتبرت كنيسة الإسكندرية الأوطاخيه بدعه حرمتها مرارا وتكرارا لأنها علمت بأن طبيعة المسيح الناسوتيه تلاشت فى طبيعته الإلهية هذا بينما يؤمن الأقباط (كنيسة الإسكندرية) بأن المسيح طبيعة واحده من طبيعتين أو أن طبيعتى المسيح اللاهوتية والناسوتية صارا طبيعة واحده باتحادهما الفائق السرى - بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

ومن الواضح أن الكنائس الغربية اتخذت هذا الموقف المشين من الكنائس الشرقية وخاصة كنيسة الإسكندرية بسبب الغيرة من الدور القيادى لآبائها فى المجامع المسكونيه الثلاثة الأولى ويكفى أن نقرأ للمؤرخ ستانلى فى كتابه " محاضرات عن الكنائس الشرقية " قوله " وأصبح بطريرك الإسكندرية بعد مجمع نيقية "**قاضى المسكونة كلها**".

كما يكفى أيضا أن نقرأ فى تاريخ المجمع المسكونى الأول لنيقية عن الملك قسطنطين الكبير انه وقف وسط المجمع الكبير الذى ضم ٣١٨ أسقفاً من أنحاء العالم المسيحى ليصافح الشماس اثناسيوس ويقول له " **انت بطل كنيسة الله** ".

ومن الجدير بالذكر

بعد نياحة البابا ديسقورس سنة ٤٥٤م وسيامة البابا تيموثاوس الثانى (البطريرك الـ ٢٦) ، تبع ذلك أن انشقت أسقفيه الإسكندرية بين سلسلتين من البطاركة الملكانيين وكانوا من الروم (الإغريق) وتتم رسامتهم فى القسطنطينية غالبا ومن أتباع الملك الذى كان يسام فى القسطنطينية ويرسل إلينا ويؤمنون بقرارات مجمع خلقيدونيه والسلسلة الأخرى الأرثوذكسيين (مونوفيزيين) وكانوا أقباط وطنيين تمسكوا بقوميتهم ورفضوا زعامة وسيطرة الروم الخلقيدونيين.

+لابـد هـنا أن نشـير إلـى أن شعبنا القبطى المصرى لم يقبل أن يتدخل الوالى المصرى فى رسامة البابا الارثوذكسى لأن العمل الكنسى منفصل عن العمل السياسى كمـا أنه لم يقبل على الإطلاق أن ينصب بطريرك دخيل يسمى بالبطريرك الملكانى، ولـذلك استغل شعب الإسكندرية فرصه انشغال الحاكم بالحروب الداخلية والخارجية وهجموا على (بروتيريوس) بطريرك الملكيين وقتلوه وقطعوه اربأ اربأ واحرقوا جثته وزروا رمادها فى الهواء إمعانا فى الانتقام. الأمر الذى أدى بصدور قرار الملك لاون ـــ الذى تنصّب بعد موت مركيان ـ بنفى البابا تيموثاوس الثانى إلى جزيرة غاغرا (غنغره).

بعـد موت بروتيريوس البطريرك الملكانى أقام الخلقدونيون بطريركا دخيلا خلفا له دعوه (تيموثاوس سالوفاكيوس) ولكن المصريين لم يعترفوا به وقاطعوه لمده ٧ سنين المدة التى كان فيها باباهم منفيا.

بعـد مـا تمكـن القائـد باسـيليكوس من عزل زينون أراد أن يستعين بقوه الأرثوذكسيين فأصدر أمره سنه ٤٧٦ بإعادة البابا تيموثاوس من النفى.

وممـا يذكر أنه حين تقابل البابا مع باسيليكوس طلب منه أن يصدر مرسوما بحرم لاون والزيادة التى أضافها مجمع خلقيدونيه على الإيمان النيقاوى .... استجاب الملك باسيليكوس لهذا الطلب وعقد مجمعا فى القسطنطينية حضره أكثر من خمسمائة أسـقف يتقدمهم البابا الإسكندرى وأعلنوا وجوب التمسك بالإيمان النيقاوى كما أمروا بإحراق طومس لاون وتعاليم مجمع خلقيدونيه حيثما وجدت.

عوده الملك زينون وعلاقته بكنيسة الإسكندرية:

لم يسترح اكاكيوس بطريرك القسطنطينية للنصر الذى أحرزه الأرثوذكسيون بقـياده الـبابا تـيموثاوس الثانـى مما دعاه إلى تحريض الاكليروس والرهبان فى القسـطنطينية بـإغلاق الكـنائس وتنظيم مظاهره صاخبة ضد باسيليكوس مدعيا أنه هرطوقـى فأضطر باسيليكوس إلى إلغاء مرسومه السابق وفى نفس الوقت كان الملك زيـنون قـد اعـد جيشا كبيرا لمقابلته واسترداد عرشه وتحقق ذلك فى سنة ٤٧٦م وبعـودته أصـدر مرسـوما بإلغـاء منشور باسيليكوس الدينى و أرسل يتهدد البابا تـيموثاوس الإسـكندرى لكن هذا الأخير تنيح سنة ٤٧٧م وأقام الأرثوذكسيون البابا بطرس الثالث (البطريرك الـ ٢٧) خلفا له (٤٧٧م - ٤٩٠م).

وفـى هذه الفترة توفى البطريرك الخلقيدونى (تيموثاوس - سالوفاكيوس) فى سـنة ٤٨٢م وأقـيم البطريرك يوحنا طلايا خلفا له ولأنه لم يكن على علاقة ود مع دوائـر القصر والكنيسة بالقسطنطينية مما أدى فى نهاية الأمر إلى هروبه إلى روما ..... وفـى هـذا الوقت بدأ التقارب بين اكاكيوس بطريرك القسطنطينية والبطريرك السكندرى فى الوقت الذى اخذ زينون يفقد الأمل فى كسب الكنيسة القبطية عن طريق

العنف وبات واضحا أنه لابد من التفكير فى إيجاد حل لإعادة السلام للكنيسة الذى يؤثر بدوره على سلام الإمبراطورية ووحدتها وأمنها.

الهنوتيكون (أو وثيقة الاتحاد):

كان للتقارب بين بطريرك القسطنطينية والبطريرك السكندرى إن تم عقد مجمع بالقسطنطينية بين وفديهما سنة ٤٨٢م وصدر منشور أعلن فيه لعقيدة الأرثوذكس والصلح العقيدى واللاهوتى بين الكنيسة القبطية وكنيسة القسطنطينية ويعرف ذلك (بالهنوتيكون) أو وثيقة الاتحاد اعترفوا فيه بقرارات المجامع المسكونيه الثلاثة الأولى وحرم كل من نسطور وأوطاخي وأتباعهما ولم يتعرض للنقطة الحساسة وسبب الانقسام وهى الخاصة بطبيعة المسيح وحرم كل من يؤمن بإيمان آخر. وقد تمكنا من إقناع الإمبراطور زينون بهذه الوثيقة ، كذلك كانت بمثابة رسالة موجهه من الإمبراطور زينون إلى الأساقفة والاكليروس والرهبان والمؤمنين فى الإسكندرية ومصر وليبيا والخمس مدن الغربية.

انقسام أكاكيوس :

بعد صدور الهنوتيكون حدثت ثغره بين القسطنطينية وروما عرفت فى الكنيسة الكاثوليكية باسم" **انقسام أكاكيوس**" وقد دامت هذه الفرقة نحو ٣٥ عاما.

وذلك لان فيلكس أسقف روما عقد مجمعا سنه ٤٨٤م حرم فيه اكاكيوس على الرغم من القبض على مندوبيه وحبسهم فى القسطنطينية بأمر زينون مما أدى إلى رد فعل شديد فى القسطنطينية دعى إلى حذف اسم أسقف روما من القداسات.

عصر الإمبراطور جوستنيان
وبداية الانشقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية

نستطيع أن نقول إن التوفيق الذى تم بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية لم يستمر طويلا إنما سرعان ما تغيرت الأمور وجاء الإمبراطور جوستنيان الذى كان خلقيدونيا والذى تبوأ العرش سنة (٥٢٧م – ٥٦٥م) فالغى منشور الاتحاد الذى استمر من سنه (٤٨٤م – ٥١٩م) وفى أيامه عقدت المجامع الكثيرة ضد الأرثوذكس .... وكانت زوجته ثيؤدوره ارثوذكسيه دافعت عن الأرثوذكسيين، وبفضل دفاعها أمكن للاساقفه المنفيين الرجوع إلى كراسيهم..

وعندما تبوأ البابا ثيؤدوسيوس (البطريرك الـ ٣٣) طلب منه الإمبراطور جستنيان التوقيع على قرارات مجمع خلقيدونيه ووعده إذا فعل ذلك سوف يجعله واليا على الإسكندرية وبطريركا للقارة الأفريقية وتوعده بالنفى والتشريد إذا رفض ذلك.

ومما هو جدير بالذكر

إن بابانـــا العظـــيم ثيؤدوســـيوس لم يخف من تهديدات الإمبراطور بل قال لمندوبى الإمبراطور بشجاعة انه (أى الإمبراطور) له سلطان على الجسد أما روحى فهى ملك للمسيح إفعلوا ما شئتم احبسونى انفونى أو أى أمر تريدون ،أنا على استعداد أن أتحمل كل هذا أو أكثر ولكننى لست مستعدا أن اجعل نفسى غريبا عن سيدى والهى بتوقيعى علـــى قـــرارات مجمـــع خلقيدونيه فأستدعى الإمبراطور جستنيان البابا ثيؤدوسيوس للقسطنطينية وأخذ يلاطفه ورجاه التوقيع على قرارات مجمع خلقيدونيه بعد أن وعده بكرامات كثيرة ولكن البابا رفض فنفاه وأقام عوضا عنه بطريرك دخيل يدعى (بولس التنيســـى) ولكن الشعب القبطى لم يقبل هذا الدخيل وظل وفيا لباباه الشرعى الذى ظل منفـــيا عـــن كرسيه مده ٢٨عاما حتى لقب الأرثوذكسيين بالثيؤديسيين نسبه إلى البابا ثيؤدوســـيوس وفى خلال هذه الفترة أغلق الإمبراطور الكنائس الارثوذكسيه واضطهد الأرثـــوذكس وفى خلالها أيضا مات البطريرك الدخيل فأرسل الإمبراطور دخيلا آخر يدعى أبوليناريوس الذى دخل الكنيسة بزى حربى حتى يمكنه أن يخيف ويرعب ، ثم أصـــدر أمـــراً بأن يجتمع الناس فى الكنيسة فلما تجمعوا خلع ملابس الجندية وظهر بملابس الكهنوت ثم قرأ امامهم المرسوم الإمبراطورى.

وحـــين وصل إلى إقرار المرسوم الخلقيدونى بدأ سخط الشعب على وجوههم وبدأت معركة داخليه بين الجنود الرومانيين وبين الأقباط المتأصلين فأستشهد عدد كبير منهم حتى أطلق الناس على ذلك اليوم" **المذبحة**" وكان ذلك فاتحه سلسلة من المذابح أو من الاستشهاد الدموى، ورغم استخدام القوه والعنف ظل المصريين مقاطعين ابوليناريوس الدخيل.

وعلـــى الـــرغم مـــن أن الإمبراطور جوستنيان فى سنه ٥٤٤م كخطوه نحو الأرثوذكسيين أصدر مرسوما أدان فيه ثلاثة من عمد النسطوريه عرفوا باسم " الثلاثة فصول "وقد رحبت كنائس الشرق بهذا المرسوم، بينما رفضته الكنائس الغربية.

ولـــم تهدأ المسألة التى أثارها مرسوم جستنيان إلا بموته وارتقاء الإمبراطور جوستن الثانى سنه (٥٦٥م - ٥٧٨م) خلفا له الذى أصدر هنوتيكون آخر سنة ٥٧١ م وظلـــت الأمور هكذا حتى دخول الفرس ارض مصر سنة ٦١٧م ولكننا نستطيع أن نقول إن الإمبراطور جستنيان وخليفته هما اللذان وضعا قاعدة الكراهية وبذور الشقاق بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية

. ومما يذكر بالخير لجوستنيان اهتمامه بالقضاء على الوثنية التى كانت ما تزال حيه فى أطراف الإمبراطورية. فشجع الإرساليات إلى بلاد النوبة لكن زوجته ثيؤدوره سارعت وأحبطت خططه بإرسال بعثات ارثوذكسيه إلى تلك البلاد مقابل الإرساليات الملكانـــيه ... كما أغلق جستنيان معابد ايزيس الوثنية فى جزيرة صقلية ومعابد آمون فـــى واحـــة ســـيوه وحل محلها كنائس مسيحية كما بنى الدير الذى يحمل الآن اسم

(سانت كاترين فى جبل سيناء وكان يعرف سابقا باسم دير الاستحالة (استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه) ومن أعماله أيضا بناء الحصن بدير الأنبا انطونيوس ودير الأنبا بولا بالبحر الأحمر .

وقد تميزت أحوال مصر السياسية خلال تلك الفترة بسوء التنظيم الادارى:

فقد قسم جستنيان مصر إلى قسمين إداريين: الإسكندرية والوجه البحرى وجعل له حاكما وصعيد مصر وجعل له حاكما آخر، كانت خطه جستنيان التخفيف عن كاهل الحاكم الواحد لكل البلاد لكن عمليه التقسيم بذرت بذور التنافس وسوء التنظيم بين الحاكمين لإقليم واحد وأحدثت اضطراب وتشويش فى شئون الحكومة .. كانت نتيجته أن تعرضت مصر إلى عناصر الشر من الداخل أو أطماع الغزاة من الخارج.

من اشهر الحوادث فى هذه الفترة:

عندما ذهب البطريرك الدخيل (اولوجيوس) والوالى وجنوده للاستيلاء على احدى الكنائس التى كانت باسم القديسين قزمان ودميان ثار الشعب القبطى على البطريرك الدخيل والوالى وجنوده واستشهد الكثيرون وكان الشعب يحمى البابا انسطاسيوس (البطريرك الـ ٣٦) من يد الخلقيدونيين ولكن البابا الإسكندرى انسطاسيوس خوفا من إراقة الدماء بسببه ذهب إلى بريه شهيت وظل صائما مصليا من اجل شعبه فاستجاب الله لصلاته ومات الإمبراطور (فوقا أو فوكاس) مقتولا واستولى على عرشه بعد ذلك هرقل الذى دخل فى أيامه الفرس إلى مصر وهكذا انتقم الله لشعبه إذ يقول الكتاب المقدس (لى النقمة أنا أجازى يقول الرب).

" الفصل الثانى "

الاحتلال الفارسى لمصـــــــر
فى الفترة بين سنة (٦١٧ م - ٦٢٧م)

انتهــز الفرس فرصه ضعف الدولة البيزنطية وبدأوا يغيرون على ممتلكاتها فبعد أن انتهى الفرس من فتح بلاد الشام اتجهوا إلى مصر فحاصروا الإسكندرية التى وصلوا إليها أولا، والتى كانت تموج بأخلاط من جنسيات مختلفة من الروم والسوريين والــيهود إلى جانب الأقباط، يضاف إلى هؤلاء جميعا أعداد من طلاب العلم وبعض اللاجئين وفدوا إليها من بلاد عديدة ولم تكن هناك رابطة تربط هؤلاء جميعا.

وذكــرت المراجع إن الخائن الذى سهل إلى الفرس اقتحام مدينه الإسكندرية كان طالب علم وفد من إقليم البحرين ويدعى بطرس ولا تعرف ديانته، كما لا يعرف الدافــع الذى دفعه إلى الخيانه سوى أن بلاده (البحرين) كانت تحت الحكم الفارسى وكان أهلها خليطا أكثرهم من الفرس واليهود.

ولقــد خرّب الفرس وهدموا الكثير من الكنائس والاديره وهم فى طريقهم إلى الإســكندرية كما أنهم إثناء حصارهم لها ، صبّوا جام غضبهم على الأماكن المجاورة خاصة الأديرة ونهبوها ومثلوا برهبانها ... وكانت المنطقة المحيطة بالاسكندريه فى ذلك الوقت غاصة بالأديرة فقد قيل أن عددها بلغ ستمائة دير.

ويذكــر التاريخ انه بعد أن دخل الفرس الاسكندريه قتلوا الكثير من أهلها كما اخذوا البعض اسرى أرسلوهم إلى بلاد فارس ... ومن الذين نجو من يد الفرس البابا اندرونيكوس (البطريرك الإسكندرى الـــ ٣٧) الذى جلس على الكرسى المرقسى فى الفترة بين سنة (٦١٦م - ٦٢٣م) وقد قيل أنهم احسنوا معاملته.

وجدير بالذكر انه بينما كانت الإسكندرية على وشك السقوط فى ايدى الفرس هــرب نيتكيتاس حاكم مصر البيزنطى ومعه يوحنا (الرحوم) البطريرك الملكانى فى سفينة متجهين إلى القسطنطينية.

وبعد فتح الإسكندرية صار الجيش الفارسى نحو الجنوب بمحازاة النيل قاصدا صعيد مصر وكانت معامله القائد الفارسى للمواطنين الأقباط واحده فى كل مكان "يحل المــوت والخراب حيث حل " فكانوا يشيعون الموت والدمار فى كل مكان يحلوّن فيه وقد ذكر الأنبا ساويرس بن المقفع انه لما بلغ الجيش مدينه نقيوس (بشاتى) وشى إليه عــدو للأقباط ضد الرهبان الذين كانوا يعيشون فى مغاير الجبال مدعيا أن لديهم مالا كثيــرا ...وفى مناسبة دينيه كان الرهبان مجتمعين كلهم فى مكان واحد فما كان من القائد إلا أن حاصر ذلك المكان أثناء الليل بجنوده وفى الصباح اقتحموه وقتلوا كل من فيه من الرهبان.

وقـيل أيضا أنهم جمعوا شباب الإسكندرية فى ميدان فسيح بعد أن وعدوهم بأنهم سيوزعون على كل واحد ٢٠ دينارا وبعد أن اجتمع عدد كبير أحاط بهم الجيش وقتلهم ويقال أن عدد الذين قتلهم كسرى ملك الفرس حوالى ٨٠ ألف قبطى.

ملاحظات هامه عن هذه الفترة:

١ ـــ عندما سقطت أورشليم فى يد الفرس سنة ٦١٤م حملوا الصليب المقدس وآلات تعـذيب المسـيح ونهبوها غير إن الإمبراطور هرقل وضع خطه لاسترجاع الصليب المقـدس وهـى أن يضغط على الفرس فى أماكن قريبه نسبيا من القسطنطينية حتى يضـطرهم للانسحاب من مصر وبالفعل تم ذلك سنه ٦٢٧م وتمكن هرقل من استعاده الصليب المقدس ووضع فى القبر المقدس بأورشليم واستولى على مصر بعد انسحاب الفرس منها.

٢ ـــ عـادت مصر ثانيه إلى الحكم البيزنطى لكن هرقل لم يستفد شيئا من الدرس القاسـى ولم يكتف بأنه أحيا سياسة جستنيان فى مصر بل بالغ فيها بزيادة، فقد عين بطريـركا ملكانـيا صار هو حاكم مصر كلها فى نفس الوقت مع منحه سلطات دينيه وحربيه ومالية وتنظيميه وقضائية واسعة.

٣ ــ وفى محاوله جديدة لكسب فريق الأرثوذكسيين من أصحاب الطبيعة الواحدة دون أن يخسـر الخلقيدونيين الغربيين لجأ إلى صياغة ايمانيه جديدة تحل محل الهنوتيكون الـذى لـم يحقق النجاح الكامل ... اتحد هرقل مع سرجيوس بطريرك القسطنطينية وأعلـن فـى سـنه ٦٢٢ م العقـيدة الجديـدة التـى عرفت باسم **المونوثيليتيه** (**MONOTHELETISM**) (وهـى القول بمشيئة واحده فى المسيح) على أمل أن تحل محـل الاعتقاد بطبيعة واحده فى المسيح فى الأقاليم الهائجة فى سوريا ومصر. وفى سـنة ٦٣٨م طبع هرقل **مرسوم الذى عرف باسم (اكتيسيس) ((Ecthesis**وعزم على إرغام الجميع على قبول المونوثيليتيه.
ولكـن المقاومة الكبرى لتلك العقيدة الجديدة كانت فى الإسكندرية حيث رفض الأقباط أى حل بيزنطى ابتداءاً من خلقيدونيه إلى الهنوتيكون والمونوثيليتيه.

٤ ـــ نظـرا لاهمـية مصر الخاصة للامبراطوريه البيزنطية إذ كانت تعتبر مخزن غلالها لذلك فقد رفض هرقل الاستسلام للنزعة الانفعالية الدينية والمدنية بها بل صمم علـى رفـض معتقده بأى وسيله. وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ هذا المخطط هى تعيـين سـيروس (**(Cyrus**المعـروف فى المراجع العربية باسم المقوقس بطريركا ملكانـيا علـى الإسكندرية والحاكم الامبراطورى لإقليم مصرفى عام ٦٣١م وكان ذا

ميول نسطوريه.
وكــان هــرقل يهــدف من تعيين المقوقس هذا (أن يقهر الأقباط لكى يقبلوا الإيمان الخلقيدونـــى والمونوثيلتيه بأى وسيله) وقد بدأ المقوقس فى تنفيذ خطته بلا ادنى شفقه وفــى خــلال عشر سنوات غدا من أكثر.الطغاة المكروهين فى تاريخ مصر ... فقد استخدم الصليب وصولجان الحكم لسحق المقاومة الوطنية.

٥- ومــن فــرط الضيق الذى أحدثه المقوقس هرب البطريرك القبطى الارثوذكسى البابا بنيامين (البطريرك الـــ ٣٨) (٦٣٣م - ٦٦٢م) إلى دير بالصعيد وظل مختفيا حتـــى الفـــتح العربى لمصر - ومن الذين نالهم الشدائد فى تلك الفترة الأنبا صمئويل المعترف الذى بدير القلمون بصحراء الفيوم ومن الذين استشهدوا فى تلك الفترة أيضا الطـــوباوى مينا شقيق الأنبا بنيامين ومن الكواكب التى ظهرت فى تلك الفترة وأنارت الكثيرين بضيائها للسلوك فى عالم الروح والفضيلة الأنبا بسنتاؤوس أسقف قفط والأنبا يوأنس أسقف البرلس والأنبا دانيال قمص بريه شهيت..
ممـــا ســـبق يمكـــن القـــول إن لسوء معامله الحكام البيزنطيين وبطاركتهم الملكانيين واضـــطهادهم العنـــيف للأقـــباط بأبشـــع الصور وأشدها قسوة جعل الأقباط يحملون لمضـــطهديهم مـــن البيزنطيين ولكل ما هو بيزنطى كراهية عميقة ساعدت فى اتساع الهوة بين الكنيستين القبطية والبيزنطيه.
كما كانت هذه الفترة بمثابة إعداد للأقباط لاستقبال الفتح العربى لمصر الذى كان إيذانا بـــبدء صفحه جديدة من تاريخ كنيسة الإسكندرية العريقة صاحبه السجل الحافل بآلام الأقباط وثباتهم وبطولتهم وشجاعتهم وحبهم للآلام.

وخلاصـــة القول وما يستحق التنويه عنه فى هذه الفترة إن الشعب القبطى المصرى الوطنـــى لم يساعد الفرس ضد البيزنطيين كما انه لم يبد أية مقاومه عندما عاد هؤلاء إلى الحكم مره أخرى، كما أريد أن أوضح إن الشعب القبطى المصرى أيضا لم يطمع مـــن الناحية الوطنية إلا بشبه استقلال أساسه حرية العقيدة الدينية وخفض الضرائب وهـــى السياســـة التى سار عليها عمرو بن العاص فى بادئ الأمر عندما دخل مصر غازياً.

---

[i] مجلد الكرازة لعام ١٩٨٥

[ii] تاريخ الكنيسة القبطية القس منسى يوحنا ص ١٤٩

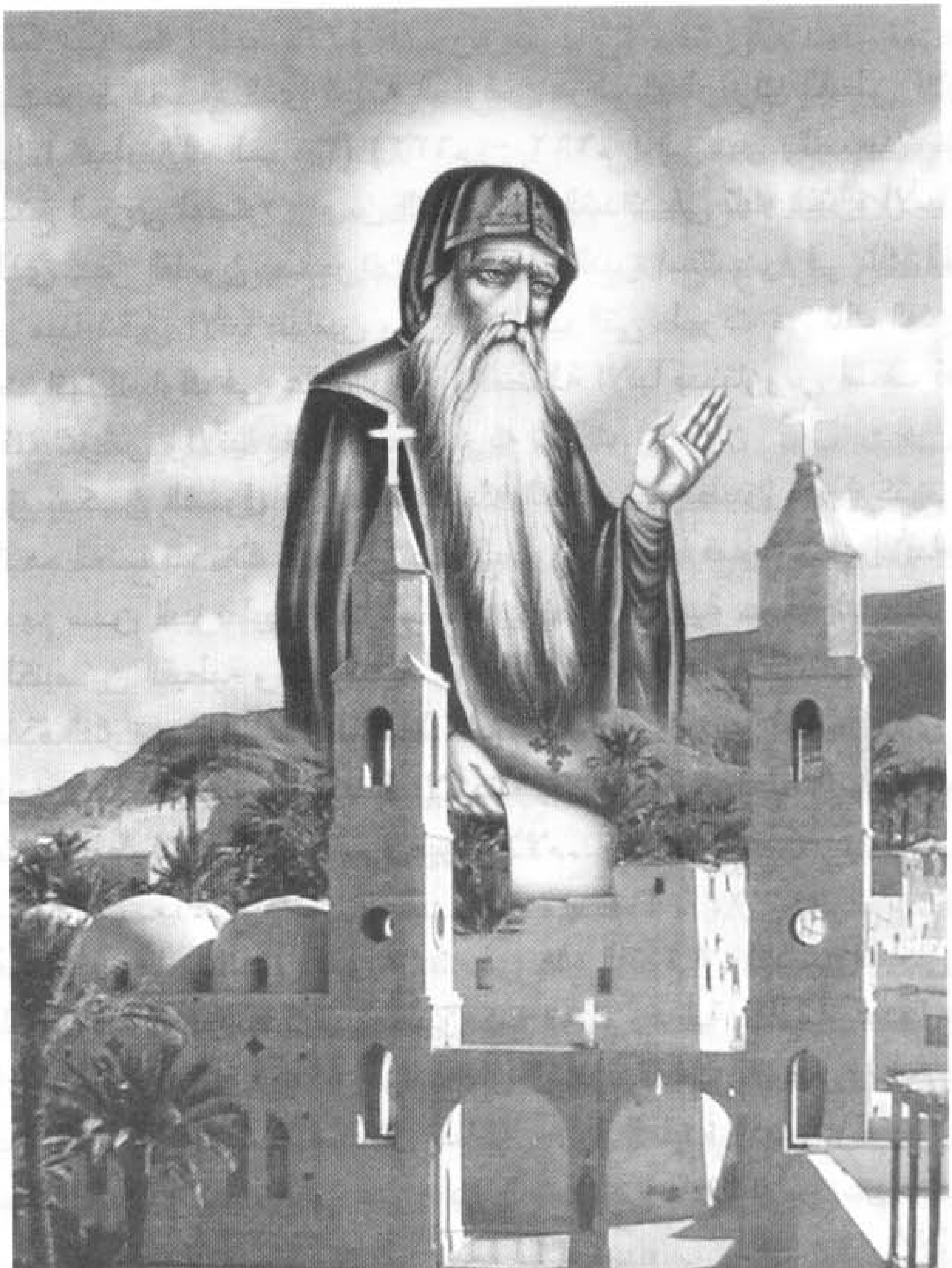

القسم الثانى

(٦٤٢م ــ ٩٦٩م)

من بداية

الغزو العربى لمصر

حتى

نهاية الدولة الإخشيدية

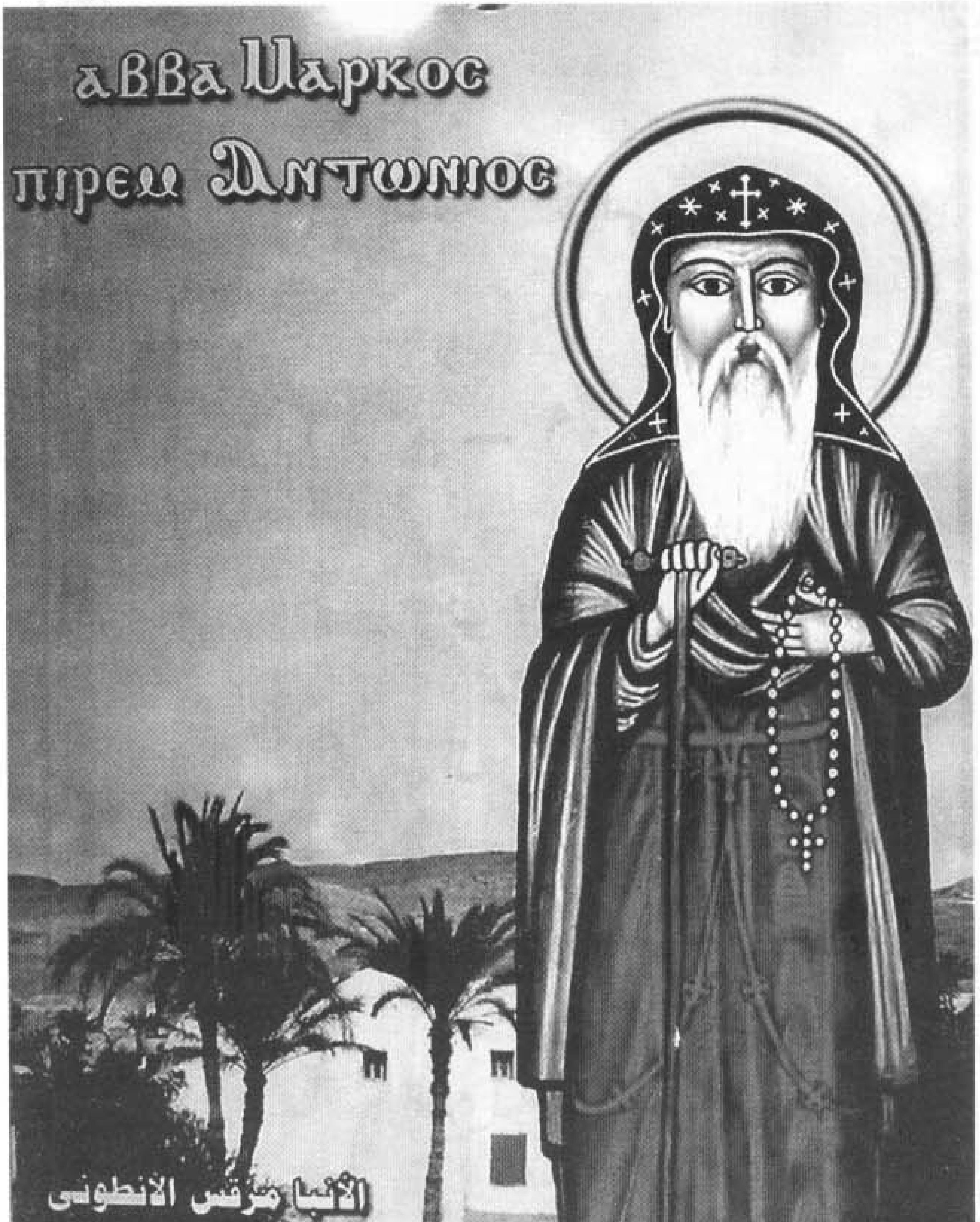
ⲁⲃⲃⲁ Ⲙⲁⲣⲕⲟⲥ
ⲡⲓⲣⲉⲙ Ⲁⲛⲧⲱⲛⲓⲟⲥ
الأنبا مرقس الانطونى
عيد نياحته ٨ أبيب

الباب الرابع

الكنيسة القبطية فى ظل الحكم الإسلامى

قبل الدخول فى هذا الموضوع ينبغى أن نعرف المعلومات الآتية:

١ ــ ذكر أن محمدا صاحب الشريعة الإسلامية أرسل فى السنة السادسة للهجرة كتابا إلـى المقوقس الذى كان واليا على مصر من قبل الملك هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام فأكرم المقوقس رسله وأرسل معهم هديه من ضمنها جاريه قبطية تسمى ماريه اتخذها سـريه فـرزق بـولد سماه إبراهيم ولكنه لم يعش ولم ترزق منه بغيره. وقد استنتج بعضهم أنه من ذاك الحين كان بين المقوقس وزعماء العرب صلات وعلاقات سرّيه.[١]

ويقال أن الخطاب الآتى هو الذى أرسله نبى المسلمين للمقوقس:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من أتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مـرتين فـإن تولـيت فعليك إثم كل القبط. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهد بأننا مسلمون"

رسول الله محمد

وهذه صورة خطاب المقوقس:

من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله.
"أمـا بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن انه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكانه عند القبط عظيم وكسوة واهديت لك بغلة لتركبها والسلام".

المقوقس

والكتابان مرتاب في صحتهما.[٢]

٢ ـــ عــند فتح مكة أمر محمد بإزالة جميع الصور من الكعبة ما عدا صور السيد المسيح والعذراء مريم.[٣]
٣ ـــ أوصى محمد رسول الله عدم إكراه القبائل العربية على الإسلام مثل الغساسنة (وهــم مــن أكثر القبائل أصالة فى العروبة وهم الروم الأرثوذكس العرب اللبنانيون) وبنى ربيعة (وهم موارنة بلبنان) ومثل قبائل بنى ثعلبة وبنى جرم وسليم وطى.
٤ ـــ وفــى فجــر الإسلام دفن فى قبر واحد الوالى المسلم الوليد بن عقبه والشاعر المسيحى أبازيد.
٥ ـــ وفى عهد الرسول سرق مسلم درعا من مسلم وأخفاه عند ذمى دون أن يخبره أنه مسروق وضبط الدرع عند الذمى. وشهد له عدد من أقاربه بأن المسلم قد أحضر الــدرع وأودعـــه عنده كأمانة، لكن أقارب السارق من المسلمين تدافعوا يريدون دفع الوصـــمة والعـــار عنهم وعن قريبهم، واتجهوا جميعا إلى الرسول ملحين أن ينصر المسلم وإلا هلك ويلبسهم العار لحساب ذمى.وأوشك الرسول أن ينصر المسلم لولا أن نزلت الآية الكريمة "إنا نزلنا إليك الكتاب الحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن من الخائبين خصما" وحكم الرسول للذمى ضد المسلم.[٤]
إذا كان هذا أيام الرسول فماذا جرى لمصر الآن؟
٦ ـــ مما هو جدير بالملاحظة فإنه يبدو أن فتح العرب لمصر كان مقررا قبل وفاه نبى المسلمين فعلى الرغم من أن النبى لم يزر مصر قط فإنه كان يكن للأقباط عطفا ملحوظا يتضح ذلك فى الحديث " استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم ".[٥]
كما أن جميع المؤرخين والكتاب المسلمين يتنافسون فى ذكر هذه الأحاديث المطبوعة بطابــع العطــف البلــيغ ومــنها وصــيته عند وفاته " الله، الله فى قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عده وأعوانا فى سبيل الله " ومن حديث له أيضاً" قبط مصــر فــإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم " ولما ســئل " كــيف يكونــون أعوانا على ديننا يا رسول الله قال " يكفونكم أعمال الدنيا و تتفرغون للعبادة " وقال أيضاً " لو بقى إبراهيم حيا ما تركت قبطيا إلا وقد رفعت عنه الجزية (إبراهيم هو ابن النبى من ماريه القبطية)
٧ ـ ذُكر عن الرسول إنه أمر بإعطاء قوم مجذومين من النصارى الصدقات ويجرى عليهم القوت.[٦]
كمــا أوصى خليفته بالمسيحيين وأوصى بذمه الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وألا يكلفوا فوق طاقاتهم.[٧]
٨ ـ لما رأى هرقل ما كان من استيلاء العرب على سوريا خاف على مصر التى لم يــبق له فى الشرق سواها لئلا يلحقها ما لحق غيرها وأراد أن يستبقيها له وإذ لم يكن فــى اســتطاعته ذلك بالقوة بادر بعقد معاهده مع الخليفة عمر بن الخطاب مؤداها أن

هـــرقل يدفع إلى خزينة المسلمين جزيه سنوية معلومة نظير تغاضيهم عن فتح مصر ولكـــنه لم يقم بدفع الكميه المتفق عليها، فاعتبرت المعاهدة لاغيه لذلك اتخذ عمرو بن العـــاص إلغاء عمر بن الخطاب المعاهدة سببا للإلحاح عليه بفتح مصر وسهل له ذلك بقوله أن أهلها اعجز الناس عن القتال وان فى فتحها عونا عظيما للمسلمين فهى أكثر الأرض أموالا واجزلها خيرا.[٨]

كما قال عبد الله بن عمرو (قبط مصر أكرم الناس خارج الجزيرة العربية وأسمحهم يـــدا وأفضـــلهم عنصرا ومن أراد أن ينظر الفردوس أو ينظر إلى مثيلاتها فى الدنيا فلينظر إلى مصر حين يخضر زرعها وينبثر ثمرها).[٩]

الفصل الأول

الغزو العربى لمصـــــــر

استـطاع عمـــرو بن العاص أن يأخذ موافقة الخليفة عمر بن الخطاب بغزو مصــــر فجهــز جيشا يتكون من ٤٠٠٠ مقاتل ووصل إلى العريش ومنها إلى الفرما (شــرق بورســعيد) وسقطت الفرما فى يد العرب بعد حصار دام شهرا كاملا وهدم أســوارها وحصـــونها وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٤٠م وبعد شهر آخر سقطت مدينه بلبيس... وكانت معركة حاميه بين البيزنطيين والمسلمين خسر فيها البيزنطيين حوالى ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير كما قتل من العرب أيضاً عددا ليس بقليل.

بعـد ذلــك وصل العرب إلى حصن بابليون (بنى هذا الحصن الإمبراطور تــراجان وكـــان يعرف باسم قصر الشمع ولا تزال بقايا هذا الحصن موجودة بمصر القديمـــة بجوار الكنيسة المعلقة) ... ودام حصار العرب للحصن وقتا طويلا وبعدها تمكــن العــرب مـــن الاستيلاء على قرية أم دينين (منطقه الازبكيه) وذلك بعد أن وصـــلهم مـــددا عربيا بقياده الزبير بن العوام ... كما غزا العرب منطقه الفيوم وكان ذلك فى نفس العام سنة٦٤٠م.

فتح حصن بابليـــــون:

عرض المقوقس فى بادئ الأمر التفاوض مع العرب وكان ذلك فى ابريل سنه ٦٤١. وكان فى ذلك الوقت محاصرا داخل حصن بابليون.

فكان رد عمرو بن العاص عليه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث:

١ - إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم أخواتنا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا.

٢ - وإن أبيتم فالجزية عن يد وانتم صاغرون.

٣ - وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

رفض الروم الخضوع للعرب وصمموا على مواصله القتال، واتصل المقوقس بالإمبراطور يخبره بشروط العرب ولكن هرقل أرسل إلى المقوقس يعنفه على تخاذله فى مقاتله العرب. فى أثناء ذلك استطاع الزبير بن العوام أن يصعد إلى اعلى الحصن بواســطة ســلم وكان قد اتفق مع الجنود العرب أن يكبروا جميعا بصوت واحد متى سمعوا تكبيره ...حدث ذلك وسط سكون الليل، فظن الروم أن العرب اقتحموا الحصن فحــدث هـــرج ومرج وهربوا، وتقدم الزبير إلى باب الحصن وفتحه (بعد أن استمر حصـــار العـــرب للحصن سبعه شهور) بعد ذلك طلب قائد حامية الحصن وكان من الروم الصلح مع العرب.

أهم ما يخص الأقباط فى شروط الهدنة:

١ - أن يدفع كل قبطى متمسك بدينه ديناران عن كل سنه بصفه جزيه ويعفى الشيوخ والنساء والصبيان وغير القادرين.

٢ - إلا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وألا يتدخلوا فى شئون المسيحيين.[١٠]

فتح الإسكندرية:

بعـد أن تـم فـتح حصن بابليون سار عمرو إلى الإسكندرية وكان الروم قد استعدوا فيها لمعركة فاصلة مع العرب بل لقد استعد هرقل لمباشره الحرب بنفسه لولا أن المنـية وافـته فكان لموته أكبر الأثر فى إضعاف شوكه الروم...وبعد أن حاصر العـرب الإسـكندرية مده ١٤ شهرا بعدها استسلمت المدينة ...ولظروف الانقسامات الداخلية داخل الإمبراطورية الرومانية بعد موت هرقل اضطر الروم إنهاء حربهم مع العـرب وعقد الصلح، إذ ذهب المقوقس إلى بابليون حيث ابرم الصلح مع عمرو بن العاص.

وعقدت معاهده ثانيه تعرف باسم معاهدة الإسكندرية أو معاهده بابليون الثانية وذلـك لانعقادها فى بابليون وتمييزا لها عن بابليون الأولى وبذلك اعتبر الأقباط أهل ذمـة.وعقب معاهده الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا إلى باقى أقاليم مصر وبعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح مصر اتجه إلى بنتا بوليس (الخمس مدن الغربية) فسـار عمرو إليها وفتحها وفرض عليها الجزية .. كما أرسل عمرو عبد الله بن سعد بـن أبى سرح على رأس حمله إلى بلاد النوبة حوالى ٦٤٢ . وكانت النوبة فى ذلك الحين مملكة قويه مستقلة فاستعصى غزوها على العرب فكتب عمرو إلى عبد الله بن سعد يأمره بالرجوع.

وممـا هو جدير بالذكر أن عمرو بن العاص بعد معاهده الإسكندرية وفتحها عين المقوقس حاكما على الإسكندرية والوجه البحرى بعد أن عين عبد الله بن سعد بن أبى سرح حاكما على الوجه القبلى.

فتح دميـــاط:

كان للمقوقس نسيب يسمى الهاموك كان حاكما على دمياط وتوابعها ولكنه لم يسـلم المديـنة لعمرو وأبى واستعد للمقاومة فأرسل إليه عمرو بن العاص فرقه من العرب فحاربوه وقتلوا أحد أولاده فجمع كبراء البلد ووجهاء القوم ليشاورهم فى الأمر فقام من بينهم رجل وطنى وقال " اعلم أيها الأمير أن العقل لا قيمه له وما استغنى به أحـد إلا وهـداه إلـى سبل الفوز والنجاة من المهالك وقد رأينا أن هؤلاء العرب لم تـنخفض لهـم راية ولم ينكس لهم علم ولسنا نحن بأشد قوه من جيوش الشام فالرأى عـندى أن نعقد الصلح معهم لننال الأمن ونفوذ بصون حرمنا ونأمن من سفك الدماء

كما فعل المقوقس وما أنت بأكثر منه رجالا ولا امضى منه عزيمة." فاستقبح الهاموك رأيه ولم يتم الرجل كلامه حتى انقضّ عليه كالأسد الضارى وقتله بيده شر قتله جزاء نصيحته وكان له ولد قد شق عليه هذا الأمر فقصد الانتقام لأبيه وكان له دار ملاصقه لسـور المديـنة وفى سواد الليل تسلق السور وخرج إلى العرب ودلهم على عورات أسـوار ومداخل المدينة وكيف يتمكنوا منها فدخلوها واستولوا عليها، ولما لم يستطع الهامـوك المدافعة أسرع بالهروب إلى المدن المجاورة وتتبعه الجيش العربى وانتهى الأمر بانتصار المسلمين عليه وفتح دمياط وتوابعها.

ملخص تفاصيل الغزو العربى لمصر فى ملحق رقم (١) فى آخر الكتاب.

سماحه عمر بن الخطاب:

١ - ومما ذكـر عـن عمرو بن العاص عندما كان فى مصر فى خلافة عمر بن الخطـاب قـيل أن قبطـيا فقيرا أتى إلى الخليفة عمر وشكا إليه أن الوالى عمرو بن العـاص لطمه فاستدعى عمرو وقال له " ولد الناس أحرارا فلماذا تستعبدوهم " وأمر القبطى أن يلطم الأمير عمرو بن العاص.

٢ - ذكـر عـن الخليفة عمر بن الخطاب انه فى احدى المرات حينما كان الوليد بن عقبه واليا على بنى تغلب ومن فيهم من النصارى، وكان يهدد النصارى ويتوعدهم عزلة من الولاية حتى لا يلقى بهم شرا.[١١]

٣ - يروى أن عمر بن الخطاب وجد عجوزا يسأل الناس فى الطرقات وعلم انه ذمى فسأله ما ألجأك إلى هذا ؟ فأجاب الجزية والحاجة والسن فأخذ عمر بيده إلى بيته حيث أطعمه ومنحه مالا واسقط عنه الجزية هو وأمثاله وأرسل إلى خازن بيت المال قائلا أعطه وأمثاله ما يكفيهم وأهلهم بالمعروف. (إذا كان هذا أيام الفتح الإسلامى.. فماذا جرى لمصر الآن) ؟[١٢]

٤ - ذكر أن تسابق قبطى مصرى مع ابن عمرو بن العاص (والى مصر آنذاك) فى زمن خلافة عمر بن الخطاب وضرب ابن عمرو القبطى المصرى بيده وشكى الأخير إيـاه للخلـيفة عمر الذى أمر باستدعائه وأبيه إلى المدينة المنورة عاصمة الخلافة - وحكم لصالح المصرى بأن يضرب ابن الوالى بذات الأداة (باليد) بل وعرض عليه أن يضـرب عمرو بن العاص معه وعلى صلعته لأنه بسلطة الأب تعدى الابن على المصـرى. ولكن القبطى المصرى رفض ضرب عمرو اكتفاء بأخذ حقه ممن تعدى عليه فحسب هكذا كان عمر بن الخطاب لا يفرق فى حقوق المواطنة بين الناس بسبب الدين.[١٣]

٥ ـــ فقــد قيل أثناء خلافة عمر بن الخطاب انه تنازع على بن أبى طالب مع رجل يهــودى وحضــر كلاهمـــا أمام عمر فقال عمر لعلى يا أبا الحسن اجلس إلى جوار خصــمك لنبحث الأمر فجلس على متأثرا وبعد قضاء عمر سأل عليا هل استأت لانى أجلستك إلى جوار خصمك قال كلا إنما استأت لأنك ناديتنى بكنيتى يا أبا الحسن وفى هــذا نــوع من التعظيم خفت أن يشعر معه اليهودى بأنه لا يوجد عدل بين المسلمين هكذا كان المسلمون يتعاملون بسماحه وعدل مع رعاياهم.[١٤]

حقيقة ينبغى أن تقال:

على الرغم من سماحة الخليفة عمر بن الخطاب إلا انه فى أيامه حدثت بعض الأمور المؤسفة نذكر منها ما يأتى:

أ - نجــد عندما دخل الخليفة اليمن حيث انتشرت المسيحية فى نجران طرد عمر بن الخطاب مسيحيى نجران فذهبوا لبلاد ما بين النهرين وأسسوا نجرانا جديدة.

ب - أمر عمر بن الخطاب زياد بن جرير الاسدى متولى الخراج الشدة مع بنى تغلب لإجبارهم على الإسلام.

ج - أمــر عمــر بــن الخطاب بإخراج المسيحيين من بلاد الحجاز وكانت المسيحية منتشــرة بــين قــبائل بنى تغلب وبنى جرم وسليم وطى ومنهم أساقفة سيمون أسقف العرب.

د - كمـــا اتهم الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص انه اختلس مبالغ كبيرة من المـــال وليس بمستغرب أن يغترف عمرو المال وهو العربى البدوى الذى وجد نفسه بين عشيه وضحاها أمام ثروة كبيرة ثم أن المؤرخين العرب لم يفندوا هذه التهمه التى وجهت إليه بل نقل إلينا بعضهم أن الخليفة استجوب أحد أقباط مصر عن خراجها قبل الإســلام فقال القبطى" يا أمير المؤمنين كان ينبغى أن لا يؤخذ شيء إلا بعد عمارتها أما عمرو فلا ينظر إلى العمارة إنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد.

وممـــا هو جدير بالذكر أن عمرو لما توفى ترك كيسا من الدنانير (ما يوازى عشره أطــنان مــن الذهب تقريبا) ورفض أولاده أن يورثوا هذا المبلغ لعفتهم، أما اليعقوبى فذكر أن عمرو ترك بعد وفاته ثروة ضخمه.[١٥]

ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح على مصر:

بعــد مــوت الخليفة عمر بن الخطاب (التى استمرت عشر سنين وستة اشهر وتسعه عشر يوما) مقتولا على يد غلام من اصل مجوسى تولى الخلافة بعده عثمان بن عفان الذى عزل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى ســرح أخاه فى الرضاعة ومما يذكر عنه انه لما تولى الاداره جبا فى أول سنه ١٤ ملــيونا من الدنانير أى بزيادة مليونين عما كان.يجبيه عمرو بن العاص فسر الخليفة بهــذه الــزيادة وقال لعمرو يوما مفتخرا بذلك " يا أبا عبد الله درت اللقحه بأكثر من

درها الأول " أى قد زاد الإيراد عما كان فى أيام إمارتك فقال له عمرو على الفور " قـد أضررتم بولدها " أى أن هذه الزيادة لابد أن تضر بأهل البلاد لأنهم لم يزيدوا فى العدد عما كان قبلا وما هى إلا نتيجة ضرائب جديدة قد أوجدها عبد الله بن أبى سرح ليظهر الفرق بينه وبين سلفه حتى يكون مقبولا عند أمير المؤمنين.[٦١]

ثـم عـاود الروم محاوله استعاده الإسكندرية من يد العرب فأرسلوا أسطولا كبيرا لإجلاء العرب عن مصر إجلاءاً تاما سنة ٦٤٥م وبالفعل فقد تم استيلاء الجيش البيزنطـى علـى الإسكندرية وزحفوا على بعض بلدان الوجه البحرى وكان ذلك فى ولايـة عـبد الله بن سعد بن أبى سرح وخلافه عثمان بن عفان ولما تحرج الموقف أرسـل عـثمان عمرو بن العاص الذى تمكن من استعاده الإسكندرية عنوه وقتل قائد جيش الروم وكان هذا آخر عهد للروم بمصر وبعدها استتبت أمور مصر للعرب.
ثم عاود عبد الله بن سعد غزو النوبة فى سنة ٦٥١م مده ولايته على مصر فى خلافة عـثمان بـن عفـان واشتدت وطأه القتال بين الجانبين وانتهت بعقد معاهده سياسية وتجاريه بين مصر ومملكه النوبة المسيحية .ومما ينبغى ذكره انه لما انتهى عمرو مـن قتال الروم أراد الخليفة عثمان أن يكافئه على أتعابه فى هذه الحرب الأخيرة بأن يولـيه رئيسـا على جند مصر، وعبد الله بن سعد على خراجها فلم يوافق عمرو بن العاص بذلك وانصرف عنها ولم يعد إليها إلا فى سنه ٣٨ للهجرة.

كيف تولى عمرو بن العاص ولاية مصر مرة ثانيه؟

بعـد عـزل عبد الله بن سعد من ولاية مصر ولىّ مكانه محمد بن أبى بكر الصديق لكنه لم يصل إليها إلا فى خلافة الإمام على بن أبى طالب لأنه فى أثناء ذلك قتل عثمان بن عفان على يد المسلمين الثائرين وتولى الخلافة بعده الإمام على بن أبى طالـب فعزل جميع الولاة وولى غيرهم من المتقربين إليه. لكن معاوية بن أبى سيفان الـذى كـان واليا على الشام رفض الخضوع لخلافة على بن أبى طالب وثار ضده وصـار يخطب فى الناس ويبث فى أذهانهم أن على بن أبى طالب هو القاتل لعثمان وحرّضـهم علـى الأخـذ بثأره وساعده على ذلك عمرو بن العاص وبايع أهل الشام معاوية على أن يكون خليفة لهم وهكذا أصبح للمسلمين خليفتان على بن أبى طالب فى المدينة ومعاوية فى الشام ولذلك انقسموا إلى شطرين.

لم تدم هذه الانقسامات كثيرا إذ قتل على بن أبى طالب (على يد أحد الرجال المسـلمين) وخـلا الجو لمعاوية واعترف له الكل بالخلافة ومما يذكر عنه انه قتل جميع أقرباء على حتى لا يكون له منازع ولا مخاصم وجعل مقر الخلافة فى دمشق الشـام وبمـوت الإمـام على بن أبى طالب انتهت مده الخلفاء الراشدين الذين تولوا الخلافـة بعد الرسول وعددهم أربعه وهم ابوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان

بن عفان و على بن أبى طالب ثم انتقلت الخلافة إلى الدولة الأموية التى أول خلفائها معاوية بن أبى سيفان.

وكانـــت الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين انتخابيه فجعلها وراثية وانحصرت فى ذريته تنفيذا لمآربه وبقيت في يدهم نحو تسعين سنة.

أما ما كان من أمر مصر فان معاوية لما بايعه أهل الشام بالخلافة طلب من عمرو بن العاص أن يفتحها باسمه (باسم معاوية) ويكون واليا عليها مادام حيا فقبل عمرو بهذا الشرط وسار إليها ومعه ٦ آلاف فارس فدخل مصر بعد أن قبض على محمد بن أبى بكر وقتله بأن وضعه فى جلد حمار واحرقه بالنار وبقى واليا عليها إلى أن توفى فيها سنة ٤٣ للهجرة.

و مما يذكر عن عمرو بن العاص انه استعان بالأقباط فى كشف موقع مجرى أميرى المؤمنـــين مـــن القاهـــرة إلى القلزم وإعادة حفره ودفع الجزية عمن شاركوا فى هذا العمل،كما استعان عمرو بن العاص بالمهندس القبطى بقطر فى بناء مسجده بالفسطاط ،وأقـــام عمرو فى مدينه الفسطاط (مصر القديمة) وصارت عاصمه الديار المصرية ومركـــز الاداره العربية إلى زمن الفاطميين اللذين اتجهوا إلى القاهرة وجعلوها مقر خلافتهم كما سيأتى.

أولاً: الأسباب الرئيسية التى جعلت العرب يقومون بهذه الغزوات الواسعة ويوفقون فيها ومنها غزوهم لمصر .

إن انتصار العرب ــ على الرغم من قله عددهم – على الروم الذين كانت لهم الجـيوش والحصـــون أمـــر يدعو للبحث والدهشة...كيف استطاع عمرو بن العاص بجيش قوامه أربعه آلاف جندى أن يغزو مصر...وكيف استسلمت له البلاد ؟.

يمكن أن نلخص الأسباب فيما يأتى:

١ – كـــان لتحطـــيم جستنيان وحده البلاد الاداريه وتقسيمه مصر إلى خمس دوقيات (أقســام كبـــرى) يحكمهـــا خمس محافظين، ولضعف سلطه الحاكم البيزنطى المقيم بالإسكندرية واهتمامه بالمسألة الدينية المذهبية فقط، ومحاوله اباطره الدولة البيزنطية أن يُخضعوا أقباط مصر لمعتقدهم واستخدموا فى سبيل الوصول إلى ذلك كل الوسائل من قمع واضطهاد ، كل ذلك أدى إلى ضعف السلطة الحاكمة فى مصر وهكذا لم تعد حالـــه مصـــر قبل الفتح العربى إقليما بيزنطيا بالمعنى الصحيح بل كانت العلاقة بين بيـــزنطة ومصـــر علاقـــة ماديه خالصة بمعنى أن مصر تؤدى الجزية السنوية قمحا وغـــلالا وأمـــوالا ترســـل إلـــى القسطنطينية ولا يعنى البيزنطيين بغير ذلك وكانت

الضـــرائب مصـــدر شكوى الفلاحين بالاضافه إلى المظالم الكثيرة التى كانت تقع فى جبايتها .
٢ - الحمـــاس الدينى عند الجنود العرب المسلمون وهو لا يمكن إغفاله. وهذا الحافز الدينـــى نراه واضحا حتى من عهد نبى المسلمين، فبعد أن سيطر على شبه الجزيرة العربية أراد أن يدخل فى عهود ومواثيق مع القبائل المسيحية. فكتب سنه ٦٣٠م إلى نصـــارى نجران (فى بلاد اليمن) يدعوهم إلى إبرام ميثاق معهم فأرسلت قبيلة نجران المســيحية وفـــدا ليفاوض محمد نبى المسلمين فى الحصول على أحسن الشروط مع إفهامه أن القبيلة لن تتنازل عن عقيدتها المسيحية مهما كان الثمن ... وفى اليوم التالى لوصـــول الـــوفد النجرانى إلى مكة قابلوا محمدا نبى المسلمين وكان أول ما فعله أن دعاهم إلى اعتناق الإسلام ... والأمر واضح من شروط الصلح التى فرضها على أى شعب مغلوب إما اعتناق الإسلام أو الجزية أو السيف.[١٧]
٣ - العامـــل الاقتصـــادى وهو من العوامل الهامة التى كانت وراء غزوات العرب المسلمين، لقد أرادوا وهم شعب فقير جدا أن يتمتعوا بخيرات الأمصار المفتوحة.
ويقـــول تـــوماس ارنولد (أن حركه التوسع العربى كان عبارة عن هجرة جماعه بســـيطة دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها الجرداء وتجتاح بلاد أكثر خصباً كانت ملكا لجيران اسعد منهم حظاً.[١٨]
٤ - نضـــيف إلـــى ذلـــك الانقســـام المذهبى الداخلى فى مصر مابين الخلقيدونيين (البيـــزنطيين) وبـــين اللاخلقيدونيـــين (المصريين الوطنيين) هذا الصراع الذى دام حوالـــى ١٩٠ عامـــا والاضطهادات العنيفة التى اجتازتها كنيسة مصر الوطنية من الـــرومان بالإضـــافة إلى ضعف جيش الروم المدافع عن مصر كل ذلك ساعد على انتصار العرب وفتحهم لمصر.

ثانياً:موقف الأقباط من العرب الغزاة:

نســـتطيع أن نؤكد أن موقف الأقباط من العرب الغزاة كان سلبيا بمعنى أنهم لم يتعاونوا معهم ولم يقفوا ضدهم . وإذا كان الأمر كذلك فمن الذى ارشد العرب فى زحفهم إلى ارض مصر؟
يجمـــع الباحثون أن مرشدى العرب كانوا من اليهود .. يذكر ساويرس بن المقفع فى تـــاريخ الـــبطاركة أن الإمبراطور هرقل رأى فى منامه أن شعبا مختونا سيثور عليه ويهزمه ويملك الأرض . فظن هرقل لأول وهله أنهم اليهود فأمر بتعميد جميع اليهود والســـامريين فـــى كل ولايات الإمبراطورية .. هذا التصرف من جانب هرقل جعل الـــيهود يعرضون خدماتهم على العرب ، وقدموا لهم خدماتهم وأعطوهم ما يحتاجونه من معلومات وبذلوا لهم المساعدة فى سوريا ومصر.[١٩]

ويقول الفريد بتلر فى تاريخه عن فتح مصر لم يكن يوجد قبطى واحد فى ساحة القتال ومن الخطأ الادعاء أن الأقباط كانوا يستطيعون فى ذلك الوقت أن يجتمعوا أو يقاتلوا أو يفاوضوا العرب .لم يستقبل الأقباط العرب كمحررين لبلادهم فلقد كان الأقباط يجهلون كل شىء عن نواياهم وهل سيرغمهم العرب على اعتناق دين جديد هو الإسلام ؟ ونحن قد رأينا كيف أن الأقباط وقفوا أمام الإمبراطور البيزنطى والدولة وأبوا أن يقبلوا مجرد عقيدة جديدة فى نطاق المسيحية فهل يعقل أنهم رحبوا بأمه جديدة تدين بدين جديد لو أحسوا أنهم سيرغموا على اعتناق الإسلام وما يتبع ذلك من متاعب ومظالم .[٢٠]

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) فى كتابه الفاروق عمر (ج٢) بعد دراسة مستفيضة لعصر الخلفاء الراشدين مستندا إلى المصادر العربية "لاشك فى أن القبط لم يعاونوا الروم فى قتال العرب إلا بالقدر الذى يضطرهم إليه خضوعهم كارهين لسلطات قيصر وأعماله، ولكن لاشك كذلك فى أنهم لم يعاونوا العرب إلا إذا كانت معاونات فرديه، أما فيما عدا ذلك فقد وقف شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف المتفرج شديد التطلع.

وقد لخص الأب (جانو) موقف الأقباط من العرب الغزاة فى قوله " أنهم لم يقوموا بأى مجهود لوقف الكارثة (الغزو) ولكنهم احتموا خلف أسوار المدن التى لم يجرؤ العرب بعد على اقتحامها وانتظروا هجومهم عليها.[٢١]

ملحق رقم(٢)عن هذا الموضوع يوجد فى آخر الكتاب.

ثالثاً:كيف عامل العرب أقباط مصر عند الغزو؟

١ــ ويذكر عن عمرو بن العاص عند غزو مصر خطب فى جيشه قائلا:

" وحدثنى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين انه سمع رسول الله يقول" أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فان لكم فيها صهرا وذمه فكفوا أيديكم وعفوا زوجكم وغضوا أبصاركم".

٢ــــ كما تعهد عمرو للقبط بأن يدع لهم حرية العبادة كما سمح لهم بحريه التصرف فى شئونهم القضائية والادارية ولم يكتف عمرو بذلك بل أقام بعضا منهم مديرين لمختلف الجهات ولم يطالبهم بغير الجزية إذ الغى الضرائب الفادحة التى كان أباطرة القسطنطينية قد فرضوها على المصريين بغير رحمه على أن عمرو مع تسامحه هذا قد اعفى القبط من الجندية فحرمهم بذلك شرف الدفاع عن وطنهم عند الحاجة.[٢٢]

وبالإجمال لم يتول على مصر أمير أحسن التدبير مثله كما سنرى.[٢٣]

٣ـ لم يحاول العرب قط أن يطمئنوا الشعب المصرى على نواياهم إذ كانوا يجهلون اللغتين اليونانية والقبطية. ومع أنهم على عكس الفرس – قاتلوا بشيء من الرفق ولم يقوموا بأعمال تخريبية منظمه أو بإراقة دماء كثيرة إلا أنهم تمادوا فى بعض الأحيان فـى اقتراف أعمال مشينة وحركات قمع دامية مما لم يساعدهم على كسب ثقة الشعب وتعاطفهم معهم

ومما هو جدير بالملاحظة:.

يذكـر الأسقف يوحنا النقيوسى فى تاريخه – وهو المصدر الوحيد المعاصر للفـتح العربى – أمثله لما عمله العرب الغزاة فيقول أن " عمرو " أمر بإلقاء القبض على القضاة الرومان وتكبيل أيديهم وأقدامهم بسلاسل حديدية وأوتاد خشبية واغتصب الأمـوال وضاعف الضرائب المفروضة على الفلاحين وكان يضطرهم أن يحضروا علف الخيل كما انه اقترف كثيرا من أعمال العنف.[٢٤]

أمـا عـن حماس العرب الدينى للإسلام فيقول " عندما كان المسلمون يدخلون المدن ومعهـم الأقـباط الـذين ارتدوا عن المسيحية كانوا يستولون على أملاك المسيحيين الفـارين كما كانوا يسمون خدام المسيح أعداء الله " وهكذا نستطيع القول أن الأقباط لـم يرحبوا بالعرب ويستقبلوهم كمحررين .. ويقول ساويرس بن المقفع فى تاريخه " مـن بعد أن ملك عمرو مصر بثلاث سنين ملك المسلمون مدينه الإسكندرية وهدموا أسوارها واحرقوا بيعا كثيرة بالنار وبيعه مار مرقس التى هى مبنية على البحر حيث كان جسده موضوعا ... احرقوا هذا الموضع بالنار وما حوله من الديارات".

وإن كـنا نذكر مظالم العرب الفاتحين فلا بد – إنصافا للحقيقة – أن نقول إن هـذه المظالم لم تكن عامه أو شامله خاصة فى الفترة الأولى للفتح العربى فقد اكتشف البروفسـور جـروهمان وثيقتين برديتين يرجع تاريخهما إلى سنه ٢٢ هـ (٦٤٢م) مكتوبتين باليونانية وملحق بهما نص آخر باللغة العربية .

الوثـيقة الأولى عبارة عن إيصال حرره على نفسه أحد أمراء الجند يدعى الأمير عـبد الله بأنه استلم خمسا وستين نعجة لإطعام الجند الذين معه وقد حررها الشماس يوحـنا مسجل العقود فى اليوم الثلاثين من شهر برمودة من السنة المذكورة أولا وقد جـاء بظهر الورقة مايلى " شهادة بتسليم النعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصما عن جزيه التوقيت الأول " .

أما الوثيقة الثانية فنصها " باسم الله أنا الأمير عبد الله اكتب إليكم يا أمناء تجار مدينه بسوفتس وارجوا أن تبيعوا إلى عمرو بن العاص قوتا لفرقته (علفا بثلاث دراهم كل واحـد مـنها "بعـرورين ") وإلى كل جندى غذاء من ثلاثة أصناف. ويعلق الأستاذ جـروهمان على الوثيقتين بقوله " إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر.[٢٥]

٤ـ حريق مكتبه الإسكندرية:

لقـد اتهـم القائد العربى عمرو بن العاص بحرق مكتبه الإسكندرية الشهيرة بتصـــريح من الخليفة عمر بن الخطاب.. وتقول المصادر التى ذكرت ذلك أن عمرو أرســل للخليفة يأخذ رأيه فكان رد عمر كالآتى " و أما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كــان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله (القرآن) فلا حاجه لنا به.وإذا خالفه فلا أرب لــنا فــيه وأحــرقها .. فلما استلم عمرو هذا الكتاب أمر بالكتب فوزعت على حمامات الإسكندرية العامة لتوقد بها فكانوا يوقدون منها لمده ستة اشهر.

وقد كان أول ما ذكر القصة كتابة هو الرحالة الفارسى عبد اللطيف البغدادى فــى كتاب أسماه أخبار مصر(رحلتى إلى مصرـ فصل ٤ فقرة ١). وأبو الفرج بن العبــرى فى كتابه "مختصر تاريخ الدول " ويبدو مما ذكره عبد اللطيف البغدادى وقد كــتب كــتابه حوالى سنة ١٢٠٠م" إن قصه حريق مكتبه الإسكندرية على يد عمرو كانت شائعة ومتداولة فى أيامه.. حتى إنه قال " وهناك كانت تقوم المكتبة التى أحرقها عمــرو بــن العــاص بأمر عمر".كما أن ثلاثة من المؤرخين الكنسيين القدامى وهم سوزومين(ك ٨ ف ١٨) وثيؤدوريت(ك٥ ف٢) وروفينوس(ك٢ ف٢٢) ذكروا أن المكتــبة كانــت لا تــزال موجودة فى القرنيين الرابع والخامس ويذكر كيرلس مقار بطريرك الأقباط الكاثوليك وكان رئيسا للمجمع العلمى المصرى بالانتداب فى بحث له عن سرابيوم الإسكندرية(بالفرنسية ص٣٠) مستندا إلى شهادات الاقدمين " إن مكتبه الســرابيوم التى كانت فى القرن الرابع(المكتبة العظمى بالإسكندرية) لم تحرق بأمر يوبيانوس (جوفيان) سنه ٣٦٤م ولا خربت بأمر ثاوفيلس الكبير سنة ٣٩١م بل ظلت قائمه مع المكتبات الأخرى فى القرن الخامس وحتى آخر القرن السادس.وقد أكد هذه الحقــيقة بعض المؤرخين أمثال سقراط(٥ ف١٦) وكتاب بريشا باللاتينية(إسكندرية المصريين ص٩٧) يضاف إلى ذلك أن للعرب سابقه حرق جميع كتب الفرس بإلقائها فــى الماء والنار. هذه الحقيقة التى ذكرها بن خلدون فى مقدمته.. الأمر الذى يرجح الــرأى القائل بحرق تلك المكتبة العظيمة على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب.[٢٦]

وذكر ابن القفطى وأبو الفرج الملطى وغيرهما إن عمرو لما فتح الإسكندرية كان من جملة علمائها رجل اسمه يحيى (يوحنا) الغراماطيقى فدخل عليه عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يوما "انك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فمالك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به" فقال له عمرو" ما الذى تحتاج إليه" قال " كتب الحكمة التى فى الخزائن

الملوكية" فقال له عمرو" هذا لا يمكنى أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه " وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله (القرآن) ففى كتاب الله غنى عنها وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقوم بإعدامها" فشرع عمرو فى تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى وأعجب.

٥ـ عودة البابا بنيامين (البطريرك الـ ٣٨):

ولما استتبت الأمور وعلم عمرو بن العاص باختفاء البابا القبطى بنيامين (البطريرك الــ ٣٨) هاربا من قيرس (المقوقس) البطريرك الملكانى نتيجة الظروف التى كان يمــر بها الأقباط كتب عمرو بن العاص كتاب أمان للبابا بنيامين يقول فيه " الموضع الــذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمــنا مطمئنا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته "..ويقال أن الذى سعى فى عوده البابا بنيامين أحد الأقباط ويدعى سنوتيوس (شنوده) وكان بين قاده الجيش الرومانى كما يقــال أن عمرو وهو فى طريق عودته بعد فتح الإسكندرية خرج للقائه رهبان وادى النطرون فلما رأى طاعتهم سلمهم كتاب الأمان للبابا.

لــم يلــبث عهــد الأمــان أن بلــغ البابا بنيامين فخرج من مخبئه وعاد إلى الإســكندرية ودخلها دخول الظافرين وفرح الناس برجوعه فرحا عظيما بعد أن ظل غائبا مده ثلاثة عشر عاما.. منها عشره أعوام قبل الفتح العربى وثلاثة أعوام فى حكم المسلمين. وكان البابا بنيامين ذا هيئة جميله تلوح عليها إمارات الوقار والجلال وكان لــذلك اثر عظيم فى نفس عمرو بن العاص حينما ذهب إليه البابا والتقى به، حتى انه قال لأصحابه " إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل الله يشبه هذا " ثم التفت إليه عمرو وقال له " جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم وإذا أنت صــليت علــى حتى امضى إلى الغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر وأعود إليك سالما بسرعة فعلت لك ما تطلب منى" فدعا البابا بنيامين له وقال له كلاما طيبا أعجبه هو والحاضرين معه ثم انصرف من عنده مكرما مبجلا.

وممــا هو جدير بالذكر أن عمرو بن العاص رد إلى البابا بنيامين الكنائس التى كان اســتولى عليها الروم كما سمح له بترميم الكنائس التى هدمت وساعده فى بناء كنيسة جديــدة بالإســكندرية وأكثــر من ذلك قام عمرو بن العاص بتنظيم البلاد فى جميع النواحى الاداريه والمدنية وبالجملة فان القبط نالو فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ زمان.[٢٧]

وقد نجح البابا بنيامين فى جمع القبط الأرثوذكس ولم شملهم كما اتجهت همته إلـــى إصلاح ما تهدم من الأديرة ولاسيما ما كان منها فى وادى النطرون وقد لحقها التخريب الكثير منذ أوائل القرن السابع على يد الفرس الخلقيدونيين..
ومن ذلك زيارته بريه شهيت وتكريسه لبيعه جديدة بدير القديس أبو مقار، حيث رأى السيد المسيح يكرس الهيكل بنفسه كما ظهر له أيضاً القديس أبو مقار.

كـــل ذلك حدا بالمؤرخ بتلر أن يقول عن البطريرك بنيامين " ولقد كان لعوده بنيامـــين أثـــر عظيم فى حل عقده مذهب القبط وتفريج كربته إن لم تكون عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك إذ لم يكن قبط مصر فى وقت من الأوقات أشد حاجة منهم فى ذلك الوقت إلى ذى رأى فصيح وخلق متين يقودهم ويدبر أمرهم.[٢٨]

٦ــ عدد القبط وقت الفتح العربـــــى.

المؤرخون المسيحيون والمسلمون الأوائل ممن أرّخوا الفتح العربى فى مصر فـــى شـــبه إجمـــاع على أن عدد من فرضت عليهم الجزية دينارين بحسب معاهدتى بابلـــيون والإســـكندرية بلغـــوا ستة ملايين وذلك لأن مقدار الجزية وحدها (بخلاف الضرائب الأخرى على الأرض وخلافه كانت تسمى الخراج) التى جمعت منهم بلغت اثنـــى عشر ألف ألف دينار (اثنى عشر مليونا) ومعلوم أن الجزية كانت تقرر على الذكور ممن تبلغ أعمارهم من ١٥ إلى ٦٠ سنه ويعفى منها النساء والشيوخ والصبيان والمعوقـــين وغير القادرين والرهبان.. واضح إن من كانت تنطبق عليهم شروط دفع الجزية كانوا حوالى ربع سكان مصر من القبط فى ذلك الوقت .. نعتقد أن عددهم كان لا يمكـــن أن يقل عن خمسه وعشرين مليونا هذا وإن كان المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول يقول أن ابن عبدالحكم يقدر دافعى الجزية (ضريبة الرأس من ستة إلى ثمان ملايين نسمه فإذا كان الأمر كذلك فالعدد يرتفع إلى نحو ثلاثين مليون قبطى.[٢٩]

رابعاً: عمر بن الخطاب وفتح القدس:

عـــندما فتح عمر بن الخطاب القدس أعطاهم العهد التالى (الذى عرف بعهد عمر) " بســـم الله الـــرحمن الـــرحيم هـــذا مـــا أعطـــى عـــبد الله أميـــر المؤمنين أهل إيليا (اســـم القدس بعد سقوطها فى عهد تيطس الرومانى وطرد اليهود منها) من الأمان وأعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من حليتهم شيئا ولا شئ من أموالهم ولا يكرهون على ديننا ولا يضار أحد منهم" .[٣٠]

١ــ صلاة عمر بن الخطاب فى القدس:

بعد أن فتح عمر بن الخطاب القدس سنه (١٥ هــ - ٦٣٦ م) كان أول عمل قام به عمــر أن زار كنيســة القــيامة ولمــا كان فى داخلها حان وقت الصلاة فأشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلى فى داخل الكنيسة قائلا (مكانك صلى) ولكن عمر أبــى وخرج من الكنيسة وصلى فى مكان على مقربه منها خشية أن يتخذ المسلمون صلاته فى داخل الكنيسة ذريعة فيضعوا أيديهم عليها فقابل النصارى عمله هذا بالشكر وذكره المؤرخون بالتقدير.[٣١]

٢ــ سماحة عمر بن الخطاب فى القدس:

ذكــر أن عمــر بن الخطاب عندما كان فى القدس أتاه رجل من النصارى له ذمة مع المســلمين فى كرم عنب فشكا إليه همه فركب معه ولما رأى أن فريقا من المسلمين أكلــوا مــا فــى الكرم لشدة ما أصابهم من جوع أعطاه ثمن ما أكلوه وقد أمر رجاله بالعدل قائلا لهم متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

٣ــ مسجد عمر بن الخطاب بالقدس والعهد العمرى:

بعــد أن أعطــى عمر بن الخطاب العهد العمرى للبطريرك صفرونيوس- طلب من البطريــرك أن يدله على مكان يبنى فيه مسجدا للمسلمين فدله البطريرك على منطقه هــيكل ســليمان وكــان المكان مهجورا بالمرة وكانت الصخرة المبنى عليها الهيكل المتهدم مغطاة بالزبالة والأقذار إذ كان سكان المدينة اتخذوها مزبلة فدهش عمر وراح ينضح بكفيه وينقله بثوبه ويتبعه الصحابة فراحوا يرفعون عن الصخرة التراب إلى أن بــدت للناظرين فأمر عمر ببناء مسجده فى ذلك المكان وذكر المؤرخون هذه الحقيقة وهــى أن عمر رضى الله عنه قد بنى مسجده فى المنطقة التى كان مقام فيها الهيكل وكان من الخشب ويتسع لثلاث آلاف من المصلين وكان ذلك سنه ٦٣٦ م.[٣٢]

٤ــ عمر بن الخطاب والتاريخ:

ذكر عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب الذى قال عنه " محمد " زوج ابنته لقد جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه انه تنفيذا للعهد العمرى (القيود التى فرضها الإسلام والمســلمين علــى أهــل الذمة) وفى فتره خلافة عمر بن الخطاب اخضع المسلمين لطاعــته ٣٦ ألف مدينه وقلعه وهدموا ٤٠٠٠ كنيسة ومعبد وبنوا ١٤٠٠ جامع وبعد مئة عام من هجرة محمد للمدينة امتد نفوذ خلفاء محمد وسلطانهم من الهند إلى المحيط الاطلسى وعبر الأقاليم المختلفة والنائية.[٣٣]

الفصل الثانى

سياسة العرب الغزاة تجاه الأقباط

أولا: الشريعة الإسلامية وأهل الذمة:

كـــان العـــرب بحكم بيئتهم الأولى يجهلون فن الحكم .. والقرآن بتعليماته فيما يجب اتــباعه حــيال أهــل الذمة، جعل مهمة الحكام فى الاراضى المحتلة شيئا صعبا فقد اضــطر هؤلاء الحكام بحكم الظروف إما إلى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث وإما إلى تفسيرها حسب أهوائهم ..

وهكــذا تعرضـــت هـــذه المبادئ منذ بداية الفتوح العربية لبعض التغييرات الخطيرة فازدادت الفوارق بين المبدأ الذى كان يشتد أحيانا على أهل الذمة وبين تطبيقه.

ويقــول الدكـــتور تـــرتون فى كتابه أهل الذمة فى الإسلام " من المتفق عليه تاريخيا انه ورد فى الحديث النبوى " لا يجتمع دينان فى بلاد العرب " مما حمل عمر بن الخطاب على طرد جميع اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية باعتبارها دار الإسلام دون سواه من الأديان. وقد خلت بلاد الحجاز من الذميين نتيجة طردهم منها.. علـــى انـــه لم يؤد هذا المفهوم إلى إخراج الذميين من بلاد اليمن.. على أية الحالات فــنحن نرى تضاربا فى تطبيق هذا الاتجاه.. ففى حياة محمد نبى المسلمين كان هناك نصرانى اسمه موهب يسكن مكة ذاتها لكن عمر فى خلافته حرم دخول المدينة على غير المسلمين من الذكور البالغين ولم يستثن من هذا التحريم سوى شخص يدعى أبو لؤلــؤة لأنـــه كان صانعا ماهرا.. ويبدوا أن الاحتياج إلى بعض النصارى كان يلزم الحكام المسلمين بالسماح بدخول البلاد المحرمة هكذا فعل عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سيفيان الذى لما أرسل ابنه يزيد مع الحج استصحب يزيد معه طبيبه النصرانى أبا الحكــم كمـــا أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان أحد المهندسين الروم المسيحيين إلى مكة لعمل هندسى عقب أحد الفيضانات التى هددت الكعبة وأرسل الوليد بن عبد الملك بن مروان ثمانين صانعا من الروم والقبط لإعادة بناء مسجد محمد.. كما اشترك كثير من العمال الذميين فى بناء المساجد.[٣٤]

ثانيا:أهل الذمة وعهد عمـــــر:

خضـــع أهـــل الذمـــة أيضا لشروط عمر التى تعرف باسم عهد عمر. ذكرها القلقشندى (١٣٥٥ - ١٤١٨) فى كتابه (صبح الأعشى) ... ونحن نذكرها هنا لأن بعـــض ولاة مصـــر المســـلمين رجعوا إليها أحيانا. هذه الشروط المنسوبة لعمر بن الخطـــاب وضـــعت أولا فـــى صوره خطاب حرره أهل سوريا ورفعوه للخليفة عمر ليصدق عليه.

وقام القلقشندى بتلخيص الشروط المفروضة على أهل الذمة وهى: الجزية والضيافة والانقياد لأحكامنا. وعندما يركبوا الحمير يجعل الراكب رجليه من جانب واحد. وأن ينزلوا المسلمين صدر المجلس وصدر الطريق. والتمييز عن المسلمين فى اللبس وإنهم لا يرفعون ما يبنونه على جيرانهم المسلمين وإنهم لا يحدثون كنيسة ولا بيعه فيما أحدثه المسلمون من البلاد.

موضوع عهد عمر محل نقاش من جهة صحة نسبته إليه .. لكن الأمر الذى لا يمكن إنكاره أو تجاهله هو أن بعض الخلفاء والولاة وفقهاء المسلمين ساروا على نفس الخط الواضح نحو الذميين فى عهد عمر طوال الحكم الإسلامى.

ومن جهة مصر . فان عمرو بن العاص كان فى بادئ الأمر قد صالح أقباط مصر على مبدأ الجزية الذى اشرنا إليه لكن المؤرخ المقريزى يذكر أن عمر بن الخطاب ما لبث أن كتب لواليه على مصر عمرو بن العاص " أن أختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص وليظهر مناطقهم ويجزوا نواصبهم ويركبون على الأكف عرضا ولا تضرب الجزية إلا على من جريت عليه الموس دون النساء والولدان ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم ".[٣٥]

ثالثا:الأقباط والنظام المالى:

اهتمت الخلافة الإسلامية عقب فتح مصر مباشرة باستغلالها وجباية أموالها وتشهد المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب فتح مصر على أن الخليفة كان يريد جباية نفس القدر الذى كان يجبيه الروم من مصر.[٣٦]

وينسب لعمرو بن العاص انه قال لأقباط مصر بعد الفتح (أن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته " ويذكر ابن الحكم أن عمرو قتل أحد أثرياء الصعيد ويدعى بطرس لأنه اخفى كنزا له فكان ذلك سببا فى أن يخرج الأقباط كنوزهم خوفا من القتل.[٣٧]

ومن الواضح أن الأقباط سرعان ما عادوا إلى المعاناة من كثره ما فرض عليهم من ضرائب. تماما كما كانوا فى زمن الروم إذ أن الأعباء المالية التى تطلبتها الخلافة كانت كثيرة وأصبح مطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت مال المسلمين وللمنتفعين من الولاة والموظفين.[٣٨]

وتقول دكتورة سيده كاشف " يظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية ولذلك كانت الجزية سببا فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعا معناه نقص دخل الدولة وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفه مقدار الجزية على من تبقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل أن الخليفة عمر بن

عبد العزيز أرسل إلى حيان بن صرح عامله على خراج مصر أن يجعل جزيه موتى القبط على أحيائهم.
والملاحـــظ أن الأعباء المالية أخذت تزداد تدريجيا على الأقباط مما اضطر الكثيرين إلى التحول إلى الدين الإسلامى فرارا منها، وعندما كثر عدد الأقباط الذين دخلوا فى الإســلام كثر العبء المالى على من بقى على دينه منهم.. كذلك بدأ وإلى مصر عبد العزيــز بن مروان سنه (٦٨٥ - ٧٠٥) فرض الجزية على الرهبان إذ أمر بإحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض دينارا جزيه على كل راهب وأمر إلا يترهب أحد بعد أن أحصاه وكانت هذه أول جزيه أخذت من الرهبان.[٣٩]

وفـــى خلافـــة الوليد بن عبد الملك وأثناء ولاية أخيه عبد الله بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧٠٩) زادت الأعــباء المالية على الأقباط وقد اسلم عدد منهم لكن من ناحية أخرى قامت فى عهده حركه مقاومه سلبية ضد سياسة العرب المالية من جانب الذين لــم يرضوا بتغيير دينهم بسبب الأعباء المالية فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق مختلفة غير تلك التى كانوا مقيدين فيها ... غير أن الوالى تشدد فى قمع تلك الحركة التـــى كانـــت تهدد بإثارة الفوضى فى مصر فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة فأمر بوســم الغـــرباء الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع مختلفة وقد استمرت حركه الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى خلف عبد الله بن عبد الملك (٧٠٩ - ٧١٤) بل إنها اتخذت فى عهده شكلا واسعا فكانت أسرات بأســرها رجـــالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان إلى مكان لا تستقر فى مكان معين وذلـــك فرارا من دفع الضرائب .. وفى خلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) كـــان متولـــى خراج مصر أسامه بن زيد التنوخى وقد اشتد أسامه فى طلب الخراج والجـــزية وأمـــر عماله إلا يتوانوا فى جمع الضرائب فأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الأعباء المالية وقد أمر أسامه إلا يأوى أحد غريبا فى الكنائس أو الفنادق أو السواحل .. وقد عمل أسامه بن زيد إحصاء ثانيا للرهبان بعد الإحصاء الذى تم فـــى عهـــد عبد العزيز بن مروان وجبى منهم الجزية كما أمر الرهبان ألا يقبلوا فى الـــرهبنة مـــن يأتـــى إليهم بعد ذلك وأمر أسامه بوسم كل راهب بحلقه حديد فى يده اليسرى كان يكتب عليها اسم بيعته وديره وتاريخه أما من وجد هاربا أو غير موسوم فقد كان يلقى عقابا قاسيا.[٤٠]
وبسبب الحاجة إلى المال كان بعض الخلفاء والولاة يستمرون على جمع الجزية حتى ممـــن يسلمون ولاشك أن معظم الذين اعتنقوا الإسلام من الأقباط كان بسبب التهرب من دفع الجزية وليس حبا فى الإسلام كدين فقد حدث فى ولاية حفص بن الوليد الثالثة علـــى مصر سنة ٧٤٥م من قبل الخليفة مروان بن محمود عندما أعلن إعفاء كل من

يسلم من الجزية. اعتنق نحو أربعه وعشرين ألفا من الأقباط الدين الإسلامى. كذلك عندما قرر الخليفة العباسى أبو العباس السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره تخلى كثير من المسيحيين عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم.[٤١]

رابعا: أهل الذمة ووظائف الدولة:

لم يشمل عهد عمر مسألة استخدام أهل الذمة لأن القران أجاب على ذلك بالنفى وقد تمسك عمر طوال مده خلافته بأحكام القران...وقد أورد لنا الفقيه بن النقاش خطيب (١) مسجد بن طولون فى القرن التاسع الميلادى عده أمثله لما اتبعه الخليفة عمر" قال أبو موسى الاشعرى للخليفة: استخدمت رجلا نصرانيا. فأجابه الخليفة: ماذا فعلت أيها الرجل ؟ أن الله سيعاقبك. ألم تدرك معنى قول الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين (المائدة ٥٠) " فقلت يا أمير المؤمنين استخدمته وتركت جانبا عقيدته. فأجاب عمر: ليس هذا عذرا ولن أشرف أبدا الذين احتقرهم الله. ولن أرفع أبدا الذين وضعهم الله فى حاله دنيئة ولن اقترب من الذين أبعدهم الله منه، وكتب إلى الخليفة عمر أحد قواده ليستعلم بخصوص إدخال الكفار فى الوظائف العامة فقال: " إن الأموال التى تدفقت على الخزينة بكثرة، ولا يستطيع غيرهم أن يقوم بالأعمال الحسابية قل لى حينئذ ما يستحسن عمله " ... فأجاب عمر " لا تشركوا الكفار فى أعمالكم لا تعطوهم ما حرمه الله عليهم. ولا تضعوا ثروتكم فى أيديهم ولا تنسوا هذه المبادئ التى يجب أن يسير عليها كل رجل " . وكتب الخليفة إلى أحد قواده: أن الذى يستخدم كاتبا نصرانيا، يجب إلا يشاطره فى حياته أو يكن له عاطفة أو يجلسه بجانبه أو يستشيره لأن النبى والخليفة أمرا بألا يستخدم الذميين فى الوظائف وتلقى الخليفة عمر رسالة من معاوية بن أبى سيفان يقول فيها " يا أمير المؤمنين أنى استخدم فى ولايتى نصرانيا لا أستطيع بدونه أن أجمع الخراج.
ولكن أردت قبل أن يقوم بهذا العمل أن انتظر أوامركم " فأجاب الخليفة " أدعو الله أن يقينى هذا الشر. قرأت الرسالة التى وجهتها إلى بخصوص النصرانى. وإعلم أن هذا النصرانى قد توفى والسلام.[٤٢]

أما رأى الفقيه النقاش، فلم يكن أقل صراحة من رأى عمر رغم الفاصل الزمنى بينهما (نحو ٢٣٠سنه) لقد سئل الفقيه " ما هو رأى علماء الإسلام وهم قاده الشعوب، فيما يختص باستخدام الذميين وبالاستعانة بهم بصفه كتاب لدى الأمراء لإدارة البلد أو لجباية الخراج ؟ أهو عمل شرعى أم محرم فأجاب ابن النقاش أعلم أن الشرع لا يسمح باستخدام الذميين وهذا رأى جميع المسلمين أما العلماء فقد أفتوا بعدم استخدام الذميين فحرموه بتاتا أو أعربوا على الأقل عن عدم رضائهم لأنهم يقولون :

لا عهـد بينـنا وبـين أنصار النبى،ويمكن تطبيق هذا الكلام على أقباط مصر الذين يعـتقدون أنهم غير مرتبطين بعهد مع المسلمين فان قيل أن الآيات التى ذكرتها تتعلق فقـط بشعور الصداقة نحو النصارى بينما إن المسألة تتعلق باستخدامهم في الوظائف العامـة ، أقول " لا يستخدم الإنسان إلا من يثق فيه .. وعلى أية حال فان الله تعالى حـل المشـكلة الخاصـة بالذميـين حلا قاطعا إذ قال " من يتولهم منكم فانه منهم. (سوره المائدة الآية ٥١).

وقـد كره عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى أن تكون يد الذمى هى العليا فيكون له السلطات على المسلمين وحاول تنفيذ ذلك.فأرسل إلى الولاة عن هذا الخصوص رسالة يقول فيها " أما بعد فان الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله وشرفهم و أعزهم،وضرب الذلـه والصـغار علـى من خالفهم وجعلهم خير امة أخرجت للناس.فلا تولين أمور المسـلمين أحـدا مـن أهل الذمة، فتبسط أيديهم وألسنتهم. وتذلهم بعد أن أعزهم الله، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم "لذلك فقد عزل عمـر بـن عـبد العزيـز جماعـة مـن العمال القبط بمصر، واستبدل بهم عمالا مسـلمين.والواقـع انـه كان شديد التمسك بتطبيق ذلك المبدأ فى جميع نواحى الدولة الإسلامية لأنه كتب ذات مره يقول "إن من أراد أن يقيم فى مملكته وبلاده فليكن على دين محمد مثله، ومن لا يريد فليخرج عنها".[٤٣]

ممـا هو جدير بالذكر أن ابن النقاش كان فقيها من الدرجة الأولى وخطيبا لمسجد ابن طولـون وكان يعطى دروسا فى هذا الجامع وفى بعض مساجد القاهرة وتوفى سنه (١٣٦٢م) وقـد اعتمدنا على رأيه لسببين: أولا لأنه كان يقيم بمصر ويتحدث فى كتبه الفقهـية عـن الأقـباط بوجه خاص ثم انه عاش بمصر فى زمن كانت البلاد تتمتع بالاسـتقلال..وكـان المسلمون يسيطرون على حالة البلاد سيطرة كاملة. كما أنه لم يذكر نصوص القرآن ولكنه فسر معنى الآية(٧٥ من سورة آل عمران).

خامسا:القيود الخارجية المفروضة على أهل الذمة:

عرض عمر لهذه القيود بصفه عامة ثم جاء الفقهاء ليفسروا ما قاله عمر يقول أبـو يوسف قاضى بغداد فى "كتاب الخراج" عن (القيود المفروضة على أزياء أهل الذمـة)" ينبغـى أن تخـتم رقـابهم فى وقت جباية جزيه رووسهم حتى يفرغ من عرضهم. ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف أن سألوا كسرها وأن يتقدم فـى أن لا يتـرك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه، ولا فى هيئته ويـؤخذوا بـأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده فى وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم مضربه".[٤٤]

وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من الخشب وبأن يجعلوا شـراك نعالهم مثنية ولا يحذوا على حذو المسلمين وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ويمـنعوا مـن أن يحدثوا بناء بيعه لهم أو كنيسة... فمر عمالك أن يتخذوا أهل الذمة بهـذا الزى هكذا كان عمر بن الخطاب .. أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين.[٤٥]

وقـال أبو يوسف أيضاً " حدثنى عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه أن عمـر بـن عبد العزيز كتب إلى عامل له: أما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا إلا كسر وسـحق ولا يـركبن يهودى ولا نصرانى على سرج وليركب على أكاف ولا يركبن امـرأة من نسائهم على رحالة وليكن على أكاف وتقدم فى ذلك تقدما بليغا، وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانى قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لى أن كثيرا ممن قبلك مـن النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الحمام والومز وتركوا التقصيص، ولعمرى لئن كان يضع ذلك فيما قبلك أن ذلك بك لضعف وعجـز ومصانعه وإنهم حين يراجعون ذلك ليعلموا ما أنت فانظر كل شئ نهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام".

وإن هذه الفقرة لتدل بوضوح على أن هذه القيود قد حذفت أحيانا بعد ظهورها وترجع أسباب هذه المخالفات أكثر ما ترجع إلى اعتبارات مالية وسياسية.

وسنتحقق من ذلك بوضوح عندما نتكلم عن عهد الولاة.[٤٦]

سادسا:أهل الذمة ودية من يقتل منهم :

هـناك تضارب كبير بين الفقهاء فى هذا الأمر .. يقال أن كلا من محمد نبى المسلمين وعمر بن الخطاب أباح دم المسلمين الذين يقتلون النصارى اغتيالا والمأثور عن النبى محمد انه أشار إلى أن من قتل ذميا فلن يشم رائحة الجنة .. ولكن على بن أبـى طالب قال " لا يقتل مؤمن بكافر " وقد دعاه إلى هذا القول وجود فكره ضد قتل المسلم لقتله ذميا.

ويقال أن كلا من أبى بكر وعمر وعثمان طالب فديه كاملة غير منقوصة كما فى حالة المسلم تماما. ولكن مالك بن انس يقول بأن دية الذمى نصف دية المسلم سواء كـان القـتل عمدا أو خطأ .. ويرى الإمام الشافعى أن دية الذمى ثلث دية المسلم فى العمـد والخطأ .. وقيل أن دية الذمى المقتول زمن محمد نبى المسلمين كانت نصف دية المسلم.وإذا قتل رجل من المسلمين فى ارض أهل الذمة التزم أهلها الذميون بديته إذا لم يعرف قاتلوه أو لم يستطع القبض عليهم.[٤٧]

سابعا:الإسلام والمرتــد:

الفقهـاء المسـلمون متفقين على إن الموت جزاء الردة عن الإسلام. وهم فى ذلـك متمسكون بالحديث القائل يقتل من بدل دينه .. ويصر البعض على قتل المرتد مهما كانت الظروف التى دعت إلى ردته، على حين يرى البعض الآخر أن يستتاب. فأن استتاب ولم يصر على ردته فلا يجوز قتله.. وطبعا هذا الكلام ينطبق على الذمى الـذى يعتنق الإسلام تحت أى ظروف وبعدها أحس بخطئه وأراد العودة إلى دينه .. وان كان الفقهاء متفقون على قتل المرتد، لكنهم يختلفون فى المدة التى ينفذ بعدها الحد .. فمـنهم مـن يقول يجب قتل المرتد فى الحال، والبعض يرون أن يمهل ثلاثة أيام للاستتابة، فان تاب قبلت توبته.

سئل عمر بن الخطاب عن رأيه فى رجل اسلم ثم ارتد ثم أراد العودة هل يقبل إسـلامه، قـال " اقبلوه منه، وقدموا له الإسلام فان قبله اتركوه وإن لم يقبله فإقطعوا رقبـته.". وأخذ رأى عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى فى أمر يهودى أسلم ثم ارتد فقال " ادعه إلى الإسلام فان اسلم اخلوا سبيله و أن أبى اقتلوه.[٤٨]

ثامنا:الإسلام وشهادة الذمـــى:

يكـاد يكون هناك إجماع بين فقهاء المسلمين بعدم جواز شهادة ذمى لمسلم لا فى سفر ولا فى حضر ويقال أن عمر بن عبد العزيز كان أول من اخذ بهذا الرأى . وبعـض المصـادر تظهـر مـدى التزمت فى هذه الحالة فيرفض أبو حنيفة ومالك والشـافعى شهادة الذمى فى حالة مسلم مرض مرض الموت وهو فى سفره وأراد أن يوصى فلم يجد أحدا من المسلمين يتخذه شاهدا فأوصى وصيته لذمى ومع ذلك يرفض هؤلاء الفقهاء شهادة الذمى حتى فى هذه الحالة.[٤٩]

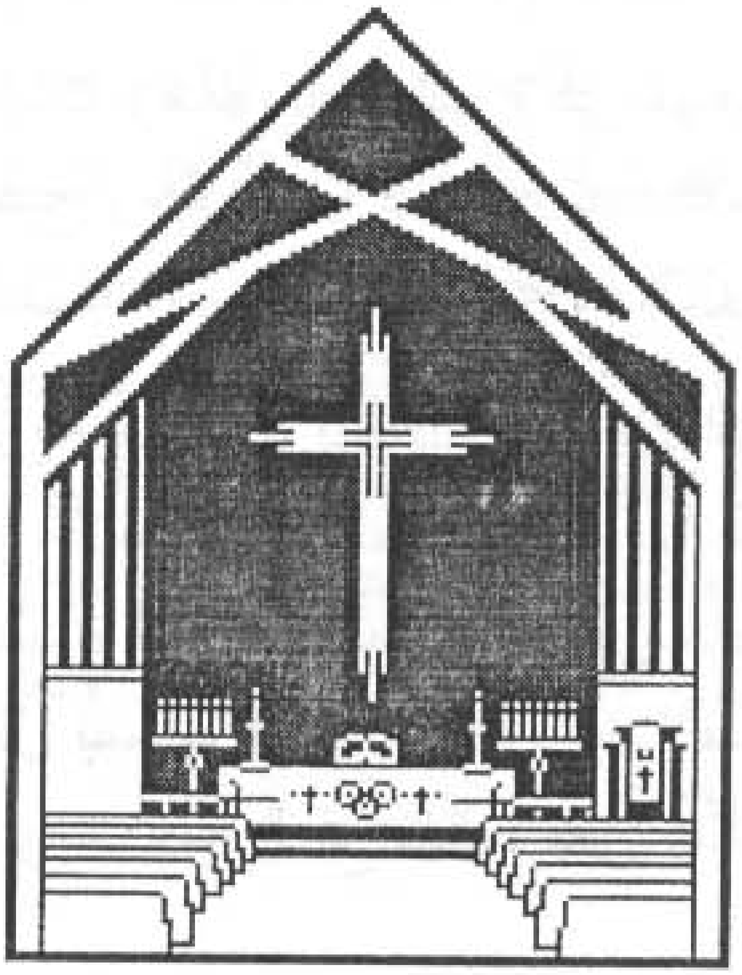

الفصل الثالث

آراء إسلامية معتدلة بخصوص أهل الذمة فى الإسلام

علـى انه من المفيد أن نشير هنا ـ بعد أن عرضنا لموضوع أهل الذمة فى الشـريعة الإسـلامية إلى ما كتبه مؤخرا الدكتور محمد عماره فى كتاب الهلال عدد فبرايـر ١٩٧٩ بعنوان " الإسلام والوحدة الوطنية "..والكاتب تخرج فى الأزهر ودار العلوم وحصل على الماجستير والدكتوراه فى العلوم الإسلامية يقول :

أولا: الجزيـــــة:

لقـد القـى فى فكر أمة الإسلام وتراثها الفكرى والتاريخى بفعل الممارسات السياسـية والاداريـه التى لم تكن أبدا إسلامية وبسبب منحها التبرير والمباركة من الفقهاء ورؤساء الدين القى فى فكر أمة الإسلام وعقلها . إن أهل الشرائع الأخرى من أهـل الذمـة وأصحاب الكتاب هم رعايا من الدرجة الثانية وفى أحسن الأحوال أنهم ليسوا مع المسلمين على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات وكان وجوب (الجزية) عليهم وإعطائهم لها وهم صاغرون أهم فارق شكلا وموضوعا يقيم جدار التفرقة باسم الدين.صحيح أن القرآن الكريم قد تحدث عن هذه الجزية فى موطن واحد وآيه واحده فقال " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى تعطوا الجزية عن وهم صاغرون " (سورة التوبة : ٢٩)

وصحيح كذلك أن حكاما مسلمين لا يرقى الشك إلى التزامهم بتعاليم الإسلام – ومـنهم عمر بن الخطاب – حصّلوا الجزية من أهل الكتاب .. بل لقد تحدثت مصادر الـتاريخ عن أن الرسول، قد عقد صلحا مع نصارى نجران، ومجوس البحرين وفيه نص على دفعهم الجزية للدولة الإسلامية.

ولكـن هـناك روايات ومأثورات كثيرة فى موضوع الجزية، هذه تحتاج إلى تمحـيص ودراسـة وتصحيح وعلى ضوء نتائج هذا التمحيص والتصحيح، سنجد أن اغلب التطبيقات فى تاريخنا لهذا الأمر هى سياسة ومظالم لا علاقة لها بالإسلام.

فالشائع مثلا أن الجزية هى ضريبة يدفعها أهل الذمة والكتاب، غير المسلمين، الـذين يعيشـون فـى ديار الإسلام وأن سبب وجوبها عليهم هو عدم تدينهم بشريعة الإسـلام، وهذا هو رأى علماء المذهب المالكى الذين قالوا أن الجزية قد وجبت على أهـل الكتاب " **بدل عن القتل بسبب الكفر** " فكأن اختلاف الشريعة هو سبب وجوبها، ومن ثم فهى دائمة الوجوب ومستحقه الدفع طالما بقى هذا الاختلاف.

لكن هذا الشائع ليس هو الصحيح .. إذ لو كان سبب الجزية هو الاختلاف فى الـــدين لوجـــبت علـــى كـــل المخالفين، بينما أمرها ليس كذلك فهى لا تجب إلا على القـــادرين علـــى القتال من الرجال ولا تجب على الشيوخ ولا النساء ولا العجزة ولا المرضى من أهل الكتاب. وهؤلاء جميعا مخالفون للمسلمين فى الشريعة (الدين) ومع ذلـــك لا تجب عليهم الجزية .. كما أنها لا تجب على الرهبان. إذن فليس الخلاف فى الدين هو سبب وجوبها، وإنما هى " ضريبة جنديه " أو بدل الخدمة العسكرية "بتعبيرنا الحديث " فرضتها الدولة الإسلامية على القادرين على حمل السلاح والقتال. ممن هم فـــى سن الجندية وطور القدرة عليها. فى نظير إعفائهم من هذه الجزية لاعتبارات " أمن " اقتضتها ظروف خاصة ببعض المجتمعات التى فتحتها جيوش المسلمين عندما اقتضـــت اعتبارات الأمن هذه أن يكون الجيش جميعه فى تلك البلاد مؤلفا من العرب المســلمين، ويشــهد لذلك ما قاله غير المالكة من الفقهاء، من أنها وجبت " بدلا عن النصر والجهاد"

فلم تكن الجزية إذا ضريبة دينيه، عله وجوبها هى المخالفة فى الدين بل كانت بـــدلا مـــن الجندية عندما اقتضت ضرورات الأمن قصر الجندية على المسلمين. فلما زالـــت هـــذه الضـــرورة، وكلما تخلفت سقطت هذه الضريبة، وقامت المساواة ألحقه والحقـــيقة بـــين المواطنين على اختلاف الشرائع والمذاهب والأديان .. واليوم وبعد الـــتطور الـــذى بلغته الأمة والذى ساوى بين أبنائها جميعا فى شرف الجندية وتأدية ضريبة الدم والذود عن الوطن. هل هناك مبرر لبقايا فكر أو حديث ـــ مجرد فكر أو حـــديث ـــ عن هذه الجزية تظل معششة فى عقول متخلفة ظانة أو زاعمة أن سقوط هذه الجزية هو تعطيل لحكم من أحكام الله!

ثانيا: الـــزى الخـــاص:

ولقد ترسبت فى قناعه العامة وقطاع من الخاصة أن الإسلام قد دعا إلى تمييز أهـــل الكـــتاب عن المسلمين بزى خاص وعلى الرغم من أن الإسلام ـــ وخاصة فى قـــرآنه الكريم ـــ لم يعرض لقضية الأزياء والأشكال لا بالنسبة للمسلمين ولا بالنسبة لغيـــرهم لاهـــتمامه بالجوهـــر والمقاصد أكثر من الظواهر والأشكال إلا أن ما شهده تاريخـــنا وســـجله حول زى أهل الكتاب وأهل الذمة من مراسيم قد صدرت تحدد لهم التزيـــى بزى خاص ثم تعطل تنفيذه هذا بالرشوة أو الجاه أو مرور الزمن ثم العودة إليها ثانيا... وهكذا أن ما شهده التاريخ فى هذا المجال قد رسب فى القناعات والأفكار أن هـــذا الأمر هو دين، أو على الأقل وثيق بالدين .. ولقد أسهم فى هذا الخلط، خلط السياسة وأوامرها بالدين وشريعته.

إن أئمـــه وفقهاء أجلاء قد تحدثوا عن وجوب تمييز أهل الذمة بزى خاص ورووا أن فقهاء أجلاء قد التزموا ذلك فى مجتمعاتهم التى حكموها .. وعلى سبيل المثال فها هو القاضى أبو يوسف (١١٣ - ١٨٢ هـــ - ٧٣١ - ٧٩٨ م) يكتب فى كتاب الخراج طالـــبا من الخليفة هارون الرشيد الالتزام بذلك مع أهل الكتاب والذمة " فلا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا مركبه ولا فى هيئته ...الخ "

وقد استند أبو يوسف فى تقرير ذلك إلى أن عمر بن الخطاب قد أمر به وانه " أمر عماله بأن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال:حتى يفرق بين زى أهل الكتاب من زى المسلمين ".. ونحن لا نجادل صدق رواية أبى يوسف أن عمر بن الخطاب. قد طلب أن يتميز زى أهل الكتاب عن زى المسلمين.[٥]

وإن كانت لنا ملاحظات على القضية برمتها نوجزها فى نقاط:

١- إن صـــنيع عمر بن الخطاب فى هذا المقام - كذلك غيره من الخلفاء - ليس دينا ولا شريعة فمثل هذه الأمور ليست من الدين فى شئ.

٢ - إن خـــيال الحكـــام قد تلقف مبدأ التمييز فى الزى فأضاف فى تطبيقه التفاصيل، حتـــى ليخيل للمرء أن الذين شرعوا هذا الأمر وطبقوه هم من مصممى الأزياء.وذلك يجعل هذا الأمر إذ حل فى عادات الحكام التى نسجتها ظروف عصورهم. و أبعد عن أن تكون ذات صله بالشريعة والدين.

٣ - وهـــو أهمهـــا ـــ أن الفقهاء الذين استمروا على مر القرون يعيدون هذه القضية ويـــزيدون، لم يقفوا وقفة المتأمل للحكمة التى من اجلها بدأ عمر بن الخطاب فوضع هذا القانون .. فوصفه لم يرو عن النبى ولا عن أبى بكر وإنما روى عن عمر أى إنه من محدثات عهده، لم يتأمل الفقهاء حكمة هذا القانون ولو تأملوها لقالوا بإلغائه لأنه قد أصبح غير ذى موضوع.

ثالثا: وقف بناء الكنائس والبيـــع الجديـــدة:

وقضـــيه ثالثه جرى عليها العمل وطبقتها السلطة السياسية فى تاريخنا أو فى بعض فتراته وهى حظر بناء دور العبادة الجديدة لغير المسلمين من أهل الكتاب غير تلك التى كانت قائمه عند فتح البلاد من قبل العرب المسلمين وعقد الصلح بينهم وبين أهـــل تلك البلاد فى ذلك التاريخ .. بل إننا نجد كتب الفقه الإسلامى تكاد تجمع على منع قيام هذه المعابد الجديدة وتطلب الاقتصار على ما كان قائما منها عند الفتح كنائس كانت للنصارى أو بيعا لليهود أو بيوت نار للمجوس وأقصى ما تبيحه هذه الكتب هو ترميم بيوت العبادة هذه دون زيادة أو توسيع.

والأمر الذى لاشك فيه هو أن مثل هذا الحكم وتطبيقه إنما يمثل مظهرا للتفرقة الدينـــية وللطائفية ويؤكد غياب الوحدة الوطنية والقومية إذ ما الذى تعنيه إباحة إقامة المســاجد الجديــدة دون حظر أو تحديد مع منع غير المسلمين من ممارسه هذا الحق الــذى يمارسه المسلمون...هى إذن تفرقه لا سبب لها إلا اختلاف الشرائع الدينية .. ولا يحــق لباحث مخلص عن الحقيقة .. أن يتجاهل أن نصوص الفقهاء هذه والأدلة التى استندت إليها من المعاهدات والمصالحات وكذلك تطبيقاتها التى نهض بها ساسة العصــور الوســطى وحكامهــا وعوامها. إن هذه الأشياء قد غدت لدى الكثيرين من المســلمين " مســلمات دينيه وشرعيه " ، تسلب الشريعة عن اغلب دور العبادة غير الإسلامية ، وتجرد القرارات الحديثة باقامه المعابد الجديدة لأهل الكتاب من الحجية الشــرعية . ومــن ثــم فلا بد من فتح باب النظر من جديد فى هذا الحكم الذى أجمع أغلــب الفقهاء والباحثين عن علاقته بالإسلام كدين، وبالشريعة الإسلامية كنهج الهى يجــب أن يلتزمه المسلمون. ونحن نرى إن هذا الحكم رغم وروده فى كتب الفقه فهو ليس دينا، ولا هو من الشريعة الدينية وإنما هو من الترتيبات الاداريه والسياسية التى مارســتها الســلطات السياســية بعــد عصر الفتوحات مدفوعة بقدر غير ضئيل من التعصب ثم جاء الفقهاء فقننوها وجعلوها فقها، وذلك بعد أن استولوا عليها بنصوص معاهدات واتفاقات صلح عقدت فى صدر الإسلام.

وإن كانــت هــذه الأصوات المخلصة تدل على أن الحق له أنصاره ومريدوه فى كل مكان وزمان لكنه يؤسفنا أن يقع فى أيدينا كتاب(إقامه الحجة الباهرة على هدم كنائس مصــر والقاهــرة) " لشيخ الإسلام احمد الدمنهورى فى القرن الثامن عشر " وطبعته جامعــه كاليفورنيا الذى يورد آراء فقهاء المذاهب الاربعه بوجوب هدم الكنائس ليس المستحدث منها بل حتى ما كان قائما بها من بيوت العبادة لغير المسلمين..

الباب الخامس

الكنيسة القبطية فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (٦٤٢ م - ٧٥١ م)

" الفصل الأول "

الأقباط والخلفاء الراشدين والدولة الأموية

ملامح هذا العصر:

كانــت الخلافة فى زمن الخلفاء الراشدين تبعث بالولاة من مقرها فى المدينة المنورة ومن الكوفة زمن على بن أبى طالب، ومن دمشق زمن معاوية بن أبى سفيان وهكذا كانت مصر ولاية تابعه للخلافة، ولذلك سمى هذا العصر بعصر الولاة.

وقد تولى حكم مصر وإدارتها فى هذه الفترة عدد كبير من الولاة:
ويمكن ترتيبهم كالآتى:-

أولاً: فى عصر الخلفاء الراشدين من سنه (٦٤٠ م - ٦٦١ م)

١ ــ **عمرو بن العاص فى الفترة (من سنه ٦٤٠م - ٦٤٤م)** وكان ذلك فى خلافة عمر بن الخطاب الذى قتل بواسطة عبد فارسى يدعى فيروز ويلقب بأبى لؤلؤة حيث هجم عليه وهو يصلى وضربه بخنجر فى خاصرته فقتله.

٢ ــ **عبد الله بن سعد بن أبى سرح (من سنه ٦٤٤م - ٦٥٣م)** فى خلافة عثمان بن عفان الذى قتل بيد محمد بن أبى بكر. وقد طعنه برمح وقتله والقرآن فى يده.

٣ ـــ **محمــد بن أبى بكر الصديق (من سنه ٦٥٣م - ٦٥٨ م)** فى خلافة الإمام على بن أبى طالب الذى قتل بتحريض من أئمة الإسلام فى مكة فخلا الجو لمعاوية بن أبى سفيان وبايعه الجميع خليفة له وهو أول خلفاء الدولة الأموية.[٥١]

ثانيا فى عصر الخلفاء الأمويين:

١ـــ **عمــرو بــن العــاص، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٦٥٩م ـ ٦٦٣م)** (٣٨هـــ /٤١هـــ).وقيل عن مقتل عمرو بن العاص أنه دخل قصر عبد الملك بن مروان فأمر قائد حرسه بقطع رأسه والقاها إلى أصحابه خارج القصر.[٥٢]

مما هو جدير بالذكر أن الأمويين ينتمون إلى عبد مناف الجد الأكبر لنبى الإسلام - فكان حقهم فى الخلافة قائما على هذا النسب وآخر خلفاء الدولة الأموية هو مروان الثانى الذى لاقى حتفه فى المعركة التى نشبت بينه وبين العباسيين.

كما يذكر عن معاوية بن أبى سيفيان إنه إختار كاتبا مسيحيا اسمه سرجون كما استعان بالأقباط فى بناء وتشغيل الأسطول البحرى.كما اختار رجلا مسيحيا لتأديب ابنه زياد وزياد اختار رجلا كاهنا مسيحيا لتأديب ابنه خالد.

٢ ـ **عقبه بن أبى سفيان (٤٣هـ /٤٤هـ)** أخو معاوية من أبيه الذى استمر سنه واحده ومات فى خلافة معاوية.

٣ ـ **عقبه بن العامر الجهى** فى خلافة معاوية بن أبى سفيان.

٤ ـ **مسلمة بن مخلد الانصارى (٤٧هـ/٦٢هـ)** الذى استمر واليا خمسة عشر سنه وكان فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وإبنه يزيد بن معاوية.

وكـان مسلمة رجلاً عادلا نزيها يعامل جميع المصريين معامله واحده فلا يفرق بين مسـلم ومسيحى إلى حد إنه سمح للقبط بأن يبنوا كنيسة خلف الكوبرى عند الفسطاط رغم معارضه رجال ولايته.[٥٣]

ومما يذكر عنه أيضاً إنه كان يتعامل مع أساقفة الأقباط كمساعدين له فى علاج الأمور ومن اشهر الحوادث المعبرة على ذلك إنه قد بلغ مسامعه أن بعضا من أهالى سخا قد أشعلوا النيران فى عدد من رجال الديوان هناك فانتدب سبعه من أساقفة الكرازة المرقسية ورجا منهم أن يذهبوا ليعالجوا الأمور فى تلك المدينة بحكمتهم. فذهبوا لفورهم ونجحوا فى إقرار الأمن وقد منحتهم النعمة الإلهية القدرة على شفاء من كانوا قد أصيبوا فى الاعتداء كما منحتهم الحكمة فى توقيع العقاب المناسب على المعتدين.

(٥) **سعيد بن يزيد الازدى** فى خلافة يزيد بن معاوية.(٦٢هـ)

وقد اضطهد الأقباط اضطهاداً شديدا.

(٦) **مسلمة بن عقبه المرسى** فى خلافة يزيد بن معاوية.(٦٣هـ)

(٧) **عبد الرحمن بن حجدم** فى خلافة عبد الله بن الزبير.(٦٤هـ)

(٨) **الوالى عبد العزيز** فى خلافة مروان بن عبد الحكم الذى تولى الخلافة بعد معاوية الثانى وعبد العزيز هذا هو ابن الخليفة مروان.(٦٥هـ/٨٦هـ)

وفى أيام الوالى عبد العزيز فرض ضرائب على الاكليروس والبطريرك بعد أن كانوا معافين من الجزية.

ومما يذكر عن الخليفة مروان بن عبد الحكم إنه صك المسبوكات وكتب عليها اسم الله تعالـى. وسـببه إنه وجد دراهم ودنانير تاريخها قبل الإسلام بأربعمائة سنه مكتوب عليها " باسم الأب والابن والروح القدس".[٥٤]

(٩)**عصبه بن عبد العزيز(أو الأصبغ)**الذى كان فى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان

(١٠) **خلافـة الولـيد بـن عـبد الملك(٨٦هـ/٩٠هـ) وولاية عبد الله ابن أخيه** (**سـنه ٧٠٥م**) وقد ذكر إنه فى زمن الوليد بن عبد الملك أرسل لشمعه شيخ تغلب وعـرض علـيه الإسلام فرفض قائلا " لا والله لا أسلم كارها ولا أسلم إلا طائعا إن شئت فغضب الوليد واقسم على أكل لحمه وأمر فقطعت قطعه من فخذه وشويت بالنار وأطعمه اياها ومع ذلك ظل حيا وظلت آثار الجروح ظاهرة فى جسمه.

(١١) ولاية قرة بن شريك.(سنة ٧٠٩م)(٩٠هـ/٩٦هـ)

(١٢) خلافة سليمان بن عبد الملك وولاية اسما بن يزيد. (سنه ٧١٤م)

وقد ذكر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك استخدم البطريرك ابن النقاش المسيحى كاتبا وناظرا على مبانيه فى الرماه ومراقبا للقنوات والآبار والمسجد القائم بها.

(١٣) خلافة عمر بن عبد العزيز (سنه ٧١٧م)

(١٤) خلافة يزيد بن عبد الملك (سنه ٧٢٠ م)

(١٥) خلافة هشام بن عبد الملك (سنه ٧٢٤م)

يذكـر الكتاب أن الخليفة هشام بن عبد الملك فى العصر الأموى كان يحب المسيحيين جـدا وفــى عهـد البابا ميخائيل الإسكندرى كان يدخل الإسكندرية فى احتفال رافع الإنجـيل والصلبان والشموع وأمر هشام ببناء دار بجوار قصره فى دمشق يقيم فيها البطريــرك ليسمع الصلاة والعظة وقال (إذا بدأت الصلاة بالليل تنالنى راحة عظيمة ويزول عنى هموم أمور المملكة ثم يأتينى النوم براحة).

(١٦) ولاية حنظله بن صفوان (سنه ٧٣٦م)

(١٧) خلافة الوليد بن يزيد (سنه ٧٤٣ م)

(١٨) ولاية عبد الملك بن مروان (سنه ٧٥٠م)

أ - يذكر عن الخليفة عبد الملك بن مروان أنه طلب من أخيه عبد العزيز وإلى مصر إرسال ١٠٠٠ قبطى وأسرهم إلى تونس لبناء أسطول بحرى

ب - ويذكر عنه أيضاً إنه أمر بهدم كنيسة سمع دقات جرسها.[٥٥]

ج - فى زمن عبد الملك بن مروان بعث محمد حاكم الجزيرة فى طلب معاذ ــ كبير بنــى تغلــب ــ وطلب منه الإسلام فأبى فالقاه فى الوحل ثم أخرجه وجلده ولما أصر على الرفض قتله.

حقيقة ينبغى أن تقال :

علــى رغـم من المظالم التى حاقت بالأقباط والكنيسة فى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان إلا أننا نجده اتخذ مسيحيا مستشارا له هو يوحنا الدمشقى (من قديسى الكنيسة الخلقيدونــيه) كما اتخذ أثناسيوس الرهاوى المسيحى مؤدبا لأخيه عبد العزيز - الذى لمــا تولــى مصر - أخذه مستشارا له حيث جمع ثروة كبيرة وملك ٤٠٠٠ من العبيد وكثيرا من دور البساتين وكان ذهبه وفضته كأنها الحصى عنده وقام ببناء العديد من الكـنائس والأديــرة منها كنيستين بالفسطاط وأخرى بالرها من إيجار ٤٠٠ حانوت يملكها.

عبد الملك بن مروان وبناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة:

وفى زمن عبد الملك بن مروان بُنى المسجدان المسجد الأقصى وقبة الصخرة. تفاصيل ذلك تجدها

فى(ملحق رقم ٣) فى آخر الكتاب.

ملامح هذا العصر وأثره على الكنيسة القبطية وشعبها:

أولاً: كثره عدد الولاة المسلمين:-

أول ما يلاحظ على تلك الفترة كثره عدد من تولوا حكم مصر. فالإحصاءات تدل على أن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسين منذ ولاية عمرو بن العاص إلى ولاية أحمد بن طولون ٠ نصبّوا مائه وأحد عشر (١١١) واليا مده ٢٢٥ سنه .. وطبيعى أن المدة القصـيرة التـى كان يقضيها كل والى فى حكم مصر لم تتح له الفرصة إتباع سياسة إنشائية ووضع خطه معينه لخير البلاد وشعبها.

ويقدم لنا الأستاذ جاستون فييث فى بحث له عن مساجد القاهرة إحصاء عن ذلك

يقول " حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرين واليا. اثنان منهم وليا الحكـم مرتين. وواحد منهم ثلاثة مرات .. وكان خمسه من هؤلاء من أسرة الخلفاء، وقـد توفـى ستة منهم وهم ولاه. وقتل الخليفة(أو أقال) أحد عشر منهم ٠ واستقال احـدهم، وطرد الجند آخر لأنه خفض رواتبهم، وقد مكث احدهم على كرسى الولاية ستة عشر يوما.

إن عـدم الاستقرار الذى لازم الولاة لم يكن فى صالح البلاد على الإطلاق إذ كيف تطلب من موظف جاء من الخارج ويثق من عدم بقائه فى الولاية أن يعير البلاد اهـتمامه أو أن يـنظم مـواردها أو أن يسهر على دولاب إدارتها بالإضافة إلى ما تقـدم.كان كل هم من يتولى حكم مصر هو الإثراء بأية صوره من الصور فى اقصر وقت ممكن وبطبيعة الحال فإن هذا لا يأتى إلا بكثرة المظالم على الشعب المسكين.

ومـن يـا تـرى هو ضحية هذه المظالم سوى الأقباط الذين رفضوا اعتناق الإسلام وثبتوا على إيمانهم المسيحى.

ثانيا:- سياسة الخلفاء والولاة تجـاه مصر أساسها المنفعة المادية:

كـان من الطبيعى أن يعمل رجل البادية الذى خرج منتصرا بعد حرب شنها على إمبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) على الاستفادة من انتصاراته وهذا الأمر واضـح مـن إلحـاح الجيوش المنتصرة لتوزيع أراضى البلاد المفتوحة فى العراق وسوريا ومصر.[٥٦]

ومما يكشف النظرة المادية البحتة التى كان عليها الخلفاء والولاة نحو مصر. تلـك الكلمـات المنسـوبة إلى عمر بن الخطاب الذى يوصف بأنه كان أكثر الخلفاء عـدلا.. إذ لما حاقت المجاعة بالمدينة المنورة. طلب عمر أن يستعجل إرسال القمح اللازم من مصر وقال " أخرب الله مصر عمران المدينة وصلاحها".[٥٧]

وعـــندما تكلم عمر عن الشعوب المغلوبة قـــال "يأكلهم المسلمون ماداموا أحياء فإذا هلكنا وهلكوا. أكل أبناؤنا أبناءهم ما بقوا."[٥٧]

ومممـــا يوضح تلك الروح المادية الجشعة للخلفاء ما جاء بالخطابان المتبادلان بـــين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص أو ما دار بين عثمان بن عفان وعمرو بن العـــاص وقـــد ذكرها ابن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر وذكرها د.جاك تاجر فى كـــتاب أقباط ومسلمين (ص ٧٥،٧٦).فإذا كان هذا هو حال الخلفاء. فكم يكون حال الولاة.[٥٨]

وقد ذكر عمرو بن العاص انه قال لأحد الأقباط " انتم كنز لنا إن كثر علينا كثر عليكم وإن خف علينا خففنا عنكم ".[٥٩] والحق أن المسائل المالية كانت شغل الخلفاء الشاغل .. كانت الضرائب فى تناقص مستمر .. وبينما كان الدخل ينقص أخذت المصروفات تـــزداد .. أما السبب فى ذلك فكان الرغبة فى القيام بفتوحات جديدة. وضرورة تأمين سلامه الإمبراطورية. الأمر الذى اقتضى الاحتفاظ بجيوش كبيرة العدد والعدة .. كما اقتضت الضرورة إنشاء قوه لحفظ الأمن الداخلى.

كـــان الجيش يستنفذ الجزء الأكبر من الدخل.. حاول الخلفاء ضغط الميزانية بخفض مـــرتبات الجند. لكنهم فشلوا فى ذلك عده مرات، لم يكن أمامهم إذن سوى البحث عن حلـــول أخـــرى لا تعرضـــهم للخطر فلجأوا إلى زيادة الضرائب على شعوب البلاد المفتوحة.

من اشهر الحوادث التى توضح ذلك:

(١) حادثه قتل بطرس والاستيلاء على الكنوز فى عهد عمرو بن العاص:-

يذكر بن الحكم واقعة حدثت مع أحد أقباط الصعيد ويدعى بطرس يقول " أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر أن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه فقتلـــته ". ونما لعلم عمرو بن العاص أن بطرس هذا عنده كنز • فأرسل إليه • ولما ســـأله أنكر فحبسه فى السجن، وكان عمرو يسأل من حوله فى السجن، هل تسمعونه يســـأل عن أحد " فقالوا " إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور " فأرسل عمرو إلى بطـــرس. ونـــزع خاتمه من يده. وكتب إلى ذلك الراهب. ليبعث إليه بما عنده وختمه بخاتمـــه (وكـــأن الخطاب صادر من بطرس) فعاد رسول عمرو بقله شامية مختومة بالرصـــاص ولمـــا فتحها عمرو وجد فيها صحيفة مكتوب فيها " مالكم تحت الفسقية الكبيـــرة " فأرســـل عمرو إلى الفسقية . فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها. فـــوجد فيها اثنين وخمسين أردب ذهب مضروبة. فضرب عمرو رأسه (بطرس) عند باب المسجد. فذكر ابن رقيبة أن القبط اخرجوا كنوزهم خوفا أن يقبض على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس".[٦٠]

(٢) حادثة حبس البابا الكسندروس الثانى:-

وعلـــى الرغم مما يوصف به عبد العزيز بن مروان سنه (٦٨٥م - ٧٠٥م) من عـــدل فـــى مده ولايته على مصر التى امتدت إلى واحد وعشرين عاما متتالية لكنه اســـتحدث فـــرض ضـــريبة على الرهبان ظلت سارية بعده. جاء بعد عبد العزيز بن مروان أخوه عبد الله. ولم يكتف بتثبيت ضريبة الدينار على رجال الدين المسيحى. بل ســـجن البابا الكسندروس الثانى البطريرك الـــ٤٣ (٧٠٠ م - ٧٢٤ م) حتى يدفع له ثلاثـــة آلاف ديـــنار. يقـــول ســـاويرس بـــن المقفع " فى تلك الأيام خرج الطوباوى الكســـندروس وسار إلى مصر ليسلم عليه (الوالى) كالعادة بين البطاركة والولاة. فلما نظر إليه قال ايش هو هذا. قالوا . له هذا أب وبطرك جميع النصارى. فأخذه وسلمه لـــواحد من حجابه وقال له أفعل به ما تريد من الهوان إلى أن يقوم بدفع ثلاثة آلاف ديـــنار. فأخـــذه وأقام عنده ثلاثة أيام فلما نظر ذلك جرجه الشماس انه لن يفرج عن البطريـــرك إلا بعـــد أن يأخـــذ المال، تقدم إليه وقال له (الوالى) يا سيدنا تطلب نفس البطريرك أو مالا . فقال له أريد المال فقال له الشماس جرجه ضمنى إياه مده شهرين انحـــدر بـــه إلـــى بحرى أطلب له من الاراخنه والنصارى وأقدم لك عنه ثلاثة آلاف ديـــنار. فسلمه إليه فطاف به المدن والقرى على المؤمنين بالمسيح حتى حصل على المال وحمله.

ويصـــف ساويرس بن المقفع هذا الوالى بأنه "كان محبا للمال جدا " حتى انه حصل مـــن أهل الذمة ثلثى دينار زيادة عما كانوا يدفعونه .. ويؤيد رواية ساويرس الكندى ويتهمه بأنه شجع الرشوة وملأ جيوبه بمال الجزية.[٦١]

وخلـــف عبد الله فى ولايته آخر اسمه قرة بن شريك . وكان هو الآخر جشعا ظالما حتى أن البطريرك الكسندروس لما ذهب إليه ليهنئه بالولاية قبض عليه وقال له " الـــذى قبضـــه منك عبد الله بن عبد الملك تحتاج أن تقوم لى بمثله " يقصد أن يدفع ثلاثة آلاف دينار. وعبثا حاول البطريرك أن يفهم الوالى ضيق ذات يده وأنه لا يملك شيئا، بل أنه مازال مديوناً بخمسمائة دينار فكان رد الوالى عليه "هذا الكلام ما ينفع " ولـــو أنـــت تبيع لحمك لابد من ثلاثة آلاف دينار وإلا فما تخلص من يدى ٠ وكانت النتـــيجة أن خـــرج البطريـــرك فـــى هذه المرة إلى بلاد الصعيد ليتصدق من أولاده المسيحيين ليوفى هذا المبلغ.

(٣) حادثه جلد وقتل عدد كبير من الرهبان بسبب الضرائب:-

ومما يذكر فى هذا الصدد ما ارتكبه أسامه بن زيد والى مصر من قبل الخليفة الأمـــوى ســـليمان بن عبد الملك .. كان أسامه هذا أكثر جشعا ممن سبقوه من الولاة ويذكر المؤرخون المسلمون والمسيحيون انه صادر الأملاك بغير حق كما أسرف فى

القتل بصوره وحشيه. جمع الرهبان واخبرهم بإبقاء الضريبة عليهم واجبرهم على أن يطلبوا من رجال الضرائب خاتما من جديد تنقش عليه أسماؤهم وموعد دفع الضرائب • ويضــــعونه فى احدى أصابعهم وإذا قبض على راهب ولم يكن يضع الخاتم فى يده • كانـــت تقطــــع يده فى الحال ونفذ هذا الأمر . أما الرهبان الذين لجأوا إلى الأديرة ليختبئوا فيها . فقد قام رجال الشرطة بالبحث عنهم حتى قبضوا عليهم . وحكم عليهم بقطع رؤوسهم أو جلدهم بوحشيه.[٦٣]

(٤) ظلم أسامه بن يزيد متولى الخراج:

كان ذلك فى أيام الخليفة مروان الثانى. حيث كانت السنة الأولى لبابوية الأنبا ميخائيل الأول مليئة بالتعسف والضيق. ذلك أن أسامه بن يزيد متولى الخراج فرض ضـــرائب باهظة على المصريين وضاعفها على القبط. ومن بين الأمثلة على مغالاته فى ابتزاز الشعب المسكين إنه فرض ضريبة مقدارها عشر دنانير على كل من يتنقل من بلد إلى آخر عن طريق النيل وكان عاتيا فى الاستيلاء على الضرائب إلى حد أن أرملـــه كانـــت مسافرة فى مركب ذات يوم ومعها ابنها. وحدث أن أراد ابنها هذا أن يستقى ماء من النيل. فخطفه تمساح على مشهد من جميع الركاب دون أن يستطع أحد إنقـــاذه. وكانت التذكرة التى تثبت أنها دفعت الضريبة فى جيب ابنها ساعة أن خطفه التمساح. فلما وصلت إلى البلد التى تقصد إليه طالبها أعوان أسامه بن يزيد بالضريبة. وعبـــثا حاولـــت أن تقنعهم بأنها دفعتها إلا أنهم قد أصروا على أخذ المبلغ منها. غير مبالـــين بحـــزنها على فقد ولدها وبفقرها الذى اضطرت معه إلى بيع شئ مما عندها لتدفع الضريبة المفروضة مره ثانيه.

وكـــان هذا التعسف فى الاستيلاء على المال بدعوى إنه ضريبة واجبه الأداء ســـببا فى أن ينس بعض القبط ولاءهم لمسيحيتهم. فأنكروها ليفوزوا بالإعفاء من دفع المال الذى فرضه عليهم أسامه بن يزيد.[٦٤]

ثالثا:إن العرب لم يكن لهم سياسة ثابتة فى حكم البلاد:

بالإضـــافة إلى النقطة السابقة التى عالجنا فيها سياسة الخلفاء والولاة المادية تجـــاه مصر. نقول أن هناك طابعا آخر لازم الحكم العربى أثناء الفتوحات فى مصر وفـــى جميع البلدان التى احتلها العرب. إلا وهو افتقار الحكم إلى خطه مرسومة يسير علـــيها. فالقـــرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تصدر حسب الظروف ولمقتضيات الحال. يقول بعض المؤرخين أن السبب فى ذلك يرجع إلى إنه لم يكن فى نـــية العـــرب الإقامة فى تلك البلاد وإدارتها. بل كانوا يهدفون إلى غرض واحد هو المحافظـــة علـــى سلامه مؤخره جيوشهم حتى يقوموا بفتوحات جديدة. وهذا بالتالى

دفعهــم إلى الرغبة فى الحصول على المال الكافى لمتابعة أعمالهم العسكرية الجديدة

كانــت الخطــة المرسومة ألا يختلط الجنود العرب بالشعوب المغلوبة وكان رؤساءهم يمنعوهم من ذلك. ويذكر لنا ابن عبد الحكم ما قاله الخليفة عمر بن الخطاب عن جيش الاحتلال العربى لمصر " أنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينــى وبيــنهم فى شتاء و لا صيف " هذا ونحن لا نجد بين الوثائق التاريخية ما يدل على أى إجراء أو تدبير قام به الحكام العرب من اجل زيادة ثروة البلاد الاقتصادية أو إصلاح أحوالها ورفع المعاناة عن الشعب وان كان ثمة شئ قد تم ٠ فقد كان الغرض منه خدمه مصالح المستعمر.

ومن أمثلة ذلك:-

بيــنما كــان بناء الكنائس محظورا فى المدن التى أنشأها العرب. سمح عبد العزيز بن مروان ببناء كنيسة فى حلوان لوجود بعض المسيحيين الملكانيين فى خدمه الوالــى .. ونفــس السياســة اتــبعها الخليفة العباسى المأمون حال إقامته فى مصر. واســتخدم بعض النصارى الذين التمسوا منه تشييد كنيسة بالقرب من قبة الهواء فأذن لهم.[٦٤]

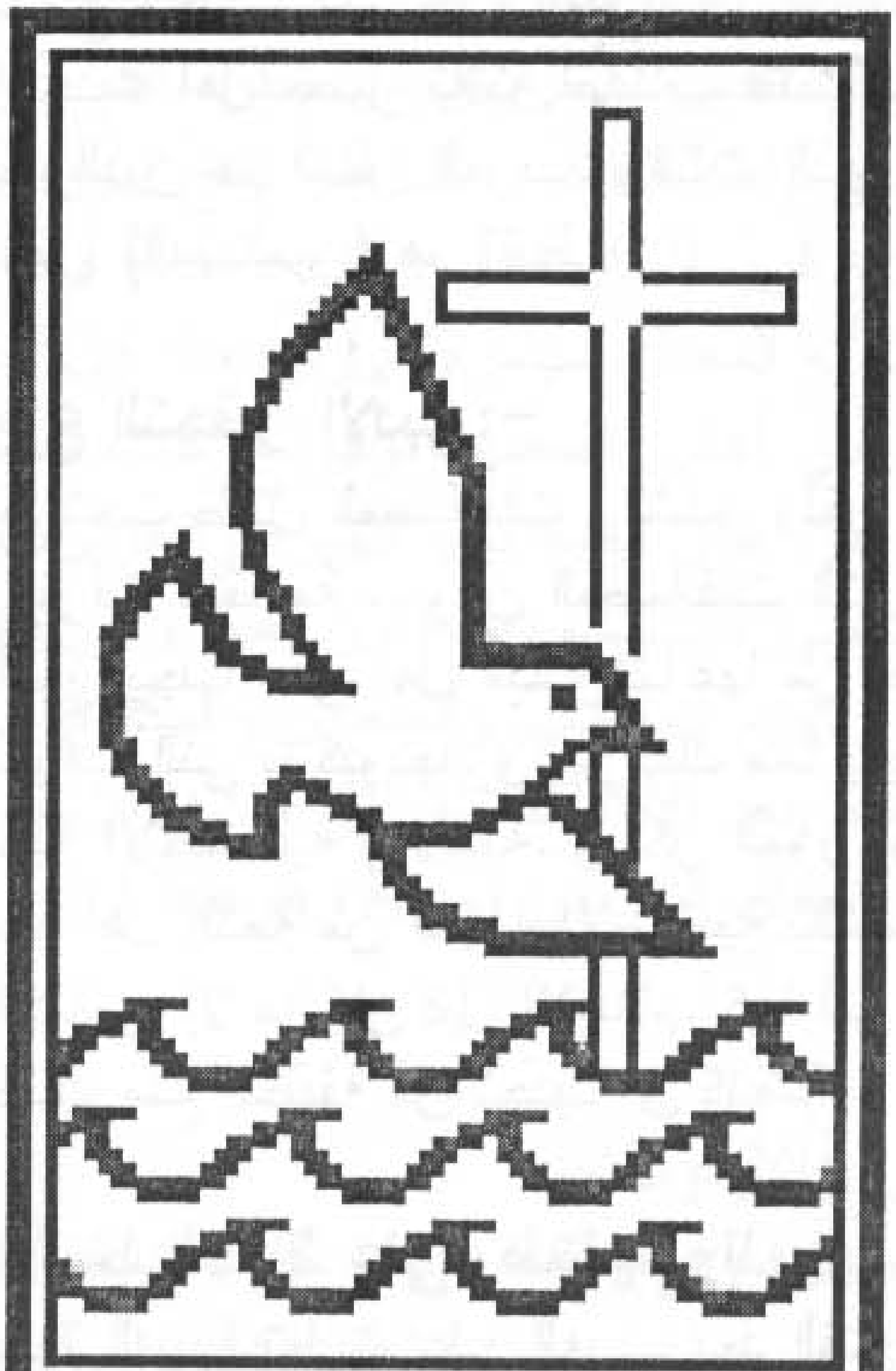

" الفصل الثانى "

أمثله من المتاعب التى حاقت بالكنيسة فى هذه الفترة

ليس من المبالغة أن قلنا إن المصادر القديمة التى سجلت لنا تاريخ تلك الفترة . ترسـم لـنا صـوره قاتمة محزنة أليمة عن المآسى التى عانى منها الأقباط كنيسة المسيح فى مصر .

وقبل أن نتكلم بشىء من التفصيل عن تلك المآسى نسجل شهادة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف أستاذة التاريخ الإسلامى فى كتابها مصر فى عصر الولاة تقول:-

علـى أن سياسـة العرب نحو الأقباط بدأت تتغير عما كانت عليه فى السنين الأولى التى تلت الفتح ووجد قسم كبير من الأقباط أن من مصلحتهم الدخول فى الدين الإسـلامى والتعرب هربا من المضايقات الاجتماعية والأدبية أو فرارا من الضرائب المتزايدة عليهم أو رغبه فى الإبقاء على مناصبهم.

والمعـروف أن العـرب بعد فتوحاتهم العظيمة وتفوقهم على شعوب لها حضارات عـريقة، وبعد استقرار أقدامهم فى البلاد المفتوحة بدأوا يشعرون بتفوق شعبهم على سائر الشعوب. وبتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والأديان. ولم تكن هذه النزعة قـويه فـى السنوات الأولى للفتوحات العربية حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ولكنها سرعان ما ازدادت وضوحا.

وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكره المقريزى عن معاوية بن أبى سفيان فقد ذكـر عـنه أنه قال: وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس. وثلث يشبه الناس. وثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم الناس العرب. والثلث الذى يشبهون الناس الموالين لهم • والثلث الذين لا ناس (المسالمين) هم القبط.

أولاً:أمثله لبعض أنواع التحقير الادبى:-

(١) وقـد وقـع الأقباط تحت طائل المضايقات والشدة. ولكن هذه المضايقات لم تكن دائمة. وإنما حدثت فى فترات متقطعة .. ومن المضايقات التى تعرض لها الأقباط فى مصر انه كانت هناك أمور يجب على أهل الذمة إتباعها من حيث بناء الكنائس. ومن حيث لباسهم وزيهم والدواب التى يركبونها. وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين فـى مظهرهم من الناحية الاجتماعية والأدبية. ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن الخطـاب أمر بألا يتشبه أهل الذمة من الدولة الإسلامية بالمسلمين فى مظهرهم وفى لباسهم. وألا يبقى من الكنائس إلا ما كان قبل الإسلام. كما أمر الخليفة بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة وكذلك منع الخليفة من تجديد أى كنيسة.

(٢) إسلام كثير من الأقباط للحفاظ على وظائفهم وللهروب من المضايقات:-

الواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح. وتغلب عليهم الشعور لعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب. بعد أن انشأوا إمبراطوريتهم الإسلامية بحد السـيف. فـرأوا أن يتميزوا عن غيرهم فى اللباس والزى والركوب وغير ذلك مما

يشعر فى الوسط الاجتماعى بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم ولذا نراهم يعاملون أهل الذمة معامله الطبقات الدنيا. مهما كانت ثرواتهم ومراكزهم فى الدولة. مما حمل الكثيرين على الدخول فى الدين الإسلامى رغبه فى التخلص من تلك المضايقات. كما أن العرب وقد أصبحت البلاد التى فتحوها ملكا للمسلمين رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها. ويكفيهم أن يبقوا على ما وجدوه منها وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) إحلال المسلمين محل المسيحيين حتى فى الوظائف الصغيرة .. وما لبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة مادامو ا على دينهم. أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد. كذلك استبعد عمر بن عبد العزيز رؤساء الكور الأقباط وأحل محلهم المسلمين. وربما أدى قرار عمر بن عبد العزيز إلى إسلام كثيرين آنذاك كى لا يتركوا مناصبهم.

(٣) سلب ونهب الفسطاط وحرقها بالنار:-

بينما كان الخليفة مروان منشغلاً بالعمل على قمع ثوره البشموريين الذين تمردوا بالإسكندرية، بلغه أن أبا مسلم وجنده - من الخراسانيين - قد اجتازوا الحدود المصرية. وعندها بعث برسول عاجل إلى حوثره أكثر قواده بطشا يستدعيه للعودة إلى الفسطاط على الفور كما بعث برسول آخر إلى جنوده الذين يقاتلون البشموريين يستدعيهم أيضاً ولقد أوصى الجميع بأن ينهبوا ويسلبوا كل ما تصل إليه أيديهم وإن يشعلوا النيران فى كل الأماكن التى يغادرونها.

وكانت هذه الأوامر لما أحس به مروان من خطر داهم - إذ بدأ العدو يزحف من الحدود المصرية إلى داخل البلاد - كما أمر نافخ البوق أن يعلن لأهل الفسطاط بوجوب إخلاء المدينة لأنه قرر إشعال النار فيها بعد ثلاثة أيام. وإن من لم يخرج من هذه المدينة بعد الأيام الثلاثة المحددة سيأمره مروان بقتله قبل إحراق العاصمة.

وما أن أخذ نافخ البوق يعلن أهالى الفسطاط بوجوب إخلاء المدينة حتى تملكهم الفزع فخرجت جموعهم على غير هدى متجه نحو الجيزة والجزيرة وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعون بغير وعى فغرق عدد كبير منهم - كذلك تناس الناس فى رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم - وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التى حددها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم بل أمر بإشعال النار فى المدينة وهم فيها فراحوا جميعا ضحية اللهيب المتقدة.[٦٦]

(٤) اضطهاد الصور والأيقونات:

ومن المضايقات التى وقع الأقباط تحت طائلها أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) أمر فى سنه ١٠٤هـ بكسر الصلبان فى كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التى فى الكنائس. ولذا نرى ساويرس بن المقفع يصفه بأنه سلك

طـريق الشيطان وحاد عن طريق الله. وقد شمل هذا القرار الأيقونى أو حركه كسر الصـور - جمـيع بلاد الدولة الإسلامية. وكان من نتائج هذه الحركة فى مصر أن كسـرت التماثيل والصلبان ومحيت الصور ولم تنج فى هذه الحركة إلا بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب.

(٥)هدم كثير من الكنائس والأديرة وإحراقها واضطهاد الرهبان وسبى النساء:

لقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التى قامت من أجل النزاع حـول الخلافة فعندما هرب الخليفة مروان بن محمد إلى مصر. عاث جنده فى البلاد فسـادا. فقـتلوا جماعه من رجال الأقباط ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم. كما أحرقوا ديارات عده وهدموا كثيرا من الكنائس. واعتدوا على كثير من الراهبات.

وفـى أيـام الوالى عبد العزيز والبابا يوحنا الثالث (البطريرك الـ ٤٠) بلغ التحقير بالكنائس وبيوت النصارى إلى حد كبير حتى أن الوالى كان يدخل الكنائس و يعبث بصورها وصلبانها ويكتب رقعا يقول فيها (محمد رسول الله وعيسى رسول الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ويلصقها على الأسوار والأبواب داخل وخارج الكنائس.[٦٧]

ولاشك أن المضايقات التى نالت الأقباط فى مصر أحيانا. والتعصب لكل ما هو عربى ومسلم. وتعريب الدواوين لاشك أن هذا حمل كثيرين من المسيحيين فى عصر الولاة على اعتناق الدين الإسلامى وعلى تعلم اللغة العربية.[٦٨]

ثانياً: ما حل بالأقباط والكنيسة من اضطهاد ومعاناة:

١ ــ ما يختص بالشعائر الدينية:

فى فترة حكم عبد العزيز بن مروان وإلى مصر (٦٨٥ - ٧٠٥) الذى يوصف بأنه أكثـر من حكموا مصر عدلا. أمر بكسر جميع الصلبان ا+لتى فى كوره مصر حتى صلبان الذهب والفضة. ثم كتب عده رقاع وجعلها على أبواب الكنائس بمصر والريف يقول فيها [محمد الرسول الكبير الذى لله وعيسى أيضاً رسول الله وإن الله لم يلد ولم يـولد].[٦٩] وكان ذلك فى بطريركية البابا اسحق(البطريرك الـ ٤١) (٦٨٦ - ٦٨٩). وذهب عبد العزيز بن مروان إلى أكثر من هذا إذ ما لبث أن أبطل إقامة القداسات. وحدث هذا فى بطريركية البابا سيمون الأول(البطريرك الـ ٤٢) (٦٨٩ــ٧٠١).

٢ ــ مظالم ضد الأكليروس والأقباط العلمانيين:.

تعاقـب على مصر ولاه وعمال خراج من قبل الخلفاء. وقد اشرنا سابقا إلى كثـره عددهم لغاية فى نفوس الخلفاء الذين ولوهم. فكان هم هؤلاء الولاة والعمال هو الإثراء بأسرع وسيلة لأنهم كانوا على يقين من أنهم لم يستمروا طويلا فى مناصبهم.

وفى سبيل الحصول على المال لم يألو جهدا فى اضطهاد قبط مصر وتعذيبهم وسلب أموالهم وهتك أعراضهم وتقطيع أعضائهم بل وقتلهم ومحاولة النيل منهم وإذلالهم بكل الطــرق. وبوسائل يقف المرء إزاءها مذهولا لبشاعتها.. وللأمانة التاريخية نقول أن مظالم بعض هؤلاء الولاة وعمال الخراج عمت الشعب كله أقباط ومسلمين..

لكن الأقباط حظوا بالنصيب الأوفر من المظالم ولقد احتملوها لكونهم مسيحيين.

ونعرض الآن لبعض النماذج:-

١ــ البابا يوحنا السمنودى(البطريرك الــ ٤٠) (٦٧٧ – ٦٨٦):

فـــى ولايـــة عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ م – ٧٠٥ م) نالته شدائد من عبد العزيــز بن مروان وإلى مصر والسبب فى ذلك وشاية من حاسد .. فعبد العزيز فى أول ســنه تولـــى فيها مصر ذهب إلى الإسكندرية ليأخذ خراجها ولكن البطريرك لم يخــرج للقائه معتذرا لضعفه الأمر الذى وشى به إلى عبد العزيز على انه تعالى من البطريرك .. غضب عبد العزيز وأمر بالقبض عليه حتى يدفع مائه ألف دينار . وان يوقفوه على جمر نار وكاد الأمر يتم لولا أن زوجه عبد العزيز رأت حلما وأخبرت به زوجهــا بــألا يفعــل سوء بالبطريرك .. ومع ذلك فقد هدد عبد العزيز الوالى الأب البطريرك بأنه سيلبسه ثياب يهودى ويلطخ وجهه برماد وسيأمر بأن يطوفوا به المدينة بهذه الصورة .. لكن البابا لم يرهب .. وأخذ الوالى يقلل المبلغ حتى وصل إلى عشره آلاف ديــنار .. فلما سمع الكتاب والمسيحيون طلبوا إلى البطريرك أن يقبل دفع هذا المــبلغ وهم سيتولون جمعه خشيه أن يجرى على البيعة اضطهاد وفعلا انتهى الأمر بذلك.[٦٩]

٢ــ فى بطريركية البابا الكسندروس الثانى(البطريرك الــ ٤٣)(٧٠٥ – ٧٣٠):

فـــى أيـــام الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، وفى آخر ولاية عبد العزيز بن مروان التى امتدت لنحو عشرين عاماً أعطى ابنه الأكبر ويدعى الأصبغ نفوذا وسلطانا على كل إقليم مصر .. وكان الأصبغ يبغض النصارى. محبا لسفك الدماء. استخدم مواهبه لمضايقة المسيحيين .. وقد ساعده على تحقيق مآربه شخص يدعى بنيامين .. قيل انه كـــان قبلا شماسا فى الكنيسة. ثم ارتد عن الإيمان واعتنق الإسلام. التصق به وصار صديقه الحميم وبدأ يكشف له عن خطط يضايق بها الأقباط وتقلل من عددهم.

وقــد ذكــر عن الأصبغ أنه أرسل اثنين من خاصته إلى أديرة وادى النطرون وقاما بخصى جميع الرهبان هناك ! وفرض جزية على كل راهب مقدارها دينار . كما أمر الأديرة إلا ترهب أحدا وكان الأصبغ هو أول من فرض جزيه على الرهبان وفرض علـــى الأساقفة أن يؤدوا عن ابيارشياتهم ألفى دينار غير ما كانوا يدفعونه وقد ضغط الأصبغ ضغوطا رهيبة على الأقباط. فكان من نتيجتها أن اضطر البعض إلى اعتناق

الإسلام ومن بينهم بطرس والى الصعيد وأخيه ثاؤدور وابن مقدم مريوط وعدد كبير من الكهنة والعلمانيين لكن السيد المسيح لم يمهله ليتمادى فى طغيانه ففى يوم سبت الفرح دخل إلى دير حلوان فرأى صوره العذراء مريم تحمل ابنها . فلما نظر إليها سأل الأساقفة عن الصورة فلما قالوا له أنها العذراء مرين أم المسيح تكلم بافتراء عليها وبصق على الصورة وقال " أن وجدت زمانا فأنا اسحق النصارى من مصر. ومن هو المسيح حتى تعبدوه إلها. فى نفس تلك الليلة أزعجه الله بحلم رأى فيه السيد المسيح جالسا على عرش عظيم. ووجهه يضيء أكثر من الشمس. ورأى نفسه ووالده خلف المسيح مربوطين بسلاسل.. فلما سأل عن الجالس على العرش قيل له انه يسوع المسيح ملك النصارى الذى هزأ به .. وبالفعل أصيب بحمى لم تمهله ومات فى الليلة التالية. أما والده فمات بعد أربعين يوما حزنا وكمدا عليه.

٣ــ فى ولاية عبد الله بن عبد الملك (٧٠٥ م- ٧٠٩ م):

خلف عبد العزيز بن مروان فى ولاية مصر عبد الله بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧٠٩ م) وهو ابن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان. وبلغ هذا الوالى من القسوة والغلظة حدا كبيراً حتى أن ساويرس بن المقفع يقول عنه " كان كالوحش الضارى. حتى انه فى أكثر أوقاته إذا جلس على المائدة يقتلون الناس قدامه. وربما طار دمهم فى الصحن الذى يأكل منه فيفرح بذلك " ولا تنسى ما فعله مع البابا الكسندروس الثانى عندما ذهب ليهنئه بالولاية كالعادة وقيل أيضاً عن هذا الوالى انه كان يجمع رجال الدين المسيحى من أساقفة ورهبان واراخنة ويهزأ بهم ويقول لهم بتجبر " انتم عندى مثل الروم ومن قتل منكم واحدا غفر الله له لأنكم أعداء الله " ومن المظالم التى اقترفها هذا الوالى وجشعه فى محبه المال أن أمر بعدم دفن ميت قبطى حتى يقوم أهله بدفع الجزية الواجبة عليه. وفى سبيل تحقيق ذلك عين إنسانا مختص بهذا الأمر.[٧٠]

٤ــ فى ولاية قرة بن شريك (٧٠٩ م - ٧١٤ م):-

ولى مصر بعد عبد الله بن عبد الملك. والى آخر يدعى قرة بن شريك (٩.٠٧ م - ٧١٤ م).. وتكرر مع البابا الكسندروس ما حدث له من الوالى السابق عندما قصده البابا للتهنئة بالولاية.

وبلغ جشع الوالى قرة بن شريك حدا مذهلا. حتى انه كان يستولى على تركه كل من يموت من الاراخنة والأقباط والأساقفة. حتى أن ساويرس بن المقفع يقول عنه " وكان الناس يهربون هم ونساؤهم وأولادهم من مكان إلى مكان ولا يأويهم موضع من اجل البلايا ومطاليات الخراج. وعظم ظلم هذا الوالى أكثر ممن تقدمه.

٥ـ خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٧١٤م وولاية إسامة بن يزيد:

وأسامه بن زيد الذى حكم مصر بعد قرة بن شريك. وكان قبل ذلك فى ولاية الخراج. أمر الرهبان " ألا يرهبنوا من يأتى إليهم. ثم خصى الرهبان ووسم كل واحد منهم بحلقه من حديد فى يده اليسرى ليعرف. ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام ". وأمر بعقاب من يهرب من هذا الإجراء بقطع أحد أعضائه، فشوه عددا كبيرا وحلق لحى كثيرين وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمه. بل إن البعض كان يموت تحت جلد السياط. وبلغ من جبروته وجشعه فى محبه المال أن أمر الولاة أن يقتلوا الناس ويتهموا الأقباط بما هم براء منهم حتى يتمكنوا من إعدامهم ويحضروا إليه مالهم فكانت تضم ممتلكاتهم إلى مال إسامة الخاص. ويقول ساويرس عنه انه كاتب الولاة وقال لهم "سلمت لكم أنفس الناس فتحصلوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس، فإحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحدا وأى موضع نزلتموه فانهبوه وخربوه"..[٧١]

فكانوا يخربون البيوت والكنائس ويقلعون الأعمدة والأخشاب ويبيعون ما يساوى عشرة دنانير بدينار فأرغم الأقباط على إخفاء كل ما عندهم وتظاهر أغنياؤهم بالفقر وكثيرون منهم صاروا يحملون أمتعتهم ويفرون بها من البلاد فلكى يتلافى إسامة هذا الخطر أصدر أمرا يحتم على كل من يمر فى النيل صاعدا أو نازلا أو من يبرح مصر يأخذ جواز للسفر حتى إذا انتقل من مكان إلى مكان داخلها وأن يدفع مقابل ذلك عشرة دنانير أو ستمائة قرش صاغ ومن يخالف هذا الأمر فمنهم من يقتله ومن يصلبه ومن يقطع يديه ورجليه حتى خلت الطرق من المارين فيها وانقطع السفر وكف البيع والشراء لقيام الناس حول دار إسامة شهرين أو أكثر لاستخراج جواز المرور. وإذا أتلفت العوارض جواز انساب وبقى معه قطعة منه أو تغير رسمه يلزمه أن يستخرج عوضه.

ثم بعث إسامة رسلا للرهبان ليفحصوهم فوجدوا بعضهم بغير الخاتم الذى أمر أن يوضع فى يد كل راهب فأحضروهم إليه فمنهم من ضربت رقبته ومنهم من مات تحت السياط ثم انه سمر باب احدى الكنائس بالحديد وطلب منهم ألف دينار وجمع مقدمى الرهبان وعذبهم وخيَرهم بين أن يدفع كل واحد منهم دينارا أو يهدم البيع ويخربها ويهلك جميع الأساقفة . فقلقت الكنيسة وارتفعت الأصوات إلى العزة الإلهية لتدفع عنهم هذا البلاء فسمع الله صوتهم.

وتكرر الهجوم على الأديرة وهدمها وقتل من بها من الرهبان غير الحاملين هذا الوسم ولم يكن يحصى عدد من قطعت أيديهم لهذا السبب ومن حلقت لحاهم وقلعت عيونهم وجلدوا بالسياط وكثيرون ذاقوا باقى أنواع العذاب التى أودت بحياتهم.

وفى مرارة يذكر ساويرس عنه أنه " من الضيق والضنك هم الناس ببيع أولادهم.

٦ــ وفى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبيـــد:

وعبيد الله بن الحجاب والى الخراج على مصر فى عهد الخليفة الأموى هشام بـــن عبد الملك ارتكب صنوفا من المظالم لا تحصى. فجعل علامة الأسد على أيدى النصارى. وكل من يضبط فى أى موضع وليس على يده الرسم تقطع يده ومن ضمن الـــذين حاولـــوا وضع الرسم على يده البابا الكسندروس الثانى الذى رفض ومن شدة ضيقه نفسه طلب إلى الله أن ينقله إليه. وقد استجاب الله ذلك واخذ روحه.[٧٢]

القبض على جمول أسقف أوسيم وتعذيبه:-

وممـــن قبض عليهم عبيد الله وعذبهم جمول أسقف أوسيم. الذى اتهمه الوالى انـــه قـــام بتهـــريب البابا الكسندروس فأفلت من قبضه يده. ففرض على هذا الأسقف غرامه قدرها ألف دينار وكان الأسقف فقيرا يعجز عن قوت يومه. فلما عرف انه لا يقدر على دفع دينار واحد. سلمه إلى المعذبين. وهؤلاء جاءوا به إلى باب بيعه الشهيد مارجـــرجس بمصـــر القديمة وهم يسحبونه. ثم نزعوا عنه ثيابه. ألبسوه مسح شعر. وعلقـــوه بذراعيه وهو عريان. والشعب ينظره وهم يضربونه بسياط من جلود البقر حتـــى سال دمه. وقد ظلوا يعذبونه لمده أسبوع بهذه الكيفية. فجمع له المسيحيون ٣٠ دينار. ولم يفرج عنه إلا بعد توسلات الكثيرين من الأقباط لعبيد الله.[٧٣]

لى النقمة أنا أجازى يقول الرب:-

أ - ذكر عن أحد جامعى الخراج ويدعى أبا جراح. هذا كان له أخوان أخذهما ودخل دير عامر بالرهبان قرب تانيس على اسم السيدة العذراء. فطرد الرهبان ونهب الدير وبصـــق أخـــوه الأصـــغر علـــى صليب كان بقلاية أمين الدير الايغومانس ابيماخس مســـتهزئاً به. فخرج الايغومانس من الدير وقال أن لم ينتقم الرب من هذه الإهانة لا أعـــود إلـــى الديـــر. وكانـــت نقمة الرب سريعة. إذ شعر هذا المعتدى بحاجة لإزالة ضـــرورية. وهـــناك فـــى دوره المـــياه انسكبت أحشاؤه على نحو ما حدث لآريوس المجدف ومات. فصار خوف عظيم عند المسلمين فى ذلك المكان.[٧٤]

ب - وذكـــر عن حفص بن عبد الوليد الحضرمى الذى تولى حكم مصر فى الفترة (٧٤٢ - ٧٤٥م) أصدر أمره بأن يصلى كل من بمصر وأعمالها بصلاة السنة.. وكل مـــن يتخلـــى عن دينه ويكون مسلما لا تؤخذ منه جزيه. وبسبب هذا الإجراء " أضل الشيطان خلائق كثيرين فتخلوا عن دينهم ". ولشده الضيق خرج الأساقفة عن كراسيهم إلـــى الأديـــرة ليتضرعوا إلى الله " وقيل أن من اعتنق الإسلام بسبب ذلك بلغ عددهم أربعه وعشرين ألفا.[٧٥]

وقـــد تنبأ الأنبا مويسيس أسقف أوسيم بأن الله سينتقم من حفص فيحرق جسده بالنار وسط الفسطاط. وقد تم ذلك حينما أرسل الخليفة مروان الثانى حوثره بن سهيل

سـنه ٧٤٥ م بجـيش إلــى مصر قوامه خمسه آلاف مقاتل ليصبح واليا على مصر وأعمالها فأحرق حفصا بالنار و أخذ جميع أمواله.

ج – ذكــر عــن أبو القاسم انه حاول دخول دير الأنبا شنوده ممتطيا جوادا مع أحد محظياته فنصحه رئيس الدير أن يتخلى عن كبريائه ولا يجلب الموت للمرأة مثل كل امرأة داست البيعة فلم يرتدع ودخل ونفر الجواد فماتت المرأة.[٧٦]

٧ـ حبس البابا خائيل فى خلافة مروان وولاية عبد الملك:

وفــى خلافــة مروان بن محمد وولاية عبد الملك بن موسى على مصر ساد الاضـطراب واستعدى الوالى البابا خائيل ليدفع خراج البيعة التابع له وطولب الأب البطريــرك بمــا يفوق طاقته فعجز عن الوفاء بما يطالب به. فأمر الوالى أن يعتقل البطريــرك وتوضع فى رجله خشبه عظيمة وفى رقبته طوق حديد ثقيل واعتقل مع الأب البطريــرك الآباء الأساقفة أنبا مويسيس أسقف أوسيم وأنبا تادرس أسقف مصر وأنــبا أيلــياس بولس الابن الروحى للأنبا مويسيس وجعلوهم فى خزانه مظلمة وظل الــبابا خائــيل مكبلاً بالحديد حوالى من ١١ توت إلى ١٢ بابه. لم ير ضوء الشمس خلالهــا. وبالإضافة إلى هؤلاء الآباء. كان فى المعتقل ثلثمائه رجل وامرأة. وأخيرا أفرج الوالى عن البطريرك تحت شرط ذهابه إلى بلاد الصعيد ليأتى بما يستطيع جمعه من أولاده المسيحيين ويقدمه للوالى. وبالفعل اخذ الوالى ما تصدق به المسيحيون ولم يطلــق ســراح البطريرك إلا بعد أن زحف قرياقص ملك النوبة المسيحى إلى القطر المصرى. وكانت كنيسة النوبة فى ذلك الوقت تتبع الكنيسة القبطية كنسياً.[٧٧]

وكــان أول ما فعله البابا خائيل بعد خروجه من السجن أنه طلب من الملك قرياقص العودة من حيث أتى، رافضاً تدخله لفرض حمايته على الأقباط.

تحول الذئب إلى غنمــــه:-

وبلــغ مــن تجبر عبد الملك بن موسى وإلى مصر حدا كبيرا حتى أن الأنبا ســاويرس" كاتــب تاريخ البطاركة كتب عنه فقال " ولم تجد ديار مصر طمأنينة ولا راحــة فى أيام مملكة عبد الملك لأنه لم يكن من جنس ملوك الإسماعيليين (العرب) الــذين ملكوا عليهم مثله. وصنع مع الديارات مالا يجوز لبغضه للنصارى وكما كان يشــاء أن يعمل كذلك فعل. والسيد المسيح الذى بيده قلوب الملوك. رد قلبه لمحبه أنبا خائــيل البطريــرك. وكان يدعوه إلى قصره ويطلب منه أن يدعو له وكانت ابنته قد ســكن فــيها روح نجس. وكان عمرها أربع سنوات فسأل الأب البطريرك أن يصلى علــيها فأخــذ زيتا وصلى عليها ودهنها به فخرج الشيطان منها للوقت. فصار يحب النصارى لأجل محبته للأب البطريرك وكان أيضاً يحب الأساقفة ويكرمهم.[٧٨]

وقــد بلغت الضيقات التى حلت بأقباط مصر حد الذروة بعد تواجد مروان بن محمد حينما وصلها هربا من العباسين حيث وصل مروان مصر سنة ٧٥٠ م.

وقد أعلن الإعلان التالى " كل من لا يدخل فى دينى ويصلى صلاتى ويتبع رأيى من أهل مصر قتلته وصلبته. ومن دخل معى فى دينى خلعت عليه.

وكـــان البشموريون قد قاموا بثورتهم ضد الاحتلال العربى. وحدث أن قبض حوثـــرة بـــن سهيل مقدم جيش مروان بالإسكندرية على البابا خائيل وقال له " كيف مكـــنت أولاد النصارى (يعنى البشموريين) أن يقاتلوا .. وطلب منه مبلغا من المال ولمـــا لـــم يستطع أن يحقق طلبه طرحه فى السجن وجعل رجليه مربوطتين بالحديد وضـــيق عليها كثيرا لمدة تسعة أيام.أحضره بعدها أمامه وجذبه على وجهه وطرحه علـــى ركبتـــيه، وضـــربه مائتى دفعه بقضيب على رأسه لكن المسيح حفظه ثم أمر بضرب عنقه. وكانوا يجذبونه مثل الخروف الساكت وأنزل قلنسوته على وجهه حتى تؤخذ رأسه ثم انه مد رقبته بفرح، ثم مد السياف يده وجرد السيف " وكانت العادة أن يصـــيح السياف ثلاث دفعات " هل آخذ رأسه ". واستأذن السياف مرتين. وفى المرة الثالـــثة عدل. لأنه تذكر كيف أن البابا خائيل كان قد كتب إلى البشموريين لتهدئتهم. وعلى أن يستخدمه مستقبلا لنفس هذا الغرض فأمر حوثره بالإفراج عنه.[٧٩]

استشهاد القديسة فبرونيا:-

لكن جيش مروان اخذ يعيث فى بلاد الصعيد فسادا ومن ذلك أنهم قتلوا جماعه مـــن الاراخـــنه ونهـــبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأهاليهم وأولادهم. واحرقوا ديارات الـــرهبان واخذوا الراهبات ومما يحفظه التاريخ قصة دير للراهبات قرب اخميم كان فيه ثلاثون عذراء أخذوهن جنود مروان وبعد أن نهبوا الدير أرادوا اغتصاب عذراء صـــغيره تدعـــى فبرونيا. فتنوا بجمالها. وإذ وجدت العذراء نفسها ضائعة لا محالة. خرجت للجند بحيله للخلاص من الدنس فطلبت إليهم أن يتركوها لعبادتها مقابل جميل تسديه إليهم تعلمته من أسلافها. وكان هذا الجميل زيتا تقتنيه إذا دهن به أى جزء من أجـــزاء الجســـم لا تعمل فيه السيوف. ولكى تبرهن على صدق كلامها. دهنت عنقها بالـــزيت وطلبت أن يهوى أقواهم بسيفه على عنقها.. وما أن فعل ذلك. حتى انفصل رأس العذراء الطاهرة عن جسدها أما الجند فاعتراهم خوف شديد. و أسرعوا بمغادره الدير. بعد أن تركوا كل ما كانوا قد نهبوه.[٨٠]

إشعال النار فى مدينة الفسطاط:-

بعـــد أن أشـــعل مـــروان النار فى الفسطاط وأسرع الناس يعبرون النيل إلى الجيـــزة وســـقط فى النهر عدد كبير من الناس والبهائم مالا يحصى عدده لعدم وجود الوسائل لعبور النيل.

ويقـــول ســـاويرس بـــن المقفع وهو يصف هذا الضيق " وكان الأخ يهرب من أخيه والصـــديق من صديقه والأعمى لا يجد من يقوده والمقعد والمفلوج والضعيف والشيخ

المسن والعجوز الغير قادرة على النهوض. جميع هؤلاء احترقوا بالنار. وكان الناس مطـروحين فـى الشوارع والازقه والحقول فى أعمال الجيزة كالأموات مما حل بهم تحـت شقاء عظيم وجوع وعطش ولا يجدون ما يقتاتون به من كثره الخلق. وكانت الغلات التى بمصر قد أحرقها مروان.[٨١]

ثالثا ـ ثورات الأقباط:

أدرك الأقباط أنهم بالغوا فى تفاؤلهم لأن الحكومة العربية مهما كانت متسامحة لا تسـتطيع أن تكف عن جباية الضرائب وزادت خيبه أملهم عندما أدركوا أن العرب كمسـتعمرين جدد كانوا يريدون أن ينعموا بثمره انتصارهم لذلك لم يلبثوا أن وضعوا نصـب أعينهم هدفا واحدا هو التخلص من حكامهم الجدد والتحرر من ظلمهم. وهكذا لـم يقـف أقباط مصر مكتوفى الايدى إزاء مظالم الخلفاء والولاة. لكنهم عبّروا عن تمردهم بعده ثورات قاموا بها فى أنحاء مختلفة من البلاد خاصة الوجه البحرى وظلت تلـك الـثورات تـندلع من آن لآخر نحو قرن من الزمن. ولعل أهم هذه الانتفاضات الشعبية كانت سبعه نعرض لها فيما يلى:-

١ - **فـى حكـم هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى. وولاية الحر بن يوسف على** مصـر (٧٢٤ - ٧٢٧) ونتـيجة المظـالم الفادحة التى حلت بالأقباط. جأر الأقباط بالشـكوى دون جدوى. وكانت النتيجة أن قام أهل الجوف الشرقى (المنطقة الواقعة شـرقى فرع دمياط والصحراء) واعتصموا وتوقفوا عن دفع الأموال. فأرسل الوالى جـندا حاربوهم. ولما وجد أن كفه الثوار راجحة. خرج إليهم بنفسه ورابط فى دمياط لمده ثلاثة اشهر. وكانت النتيجة أن قتل من الفريقين عدد كبير. وحلت الهزيمة أخيرا بالأقباط لعدم تدربهم على القتال. غير أنهم لم يهربوا بل ثبتوا أمام أعدائهم حتى ذبحوا عن آخرهم. وكانت النتيجة أن عزل الخليفة الحر بن يوسف ونقل إلى إماره أسبانيا.

٢ - **وفى الولاية الثانية لحنظله بن صفوان (٧٣٧ - ٧٤٢)** - وكان عاتيا غشيما - أثقل على الشعب - ولم يكتف بالضرائب المفروضة على الأطيان وعوائد الأملاك والجـزية. بـل استحدث ضرائب جديدة على الحيوانات وأساء معامله الجميع لاسيما الأقباط. حتى إن اقل جزاء عنده كان قطع يد من لا يجده حاملا إيصالا مختوما بختم علـيه صوره الأسد. كانت نتيجة ذلك أن هاج أهل الصعيد وقاموا على عمال الخراج وأخـرجوهم مـن بلادهم. وحدثت بينهم وبين جند الوالى واقعه عظيمة قتل فيها عدد كبير من القبط. وخربوا عده أديرة. وكانت النتيجة أن تقدم الشعب بشكواه إلى الخليفة فعزل حنظله وولى مكانه آخر يدعى حفص بن الوليد.

٣ - **وحـدث فـى ولاية عبد الملك بن موسى والى مصر من قبل مروان بن محمد** آخر خلفاء الدولة الأموية. أن حل بالأقباط ظلم كثير حتى انه الزم الأقباط بدفع مبالغ

طائلـــة، كما ألزم البابا خائيل والأساقفة بدفع غرامه لم يكن فى طاقتهم أداؤها. فطلب إليه البطريرك أن يمهله حتى يطوف بالبلاد يجمع المال من رعيته. فصرح له بذلك. فاتجـه البطريرك أولا إلى الوجه القبلى فوجد الأقباط فى ضنك شديد بسبب الغرامات الفادحـة التـى فرضـها هـذا الوالى عليهم وتشديد رجاله فى تحصيلها. لم يعرف البطريـرك مـاذا يفعل. وصار ينتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى أخرى حتى بلغ أقصى الصعيد.

٤ـــ **وقيل أن قرياقص ملك النوبة المسيحى** - الذى كانت بلاده تابعه دينيا للكنيسة القبطـية - لما علم بما حل بالبطريرك من إهانات واضطهاد - جمع جيشا وسار به إلـى مصـر حتى صار على مقربه من الفسطاط فانزعج عبد الملك بن موسى لقلة جـنوده ومـا كانـت علـيه البلاد من الضعف بسبب ظهور العباسيين وحربهم ضد الأمويين وانشغال مروان بن محمد فى هذه الحروب فاستدعى الوالى البطريرك وأبرأ ذمـته مـن المبلغ الذى فرضه عليه وطلب إليه أن يتوسط فى الصلح بينه وبين ملك النوبة فأجابه البابا خائيل إلى طلبه وأرسل إلى الملك حتى انسحب وعاد إلى بلاده.[٨٢]

٥ـــ **وحدث أثناء الصراع بين العباسيين والأمويين** أن مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويـين وفـد إلـى مصر هاربا من وجه أبى العباس. الذى استطاع أن ينتزع كل الولايات التابعة للأمويين. وكان قصد مروان - كما ظن - أن يستبقى مصر فى يده لكـنه لمـا وصل إليها وجدها فى هياج واضطراب شديدين بسبب ظلم الولاة وعمال الخراج.

٦ـ ثورة البشموريون :

البشموريون هم سكان الأرض الرملية بأقصى شمال الدلتا ما بين فرعى دمياط ورشيد - قد ثاروا على عمال الخراج وقتلوهم. وكان يقود البشموريين فى ثورتهم قبطى يدعى مينا بن بقيره. جرد الوالى عليهم جنده لكن الثوار انتصروا عليهم مرتين. كان هذا سببا فى أن مروان حمل عليهم بجنوده فقاوموهم وقاتلوهم لكن البشموريين لعلمهم أنهم لا يستطيعون الثبات طويلا أمام مروان. تركوا ميدان القتال وتحصنوا فى بلادهم الكثيرة المياه ولهذا السبب لم يستطع مروان أن يتعقبهم. استدعى مروان البابا خائيل القبطى وطلب إليه أن ينصح البشموريين بالخضوع فكتب إليهم البطريرك رسالة يحثهم فيها على الخضوع والطاعة لكنهم لم يذعنوا وأصروا على المقاومة. فظن مروان أن البطريرك يحرضهم سرا على العصيان. فاستعمل معه العنف والشدة وقبض عليه. وعلى كثير من الأساقفة والقسوس وزج بهم فى السجون وهددهم بالقتل إذا استمر البشموريين على المقاومة.

فكتب البطريرك والأساقفة رسالة أخرى إلى البشموريين أبانوا لهم فيها النتائج السيئة التـى تعـود علـى الأقـباط عموما من جراء شق عصا الطاعة ونصحوهم بالتسليم

والإذعـــان. وقبل أن تظهر نتيجة هذه الرسالة الثانية وصلت جيوش أبى العباس فى ســنة ٧٥١م إلـــى مصر قاصدا أخذها من يد مروان، وقد عسكر بجيشه على شاطئ النـــيل تجـــاه مروان الذى كان لا يزال قابضا على البابا خائيل وموسى أسقف أوسيم وبعض الأساقفة، وكان الأقباط فى ضيق شديد فانحازوا إليه وطلبوا مساعدته. فعزز مروان قوة جيشه وسمح لهم أن يذيقوا الأقباط العذاب أشكالا وألوانا فأوقعوا بهم من الويلات ما تصطك لسماع أخبارها الركب وتشيب لها شعر الرأس.

مروان يعذب الأنبا خائيل:

ولما علم مروان أن بعض الأقباط عقدوا صلحا مع أبى العباس اشتد به الغضب واستدعى إليه البطريرك وأوقفه أمام الأقباط الذين كانوا مع خصمه فى الجهة المقابلة وأمر جنوده بإهانته فمدوا إليه أيديهم بسرعة وشرعوا ينتفون شعر لحيته من عارضيه ورموا شعره فى البحر. وكان المصريون وجيش أبى العباس يشاهدون ذلك بغيظ شديد وكانوا يتمنون لو يجدون مراكب يعبرون بها النهر ليقتصوا من مروان على هذا الظلم الفظيع. ثم عادوا إلى الأنبا موسى وأذاقوه العذاب مما لا يطيق احتماله الأقوياء فضلا عن شيخ ضعيف مثله.

ثم رحل مروان وأمر أن يقف البطريرك ومن معه فى الشمس على الشاطئ واستمر بقية اليوم وليلته وفى الغد جاء مروان ومعه الجلاد وجلس على شاطئ البحر وأمر بإحضار البطريرك إليه فأبى الأساقفة الذين معه إلا مرافقته فجاؤا جميعهم إلى مروان وأوقف البطريرك بين يديه عشر ساعات ووجهه إليه وحوله عدة سيوف مسلولة وآلات الحرب. وأما الذين رافقوا البطريرك من الاكليروس والشعب وكان عددهم عشرة فأوقفهم على يساره فى ناحية وسلمهم إلى قوم قساة وجعل مع كل واحد ثلاثة من الجنود وجعلوا يضربونهم بأعصاب البقر ولما اشتدت حرارة الشمس أعد مروان آلات العذاب المختلفة لأنهم لم يتفقوا على طريقة يقتلونهم بها. وكان البابا خائيل فى تلك الأثناء يبسط يديه ويصلب على وجهه ويبارك من معه. وكان الأقباط وجيش أبى العباس يشاهدونهم من البر الشرقى وجماعة من المسلمين يبكون عليهم . ثم أمر مروان يزيد اقسى جنوده أن يأخذ البطريرك إلى بحرى المتنزهات فاقتيد ومن معه بفظاظة متناهية والبطريرك يصلى للرب أن يثبت إيمانهم. وقد بلغت القسوة على أولئك البائسين مبلغا استدعى إشفاق عبد الله بن مروان الكبير فبكى عليهم وتقدم وهو يسكب الدموع الغزيرة إلى أبيه طالبا أن يطلق سراحهم ثم قال له. آنت تعرف إننا لا نقدر على مقاومة جيش الخراسانيين فنضطر إلى الذهاب للسودان وأهله كما نعلم من أولاد هذا الشيخ البطريرك فان قتلته لا يقبلونا. فتطلع مروان إلى جيوش الخراسانيين فرآهم فى كثرة أزعجته وأيقن انه لا يقوى على محاربتهم فأعاد البطريرك ومن معه إلى الاعتقال وكان ذلك المكان بالجيزة وكان فيه أربعة سجون فأدخلوهم فيها موثقين وربطوا فى قدم كل واحد منهم قطعة حديد ثقيلة وجعلوهم خلف ثلاثة أبواب من الخشب دون أن يشاهدوا ضوءا أو ينفذ إليهم هواء وكان واحد منهم ينظر إلى الشرق وآخر للغرب. واستمروا فى ضيق شديد حتى أشرفوا على الموت غير أنهم تعزوا

بأقوال البطريرك الممزوجة بالمواعيد الإلهية التى كانت تخفف عنهم الآمهم، وتنبأ لهم الأنبا موسى أنهم سوف يخرجون من السجن قريبا سالمين ومروان فى قيد الحياة. ولم يجسر أحد بالسؤال عنهم والا عرض نفسه للموت. واستمروا عشرة أيام والكنيسة تصلى من أجلهم.

وقد تمت نبوة الأنبا موسى عندما قام الخرسانيون وعدوا البحر إلى الجهة الغربية وضيقوا الخناق على مروان وجيشه فانهزم أمامهم وترك جيشه وهرب وجاء ابنه الصغير ليحرق السجن الذى كان فيه البطريرك بالنار وما كادت النار تشتعل حتى اكرهه أعداؤه على الهروب وجاء بعض ذوى الشفقة وأطفأوا النار وأطلقوا المسجونين وحلوا قيودهم وجاءوا بهم إلى كنيسة مارمرقس بالجيزة وكانت ليلة الأحد الأول من مسرى.

أما أسماء الذين كانوا معتقلين مع البطريرك فهى:

البطريرك وموسى أسقف أوسيم كاتب سيرة البطريرك وأسقف طنبذا ومينا كاتبه وزكريا أسقف أتريب وبطرس أسقف بوصير وجرجس تلميذه واثاسيوس ارشى بيعة أبى مقار ويعقوب أسقف سنجار وتلميذه بطرس من سمنود.

كلمة حق ينبغى أن تقال:

كـــان القــبض علـــى البطريرك الأنبا خائيل والمعاملة السيئة التى عامله بها مـــروان كتكبـــيله بالحديـــد بمـــثابة إيذان بانضمام الأقباط كلهم إلى صف العباسيين (أو الخرسانيين كما يدعوهم ساويرس بن المقفع)

قتل مروان وصلبه:

ويقول الأنبا ساويرس " إن بقيه النصارى بمصر قالوا للخرسانيين إن أبونا البطريرك عند مروان الكافر. وما ندرى ما يصنع به .. كما أن البشامره قد التقوا مع الخرسانيين فى الفرما وقالوا لهم إن بطريركنا عند مروان قد أخذه بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قـــبل مجيـــئكم وإدّعـــى كذباً حوثره الكافر عند مروان عن البابا خائيل قائلاً إن هذا البطريـــرك كـــان يقول (للبشامرة) تشددوا فإن الله ينزع المملكة من مروان ويسلمها لأعدائه .. ويذكر تاريخ البطاركة بعد انتصار العباسيين (الخرسانيين) على الأمويين قـــال الـــناس إن يد الرب مع الخرسانيين،مما شجعهم بعد أن تمكنوا من هزيمة جيش مـــروان صلبوه منكسا الرأس بعد أن قتلوه.كما أخلوا الأب القديس الشهيد أنبا خائيل وأكـــرموه كـــرامه عظـــيمة كما كان الخرسانيين أيضاً إذا وجدوا قوما عليهم علامة الصـــليب يخففـــون عـــنهم الخـــراج. ويرفقون بهم. ويعملون معهم الخير فى جميع البلاد.[٨٣]

ويذكر المؤرخ المقريزى إن المسلمين بعد ثوره البشموريين أصبحوا يؤلفون غالبيه من بلاد مصر خاصة فى الوجه البحرى. بعد أن اعتنق الإسلام عدد كبير من الأقباط نتيجة كل هذه الضغوط المروعة. لكن يبدو أن كلام المقريزى مبالغ فيه جدا.

مذبحة طما:

اضـــطر مـــروان بعد دخول العباسيين إلى ترك الوجه البحرى والفرار إلى الصعيد. وأخــذ جنوده ينهبون أموال القبط ويهدمون الديارات والكنائس. وكانت نتيجة ذلك أن توقــف أهــل طما (كانت مدينه عامره ولما تخربت قامت فى موضعها قرية صغيره تسمى طما العموديين بمحافظه المنيا) عن دفع الخراج. فأرسل إليهم مروان أحد قواد جيشه فقتل كثيرين. واستباح أموالهم وهدم كنائسهم. ولم يبق منها سوى واحده. كانوا التزموا بدفع ثلاثة آلاف دينار نظير بقائها فلما دفعوا ألفى دينار فقط وعجزوا عن دفع الباقى جعل ثلثها (الكنيسة) جامعا.

رابعا:نزوح العرب إلى مصـــــر:

عرفنا فيما سبق أن عمرو بن العاص وفد إلى مصر على رأس جيش عربى قــوامه أربعه آلاف مقاتل. وقد أرسل عمر بن الخطاب أربعه آلاف أخرى كمدد. وقد قتل بعض هؤلاء الجنود أثناء الحملة على مصر. معنى ذلك أن العرب الفاتحين كانوا اقليه ضئيلة جدا إذا ما قورنوا بعدد سكان مصر من الأقباط وغيرهم فى ذلك الوقت. لم يختلط هؤلاء العرب الفاتحين بسكان البلاد الاصليه. وإنما اختطوا لهم مدينه عربيه اســلاميه وســط المحيط المصرى القبطى هى مدينه الفسطاط الواقعة شمالى حصن بابلــيون بمصــر القديمـــة. ما بين النيل والجبل المقطم (المرجح اسم الفسطاط غير عربــى وانه مشتق من لفظ يونانى فساطن الذى بدوره مشتق من اللغة اللاتينية فساتم الذى كان يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية.[٨٤]

وكان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا إلى جنب مع الفتوحات العربية فلمـــا اختط العرب مدينه الفسطاط فى سنه ٦٤١م قسمت إلى خطط أى أقسام وسكنت كــل قبيلة خطه من الخطط. وبالاضافه إلى الفسطاط. فقد اختط العرب مدينه الجيزة علـــى غـــرار الفســـطاط. ونزل قوم من العرب الإسكندرية وهكذا فان العرب الذين اســتقروا فـــى مصر كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية. وقد حرم علـــيهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض. حتى يكون كل همهم منصـــرفا إلى السياسة والحكم والحرب. لذا لم يختلط العرب بأقباط مصر فى البداية. ولم يكن لهم تأثير يذكر على الأقباط سواء من ناحية انتشار الدين أو اللغة العربية.

كـــان اســـتيلاء العرب على مصر فاتحه لهجرات عربيه متوالية دامت زمنا طـــويلا. ولعـــل اقـــل هذه الهجرات. هجره العرب أو الجند الذين أتوا مع عمرو بن العـــاص لفـــتح مصـــر. علـــى أن اغلب الذين حكموا مصر فى عصر الولاة كانوا يصـــحبون معهم جيوشا عربيه حتى نهاية العهد الأموى(٧٥٠م) ومن شعوب أخرى غيـــر العرب كالخرسانيين والأتراك فى العصر العباسى. والمعروف أن الجنود كانوا يصحبون معهم أسرهم.

خامسا:انتشار الإسلام والمسلمين وانشغالهم بالزراعة:

وفـــى خلافـــة هشـــام بن عبد الله (٧٢٤ - ٧٤٤م) حدث تطور فى هجره القبائل العربية إلى مصر. لقد سأل عبيد الله بن الحجاب عامل الخراج على مصر سنه ٧٢٨م أن يـــنقل إلـــى مصر بيوتا من قيس أى عرب الشمال. فأذن له الخليفة بذلك. وجـــاء بن الحجاب بعدد كبير بلغ حوالى ثلاثة آلاف. وقد أنزلهم بالجوف الشرقى أى شرقى الدلتا وأمرهم بالاشتغال بالزراعة.

معنـــى ذلك أن العرب فى زمان هشام بن عبد الملك اخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالاهالى وعن الاشتغال بالزراعة..

وقـــد ســـاعد وجـــود العرب فى القرى المصرية واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالاهالى. وكان لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الإسلام بمصر نتيجة التزاوج والجوار والمصاهرة. لذا يقول المقريزى فى كتابه الخطط " ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعـــد المائه من تاريخ الهجرة. عندما انزل عبيد الله بن الحجاب مولى سلول قيسا بالجوف الشرقى. فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة. كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها.

سمـــاحـــه الإســـلام:

كمـــا ينبغـــى أن نعلـــم انه رغم الضيقات الكثيرة التى لحقت بالأقباط عموما والـــبطاركة ورجـــال الدين والكنائس خصوصا. فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأمـــوية إلا اننى أريد أن اذكر أن الإسلام فى جوهره وفى روحه وفى أساسه يعامل غيـــر المســـلمين معاملـــه طيبه، نذكر من هذا الميثاق الذى أعطى لنصارى نجران، والميثاق الذى أعطى لقبيلة تغلب، والوصية التى قدمها الخليفة الإمام عمر بن الخطاب قـــبل مـــوته، ووصيه الخليفة أبى بكر الصديق لاسامه بن زيد، والميثاق الذى أعطاه خالـــد بـــن الوليد لأهل دمشق. والميثاق الذى أعطاه عمرو بن العاص لأقباط مصر. واذكر العبارة الإسلامية الجميلة:

" استوصـــوا بالقـــبط خيـــرا فان لنا فيهم نسبا ورحما " واذكر أيضاً الحديث الشريف " من آذى ذميا فليس منا العهد لهم ولأبنائهم عهد ابدى لا ينقض، يتولاه ولى الأمر ويرعاه " و اذكر أيضاً فى سماحه الإسلام ذلك الشرع الجميل الذى يقول " وإن أتـــاك أهـــل الذمـــة فـــأحكم بينهم بما يدينون. وهكذا أعطى الإسلام والحكام والولاة المسلمين الذين يعرفون مافى الإسلام من سماحه حرية الدين لغير المسلمين.

واذكـــر أيضـــا فى سماحه الإسلام حفظه فى عهوده ومواثيقه للمسيحيين فى كنائسهم وصـــوامعهم ورهـــباناتهم وأملاكهـــم وأرواحهم. وهكذا عاش الأقباط فى ظل الحكام المسلمين الذين يؤمنون بسماحه الإسلام عاشوا حياه طيبه.[٨٥]

" الفصل الثالث "

قديسوا الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها فى عصر الولاة

(عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية)

مـا أغنـى الكنيسـة القبطية وعلمائها فى كل الأجيال. انه من المستحيل أن يحصى الإنسان كل القديسين فى هذه الفترة لكننا نقدم بعض النماذج.

أولا: البابا بنيامين الأول(البطريرك الـ٣٨)(٦٢٣م - ٦٦٢م)

وتتميز حياه البابا بنيامين الرعوية بثلاث مراحل متباينة:-

المرحلة الأولى:- تمتد منذ رسامته أوائل سنة ٦٢٣ حتى اختفائه سنه ٦٣١

المرحلة الثانية:- وتمتد من سنه ٦٣١م إلى سنه ٦٤٤م:-

وفيها اختفى البابا بنيامين. وظل مختفيا حتى أصدر عمرو بن العاص خطاب أمـان له .. وكان البابا بنيامين مختفيا بأديرة وادى النطرون ومنها إلى الصعيد وظل مختبـئا بأحد أديرة الصعيد لمدة ثلاثة عشر عاما .. وبينما كان هذا البابا فى مخبئه. غزا العرب مصر واحتلوها.

المرحلة الثالثة:- وتمتد من سنه ٦٤٤ إلى نياحته سنه ٦٦٢:-

وفـيها شهدت مصر الحكم العربى .. وعاد البابا بنيامين إلى نشاطه الرعوى بعـد اخـتفاء لمده ثلاثة عشر عاما. خاصة بعد التعاطف الذى أظهره القائد العربى عمرو بن العاص على الأقباط والنعمة التى أعطيت للبابا فى عينيه حتى أن عمرو بن العاص أعطى للبابا بنيامين سلطانا على جميع رجال الكنيسة فى مصر ليدبر أحوالهم. كالبطريـرك والـرئيس الشرعى للكنيسة فى كل إقليم مصر كما أمر باسترداد جميع الكنائس التى اغتصبها الروم خاصة فى الإسكندرية.

وأهم أعمال البابا بنيامين فى هذه الفترة يمكن تلخيصها فيما يلى:-

(أ) محاولة سرقة رأس مارمرقس:

بعد استيلاء المسلمين على الإسكندرية دمروا أسوار المدينة وأشعلوا النيران فى معظم الكنائس وبينها الكنيسة القديمة لمار مرقس حيث كانت بقايا جسم القديس مدفونة. ويؤخذ من رواية الأنبا ساويرس المؤرخ أن بقايا القديس خلصت بمعجزة إلهية لأنه بينما كانت النيران متأججة فى الكنيسة دخل إليها بحارة المراكب وفتشوا تابوت القديس ظانين أن فيه مالا ولما لم يجدوا أخذوا الثياب من على جسمه وبقيت عظامه فيه . وجاء بعد ذلك رئيس مركب شنوده احد عظماء الأقباط فوجد رأس القديس فأخذها وخبأها فى جوف مركبه ولما أراد أن يسير خارج الإسكندرية لم يستطيع أن يتحرك بالسفينة، فأخبر شنوده بذلك ففتش السفينة فوجد بها رأس القديس فمضى وأعلم

البابا بنيامين بالخبر وكان شنوده قد شاهد فى رؤيا القديس مرقس يطلب منه أن يبنى له كنيسة فى موضع عينه له فاعترف بأن شكل الرأس كالشكل الذى شاهده فى الرؤيا وحالا أخذها من المركب فأقلعت فورا وجميع الذين شاهدوا هذه الأعجوبة كانوا يمجدون الله وقيل أن عمرو بن العاص عندما قص عليه البطريرك هذه المعجزة أعطاه ١٠٠٠ دينار لكى يبتنى بها كنيسة احتراما للرأس وسميت بالمعلقة وكانت قائمة جنوبى الإسكندرية.

وعاد البابا بنيامين إلى المدينة والرأس فى حضنه وصنع لها تابوتا من الأبنوس وبنى عليها بيعة ومن ذلك الوقت صار كل البطاركة الذين يرسمون يضعون الرأس أمامهم وقت التكريس مغطاة ببرقع جديد ويقدمونها للشعب لتقبيلها وفيما بعد جدد هذه البيعة البابا يوحنا السمنودى (البطريرك الـــ ٤٠).

وفى مدة البابا زكريا (البطريرك الـــ ٦٤) سرق احد الأمراء الأتراك رأس القديس مارمرقس بعد ما سمع بأن المسيحيين يعلقون عليها أهمية كبرى وحملها إلى القاهرة، وتمكن الشماس بقيرة أحد مستخدمى الحكومة أن يشتريها منه بمبلغ ٣٠٠ دينار وقدمها للبطريرك حيث كان فى دير أبى مقار.

وفى أيام البابا خريستوذلو (البطريرك الـــ ٦٦) كانت الرأس المقدسة محفوظة فى منزل أبى يحيى بن زكريا وقد مرض مرضا شديدا فخشى المؤمنون أن تختم الحكومة بيته بعد موته لحفظ ما فيه، فأخذوا تابوت الرأس وحملوه إلى بيت مجاور وإذ رأوا المحل غير آمن أرادوا نقله إلى بيت الأب مانهوب راوى هذا الخبر ولكن هذا الرجل الذى كان مقربا للسلطان أبى حفظ التابوت عنده فعهد به إلى القس سمعان إلا أن رجلا إفريقيا اسمه على ابن بكير من أهالى برقة وقف على سر المسألة ورفعه إلى الحاكم فى رسالة فألقى القبض على كل المهتمين بالأمر ولما سئلوا أمام حاكم الإسكندرية كوكب الدولة طلب منهم أن يردوا رأس القديس أو يدفعوا مبلغ عشرة آلاف دينار التى كان يظن بحسب فكره أن اليونانيين كانوا مستعدين لدفعها ثمنا لباقى الأعضاء وبعد أن لبثوا مكبلين بالحديد ٣٧ يوما دفع أحدهم يدعى أبو الفتح ٦٠٠ دينار فأطلق سراحه بعد ثلاثة أيام وأعيدت رأس القديس إلى المسيحيين فكانت موضع احترامهم.

وفى مدة حكم الملك الكامل وجدت رأس القديس فى منزل ابن السكرى حيث كانت قد اكتشفت من عدة سنين مضت.

وقيل أن رجلا روميا اشترى الرأس فى عهد البابا خروستوذولو بأربعمائة دينار وبنى عليها حائطا خشية وصول الايدى إليها وأن البابا مرقس (البطريرك الـــ ٧٣) جاء هذه الدار وبات هناك إلى ثانى يوم وكيرلس ابن لقلق (البطريرك الـــ ٧٥) لما وضعت عليه اليد خرج إلى دار ابن السكرى التى فيها الرأس وقيل أنها كانت رأس البابا بطرس خاتم الشهداء لان رأس مارمرقس كانت معه على جسده لما نقله الروم إلى البندقية والله أعلم.

وكنيستنا القبطية تخبر أن رأس الرسول مرقس نقلت من دار ابن السكرى إلى ضريح البطاركة بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية ولم تزل باقية به وذلك انه لما جلس البابا

بطرس (البطريرك الـ ١٠٤) واحتضن الرأس علم أن هناك من يحاولون سرقة الرأس فأمر بحفظها بكل عناية فى ضريح البطاركة بالإسكندرية.

ومما هو جدير بالذكر:

إن كنيسة مار مرقس قد أحرقت أثناء فتح العرب الثانى للإسكندرية فى صيف سنه ٦٤٦م. وقد أعاد بناءها خلفه البابا أغاثون(البطريرك الـ ٣٩).[٨٦]

(ب) ومما يذكر للبابا بنيامين انه دشّن كنيسة الأنبا مقار بديره ببريه شهيت ويروى انه أثناء صلوات التكريس شاهد الأنبا بنيامين الأنبا مقار حاضرا بين أولاده رهبان الدير • فظنه واحدا منهم ووضع فى قلبه أن يرسمه أسقفا حينما يخلو أحد الكراسى • ولكن السيرافيم ظهر له واعلمه بحقيقة هذه الشخصية وهو انه أنبا مقار أبو البطاركة والأساقفة.. ووقت الدهن بالميرون رأى البابا بنيامين يد السيد المسيح تمسح معه الهيكل.

ثانيا: البابا أغاثو (البطريرك الـ ٣٩)(٦٦٢ م - ٦٨٩ م)

وكان هذا البابا معاصراً لمعاوية بن أبى سيفان وقد اشتهر هذا البابا فى مده خدمته بشراء صبيان النصارى الذين نهبهم العرب من الجزر خصوصاً جزيرة صقلية التى استولوا عليها وجعلوا يتجرون بهم فى أسواق الثغر فكان يشتريهم ويفرقهم على المسيحيين ليربوهم. وفعل ذلك بالرجال والنساء ونقرأ فى السنكسار اليعقوبى أن البابا اغاثو " لقى شدائد كثيرة من أجل الأمانة فقد ذكر أن فى زمانه مضى إنسان اسمه تاؤدوسيوس (وكان ملكانى المذهب) إلى مدينه دمشق وقدم إلى يزيد بن معاوية الخليفة أموالا كثيرة واخذ منه منشورا بأن يتولى مدينه الإسكندرية والبحيرة ومريوط فلما أتى تقسى على البابا اغاثو وضاعف الجزية إذ طلب منه ٣٦ ألف دينار والزمه بكل ما ينفق على مراكب الأسطول فى كل سنة وكان هذا يزيد على سبعه آلاف دينار ولكثرة شرّة لم يختلط به أهل ملته لأنهم كرهوا منه ما عمل مع البطريرك ومن شده المظالم إلى حاقت بالبابا وبالأقباط امتنع البابا عن الخروج من قلايته خوفا من بطشه لأنه أصدر أمرا بأن " كل من وجد البطريرك فى الطريق يقتله فمكث البابا فى قلايته محبوسا إلى أن اهلك الله هذا المنافق.[٨٧]

ثالثا: البابا يوحنا الثالث (البطريرك الـ ٤٠) (٦٧٧م- ٦٨٦م)

فى عهد خلافة معاوية بن أبى سفيان:

وكان هذا البابا بهى الطلعة يلوح لكل من يرى وجهه أنه يرى وجه ملاك وقد أوتى من عند الله نعمة شفاء المرضى وعفة النفس والجسد ومسالمة جميع الناس حتى بلغ صيت أفعاله الحميدة إلى العظماء فاجزلوا له الهدايا وحدث أن الوالى سعيد بن يزيد

مضى إلى الإسكندرية كعادة من يتولى ليأخذ خراجها بدون أن يبلغ خبر وصوله إذن البطريرك(سمعه) فلم يخرج لمقابلته، فسعى حينئذ قوم أشرار من الاروام فى مقدمتهم ثاؤفانيوس وهو زوج أخت ثيودوسيوس الخلقيدونى وقالوا للوالى إن البطريرك أبى الاحتفاء بك لكثرة تبجحه وازدياد كبريائه ووفرة ماله. فغضب الوالى واستدعاه إليه وأوقفه بين يديه وسأله عن سبب تأخيره عن الخروج للقاؤه فأجابه" يعلم الله انى لم افعل هذا لغلظ رقبة ولكن لعدم علمي وذلك لضعفى ولعدم امكانى الخروج من المدينة إلى موضع أخر " فاضطرم غيظ الوالى وسلمه لجنوده إلى أن يقوم بدفع مائة ألف دينار وكان ممن استلموه رجل يدعى سعد عديم الرحمة قاسى القلب فأخذه إلى بيته أول يوم فى جمعه الآلام ليعذبه حتى يقوم بالمال.

فلما أوقف ذلك الرجل البطريرك أمامه وقال له أريد منك المائة ألف دينار التى أمر الوالى أن تدفعها، أجابه البابا بسكينة وهدوء " أتطلب منى مائة ألف دينار ولا املك منها ألف درهم لان الهى فى شريعتى امرنى أن لا اقتنى المال لأنه اصل لكل الشرور . فكل ما تشاء فعل جسدى بيدك ونفسى بيد الله " فلما سمع الكافر ذلك حنق على البابا للغاية وأمر أن يحضر له وعاء نحاس مملوءا جمرا وأوقف البطريرك عليه ليقول أنه سوف يوفى بالمال، حتى ذاب شحم القدمين من قوة النار ولكن البطريرك لم يتحرك ولم يلفظ كلمة استغاثة كأنه كان واقفا على وتير الفراش غير أن الله جلت قدرته أوقع بزوجة الوالى ضيقا فبعثت رسولا يقول له " أحذر أن تفعل سوءا بالبطريرك رجل الله لانى بليت الليلة بسببه".

فأمر الأمير سعيد بأن لا يمسه بسوء بل يجتهد ليأخذ منه ما يقدر عليه بلطف فعاد سعيد إلى بيته وكان يوم ثلاثاء البصخة وأخذه إلى السجن والأغلال فى عنقه والسلاسل فى يديه ورجليه وجعل يتهدده بأن يدفع المال واستحضر له ثياب يهودى وأقسم أنه إذا لم يدفع ما هو مقرر عليه يلبسه إياها ويلطخ وجهه برماد ويطوف به حول المدينة. أما البطريرك فكان يجاوبه بكل شجاعة قائلا " لا تستطيع أن تمد يدك إلى بسوء بغير أمر الله " فقال له إنى أترك نصف المبلغ فادفع النصف الآخر لكى أطلقك . فأجابه البابا كل ما أملكه هو ثيابى التى على جسدى واستمر الرجل ينازعه إلى أن أنتهى بالقيمة المطلوبة إلى عشرة آلاف دينار . فأفهمه البطريرك أنه لا يقوى على دفعها .

ووصل الخبر الأقباط الموظفين بالإسكندرية أن المبلغ أنتهى إلى عشرة الآف دينار فأوعزوا إليه سرا أن يقبل الدفع وهم يجمعونها خوفا من أن يجرى على البيعة اضطهاد بسبب ذلك ثم تقدموا إلى الوالى وطلبوا منه أن يحضر البطريرك أمامه ليسمع قوله فلما شاهد وجهه الملائكى رق لحاله واستحضر له وسادة ليجلس عليها ثم قال له الوالى " السلطان لا يقاوم" فأجابه البطريرك" يطاع السلطان فيما يجب ويخالف فيما يبغض الله فقد قال الإنجيل " لا تخافوا ممن يقتل الجسد وليس له سلطان على النفس ولكن خافوا ممن يقدر أن يهلك النفس والجسد جميعا يعنى الله القادر على ذلك وحده" فقال له الوالى " إلهك يحب الحق والصدق" فأجابه البطريرك" الهى كله حق وليس فيه كذب بل يهلك من ينطق بالكذب" فقال له الوالى " كل ما دفعه لك النصارى

فادفعه لى ولا أطلب منك سواه" فأشار الموظفون على البطريرك أن يقبل فقبل وأطلقه الوالى بكل كرامة ففرح المؤمنون ونال أعداء البيعة خزى جسيم.

وخرج البطريرك من دار الإمارة راكبا والارثوذكسيون يحيطون به واستمروا يسبحون ويرتلون حتى وصلوا إلى البيعة وكان يوم خميس العهد فصلى على اللقان وغسل أرجل الشعب وأقام الصلاة وقرب الأسرار ورجع إلى قلايته بسرور زائد يمجد الله.

ومما هو جدير بالذكر أنه بعد نياحة البابا يوحنا الثالث أصدر عبد العزيز أمرا يقضى فيه على الأقباط بأن لا ينتخبوا بطريركهم إلا فى بابليون وكانوا قبلا ينتخبونه فى الإسكندرية ومن ذلك الحين لغاية القرن الحادى عشر والبطاركة ينتخبون ببابليون ولكن رسامتهم تتم فى كنيسة الملائكة بالإسكندرية كما أنه على البطريرك المنتخب أن يدفع مبلغا من المال لكنائس الإسكندرية لأجل تعميرها وحفظها من الزوال.

رابعاً: البابا خائيل (البطريرك الـ ٤٦) (٧٤٤ م – ٧٦٨ م)

قد احتمل هذا البابا شدائد وضيقات واضطهادات تجل عن الوصف مما اشرنا إليه سابقا فى أكثر من موضع. وقد عاصر نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

إثبات ملكيه الأقباط لكنيسة مارمينا بمريوط:

حاول الخلقيدونيون أن يضعوا أيديهم على بيعه مار مينا العظيمة بمريوط. وقد قويت شوكتهم بعد أن أقيم لهم بطريركا يدعى قسما، وكان عضدهم هو ثاوفيلس بطريرك الروم فى الشام الذى كان مقربا للخليفة الأموى مروان بن محمد. واستطاع أن يحصل من الخليفة على خطاب إلى والى مصر عبد الملك بن مروان للتحقيق فى ملكيه بيعه مارمينا المشار إليها. وقد حقق الوالى الموضوع بنفسه أولا. ثم أحاله إلى أحد القضاة الخلقيدونيين (الذى قدم رشوه للقاضى) ورغم وضوح ثبوت ملكيه البيعة للأقباط فانه اخذ يماطل.. فاقترح البعض أن يدفع البطريرك خائيل شيئا للقاضى فتصدى الأنبا مويسيس أسقف أوسيم وقال انه لا يليق بالبطاركة والأساقفة أن يدفعوا رشوه لأحد. والله لن يتخلى عنا. وفى نفس الأسبوع عُزل القاضى المرتشى. وأقيم آخر وكان شخصا لا يحابى. فحكم بملكيه الأقباط لهذه الكنيسة.

أول محادثات للوحدة المسيحية فى مصر:

وفى أثناء نظر قضيه ملكيه كنيسة مارمينا بمريوط جرت أول محادثات للوحدة المسيحية فى مصر بين الأقباط والروم والملكانيين فى مارس أو ابريل سنه ٧٤٩م وكانت المبادرة من جانب الملكانيين لكنها لم تكن بنية خالصة وكانت نتيجة لفشلهم فى وضع يدهم على بيعه مارمينا بمريوط.. أرسل البابا خائيل يستطلع رأيهم فى هذه المسألة. فكان جوابهم أنها خدعه. لكن الأنبا مويسيس أسقف أوسيم رأى أن

يجـــربوا ويرسل إليهم وفدا لمعرفه رأيهم. وفعلا أرسل البطريرك اثنان للتباحث هما القـــس مينا كاتب البطريرك (وهو الذى خلف البابا خائيل فى البطريركية والشماس يحـــنس كاتب سير البطاركة وكان الأول عالما بكتب البيعة) اجتمع الاثنان مع قسما بطريـــرك الملكانيين وقسطنطين أسقف مصر الملكى. اعترف الاثنان بطبيعة واحده للمســـيح بعـــد الاتحـــاد وليس بطبيعتين ولما طلب منهما أن يحررا اعترافيهما كتابه ليحملوه للبابا. لكنهما سألا عن وضعيهما ووضع باقى الأساقفة الملكانيين بعد الاتحاد. وطلب قسما البطريرك الملكانى أن يعامل كأب مثل البابا خائيل. ويحضر جميع البيع مـــثله. فطلـــب القس مينا الرجوع للبطريرك. فلما سمع الأساقفة الأقباط طلب قسما. صـــاح أنـــبا مويسيس انه لا يكون أسقفا على مصر ويكون أخا للاساقفه.. ولما اخبر قســـما بطريرك الملكانين بذلك فرح أولا. إلا أن شماسا من الإسكندرية يتبعه. تدخل وافســـد هذا الاتفاق المبدئى للوحدة. لأنه كان يطمع أن يكون أسقفا وهكذا فشلت أول مباحثات للوحدة المسيحية. لكنها نجحت فى ضم قسطنطين أسقف مصر الملكانى إلى الكنيسة القبطية الارثوذكسيه.

اعتقـــال البابـــا وسجنـــه:-

أعـــتقل الـــبابا خائيل شهرا كاملا فى السجن من (٨ سبتمبر - ٩ أكتوبر ٧٤٩ م) وكـــان معـــه أنبا مويسيس أسقف أوسيم(مركز إمبابة بمحافظة الجيزة)وأنبا تادرس أســـقف مصـــر.وأعطـــاه الرب (البابا خائيل) نعمه فى عيون المسجونين مسيحيين ومســـلمين وغيرهم. وكانوا يعترفون له بذنوبهم التى فعلوها. فكان يعزيهم ويصبرهم ويقـــول لهم أنهم أن نذروا توبة حقيقية وعدم العودة لمثل الذنوب التى فعلوها فان الله يخلصـــهم قـــبل انتهاء السنة. فعاهدوه جميعا على ذلك. وقد تمجد الرب وتم ما قاله حـــرفيا. وقـــد أفرج عنه الوالى بعد ما ضمنه بعض اراخنه الأقباط فى أن يذهب إلى الصعيد ليجمع ما يمكن جمعه من الأقباط ويقدمه للوالى. وأعطاه الرب نعمه فى هذه الجولة وتمت على يديه معجزات شفاء كثيرة.

عاقبة من يستهن بمقدسات الرب وصوره:

وحـــدث يـــوم خروج البابا خائيل من السجن بعد اعتقاله شهرا. أن طلب إليه الشـــعب أن يصلى معهم قداسا. وبالفعل رفع القرابين فى كنيسة سرجيوس وواخس (أبـــى ســـرجه) بمصـــر القديمة.. ولما حان وقت التناول تقدم إليه رجل ليتناول من الأســـرار المقدســـة. ولم يناوله. وفى نهاية الخدمة حضر هذا الرجل للبابا البطريرك باكـــيا ليعرف سبب منعه من تناول الأسرار المقدسة فقال له البطريرك انه لم يمنعه. لكـــن المســـيح هو الذى فعل ذلك. وطلب إليه أن يعترف بخطيئته.. فأعترف الرجل وقال انه كان يتناول طعام الإفطار فى بيته ثم يأتى إلى الكنيسة ويتقرب من الأسرار.

وهكذا فعل فى ذلك اليوم ليتناول من يد البابا كان ذلك سببا فى أن أصدر البابا خائيل تعليماته إلى الأكليروس لكى يحذروا الناس من ذلك.

معجزة طعن صورة المصلوب:

وحــدثت معجــزه عجيبة فى بيعه مريم العذراء بالإسكندرية. حينما دخل شاب غير مسـيحى ورأى صوره السيد المسيح على الصليب والجندى يطعنه فى جنبه بالحربة. وســأل الشاب عن معنى الصورة فقيل له أنها تعبر عن خلاص العالم • فما كان من ذلك الشاب إلا أن اخذ قصبه وطعن الصورة فى الجانب الأيسر فى استهزاء. وللوقت تصــلب الشاب والتصقت يده بالقصبة التى طعن بها صوره المصلوب. وصار معلقا هكذا وهو يصرخ طوال اليوم. فصلى الشعب الحاضرين كيرياليسون.. ولم يعد الشاب إلى حالته الطبيعية إلا بعد أن اعترف أن تلك الصورة هى للمسيح المخلص... وبعدها قصد ذلك الشاب أحد الأديرة وتعمد هناك.

البابا خائيل ومعجزة ارتفاع الجسر بالزعفرانة والبرلس(بمحافظة دمياط)

فاضت مياه البحر المالح على هذه البلاد ، إلى أن وصلت حدود كنيسة سمنود المسماة صهيون بالجانب الغربى ، عند القلعة القديمة. وكان هذا الفيضان بسبب قطع الجسر الحاجز لمياه البحر المالح.

فلما وصل الخبر بالأمير(بالملك) حسان بن عتاهية بأن سائر البلاد فى هذه المنطقة غرقت، حزن جداً لأن هذا الإقليم كان يدر الأموال على الدولة من زراعة الزعفران والحشائش العطرية الغالية القيمة، فأشار عليه أحد المقربين إليه من الإسرائيليين أن الأقباط فى كتابهم المقدس آية تقول:" إن كان عندكم إيمان مثل حبة الخردل تقول لهذا الجبل انتقل فينتقل" فأمر أن يحضر عندك بطريرك النصارى ، والزمه أن يرد ــ بقوة إيمانه وصلواته الروحية ــ كل شئ لأصله . فأحضره الخليفة وطلب إليه رد هذا الفيضان عن الإقليم وعمل الجسر كما كان تأكيداً لما جاء بكتابكم المقدس. فأعان الله هذا البطريرك بمعاونة أحد القديسين المعروف بالتفاحى على هذه التجربة، فأقام الصلاة فى بيعة سمنود السابق ذكرها بحضور الملك وخرج البطريرك رافعا الصليب بيده، والشعب يقول كيرياليسون والتفاحى خلفه. وللوقت ارتفع الماء إلى فوق بمقدار أربعين ذراعا. وتراجع قدام الناس إلى بحرى، والأب البطريرك وخلفه التفاحى والكهنة والشعب والملك وعسكره إلى أن أتوا إلى الدميرتين فنزلوا هناك ونصبت الخيام لذلك، وسميت الجزيرة باسمه إلى اليوم. ثم ركبوا من هناك والماء يتراجع أمامهم إلى أن أتوا إلى منطقة الزعفرانة فنصبوا الخيام للملك بجانب القصر المهدوم الذى تحته جسد القديسة دميانة وبقية الشهداء، والماء يتراجع أمامهم. ثم وقف البطريرك، وصلى وسجد على الأرض، هو ومن معه، فحصلت فى تلك اللحظة أعجوبة عظيمة وآية أذهلت من رآها، وذلك أنه قد هبت رياح شديدة فى البحر المالح،

فارتفعت الأمواج وأخرجت رملا كثيرا، أكواما أكواما، بقدرة الله سبحانه، وصار الرمل جسرا أقوى من الجسر الأول ثم هدأت الرياح كأنها لم تكن ، وبعد هذا عاد البطريرك ، وعند عودته استقبله الملك وقال له:" أيها البطريرك أطلب منى شيئا أعمله لك " فأجابه:" أريد منك يا مولاى أن تساعدنا فى إنشاء كنيسة فى هذا المكان ، لأن فيه أجساد شهيدات قتلن أيام عبادة الأوثان لعدم سجودهن للأصنام" فأمر الملك أن ينظفوا المكان جيدا . وأتى الأب البطريرك وفتح باب الدرج ، ونزل سرا إلى القبو ، فوجد أجساد الأربعين شهيدة مرصوصة بجانب السرير الذى كان جسد الشهيدة دميانة عليه . ثم أمر الملك بسرعة بناء كنيسة بقبة واحدة. كرسها البطريرك فى اليوم الثانى عشر من شهر بشنس، وشاع خبرها فى كل البلاد فتقاطر الناس إليها بالنذور.[٨٨]

البابا خائيل ومعجزة ارتفاع المياة أيام أبو عون الوالى:(٧٥٢م)

استمر المصريون فى ضنك بسبب أن مياة النيل ناقصة عن منسوبها المعتاد ذراعين وذلك لإظهار قوة الله. وكان الأساقفة حينئذ قد أخذوا يتوافدون على البطريرك فى عيد الصليب كما جرت العادة أن يعقدوا مجمعين فى السنة.

ولما كان اليوم السابع عشر من شهر توت وهو يوم عيد الصليب فكر الأساقفة أن يقيموا صلوات خصوصية فيها يرفعون تضرعاتهم لله حتى يرحمهم ويزيد فى مياه النيل وتقدموا يصحبهم جميع كهنة الجيزة وكثير من أهل الفسطاط وحملوا الأناجيل والمباخر ودخلوا البيعة الكبيرة التى كانت للقديس مرقس وكان أساسها فى البحر ولم تكن البيعة تسع الناس لكثرتهم حتى أن باقيهم أقام بالحقول والحدائق.

فتقدم البطريرك ورفع الصليب وكان معه أنبا مينا أسقف منف يحمل الإنجيل المقدس وباقى الكهنة يتبعونهما وهم يحملون الصلبان والأناجيل المقدسة، ووقفوا على شاطئ البحر قبل طلوع الشمس وصلى البطريرك وأنبا مينا والشعب يرد عليهم "كيرياليسون" (يارب ارحم) إلى تمام ثلاث ساعات من النهار حتى بهت جميع الموجودين من يهود ومسلمين وغيرهم من صراخهم الذى سمعه الله تعالى اسمه وزاد النيل ذراعا.

فبلغ الخبر مسامع الوالى وجميع الناس فغار علماء المسلمين والتمسوا منه أن يرافقهم فى الغد لإقامة الصلاة حتى يرفعوا مياة النيل كالنصارى فالتزم من ثم الوالى أن يدعو أربـاب الأديـان ليصـلوا إلى الله بشأن ذلك فدعا علماء الإسلام فصلوا وجاء بعدهم حاخامات اليهود فصلوا والمياة لم ترتفع بل اخبرهم احد قياسى النيل أن ما زاده أمس نقصه اليوم.فاغتاظ الوالى والمصلون وأمر بالكف عن إقامة الصلاة بالمرة خوفا من أن يـزيد النيل مرة ثانية بصلاة الأقباط فيعتريهم الخجل إلا انه لما رأى الخطر يتهدد الـبلاد مـن قلة المياة اضطر أن يدعو النصارى للصلاة فحضر البطريرك وحاشيته واحتفل برفع الأسرار المقدسة واستمروا إلى الساعة السادسة من النهار ولما القوا مياة غسل الاوانى المقدسة فى البحر فحلت على مائة البركة الإلهية واخذ يرتفع حتى زاد ثلاثة اذرع. فقرر نائب الوالى مكافأتهم فخفض الجزية و أمنهم على حياتهم و أملاكهم فى القطر المصرى كله.

خامساً: أنبا مويسيس أسقف أوسيم:

وهو من أعلام الكنيسة وقديسيها العظام فى القرن الثامن الميلادى •

ويحكى أنه ذات يوم أتاه بعض أراخنة مصر وطلبوا إليه أن يصلى إلى الله ليرفع الضيق عنهم وعن شعبه . لأنهم أحصوا الذين اعتنقوا الإسلام فوجدوا عددهم أربعه وعشرين ألفا فقال لهم آمنوا يا أولادى أن الوالى الذى يضطهدكم يهلك فى بحر هذا الشهر وفعلا تحقق قوله.

وفى أيامه حاول الخلقيدونيون بأسلوب ملتوى وللتشفى أن ينزعوا ما فى بيعه مارمينا بمريوط من زينه وأعمدة ولكن الله لم يسمح بذلك.

ولما اضطهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين البابا خائيل لازمه الأنبا مويسيس واشتهى أن يستشهد ويسفك دمه على اسم المسيح. وما أن وصلا (البابا والأنبا مويسيس) إلى خيمة مروان طرح الجند الأنبا مويسيس على ركبتيه ورفعا رجليه إلى أعلا وضربوه بدبابيس نحاس على جنبيه وعلى رقبته. وكان المعذبون يطلبون منه رشوه ليطلقوه أما هو فلم ينطق ببنت شفه لأنه كان لا يفهم لغة الجند العربية.

وأمر مروان بقطع رقبة البابا خائيل بالسيف • وساقه السياف إلى موضع تنفيذ حكم القتل فجرى خلفه الأنبا مويسيس. وحاول السياف منعه لكنه لم يمتنع حتى غضب منه أحد الجند ورفع عليه دبوس نحاس ليضربه به • فمد القديس رأسه لكن بعض الموظفين منعوا الجلاد من ضربه ثم زج به فى السجن مع البابا.. ووضعت القيود فى أرجلهما مع كثيرين. لكن أنبا مويسيس تنبأ بأنهم سيخرجوا من السجن سالمين • وبالفعل تم قوله بهزيمة مروان أمام العباسيين.

استمر الأنبا مويسيس مرافقا للبابا خائيل وفيا له وللكنيسة طوال أيام تجاربه المرة. وأخيرا مرض. وعلم بدنو ساعة رحيله من هذا العالم فاستدعى رعيته وأوصاهم وباركهم وتنيح بسلام.[٩٠]

سادساً:اشهر النساك القديسين:-

يعسر علينا أن نحصى القديسين من النساك الذين حرصوا على أن يخفوا فضائلهم كتدريب مستمر لإماتة الذات. لكننا نذكر منهم:-

الأنبا يحنس قمص شهيت (هذا غير يؤنس القصير) الذى كان يظهر له المخلص وأمه العذراء فى كل مره يقدس القرابين وكذلك تلميذه ابيماخس القمص الذى شبهوه بموسى النبى للنعم التى كانت تبدو عليه . والذى أعطى موهبة شفاء الأمراض وعمر أكثر من مائه عام. وكذلك القديسين أنبا أبرام ورفيقه أنبا جورجى والقديس أنبا

اغاثـــون العمـــودى الذى ترهب بدير أبو مقار وتوحد فى جهة سخا (بمحافظة كفر الشيخ) وغيرهم كثيرون جدا.

أشهر العلماء وكتّاب السير:-

١ - يوحنا النقيوسى.　　٢ - مينا أسقف نقيوس.
٣ - الشماس جرجه.　　٤ - الأنبا زخارياس أسقف سخا

٥ - **الشعراء:**

برز شعراء مسيحيون كثيرون وكانت لهم مكانه عظيمة فى بلاط الخلفاء نذكر منهم اعشى بن تغلب واعشى بن ربيعه وعبد الرحمن الطائى الملقب مرقس والأخطل والتغلبى ويعد الأخطل أعظم الشعراء المسيحيين فى فجر الإسلام وكان يدخل المساجد فيقف له المسلمون إجلالا لعلمه وأدبه.

٦ - **الأطبـــــاء:**

كما نبغ كثير من الأطباء تولوا علاج الخلفاء منهم ابوالحكم ابن أتال.[٩٠]

الباب السادس

الكنيسة القبطية فى عصر الدولة العباسية
ابتداء من سنه (٧٥١م - ٨٧٠ م)

" الفصل الأول "

خلفاء الدولة العباسية

كانــت الخلافة العباسية تبعث بالولاة الذين يحكمون مصر من بغداد وسامرا وكان الولاة فى هذا العصر خليط من العرب والفرس والخرسانيين والأتراك وقد بدأت الدولة العباسية بسقوط عبد الملك بن مروان أمام أبو العباس وبذلك انتقلت الخلافة من بنــى أميه إلى بنى العباس . وتحولت العاصمة من دمشق إلى الكوفة ببغداد ولما كان الأقباط قد وقفوا فى صف أبا العباس على مروان نادى العباسيون بعد استتباب الملك لهــم بالأمان على المسيحيين وكانت نواياهم لأقباط مصر حسنه إلا أن بعد البلاد عن مركــز الخلافــة وعدم بقاء الولاة فى مناصبهم جعلهم يستعبدون ويعملون فى الناس كيفما شاءوا ، كما كان يفعل الولاة أيام الدولة الأموية.

ومن اشهر خلفاء الدولة العباسية:

١ ـ الخليفة عبد الله أبى العباس.(٧٥١ م)

٢ ــ الخليفة عبد الله أبى جعفر المنصور (سنه ٧٥٤ م)الذى اضطهد البابا مينا الأول بطريرك الأقباط اضطهادا عظيما مما تسبب فى ثوره أقباط رشيد وسخا.

٣ ـ الخليفة محمد منصور المهدى.

٤ ـ الخليفة موسى مهدى الهادى.

٥ ـ الخليفة هارون الرشيد سنه ٧٨٦ م.

وقــد ظهر فى أيامه بوادر الشقاق المرير بين السنيين والشيعيين - أو بين مناصرى الاســره العلوية، ومساندى أصحاب الحكم الفعلى وهم العباسيون، وفوق هذا كله فقد نشط الخوارج.

وممــا هــو جدير بالذكر بأن العلويين نسبة على بن أبى طالب ابن عم النبى محمد وزوج ابنته فاطمة الزهراء وكان أنصاره يعرفون بالعلويين نسبة إليه وكانوا ينادون بوجــوب حصر الخلافة فى أبنائه.كما أن الخوارج هم الذين خرجوا على النبى محمد وثاروا على رسالته.[٩١]

٦ ـ الخليفة الأمين بن الخليفة هارون الرشيد.

٧ ـ الخليفة المأمون بن الخليفة هارون الرشيد (٨١٣ م)

٨ ــ الخليفة المعتصم بالله.
٩ ــ الخليفة الواثـــق.
١٠ــ الخليفة المتوكل سنه (٨٤٧ م)
١١ - الخليفة المنتصر بالله سنه ٨٦١ م
١٢ - الخليفة المستعين سنة ٨٦٢ م،

الــذى أراح الأقــباط ورد لهــم ما سلب منهم من الكنائس فأصلح المخرب منها من الإسكندرية شمالا إلى أسوان جنوبا وصارت تمارس فيها الخدمات الكنسية كالعادة.

١٣ - الخليفة المعتز سنة ٨٦٦ م.
١٤ - الخليفة المهتدى ٨٦٩ م
١٥ - الخليفة المعتمد ٨٧٠ م.

وقائد جيشه احمد بن طولون وهو مؤسس الدولة الطولونية

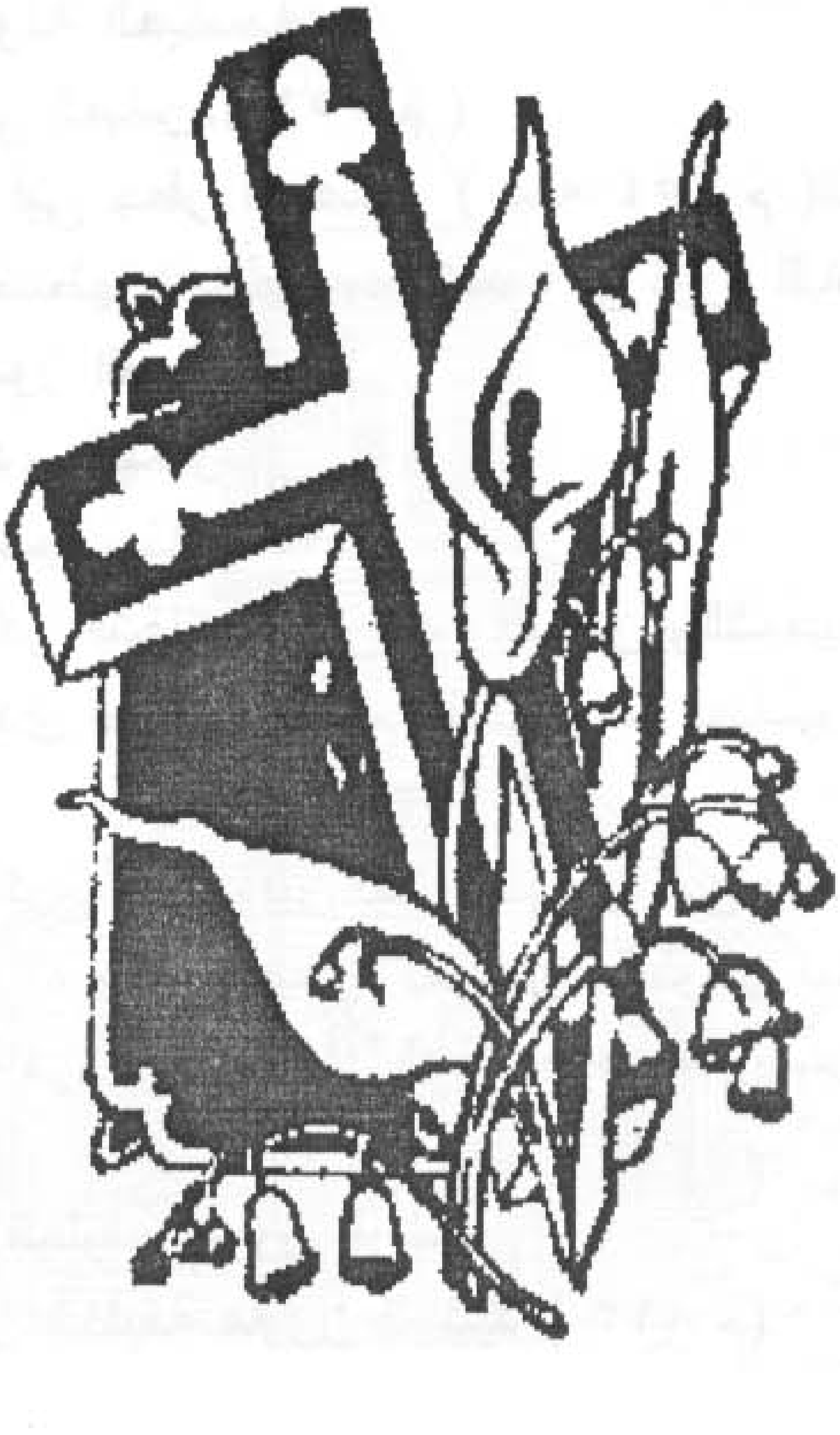

الفصل الثانى

أحوال الكنيسة القبطية وشعبها فى العصر العباسى

ويمكن دراسة أحوال الكنيسة القبطية وشعبها فى العصر العباسى من خلال استعراض النقاط التالية التى تظهر ملامح هذا العصر:

أولا: كثره عدد الولاة:-

كمـــا كانت الدولة الأموية هكذا كانت الدولة العباسية. فإذا انتقلنا إلى الخلافة العباســية نجـدهم عينوا أربعه وستين واليا .. ومما يلفت النظر أن عدد التنقلات قد ازداد فـــى عصر العباسيين عما كان عليه فى حكم الأمويين .. ويرجع السبب إلى أن السـلطة المركــزية كانت بعيده جدا فى بغداد. وكان الخليفة لا يريد أن يترك للولاة متســعا من الوقت يستطيعون خلاله استماله قلوب الشعب لهم وكان الخوف من نفوذ الولاة قد طبع فى قلوب الخلفاء شيئا من الخوف المستديم.

ومـــن أعظـــم الأمـــثلة على ذلك ما حدث فى خلافة هارون الرشيد الخليفة العباسى التى امتدت إلى ثلاثة وعشرين عاما .. لقد حكم مصر فى مده خلافته أربعه وعشرين واليا.وهذه الخطة إن كانت قد ساعدت على ترسيخ الحكم العباسى - إلا أنها أضرّت بالمصريين لأنهم كانوا كلما آنسوا إلى والى وبدأوا ينصرفون إلى عملهم فى ثقـــة ونشاط يجدون هذا الوالى مضطرا إلى مغادره البلاد لأن الأمر بعزله قد صدر. ولهذا قامت الفتن العديدة فى عهد العباسيين إذ كان المسلمون يعلنون سخطهم على هذا التغيير فينضم إليهم القبط.[٩٢]

ثانيا: كانت سياسة الخلفاء العباسيين والولاة تجاه مصر أساسها المنفعة المادية:-

ومـــن أعظم الأمثلة على ذلك ما حدث فى السنة الأولى لباباوية الأنبا يوساب الأول حـــيث قـــام الأقباط فى الوجه البحرى والوجه القبلى بثوره جارفه ضد ارتفاع الضـــرائب الـــباهظة فـــى أيام الخليفة المأمون. وقد استطاع المعتصم قائد الجيوش العباســـية إخضـــاع الثوار القبط واخذ جموعا منهم اسرى. سيرهم حفاه فى شوارع بغداد.وكل ذلك بسبب الضرائب الباهظة إلى حد الإرهاق.

ومـــا هـــو جدير بالذكر أنه بسبب كثره الولاة الذين أدركوا أن مده ولايتهم قصـــيرة - كانـــوا ينصـــرفون إلى جمع المال بشتى الوسائل حتى يغتنوا قبل عزلهم وبالطبع كانت أسهل وسائلهم مضاعفه الضرائب وبخاصة على القبط.[٩٣]

ومــن أكثــر الأدلة على جشع الولاة واهتمامهم بجمع المال بكل الوسائل ما حــدث للأقباط عامه وللبابا شنوده الأول خاصة. وذلك فى عهد الخليفة المنتصر الذى ولــى مصــر فى أيامه يزيد بن عبد الله سنة ٨٦١م. وكان هذا الوالى ظالما قاسيا ٠ فأتــى بالبابا شنوده إليه وأمره أن يدفع له خمسه آلاف دينار وقرر عليه أن يقوم بدفع مــثل هذا المبلغ سنويا. ولما أدرك البابا شنوده انه ليس فى طاقته القيام بدفع مثل هذه الضريبة الفاحشة لاذ بالهروب واختفى فى أحد الأديرة البعيدة. ولما لم يعرف الوالى مقــره شــرع بنهب الكنائس ويسلب الكهنة ويهين الرعية. فلما سمع البطريرك بأن أولاده يعذبــون. مضــى إلى الوالى وسلم نفسه فداء لراحتهم ٠ فأمسكه الوالى وشدد عليه ليدفع سبعه آلاف دينار منها أربعة آلاف خراج الكنائس مده سنتين وثلاثة آلاف خــراج الــرهبان سنه واحده فأخذ الأساقفة والقسوس يجدون فى جمع هذا المبلغ من الشــعب لــيقوموا بدفعــه ولكــنهم لم يتمكنوا إلا من جمع أربعة آلاف دينار قدموها للبطريرك فسلمها للوالى وتعهد له بدفع مثلها سنويا إذا عفى عنه فقبل و أطلقه.[٩٤]

ثالثا: العباسيون لم يكن لهم سياسة ثابتة فى حكم البلاد:

كما كان الحكام والولاة الأمويين هكذا كان الحكام والخلفاء العباسيون فكانوا يفتقرون إلى سياسة ثابتة وإلى خطه مرسومه ومن أمثله ذلك إعادة حفر قناة تراجان من أجل تســهيل إرســال قمح مصر إلى البلاد العربية القاحلة فى أقصر مده وبأسهل الطرق. ولكــن مــا لبــثت هذه القناة أن أهملت فردمتها الرمال أوائل القرن الثامن الميلادى. وردمهــا حكام مصر بين سنتى (٧٦١ م- ٧٦٢ م) كى يمنعوا إرسال الأقوات إلى المديــنة (المــنورة) عــندما أصبحت مصدرا للثورات ٠ وقد سخر الحكام السكان لتطهيــر القنوات وإعادة بناء الطرق والجسور مقابل إعفائهم من قسط من الضرائب تتلاءم مع ما قاموا به من عمل.[٩٥]

وليس أدل على سياسة الحكام الارتجالية واتخاذهم قرارات متناقضة مما حدث ســنه ٧٨٥ م حين أمر الوالى على بن سليمان بهدم الكنائس المحدثة بمصر لكنه لما أعطى خمسون ألف دينار مقابل تركها قائمه عدل على قراره. هذا بينما صرح موسى بن عيسى الذى خلفه سنه ٧٨٧ م. بإعاده تشييد الكنائس لاعتبارات ماديه خالصة. وقد أقــدم على هذا بعد أن سأل الفقهاء رأيهم فى هذه المشكلة ٠ فأفتوا بأن الكنائس هى " مــن عمــاره البلاد " ويجب ألا يكون الوالى أكثر تطرفا ممن سبقوه بدليل أن "عامه الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين".[٩٦]

ومما هو جدير بالملاحظة أن الغوغاء فى سنه ٧٣٥م - أى قبل ذلك ببضع سنوات - قاموا على الوليد بن رفاعة. لأنه صرح للنصارى ببناء كنيسة مار مينا.

فى أيام الولاة الأتراك:-

يذكــر كــتاب قصـــه الكنيســـة القبطية أن غالبيه الولاة الترك من الغاشمين المستبدين سريعى التقلب قليلى الوفاء • فكانوا سرعان ما ينقلبون على الرجال الذين خدموهم. وهكذا ساد القلوب الشعور بالقلق والاضطراب.

فمثلا كان يزيد (أحد الولاة الذين جاءوا بعد عنبسه آخر وإلى عربى المنبت) ينفــر من الخصيان. فإذا صادف احدهم فى الطريق أمر جنده بأن يجلدوه من شارع إلـــى شـــارع حتـــى يخرجوه خارج المدينة. كذلك كان يتشاءم من ندب النائحات فى الجنائـــز. وأوقف سباق الخيل. ومع أن هذه الصغائر لم تبلغ حد التعذيب والتنكيل إلا أنها صبغت الحياة المصرية بالقلق وعدم الاستقرار.

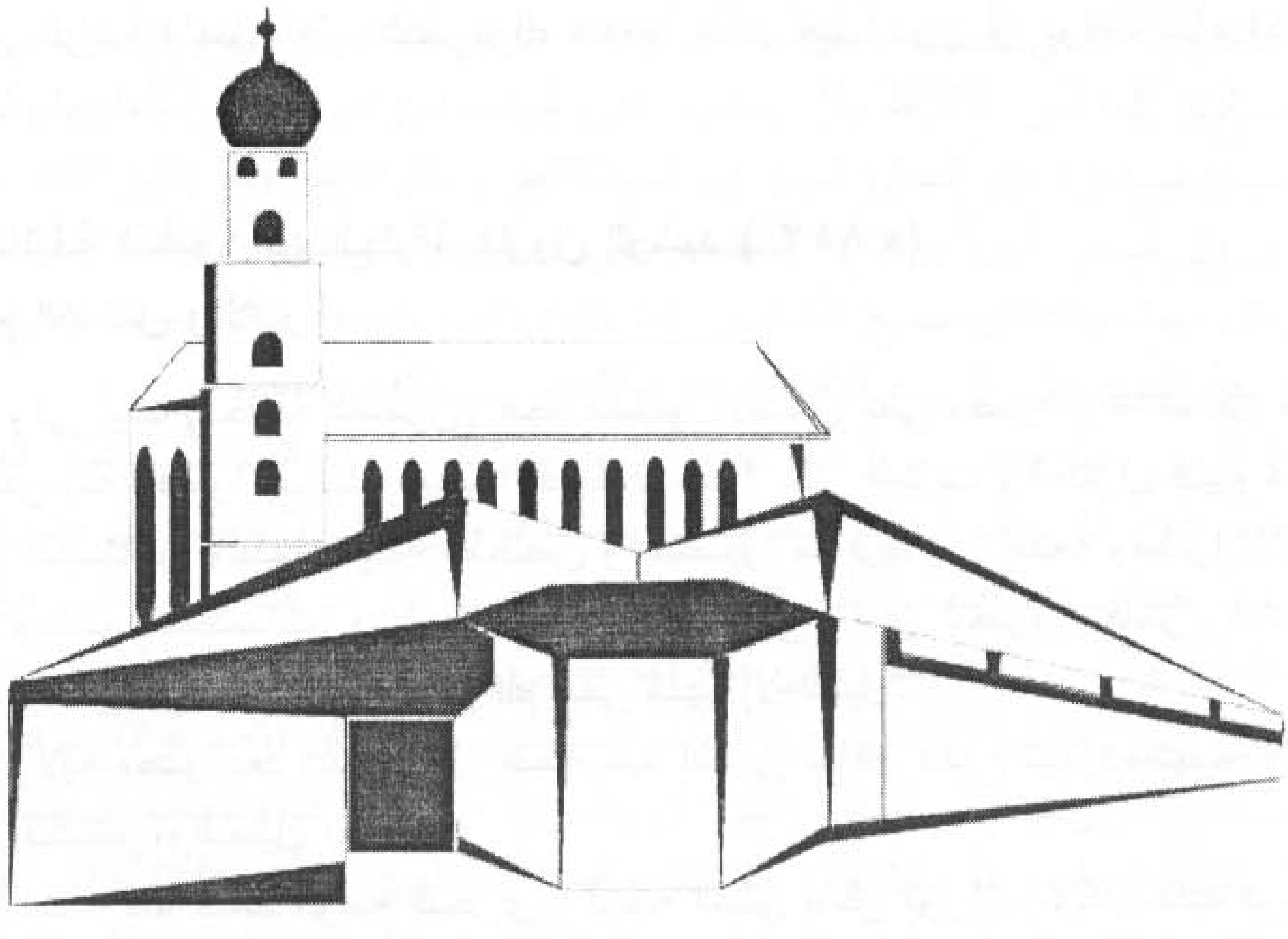

" الفصل الثالث "

أمثلة من المتاعب التى حاقت بالكنيسة فى عصر الدولة العباسية

أولاً: فى عهد الخليفة الهادى:-

فـــى أيام الخليفة الهادى لم يكد يتسلم الوالى على بن سليمان العباسى مقاليد الحكم حتـــى توهم أن هدم الكنائس مما يأمر به الدين الإسلامى، فأمر بهدم عدد كبير منها، وقد شجع هذا العمل بعض المتعصبين فى هدم عددا آخر من الكنائس.[٩٧]

ثانياً:فى أيام الخليفة هارون الرشيد:(٧٨٦م)

وقـــد ولى مصر على بن سليمان الذى اشتد غضبه على النصارى وعمد إلى ما كان يلجأ إليه غيره من الولاة السالفين وهو هدم الكنائس فعزم على هدم كنائس الفسطاط. فعرض عليه النصارى خمسين ألف دينار لكى يتجاوز لهم عن كنيسة كانت قائمه فى حصـــن قســـطنطين فأبى وهدم جميع الكنائس ولم يبقى منها سوى كنيسة أنبا شنوده الواقعة بين الفسطاط وبابليون. وفى أيامه حدثت ثوره أهل الجوف.[٩٨]

وذكر أيضا أن فى أيامه شيد البابا يوحنا الرابع كنيسة عظيمة للملاك ميخائيل فأغتاظ مـــنه الاروام وشـــكوه للخليفة، ووجدها الوالى عبد الله بن المهدى – فرصة مناسبة لفـــرض غرامة باهظة على البطريرك فدفعها هذا راضيا دون أن يوقف بناء الكنيسة يومـــا واحدا.[٩٩]

ثالثاً: الخليفة المأمون بن الخليفة هارون الرشيد (٨١٣ م)

١ـ هدم الكنائس والأديرة:

وفى أيامه(الخليفة المأمون) هجم مسلمو الأندلس على مصر. وقد استغل البغاة هـــذه الفرصة وقاموا بسلب ونهب الأقباط فهجموا على البيوت والمنازل فنهبوها. ثم دمـــروا الكـــنائس ومنها كنيسة المخلص واغتصبوا ما فيها من أمتعه وسلبوا الاوانى المقدسة ودنَسوا المقدسات. وغارت قبائل العرب على وادى النطرون فأخربوا أديرته ونهبوها وفتكوا برهبانها وطردوهم فلم يبقى منهم إلا القليل.

وآلـــت ولاية مصر بعد ذلك لرجل اسمه عبد الله بن طاهر فأباح لجنوده نهب الأديرة وإحراق الكنائس والتمثيل بعابديها.

وفـــى أيامـــه قام أقباط الوجه البحرى والوجه القبلى بآخر ثوراتهم وكان ذلك فى أيام الوالى عيسى الجلودى. وقد وصل خبر الثورة للخليفة المأمون. فقدم إلى مصر وشاهد ظلم الولاة فسخط على الوالى عيسى وقال له " لم يكن هذا الحدث إلا من فعلك وفعل عملك. فقد حمّلتم الناس مالا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد.

رابعاً: فى عهد الخليفة المتوكل:(٨٤٧م)

١ــ اضطهاده للأقباط:

وكـــان عهده شؤما على الأقباط وعلى الكنيسة عموما.وقد ولى الخليفة المتوكل على مصــــر ابــنه المنتصــــر. وكانا كلاهما يبغضان الأقباط ومع أنهما كانا يشعران بشده الحاجة إليهم فى إنجاز الأعمال الهندسية والحسابية والطبية وغيرها إلا أنهما عاملاهم بالقوة والجور قاصدين أن يغيرا هيئه مملكتهما بمحوهم. فاضطر الأقباط إلى الإهمال فى واجبات دينهم وتراخوا فى خدمه الحكومة.

٢ــ سرقة ونهب رخام الكنائس والمقابر:

وبلغت الاستهانة بالأقباط الدرجة التى لم يكتفوا منها بأن ينهبوا حجارة الرخام والمرمر الموجودة فى كنائسهم ونقلها إلى بغداد لتوضع فى قصور الخليفة. بل قاموا إلـــى مدافنهم فى القطر ونبشوا قبورهم التى كانوا يعنون بتشييدها وأزالوها ولم يبقوا فيها حجرا على حجر.

٣ــ بعض أنواع التحقير الأدبى:

واستمر الخليفة المتوكل فى اضطهاده للأقباط. فأصدر أوامره المتعسفة على المســيحيين التـــى تقـــيد بـــأن يتقبن النساء ببرقع عسلى اللون وهو ما كان قاصرا بالبغـــيات. كما أمر الأقباط بأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين وقرود من خشـــب ومـــنعوا من إشعال النور فى احتفالاتهم أو أفراحهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحـــد. بل أصدر أمرا يراد به القضاء على المسيحية فى مصر. وهو إبطال الصلاة على كل ميت وإغلاق جميع الكنائس. فلا تؤدى فيها خدمه، واستئصال جميع الكروم ومنع بيع النبيذ حتى لا يجد الأقباط خمرا لإتمام سر الإفخارستيا.

كمـــا أمـــر بـــأن يمـــنعون من لبس المناطق. وهدم بيعهم المحدثة. وأخذ العشر من منازلهم. فإن كان الموضع واسعا يصير مسجدا، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجدا يصـــير حمامـــات عامة. وأمر أن تجعل على باب دورهم صور وتماثيل من خشب لشـــياطين وقـــرود تســـمر على منازلهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين. ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المســـلمين، وأن يعلمهم مسلم. ونهى أن يظهروا فى أعيادهم وشعانينهم صلبانا وأمر بـــأن تســـوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين. وكتب الكتب إلى عماله فى الآفـــاق بـــذلك. ثم أمر أهل الذمة فى سنة ٢٣٩ هـــ بلبس دراعتين (الدراعة قميص مفتوح من الإمام إلى موضع القلب) عمليتين على الدرايع والأقبية (القباء ثوب يلبس فـــوق الثـــياب). وبالاقتصـــار فى مواكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبرادين (الخيول التركية).

وقد ذل الأقباط ذلا عظيما فى ذلك العصر ولم يعدوا يرفعون رؤوسهم وأسلم منهم عدد لا يحصى والذين لم يسلموا كان كثيرون منهم لا يقدرون على التظاهر بالمسيحية. وكانوا إذا اجتمعوا للصلاة لا يستطيعون رفع أصواتهم بل يصلّون بأصوات ضعيفة حتى لا يسمعهم المسلمون فيهجمون عليهم ويدنّسون مقادسهم ويطردون من فيها وينهبونها ويخربونها.

بالاضافه إلى ذلك ففى سنه ٨٥٢ م عندما عزم الرومانيون على استرداد مصر قام الخليفة بزيادة الضيق على الأقباط فطلب منهم مبلغا طائلا وإذ لم يتمكنوا من تأديته نهب القدس وقفل جميع الكنائس فى الفسطاط وبابليون إلا واحده.[١٠١]

٤ـ ما يختص بالشعائر الدينية:-

وفى مدة بطريركية البابا خائيل الأول هم القاسم ابن عبد الله الحجاب متولى الخراج - وكان شريرا محبا للنساء ـ بالدخول إلى البيعة بدير الأنبا شنوده بالصعيد، وهو راكب فرس، ومعه سرية مفضلة لديه كانت تركب على فرس آخر.حاول رئيس الدير منعه، لكنه فى غطرسة أبى، ودخل البيعة، فنفرت الفرس التى تركبها السرية، فوقعت على الأرض ميتة، ونفقت الفرس أيضاً .. أما القاسم فصرعه روح نجس لبث ملازما له يعذبه حتى مات.

٥ـ اضطهاد الصور والأيقونات:-

وفى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على الأقباط فى الإسكندرية، وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادى النطرون، ونهبت فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل

٦ـ مظالم ضد الاكليروس والرهبان والعلمانيين:-

لقد خلف الأمويين فى حكم مصر العباسيين سنة ٧٥٠ م. وإن كان العباسيون قد أظهروا نوايا طيبة نحو أقباط مصر فى بداية عهدهم، لكن المشكلة الكبرى كانت فى الولاة الذين يعينون على مصر .. كان هؤلاء الولاة فى ظلمهم وحقدهم امتداد للولاة الأمويين. وكانت الدوافع التى دفعت ولاة الأمويين إلى ابتزاز الشعب، هى عينها دوافع الولاة الذين ولوا مصر من قبل العباسين، خاصة وأن مركز الخلافة صادر فى بغداد وهى أبعد من دمشق. وربما استعصى الأمر على المظلومين من أن يقرعوا باب الخليفة.

ويذكر تاريخ البطاركة فى سيرة البطريرك يوساب الأول (٨٣٠ م -٨٤٩ م) أن أمراً وصل من بغداد صحبه رجل نسطورى اسمه العازر يقضى بنزع الأعمدة الرخامية والأرضيات الرخامية من الكنائس لاستخدامها فى تزيين قصور الخليفة

والأمراء فى بغداد. وذلك لما عرف عن مصر من الثراء الحضارى. كان معنى نزع أعمدة الكنائس وحملها أن تهدم هذه الكنائس .. وما أن وصل العازر النسطورى حتى انضـم إليه الخلقيدونيون المقيمون بالإسكندرية وأخذوا يرشدونه إلى الكنائس الفخمة بالإسـكندرية، إلـى أن انتهى به المطاف إلى بيعة الشهيد مارمينا بمريوط التى اهتم الأباطرة البيزنطيون بتزيينها، وكان بها من الرخام الشيء الكثير جدا، فلما رأى ذلك النسـطورى ما بها من الرخام الملون تعجب وبهت وقال هذا ما يحتاجه الخليفة. فلما سمع البابا يوساب بذلك، قال لذلك النسطورى " هوذا كل البيع التى بحكمى بين يديك فافعل بها ما أمرك به الملك وهذه البيعة فقط أحب منك ألا تعترضها،وكل ما التمسته منى سلمته إليك " لكن العازر لم يقبل شماتة منه . وأخرج من البيعة المذكورة الرخام الملون والبلاط الذى يحتوى ألوانا بديعة ولا مثيل له ولا يقدر بثمن على حسب تعبير تـاريخ البطاركة. بعدها قام البطريرك بإعادة عمارتها.. لكن الله أظهر قوته، فضرب العازر ضربة فى جسده فمرض بمرض الاستسقاء.[١٠١]

خامساً:الخليفة المعتز سنة ٨٦٦ م.

الذى عين بيبك التركى واليا على مصر سنة ٨٦٨ م. وكان قد أرسل احمد بن المدبر لجمع الضرائب. واحمد بن طولون لقياده الجيش.فتجبر أولهما على الأهالى وضاعف الضـرائب على المسيحيين والمسلمين سواء ولكن وطأته كانت اشد على المسيحيين. فأحصى الرهبان وعين لهم ضريبة بعد أن كانت رفعت عنهم. وألزم البطريرك بدفع ما فرض عليهم. وهو يحصلها منهم بمعرفته وبلغ مقدار ما فرض عليهم أكثر من ستة آلاف دينار فى السنة فأضطر البطريرك أن يفرض عوائد على الأساقفة وأفراد الناس ليـتمكن من دفع هذه الغرامات فحصلت لهم مضايقات شديدة فآثر كثير منهم الإسلام تخلصا من الشدائد.

وفى هذه الأثناء هجم العرب على بعض بلاد الصعيد واضروا بالبلاد والعباد واحرقوا عده أديرة منها دير أنبا شنوده ودير القلمون ودير أنبا باخوم بناحية طما.[١٠٢]

سادسا:ثورات الأقباط فى عصر الدولة العباسية:

كـان العباسـيون أكثر دراية من عمرو بن العاص، فقد عرفوا كيف يستعينون بأهل الـبلاد الأصـليين، الذين كانوا على استعداد لمساعدتهم ضد حكام البلاد تخلصا من المظالم الكثيرة لكن كثيرا ما يعيد التاريخ نفسه، فما لبث العباسيون أن وجدوا أنفسهم مضطرين إلى فرض ضرائب باهظة .. يقول تاريخ البطاركة، ولما كان فى ثالث سنه مـن مملكـة الخرسانيين أضعفوا الخراج وأكملوه على النصارى، ولم يوفوا لهم بما وعدوهم.[١٠٣]

١ـ ثورة أقباط رشيد:

تكررت مظالم الولاة واستبدادهم بالناس على نحو ما اتبعه ولاة الأمويين .. ففى خلافة أبى جعفر المنصور العباسى، أوقع واليه على مصر يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبى صفرة (٧٦٢ م- ٧٦٩ م) ببطريرك الأقباط الأنبا مينا الأول اضطهادا شديدا. فساء الأقباط ما لحق برئيسهم الدينى وأبيهم الروحى. وكانت نتيجة ذلك أن ثار الأقباط فى رشيد وسخا وغيرهما من المدن المصرية، وجاهروا بالعصيان. فأرسل إليهم الوالى قوة من الجيش. لكن الثوار الأقباط ردوهم على أعقابهم مهزومين أما الوالى فإزاء هزيمته أشتعل غضبه على الأقباط، واضطهدهم وهدم كنائسهم. فعرض عليه أقباط الفسطاط (مصر القديمة) أن يترك لهم كنائسهم مقابل خمسين ألف دينار يدفعونها، لكنه رفض وأصر على هدمها إذلالا لهم وانتقاما من أقباط سخا ورشيد. وبالفعل هدمها.

٢ـ ثورة أقباط جوف:

وفى ولاية الليث بن الفضل (٧٩٩ م- ٨٠٣ م) بعث مسّاحين يمسحون الأرض وأمرهم أن ينتقصوا من القصبة أصابع، فتظلم أهل الجوف عليه، فلم يسمع منهم فتجمهروا قبطا وعربا وساروا إلى الفسطاط. فخرج إليهم الليث بجنده وقاتلهم فهزموه لكنه عاد ولم شمل قواته وهزمهم، وقتل منهم عددا كبيرا. وقبض على ثمانين من زعمائهم وقطع رؤوسهم، وحملها إلى الفسطاط وعرضها على الناس حتى يلقى الرعب فى نفوسهم، فكان لهذا العمل أثره فى امتداد الثورة إلى معظم الوجه البحرى، واستمر الحال على هذا المنوال حتى ولى الخلافة المأمون فى سنة ٨١٣ م.

٣ ـ ثورة أقباط الوجه البحرى:

وفى خلافة الخليفة المأمون العباسى (٨١٣ م- ٨٣٣ م)، تفجرت مشاعر المظالم والتحقير والاضطهاد التى ظلت مكبوتة لسنوات عديدة فى نفوس الأقباط، فقد أمتنع أقباط الوجه البحرى عن دفع الخراج، وشاركهم فى ذلك العرب. وقامت بينهم وبين الولاة حروب متفرقة قتل فيها كثيرون .. وإزاء هذه الحالة الخطيرة التى لم يسبق لها مثيل ـ فقد كانت أكثر الثورات عنفا نظرا لانشغال المأمون بمحاربة الروم ـ فقد بعث برسائل على يد مندوبين لأهل مصر أن يخلدوا للهدوء، لكنها لم تجد نفعا.

فما أن انتهى من حربة مع الروم حتى قصد مصر، وكان واليها فى ذلك الوقت هو عيسى بن منصور (٨٣١ م - ٨٣٢ م)، فعاتبة بشدة ناسبا إليه كل ما حدث من هياج الناس نتيجة المظالم الكثيرة. وبلغ الأمر أن المأمون أمر بتجريد الوالى من ملابسة الخارجية علامة على التحقير.

إبادة البشموريين على يد المأمون:

يقول مؤرخو المسلمين أن الخليفة المأمون لما كان فى مصر ورأى ثورة أقباط الوجه البحـــرى، حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وسبى أطفالهم، لكن يبدو أن هذا الكلام هو تلخيص للنتيجة النهائية ..

أمـــا مؤرخـــو القبط فيقولون أنه لما وصل المأمون إلى مصر ذهب إليه البابا يوساب (البطريرك الـــ ٥٢)(٨٣٠ م– ٨٤٩ م)، فأستقبله الخليفة استقبالا حسنا، وطلب إليه أن ينصـــح أقـــباط الـــوجه البحرى ويحذرهم بأن يكتب لهم منشورا يدعوهم فيه إلى الطاعة حقنا لدمائهم ووعده بأن ينظر بنفسه فى راحتهم.

وكـــتب البطريـــرك المنشـــور فأطاع الناس وأذعنوا إلا أهل البشمور، الذين رفضـــوا الاستسلام والخضوع، وأبوا إلا المقاومة.. فلما علم المأمون بما وصل إليه الأمـــر، حمـــل علـــيهم بجنوده فشتت شملهم ودخل بلادهم، وقتل رجالهم وسبـــى نســـاءهم وأطفـــالهم، وســـلب أموالهم وهدم كنائسهم إمعانا فى إذلالهم، وبالجملة فان المأمون لم يبرح أراضيهم إلا بعد أن خرب ديارهم وجعل بلادهم أطلالاً باليه ومن ثم ذل القبط ولم يتجرأوا فيما بعد على المقاومة وكان رعاع المسلمين والغوغاء فى أثناء قيام المأمون بإخضاع الثائرين الأقباط يطوفون فى البلاد لينتقموا منهم فقتلوا كثيرين ونهبوا واخذوا عددا كبيرا منهم وباعوهم كالحيوانات حتى اضطرت الطبقة السفلى إلى اعتناق الدين الإسلامى هروبا من تلك الفوادح التى كانت ملمة بهم. فأخذ عدد الأقباط يقل حتى صار اقل من عدد المسلمين.

ومكـــث المأمـــون فـــى مصر نحو شهرين طاف خلالها بأنحاء البلاد يسكن خواطر الشـــعب فســـامحهم مما تبقى عليهم من أموال .. كانت هذه الثورة هى آخر ما قام به الأقباط من ثورات، وكانت فى نفس الوقت أعظمها.

وقـــبل هذا الزمن كان المسلمون لا يوجدون إلا فى المعسكرات أو فى المدن الكبرى فامـــتلأت بهم القرى الصغيرة لاعتناق ربع سكان القطر المصرى.الديانة الإسلامية . وهؤلاء صاروا يفلحون أراضى إخوانهم الأقباط الباقين على دينهم ويغتصبونها منهم. وبذا زاد عددهم وقويت شوكتهم.

وعلـــى الرغم أن البطريرك يوساب عمل جاهدا على إقناع البشموريين على الإذعان والخضوع، لكنهم أبوا مما يبعث على الاعتقاد أنه يبرر مسلكهم الثورى.

لكـــن كاتـــب ســـير البطاركة يصف الحالة المهينة التى وصلوا إليها، فيقول بعد أن يصف ثقل يد عمال الخراج وموجه الغلاء التى عمت البلاد:

" مات بالجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الـــناس مـــالا يحصى عدده من شدة الجوع وكان متولى الخراج يؤذى الناس فى كل

مكـان. وبالأكثـر النصارى البشموريين الذين كانوا يعذبونهم بعذاب شديد مثل بنى إسرائيل إلى أن باعوا أولادهم فى الخراج من كثرة العذاب لأنهم كانوا يربطونهم فى الطواحـين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب. فلما نظر أهل البشموريين أن ليس لهـم موضـع يخرجون منه وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه وما يعـرف طـرقه إلا هم، فبدأوا ينافقوا ويمتنعوا أن يدفعوا خراجا، وتآمروا على ذلك وكان الملك فى ذلك الوقت عبد الله أبن هارون الرشيد ".[١٠٥]

ومما يلاحظ على ثورات الأقباط التى استمرت نحو قرن من الزمان - لا سيما فـى مـنطقة الدلـتا - أنها كان يعوزها التنظيم والتكتيك والقيادة الموحدة، لذلك كان يقضـى علـيها سريعا .. كما لم يعرف الأقباط كيف يوحدون صفوفهم ويتخذون لهم قيادة قوية حكيمة. ويبدو أن هدف هذه الثورات الرئيسى كان رفع المظالم المالية التى أثقلـت كواهلهم. بالإضافة إلى الاعتراض على نواحى وأنواع الاضطهادات الأخرى كالتحقير الأدبى وما يمس العقيدة الدينية. .

سابعا: أشهر الحوادث فى العصر العباسى:

١ ــ ما حدث للبابا مينا الأول(البطريرك الــ٤٧) من متاعب بسبب الشماس بطرس.
٢ ــ ما حدث للبابا يوساب(البطريرك الــ ٥٢)بسبب اسحق أسقف تانيس وتادرس أسقف مصر.

٣ ــ ما حدث للبابا يوساب أيضاً بسبب أسقف مصر الذى يدعى بنا.
٤ ـــ مـا حدث للبابا يوساب بسبب شخص أسمه تاوضروس الذى أشتهى أن يرسم أسقفا على أوسيم بغير رضا الشعب فأمتنع البطريرك عن رسامته، وكان والى مصر فى ذلك الوقت هو على بن يحيى الارمنى (٨٤١ م - ٨٤٣ م) فى خلافة المعتصم الخلـيفة العباسى .. فلما رفض البطريرك رسامة تاوضروس، وكانت شهوة الأسقفية تشـتعل فى قلبه، لجأ إلى الوالى ليرغم الأب البطريرك على رسامته أسقفا ولما سأل الوالى البطريرك فى رسامة تاوضروس المذكور أسقفا، رفض البطريرك، مما سبب حـنق الوالـى .. فـبدأ يهدم الكنائس مبتدئا بكنيسة المعلقة بمصر القديمة، التى هدم أعلاها ..

وأخيـرا تحـت ضغوط الأراخنة الأقباط - وحتى لا يتسبب تشدده فى هدم كثير من الكنائس - قبل البطريرك رسامة المذكور بعد أن أشهد الله عليه. وعرض الوالى على الأنـبا يوساب غرامة ثلاثة ألاف دينار، دفعها عنه الأراخنة بالتقسيط. لكن الله العادل لـم يـدع هذا الوالى المتجبر يفلت من انتقامه، فقد قتل بيد الروم حينما أرسله الخليفة على رأس حملة لغزو بلادهم.[١٠٦]

حقيقة ينبغى أن تقال: -

١ ـ رغم ما عاناه البابا مرقس الثانى(البطريرك الـ ٤٩)(٧٩٩ م - ٨١٩ م) مـن إضطهادات ومظالم .إلا أنه كان يربطه مع لبيب الدولة وإلى مصر علاقة مودة وصـداقة وثيقة حتى انه فى احدى زياراته للوالى : قال الوالى للبابا " أطلب ما تريد وعلى التنفيذ " فابتسم البابا الاسكندرى ابتسامة هادئة ثم قال " أنت تعرف أن سلطانى إنمـا هو على الأرواح دون الأجساد وإن من واجبى أن اعمل على رفع النفوس نحو الله تعالـى . ولـيس هـناك من وسيلة أقوى أثرا من بناء الكنائس لبلوغ غايتى هذه فأرجوا أن تأذنوا لى ببناء الكنائس اللازمة وترميم المتهدم منها . وليس لى غير هذا الطلب " فأجابه لبيب الدولة على الفور " إن طلبك مقبول أيها البابا الجليل " ثم أصدر أمره لأولى الشأن بتنفيذ ما يطلبه البابا منهم.[١٠٦]

٢ - على الرغم أن البابا شنوده الأول(البطريرك الـ ٥٥)(٨٥٩ م - ٨٨٠ م) قـد عانى من كثير من المظالم والشدائد التى حاقت بالكنيسة بسبب تعسف الولاة فى أيام الخليفة المتوكل الذى كان عهده شؤما على الأقباط ولكننا نجد أن عدالة عنبسه ابن اسـحق الوالى وحسن معاملته للمصريين جعل الأقباط ينسون الشدائد التى حاقت بهم قبل ولايته، لما أبداه نحوهم من نزاهة. وفوق هذا فقد كانت ولايته فرصة للمصريين جمـيعا ليعملوا وهم مرتاحو البال. وقد انتهز البابا شنوده الأول هذه الفرصة لتجديد الكـنائس المتداعـية وبناء الأديرة الخربة. ولا تزال الآثار المتخلفة عن هذا العصر تتحدث بدقة الايدى التى أنتجتها وسداد الفكر الذى ابتدعها.[١٠٧]

البابا شنوده الأول و الخليفة المعتز بالله:

ومما ينبغى ذكره أيضاً أنه على الرغم أنه البابا شنوده الأول قد لاقى كثير من المتاعب والمظالم والضيقات فى أيام أحمد بن المدبر الذى أرسله أيبك الوالى التركى لجباية الضرائب لكن فى السنتين الأولين قد لاقى البابا شنوده الأول معاملة طيبة من الخليفة المعتز فقد ذكر انه عندما تولى الخليفة المعتز بالله الخلافة سنة ٨٦٦ م انتخب البطريرك رجلين من كبار الأقباط المعتبرين من الشعب وأوفداهما للخليفة ليشرحا له ما ذاقته مصر من المر والعلقم لجور ولاتها وظلم حكامها ويرجوه بأن يرحم بلادهم ويقـيم فـيها نصاب العدل والشفقة ودعا لهما البطريرك بالتوفيق، فلما مثلا بين يدى الخليفة أحسن استقبالهم وأجاب بطلبيهما وأعطى لهما أمرا يقضى بأن جميع الاراضى والكـنائس والأديرة وأوانى المذبح التى سلبت منهم أيام التعدى والنهب والاغتصاب ينبغـى أن ترجع إليهم ثانية فجاء الرسولان إلى البابا شنوده الأول بذلك القرار فكتب مـنه عـدة صـور أرسل لكل أسقف فى القطر المصرى صورة منها طالبا منهم أن يشكروا الله على هذه المنحة العظيمة ويقدموا الثناء الواجب للخليفة.[١٠٨]

٣ ــ كــــرم الأقبـــــاط: -

حـــدث فـــى أثناء وجود الخليفة المأمون بمصر. أن مر بقرية طا النمل(تسمى الآن "طـــنا مل " بمحافظة الدقهلية مركز أجا) ولم يشأ أن يعرج عليها لصغرها فخرجت خلفـــه عجـــوز قبطـــية وطلبت منه أن يشرَف قريتها فلبى دعوتها ، وقامت العجوز وولـــداها بتقديم طعام فاخر له وجنوده حتى استعظم ذلك ، ولما أصبح الصباح وعزم المأمـــون على الرحيل حضرت إليه العجوز ومعها عشر وصيفات فى يد كل وصيفة طـــبق علـــيه كيس من ذهب مطبوع فى عام واحد . فاندهش المأمون وطلب منها أن تعيد ذهبها فأبت وقالت له لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا. ولما سألها من أين كل لك ذلك تناولت قطعة طين وقالت له " إن هذا الذهب من هذا الطين. ولا تنسى عدلك يا أمير المؤمنـــين " فأعجـــب بها وبسعة حالها وقبل هديتها وأقطعها عده ضياع ووضع لها خراج مائتى فدان.[١٠٩]

٤ ــ فى عصر الخليفة المعتصم:

ذكـــر عـــن الخليفة المعتصم أنه فى عهده، كان هناك أخوان مسيحيان مساعدين له، الأول اسمه سلماوية والثانى اسمه إبراهيم. الأول كان له فى مقام الوزير والثانى كان حامل خاتمه وكان أمينا على خزائن الدولة.

" الفصل الرابع "

قديسوا الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها
فى عصر الدولة العباسية

أولا: البابا مينا الأول(البطريرك الـ ٤٧)(٧٦٧- ٧٧٦م)

بعد نياحة البابا خائيل اجتمع الشعب والأساقفة لانتخاب خلف له فذكر القس مينا الراهب من سمنود ببيعة أبى مقار وكان تلميذا للبابا خائيل. وما جلس على الكرسى فى شهر برمودة سنة ٤٦٨ ش و ٩٦٧م فى عهد خلافة المنصور بن محمد حتى اخذ يصلح ما أفسدته يد الاضطهاد وذاقت الكنيسة طعم السلام بعد أن حرمت منه مدة طويلة. غير أن الشيطان عدو السلام أثار الشر على البابا مينا بواسطة راهب يدعى بطرس من قرية تسمى دسيمة طمع فى نوال الأسقفية ولم ينلها لعدم استحقاقه فأخذ يشيع المذمات على البطريرك حتى استدعاه إليه وجعل ينصحه لكى يعدل عن شره فلم يرتدع بل سافر إلى سورية وزور خطاب باسم البابا مينا إلى بطريرك إنطاكية ومطارنته يقول فيها أن كنيسة مصر وقعت فى شدة وأصيبت باضطهاد عظيم فاعتنى به البطريرك وجمع له مالا وزوده بتوصيات إلى العظماء لينال منهم خيرا واستمر مستعملا غشه حتى وصل إلى مدينة دمشق التى يقيم بها الخليفة فبدأ يذيع الأخبار بان بيت مال الخليفة خال من المال وبطريرك نصارى مصر له دراية بعمل كيمياء الذهب ولأجل هذا ملأ كنائسه من الاوانى المصنوعة من الذهب والفضة وعزز كلامه هذا بدفع رشوة لموظفى بلاط الخليفة حتى يقدموه له .

وكان ابن الخليفة قد مات فلما وقع نظره على بطرس رآه يشبه فى صورته صورة ولده الميت فدخل به إلى زوجته النائحة لكى تتعزى فسرت برؤيته، وأقام عندهم عدة شهور ونال حظوة فى عينى الخليفة حتى صرح له باستعداده لقضاء جميع مآربه. فطلب منه أن يقيمه بطريركا عوض مينا بطريرك مصر.

فكتب الخليفة إلى الوالى عبد الرحمن وكلفه بأن يجهز لبطرس ثيابا فاخرة ويرقم عليها بالخط العربى "بطرس بطريرك مصر" وكتب اسم الملك فكتب بطرس من جهله بعد اسمه لفظة "عبد الملك".

ولما وصل الخبر للوالى أرسل يستدعى البطريرك القديس فتوسل إلى الرب أن يخلصه من هذه التجربة بعد أن وصله هذا الخبر، وسار إلى مصر لمقابلة للوالى لتوضيح تداعيات هذا الخبر ومنشرحا لاستحقاقه أن يتألم من أجل المسيح.

فاعلمه الوالى بجلية الخبر فشخص إلى بطرس وشجبه بشجاعة، فأراد الوالى أن يقنع البطريرك بالحسنى بإطاعة أمر الخليفة؟ فأجابه "لاينبغى أن أطيع الخليفة وأقاوم الله" فسأل الوالى بطرس عما يريد أن يفعله؟ فأجابه أنه يروم أن يستحضر لديه كل الأساقفة ويلزمهم بطاعته ويرسله إلى الإسكندرية ليستلم كنائسها.

فاعتقل البطريرك وتادرس أسقف مصر حتى يدعو البطريرك بقية الأساقفة فكتب إليهم يستدعيهم إلى الفسطاط فأسرعوا فى الحضور وقام بطرس يوم الأحد بينما كانوا

يقيمون الصلاة فى الكنيسة وتقدم بجسارة وصعد إلى الهيكل ليقول صلاة الشكر كالبطريرك والقلنسوة المكتوب عليها اسم الملك على رأسه فلما شاهد الآباء الأساقفة هذا التصرف الشنيع أسرع أنبا مينا أسقف صنبو وأنبا موسى أسقف أوسيم وامسكا بالقلنسوة ورميا به من على الهيكل وقال له بقية الأساقفة " لا تقف أمام الهيكل لئلا تنجسه" فأمر بأن توضع فى رقابهم وأرجلهم السلاسل الحديدية وطرحوا فى السجن فاستمروا فيه أياما قلائل.

وطلب بطرس من الوالى أن يأتى بهم من السجن ويوقفهم بين يديه ففعل، فأمر بطرس أن يستحضر الاوانى المصنوعة من الذهب والفضة لتحمل إلى بيت الملك، فأجاب البطريرك بأن الكنيسة لتوالى الاضطهادات عليها عدمت كل أثاثها"، فقال له بطرس" أنا اعرف أن لديك كتابا تستطيع أن تصنع به ذهبا وفضة"؟ فأجابه البطريرك" انى لا أعرف شيئا من ذلك "، فحلف بطرس برأس الخليفة أن يلزم البطريرك ومن معه أن يشتغلوا فى طلى المراكب بالزفت، فلزم البطريرك والأساقفة هذا العمل مدة سنة ووجوههم تكاد تصهرها الشمس حتى كان يبكى عليهم كل من شاهدهم ثم أعيدوا إلى السجن ومازال بطرس يطالبهم بتسليم أوانى الكنائس.

وكان الوالى غير راض على تصرف بطرس القبيح ولكنه لم يشأ مقاومته خوفا من الخليفة. غير أنه لما رآه تجاوز الحد فى شره، عنفه على ما يأتيه ضد كبير النصارى. فهدده بطرس قائلا" أتريد أن أطيع البطريرك وأخالف الملك"فخشى الوالى أن ينم فيه لدى الخليفة فقبض عليه وكبل يديه ورجليه بالحديد وطرحه فى السجن وألقاه فى مطبق ضيق وأفرج عن البطريرك ومن معه فمضوا إلى الإسكندرية ودخلوا البيعة بفرح عظيم وواصلوا جهادهم فى خدمة الكنيسة .

ولما تمت ثلاث سنين وبطرس فى السجن تغير الوالى الذى كان يمقته وعين عوضه فأطلق جميع المسجونين ومنهم بطرس فانطلق إلى الخليفة وأعلن إسلامه وروى من الأخبار الكاذبة ضد البطريرك والوالى المعزول ما شاءت له نياته السيئة وطلب من الخليفةة أن يعطيه قوة كبيرة لكى ينتقم من البطريرك اشر انتقام لكن الرب لم يسمح فقبل وصوله إلى مصر مات الخليفة فخزى بطرس ومضى إلى بلده فعرفه كل من التقاه وأبى جميع معارفه الاختلاط به حتى اضطر أن يستغفر الأساقفة ليرضى عنه الناس ولكنهم رذلوه وظل مرذولا حتى مات اشر الميتات.

وبعد ذلك تنيح البابا مينا بسلام بعد أن مضى مدة ثمان سنين على الكرسى المرقسى وكانت وفاته فى آخر يوم من طوبة سنة ٤٧٨ش و٧٧٦م.

ثانياً: البابا ياكوبوس (يعقوب) (سنة ٨١٩م - ٨٣٠ م)

الملقب بالعمود المضئ (البطريرك الـ ٥٠) الذى كان فى أيام الخليفة المأمون.

وقد أشتهر بالتقوى والقداسة وفعل الخير كما خصه الله بصنع العجائب نذكر بعض منها.

أ ـ عاقبه من يستحى برجال الله:

ذكر أن شماسا وقحا دفعه الطيش على شتم البابا فى وجهه وقال له ادفع الديون والأقساط المقررة عليك للكنائس والايبروشيات أو تترك البطريركية وتمضى إلى ديرك من حيث أتيت، فقال له البطريرك إنك لن تعود ترى وجهى بعد. فمضى ذلك الشماس إلى بيته واعترته للحال حمى ومات تلك الليلة.

ب ـ إقامته للموتى:-

ذكر عن أحد الاراخنة المدعو مكاريوس من نبروه كان قد طعن فى السن(كبر أو شاخ) ولم يرزق نسلاً وفى آخر عمره رزق ولدا، فصنع وليمة ودعا إليها كثيرين وفى مقدمتهم البطريرك البابا ياكوبوس، فحدث أن الوليمة لم تنته حتى أصيب الولد بوعكة مفاجئة ومات.

وعندما علم والده المدعو مكاريوس لم يضطرب ولا انزعج ولكن بثقة وبإيمان قوى ، الإيمان الذى أقام ابنة المرأة الشونمية والذى يقول عنه الكتاب المقدس " كل شئ مستطاع للمؤمن " قام وحمل أبنه الذى مات وألقاه فى حضن البابا وهو غير مرتاب فى أن الله يسمع له ليعيد لولده الروح والحياة ، وما كان من البابا ياكوبوس إلا أنه قام برسم الولد بعلامة الصليب على جبهته وصدره وقلبه وصلى قائلا " ياسيدى يسوع المسيح الواهب الحياة المنعم بالجاه أعد لهذا الطفل نفسه وأمنحه الحياة " وفى النهاية نفخ فى وجهه فعادت إليه نفسه فكان الفرح بإحيائه أعظم من الفرح بالوليمة ، أما والده ففرق ثلث أمواله على الفقراء والمساكين وبنى كنيسة مريم المجدلية فى القدس وأماكن لزائريه .[١١٠]

ثالثاً: البابا يوساب(البطريرك الـ ٥٢)(٨٣٠ م – ٨٤٩ م):

وقد إمتلأ تاريخ هذا البابا بالأزمات والمشاكل والضيقات ومنها موضوع أسقفى تانيس ومصر اللذين طلب شعباهما إبعادهما وإلا تركا الكنيسة وأنتهى الأمر بقطعهما من الكهنوت بقرار مجمعى .. وفى أيامه ثار البشموريون وكان ذلك فى خلافة المأمون العباسى، الأمر الذى أشرنا إليه سابقا ، وقد تعرض للموت بضرب عنقه بالسيف بواسطة أخو الافشين قائد الجيش بوشاية أسقفى تانيس ومصر كما أسلفنا سابقا.

وفى أيامه أصدر المعتصم الخليفة العباسى أمرا إلى واليه على مصر بتجريد الكنائس من زينتها، وينزع منها الأعمدة الرخامية. ومن الكنائس التى خضعت لتنفيذ هذا الأمر بيعة مار مينا بمريوط، على يد نسطورى يدعى لعازر. هذا بالإضافة إلى الضيقة التى سببها تادرس الذى أشتهى أسقفية أوسيم، ويوحنا أسقف مصر الذى أشتهى أن يكون متقدما على بقية الأساقفة.

كان البابا يوساب يعد شبّانا من الإفريقيين - ممن كانوا يهدونهم ملوك الحبشة والنوبة المسيحيين - ليكونوا بمثابة إرساليات للكرازة فى بلاد الحبشة وغيرها من البلاد الإفريقية.. وفتح البابا لهؤلاء الشبان مدرسة لتعليمهم قواعد الدين المسيحى فى البطريركية، لكن أسقف مصر المقطوع من الكهنوت وشى إلى قاضى مصر أن هؤلاء الشبان مسلمين .. فما كان من القاضى إلا أن أرسل وأحضر هؤلاء الشبان، كما أستدعى البطريرك وعنفه قائلا " لا ينبغى أن تخطف أبناء المسلمين لتتصرهم " فأجابه البابا " هؤلاء نصارى أولاد نصارى أرسلوا إلى من ملكى النوبة والحبشة " .فأتى القاضى بالشبان أمام البطريك، ونظرا لعظم تهديد القاضى لهم، اعترفوا بالإسلام أمامه .. وانتهى الأمر بأن صار هؤلاء الشبان عبيدا وإقتسمهم أعيان المسلمين.

موهبة إخراج الشياطين:

وقد منح الله البابا يوساب موهبة إخراج الأرواح النجسة ومن ذلك أن روحا نجسا اعترى ابن أحد الأراخنة، وجعل يسخر بالبطريرك قائلا " إنى لن أترك الولد إلا إذا أمرنى البطريرك " فانطلق أبوه وأعلم البطريرك بذلك وطلب منه أن يكتب ورقة يأمر فيها ذلك الروح بالخروج من ولده فكتب يقول " من يوسف الحقير أصغر البطاركة إلى الشيطان، أنى آمرك بإسم الرب يسوع أيها الروح النجس أن تخرج من هذا الولد لأنه عبد للمسيح إلهنا ولا تعود تمس جسمه أو نفسه بأذى " فأخذ الأرخن هذا الأمر وعاد به إلى بيته، وحالما تلاه على ولده، خرج منه الشيطان مولولا ، وشفى الولد.[١١١]

إيمان اعرابى من قريش واستشهاده:-

ذكر فى أيام الخليفة المتوكل الذى عاصره البابا يوساب أن إعرابيا من قريش ظل بشاغل قسا أثناء خدمه الأسرار وفى ذات مره تطلع من كوة على ما يجريه القس فى القداس فشاهد على المائدة المقدسة حملا مذبوحا مقطعا ثم دخل الكنيسة. فلم يشاهد شيئا من ذلك. ماعدا الخبز. وعاد إلى تلك الكوة فرأى المنظر الأول فدهش وللحال ترك قبيلته وانطلق إلى أحد الأديرة. وطلب أن يعتمد وبعد عماده انتشر خبره فدعاه الخليفة ولاطفه ليرتد إلى الإسلام فلم يقبل فهدده فلم يخف. فحبسه وبعد مضى سنتين أخرجه من الحبس وعرض عليه الإسلام فرفضه، فقطع رأسه وعلقه على السور مده. وكان المؤمنون يشاهدون نورا نازلا من السماء على جسده. وفى النهاية سرق جسده إنسان وسار به إلى بلاد الفرس.[١١٢]

وقد احتمل هذا الأب البطريك شدائد كثيرة، وإهانات بالغة ذكرنا بعضها فى موضوع سابق ولما أكمل سعيه الحسن أراد الله الذى لا ينسى تعب المحبة، أن يريحه من

أتعـــاب هـــذا العالم الفانى فنقله إليه، وكان انتقاله فى يوم الأحد وقت تناول الأسرار المقدسة.

رابعاً: البابا شنوده الأول (سانوتيوس)(البطريرك الــ ٥٥) (٨٥٩ م - ٨٨٠ م)

الــذى عاصـــر كـــل من الخليفة المتوكل والمنتصر والمستعين كما عاصر أحمد بن طولون فى خلافة المعتز والمهتدى والمعتمد. **من مآثر هذا الأب:**

أ ـــ البابا شنوده الأول وخليج الثغر الاسكندرى:

أنـــه حفـــر خلـــيجا أوصله إلى الثغر الاسكندرى، أجرى فيه الماء إلى المدينة وعمل قنوات تحت الأرض توصل المياه إلى المبانى، وبعد أن أتم هذا العمل الخيرى اشرع الـــناس يغرســـون الأشجار والكروم على شاطىء ذلك الخليج، ولم يمضى زمن حتى تحولت تلك الاراضى القاحلة إلى جنات وفراديس.

ب - كل ما تطلبونه من الآب باسمى تنالونه: -

كان لهذا الأب دالة عظيمة عند الله، ومن البراهين على ذلك أنه كان يصنع لمارمينا عيدا احتفاليا كل سنة تتقاطر لزيارته الناس من الجهات، وقد أجدبت أرض مريوط ثلاث سنوات لقلة المطر وانتشار الجفاف فجفت الآبار وعظم الكرب وكاد الأهالى يهلكون عطشاً، فلما جاء هذا الأب ليعيد فى كنيسة القديس مارمينا بمريوط تجمع الناس حول البطريرك وطلبوا إليه أن يدعو إلهه لكى يفتقدهم ويفرج ضيقهم ويروى ظمأهم وظمأ دوابهم فوعدهم خيرا وعزاهم وصبرهم وقال لهم أؤمن أن الله يرينا رحمته سريعاً بصلوات شهيده مارمينا.

وفى الصباح احتفل بقداس العيد وذكر أمام الرب ضيق شعبه فلم ينته من القداس حتى تغطت السماء بالغيوم وبدأ المطر يهطل بغزارة واستمرت المياه تنهال حتى رويت الأرض وملأت الآبار وزال ضيق الشعب وتمجد الإله الصانع العجائب على أيدى أحبائه ، فقال حبيب المسيح الأنبا شنوده الأول بمسرة روحانية .

أشكرك يا ربى يسوع المسيح إلهى الغنى برأفته إن ترد رحمة شعبك فارحم بغنى يشبه رحمتك ليمتلئ من مسرتك وبركتك.

وعند غروب الشمس والناس مجتمعون عند الأب يأكلون الخبز حدث رعد وبرق ونزل غيث كالسيل الشديد حتى امتلأت منه البقاع والكروم والآبار وبقى فى الأرض ثلاث سنوات عوضاً عن تلك السنين المجدبة .

لذا ابتهج الشعب وهتفوا " مباركة الساعة التى أتيت فيها إلينا لأن الله أنقذنا بصلواتك الطاهرة من هذه الغمة .[١١٣]

ج ـ الأب المحب يبذل نفسه من أجل أحبائه:-

فقد ذكر عن هذا الأب أن له عادة سنوية أن يذهب هو ومجموعة من الاراخنة وأعـيان الأقباط إلى دير أبى مقار ويقضوا جمعة الآلام فيه، فذهب مع كثيرين على حسب عادته وكان العرب (الغوغاء ورعاع المسلمين) منتشرين كالجراد فى الوادى فتعقبوهم فى طريقهم وأضروا بهم ونهبوا قوتهم وكل ما وصلت إليه أيديهم وفى يوم الخمـيس الكبيـر (خميس العهد) تكرر هجومهم مرة أخرى على الدير بقصد نهبه وتدميـره، فجـزع الرهبان والشعب معا وأيقنوا أن الهلاك وشيك، وابتدأوا يولولون ويـبكون، فلما شاهد البطريرك هذا الاضطراب إشتمله الحزن وقصد أن يفدى شعبه بتضحية ذاته فاخذ عكازه وخرج إلى الغوغاء - رغما عن توسلات الأساقفة والشعب بعـدم خـروجه - ودعاهم إلى قتله بعد أن انتهرهم ووبخهم.ولكن هؤلاء لما نظروه خارجـا لهم بمفرده جزعوا كما كان منظره المهيب سببا فى دخول الرعب فى قلوبهم فولوا هاربين ولم يبقى منهم أحد.

البابا شنوده الأول وتشييد الحصون:

وكـان نتـيجة الهجمـات المتكررة على الأديرة من عرب البادية والغوغاء والبربر أن هجر أغلبية الرهبان من الأديرة وتشتتوا فى البلاد، ولكى يحمى البطريرك الرهبان داخل الأديرة من بطش الغوغاء المتكررة، شاد فى كل دير حصنا منيعا وهى التى بقيت ولها آثار حتى الآن فى أديرة وادى النطرون.[١١٤]

مشاهير المسيحيين من الأطباء فى العصر العباسى: -

١ ـ جورجيوس طبيب الخليفة المنصور:

هـو جورجـيوس بن جبرائيل وكان يدعى بن أبى أصبعة، وقد خدم بصناعة الطب للخلـيفة المنصور وكان خطيباً عنده رفيع المنزلة، ونال من جهته أموالا جزيلة وقد نقل للمنصور كتبا كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربى.[١١٥]

أما قصة استدعائه لعلاج المنصور فهى:

مـرض المنصور سنة ١٤٨ هـ وفسدت معدته. وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فتقدم إلى الربيع (وزيره وكاتم سره) بأن يجمع الأطباء لمشاورتهم. فجمعهم فقال لهم المنصور"من تعرفون من الأطباء فى سائر المدن طبيبا ماهرا ؟ "فقالوا " ليس فـى وقتنا هذا أحد يشبه جورجيوس رئيس أطباء جندى سابور(مدينة فى خورستان) فإنـه ماهـر فـى الطب، وله مصنفات جليلة ". فأرسل إليه المنصور من يستدعيه. فحـاول جورجـيوس أن يعـتذر بمشـغوليته فلـم يستطيع، فعهد بأمر البيمارستان (المستشـفى) إلى ابنه بختيشوع، وذهب. ولما وصل إلى المنصور دعا له بالفارسية

والعــربية. فتعجب الخليفة من حسن منظره ومنطقه، وسأله عن أشياء، فأجاب عنها بسـكون، فقــال له " قد ظفرت منك بما كنت أحبه وأشتاقه. وحدثه بعلته وكيف كان ابتداؤها، فقال له جورجيوس: أنا أدبّرك كما تحب.

إكرام الخليفة له:

* أمـر لـــه الخليفة بمكانه جليلة. وقال للربيع (وزيره) " انزله فى منزل جليل من دورنا، وإكرمه كما تكرم أخص الأهل، وقد عالجه جورجيوس حتى عاد إلى صحته " وفرح به الخليفة فرحا شديدا وأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل، وبعد مرور سنتين، قال الخلـيفة لجورجيوس " أرسل من يحضر أبنك إلينا. فقد بلغنى أنه مثلك فى الطب ". فقــال لـــه جورجـــيوس " مديـــنة جـــندى سابور محتاجة إليه وإن فارقها إنفسد أمر البيمارســتان (المستشــفى). وكان أهل المدينة إذا مرضوا ساروا إليه، وههنا معى تلاميذ قد ربّيتهم وخرّجتهم فى الصناعة حتى أنهم مثلى. وفى الغد أخذ معه عيسى بن شهلا وأوصله إليه.

تقديسه لسر الزواج:

وفى عام ١٥١ هــ دخل جورجيوس إلى الخليفة فى يوم الميلاد ... فقال له الخليفة " من يخدمك هنا، فقال " تلاميذى " فقال له " سمعت أنه ليست لك أمراة " فقال له " لى زوجــة كبيــرة ضعيفة، ولا تقدر أن تنتقل إلى من موضعها ". وخرج من حضرته ومضـــى إلـــى البـــيعة، فأمر الخليفة خادمه سالما، أن يختار من الجوارى الروميات الحسان ثلاثا، ويحملهن إلى جورجيوس مع ثلاثة آلاف دينار ففعل ذلك.

ولمـــا عـــاد جورجيوس إلى منزله، عرّفه عيسى بن شهلا بما جرى، وأراه الجـــوارى، فقال لتلميذه عيسى " يا تلميذ الشيطان، لم أدخلت هؤلاء منزلى ؟ إمضى ردهـــن إلـــى صاحبهن. ثم ركب جورجيوس وعيسى ومعه الجوارى إلى دار الخليفة وردهن، فلما وصل الخبر بالمنصور، أحضره وقال له " لم رددت الجوارى ؟ ". قال له " هؤلاء لا يكونون معى فى بيت واحد، لأننا نحن معشر النصارى لا نتزوج بأكثر مـــن أمـــراة واحـــدة. وما دامت المرأة فى الحياة، لا نأخذ غيرها، فحسن موقعه من الخلـــيفة، وأمـــر فى وقته أن يدخل جورجيوس على حظاياه وحرمه ويخدمهم، وزاد موضعه فى عينه وعظم محله.

مرضه وسفره:

ولمـــا كان فى سنة ١٥٢ هــ مرض جورجيوس مرضا صعبا ... وخرج إليه الخليفة ماشـــيا وراءه وسأل عن خبره. فبكى جورجيوس وقال له " إن رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، أن يأذن لى فى المصير إلى بلدى لأنظر أهلى وولدى، وإن مت قبرت مع آبائى ".

فقـال الخلـيفة " يا جورجيوس، اتق الله وأسلم، وأنا أضمن لك الجنة ". قال جورجـيوس " أنـا على دين آبائى أموت وحيث يكون آبائى، أحب أن أكون إما فى الجـنة أو فـى جهنم ". فضحك الخليفة من قوله وقال له " وجدت راحة عظيمة فى جسمى منذ رأيتك وإلى هذه اللحظة وقد تخلصت من الأمراض التى كانت تلحقنى قال له جورجيوس " إنى أترك بين يديك عيسى وهو تربيتى وخليفة لى ". فأمر الخليفة أن يخرج جورجيوس إلى بلده " وأن يدفع إليه عشرة آلاف دينار وأرسل معه خادما وقال " إن مات فى طريقه فأحمله إلى منزله ليدفن هناك كما رغب فوصل إلى بلده حيا.

٢ ـ جبرائيل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد وابنيه:

قال عنه ابن أبى أصيبعة ونقل عنه دكتور محمود دياب مايأتى:
كان مشهودا بالفضل، جيد التصرف فى المداواة، عالى الهمة، سعيد الجد، حظيا عند الخلفـاء، رفيع المنزلة عندهم، يكثرون الإحسان إليه، وحصل من جهتهم من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء ...

علاجه لجعفر البرمكى:

ولمـا كان فى سنة ١٧٥ هـ، مرض جعفر البرمكى، فتقدم الرشيد إلى بختيشوع أن يتولـى خدمته ومعالجته. ولما كان فى بعض الأيام قال له جعفر: أريد أن تختار لى طبيـبا أكـرمه وأحسن إليه. فقال له بختيشوع " إبنى جبرائيل أمهر منى..وليس فى الأطباء من يشاكله " فقال له جعفر " أحضره لى " ولما أحضره عالجه مدة ثلاثة أيام وبرأ. فأحبه جعفر مثل نفسه. وكان لا يبعد عنه ساعة. ومعه يأكل ويشرب.

بدء صلته بالخليفة الرشيد:

مرضـت حظـية الرشـيد، ورفعـت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها. والأطباء يعالجونها بالتمريض والدهان، ولا ينفع ذلك شيئا، فقال جعفر للرشيد: لى طبيب ماهر وهـو ابـن بختيشـوع، ندعوه وتخاطبه فى معنى هذا المرض، فلعل عنده حيلة فى علاجه.

فأمـر الرشـيد بإحضـاره ... وشرح حال الصبية. فعالجها وبرأت.وأمر الرشيد له بخمسمائة ألف درهم، وأحبه مثل نفسه، وجعله رئيسا على جميع الأطباء ...

مكانته عند الرشيد:

وكـان محل جبرائيل يقوى فى كل وقت، حتى أن الرشيد قال لأصحابه: كل مـن كانت له إلى حاجة، فليخاطب بها جبرائيل، لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منـى ولا أمنع عنه شيئا. فكان القواد يقصدونه فى كل أمورهم، ومنذ أن خدم الرشيد

إلـــى أن أنقضـــت خمـــس عشرة سنة لم يمرض الرشيد خلالها فحظى عنده جبرائيل بمكانة عظيمة.

دعاء الرشيد له:

قـــال الرشيد مرة لجبرائيل بن بختيشوع وهو حاج بمكة " يا جبرائيل علمت مـــرتبتك عندى ؟ " قال " ياسيدى ، وكيف لا أعلم " قال له " دعوت لك والله فى وقفة عرفات دعاءً كثيراً " . ثم التفت إلى بنى هاشم وقال " عسى أنكرتم قولى له ؟ " فقالوا " يـــا ســـيدنا ذمى " فقال " نعم، ولكن صلاح بدنى وقوامه به، وصلاح المسلمين بى، فصـــلاحهم بصـــلاحه وبقائه ". فقالوا " صدقت يا أمير المؤمنين. وكانت مدة خدمة جبرائيل بن بختيشوع للرشيد إلى أن توفى الرشيد ٢٣ سنة.

مكانته عند الخليفة الأمين:

ولمـــا تولى الأمين، وافى إليه جبرائيل، فقبله أحسن قبول وأكرمه، ووهب له أموالا جليلة أكثر مما كان أبوه يهب له. وكان الأمين لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه.

حبس جبرائيل:

فلما ملك المأمون أمر وزيره بالقبض على جبرائيل وحبسه، لأنه ترك قصرة بعد موت أبيه الرشيد، ومضى إلى أخيه الأمين.

علاجه للحسن وزير المأمون:

وفى سنة ٢٠٢ هـــ مرض الحسن بن سهل (وزير المأمون) مرضا شديدا، وعالجه الأطـــباء فلم ينفع ذلك. فأخرج جبرائيل من الحبس حتى عالجه وبرأ فى أيام يسيرة . فوهب له سراً مالا وفيرا . وأرسل فأخبر المأمون وسأله فى أمره، فأمر بالصفح عنه .

وفى سنة ٢٠٥ هـــ أمر المأمون بأن يجلس جبرائيل فى منزله ولا يخدم . وأحضر ميخائيل المتطبب ، وهو صهر جبرائيل ، وجعله مكانه ، وأكرمه إكراما وافرا مكايدة لجبرائيل .

حنطة، ورد عليه سائر ما قبض منه من الأملاك والضياع . وكان إذا خاطبه كناه بأبى عيسى جبرائيل. وأكرمه زيادة على ما كان أبوه يكرمه.
وانتهى به الأمر فى الجلال، إلى أن كان كل من تقلد عملا، لا يخرج إلى عمله إلا بعد أن يلقى جبرائيل ويكرمه. وكان عند المأمون مثل أبيه ونقص محل ميخائيل المتطبب وانحط .

كتب جبرائيل بن بختيشوع ورسائله:

كتاب المدخل إلى صناعة المنطق .. وكتاب فى صناعة البخور. رسالة إلى المأمون فى المطعم والمشرب، ورسالة مختصرة فى الطب وغيرها.

٣ـ بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع :

طبيب الخليفة المتوكل والخليفة المستعين والخليفة المهتدى
وردت عنه فى كتاب (عيون الأبناء فى طبقات الأطباء)" أنه بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ، ما لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا فى عصره .
وكان يضاهى الخليفة المتوكل فى اللباس والفرش .

دسيسة ضده عند الخليفة الواثق:

لما ملك الواثق، كان محمد بن عبد الملك، وابن أبى داود يعاديان بختيشوع، ويحسدانه على فضله، وبره، ومعروفه ، وصدقاته ، وكمال مروءته . فكانا يثيران الملك الواثق عليه . فسخط عليه الواثق، وقبض على أملاكه وضياعه، وأخذ منه جملة طائلة من المال. ونفاه إلى جندى سابور. وذلك سنة ٢٣٠ هـ .فلما اعتل بالاستسقاء، وبلغ الشدة من مرضه، أرسل من يحضر بختيشوع. ومات الواثق قبل أن يجئ بختيشوع .

مكانته أيام الخليفة المتوكل :

صلحت حال بختيشوع بعد ذلك فى أيام المتوكل، حتى بلغ من الجلال والرفعة، وعظم المنزلة، وحسن الحال، وكثرة المال، واللباس والطيب والفرش والصناعات والبذخ فى النفقات، مبلغا يفوق الوصف.
وقد قال المتوكل عنه للوزير ابن المدبر " إن محله مثل محل أرواحنا من أبداننا ".
وكان بختيشوع له دلالة كثيرة عليه وكان يدخل إليه فيأنس به .

إبراؤه للمعتز بالله :

كان المعتز بالله قد اعتل فى أيام المتوكل، علة من حرارة أمتنع معها عن أخذ أى شيء من الأدوية والأغذية. فشق ذلك كثيرا على المتوكل، وأغتم به . وذهب إليه بختيشوع، والأطباء عنده ، وهو فى حالة من الامتناع .. وظل يمازحه ، حتى أمكنه أن يجعله يتناول العلاج ... وبرأ المعتز. فكان المتوكل يذكر هذا الفعل له .

حسد المتوكل له :

وحدث أن زاره المتوكل فى بيته. فأكرمه غاية الإكرام، فى زينة البيت، والطيب ، والطعام ... فرأى المتوكل مالا عهد له بمثله، وقال له " من أين لك هذا ؟ "

... وحسد المتوكل بختيشوع على ما رآه من نعمته ... فنكبه بعد أيام يسيرة . وأخذ مالا كثيرا له، لا يقدر . . .

وقيل: مرض المتوكل بعد ذلك بالقولون. فاستحضر بختيشوع واعتذر إليه، فعالجه فبريء. فأنعم عليه، ورضى عنه، وأعاد ما كان له. ثم جرت على بختيشوع حيلة أخرى، إذ وشى به البعض، فنكبه المتوكل نكبه، قبض فيها على جميع أملاكه، وأرسله إلى البصرة.

إكرام الخليفة المستعين له:

ولما صار المستعين خليفة، رد بختيشوع إلى الخدمة وأحسن إليه إحسانا كثيرا.

إكرام الخليفة المهتدى له:

ولما تولى الخلافة أبن عبد الله محمد بن الواثق، وهو المهتدى، جرى على حال المتوكل فى أنسه بالأطباء، وتقديمه إياهم وإحسانه إليهم. وشكا بختيشوع إلى المهتدى ما أخذ منه فى أيام المتوكل، فأمر بأن يدخل إلى الخزائن، وكل ما اعترف به فليرد إليه بلا مراجعة.

وفاته: وقد توفى بختيشوع سنة ٣٥٦ هـ وخلف عبيد الله ولده وثلاث بنات.

كلامه وكتبه: كتب كتاب فى الحجامة على طريقة السؤال والجواب.

ومن كلامه فى الطب: قال: الشرب على الجوع رديء والأكل على الشبع أردا وقال : أكل القليل مما يضر أصلح من أكل الكثير مما لا ينفع .

وقد نقل حنين بن أسحق لبختيشوع بن جبرائيل كتبا كثيرة من كتب جاليليوس إلى اللغة السريانية والعربية.

٤ـ سلمويه طبيب الخليفة المعتصم :

اختيار المعتصم له:

لم يكن سلموية بن بنان، مجرد طبيب فى عهد الخليفة المعتصم بالله، وإنما كانت له سلطة سياسية كبيرة فى الدولة. وكان مقربا جدا لدى الخليفة، تمر عليه كل ورقة هامة. وقد قال عنه بن أبى أصيبعة لما ولى المعتصم بالله الخلافة فى سنة ٢١٨ هـ اختار لنفسه سلمويه طبيبا، وأكرمه إكراما كثيرا يفوق الوصف. وقد قدمه له أبو إسحق إبراهيم بن المهدى بقوله " وقع إختيارى على خادمين لى ، يصل كل واحد منهما إلى فى مجالس جدى وهزلى(الجد والهزل) ، يصل إلى فى مرقدى ومتوضئ ، وهما : مسرور سمانه ، وسلمويه بنان . فأختر أيهما شئت، وقلده حوائجك .

فوقع اختياره على سلمويه. أحضره أمير المؤمنين، فأمره أن يتولى إيصال رسائله فى كل الأوقات .

سلطته فى عهد الخليفة المعتصم :

وكانت توقيعات المعتصم ترد إلى الدواوين فى السجلات وغيرها بخط سلمويه. وكل ما كان يرد على الأمراء القواد من خروج أمر وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين، فبخط سلموية .

وأخوة إبراهيم : وولى المعتصم أخا سلمويه، إبراهيم بن بنان، خزائن بيوت الأموال فى البلاد، وكان معه خاتم أمير المؤمنين، ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم فى المنزلة .

وكان سلمويه بن بنان نصرانيا حسن الاعتقاد فى دينه، كثير الخير، محمود السيرة، وافر العقل، جميل الرأى .

تقدير وتوقير المعتصم له :

قال إسحق بن على الرهاوى، فى كتاب أدب الطبيب: أخبرنى يوحنا بن ماسوية عن المعتصم، إنه قال : سلمويه طبيبى أكبر عندى من قاضى القضاة .لأن هذا يحكم فى نفسى، ونفسى أشرف من مالى وملكى .

ولما مرض سلمويه الطبيب، أمر المعتصم ولده أن يعوده فعاده ثم قال: أنا أعلم وأتيقن أننى لا أعيش بعده، لأنه كان يراعى حياتى ويدبر جسمى. ولم يعيش بعده تمام السنة .

وفاة سلمويه وحزن الخليفة عليه:

وقال إسحق بن حنين ، عن أبيه:

إن سلمويه كان أعظم أهل زمانه بصناعة الطب. وكان المعتصم يسميه (أبى) . فلما اعتل سلمويه، عاده المعتصم وبكى عنده ... ولما مات سلمويه، أمتنع المعتصم عن أكل الطعام يوم موته. وأمر بأن تحضر جنازته إلى الدار، ويصلى عليه بالشمع والبخور على نظام النصارى الكامل. ففعل بحيث يبصرهم، ويباهى فى كرامته وحزن عليه حزناً شديدا. ومات بعد عشرين شهرا من وفاة سلمويه.

٥ــ يوحنا بن ماسوية:

طبيب ستة من خلفاء المسلمين.

خدم بالطب لكل من هارون الرشيد، وابنيه الأمين والمأمون، كما خدم المعتصم والواثق والمتوكل. **وورد عنه فى كتاب " عيون الأبناء فى طبقات الأطباء" ما يأتى:**

قال عنه ابن أبى اصيبعه :

"كان طبيبا ذكيا فاضلا، خبيرا بصناعة الطب وله كلام حسن وتصانيف مشهورة، وكان مبجلا محظياً عند الخلفاء والملوك".

وقال عنه سليمان بن حسان:

كان يوحنا بن ماسوية مسيحى المذهب، سريانيا، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة، مما وجد فى أنقره وعمورية وسائر بلاد الروم، حين سباها المسلمون. ووضعه أمينا على الترجمة. وخدم هرون والأمين والمأمون، وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل. وكان ملوك بنى هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته . . .

وقال اسحق بن على الرهاوى:

فى كتابه أدب الطبيب أن يوحنا بن زكريا قال إنه اكتسب من صناعه الطب ألف ألف درهم، وعاش بعد قوله ثلاث سنين أخر وكان الخليفة الواثق مشغوفا به وضنينا .

وقال يوسف بن إبراهيم:
كان مجلس يوحنا بن ماسوية أعمر مجلس كنت أراه بمدينة السلام لطبيب أو متكلم أو متفلسف، لأنه كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب وكان فى يوحنا دعابة شديدة يحضر بعض من يحضر من أجلها.
وكانت وفاة يوحنا بن ماسوية فى سنة ٢٤٣ هـ

الكتب التى أصدرها يوحنا بن ماسوية:

فهى عديدة، ذكر منها ابن أبى أصيبعة ٤٤ كتابا (ص ٢٥٥) من بينها :
كتاب فى الأغذية، كتاب فى الأشربة، كتاب فى القصد والحجامة، كتاب فى تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها وخاصة كل دواء ومنفعته، كتاب البرهان (ثلاثون بابا) ، كتاب فى السموم وعلاجها ، كتاب الماليخوليا وأسبابها وعلامتها وعلاجها ، كتاب تدبير الأصحاء ، كتاب علاج النساء اللواتى لا يحملن ، كتاب الجنين ، كتاب تركيب خلق الإنسان وعدد أعضائه ومفاصله وعظامه وعروقه ، كتاب جامع الطب مما اجتمع عليه أطباء فارس والروم كتاب ، المعدة ، كتاب القولون ، كتاب التشريح ، كتاب الصدر والدوار ، كتاب فى الجذام لم يسبقه أحد إلى مثله ، كتاب الحيلة للبرء ، كتاب دغل العين ، كتاب مجسة العروق ، كتاب الصوت والبحة ، كتاب محنة الطبيب ، كتاب النوادر الطبية ، كتاب مضار الأغذية.

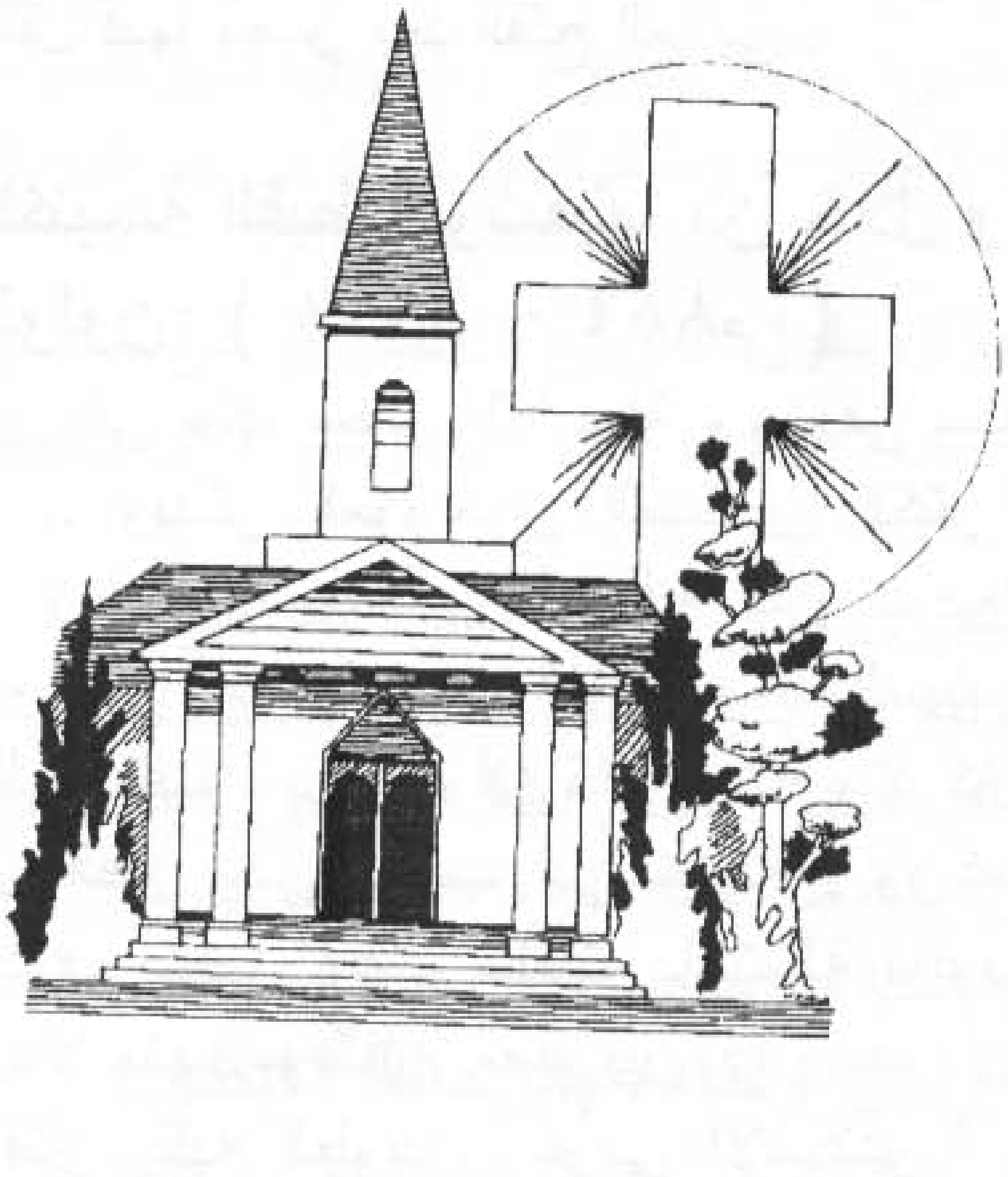

الباب السابع
الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الطولونية
ابتدأ من سنة (٨٧٠م - ٩٠٥م)
"الفصل الأول"
سياسة خلفاء الدوله الطولونية والأقباط

ظلت مصر خاضعة خضوعا تاما للخلافة العباسية طالما كانت الخلافة قوية الجانب. ولكن بدأ الضعف يدب فى جسم الخلافة أثناء النزاع بين الأمين وأخيه المأمون ابنى هارون الرشيد، وما لبث هذا الضعف أن وضح بعد أن استعان الخليفة العباسى المعتصم - الذى كانت أمه تركية - بالأتراك فى حكم الدولة.

وكان من هؤلاء المماليك الأتراك طولون (أبو أحمد بن طولون) ، أهداه والى بلاد ما وراء النهر (والى بخارى) للخليفة المأمون سنة ٨١٥ م وقد تحكم هؤلاء الأتراك فى شئون الدولة المدنية والحربية . حتى أصبح بيدهم - منذ خلافة المتوكل على الله (٨٤٧ م- ٨٦١م) ـ انتخاب الخلفاء وعزلهم . لذا نجد النزعة إلى الاستقلال تظهر فى مصر بوضوح أثناء النزاع بين الأمين والمأمون.وقد حكم مصر منذ سنة ٨٥٦ م حكاما من الأتراك .

قدم أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٨٦٨ م من قبل الأمير باكباك **Bakbak** (صاحب إقطاعها وكان له من العمر ٣٣ سنه) . ووجد الخلافة ضعيفة، فما لبث أن تحدى سلطة الخلافة، وأستقل بمصر استقلالا فعليا فى واقع الأمر .. بل أكثر من هذا ، فقد نجح فى ضم سوريا إلى مصر ، وفى تأسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ سنة . وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر بعد الفتح العربى.

ويمكن دراسة أحوال الكنيسة القبطية وشعبها من خلال ولاتها كالأتى:
أولا: عصر أحمد بن طولون: (٨٦٨م - ٨٨٤م)

١ـ استمر احمد بن طولون فى حكم مصر ١٦ سنة ، وتوفى سنة ٨٨٤ ، ولم يكمل الخمسين سنه من عمره .. ويذكر المؤرخون المسلمين الكثير عن تقواه وفضله ومحبته للصدقة ، وعدله ، لكنهم يجمعون على أنه كان سريعا جدا إلى استخدام السيف .. وقيل أنه قتل ١٨٠٠٠ (ثمانية عشر ألفا) سواء بالسيف أو موتا فى السجن .. كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، بل قيل أنه كان يرتله ، إذ كان ذا صوت رخيم ، تعلم القرآن والفقه وأصول الدين على مذهب أبى حنيفة . ورغم أنه تركى فما أن تولى زمام الحكم حتى أخذ فى تثبيت دعائم سلطته باستمالة القلوب إليه ، فخلع جباه الضرائب الدخلاء وعين بدلا منهم موظفين مصريين .. ويبدو أن مثل هذه المعاملة العادلة لم تعجب الجميع فثار عليه العلويين غربى الإسكندرية سنة ٨٦٩ م. ولما خمدت ثورتهم أشعلها بقيتهم فى منطقة أسنا بصعيد مصر. لكن أبن طولون نجح فى الحالتين وقضى على الثوار .

٢ــ ويذكر عنه أنه وجه عنايته إلى الشعب المصرى فمنح الجميع الحرية فى ظل القانون وهكذا أتاح الفرصة للقبط لمزاولة شعائرهم الدينية وبناء الكنائس والأديرة . ومباشرة أعمالهم التجارية والزراعية والصناعية ، فعم البلاد هدوء شامل ، وأستتب الأمن .[١١٦]

٣ــ وعلى الرغم مما يذكره المؤرخون عن عدله ، فهناك نقطة موضع تساؤل الباحثين ... هذه النقطة هى أن أحمد بن طولون ، رغم قصر المدة التى قضاها فى حكم مصر (١٦ سنه) ، فقد أقام من العمائر الشئ الكثير :

بناء مدينة القطائع ومسجد ابن طولون:

ففى سنة ٨٧٠ م أسس مدينة جديدة (عاصمة) سميت " **القطائع** " وأقام بها قصرا فخما لنفسه ، كما أسس مسجده المشهور الذى يحمل أسمه (لم يبدأ فى بنائه قبل ٨٧٦/ ٨٧٧) . وأستغرق بنائه سنتين وأقام إلى جواره دار الإمارة، وهو فى سبيل ذلك أمر بحرث قبور اليهود والنصارى وأختط موضعها مبنى القصر والميدان وبنى أتباعه بيوتهم حوله.[١١٧]

فمن أين أتى أبن طولون بالأموال الضخمة التى أنفقها فى إقامة هذه المنشآت خاصة المسجد الضخم ؟

لقد شك معاصرو ابن طولون من المسلمين فى مصدر هذا المال، لهذا السبب قال الناس بعدم جواز الصلاة فى مسجده لأنهم لم يعرفوا أصل هذا المال أو مصدره .. ولكى يريح أبن طولون المسلمين جمع الناس والقى عليهم خطبة أقسم فيها أن ذلك الجامع بنى بأموال حلال وليس بأموال مسروقة من الكنائس.

ومما هو جدير بالذكر أنه قد أشيع فى ذلك الوقت أن ابن طولون عثر على كنز أستخدمه فى بناء الجامع .. ورغم كل هذه المنشآت فى فترة وجيزة فقد ترك ابن طولون فى خزائنه عشرة مليون دينارا والسؤال الذى يطرح نفسه ، من أين كل هذه الأموال التى بنى بها العمائر ، وخلفها بعد موته فى خزائنه ؟

وأجابه على هذا السؤال يقول المؤرخ الانجليزى عن مصدر هذه الأموال " إنه أكثر من محتمل أن احمد بن طولون كان من وقت لآخر يفرض غرامات باهظة على بطريرك الأقباط.[١١٨]

٤ــ كما يسجل البلوزى الذى كتب " سيرة أبن طولون " – والذى يبدو أنه عاصر ذلك العهد أن ابن طولون لم يكن يعامل جميع طبقات الشعب على قدم المساواة . فكان يفضل الأتراك الذى هو منهم – على بقية المسلمين ، والملكيين (الروم الخلقيدونيين) على سائر النصارى . ونعلم مما ذكره المؤرخ البلوزى أن ابن طولون كان يتردد على دير القصير ويعتكف فى صومعة من صوامعه للتأمل.

٥ــ احمد أبن طولون ولقاءه بالرحالة القبطى:

ويخبرنا المسعودى فى كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر أن أحمد بن طولون علم فى سنة ٨٧٣/٨٧٤ م أن رجلا قبطيا بصعيد مصر له من العمر مائة وثلاثين سنه .

عرف عنه العلم الواسع والإطلاع الكبير ، وأنه ساح فى بلدان عديدة وشاهد المماليك ووعى الكثير من المعارف ومصدره ولاسيما عن مصر ونيلها ، فأمر بإحضاره فحملوه إليه فإذا هو رجل تبدو عليه دلائل الشيخوخه لكن لا تزال حواسه سليمة وعقله صحيحا ، وعلم أحمد ابن طولون منه أن سر صحته يرجع إلى اعتداله فى مأكله ومشربه طوال حياته وانه لم يشرب الخمر ولا يكثر فى أكل الطعام ولا يلبس إلا البسيط من الثياب .. وأنه كان يحرص على نظافة بدنه ولا يميل مع شهوات نفسه . ولما أراد أن يحمله على تناول شئ من لذيذ المأكل والمشرب أبى .. سأله عن منابع النيل فقال " أعتقد أن منابع النيل مستقرة فى قمم الجبال الشامخة حيث توجد بحيرة واسعة وحيث يستوى الليل والنهار على مدار السنة . وقد أطلق العلماء على هذه المنطقة أسم " الخط المستقيم " .. والمقصود بذلك خط الاستواء.

وقد أعجب أبن طولون بأجوبة هذا الشيخ القبطى وبسعة معلوماته فأذن له بالعودة إلى بلاده .. والعجيب أن الباحثين الأوروبيين لم يعرفوا منابع النيل إلا بعد ذلك بنحو تسعة قرون.

٦ـ مساوئ أحمد بن طولون وسطوته :

(أ) على الرغم أن أحمد بن طولون لم يفرض ضرائب جديدة على القبط إلا أنه أستغل وشاية ضد البابا خائيل الثالث البطريرك الـ ٥٦ (٨٨٠ م - ٩٠٧ م) فاستدعاه وحتم عليه بدفع عشرين ألف دينار . فأدى هذا التعسف إلى توتر العلاقات بينهما ، وبخاصة لأن أبن طولون - حين وجد البابا الإسكندرى عاجزا عن دفع هذه الضريبة الفادحة - ألقاه فى السجن دون تردد .

ويروى المقريزى " الكاتب المسلم " أن الأنبا ميخائيل عن طريق أحد الكتاب وأبنه أستطاع الخروج من السجن بعد أن ضمناه - وأضطر البابا ميخائيل إلى بيع عقارات وقف كنائس الإسكندرية ، وبيع كنيسة لليهود بقصر الشمع المجاور للكنيسة المعلقة (ومازالت فى أيديهم إلى اليوم) ، كما باع لليهود أيضا قطعة من الأرض (بأرض الحبش) وهى التى يستخدمها اليهود إلى اليوم مقابرهم شرقى منطقة البساتين، وظل البابا فى ضيق شديد.

وبارشاد من الله قصد مدينة تانيس (اندثرت ومكانها بحيرة المنزلة غربى قبلى بورسعيد) ليأخذ شيئا من صدقات النصارى هناك . وبعد أن أقام بتانيس يوما واحدا أحضر إليه جماعة ليتباركوا منه ويستفسروا عن أحواله ، وإذا راهب مستور الوجه نحيف الجسم غريب المنظر ،بعد أن دخل وسط الجموع لأخذ بركة البطريرك ، جلس إلى جانب التلاميذ وقال لأحدهم لماذا أبونا البطريرك قلق بسبب ما هو مطلوب منه ... أمضى إليه وقل له بعد أربعين يوما يمزق الرب الصق الخاص به ولا يطلب منه مال بل يترك له " فتقدم التلميذ وأعلم البطريرك وطلب هذا الراهب ، لكنهم لم يجدوه فى المدينة كلها، وبحثوا عنه حتى فى البلاد المجاورة فلم يجدوه ..

وفى تمام الأربعين يوما مات أحمد بن طولون فى ١٠ مايو سنة ٨٨٤ م وجلس ابنه خماروية موضعه ، وعندئذ أخرج الوزير أحمد بن على الماذرائى الصك وسلمه

ليوحنا المليجى كاتبه ، وأحضر البطريرك من تانيس . ونزل فى بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع حيث كان يقيم أولا وأحضر الأراخنة عنده ، وأحضروا الصك فمزقه بيده ، " وعاد إلى قلايته يمجد الله "

(ب) كما لا ننسى أن البابا شنوده الأول(البطريرك الـ ٥٥) قد حلت به متاعب كثيرة فى عصر احمد ابن طولون بسبب بعض الوشايات الكاذبة المغرضة من بعض أولاده الخارجين والحاقدين وضعيفى الإيمان.

+كما ذكر القس منس يوحنا أن ابن طولون ظن أن الأقباط أغنياء فزاد عليهم الضرائب وعمل على نهب أموالهم.[١١٩]

(ج) قتل سعيد بن كاتب الفرغانى:

مهندس قبطى ظهر أسمه فى عهد الطولونيين .. وغالبا ما ينسب إلى ناحية فرغان بمركز ديرب نجم بمحافظة الشرقية ، أو إلى مدينة الفراجون التى اندثرت ومحلها اليوم مدينة سيدى سالم بمحافظة كفر الشيخ .. أول ما نسمعه عنه أنه تولى عمارة مقياس النيل فى جزيرة الروضة سنة ٨٦٤ م بعد أن أمر بعمارته الخليفة العباسى المتوكل .. ولما تولى أحمد بن طولون حكم مصر عهد إليه ببناء أهم منشآته ، فبنى له أولا قناطر بن طولون وبئره عند بركة حبش لتوصيل الماء إلى مدينة القطائع بين عامى ٨٧٢/٨٧٣ م ..

ويقول المقريزى " والذى تولى لأحمد بن طولون بناء هذه العين رجل نصرانى حسن الهندسة ، حاذق بها ، وأنه دخل إلى أحمد بن طولون فى عشية يوم ما وقال له إذا فرغت مما تحتاج إليه فأعلمنى لنركب إليها فنراها . فقال يركب الأمير إليها فى الغد فقد فرغت ، فتقدم النصرانى فرأى موضعا بها يحتاج إلى قصرية جير وأربع طوبات ، فبادر إلى عمل ذلك . وأقبل احمد بن طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها . ثم أقبل إلى الموضع الذى فيه قصرية الجير ، فوقف بدون قصد عليها ، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فوقع أحمد . ولسوء ظنه اعتقد أن ذلك لمكروه أراده به النصرانى . فأمر بخلع ما عليه من الثياب وضربه خمسمائة سوط ثم أمر أن يلقى به فى السجن ، وكان المسكين يتوقع الجائزة بدل ذلك دنانير ، فاتفق له اتفاق سوء ".[١٢٠]

بعد ذلك فكر أحمد ابن طولون فى بناء جامع يكون أعظم ما بنى من المساجد فى مصر ويقيمه على ثلاثمائة عمود من الرخام .. فقيل له لا تجدها إلا فى أبنية الكنائس. فرفض ذلك ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر فى أمره.

ويذكر القس منس يوحنا فى كتابه " تاريخ الكنيسة القبطية " فى هذا الصدد

"إن احمد ابن طولون كان يسمع القرآن فى أحد الأيام وعلم بعدم جواز استعمال أدوات مسروقة فى بناء الجوامع فشق ثيابه وصاح قائلا " أنه يستحيل علىّ تشييد الجامع بدون نهب مواده من الكنائس على الرغم أننى ما سمعت من يوم وجودى أن جامعا بنى دون أن تؤخذ أعمدته من كنائس المسيحيين ،وحيث أنه لا يمكننى إلا مخالفة هذا الأمر فسوف أخالفه وأستغفر ربى عن هذا الذنب إن لم يكن بناء الجامع كافيا للغفران".[١٢١]

ولما سمع سعيد بن كاتب الفرغانى وهو فى السجن ماكان من رغبة ابن طولون وتردده كتب إليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا أعمده إلا عمودى القبلة . فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه . فقال له ويحك ما تقول فى بناء الجامع ، فقال أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا أعمده إلا عمودى القبلة . فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار . فقال له أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أعطيناه لك . فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه وهو جبل شكر . فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبنى إلى أن فرغ من جميعه وبيّضه .. فلما كان أول جمعه صلاها فيه أحمد بن طولون وفرغت الصلاة .. فلما أراد الانصراف .. صعد النصرانى الذى بنى الجامع .. وصاح يا أحمد بن طولون يا أمير الأمان عبدك يريد الجائزة ويسأل الأمان أن لا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرة الأولى؟

فقال له أحمد بن طولون انزل فقد أمنك الله ولك الجائزة فنزل وخلع عليه ، وأمر له بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع إلى أن مات ".١٢٣

ويشهد جامع ابن طولون بعبقرية هذا المهندس القبطى .. وقد بدئ بناؤه فى ٨٧٧/٨٧٦ م وأستغرق سنتين . وترى العقود المدببة فى الجامع قبل أن يعرف استخدامها فى انجلترا بقرنين على الأقل.١٢٤

وفيما يختص بما أنتهى إليه أمر هذا المهندس القبطي، فإن مصادر أخرى تروى أن أبن طولون عرض عليه اعتناق الإسلام فأبى وتمسك بإيمانه المسيحى فقطعت رأسه ومات شهيدا.١٢٥

كلمة حق ينبغى أن تقال :

رغم كل ما سبق فقد ذكر عن أحمد بن طولون إنه كان كثيرا ما يتردد على دير القصير (دير ملكانى شرقى طره واندثر) ويعتكف فى صوامعه للتأمل. وقد استفاد الرهبان من هذه العلاقة فعندما تقدموا إليه بالشكوى من ثقل الجزية المفروضة عليهم منحهم بعض الامتيازات وكف ايدى رجاله عنهم .

ثانيا: عصر خمارويه بن أحمد بن طولون (٨٨٤ م - ٨٩٥ م)

١ــ صداقة أنبا باخوم أسقف طما مع خمارويه :

وفى عهد ابنه خمارويه زاد التعاطف مع المسيحيين وحذا حذو أبيه بالتردد على دير القصير .. وجاء فى تاريخ البطاركة أن خمارويه كان صديقا للأنبا باخوم أسقف طما ، بل أن خمارويه كان قد ائتمنه على الدفاع عن حدود مصر الغربية فى منطقته . وكان الأسقف أهلا لهذه الثقة فعين ثلاثمائة جندى يحسنون الرماية بالنشاب لهذه الحراسة .. كما أعد لهم معديات"معابر" فى عدة نقاط لسهولة الانتقال من ضفة إلى أخرى. وعين لهم أوقات الحراسة بالتناوب حتى يكون على أهبة الاستعداد لمراقبة أى تحركا للعدو .

٢ـ سياسة بطريرك الإسكندرية الخلقيدونى وعزله:

وقد أشرنا تفضيل أحمد بن طولون للملكيين وكذا ابنه خمارويه على سائر النصارى. ومن هنا استطاع الخلقيدونيين أن يقيموا لهم أسقفا نصبوه بطريركا للإسكندرية بعد أن ظلوا قرنين كاملين من الزمان عاجزين عن إقامة بطريرك لهم.
ولاشك أن الكنيسة القبطية استراحت مدة هذين الواليين من أعمال الشغب وقد استطاع الأنبا باخوم أسقف طما وصديق خمارويه أن يقنعه أن إقامة بطريرك للخلقيدونيين لن يخدم مصر، إذ من المحتمل أن يكون هذا البطريرك الدخيل جاسوسا لصالح الإمبراطور البيزنطى ويكون هذا تمهيدا لغزو جديد للبلاد .. سر خمارويه من وطنية وإخلاص أسقف طما وخوله حق الذهاب إلى الإسكندرية واتخاذ ما يراه صالحا للبلاد وللأقباط .. فأخذ الأسقف رسالة من خمارويه إلى والى الإسكندرية. وهناك نجح فى خلع الأسقف الخلقيدونى وستة من أساقفته.

٣ـ لى النقمة أنا أجازى يقول الرب:

فتح عينى جسد القديس أبو مقار

لما سمع خمارويه بخبر وادى النطرون سار إليه، ودخل إلى بيعة القديس أبو مقار ونظر جسده المقدس وسأل عنه، فقيل له هذا جسد صاحب هذه البيعة فأمر بحله من كفنه، وأمسك شعر لحيته، ففتح القديس عينيه فى وجهه فوقع على ظهره، وظل ساعة مغشيا عليه لا ينطق فحملوه إلى خيمته، وأخذوا من زيت قنديل أبو مقار ومسحوا به جبينه ..

خروج يد الأمير تادرس:

وحدثت آية أخرى مع خمارويه فى هذه البيعة، ففيما هو يجتاز الباب، أبصر صورة الشهيد تادرس وهى تنظر إلى الغرب وكان فى يد خمارويه حزمه ريحان فرمى بها الصورة، قال خذها يا فارس الشجعان فخرجت يد من الصورة وأخذت حزمة الريحان ، وظلت فى يده حتى أبصرها كل أحد فخاف خمارويه بن أحمد بن طولون جدا وبهت من هذه العجائب وأمر أن تعمل علامة فى تلك الصورة تسجيلا لم حدث ، فصوروا فى يده صليب آخر .. ويبدو أن هاتين المعجزتين جعلتاه يراعى النصارى ولاسيما الأساقفة والرهبان.[١٢٥]

٤ـ خمارويه ودير القصير:

وكان خمارويه يتردد على دير القصير بالجبل الشرقى (شرقى طره) ، وكان يعجب بصورة للسيدة العذراء حاملة المسيح والملائكة عن يمينها ويسارها وصور التلاميذ الاثنى عشر . وبنى خمارويه فى أعلا الدير غرفة ليقيم فيها جعل لها أربعة طاقات إلى أربع جهات.[١٢٦]

مما هو جدير بالذكر أنه يرجح أن هذا الدير هو دير القديس يحنس القصير وبناه اركاديوس الإمبراطور ابن ثيؤدوسيوس فوق قبر معلمه أرسانيوس – والتسمية القصير نسبة إلى يحنس القصير.

٥ــ نهاية خمارويه :

اغتيل خمارويه فى أثناء زيارته لدمشق سنة ٨٩٥ م بسبب مؤامرات الحريم، ذلك أن خمارويه رغم عدالته وهمته كان ولوعا بالنساء، فجمع العديد منهن فى قصوره الباذخة، ويبدو أن الحسد أكل قلوب البعض منهن فتأمرن على قتله. وكان حادث اغتيال خمارويه بداية سلسلة من الاغتيالات والمؤامرات والإضطرابات.

ثالثا: حالة الكنيسة بعد مقتل خمارويه: (٨٩٦ م – ٩٠٥ م)

١ــ معاناة الأقباط فى هذه الفترة :

بوفاة خمارويه أوائل سنة ٨٩٦ م أخذت الدولة الطولونية فى الضعف والانحلال وتولى زمامها أفراد من البيت الطولونى تعوزهم الحنكة السياسية .. فبعد خمارويه تولى أبنه أبو العساكر حبش (٨٩٥ – ٨٩٧) فلم يرض عنه الجند وخلعوه.

تولى بعده أخوه أبو موسى هارون (٨٩٧ – ٩٠٥) وهو فى الرابعة عشرة من عمره، فلم يكن يصلح بطبيعة الحال للولاية ..

وإذ بدا واضحا ضعف الطولونيين بعث الخليفة العباسى المكتفى بقائده محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر. فهزم الأسطول المصرى وفر هارون بن خمارويه حيث قتله عماه شيبان وعدى. لكن الجند لم يرضوا عن عمليهما.

ولما عين شيبان واليا على مصر، رفضوا الاعتراف به وكاتبوا محمد بن سليمان، فنزل الفسطاط ومنها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٩٠٥ م وأشعل فيها النار فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين، وهكذا قضى على الدولة الطولونية وخربت القطائع ولم يبق منها غير مسجد ابن طولون. وقد نال الأقباط من ذلك شدائد كثيرة نتيجة نهب جنده بعض المدن واستباحتهم المحرمات.

٢ــ رغبة بغداد فى القضاء على الأسرة الطولونية :

فلقد ساد البلاد المصرية حالة من الاضطراب والفوضى لأكثر من سبب فابن خمارويه الأكبر عند مقتل أبيه كان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره. وهيهات فى هذه السن إمكانية تحمل المسئولية، فضلا عن أنه نشأ مدللا. وثمة سبب ثان هو أن حكومة الخلافة فى بغداد كانت تريد القضاء على الأسرة الطولونية لما أحرزته من نفوذ وثروة.

٣ــ كلمة حق ينبغى أن تقال :

ولم يقتصر غضب حكومة الخلافة ببغداد على الطولونيين وحدهم، بل أمتد إلى المصريين فضاعفت الضرائب عليهم .. وذكر المقريزى أن الوزير على بن عيسى وفد إلى مصر وقرر فرض ضرائب على الأساقفة والرهبان والعجزة من الأقباط. فذهب وفد قبطى إلى بغداد وقدموا التماسا إلى الخليفة بإعفائهم، وبالفعل قبل التماسهم وبعث برسالة إلى وزيره فى مصر يخبره فيها بما قرره. وأن يعامل النصارى بالرفق واللين ويراعى العهود والمواثيق التى بأيديهم، لاسيما أرباب الكهنوت والرهبان والفقراء.

الباب الثامن
الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الإخشيدية
ابتداء من سنة (٩٣٥ م - ٩٦٩ م)
"الفصل الأول"
أحوال الكنيسة القبطية وملامحها

يمكن دراسة أحوال الكنيسة القبطية وملامحها فى عصر الدولة الإخشيدية بفحص هذه النقاط التالية:

١ـ وبسقوط الطولونيون سنة ٩٠٥م عادت مصر إلى عهد التبعية المطلقة للعباسيين لكن الاضطرابات الداخلية لم تتوقف بسبب ضعف الخلفاء العباسيين .. وظل الأمر كذلك حتى قيام الدولة الإخشيدية بعد ثلاثين سنة (٩٣٥ - ٩٦٩ م).

٢ـ وعلى وجه العموم لم يشر المؤرخون المسيحيون إلى تسامح الإخشيديين، مثلما أشاروا إلى تسامح الطولونيين بل أنهم يتهمون محمد بن طفح الاخشيدى مؤسس هذه الأسرة أنه حينما عجز عن دفع مرتبات الجند، أضطهد الأقباط وابتز منهم أموالا كثيرة مما أضطرهم إلى تصفية بعض ممتلكات الكنائس .. لكن يبدو أن هذه الضغوط كانت عامة.

فيذكر تاريخ البطاركة سيرة أنبا مينا الثانى(البطريرك الـ ٦١)(٩٥٦ - ٩٧٤) أنه حدث غلاء شديد فى مصر أستمر سبع سنين متوالية بسبب نقص فيضان النيل ثلاث سنوات متوالية بالإضافة إلى هجوم النوبيين على مصر ..

" وكان غلاء عظيم فى جميع أرض مصر حتى أن كورة مصر خلت من الناس لكثرة الموت والجوع الذى كان. وخربت عدد من كراسى الأساقفة لخلوها من الناس. ولم يقم لها أساقفة، بل أضيفت إلى الكراسى العامرة المجاورة لها ."

٣ ـ تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف فى كتابها (مصر فى عصر الإخشيديين) .. ولا نسمع فى العصر الاخشيدى شيئا عن التزام أهل الذمة بالقوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى اللباس والركوب ... وكانت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة فى العصر الاخشيدى طيبة فى معظم الأحيان.

كانت المشاغبات بين الفريقين تنشأ حين يقصد الشعب أن يحارب سيطرة أهل الذمة على الشؤون المالية فى البلاد. وحين ينتصر البيزنطيون على المسلمين فى أطراف الشام، وحين يحتج المسلمون على السماح للمسيحيين بتعمير الكنائس. ومن ذلك ما يروى عن هياج العامة وتخريب الكنائس فى مصر حين ورد الخبر بأن البيزنطيين دخلوا الشام سنة ٩٦٠م وقتلوا وخربَوا. ولما غزا الإمبراطور البيزنطى نيقيفور فوكاس جزيرة اقرطيش (كرسيت) فى العام التالى وخرَب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقا كثيرا. ووصل خبر ذلك إلى مصر، فثار العامة وخربَوا إحدى الكنائس فى مصر القديمة.[١٢٧]

٤ــ كلمة حق ينبغى أن تقال:

نعم لقد تخللت حكم كافور الاخشيدى حروب شنها الإمبراطور البيزنطى " نيقيفور فوكاس " على حدود سوريا الشمالية فأصاب فيها نصرا كبيرا .. لكن من الإنصاف القول أنه بالرغم من أن الأغلبية فى مصر كانت تحقد على هذا العمل كل الحقد .. وبالرغم من أن الشعب كان يثير الشغب بعد كل موقعه يشترك فيها البيزنطيون ، ويهاجم النصارى ويضرب بعض كنائسهم ، إلا أن هذه المظاهرات لم تشجعها السلطات الحاكمة التى كانت تلجأ فى الحال إلى القوة لإخمادها .. بل على العكس أصدر الخليفة سنة ٩٥٢ م مرسوما لتهدئة النفوس فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية أعلن فيها رفع الجزية عن الأساقفة والرهبان والعلمانيين المعوزين.

ويؤكد هذا الكلام ما ذكره المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول من أن المصريين ظلوا على ولائهم لكافور الإخشيدى، حتى فى الوقت الذى أغار فيه النوبيون على مصر، وذلك لما أمتاز به من عدل وإنصاف جعله يسوى بين رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

بالإضافة إلى ذلك كان الوزير المقرَب إلى كافور الإخشيدى حاكم مصر قبطيا أسمه أبو اليمن قزمان بن مينا الذى ظل فى الوزارة طيلة حكم كافور.

ومن أعظم الأدلة على إنصاف كافور وتقديره للكفاءات بغض النظر عن دين أصحابها أن عمال الترسانات والمراكب كانت غالبيتهم من القبط وكان القداس الالهى يقام رسميا لهم على المراكب.

كذلك كانت الاحتفالات بالأعياد المسيحية تقام بصورة رائعة على شاطئ النيل. كما كانت المراكب الخاصة بها تسير فى الميادين العامة والشوارع الرئيسية ويذكر أن محمد بن فاضل الإخشيدى كان يشترك مع الأقباط فى احتفالاتهم بعيد الغطاس ويجلس فى جزيرة بالنيل وحوله ألف قنديل.[١٢٨]

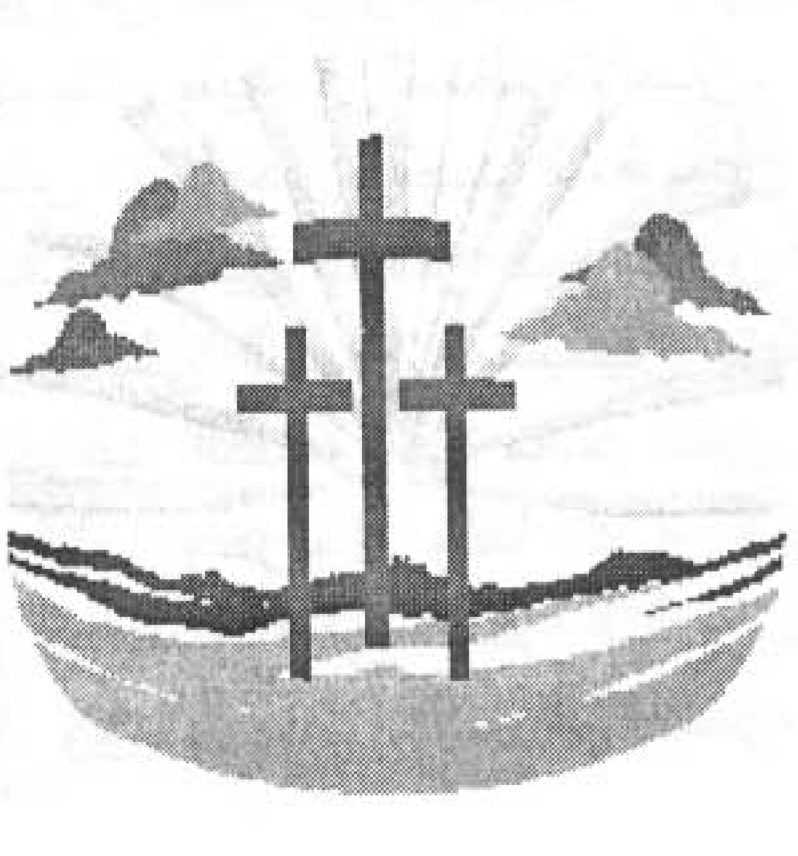

" الفصل الثانى "

أشهر العلماء الأقباط فى عصر الدولة الإخشيدية

١ــ أبو المكارم:

وهو الشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود زوج السيدة جليلة ست الدار بنت أخى سيف الدولة. وقد كان من أفاضل القبط ومؤرخيهم.

٢ــ ساويرس ابن المقفع(فى عصر الدولة الإخشيدية والدول الفاطمية):

هو من أعظم الشخصيات الذين أنجبتهم الكنيسة القبطية فى القرن العاشر الميلادى، ولد نحو سنة ٩١٥ م من والد لقب بالمقفع (معناه المنكس الرأس دائما أو من كانت يده متشنجة) .. وقد كان ساويرس هو أول من نشر كتبا مسيحية باللغة العربية .. أهتم بجمع سير البطاركة السالفين وقد جمعها من المخطوطات القبطية واليونانية بدير أبى مقار بوادى النطرون ودير نهيا قرب الجيزة (اندثر). وقد أتم هذا الكتاب وهو فى سن الثمانين.

وكتبه تدل على معرفته للفلسفة اليونانية والإسلامية. فلا يوجد مصنف من مصنفاته إلا وفيه رد فلسفى دقيق، كما كانت له دراية بالطب والفلك.

تدرج فى وظائف الدولة فى عصر الإخشيديين حتى أصبح كاتبا ماهرا. وكان يشترط فى كاتب الدواوين إلماما باللغة العربية. وعلى ذلك فقد كان ملما بالعربية إلى جانب القبطية واليونانية. وكانت وظيفة الكاتب شريفة جدا .. وعرف ساويرس فى ذلك الوقت باسم أبى البشر بن المقفع الكاتب". وهذه الكنية لا تعنى أنه أنجب ولد اسماه بشر. وإنما تدل على أنه كان شخصا معتبرا ومبجلا على نحو ما جرت عليه العادة فى ذلك الوقت.

وبعد أن وصل أبو البشر إلى أعلا المناصب ترك مجد العالم وتخلى عن وظيفته وترهب فى أحد الأديرة التى نجهلها. ولا شك أنه استفاد من فترة ترهبه ليكمل تكوينه الدينى وكان هذا التكوين يعتمد أساسا على قراءة الكتاب المقدس ومؤلفات الآباء. وقد تفوق أبو البشر فى كليهما.

سيامته أسقفا:

اختير أسقفا على مدينة الاشمونين (كانت أسقفية عظيمة مزدهرة بالكنائس والأديرة. ذكرت فى جداول الاسقفيات منذ القرن الرابع المسيحى تحت أسم هرمو بوليس الكبرى) وهى الآن قرية تابعة لمركز الروضة محافظة أسيوط شمال غربى ملوى .. ولا يعرف من من البطاركة رسمه أسقفا، لكن يحتمل أن يكون قد رسم بيد أنبا مقارة البطريرك الــ ٥٩ (٩٣٢ – ٩٥٢)

مناظراته ومجادلاته مع أئمة المسلمين:

من الأمور التى أشتهر بها مجادلاته مع أئمة المسلمين فى عصره......جرت له مناظره قبل سنة ٩٥٥ مع أحد علماء الإسلام. فدون ساويرس مناقشته هذه عن الثالوث القدوس فى " **كتاب المجالس** " وللأسف الشديد فقد هذا الكتاب . وقد علمنا

بهذا الكتاب حينما أشار هو إليه فى كتابه " **تفسير الأمانة** " ، حينما أراد أن يرفع عن المسيحيين تهمة تحريف كتابهم المقدس ويعتبر ساويرس بن المقفع - بلا منازع - أكبر عالم دين ولاهوتى مسيحى فى القرن العاشر الميلادى كله .. كان صديقا للبابا إبرام بن زرعة السريانى. البطريرك الـــ ٦٢ . كما كان يتردد على بلاط المعز لدين الله الفاطمى، الذى كان يدعوه للمناظرة مع أئمة المسلمين واليهود فى حضرته .. وكان ساويرس يتفوق عليهم بقوة حجته وفرط ذكائه .. وبسبب توقد ذكائه وعلمه كان له علاقة طيبة مع كبار علماء المسلمين، وكان يمزج جلساته معهم بالمرح ...

ومن أمثلة مرحه وسرعة بديهته أنه كان جالسا عند قاضى القضاة، وحدث أن مر عليهم كلب. وكان يوم الجمعة، وكان هناك بعض الجالسين. فقال له قاضى القضاة " ما تقول يا ساويرس فى هذا الكلب هو نصرانى أو مسلم؟. فقال له إسأله فهو يجيبك عن نفسه. فقال له القاضى هل الكلب يتكلم؟. وإنما نريدك أنت أن تقول لنا؟. قال نعم يجب أن نجرب هذا الكلب وذلك أن اليوم يوم الجمعة، والنصارى يصومون ولا يأكلون فيه لحم والمسلمين لا يصوموه ويأكلوا فيه اللحم. فضعوا قدامه لحم فان أكل اللحم فهو مسلم، وإن لم يأكله فهو نصرانى. فلما سمعوا كلامه تعجبوا من حكمته وقوة جوابه وتركوه ".[١٢٩]

وبالإضافة إلى مناظره المسلمين فقد كانت له مناظرات مع اليهود. منها مناظراته مع موسى اليهودى التى تمت فى حضرة المعز لدين الله سنة ٩٧٥ م وقد رواها الشماس ميخائيل ابن بدير الدمنهورى فى كتاب " تاريخ البطاركة ".[١٣٠]

وهى مناظرة ظريفة .." كان موسى اليهودى صديقا ليعقوب بن كلس الوزير الذى كان يهوديا وأعتنق الإسلام .. وفى اليوم المحدد حضر موسى اليهودى والوزير بن كلس بحضرة الخليفة المعز فى قصره. فجلسوا وقتا طويلا وهم سكوت " فقال لهم الملك المعز تكلموا فيما اجتمعتم فيه . ثم قال تكلم يا بطريرك وقل لنائبك يقول مما عنده. فقال البطريرك للأسقف تكلم يا ولدى فان الله يوفقك . فقال الأسقف للمعز الملك ،لا يجوز أن يتكلم مع رجل يهودى جاهل بحضرة أمير المؤمنين . فقال له اليهودى أنت تعيبنى وتقول بحضرة أمير المؤمنين ووزيره أنى جاهل؟. قال له الأسقف أنبا ساويرس إذا ظهر الحق لأمير المؤمنين، ما يكون فيه غضب؟. قال الملك المعز ما يجوز أن يغضب أحد فى المجادلة، بل ينبغى للمجادلين أن يقول كل واحد منهم ما عنده ويوضح حجته كيف شاء. قال الأسقف ما أنا شهدت عليك يا يهودى بالجهل بل نبى كبير جليل عند الله شهد عليك بذلك. قال اليهودى : ومن هو النبى؟ . قال له هو أشعياء الذى قال فى أول كتابه عن " الله " عرف الثور قانيه والحمار عرف مذود سيده وإسرائيل لم يعرفنى " فقال المعز لموسى أليس هذا صحيح؟. فقال نعم هذا هو مكتوب. قال الأسقف أليس قد قال الله إن البهائم أفهم منكم ، وما يجوز لى أن أخاطب فى مجلس أمير المؤمنين دام عزه من تكون البهائم أعقل منه . وقد وصفه الله بالجهل. فأعجب الملك المعز بذلك وأمرهم بالانصراف واستحكمت العداوة بين الفريقين ، وقوى غضب الوزير وصار يطلب عثرة على البطريرك لأجل أنه فضح اليهود بين يدى الملك المعز ".[١٣١]

1 +٤ كتاب تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله رفيله ص ٣٨)
2 منسى يوحنا ــ كتاب تاريخ الكنيسة القبطية
3 (راجع أخبار مكة ج ١ ص ١٠٤ وتاريخ العرب – جواد على ج ٥ ص١٧٢)
4 (أبو سيف – الخراج ص ١٢٦ – الأهالى عدد ٤٩٩ – ١ مايو ١٩٩١)
5 ابن عبد الحكم "كتاب فتح مصر " ص ٣
6 (فتوح البلدان – للبلاذرى ص ١٠٢٩)
7 (الطبقات الكبيرة لابن السعد ج ٣ق ١ص ٢٤٦)
8 كتاب تاريخ الأمة القبطية "يعقوب نخله روفيله " ص ٣٨
9 (خطط المقريزى ص ٤٥)
10 كتاب فتح العرب لمصر (الفريد بتلر)
11 (كتاب الطبقات الكبيرة لابن السعد ج ٣ ق ١ ص ٢٤٦)
12 (أبو يوسف – الخراج – ص ١٢٦ – الأهالى – العدد ٤٩٩ بتاريخ ١ مايو ١٩٩١ د . رفعت السعيد)
13 (كتاب الطائفية إلى أين د . فرج فوده)
14 (كلمة قداسه البابا شنوده الثالث فى مؤتمر الوحدة الوطنية سنه ١٩٧٧)
15 ذكر ابن الحكم هذه المراسلات (فى صفحه ١٥٨ - ١٦٠) (من كتاب تاريخ مصر) كما ذكر فى صفحه١٤٦ أن للمؤرخ الانجليزى (لين بول) (طبع سنه ١٣٥٨ الجزء الثانى ص ١٩٨)
16 مروج الذهب للمسعودى الجزء الرابع (ص ٣٨٧) والحقيقة الغائبة للدكتور فرج فودة ص ٢٣
17 ابن خلدون
18 د.سعيد عبد الفتاح عاشور (أوربا فى العصور الوسطى) ج الطبعة السادسة
19 تاريخ البطاركة (ساويرس بن المقفع)
20 الفتح العربى لمصر (الفريد بتلر)
21 كتاب أقباط ومسلمون (د جاك تاجر) ص ٤٧
22 مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) ج ٢ البحث الثانى لجاستون فييت ص ١٢٩
23 تاريخ الأمة القبطية يعقوب نخلة رو فيلة ص ٥٣
24 تاريخ ص ٥٦٠ (يوحنا النقيوس)
25 وثيقتين برديتين للبروفسور جروهمان
26 كتاب أخبار مصر (للرحالة الفارسى عبد اللطيف البغدادى)+ كتاب مختصر تاريخ الدول(ابوالفرج بن العبرى)
27 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله ص ٥٣)
28 كتاب الفتح العربى لمصر (الفريد بتلر)
29 كتاب تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ١٩ (ستالى لينبول)
30 تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ١ ص ٢٤
31 .(من كتاب تاريخ القدس للمؤلف عارف باشا العارف ص ٤٨) .
32 السائح (اركولف) الذى زار القدس حوالى سنه ٦٧٠ م (كتاب القدس للأستاذ عارف باشا العارف)
33 (راجع الاستشراق ١٠٢)
34 كتاب أهل الذمة فى الإسلام" ٢٠٣ : ٢٠٤ (د . ترتون)
35 كتاب " صبح الأعشى " (للقلقشندى)
36 (ابن الحكم فتوح مصر وأخبارها)
37 فتوح مصر وأخبارها (لابن الحكم)
38 (دكتورة سيده كاشف ، مصر فى عصر الولاة" ١٢٢ - ١٢٣)
39 كتاب مصر فى عصر الولاة (د.سيدة كاشف)

40 (دكتورة سيده كاشف ٢١٢٣ - ١٢٨)
41 (سيده كاشف ١٢٩)
42 كتاب أقباط ومسلمون (د.جاك تاجر ص ٥٥ ، ٥٦)
43 (الكندى: لكتاب الولاية والقضاء، ابن عبد الحكم : سيره عمر بن عبد العزيز ، الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة صفحه ٣٢٦) .
44 طبع ببولاق سنه ١٣٠٢ ص ٧٢و ٧٣
45 يبدو أن مسألة الملابس هذه قد أخذت دورا هاما عند العرب ويقص علينا الكندى قصه قلنسوتهم كادت تنتهى بمأساة فقد لاحظ القاضى ابن أبى الليث أن القضاة التابعين له كانوا يبالغون فى تطويل قلنسوتهم فأمرهم بتقصيرها وأقسم أن تقطع رأس كل من يخالف هذا الأمر (كتاب الولاة والقضاة ص ٤٦٠ للكندى)

46 أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر ص ٥٨)
47 (أهل الذمة فى الإسلام صفحه ٢٠٧ - ٢١٠)
48 (أهل الذمة فى الإسلام صفحه ٢١١ - ٢١٦)

49 كتاب الهلال عدد فبراير سنه ١٩٧٩ بعنوان " الإسلام والوحدة الوطنية" للدكتور محمد عماره.
50 كتاب أهل الذمة فى الإسلام (د.ثرتون)
51 الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج٢ص١١٠ و ص ١١١
52 تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستانلى لابن بول (الطبعة الخامسة)ص ٢٦ قصة الكنيسة القبطية الجزء الثانى ص ٢٨٢ (د.ايريس حبيب المصرى)
53 الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ص ١١٠ ج٢
54 (مروج الذهب – المسعودى ج ٥ ص ٣٨١)
55 كتاب فتوح مصر لأبن عبد الحكم

56 "(الطبرى فى تاريخ البلاذرى " فتوح البلدان " - أقباط ومسلمون الصفحة ٧٩)
57 (أبو يوسف " الخراج " أقباط ومسلمون الصفحة ٧٩)
58 كتاب أقباط ومسلمون (د.جاك تاجر)ص ٧٥،٧٦
59 الخطط للمقريزى ج ١ ص ٧٧ ، ١٦٨"
60 كتاب أقباط ومسلمون (د.جاك تاجر)ص ٧٥،٧٦
61 كتاب الولاة والقضاة – عن أقباط ومسلمون ص ٩٣ (د.جاك تاجر)
62 كتاب تاريخ البطاركة ص ٣٢٤،٣٢٥(ساويرس بن المقفع)
63 تاريخ الأمة القبطية (ليعقوب نخلة رو فيلة)ص ٧٠ ، ٧١
64 ابن بطريق ص ٤١ - أقباط ومسلمين ص ٦٤ (د.جاك تاجر)
65 قصة الكنيسة القبطية . ج ٢ ص ٣٦٦ رقم ٤٦٧ (د.ايريس المصرى)
66 الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة (ص ١٢٣)
67 د.سيدة إسماعيل كاشف (مصرفى عصر الولاة(من ص ١٤-١٢١)
68 (تاريخ البطاركة ص ٢٧٩)
69 تاريخ البطاركة ص ٢٦٧ لساويرس بن المقفع
70 تاريخ البطاركة ص ٨.٣ و ٩.٣ (ساويرس بن المقفع)
71 (تاريخ البطاركة ٣٢٢ و ٣٢٣)
72 (تاريخ البطاركة ٣٣٢ - ٣٣٣)
73 (تاريخ البطاركة ٣٣٢ - ٣٣٣)
74 (البطاركة ٣٥٦ - ٣٥٧) .
75 تاريخ البطاركة ص ٣٧١ (ساويرس بن المقفع)

76 (سير البطاركة – ابن المقفع ص ١٥٤)
77 تاريخ الأمة القبطية ص ٧٥ (يعقوب نخلة رو فيلة)
78 (البطاركة ص ٤٢٠)
79 تاريخ البطاركة ص ٤١٤ – ٤١٦ (ساويرس بن المقفع)
80 (البطاركة ص ٤١٧ و ٤١٨)
81 تاريخ البطاركة ص ٤٢٢ (ساويرس بن المقفع)
82 تاريخ مصر فى القرون الوسطى (ستانلى لاين بول) تاريخ بطاركة الإسكندرية بن المقفع ج٣ ص ١٤٤ – ١٤٥
83 . (البطاركة ١٤٤)
84 (مصر فى عصر الولاة ص ١٢٣) .
85 كلمة قداسة البابا شنوده الثالث فى مؤتمر الوحدة الوطنية سنة ١٩٧٧
86 منسى يوحنا ــ كتاب تاريخ الكنيسة القبطية
87 السنكسار ص ٣٤١ + أقباط ومسلمون (د.جاك تاجر)
88 ميمر الأنبا يؤانس ــ السنكسار الجزء الثانى (١٢بشنس).
89 أوسيم مركز إمبابة بمحافظة الجيزة
90 (تاريخ المسيحية والحضارة العربية للأب الدكتور جورج قنواتى ص ١٤٨ – ١٤٩)
91 (قصة الكنيسة القبطية)ج٢ ص٤٠٨ رقم ٥١٧
92 تاريخ مصر فى القرون الوسطى (لستانلى لاين بوول) قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ٤٠٧ رقم
93 قصة الكنيسة القبطية ج ٢ رقو ٤٧٦ ص ٣٧٣ _د.ايريس المصرى)
94 تاريخ الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا ص ٤١٠
95 المقريزى الخطط ج ظ ص ٧٤
96 الكندى ص ١٣١،١٣٢
97 قصة الكنيسة القبطية ب٢ رقم ٥٠٨ ص ٤٠١ (د. ايريس المصرى)
98 تاريخ الكنيسة القبطية (للقس منسى يوحنا)ص ٣٩٠
99 تاريخ الكنيسة القبطية (للقس منسى يوحنا) ص ٣٩٠
100 تاريخ الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا ص ٤١٩ – ٤٢١
101 تاريخ البطاركة (ساويرس بن المقفع) ص ٦٢٦ – ٦٢٨
102 تاريخ الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا ص ٤٢١ ، ٤٢٢
103 (البطاركة ٤٤٢)
104 (تاريخ البطاركة ٦٠٠ ، ٦٠١)
105 (تاريخ البطاركة ٦٣٣ – ٦٣٦)
106 قصة الكنيسة القبطية : جــ ص ٤٠٤ رقم ٥١٣ (د. أيريس المصرى)
107 قصة الكنيسة القبطية : جــ ص ٤٠٤ رقم ٥١٣ (د. أيريس المصرى)
108 تاريخ. الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا ص ٤١٠
109 تاريخ الكنيسة القبطية " للقس منسى يوحنا " ص ٤١٩
110 الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة جــ ٢ ص ١٩٣
111 الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة جــ ص ١٩٥
112 كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٠٤
113 كتاب الخريده النفيسة فى تاريخ الكنيسة جــ ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩
114 كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج٢ ص ١٩٨،١٩٩
115 الخليفة العباسى . أسس بغداد وجعلها عاصمته توفى سنة ٧٧٥ .
116 قصه الكنيسة القبطية ص ٤٥٦ رقم ٥٨٤ (د. ايريس حبيب المصرى)
117 (S. lane Poole P.63) د. ترتون ، أهل الذمة فى الإسلام ص٥٤ عن المقريزى والكندى : الولاة والقضاة

118 تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص٦٦ + أهل الذمة فى الإسلام ص٥٤ (د. ترتون)
119 تاريخ الكنيسة القبطية للقس منس يوحنا ص ٤٢٢
120 المقريزى ج ٤ الصفحة ٣٣٨
121 تاريخ الكنيسة القبطية " للقس منس يوحنا " (ص ٤٢٢)
122 المقريزى جـ ع ص ٣٦،٣٧
123 (S. Lane Poole pp 64,٦٦
124 مقال لكامل صالح نخله عن هذا المهندس بمجلة التوفيق فى ١٥ فبراير ١٩٣٩ نقلا عن المقريزى والسيوطى والاسحاقى.
125 تاريخ البطاركة مجلد ج ٢ ص ٧٧
126 (الشابشتى : الديارات ص ٢٨٤ - أبو صالح الارمنى ، كنائس وأديرة مصر ، ورقة ٤٩
127 تاريخ مصر فى القرون الوسطى (لستانلى لاين بول ص ٨٧ - ٨٨
128 تاريخ الأمة القبطية - المجلد الرابع - مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح التركى لجا ستون فييت ص ١٧٥ - ١٧٧
129 كتاب تاريخ البطاركة المجلد الثانى (ج ٢) ص ٩٢،٩٣
130كتاب تاريخ البطاركة المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، الصفحة ٩٣
131 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، الصفحتان ٩٣ ، ٩٤

القسم الثالث

(٩٦٩م ــ ١٢٥٠م)

من بداية

الدولة الفاطمية فى مصر

حتى نهاية

الدولة الأيوبية

ⲀⲂⲂⲀ
ⲠⲀⲨⲖⲞⲤ
الانبا
بولس
البسيط

الباب التاسع
تاريخ الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الفاطمية
(٩٦٩ م - ١١٧١ م)
"الفصل الأول"
خلفاء الدولة الفاطمية ومعاونوهم

وبوفاة كافور الاخشيدى سنة ٩٦٨ م أختار الجند ورجال البلاط ابنه خلفاً له ــ وكان صبيا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر ــ وهكذا وقعت البلاد فى فوضى وضعف واضطراب بسبب ضعف الإخشيديين وكذلك العباسيين، وانتهز الفاطميون الذين أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب العربى (الفاطميون هم سلالة تنتسب إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة الزهراء ابنة نبى الإسلام، قامت فى تونسِ) هذه الفرصة للهجوم على مصر .. وأرسل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله جيشا بقيادة جوهر الصقلى لفتح مصر وكان ذلك سنة ٩٦٩ م . وكان قوام هذا الجيش أكثر من مائة ألف مقاتل مسلحين ومعهم ألف جمل وأعداد كبيرة من الأحصنة **Horses.**

ومما هو جدير بالذكر، أن جوهر الصقلى هو الذى أسس مدينة القاهرة لتصبح حاضرة للفاطميين، وبنى فيها المسجد الجامع وهو الجامع الأزهر الذى مازال برسالته قائما وباقيا حتى الآن.

وقد وجد الفاطميون كل شئ مهيئا فى مصر، ولم يتحرك أحد من المصريين ليقف فى وجه الغازى الجديد سوى البشموريين الذين انضموا إلى الإخشيديين. لكن جوهر الصقلى سحق هذه الثورة بسرعة عجيبة وبطش بالإخشيديين بطشا عنيفا. وكان فى ذلك درس لمن تسول له نفسه القيام بثورة أخرى.

وبعث جوهر برسول إلى جرجس ملك النوبة يذكره بالجزية التى فرضت على أسلافه وعرض عليه إمكان الإعفاء من الجزية إن هو أعتنق الإسلام. فرد عليه الملك النوبى بإرسال المبلغ المطلوب.

الوزير القبطى بجانب الخليفة:

كان الخليفة المعز يتمتع بصفات شخصية طيبة واحتذى به قائده جوهر ، فأحسن معاملة المصريين وعاملهم بالعدل والإنصاف ولم يميز بين مسلم وقبطى . وأبقى على الوزير القبطى أبو اليمن قزمان بن مينا الذى ظل فى الوزارة طيلة حكم كافور الذى أمتد إلى اثنتين وعشرين سنة .. بل أنه أنس إليه وخوله سلطة أوسع مما كان يتمتع بها فى عهد كافور .

وقد امتد حكم الفاطميون فى مصر إلى مائتى سنة كاملة (٩٧٢ - ١١٧١ م) كما تقلبت سياسة الفاطميين من التسامح الكامل إلى الاضطهاد الشنيع .فبعد أن مهدوا للأقباط ولأهل الذمة بصفة عامة عصرا زاهراً، عادوا فقضوا عليهم وعلى أمالهم

قضاءً مبرما. وفى الحقيقة أنه لم يحكم تصرفات هؤلاء الحكام والخلفاء سياسة ثابتة. لكن الأمر كان يرتبط بالاستعداد الشخصى لهؤلاء الحكام والخلفاء.

معاونى المعز :

١ــ **جوهر الصقلى** الذى زحف من المغرب إلى مصر وفتحها، وأسس مدينة القاهرة. كان عبدا يونانيا قدّم هدية إلى الخليفة المعز، ولذلك يعرف بإسم جوهر الرومى ..

٢ــ **يعقوب بن كلس**: وممن عاون المعز أيضاً يعقوب بن كلس، وهو يهودى من بغداد أعتنق الإسلام بهدف دنيوى. قدم يعقوب هذا إلى مصر فى عهد كافور الإخشيدي. ويذكر المؤرخ " ابن القلانس " أن يعقوب بن كلس كان واسع الحيلة والدهاء. ويروى أن كافور قال عنه يوما " لو كان مسلما لاستوزرته " . فلما سمع يعقوب ذلك دخل مسجدا فى يوم جمعة ونطق بالشهادتين .. وما لبث أن هرب إلى المغرب، وعاون الفاطميين على فتح مصر. وقد جعله المعز أكبر مستشاريه، وعينه أمينا على بيت المال.

عصيان وتعصب مسلمى مدينة تانيس ومظالمهم:

ومما ينبغى ذكره فى هذه الفترة عندما دخلت مصر فى حكم الدولة الفاطمية تعصب ضدها مسلمو مدينة تنيس ورفعوا راية العصيان وجعلوا يعبثون فى الأرض فسادا فنهبوا أغنياء النصارى وخطفوا بناتهم ونساءهم وفضحوهن، واستمروا يظلمون الأقباط ويخربون البلاد.[1]

وفيما يختص بسياسة الخلفاء الفاطميين تجاه الأقباط وأهل الذمة سنقدم كمثال خمسة خلفاء: المعز والعزيز والحاكم بأمر الله والخليفة الظاهر والمستنصر .

(أ) المعز لدين الله (٩٦٩ - ٩٧٦ م):

سياسة غير ثابتة:

كان من أكثر الحكام تسامحا وأوسعهم صدرا، كما كان سياسيا محنكا.وكان واسع العلم، ويعرف عدة لغات. ، فكان يجيد اللغات اليونانية والسودانية ولغة بربر شمال إفريقيا، كما كان يتكلم السلافونية ليتحدث بها مع عبيده الذين جلبهم من شرقى أوروبا. وإلى جانب اللغة العربية التى كان يجيدها حفظ الشعر العربى وبالإضافة إلى ذلك فقد كان خطيبا بارعا إلى حد أنه كان يستذرف الدموع من عيون سامعيه. وإلى جانب هذا كان جوادا كريما منصفا يحب العدالة.

كما كان المعز ولوعا بالعلوم الروحية. ولذلك كان يدعو رجال الدين من مسلمين وأقباط ويهود ليتناقشوا فى حضرته بكل صراحة .. ولكن على الرغم من هذه الصفات الطيبة التى كان يتحلى بها المعز لدين الله فالسياسة لها مقتضياتها – كان

يدرك تماما أنه لن يستطيع حكم البلاد وهو أمام تيار العداء العام . فقد حاول أن يتقرب إلى السنيين ، وذلك بإظهار شيء من النفور إزاء الذميين . لذلك نجده يلغى التقليد الذى بدأه الإخشيديون من حضور الحفلات الخاصة للنصارى. ومنع الأقباط فى عيد النيروز من جمع الحسنات من العظماء، ومن عادة رش المارة بالماء العكر أو إشعال الصواريخ فى هذه المناسبة. كما حرم عليهم نصب الخيام والتنزه بالزوارق فى النيل بالقرب من المقياس فى ليلة عيد الغطاس. وهدد بالإعدام شنقا كل من يخالف أوامره . فكف النصارى عن الاحتفال بهذه الأعياد طيلة عهده.[٢]

أما الأستاذ الدكتور جمال الدين سرور فى كتابه الدولة الفاطمية فى مصر فيقدم رأيا يخالف الرأى الأول. وهو أن بعض خلفاء الفاطميين بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعى خالفوا به جمهور المسلمين، إنهم بحاجة إلى من يعاونهم لتثبيت سلطانهم. ولما أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين فى مصر – وهم أصحاب الدعوة العباسية – قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيرا من التسامح. واستخدموهم فى أهم شئون الدولة. على أن هذه السياسة لم يتمسك بها الفاطميون. فكثيرا ما اضطروا إلى العدول عنها.[٣]

إيمان المعز بالمسيحية ومعموديته:

يذكر الفريد بتلر المؤرخ الانجليزى الذى كتب كتابا فى مجلدين عن كنائس مصر القديمة أن المعز بعد نقل الجبل المقطم أمر بهدم المسجد الذى كان يقع مقابل كنيسة أنبا شنوده بمصر القديمة. وأنه أعتمد فى المعمودية التى بجوار هيكل يوحنا المعمدان. وأنه تنازل عن كرسى الخلافة لابنه العزيز بأمر الله، وصرف أيامه الأخيرة فى العبادة فى أحد الأديرة.

وأورد هذه القصة ابن المكين فى القرن الرابع عشر، وذكرها مرقس باشا سميكة. وإن كان المؤرخون المسلمون ينفون بشدة هذه الواقعة .. لكننا نقول أنه وإن كان اعتناق الخليفة المعز لدين الله للمسيحية لم يذكره مؤرخ مشهور ، لكن الملابسات كلها تدل على صدق القصة وواقعيتها .. فمثلا يحيى بن سعيد الانطاكى المتوفى سنة 1066م فى كتابه "صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق – وإن كان لم يشر إلى معجزة الجبل المقطم ونقله ، لكنه يذكر بدون قصد أن خبر موت المعز لدين الله ظل مكتوما زهاء ثمانية أشهر ، وانه فى يوم من الأيام قبل وفاته ، جعل أسرته تبايع ابنه العزيز بالخلافة.

وفاة المعز:

ويقول الدكتور جاك تاجر فى كتابه أقباط ومسلمون " غير أن هناك نقطة مازالت تقلقنا : لقد أثار المعز – وهو أول خليفة نزل مصر – إشاعات حول وفاته ، ولم يتردد فيها التاريخ القبطى حيث يقول أن هذا الخليفة ترك الحكم بعد أن اعتنق

المسيحية . ومن جهة أخرى بلغ تسامح ابنه العزيز مع النصارى درجة تدعو إلى الدهشة بالنسبة إلى عمره. أما الحاكم فانه اختفى بعد أن تردد آخر شهور خلافته على الرهبان وأصلح الأديرة والكنائس وزار الأديرة وزينها وأهمل محاربة الصليبيين، هل نستطيع أن نجزم بان الإفراط فى التسامح الذى وقعت فيه الأسرة يبرره فقط إخلاص النصارى لها ؟[٤]

كما ذكر كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة أن المعز بعد حادثة نقل الجبل المقطم تنصر ولبس زى الرهبان ، وقبره ومعموديته إلى الآن فى كنيسة أبى السيفين.[٥]

حقيقة ينبغى أن تقال:

ومما ينبغى ذكره أن المعز لم يتجل تقديره للقبط فى السماح لهم بترميم الكنائس وتجديدها فحسب ، إنما أيضا عين قبطيا متوليا للخراج أولا فى مصر ثم فى فلسطين ، وكان هذا القبطى هو أبو اليمن الذى كان قد حظى بالتقدير العظيم عند كافور الاخشيدى وكان بمثابة وزير للمعز .

وقد اشتهر عدد من رجال عائلة أبى اليمن فى خلافة الفاطميين وأدوا خدمات جليلة لوطنهم ولكنيستهم ومن هؤلاء : الشيخ أبو المكارم بن حنا والشيخ صنيعه الملك أبو الفرج ، والشيخ علم السعداء أبو اليمن ، والشيخ أبو الفرج بن أبى اليمن.[٦]

(ب) العزيز بأمر الله (٩٧٦ - ٩٩٦)

جميع المؤرخون يجمعون على أن هذا الخليفة شمل النصارى برعايته سواء الملكانيين أو اليعاقبة .. وحتى خلافة العزيز كانوا يعتبرون الوالى متسامحا إذا أعطى تصريحا بترميم كنيسة أو ببنائها مقابل هدية مالية . لكن فى خلافة العزيز نرى السلطة هى التى تقوم بهذا العمل وتسهر على حراسة العمال ، إذا اقتضى الأمر ذلك .. ويمكن القول أن العزيز عمل على إلغاء الفوارق الاجتماعية بين المسلمين والذميين .. وبهذا يمكن القول دون مبالغة أن خلافة العزيز تعد تحولا هاما من تاريخ مصر الإسلامية ، لأن الخليفة دعا لأول مرة لمبدأ المساواة الكاملة بين المسلمين والذميين . كما أن الخلافة الفاطمية فى عهده وصلت إلى أوج عظمتها .

تزوج العزيز من مسيحية ملكانية. وأنجب منها ضمن من أنجب بنتا أسماها " ست الملك "، كانت تتعاطف كثيرا مع المسيحيين.. وكان العزيز يحب زوجته المسيحية وابنته حبا جما ويأخذ بمشورتهما، حتى أنه أصدر أمرا مخالفا للقانون ويقضى بتعيين نسيبيه (شقيقى زوجته) بطريركين ملكانيين. الأول ويدعى اريستس) بطريركا على بيت المقدس والآخر أرسانيوس مطرانا للقاهرة ورقى فى عهد الحاكم بأمر الله بطريركا للملكانيين بالإسكندرية .

غضب المسلمين لاعتماد العزيز على الذميين وأثر ذلك:

ولاشك أن اعتماد العزيز على الذميين وممن اسلموا ظاهريا – كيعقوب بن كلس – أثار غضب المسلمين .. فقد ظل يعقوب بن كلس ولمدة خمس عشرة سنة ساعد العزيز الأيمن ، حتى أنه حينما توفى حزن عليه العزيز حزنا شديدا وذهب إلى داره وصلى عليه وكشف عن وجهه ، وبكى عليه بكاءً شديداً ، وأمر أن يدفن فى داره بالقاهرة فى قبة كان بناها لنفسه ، وحضر جنازته وأغلق الدواوين . وعطل الأعمال أياما.[٧]

وبعد وفاة يعقوب بن كلس سنة ٩٩١ م منح العزيز ثقته لعيسى بن نسطورس النصرانى الذى ما لبث أن أصبح وزيرا. ثم ألحق بخدمته أبا المنصور طبيب المعز النصرانى وأعطاه مركزاً ممتازاً.

وليس أدل على أن الاستعانة بالذميين أثارت غضب المسلمين وعبأت مشاعرهم، من أن العزيز بينما كان يتنزه يوما فى المدينة أن شخصا شق طريقه بين الجماهير المحتشدة، وقدم للعزيز عريضة ثم اختفى .. أما فاتحة العريضة فكانت :

"بالذى أعز اليهود بمنشا[٨] ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك"

وكان من نتيجة ذلك أن العزيز – لكى يهدئ من ثائرة المسلمين – قبض على هذين الرجلين وصادريهما.[٩]

كما استغنى العزيز عن عدد من موظفيه الأقباط .. لكن لم يلبث أن عفا عن عيسى بن نسطورس وولاه الوزارة، وأعاد عددا من الأقباط إلى وظائفهم إما تحت ضغط زوجته المسيحية وابنته ست الملك، وإما أنه كان يرى استحالة الاستغناء عن خدماتهم وكفاءتهم. على أنه أشترط على عيسى بن نسطورس أن يولى المسلمين فى الدواوين.[١٠]

سماحة العزيز:

وفى عهد العزيز نجد قمة التعاطف مع المسيحية والمسيحيين، وذلك فى رفضه معاقبة من يرتد عن الإسلام ويعتنق المسيحية .. ويروى عن واحد من أكابر المسلمين يدعى " وساع " أنه أعتنق المسيحية. فقبضت عليه السلطات بتهمة الردة. لكن بعض الشخصيات الكبيرة تدخلت لصالحة. كما توسطت له زوجة العزيز لدى الخليفة. الذى أطلق صراحه دون أن يناله سوء أو أذى، وأعتكف فى دير بالصعيد حيث قضى بقية حياته.[١١]

وبالجملة فان العزيز أظهر همة عالية فى نشر روح التسامح بين المسلمين والمسيحيين فكثيرا ما كان يدعو الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين للحوار فى حضرته فى بعض نقاط العقيدة مع بعض علماء المسلمين مثل القاضى الشهير بابن النعمان .

حادثة حرق الأسطول المصرى ونتيجة ذلك:

ويـــروى يحيى بن سعيد الانطاكى حادثا عجيبا فى نتائجه. ما كان يمكن أن ينتهى إلى ما أنتهى إليه فى أى وقت آخر.

عزم العزيز على غزو بلاد الروم سنة ٩٩٦ م وأمر وزيره عيسى أبن نسطورس أن يعد الأسطول. وعزم على تسييره بعد صلاة الجمعة فاشتعلت النار فى سفن الأسطول وأحـــرقت منها ستة عشر سفينة. وأتهم عامة الناس تجار الروم الذين يأتون بالبضائع إلـــى مصر بهذا الحريق . فثار عامة الناس ومعهم المغاربة، وقتلوا من هؤلاء التجار مائـــة وستين رجلا، ونهبت كنيسة الملاك ميخائيل الخاصة بالملكانيين بقصر الشمع ، وكنيســـة النسطورية . وتوجه الوزير ابن نسطورس إلى مكان النهب ، ونادى بكف الأذى عن الروم ، ونودى بأن يرد كل واحد من المغتصبين(النهابة) جميع ما أخذه . فـــرد البعض ما نهبه ، وأحضر من سلم من التجار الروم من القتل . ودفع لكل واحد مـــنهم مـــا أعترف أنه نهب منه.وقبض على ثلاثة وستين رجلا من النهابة واعتقلوا. وأمـــر العزيـــز بإطلاق ثلثهم وقتل ثلثهم. وتم ذلك بواسطة رقاع كتب على بعضها " تضرب " وبعضها " تقتل " وبعضها " تطلق " . ووضعت تحت إزار. وتقدم كل واحد منهم وأخذ رقعته. وكان ينفذ فيه حسبما يكون فى الورقة.[١٢]

ومما هو جدير بالذكر أنه قد جرح فى هذا الشغب أسقف النسطوريين جراحات أدت إلى وفاته.

(ج) الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠)

هو من الشخصيات التى يحيط بها الغموض والتضارب فى فهمها نتيجة التضارب فى تصرفاته، والغموض فيها بين أقصى اليمين وأقصى اليسار..ولما كان الحاكم بأمر الله من أكثر حكام المسلمين - بل لعله أكثرهم جميعا - الذين أنزلوا بالأقباط صنوفا من الاضطهادات والأهوال والتحقير الأدبى، رأينا من الضرورى أن نتوقف قليلا لنتعرف على شخصيته، قبل الكلام عن تهوره واندفاعه فى محاولة محو المسيحية والمسيحيين من مصر.

وصاية برجوان على الخليفة الحاكم:

تولـــى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه العزيز وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصـــف. وقام بالوصاية عليه برجوان الصقلى، وتقلد الوساطة (وهى دون الوزارة فـــى المركز) ابن عمار (أبو محمد الحسن بن عمار) زعيم الكتاميين وهم عصب الخلافة الفاطمية .. وتقدم الكتاميون طالبين عزل عيسي بن نسطورس وتولية زعيمهم ابـــن عمار. فأجاب الحاكم طلبهم وتقلد ابن عمار أمور الدولة، وأسند الخليفة إلى ابن نسطورس ديوانه الخاص. لكنه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب، فقد تآمر عليه حاسدوه واتهموه بالعبث فى أموال الدولة. فقبض عليه ابن عمار وقتله.[١٣]

مقتل برجوان:

لكن الاضطراب عم البلاد خلال وصاية برجوان بسبب العداوة القائمة بينه وبين أبى عمار زعيم الكتاميين وقائد جيش الخليفة فى نفس الوقت .. وما لبث ابن عمار أن قُتل بعد أن هزمت القوات التركية قواته المكونة من قبائل شمال إفريقيا . انفرد برجوان بالسلطة وعين الحاكم فهد بن إبراهيم وهو قبطى كاتبا له وكاتم سره ومنحه ثقته وأعطاه لقب " الرئيس " ولم يمض وقت طويل حتى لحق برجوان بخصمه، وكان ذلك بأمر الخليفة سنة ١٠٠٠ م لشعوره أن برجوان يسعى للاستئثار بالسلطة بعد أن منعه من الاتصال المباشر برجال دولته ولما أمر الخليفة الشاب بقتل برجوان ، كان ذلك سببا فى قلق الشعب وضجره ، فحمله ذلك على التوجه إلى مقر الخلافة محتجين. ولم يستطع الحاكم الإفلات من ثورة شعبه إلا بالبكاء والعويل واحتجاجه بشبابه وعدم خبرته بشؤون الحكم

الوزير القبطى سكرتيرا للخليفة:

ولما اغتيل برجوان، أرسل الحاكم فى طلب فهد بن إبراهيم القبطى، وخلع عليه أحسن الحلل وقال له " لا تقلق أبدا لما حدث " .. ويقص علينا ابن القلانسى ما دار بين الحاكم وكاتم سره فهد ابن إبراهيم يقول " جلس الحاكم وقت العشاء الأخير واستدعى الحسين بن جوهر وأبى العلاء بن فهد بن إبراهيم الوزير، وطلب منه بإحضار سائر كتاب الدواوين والأعمال ففعل، وحضروا وأوصلهم إليه وقال لهم : إن هذا فهداً، كان بالأمس كاتباً عند برجوان وهو الآن وزيرى . فاسمعوا له وأطيعوه ، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم وتوفروا على مراعاة الأعمال وحراسة الأموال " .. وقبل فهد الأرض ، وقبلوها وقالوا " السمع والطاعة لمولانا " . وقال لفهد " أنا حامد لك وراضى عنك وهؤلاء الكُتّاب خدامى ، فاعرف حقوقهم وأحسن معاملتهم ، واحفظ حرمتهم ، وزد فى واجب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانته ".[١٤]

اغتيال فهد بن إبراهيم : -

وسرعان ما أصبح فهد هدفا للدسائس، إذ خشى الحاسدون أن الثقة التى أولاه إياها الخليفة تزيد من نفوذه ونفوذ النصارى . فبدأت الوشايات ليضعفوا ثقته لدى مولاه . فاتهمه أبو طاهر وابن عداس الكاتبان باختلاس الأموال . وكانا يحملان حقدا دفينا وعداءً واضحاً للنصارى فى مصر وسوريا. ولما لم يحسن الحاكم استقباليهما والاستماع إلى وشايتهما، حرّضا آخرين على تقديم شكاوى مماثلة .. وإن كان الحاكم قد فهم مغزى هذه الشكاوى، لكنه – ممالأة منه للظروف – سمح باغتيال فهد . وأفهم حاشيته أنه أصدر أمره هذا تحت ضغط شديد. ولتغطية موقفة أرسل الحاكم فى طلب أولاد فهد الذى قتل ، وأمر بألا يمسهم أحد بسوء وإلا ينهب منزله . وقد أراد الحاكم بهذا التصرف أن يتحدى أبا طاهر وابن العداس اللذين أوعزا بهذه الجريمة ، واللذين وصلا إلى أعلا المناصب .

ملامح من شخصية الحاكم بأمر الله :

قبض الحاكم على زمام الأمور فى البلاد وهو دون السادسة عشر من عمره . وأخذ يصدر تعليمات ومراسيم تثير الدهشة والأسى والضحك فى وقت واحد . ومهما قيل فى تبرير هذه التصرفات فأنه من الواضح التضارب الشديد وعدم الاستقرار الفعلى فيها .. **ومن أمثلة هذه التصرفات:**

حرص الحاكم على التجول ليلا فى مدينتى القاهرة والفسطاط للوقوف على أحوال الناس وكان له حب للظلام، ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية ، أمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت والمحلات التجارية فى جميع الظروف وبناء على أمره حدث تغيير جذرى فى حياة الناس ، فانقلب نهارهم ليلا ، وليلهم نهارا ، يزاولون فيه الأعمال والمعاملات التجارية . كان يعشق الظلام ويحب التجول فى الطرقات ليلا ، ليلة بعد أخرى.[١٥] ولما بلغه أن بعض الناس استغلوا إضاءة الشوارع والطرقات ليلا للعبث والمجون. فرض قوانين شديدة. فمنع الناس من الخروج ليلا ابتداء من وقت صلاة العشاء. كما نهى الرجال عن الجلوس فى الحوانيت. ثم أصدر أمرا بحظر التجول فى الطرقات من بعد العشاء حتى مطلع الفجر. ثم اتبع ذلك بإصدار قوانين تحرم على الناس فتح محلاتهم التجارية ليلا.

القيود بالنسبة للمرأة:

ولما رأى الحاكم أن أوامره السابقة لم تضع حدا للفوضى الاجتماعية التى سادت البلاد. أصدر سنة ١٠٠٥ م قوانين جديدة منها منع النساء من الظهور سافرات ومن السير خلف الجنازات. واتبع ذلك بأمر سنة ١٠٠٦ بمنع خروج النساء إلى الأسواق والحمامات. كما حظر عليهن التطلع من نوافذ البيوت والوقوف فوق أسطح المنازل. وبلغ حرص الحاكم على تنفيذ أوامره أن منع صانعى الأحذية من صنع الخفاف للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من بيوتهن. وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها الحاكم إزاء النساء أن اعتكفن فى بيوتهن. ويحاول بعض المدافعين عن الحاكم بأمر الله أن يعللوا أمثال. هذه التصرفات بأنها " بدافع الشعور الدينى وإصلاح الأخلاق وتطهير نفوس المجتمع من الرذائل ".[١٦]

ولكننا لا نوافق على هذا الرأى . ونقول أنه إن كانت تصرفات الحاكم هذه هى بدافع الشعور الدينى ، فهى نوع من الهوس الدينى . فلم يحدث فى كل التاريخ الاسلامى أن كان حاكما مسلما أصدر مثل هذه القوانين.

القيود بالنسبة للأكل والشرب واللهو:

كما حرم الحاكم أنشطة اللهو على شواطئ الخليج المصرى بالقاهرة . فأمر بسد أبواب الدور التى تقع على الخليج والطاقات المطلة عليه .. وفرض قيودا على بعض

أنواع المأكل والمشارب ومن أمثلة ذلك أنه منع بيع الزبيب واستيراده حتى لا يصنع خمرا . كما منع شراء أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحده خشية استعمالها فى صنع النبيذ . وأعقب ذلك أمرا أصدره بإتلاف شجر الكروم ومنع أكل الملوخية . كما أمر بمنع عجن الخبز بالأرجل . وألا يصطاد الصيادون سمكا بغير قشر . وأنذر المخالفين بالعقاب الشديد . ونهى عن ذبح البقر إلا فى عيد الأضحى . وأمر ألا يخزن أحد من المئون أكثر من حاجته . وجعل القتل عقوبة للمخالف .
حــرص الحــاكم على الإشراف بنفسه على تنفيذ أوامره ، والتزم بذلك طوال عهده ، ولكــنه لجــأ إلى إنزال العقوبات الصارمة بمن يعصى أوامره ، رغبة منه فى فرض هيبــته علــى رعايــاه وتأييد حكمه ، فإذا أظهر فريق من الناس تذمرا ، أسرع إلى الــتخلص منهم .. وقد تعرض لقسوة الحاكم أقرب الناس إليه من الوزراء والكُتّاب ، فلم يأمن رجال الدولة من العمال والطوائف المختلفة على حياتهم ، فالتمسوا منه أمانا سنة ١٠٠٦ م ، فأجابهم إلى طلبهم وأصدر أمانا أمنهم فيه على حياتهم .

تقشف الحاكم :

ويذكــر عــن الحاكم أنه على الرغم من سياسة العنف التى أتبعها ، فإنه كان متقشفا فى حياته ، واتبع فى ذلك بعض المظاهر العامة مثل منع الناس من ذكر عبارة " سـيدنا ومـولانا " فى المكاتبات التى توجه إليه . وألا يقبِّل أحد الأرض بين يديه ، وأمر ألا يصلى عليه أحد فى الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية . وكان من المعتاد أن يصلى الخطيب على الخليفة كما يصلى على النبى فى خطبة الجمعة . ونهى عن إقامة الزينات فى طريقه وهو ذاهب للصلاة.[١٧]

تلاعبه فى معرفة الغيب:

ومن الأمور التى تذكر عن الحاكم أنه حذا حذو أسلافه(المعز والعزيز) فى الاهتمام برصــد النجوم لمعرفة الغيب. فصار يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم ، فأخذ المــنجمون يسـيطرون على عقول الكثيرين ، حتى أضطر الحاكم سنة ١٠١٤ م إلى تحريم مهنة التنجيم لكنه ظل هو حريصا على رصد النجوم ، وأقام له مرصدا خاصا بالجبل المقطم .
ومــن الأمور التى تذكر عنه أنه شغف بالتطلع إلى معرفة أخبار رعاياه. ولكى يوهم الــناس أنه واقف على أفعالهم، اتخذ له جواسيس يطوفون بالأسواق والدور، يجمعون الأخبار ويرفعونها إليه فى تقارير . وهكذا صار فى نظر رعاياه كمن يعلم الغيب.

قتل حمزة بن على الزورنى:

وفــد إلــى مصــر بعض الفرس واعتنقوا المذهب الشيعى الفاطمى، وتطرفوا فى الدعوة له ومن بينهم شخص يدعى حمزة بن على الزورنى، الذى وفد إلى مصر سنة ١٠١٥ م. وأخذ ينشر سرا الدعوة إلى تأليه الحاكم.

وما لبث أن جهر بهذه الدعوة سنة ١٠١٨ م فاجتمع إليه طائفة من متطرفى الشيعة الإسماعيلية. فاحتضنه الحاكم بأمر الله .. لكن مسلمى مصر السنيين أعلنوا غضبهم علنا وثار بعضهم عليه بعد أن أعلن واحد من هؤلاء الدعاة " تأليه الحاكم " فى جامع عمرو بن العاص. وقد انتهى الأمر بقتل هذا الداعية.

دعاة تأليه الحاكم: (محمد بن إسماعيل الدرزى)

وكان من بين الدعاة إلى تأليه الحاكم شخص يدعى محمد بن إسماعيل الدرزى. فاحتضنه الحاكم وقربه . أعلن الدرزى مذهبه فى الجامع الأزهر فأثار سخط المصريين السنيين وكذا المعتدلين من الشيعة ، فأخذوا يتعقبونه حتى علموا انه ملتجئ بقصر الخليفة ، فذهبوا إلى الخليفة الحاكم بأمر الله وطالبوه بتسليمه فظل يماطلهم حتى دبر له أمر الفرار إلى الشام بعد أن أمده بأموال . وهناك أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم ، فاستمال له أنصارا أصبحوا يعرفون باسم الدروز..أما الحاكم بأمر الله فقد أستاء من اعتراض رعاياه خاصة من الفسطاط الذين قتلوا داعية تأليهه، فانتقم منهم بحرق مدينة الفسطاط.

نهاية الحاكم بأمر الله:

أما عن نهاية حكم الحاكم، فان الغموض يكتنفها. لقد اختفى فجأة بعد أن شوهد يقصد جبل المقطم، وقد تعددت الآراء .. لكن من بين هذه الآراء أن الحاكم بأمر الله – رغبة منه فى إحاطة نفسه بسياج من التقديس، وجعل رعاياه طوع إرادته –أراد أن يجعل من نفسه المهدى الذى يعتقد الإسماعيلية (من فرق الشيعة) . أنه سيظهر فى آخر الأيام ليملأ الأرض عدلا وأمناً.

ولا شك أن عقيدة تأليه الحاكم بأمر الله، قد استمدت من معتقدات متطرفى الشيعة، الذين يعتقدون أن على بن أبى طالب وخلفاءه من الأئمة ليسوا بشرا عاديين، وبعض هذه الطوائف الشيعية تعتقد بعدم موت على بن أبى طالب وأنه سيعود إلى الأرض ليحكم بالعدل .. وبعض متطرفى الشيعة ببلاد فارس (إيران) يقدسون بعض أحفاد على ويعتبرونهم حكاما معصومين (الخومينى - آية الله - روح الله).

الحاكم بأمر الله وأقباط مصر:

ليس الحاكم بأمر الله هو وحده المسئول عن الأحداث الدامية والفظائع التى تعرض لهما الأقباط فى عهده، لكن يشترك معه فى المسئولية بعض الدساسين الذين عملوا على التخلص من النفوذ الذى ناله الذميون فى عهد العزيز واستغلوا صغر سن الخليفة وميله إلى سفك الدماء لتحقيق مآربهم.

١ ــ قتل فهد بن إبراهيم :
تأتـــى أولى المآسى حينما قتل عيسى بن نسطورس وزير العزيز. وتأتى ثانية المآسى حيـــنما قـــتل فهد بن إبراهيم بعد أن قربه إليه وأعطاه الثقة ثم قتله فى النهاية إرضاء لـــبعض المتعصـــبين بعد أن أستمر فى خدمته نحو ست سنوات. ولم تكن الوشايات الكاذبة تستهدف فهد وحده ، بل الأقباط جميعا .

ويذكر تاريخ البطاركة أن سبب قتل فهد هو أن الحاكم طالبه بالإسلام، فلما لم يوافقه أمـــر بقطع رأسه وحرق جسده لمدة ثلاثة أيام، ومع ذلك لم يحترق الجسد، بل بقيت يده اليمنى وكأن النار لم تقربها .. وقيل عن فهد أنه كان رحيما جدا ولا يرد سائلا. وهذه اليد اليمنى التى كانت تمتد بالخير هى التى ظهرت فيها المعجزة وكأن النار لم تقربها.[١٨]

تعذيب عشرة من أراخنة الأقباط وقتل أبو نجاح الكبير:

وبـــنفس السياســـة قـــبض على عشرة من أراخنة الأقباط وكُتَّابهم ، وكان أحدهم من مقدمـــى الأقباط الأرثوذكس ويدعى أبو نجاح الكبير ، وأمره الحاكم باعتناق الإسلام ليجعله وزيره، فطلب من الخليفة أن يمهله يوما يفكر فيه . ولم يكن طلبه مهلة اليوم للتفكيـــر، بـــل للاتصـــال بإخوانه وحثهم على الثبات فى الإيمان والموت على اسم المســـيح. وحيـــنما اجـــتمع بهم قال لهم " الآن يا أخوتى لا تطلبوا هذا المجد الفانى، فتضـــيعوا مجـــد المسيح الدائم الباقى، فقد أشبع نفوسنا من خيرات الأرض . وهوذا برحمته قد دعانا إلى ملكوت السموات فقووا قلوبكم " فلما كان الغد مضى إلى الحاكم بأمر الله وأظهر أمامه إيمانه فاجتهد الحاكم بكل نوع من الترغيب والترهيب أن ينقله عـــن ديـــنه فلـــم يستطيع. فأمر أن تنزع ثيابه عنه وأن يشد فى الهنبازين ويضرب. فضـــربوه خمســـمائة سوط على ذلك الجسم الناعم حتى تقطع لحمه وسال دمه مثل الماء. وكانت السياط من عروق البقر لا يحتمل جبار منها سوط.. ثم أمر بأن يضرب تمـــام الألف سوطا. فلما ضرب ثلاثمائة أخرى، قال أنا عطشان. فبطلا عنه الضرب وأعلموا الحاكم بذلك فقال اسقوه بعد أن تقولوا له يرجع لديننا، فلما جاءوا إليه بالماء وقالوا له ما أمرهم به الملك . قال لهم عيدوا له ماءه فانى غير محتاج إليه لأن سيدى يســـوع المســـيح قـــد سقانى. وشهد قوم من الأعوان وغيرهم ممن كانوا هناك أنهم أبصروا الماء يسقط من لحيته. ولما قال هذا أسلم الروح " .. طيَروا الخبر للحاكم أنه توفى، فأمر أن يضرب تمام الألف سوط وهو ميت. وهكذا تمت شهادته.

أمـــا بقية العشرة " لما طالبهم بترك دينهم والانتقال عنه فلم يفعلوا ذلك ولا طاوعوه، فأمـــر بعذابهم، فضربوا بالسياط. فلما تزايد عليهم الضرب أسلم منهم أربعة أما أحد هؤلاء الأربعة فإنه مات فى ليلته بعينها، وأما الثلاثة الآخرين فإنه إلى انقضاء زمان الهـــياج عادوا إلى مذهب النصرانية، وأما بقية العشرة فقد ماتوا تحت العذاب ونالوا الحياة الدائمة ".[١٩]

٢ــ هدم كنيسة القيامة بالقدس:

ولما علم بأن النصارى يطوفون خارج أسوار كنيسة القيامة بالقدس أثناء الاحتفالات الدينـية، وخاصــة يوم احد الشعانين وفى عيد الفصح، أمر بهدم الكنيسة. وكان لهذا الإجـراء الأخير دويا هائلا، ووقعا سيئا جدا، لا فى الشرق فحسب، بل وفى الغرب أيضا .. وكما يقول أحد المؤمنين الغربيين تعليقا على ذلك " بكى المسيحيون جميعا " .. ونعـتقد أن تصــرف الحــاكم بأمر الله فى هدم كنيسة القيامة، كان أحد الأسباب الرئيسـية لقـيام الحـروب الصليبية. وتقول الرواية أن الكاتب الذى نسخ هذا الأمر الخـاص – بهدم الكنيسة – كان نصرانيا نسطوريا يعرف بابن شيرين وأنه من شدة الحزن مات كمدا بعد أيام قليلة.[٢٠]

٣ - اعتناق الإسلام أو الخروج من مصر وهدم الكنائس:

وفــى عــام ١٠٠٩ م صــدرت أوامر مشددة تقضى بإلغاء الأعياد المسيحية ومنع الاحـتفال بها فى أنحاء البلاد . وصودرت أوقاف الكنائس والأديرة لحساب بيت مال المسـلمين.[٢١] ومــنع أيضا ضرب النواقيس كما نزعت الصلبان من قباب ومنارات الكنائس. ووصل به الأمر إلى أنه طلب إلى المسيحيين الأقباط أن يقوموا بمحو وشم الصـليب مــن أيـديهم .. وفى سنة ١٠١١ م صدر الأمر أن يعلق النصارى حول أعناقهم صلبانا من الخشب طول الصليب ذراع ووزنه خمسة أرطال..

وفــى سنة ١٠١٣ م صدر أمر بهدم وسلب الكنائس والأديرة الموجودة فى الأراضى المصرية بدون استثناء. ويقال أن عدد ما هدم من الكنائس والأديرة فى ذلك الحين بلغ ٣٠٠٠٠ (ثلاثون ألفا) وبعد ذلك خيَر الحاكم الأقباط بين اعتناق الإسلام أو الخروج من مصر.[٢٢]

ومما زاد الحالة سوء ووحشية، أن الرعاع والسوقية – الذين فى حقد وشماتة ـــ الـذين أخذوا ينفذون إرادة مولاهم الحاكم بأمر الله ـــ لم يهدموا الكنائس فقط بل محــوها محوا كاملا، ووصلت بهم ثورة الانتقام إلى نبش قبور النصارى واستخراج عظام الموتى لاستخدامها وقودا للحمامات.

٤ــ اضطهاد عام مع بعض أنواع التحقير الأدبى للأقباط:

وأخذ اضطهاد النصارى فى عهد الحاكم بأمر الله يزداد عنفا يوما بعد يوم ..وأول من استهدف له هم موظفو الدولة، حيث فصل عددا كبيرا منهم، ولم يترك إلا الذين إتضح لــه عــدم إمكان الاستغناء عن خدمتهم.. ثم أصبح الاضطهاد عاما سنة ١٠٠٤ م. وصب الحاكم غضبه على النصارى. فأمرهم أن يصنعوا ملابس تميزهم عن سواهم. كمــا صــب جام غضبه على المسلمين السنيين، وكتب على المساجد عبارات مهينة للنــيل من أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة. وفى سنة ١٠٠٨ م فرض الحاكم قيودا

أخـرى علـى الزى. ومنع أثرياء الأقباط من امتلاك العبيد واستخدام المسلمين .. وأصدر فى نفس العام أمره بهدم كنائس القاهرة ونهب كل ما فيها .

ومن قبيل التحقير الأدبى أيضاً أصدر الحاكم أمرا إلى المكارتين والنوتية بأن يرفضـوا نقـل الذميـين .. وأخيرا وضع الحاكم أهل الذمة للخيار بين أمرين : إما المـوت وإمـا الارتـداد عن دينهم .. وكانت النتيجة أن أسلم عدد كبير، بينما هجر الـبعض دورهم سرا ولجأوا إلى المناطق التابعة للإمبراطورية البيزنطية .. وهناك فـريق ثالـث أخفـوا إيمانهم، وكانوا يجتمعون فى أماكن خاصة أخفوا بها الأوانى المقدسة التى أفلتت من المصادرة والنهب والسلب.[٢٣]

يصـف لـنا المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٦٦ م – وبدأ كـتابة تاريخـه بعد اختفاء الحاكم بأمر الله بفترة وجيزة – مشهدا وقع بالقاهرة سنة ١٠١٢ م . ويـدل على مدى اليأس الذى ملك قلوب الأقباط إزاء اضطهادات الحاكم الوحشية الجنونية، فيقول :

" اجـتمع سائر من بمصر من الكتاب والعمال والأطباء وغيرهم مع أساقفتهم وكهنـتهم ، وتوجهوا إلى قصره (الحاكم) ، وكشفوا عن رؤوسهم فى باب القاهرة ومشوا حفاة ، باكين مستغيثين إليه ، يسألونه العفو والصفح . ولم يزالوا فى طريقهم يقـبلون التراب إلى أن وصلوا إلى مقره وهم فى تلك الحال فأنفذ إليهم أحد أصحابه، وأخـذ مـنهم ورقة كانوا قد كتبوها يلتمسون عفوه عنهم، وإزالة سخطه، فأعاد إليهم الرسول ورد عليهم ردا جميلا ".[٢٤]

٥ـ إلقاء البابا زخارياس للسباع:

لـم يتحمل أقباط مصر من الاضطهاد، منذ دخول العرب مصر، أكثر ولا أسوأ مما تحملـوه فى عهد الحاكم بأمر الله ونحن نسجل هنا ما دونه المؤرخ المسلم المقريزى عن وحشية الحاكم فى معاملته للأقباط، يقول :-

كان بطريرك اليعاقبه (الأقباط) البابا زخارياس الذى أقام ثمانى وعشرين سنه منها فى البلايا مع الحاكم بأمر الله تسع سنين،وقد إعتقله منها ثلاثة أشهر ، وأمر به فألقى للسـباع هو وسوسنه النوبى فلم تضره .. وفى بطريركيته نزل بالنصارى شدائد لم يعهـدوا مـثلها، وذلـك أن كثيرا منهم كان قد تمكن فى أعمال الدولة حتى صاروا كالـوزراء. وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فأشتد بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين، فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك، وكان لا يملك نفسه إذا غضب ".

وبعد أن عدد المقريزى ألوانا من أنواع الاضهادات التى أشرنا إليها سابقا يقول :

" وأخـذ (الحـاكم بأمر الله) فى هدم الكنائس كلها وأباح ما فيها للناس نهبا وإقطاعا. فهدمت بأسرها، ونهب جميع أمتعتها، وقطعت أوقافها، وبنى فى مواضعها المسـاجد، وأذن بالصـلاة فى كنيسة الأنبا شنوده بمصر، وأحيط بكنيسة المعلقة فى

قصــر الشمع وكتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات (الأديرة) ،فعم الهدم فيها من سنة ٤٠٣ هــ (سنة ١٠١٣ م) إلى آخر سنة ٤٠٥ هــ (١٠١٥ م) وقد ذكر أن الذى تم هدمه بمصر والشام واعمالهما من الهياكل ما يقــرب من ثلاثون ألف بيعه ، ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة ، وقبض على أوقافهــا ، وكانــت أوقافهــا جلــيلة .. فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة، واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى . وفى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى.[٢٥]

لقد استمر اضطهاد الحاكم للأقباط تسع سنين، كانت الثلاثة الأخيرة منها أشد هولا، إذ أمر بإبطال العبادة فى جميع الكنائس ماعدا الأديرة الكائنة فى الجبال.

فكان الشعب يقدمون رشوة لحكام الأقاليم ليسمحوا لهم بممارسة شعائر العبادة فــى البــيوت سرا ، ويقدسون ويتناولون الافخارستيا سرا .. وهال الحاكم عدم تنفيذ أمــره بالدقــة الكاملة، فاتجه إلى محو المسيحية من كل دولته. وضيق على الكهنة، وهرب عددا كبيرا منهم إلى الأديرة النائية فتتبعهم وقتلهم.

٦ــ مجاهرة بقيرة الرشيدى بإيمانه المسيحى:

وإن كان كثيرون قد اكرهوا على اعتناق الإسلام، وبالفعل أسلم عدد كبير منهم ، لكن كثيــرين أيضــا جاهــروا بإيمانهم المسيحى ولم يخشوا بطش الحاكم ، ومن هؤلاء الشــماس بقيــرة الرشيدى أحد رؤساء كتاب الديوان الذى ترك خدمة الديوان وحمل صــليبه ومضــى إلى قصر الحاكم ، وصاح على بابه " المسيح ابن الله " فلما سمع الحاكم صوته أمر بإحضاره ، وطلب إليه أن يجحد إيمانه المسيحى ويعتنق الإسلام ، فــرفض ، وكان كالصخرة القوية التى لا تضطرب . وكان كلما خاطبه زاد صياحه وقال " المسيح ابن الله " . فأمر بأن يقيد بالقيود الحديدية ويلقى فى السجن . رغم هذه القــيود الحديديــة كان دائما قائما للصلاة ووجهه إلى الشرق يصلى " مع ثقل الحديد الــذى هو مغلول به "..وزاره إنسان فى السجن ، وقال له متنبئا أن يخبر أسرته أنه قــبل مغيب شمس ذلك اليوم سيكون معهم فى المنزل ، وبالفعل أفرج عنه الحاكم فى ذات الــيوم ، وكتب بأن لا يعترض أحد بقيرة الرشيدى فى بيع أو شراء ولا فى أمر من الأمور .

صفات بقيره ومواهبه:

فلما خرج من السجن طاف على النصارى الذين تملكهم الخوف وطمأنهم أنه بعد ثلاثة أيام تزول عنهم الشدة. وفى اليوم الرابع تم ما قاله، وأصدر الحاكم أمرا بأن يــتعامل المســلمون مع النصارى فى البيع والشراء، وصرح لهم بمغادرة مصر إن أرادوا إلــى بلاد الروم أو الحبشة أو النوبة أو غيرها. وكانوا قبل ذلك ممنوعين من ذلــك. تــرك بقيرة الديوان وتفرغ لافتقاد المحبوسين وحمل ما يحتاجون إليه. وكان

يرعـــى الفقــراء والمعــوزين وكان رحيما جدا . وكان يصوم يوميا حتى المساء ، ويمضـــى معظـــم الليل فى الصلاة ومما يذكر عن محبته للرحمة أنه فى أحد الأيام أشترى خبزا كعادته ووزعه على " المستورين والفقراء حتى أنه لم يبق لنفسه سوى رغـــيفا واحدا . فجلس ليتناول إفطاره بهذا الرغيف فشكر ومد يده ليأكل فسمع الباب يدق . فقال لغلامه افتح الباب ، فخرج الغلام فوجد إنسانا محتاجاً(جائعاً) ، فقال له قل للشـــيخ بقيرة نسيتنى اليوم وما عندى ما أفطر به ، فدخل الغلام إليه وأعلمه ما قاله الرجل ، فدفع له الرغيف وبات صائماً إلى الليل ثانى يوم .

وكيلا للـــــــــــــه:

وحـــدث أن إنســـان جليل القدر فى قومه غنيا جدا وأضنى عليه الدهر وافتقر وفقـــد مالـــه حتـــى لم يبق له شئ إلا الثياب التى تستر جسده. وعلم الشماس بقيرة بظـــروف هـــذا الإنسان فأنفذ إليه عشرة أرادب قمح مع غلامه. ولم يكن هذا الرجل موجـــودا فأفرغ الغلام القمح أمام زوجته وقال لها أنه مرسل من عند بقيرة الرشيدى الكاتـــب. فلمـــا عاد الرجل وسمع بذلك أنزعج جدا لافتضاح أمره وبدأ يبكى.فهدأت زوجـــته مـــن خاطره وطلبت إليه أن يقوم ليصلى،وأن يرد القمح لصاحبه فى اليوم التالـــى : " فلما نام تلك الليلة رأى فى منامه السيد المسيح قائم أمامه ، فقال له لماذا أنـــت وجـــع القلب . فقال له يا سيدى كيف لا يوجعنى قلبى وأنا من بعد ذاك الغنى والـــرحمة التى كانت لى .. وقد انتهى بى الأمر إلى هذا الفقر حتى صرت أتصدق. والأصلح لى أن أموت بالجوع أفضل من هذا. فقال له لا تحزن فان هذا القمح ما هو لأحـــد بل هو لى . وأنا أنفذته لك على يد وكيلى، قال له يا سيد ما جائنى ليس وكيل لـــك بـــل غلام بقيرة الرشيدى أرسله لى . فقال له الرب كأنك ما علمت إلى الآن أن بقيرة وكيلى . فلما سمع هذا استيقظ وأعلم زوجته بالمنام وطاب قلبيهما ".[٢٦]

٧ــ مجاهرة كثيرين علانية بطلب العودة إلى مسيحيتهم:

ولـــم يقتصـــر الأمـــر علـــى المجاهرة بالإيمان المسيحى رغم بطش الحاكم وجبـــروته، بل أن كثيرين جاهروا علانية بطلب العودة إلى مسيحيتهم .. يقول كاتب تاريخ البطاركة " بعد ذلك وقف له جماعة من النصارى الذين اسلموا ، فقال لهم ماذا تـــريدون؟ قالـــوا لـــه تعـــيدنا إلى ديننا . فقال لكل واحد منهم أين زنارك وصليبك، فأخـــرجهم له كل واحد من تحت ثيابه، فأمرهم بلباسهم بين يديه، وأعطى كل واحد سجل يكون معه كتب فيه بأن لا يعترضه أحد. فعاد كثيرين ممن أسلموا إلى دينهم.[٢٧]

٨ـ بناء دير شهران :

وكـــان ممن أسلم راهب أسمه بيمين عاد إلى مسيحيته ، وأعطاه الله نعمة فى عينى الحاكم بأمر الله ، فسأل الحاكم أن يمكنه من عمارة دير خارج مصر على أسم الشـــهيد مـــرقوريوس وهو دير شهران.[٢٨] (المعروف حاليا باسم دير الأنبا برسوم العريان ببلدة المعصرة القريبة من حلوان) . وصرح له الحاكم بذلك ، وبناه وسكنه مـــع رهبان آخرين ... وتطور الأمر وصار للراهب بيمين هذا دالة عند الحاكم بأمر الله . وكـــان يتردد كثيرا على هذا الدير ، ويقيم هناك ، ويأكل من طعامهم الحقير . وكـــان كـــل من له حاجة عند الحاكم يمضى إلى بيمين الراهب يخاطبه عليها وقت حضـــوره عنده فيقضيها له ".[٢٩] . بل أن بيمن توسط بين البطريرك الأنبا زخارياس وبـــين الحاكم ، وكان البطريرك فى ذلك الوقت فى دير أبى مقار بوادى النطرون ، وسنشير إلى ذلك فى سيرة هذا البطريرك ، وكان قد أمضى به تسع سنوات .

٩ـ محنة اللغة القبطية فى عهده:

ولا يمكن أن ننهى كلامنا عن الحاكم بأمر الله دون أن نشير إلى الضربة القاسمة التى تلقـــتها اللغة القبطية على يديه. فقد أصدر أوامر مشددة بأبطال استخدام اللغة القبطية نهائيا (لا فى دواوين الدولة، فهذا قد حدث منذ سنة ٧٠٥ أو سنة ٧٠٦ م فى خلافة الوليد بن عبدا لملك الأموى، وولاية واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك الذى كان يمقت النصارى مقتا شديدا وأمر باستخدام اللغة العربية لغة رسمية فى الدواوين) لكن مـــا فعلـــه الحاكم هو أنه أصدر أوامر مشددة بإبطال استخدام اللغة القبطية نهائيا فى المنازل والطرقات العامة، ومعاقبة كل من يستعملها بقطع لسانه، وضيق على الأولاد والبـــنات والســـيدات بالبيوت، بالأمر بقطع لسان كل سيدة تتكلم القبطية مع أولادها وأطفالهـــا. وكان الحاكم فى موقفه من اللغة القبطية قدوة لبعض الحكام الطغاة الذين جاءوا بعده.

١٠ ـــ إصدار وثيقة أمان للأقباط:

أخيـــراً بعـــد أن ســـفك دمـــاء زكية كالأنهار، وبلغ عدد من قتلهم ثمانية عشر ألف إنســـان.[٣٠] ، وبعـــد أن ادعى الألوهية، عاد وأظهر سماحة نحو الأقباط، وسمح لهم بالتعييد علانية، بل حثهم على إعادة بناء كنائسهم وأديرتهم وزيادة رهبانهم، وأصدر أمانـــا لهم جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبـــى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن العزيز بالله .. لجماعة النصارى بمصـــر ، عندما ذكروا له الخوف الذى لحقهم والجزع الذى هالهم .. وأجابهم إلى ما ســـألوا فيه من كتب أمان لهم .. فأنتم جميعا أمنون بأمان الله وأمان نبيه وأمان أمير المؤمنـــين علـــى بـــن أبى طالب، هذا أمان على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأملاككم، وما تحويه أيديكم أمانا صريحا ثابتا ".[٣١]

(د) الخليفة الظاهر: سنة (١٠٢٠ م - ١٠٣٥ م)

ومما يذكر عن الخليفة الفاطمى الظاهر " أنه كان على النقيض من أبيه الحاكم بأمر الله فى سياسته نحو أهل الذمة فلم يكد يتولى الخلافة حتى عمل على اكتساب عطفهم بأن أصدر بيانا. أعلن فيه، أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم وأنه لا إكراه فى الدين ، وأن من آثر فيهم الدخول فى الإسلام اختيارا من قلبه وهداية من ربه ، فليدخل فيه مقبولا مبرأ . ومن آثر البقاء على دينه من غير ارتداد، كان عليه ذمته وحياته ".[٣٢] وبسبب موقف هذا الخليفة أخذ الشعور العدائى نحو الذميين يقل ويضعف. كما أنه منح الحرية الدينية لمن ارتدوا عن المسيحية فى عهد أبيه الحاكم أن يعودوا إلى دينهم المسيحى ثانية. كما سمح بإعادة بناء الكنائس المتهدمة.[٣٣]

إعادة بناء كنيسة القيامة:

+ وفى سنة ١٠٣٧ م وقع الظاهر معاهدة مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن مؤداها أن يذكر أسم الخليفة الظاهر فى البلاد التابعة له فى المساجد وأن يرمم المسجد الكائن بالقسطنطينية، ومقابل ذلك تعهد الخليفة الظاهر بالسماح بإعادة بناء كنيسة القيامة بمدينة القدس (أورشليم) وكان أبوه الحاكم بأمر الله قد هدمها، وهكذا أعيد بناء كنيسة القيامة.[٣٤]

(هـ) المستنصر بالله (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م)

حكم مصر مدة طويلة بلغت نحو ستين سنة، إذ أرتقى الخلافة وهو بعد صبى فى السابعة من عمره. وفى زمانه حلت بمصر أيام سود عرفت فى التاريخ باسم "**الشدة العظمى**"، استمرت سبع سنوات (١٠٦٦ - ١٠٧٢ م) بسبب انقطاع ماء النيل. فحدثت مجاعات وانتشرت الأوبئة، وترتب على ذلك قيام الحروب الأهلية فى مصر نتيجة الغلاء الفاحش وندرة القوت وكانت أقصى أوقات الشدة بين سنتى ١٠٦٩ و ١٠٧٠ م .. وقيل أن الموت كان يحصد كل يوم عشرة آلاف نفس. وأكل الناس القطط والكلاب. وخطف الناس بعضهم بعضا. وبيع لحم الإنسان عند القصابين .. واكل الناس الجيف. وحصد الطاعون الناس حصدا ذريعا. كما حدثت مصادمات بين الجند الأتراك والسودانيين الذين كانت تناصرهم أم الخليفة المستنصر، والتى كانت جارية سوداء ابتغاها أبوه الخليفة الظاهر (١٠٢٠ - ١٠٣٦ م) من تاجر يهودى .. ولكن الغلبة كانت للجند الأتراك .. وقد نهب الجنود المرتزقة قصر الخليفة نفسه، وجردوه من ثروته، فاضطر الخليفة أن يفترش حصيرة فى قصره الذى أصبح خاليا من كل أثاث، وانتشرت الفوضى فى البلاد فكثر تغيير الوزراء واستبدالهم بغيرهم حتى تقلب على الوزارة نحو خمسة وثلاثون وزيرا فى مدة أثنتا عشرة سنة، ولم تكن هذه التقلبات تزيد الأعمال إلا ارتباكا والبلاد اختلالا.[٣٥]

١ – اضطهاد البابا خرستوذولوس فى أيام القاضى عبد الوهاب أبا الحسين قاضى الإسكندرية ووزيره اليازورى:

وكــان للمستنصــر وزيــر سئ التدبير يسمى محمد اليازورى ، كان شديد الكراهية للمســيحيين عامة وللأقباط خاصة . لميل الخليفة إليهم ، فكان يترقب فرصة للإيقاع بهم وكان ذلك فى حبرية البابا خرستوذولوس البطريرك الــ ٦٦ ..
واتفق أن شخصا يسمى عبد الوهاب أبا الحسين عين قاضيا على الإسكندرية ، وكان يــتوقع أن ينال شيئا من الأقباط على يد بطريركهم على سبيل العطية ، فلما يأس من أن ينال مراده ، وعلم مشاعر الكراهية التى كانت فى نفس الوزير اليازورى من نحو الأقــباط . وشى بالبطريرك عنده وادعى عليه أنه ظلم أناسا واغتصب أموالهم وبنى بها قصرا شامخا وكنائس فى ناحية يقال لها دمرو حتى صارت القسطنطينية الثانية ، وأنه يحتقر الإسلام .
فأرســل الوزير على الفور رجالا وأمرهم بهدم كنائس تلك الجهة ، وقيل أنه كــان بها سبعة عشرة كنيسة .. ومما يذكر أن البطريرك أنبا خرستوذولوس كان قد بنــى لــه دارا لإقامته نقش على بابه البسملة المسيحية " باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد " فكان أول ما فعله مندوب الوزير اليازورى أنه كشط كلمات هذه البســملة التى على الباب ولما رأى البطريرك ذلك قال له فى شجاعة وصراحة " إذا كشطته من على الباب فما تقدر أن تكشطه من قلبى ".[٣٦]
ومما هو جدير بالذكر أن دمــرو اسمها الاصلى" دمَرو الكنائس" وهى تتبع مركز المحلــة الكبــرى. وقــد اتخذ بعض البطاركة دمرو مركزا لرئاستهم بعد أن انتقل الكرسى من الإسكندرية.
آخر بطريرك كان مقره الإسكندرية هو البابا شنوده الأول البطريرك الــ ٥٥ ، بعد ذلك أتخذ دمرو مقرا للكرسى وأقام إقامة دائمة أو مؤقتة كل من البطاركة : مكاريوس الأول ٥٩ ، وفيلوثاؤس ٦٣ ، وزخارياس ٦٤ ، وشنودة الثانى ٦٥ ، وخرستوذولوس ٦٦ ، وهو آخر من أقام بها بعدها انتقل إلى الكنيسة المعلقة بمصر القديمة .[٣٧]

٢ – أمثلة من مظالم اليازورى للأقباط:

أ – ومن أمثلة مظالم اليازورى للأقباط وانتهازه كل فرصة ليغتصب منهم المال ، اتهامه البطريرك ٦٦ خرستوذولوس بتحريض ملك النوبة المسيحى بعدم القيام بواجباته نحو الخليفة الفاطمى ، ومن ثم ألقى اليازورى القبض على البطريرك دون أى تحقيق ، ووقع عليه غرامة مائة دينار . ولما جيء بالبطريرك إلى القاهرة أرسل

إلى " عبد الله " محافظ منطقة مصر السفلى ، الذى اقتنع ببراءته ، فذهب إلى اليازورى وأخذ منه فى الحال تصريحا بإطلاق سراحه.[٣٨]

ب ـ كان رأس القديس مرقس الانجيلى محفوظا فى الإسكندرية بمنزل أبى يحيى بن زكريا . فلما مرض يحيى مرضه الأخير ، أجتمع عشرة من أراخنة الأقباط وأبدوا مخاوفهم فى حالة موت يحيى بن زكريا أن توضع ممتلكاته وأمواله تحت الحراسة وأن يقع الذخيرة المقدسة - رأس ما مرقس - فى أيدى المسلمين . فاتفقوا على نقل الصندوق الذى كان يحوى الرأس المقدس إلى منزل أبى الفتح والد المؤرخ الذى أتم تاريخ البطاركة . ولما كان أبو الفتح قد سبق وذاق نير الاضطهاد والتغريم . فخشى أن يغضب عليه الخليفة ، ورفض حفظ الذخيرة المقدسة لديه . وعندئذ نقل رأس مار مرقس إلى منزل سرور بن مطروح الذى كان يقيم بمنزل مقابل أبو الفتح . ثم أتى القس سيمون الذى كان كاهنا لبيعه مار مرقس وطلب أن يأخذ الرأس المقدسة ويقوم على خدمتها هو وأخوه . فلما بلغ الوزير اليازورى هذه الأخبار أمر بالقبض على أبى الفتح وعلى جميع النصارى الذين اشتركوا فى نقل الصندوق . وأمر " كوكب الدولة " محافظ الإسكندرية أن يعاد إليه رأس القديس مارمرقس ومعه مبلغ العشرة آلاف دينار التى ادعى أنها كانت مع الرأس . ونجح المقبوض عليهم فى نيل الإفراج عن أنفسهم ماعدا أبو الفتح الذى أرسل إلى الفسطاط حيث اعتقلته السلطات ليضطر إلى دفع المبلغ الذى حدده المحافظ . (وقال المحافظ أن الروم أبدوا الاستعداد لدفع عشرة آلاف دينار مقابل الرأس) .. فظل أبو الفتح فى الحبس سبعة وثلاثين يوما . وكان يقول فى نفسه إن ما ناله من ضيق هو بسبب رفضه أخذ رأس مار مرقس ورده من باب داره . وكان حارس السجن رجلا مسلما يدعى بركات فقال لأبى الفتح فى صبيحة اليوم السابع الثلاثين "يا شيخ أبو الفتح رأيت الساعة إنسان شاب بلحية سوداء على جبينه ضربة ووقف على الباب وهو يقول يا أبو الفتح بن مفرج أنا مرقس الانجيلى ، قد ربحت نفسك بصبرك . وكلام آخر غير هذا ما فهمته وخذ هذه تخلص .ورمى من يده اليمنى حصاة لها ثلاثة رؤوس وقال إلى ثلاثة أيام يفرج عنك.فقال له أبى الفتح أئتنى بضوء حتى أبصر ما قلت . فأتاه الضوء لأنه كان سجن مظلم، فوجد الحصاة مطروحة قدامه. فأخذها وتأملها وقبلها وشدها على ذراعه..وبعد نظر السجان لهذا المنام بثلاثة أيام أصدر "مضاد الدولة"..قرار بالإفراج عنه ووصل إلى الإسكندرية وأخذ الرأس وقبلها كأنه لم يصبه شيء.[٣٩]

استمرار اضطهاد الوزير يازورى للأقباط ونهايته:

وتعمد الوزير يازورى مضايقة النصارى فصار يثير خواطر المسلمين ويحرضهم على التحزب ضد النصارى ، ولكنه لم يجد منهم إلا الاعتراض لأن الناس كانوا فى شغل شاغل بسبب الضيق الذى كانت تعانى منه البلاد نتيجة القحط والوباء .

ولما لم يجد فائدة من هذه السياسة قبض على البطريرك وبعض أساقفة الوجه البحرى واعتقلهم وأرسلهم إلى القاهرة مدعيا عليهم دعاوى باطلة لا أساس لها .. أما الخليفة المستنصر فرغم تنويهات الوزير لم يجد عليهم ما يوجب هذه الإهانة ، فأخلى سبيلهم وطيب خاطرهم وصرفهم إلى مراكزهم ، فشق هذا على الوزير ولشدة غيظه أمر بقفل جميع الكنائس المسيحية فى أنحاء البلاد وخلال هذه الفترة قامت فتنة فى الصعيد الأوسط أدت إلى الفتك بجميع رهبان دير أبانوب قرب الاشمونين ،مما دفع المسلمون العقلاء والمسيحيين ... جميعا على اختلاف مذاهبهم وتجمهروا ، وكادت تحدث فتنة لولا أن تدخل الخليفة ، فقبض على هذا الوزير المستبد ونفاه إلى جهة تانيس . وبعد قليل قتله لأنه كان يهيج المسلمين عليه وينسب إليه أمورا كاذبة . وقيل أنه مات ميتة شنيعة بعد مرض عضال.[٤٠]

وتولى بعده ناصر الدولة ، وأعقب ذلك أن أعيدت كنيسة مارجرجس بمصر القديمة إلى القبط فرمموها على الفور . إلا أن العامة والغوغاء تذمروا لهذا الترميم فعادوا تخريبها ولكن القبط لم يلبثوا أن استرجعوها مرة أخرى وجددوا بناءها فدشنت من جديد.

٣ــ قتل ابن أخى الأنبا جورجى أسقف ابروشية ميسارة:

فقد ذكر عن ابن أخى الأنبا جورجى أسقف ميسارة عندما كان شابا اعتنق الإسلام رغما عن نصائح خاله وإرشاداته الكثيرة ، ثم بعد حين ، بكته ضميره وانطلق إلى وادى النطرون وتاب على يد الرهبان ولكنه لم يجد راحة فى ذلك لتبكيت ضميره . فانطلق ليعترف بالمسيح الذى أنكره من قبل فقبض عليه المحافظ وقتله .

وتفصيل ذلك إنه لما نزل إلى القاهرة تزيا بزى النصارى، وكان معروفا بين المسلمين فمسكوه وقادوه إلى المحافظ فطرحه فى السجن وكان لأبيه صداقة ومعرفه مع أحد موظفى الديوان، فالتجأ إليه طالبا إنقاذ ولده فوعده بإنقاذه على شرط أن يتظاهر بالجنون، فلما طلب إلى الشاب أن يفعل ذلك ، أجاب قائلا إنى لا اقدر أن أهزأ باسم المسيح لئلا ينالنى أشر مما نالنى من تبكيت الضمير . وبعد أن مضى على سجنه بضعة أيام أحضره المحافظ إلى مكان يدعى رأس الجسر والناس تتبعاهما من مسلمين ونصارى، ولما بلغ المكان نزل المحافظ عن جواده والتفت إلى الشاب قائلا: أمنحك هذا الجواد وأعين لك راتبا تتقاضاه كل شهر من خزينة الحكومة ، إذا عدلت عن رأيك فأبى ذلك ، فجرد السياف سيفه الماضى ، وفى الحال سمع الشاب صوتا وسط الجميع يناديه باللغة القبطية قائلاً " تقو يا جندى المسيح فإنى أرى ملاكاً فوق رأسك وبيده أكليل ليضعه على هامتك متى أتممت جهادك ، فرسم علامة الصليب على وجهه وأحنى رأسه فقطعها السياف بأقل من لمح البصر ، فحمله المسيحيون حيث دفنوه بإكرام جزيل .

٤ـ سماحة بعض الحكام المسلمين تجاه الأقباط :

على الرغم من الإضطهادات الكثيرة ألتى لاقاها الأقباط على يد المسلمين إلا أنه قد مد بعض المسلمين يد المساعدة أحيانا إلى الأقباط ..وسبق أن أشرنا إلى ما قام به " عبد الدولة " مع البطريرك وكيف أفرج عنه بعد أن اقتنع ببراءته.

وهناك أيضا " حصن الدولة " الذى كان واليا على الإسكندرية، وكان يحب النصارى. فلما أصدر الوزير اليازورى أمره بإغلاق كنائس الإسكندرية ومصادرة كل ما فيها من نفائس وفرض غرامة على نصارى المدينة تبلغ عشرة آلاف دينار، ما كان من هذا الوالى " حصن الدولة " إلا أن أرسل فى طلب " موهوب بن منصور " مؤرخ سير البطاركة وخاله " صدقة بن سرور " - وكانا يخدمانه - وقال لهما " هذا كتاب الوزير اليازورى قد وصل بغلق البيع والقبض على جميع مالها ومطالبة جميع النصارى بالإسكندرية بعشرة آلاف دينار. ويجب أن تمضوا الساعة وتنقلوا جميع ما فى بيعكم من آلات وكساوى وغيرها .. " وبالفعل أغلقت جميع الكنائس فى اليوم التالى .. وانتهى الأمر بأن دفعوا ألفى دينار - ولما شكوا له بحرمانهم من الصلاة بسبب غلق الكنائس، سلمهم مفتاح كنيسة مار جرجس التى كانت أصلا بيت انيانوس ثانى البطاركة. وقال لهم " امضوا وافتحوا هذه الكنيسة وصلوا فيها سرا وأدعو لى " ، أخذوا المفتاح ومضوا إلى الكنيسة وحاولوا فتح بابها لمدة ست ساعات من الساعة الثالثة حتى التاسعة دون جدوى " فبكينا وتضرعنا وقلنا يا رب قد عرفنا أنك أغلقتها لأجل خطايانا وآثامنا فارحمنا واعف عنا فانفتح لنا الباب فدخلنا وقدسنا وتقربنا ".[٤١]

٥ـ المظالم التى حاقت بالأقباط عن طريق قبيلة اللواته:

عمت الفوضى البلاد بعد وفاة اليازورى. وانتهز رجال قبيلة البربر المعروفة باسم اللواتة " فرصة ضعف المستنصر وهزيمة جيشه أمام قوات القائد التركى " ناصر الدولـــة " ، فألقـــوا القـــبض على البطريرك خرستوذولوس . وبعد أن أذاقوه ألوان العـــذاب، ونهـــبوا داره وأخذوا أموال كثيرة كانت برسم مار مرقس والقديس مقار. فأسرع أبو الطيب الزراوى أحد الأقباط إلى كاتم سر ناصر الدولة يرجوه أن يفاوض قبـــيلة اللواتة من أجل إطلاق سراح البطريرك. وبالفعل تمكن من إطلاق سراحه بعد أن دفع فدية قدرها ثلاثة آلاف دينار ..

غيـــر أن هذا الاتفاق لم يضع حدا لأعمال السلب التى كانت تقوم بها هذه القبيلة. فقد اجتاحت الوجه البحرى ونهبت أديرة وادى النطرون، وقتلت معظم رهبانها، ومزقت شمل الباقين، وارتكبوا فظائع بشعة فنهبوا البلاد وقتلوا أهلها وهتكوا أعراض النساء، وذبحـــوا الأولاد على بطون أمهاتهم وعلى ظهور آبائهم، ونهبوا الكنائس وخرّبوها، وكشطوا وجوه صور القديسين.[٤٢]

٦ ـ بدر الجمالى وقتله الأمراء الأتراك:

ومما زاد الأمور سوءا وصعوبة انتشار المجاعة لمدة سبع سنوات (١٠٦٦ - ١٠٧٢ م) بسبب انقطاع ماء النيل كما اشرنا قبلا ، وأخذ ناصر الدولة قائد القوات التركية يتحدى الخليفة . فلم يكن من الخليفة إلا أن استدعى بدر الجمالى (الذى كان عبدا أرمينيا ثم أسلم) من عند الأمير السورى جمال الدولة بن عمار ، وقد اشتهر بدر الجمالى بقوة شكيمته وحدة ذكائه وحسن إدارته . وكان يعتمد على قوة من الأرمن وبعض الفرق المحلية .. ولم يقبل بدر الجمالى الحضور إلى مصر إلا بعد أن أملى شروطه على الخليفة وتتلخص فى ضرورة استبدال الجنود الأتراك بجنود من سوريا حتى يضمن للبلاد الأمن والسلام .. وافق الخليفة على هذه الشروط وسلمه الخليفة براءة مزينه بالألقاب الآتية " **السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاه المسلمين وهادى دعاة المؤمنين** " .

وبدأ بدر الجمالى عمله باغتيال أمراء الأتراك أثناء مأدبة أعدها لتكريمهم . فلما خلا الجو من المعارضين أخذ يعمل بكل ما أتى من نشاط لإنماء موارد البلاد والمحافظة على الأمن داخل البلاد وخارجها .

ومن الطبيعى أن تميل العلاقات بين المسلمين والنصارى إلى الاعتدال فى ظل حكومة حكيمة. وكان النصارى ينظرون بعين الرضى إلى هذا الأرمنى الذى حكم البلاد حكما مطلقا، ذلك لأنهم كانوا يعتبرونه رغم اعتناقه الإسلام، واحدا منهم . كما كان هو أيضا يشملهم بعطفه ويفصل بالعدل فى الشكاوى المقدمة منهم . ولم يترددوا فى طلب تحكيمه فى منازعاتهم الدينية البحتة.

لكن لا ينبغى فهم عطف الوزير بدر الجمالى على النصارى بأنه كان تحيزا أو مجاملة. فقد شكا له بعض التجار المسلمين أن بقطر أسقف النوبة هدم مسجدا. فما كان منه إلا أن أمر فى الحال بالقبض على البطريرك خرستوذولوس ٦٦ وحمّله مسئولية هذا العمل .. أضف إلى ذلك أن بدر الجمالى أصدر مرسوما سنة ٤٧٩ هـ يأمر فيه النصارى واليهود أن يتمنطقوا بزنار أسود وأن يدفعوا ضريبة استثنائية قدرها دينار وثلث عن كل فرد.[٤٣]

والذى نريد أن نؤكده أيضا أنه:

تحت حكم بدر الجمالى ويده القوية وسياسته الحكيمة عم السلام والرخاء أنحاء البلاد المصرية. واتجه نحو تنمية التجارة، فاقرض التجار مبالغ كبيرة تسدد على أقساط مريحة، كما مكنهم من الاتجار مع البلاد الأخرى خارج مصر ثم اتجه إلى الزراعة وأولاها عنايته، فتنازل للزراع عن ضرائب ثلاث سنين كانت متأخرة عليهم ، وهكذا تضاعفت المحاصيل نتيجة هذا التشجيع .. وكانت النتيجة الطبيعية للرخاء المادى هى النشاط الفكرى فى الكتابة والابتكار .. وهكذا ازدهرت العلوم والفنون)

٧ـ أواخر أيام بدر الجمالى وأشهر حوادث ابنه " شاهنشاه ":

مـرض بدر الجمالى بمرض الفالج لشيخوخته وتولى مكانه فى الوزارة ابنه الأفضل ومنح لقب شاهنشاه وكان إنسانا فاضلا أمينا وعادلا ، ترفع عن الظلم ، ورد للمظلومين حقوقهم وأنصفهم من خصومهم.

ويشـهد تـاريخ البطاركة أنه سلك فى جميع الأفعال المرضية والطرق الحميدة ما لم يسـبقه إليه من كان قبله " .. وبعد تسعة شهور من وزارته توفى الخليفة المستنصر بالله . وخلفه فى الخلافة أصغر أبنائه ولقب " المستعلى بالله " وكان هذا دافعا لإخوته الأكبـر منه نزار وعبد الله وإسماعيل إلى الخروج عليه وعدم مبايعته خليفة. ثم عاد وبايعه أخواه عبد الله وإسماعيل. أما نزار وهو الأخ الأكبر فقد ذهب إلى الإسكندرية وتحالـف مـع والـيها. وكان نتيجة ذلك أن سار الأفضل فى جيش إلى الإسكندرية وحاصـرها. وبعد قتال شديد طلب والى الإسكندرية ونزار الاستسلام وطلب الأمان. فقـبض علـيهما وسار بهما إلى القاهرة والقى بهما الخليفة المستعلى بالله فى السجن وظل يضيق عليهما حتى ماتا. وفى هذه الأثناء توفى أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ١٠٩٤ م كما توفى الخليفة المستنصر والخليفة المستعلى بالله بعد أن مرض وكان ذلك فى السنة العاشرة من بطريركية الأنبا ميخائيل. وتولى الخلافة أبنه المنصور وعمره يومـئذ سـت سنوات (ويقول أبو المكارم أن بدر الجمالى مات مسيحيا ودفن بجوار كنيسة الأرمن بالبساتين وتولى أبو اليمن يوسف أمانة خزائن الخليفة ثم نظارة الريف بالوجه البحرى ولقب أمين الأقفال) .

وفى هذه الفترة نشبت أول حرب صليبية فى حكومة الأفضل وشاهنشاه وسنتكلم عنها فيما بعد .

حقيقة ينبغى أن تقال : (عدد من القبط فى ديوان الخليفة)

وضح للجميع بعد سرد بعض الحوادث فى عصر الخليفة المستنصر أنه كان يستهدف العدالـة لرعاياه كلهم مما جعل المصريين إذا ذاك يعيشون فى ألفه وتفاهم. كذلك نال بعـض القبط حظوة خاصة فى عينيه، فعينهم فى ديوانه منهم أبو مسرور ويوأنس بن يوسف الابح الذى كان كاتم الخليفة والذى أتاح له منصبه أن يرمم كنيسة أبى سرجه حينما وجدها متهدمة.[٤٤]

٨ـ نهاية الدولة الفاطمية:

بـوفاة المستنصر بدأ عصر الضعف فى الدولة الفاطمية، وتميز بازدياد نفوذ الوزراء الذين استعان بهم الخلفاء الضعاف مثل شاور وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين.

فقـد تولـى الحكـم بعد ذلك الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠٢ م – ١١٣١ م) الذى رفض تعيين وزيرا خليفة للمأمون بل اكتفى بتعيين رئيسين هما جعفر بن عبد المنعم، وأبو يعقوب إبراهيم السامرى وكان يشرف على اعمالهما راهب قبطى أسمه ابن أبى النجاح.[٤٥]

وقد إشتهر الخليفة بميله إلى زيارة الأديرة. وكان يبنى بجوارها الحدائق ذات المناظر الجميلة ليمضى فيها ساعات طويلة.[٤٦]

ثم تولى الحكم بعد ذلك الخليفة الحافظ لدين الله (١١٣١ م - ١١٤٩) الذى عين له وزيـرا أرمنى يدعى " بهرام " وقد أعترض على هذا التعيين الأقباط والمسلمون ولم يـرتاحوا لذلك الأمر. ولكن مما يذكر عن بهرام أنه عندما أنتزع السلطة منه الوزير رضوان ازداد مركز بهرام سوءاً واضطر أن يرحل إلى أسوان حيث قضى بقية أيامه فى دير مجاور لهذه المدينة (دير الأنبا هدرا بأسوان).[٤٧]

(و) الخليفة الفاطمى العاضد وحرق مدينة الفسطاط (١١٦٠ـ ١١٧١)

وانتهـى الحكم الفاطمى بالخليفة الفاطمى العاضد (١١٦٠ - ١١٧١ م). وفى عهده حـدثت كارثـة شديدة للأقباط، هذه الكارثة هى حرق مدينة الفسطاط القديمة - وكان أغلـب سكانها من الأقباط ، وكان ذلك سنة ١١٦٨ م بواسطة شاور وزير العاضد ، وذلك لكى يحول دون وقوعها فى أيدى عمورى صاحب إمارة أورشليم اللاتينية الذى كـان يهـدف إلى استخدامها كقاعدة لغزو مصر كلها . وقرر شاور أن يقضى على تطلعـات الغـزو الصليبى بصب عشرين ألف برميل من المواد الملتهبة على مدينة الفسـطاط ذات الموقع الاستراتيجى. واستخدام رجاله عشرة آلاف مشعل ليشعلوا فيها النيـران التى استمرت متوهجة لمدة خمسين يوما. وبين عشية وضحاها أصبح أقباط الفسطاط معدمين، وخسروا كل شئ . ولا شك أن هذه كانت إحدى الكوارث الجانبية التـى حلت بالأقباط نتيجة الحروب الصليبية ولم يسلم من الحريق من الكنائس سوى ستة فقط كانت فى حصن بابليون ومن هذه الكنائس كنيسة العذراء المعلقة.

ومن أشهر الحوادث فى فترة ضعف الدولة الفاطمية:

(أ) هدم كنيسة الملاك بالروضة وإظلام الشمس:

قد حدث فى أيام الخليفة الآمر وفى زمان البابا مكاريوس الثانى(البطريرك الـ ٦٩) (١١٠٢ م - ١١٢٨ م) غرس الوزير الأفضل بستانا فى الروضة بجوار بيعة الملاك ميخائيل المختار وأحاطه ببناء بلغ أسوار الكنيسة . فطلب المهندس من كبار النصارى رشوة لكى يبعد قليلا عن أسوار الكنيسة ، فوعدوه بذلك ولكنهم لم يفوا بوعدهم . وفى هذه الفترة حدث أن السماء إظلمت حتى أصبح الواحد لا يرى أخاه فخاف الناس وهربوا من بيوتهم، وبينما هم ينتشرون فى الأزقة حدثت زلزلة دمرت بعض المنازل، فانتهز ذلك المهندس هذه الفرصة وبادر برجاله إلى كنيسة الملاك ودمرّها.

(ب) الاستيلاء على بساتين الأقباط:
كان للبطريرك البابا غبريال الثانى بستانا عظيما فى منطقة العدوية بين مصر القديمة وطره واستمرارا لعملية النهب والنصب والعدوان فقد استولى عليه الأمير جبريل بن الخليفة الحافظ (١١٣٠ م – ١١٤٩ م) ، ووسعه وجعله متنزها خاصا به وبالخلفاء الفاطميين ، بعد أن كانوا يأتون إليه لمجرد الزيارة وينصرفون .. وبعد سقوط الفاطميين آل هذا البستان إلى أخو صلاح الدين الأيوبى ويدعى طفتكين ، وضم إليه بساتين أخرى مجاورة وكذلك كل الجهة المعروفة بالعدوية وساحل البحر وكانت كلها ملكا للأقباط وكانت بها كنيسة تسمى كنيسة السودان استولى عليها أيضا وهدمها .

حياة الأقباط الاجتماعية فى عصر الدولة الفاطمية:

من المفيد ونحن نختم كلامنا عن الفاطميين الذين استمر حكمهم لمصر لمدة مائتى سنه أن نتكلم عن حياة الأقباط الاجتماعية واحتفالاتهم بأعيادهم.
خلف الفاطميون حضارة زاهرة من نواحى مختلفة . يكفى أن نذكر أن مدينة القاهرة عاصمة البلاد حتى اليوم أنشأها الفاطميون .. يقول الدكتور على إبراهيم حسن " يمكن القول أن تقدم الفنون فى العصر الفاطمى يرجع بوجه خاص إلى مهارة الصناع الأقباط . ويتبين ذلك بسهولة من الصور الجميلة والمجموعات الفنية فى دور الآثار ، فإن من بينها التحف العجيبة والأثاث والملابس وقطع البللور . وزادت أهمية القبط حين اتضحت قدرتهم فى الطب ، فقد اتخذ الخلفاء أطبائهم من بينهم . ومنهم سهل بن كيسال الذى تمتع بعطف الخليفة العزيز وكذلك أبو الفتح سهل بن مقشر الطبيب الخاص للعزيز والحاكم ".[٤٨]
لقد كانت معظم الصناعات والحرف بيد الأقباط ، فكان منهم الصناع المهرة كالصياغ والجواهرجية والنجارين وأرباب الحياكة والصباغة والبناءين والحدادين والمهندسين والنقاشين ، وصناع الورق. ومازالت آثار صناعاتهم باقية فى الآثار القديمة بكنائس حارة زويلة وحارة الروم ومصر القديمة خاصة كنيستى المعلقة وأبو سيفين.
أما عن الأعياد القبطية فقد أسهب الكتَّاب والمؤرخون المسلمون فى الكلام عنها .. يقول الدكتور على إبراهيم حسن أن " الخلفاء الفاطميين احتفلوا بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة..مشاركة لهم فى شعورهم الدينى وأهمها ليلة الغطاس والنيروز وخميس العهد.وكانت ليلة الغطاس من أعظم الاحتفالات التى اشترك فى إحيائها المسلمون.فقد كان الناس يسهرون طول الليل ، وتسرج المشاعل وتدق الطبول وتقام الملاهى ، ويظهر الأهالى بأعظم مباهج السرور والغبطة..كذلك أحتفل الفاطميون بالنيروز بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ، وكان من المعتاد إذا حل عيد النيروز أن توزع على الناس الملابس والنقود وكذلك البطيخ والرمان والموز والتمر والسفرجن والهريسة المصنوعة من لحوم الدجاج والضأن والبقر .. وقيل أن

الفاطميين اتخذوا أميرا سموه " أمير النيروز " مهمته الخروج فى موكب حافل فى ذلك العيد لتوزيع الهدايا على رجال الدولة على اختلاف درجاتهم . أما خميس العهد فهو أحد الأعياد التى بقيت فى عهد الفاطميين مشاركة منهم للنصارى فى شعورهم الدينى .. وكان الاحتفال بهذا العيد يمتاز بالهدايا التى ينالها كبار الموظفين ، غيرهم من الرجال المشهورين ".[49]

ونضيف إلى ذلك أن الحكومة فى عهد الفاطميين كانت تسك خمسمائة دينار ذهب بمناسبة خميس العهد ، وكان هذا المبلغ يوزع على جميع أرباب الرسوم .

ومن الأعياد التى كان يحتفل بها احتفالا عظيما فى عهد الفاطميين عيد الميلاد، ويذكر المؤرخ المقريزى أن الدولة كانت توزع الحلويات القاهرية وأنواع مختلفة من الأطعمة على أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام.وكانت تباع فيه الشموع المزهرة بالأصباغ والتماثيل البديعة فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشترى من ذلك لأولاده وأهله وكانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ويعلقون منها فى الأسواق بالحوانيت شيئا يخرج عن الحد فى الكثرة والجمال ".[50]

ومن الأمور التى توضح علاقة المودة والمجاملة بين الخليفة والنصارى انه كان يزور دير نهيا بالجيزة ويقيم به أياما بين رهبانه ويتبرع فى كل مرة بـ ١٠٠٠ درهم أو أكثر كما وهب لهم ٣٠ فدانا معفاة من الخراج.

" الفصل الثانى "
" الآباء البطاركة فى العصر الفاطمى "

عاصر الخلفاء الفاطميين فى مصر – الذى أمتد حكمهم إلى مائتى سنه – اثنا عشر أبا من الآباء البطاركة ، ابتداء من البابا البطريرك إبرآم بن زرعه السريانى البطريرك الـ ٦٢ (٩٧٥ – ٩٧٨) الذى عاصر المعز لدين الله إلى البابا البطريرك الأنبا مرقس الثالث الذى عاصر العاضد الفاطمى آخر الخلفاء وكذلك صلاح الدين الأيوبى .. وسنتكلم عن بعض هؤلاء البطاركة الذين حدثت فى عهودهم أحداث جسام أثرت فى الكنيسة وعلى الشعب القبطى.

أولاً ــ الأنبا إبرآم (البطريرك الــ ٦٢)(٩٧٥م– ٩٧٨ م):

١ - الأنبا إبرآم بن زرعة السريانى ورجال الدولة :

كانــت تربطه بالخليفة المعز ورجال دولته صلات حميمة ، كما كانت تربطه بأراخنة مصـــر أواصر المحبة ، وكان مكرما منهم. وأعطاه الله نعمة فى عين الخليفة المعز وكان المعز يحضره إليه فى كل وقت ، ليأخذ رأيه فى بعض أمور الدولة ويتبارك به ، ثم طلب منه أن يسكن بمصر.

٢ - من يكرمكم يكرمنى ومن يرزلكم يرزلنى :-

كــان بعــض الأراخنة فى ذلك الوقت يقتنون السرارى وينجبوا منهن أولادا فأصدر حــرما علــى كل من يقتنى سرارى، فأطاعه الجميع ماعدا أرخن واحد من أصحاب الدواوين، كان عنده عدد من السرارى، ورفض إطاعة البطريرك .. "الذى طلب منه أن يتــرك ســراريه عــدة مرات فلم يطعه ، وبقى على سوء فعله " فقرر البطريرك زيارتــه فــى بيته لعله يستحى منه .. لكن هذا الأرخن ما أن ، علم بمقدم البطريرك لــزيارته حتى أغلق باب داره . وكانت النتيجة أن البطريرك ظل واقفا لمدة ساعتين أمام الباب يطرقه دون أن يجيبه أحد .. حرمه البطريرك ونفض غبار نعليه على عتبة الــدار وكان من حجر الصوان فانكسرت إلى أثنين . ورأى هذه الآية كثيرون وهاب الناس البطريرك .. وبعد أيام قليلة هلك ذلك الأرخن وكل ماله.[٥١]

٣ ــ حادثة نقل جبل المقطم سنة ٩٧٨:

الخليفة يطالب البابا إبرآم بنقل الجبل المقطم :

ولعل أعظم الآيات التى تمجد الرب بها على يد ذلك البطريرك وفى عهده هى معجزة نقل جبل المقطم .. أوعز الوزير اليهودى الذى أسلم (يعقوب بن كلس)إلى صدر الخليفة المعز ضد النصارى بقوله أنه مكتوب فى إنجيلهم " من كان عنده إيمان مثل

حبة الخردل فإنه يقول للجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل " وقال له إما أن يكون النصارى على صدق فى إنجيلهم فينتقل الجبل بعيداً عن وسط القاهرة ويكون مصلحة،وإما يكون إنجيلهم كاذب فتفنيهم.
حينئذ استدعى الخليفة البطريرك أنبا إبرآم وسأله عن حقيقة ورود هذا القول فى الإنجيل فأجاب بالإيجاب .. فطلب إليه أن يرى هذه الآية وإلا أفنى النصارى بالسيف . كانت مفاجأة للبطريرك واعتراه خوف عظيم ولم يعرف بماذا يجيب، لكنه طلب أن يمهله ثلاثة أيام .
استدعى البطريرك الكهنة والأراخنة والشعب الأرثوذكسى فى بيعة المعلقة وأعلمهم بالأمر وهو يبكى. ووضع على الرهبان قانون صلاة وصوم بالخبز والملح والماء من المساء إلى المساء، وأن يجتمعوا فى البيعة ليل نهار . أما البطريرك فظل صائما هذه الأيام الثلاثة. ومن فرط حزنه وإعيائه سقط فى صبيحة اليوم الثالث على الأرض وغفا غفوة يسيرة، فرأى السيدة العذراء وقالت له بوجه فرح " ما الذى أصابك ؟ " .. أخبرها بالأمر، فقالت له السيدة العذراء " لا تخف فانى ما أغفل عن الدموع التى سكبتها فى بيعتى هذه " وقالت له أن يقوم ويخرج من موضع معين يؤدى إلى السوق، وسيجد إنسانا بعين واحدة، يحمل جرة ماء، وهذا الإنسان هو الذى تتم على يديه هذه الآية.

نصيحة سمعان الدباغ للأنبا إبرآم:

استيقظ البطريرك ونفذ ما قالته العذراء وتقابل مع الرجل الذى أشارت إليه العذراء. فأمسكه وضرب له مطانية وقال له " من جهة الرب إرحم هذا الشعب " . ثم أخبره عن الأمر الذى لأجله خرج للقاؤه.
فقال له الرجل " اغفر لى يا أبى فانى خاطىء ولم أبلغ إلى هذا الحد " .. لكن البطريرك أخبره بما قالته العذراء .. أراد البطريرك أن يعرف شيئا عن هذا الرجل، فكان جوابه " أنا رجل دباغ وهذه عينى التى تراها أنا قلعتها لأجل وصية الرب عندما نظرت ما ليس لى نظر شهوة .. وأنا فى هذا الموضع أجير لرجل دباغ " وأنه يأكل خبزا وينفق ما تبقى معه على المستورين المنقطعين من الأخوة نساء ورجال. وإنه يقوم باكرا ليحمل فى جرته ماء للفقراء " فنهارى كله أعمل فى المدبغة وليلى قايم أصلى وهذه قضية حالى"وطلب إليه ألا يظهره لأحد"فليس لى قدرة أن احتمل مجد الناس.
وطلب سمعان من الأب البطريرك أن يخرج ومعه الكهنة والشعب إلى الجبل الذى يحدده الخليفة، ومعه الأناجيل والصلبان والمجامر والشموع..وليقف الخليفة وعسكره وجماعته فى جانب والأب البطريرك وشعبه فى جانب آخر، ويقف هو خلفه دون أن يعرفه أحد ، ويصلوا ويصيحوا قائلين يارب ارحم فترة طويلة . ثم يأمرهم البطريرك بالسكوت والهدوء ويسجد ويسجد الجميع معه، وإن ذلك يكون ثلاث دفعات وفى كل

دفعة يسجد البطريرك ويقف ثم يصلب على الجبل وسيرى الجميع مجد الله.

الجبل ينخفض ويرتفع مع السجود والوقوف:

أخبر البطريرك الخليفة باستعداده للخروج إلى الجبل، وخرج الخليفة ووجوه دولته ووزيره ومعه اليهودى موسى .. وفعل البطريك كما قيل له من الرجل الدباغ، وصرخوا يارب ارحم دفعات كثيرة ثم أمرهم بالسكوت وسجد على الأرض وسجد الجميع معه ثلاث دفعات ، وفى كل دفعة كان البطريرك يرفع وجهه ويصلب على الجبل فيرتفع عن الأرض ، فإذا سجدوا نزل الجبل إلى حده – فخاف المعز خوفا عظيما وصاح هو ومن معه من المسلمين " الله أكبر ، لا إله غيرك " . وبعد ثالث دفعة قال المعز للبطريرك : " حسبك يا بطرك قد عرفت دينكم ".[٥٢]

ازدياد تقدير المعز للأنبا إبرآم :

ثم طلب الخليفة المعز إلى البطريرك أن يسأل أى شيء ليفعله له. فقال له " ما أتمنى إلا أن يثبت الله دولتك ويعطيك النصر على أعدائك " .. وأعاد عليه الطلب ثلاث مرات . وأخيرا قال البطريرك " إذا كان ولابد فأنا اسأل مولانا أن يأمر إن أمكن من بناء بيعة القديس مرقوريوس (أبو سيفين) بمصر لتهدم حوائطها فتحولت إلى شونة للقصب. وكذلك الكنيسة المعلقة التى تهدمت بعض جدرانها. فأمر المعز للوقت أن يكتب سجل بتمكين البطريرك من ذلك على أن يكون الصرف على العمارة من بيت مال المسلمين .. فأخذ البطريرك السجل شاكرا، وأعاد المال وقال للمعز إن بيت المال أحق بهذا المال.

ونود أن نشير هنا إلى أن معجزة نقل جبل المقطم ورد ذكرها تفصيلا فى كتاب تاريخ البطاركة المعاصر فى كتابته لهذه المعجزة – كما ذكرها أبو المكارم فى القرن العاشر فـى كتابه الكنائس والديارات والرحالة ماركو بولو الذى من البندقية فى القرن الثالث عشر، وليس ذكر هذه المعجزة حديثا كما يزعم الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه "مصـر فـى العصور الوسطى " وقوله إن أول من ذكرها هو صاحب كتاب الخريدة النفيسـة . وعلـى أيـة حـال فهناك إثبات من زاوية أخرى على حقيقة حدوث هذه المعجـزة، ذلك هو التحول الذى طرأ على سلوك الخليفة المعز لدين الله تجاه الأقباط ومن بعده ابنه العزيز بالله الذى تزوج من مسيحية.

نهاية القديس سمعان الدباغ :

يسجل التاريخ نهاية القديس سمعان قائلا : (كان من الطبيعى أن تحدث هذه المعجزة شيئا من الاضطراب فى صفوف من شاهدوها جميعا . ولما هدأت نفوسهم واستعادوا

طمأنينتهم وبدأوا ينزلون من الجبل ليعودا إلى منازلهم ، التفت غبطة البطريرك يمينا وشمالا باحثا عن القديس سمعان الخراز ولكنه لم يجده ولم يعثر أحد عليه بعد ذلك.[٥٣] وذلك لأنه هرب من المجد الباطل كما انه لم تكن فضائله مشهورة فى ذلك الحين حتى أن يهتم به الآخرون أو يبحثوا عنه . كما انه لم يكن من الرجال المشهورين فى هذه الفترة بالإضافة إلى ذلك كان انتقال الجبل جعل الناس يهتمون بالحادثة أكثر من الأشخاص.

ولكن الخلاصة أن اسم الرب تمجد على يديه . ولذلك أعلن الرب عن جسد هذا القديس العظيم إذ قال الكُتّاب والمؤرخون أنه مدفون فى مقابر الحبش بمصر القديمة وليس كما يدعى البعض أنه ألقى بنفسه تحت جبل المقطم أو داخله.[٥٤]

جسد القديس سمعان الدباغ :

تم العثور على جسد القديس سمعان فى ١٩٩١/٨/٤ ميلادية فى مدافن الحبش بمصر القديمة بجوار سور كنيسة السيدة العذراء ببابليون الدرج وتم توزيع الجسد ليكون على ثلاث كنائس فقط وهم

* كنيسة السيدة العذراء ببابليون الدرج
* كنيسة السيدة العذراء المعلقة
* كنيسة القديس سمعان الخراز بالمقطم.[٥٥]

٤ – بناء كنيسة القديس مرقوريوس بمصر القديمة وما تبع ذلك :

لما قرء السجل الصادر من الخليفة عند بيعة القديس مرقوريوس. تجمع الغوغاء والأوباش وقالوا لو قتلنا كلنا بالسيف ما مكنا أحد من وضع حجر فى هذه البيعة . فعاد البطريرك إلى الخليفة وأخبره بذلك . فغضب المعز وركب لساعته ومعه جنوده وأتى إلى المكان وأمر بحفر الأساس فحفر بسرعة ، وجمع له عددا كبيرا من البناءين ، وحملت إليه الحجارة من كل مكان بأمر الخليفة ، وبدأوا البناء .. فلم يجسر أحد أن ينطق بكلمة ما عدا شيخ واحد كان يؤم أولئك الغوغاء فى الصلاة بالمسجد القريب من المكان . هذا ألقى بنفسه فى الأساس المحفور ، وقال أريد اليوم أن أموت على اسم الله ولا أدع أحد يبنى هذه البيعة . وما أن علم المعز بذلك حتى أمر أن ترمى عليه الحجارة ويبنى فوقه فلما ألقوا عليه الجير والحجارة أراد أن ينهض ويقوم فلم يمكنه الأعوان لأن المعز أمر بدفنه فى الأساس الذى طرح نفسه فيه . فلما رأى البطريرك ذلك تطارح بين يدى المعز وسأله فيه إلى أن أمر باصعاده من الأساس .. وهكذا كملت عمارة البيعة وكذلك بيعة المعلقة .. كما بنى هذا البطريرك كل البيع التى كانت تحتاج إلى عمارة ولم يعترضه أحد فى شيء . وامتدت العمارة إلى كنائس الإسكندرية التى كانت تداعت جدرانها .

ثانيا: الأنبا زخارياس(البطريرك الـ ٦٤) (١٠٠٤ م - ١٠٣٢ م)

معاصروه هذا البطريرك عاصر كل من الخليفة الحاكم بأمر الله والخليفة الظاهر ، وجرت له متاعب كثيرة وعاصر مظالم وإضطهادات جمة وسياسات متغيرة ومتضاربة.

(١) سجنه وإلقائه للأسود:

لقد جرت له متاعب كثيرة بسبب الوشايات الكاذبة المضللة المغرضة التى نسبت إليه، وبدون فحص وتدقيق أمر الحاكم بأمر الله بأن يطرح البطريرك للسباع (أسود) لتأكله. لكن الذى حفظ دانيال فى جب الأسود حفظ البابا زخارياس، فلم تقربه الأسود. وألقى الحاكم أيضا مع البطريرك راهب نوبى اسمه شبشية، وكانت الأسود تخضع له وتلعق رجليه على نحو ما تفعل الكلاب بأصحابها.

ظن الحاكم بأمر الله – حينما بلغته هذه المعجزة – أن المسؤلين عن الأسود أطعموها وقاموا بإشباعها قبل أن تطلقها على البطريرك والراهب النوبى . فأمر بأن تجوع السباع ، وتذبح شاه وتنزع عن البطريرك ثيابه ويلطخ جسمه بدم الشاه . ففعلوا كما أمر الحاكم لكن الأسود ظلت مسالمة له وللراهب ولم تؤذوهما، أخرجوا الأنبا زخارياس إلى السجن وظل معتقلا ثلاثة أشهر ، وحاولوا إرهابه بشتى الوسائل تارة بالحريق وأخرى بطرحه للأسود إن لم يدخل فى دين الإسلام . وإذ لم يفلح الإرهاب كانوا يعرضون عليه الكرامة .. أخيراً دبر الرب أن يطلق الحاكم بأمر الله كل من بالحبس بعد شفاعة أحد مقدمى العرب ويدعى ماضى بن مقرب.

(٢) البابا زخارياس والراهب بيمن والحاكم بأمر الله:

ذكرنا سابقا ونحن نتكلم عن الحاكم بأمر الله أن راهبا يدعى بيمين كان قد أسلم وعاد إلى المسيحية وأعطاه الله نعمة فى عين الخليفة فصار مقربا إليه. وقلنا أن الحاكم سمح له ببناء دير شهران وأن يسكنه مع عدد من الرهبان. وكان الحاكم بأمر الله يتردد على هذا الدير ويقيم هناك ويأكل مع الرهبان. ولما أحس الراهب بيمين أن الله أعطاه نعمة فى عينى الحاكم بأمر الله تكلم فى شأن البطريرك الأنبا زخارياس وطلب منه أن يأذن له فى بناء الكنائس فوعده بذلك. فأرسل الراهب بيمين من أخبر البطريرك بالحضور من دير أبو مقار.

فلما أتى الحاكم إلى الدير كعادته التقى به البطريرك فسلم عليه وبارك عليه ودعا له .. فسأل الحاكم الراهب بيمين " من هذا " قال " هذا أبونا البطريرك حضر لوقته من الدير كما أمرت " . فسلم عليه وكان معه جماعة من الأساقفة، فقال الحاكم للراهب بيمين " من هؤلاء ؟ " فقال له " هؤلاء خلفاؤه فى البلاد وهم الأساقفة " . أخذ الحاكم يتأمل البطريرك وكان قصير القامة يرتدى ثيابا بسيطة ولم يكن وجيها فى هيئته ، بينما كان الأساقفة الذين معه ذوى مناظر حسنة وقامات فارعة . فسألهم الحاكم " هذا

مقدمكم كلكم " قالوا نعم يا مولانا يثبت الله ملكك " . فتعجب وقال لهم " إلى أين ينتهى حكمه " قالوا له " ينفذ حكمه فى ديار مصر والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية وإفريقيا " فازداد عجبه وقال " كيف يطيعوه كلهم بلا عساكر ولا مال ينفقه فيهم " قالوا له " بصليب واحد تطيعه هذه القبائل كلها " سألهم " وأيش هو هذا الصليب " أجابوه " مثال الذى صلب عليه المسيح " فقال الحاكم " بالحقيقة ليس فى العالم دين ثابت مثل دين النصارى . هوذا نحن نسفك الدماء وننفق الأموال ونخرج الجيوش وما نطاع . وهذا الرجل الشيخ الحقير المنظر الدميم الخليقة تطيعه أهل هذه البلاد كلها بكلمة ".[٥٦]

٣ - الخصب بعد الجدب : -

فى هذا اللقاء السابق قال الحاكم بأمر الله للبطريرك وللأساقفة الذين معه " أقيموا هاهنا حتى أقضى حوائجكم " . وأصدر سجلا بفتح الكنائس كلها التى فى أنحاء البلاد وعمارتها وأن تعاد إليها ما نهب منها من أخشاب وأعمده وطوب - وكذا الأراضى والبساتين التى كانت تمتلكها الكنائس فى كل البلاد المصرية أمر أن تعاد إلى الكنائس .. كما أعفى المسيحيين من الزى الخاص وحمل الصليب على صدورهم. وصرح بضرب نواقيس الكنائس.

٤ـــ معجزات الأنبا زخارياس : -

أ - ومن معجزاته أن الأنبا مرقورة ضرب جسده بالبرص الشديد ، فحضر إلى الأنبا زخارياس فقال له البطريرك بتواضع وقلب متوجع أنه يشاركه فى التوجع فيما أصابه . ولكنه أعلمه أنه ما يصح أن يكهن إلا بعد أن يشفى من البرص حسب شريعة العهد القديم . فبكى الأسقف وطلب إلى البطريرك أن يؤازره بصلاته ، وخرج من عنده وقصد إلى كنيسة فى ابيارشيته على اسم السيدة العذراء ، وانقطع فى الكنيسة صائما ثلاثة أيام بلياليها وهو يتشفع بالعذراء فخرجت يد من الصورة وكأنها قد مسحت جسمه فاستيقظ وقد عوفى من مرضه . ثم توجه بعدها إلى البطريرك وأعلمه بما حدث وقال " يا أبى هذا بصلواتك " . فأجابه "بل بأمانتك وصلاتك ".[٥٧]

ب - فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين : -

حدث أن شماسا متزوجا وقع فى خطية زنا فضرب جسمه بالبرص فأخذ يبكى بحرقة، فقالت له زوجته وكانت إمرأة تقية " قد أخطأت يا أخى وغلطت فبادر إلى الأب زخارياس القديس وإمسك بقدميه حتى يسأل الله فيك فتبرأ " فذهب إلى البطريرك وطرح نفسه بين يديه وبكى طويلا وتعلق بقدميه واعترف له بكل شيء . فقال له البطريرك " يا ولدى عليك أن تثبت على الإيمان بالسيد المسيح " فقال له " أحكم على بما شئت فانى فاعله بمعونة الله لى وبركة صلاتك " فأدخله إلى مكان مظلم عنده وقال

له " يا ولدى واصل الصلاة والتضرع والبكاء ، تائباً واعداً أن لا تعود إلى الخطية " . وكان يجعله يصوم ثلاثة أيام ، ثلاثة أيام ثم يطعمه بقليل من الخبز ويسير من الماء وكان يفتقده ويصلى عليه بين الحين والآخر .

وبعد تمام أربعين يوما أتاه فوجده قد طهر من البرص ، فجعله يستحم ثم دهنه بزيت وصلى عليه وقال له " يا ولدى قد عوفيت فاعرف ما ندرته على نفسك ولا تعود إلى الخطية . ولا تظن أننى صوّمتك ثلاثة أيام وثلاثة ليالى وأفطرت أنا ، بل حى هو اسم المسيح ما تغذيت فى هذه الأربعين يوما إلا بمثل ما غذيتك به ". ثم بارك عليه وصرفه فعاد إلى زوجته المباركة فرحا مسرورا .[٥٨]

ج - الرب يقبل عطاياك : -

ومما يذكر عنه انه أتته يوما سيدة وقدمت له مبلغا من المال . فقال لها الأنبا زكريا " الرب يقبل عطاياك " وصمت . وانتظرت هى دعوات أخرى فلم يقل ، فخرجت وهى تشعر بالضيق . فأحس بها تلميذه فأسرع إليه وأخبره فطلب أن يستدعيها فلما مثلت أمامه أمر تلميذه بإحضار ميزان . ثم وضع تقدمتها فى كفى الميزان وفى الكفة الأخرى وضع ورقة كتب عليها " الرب يقبل عطاياك " . وعندما رفع الميزان رجحت الكفة التى بها الورقة . فقال لها البابا " يا ابنتى خذى منهما ما أردت " . فخرجت أمامه باكية وأخذت الورقة واحتفظت بها كبركة.[٥٩]

ثالثا: الأنبا شنوده الثانى (البطريرك الـ ٦٥) (١٠٣٢ م - ١٠٤٦ م):

وقد عاصر هذا البطريرك من خلفاء الدولة الفاطمية كل من الخليفة الظاهر والمستنصر

وقد نالته متاعب كثيرة جدا ومضايقات من الداخل والخارج ، كانت نتيجتها أن حاقت بالكنيسة مظالم كثيرة ونال الأقباط منها جانبا كبيرا من المتاعب والمظالم.

ومما يذكر أن هذا البطريرك أصدر قرارا بأن تؤول مقتنيات الأساقفة بعد نياحتهم إلى البطريركية ، وظل هذا النظام معمولا به حتى أبطله البابا شنوده الثالث بموجب قرار أصدره وأعلنه .[٦٠]

رابعا: الأنبا خرستوذولوس(البطريرك الـ ٦٦)(١٠٤٦ م - ١٠٧٧ م):

كانت مدة حبرية هذا البطريرك فى خلافة الخليفة الفاطمى المستنصر . الذى سبق أن تحدثنا عنه وقد نال هذا البطريرك متاعب كثيرة على يد محمد البازورى وزير المستنصر . كما نالته متاعب على يد رجال قبيلة " اللواته " الذين عاثوا فسادا فى الوجه البحرى وقبضوا على البطريرك أنبا خرستوذولوس ، وأذاقوه ألوان العذاب بعد

أن نهبوا داره ، وأسره اللواتيون ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن دفع عنه ثلاثة آلاف دينار على نحو ما أشرنا قبلا فيما كتبنا عن الخليفة المستنصر .
كما نالته متاعب كثيرة قام بها ستة من الآباء الأساقفة ومتاعب أخرى بسبب راهب يدعى فلوطس ومتاعب أيضا بسبب راهب يدعى أبو يعقوب بالإضافة إلى متاعب جمة من إنسانا يدعى على القفطى .

ومن أشهر المتاعب التى حاقت بالكنيسة فى أيامه :

١ ـ بسبب الحصول على مفاتيح كنيسة واحدة : -

لقد حاقت بالكنيسة متاعب كثيرة عندما أراد البابا خرستوذولوس فتح كنيسة للصلاة بعد أن أغلقت جميعها ، ففرض الوالى نظير ذلك ضريبة باهظة على أقباط الإسكندرية ودفعوها مقابل تسليم البطريرك مفاتيح كنيسة واحدة لإقامة العبادة فيها (كانت بيت انيانوس البطريرك الثانى) .

٢ - سرقة الأديرة وقتل الرهبان : -

فقد ذكر بعد مقتل الوزير يازورى أن عاود المسلمون ثانية وألقوا القبض على البطريرك وهجموا على البطرخانة بالإسكندرية ووجدوا فى الخزينة تسعة آلاف دينار إقتسموها ، ثم أطلقوا سراحه بتوسط ذوى النفوذ من موظفى الأقباط ، كما
ذكر أن جرت العادة أن يزور البطاركة أديرة وادى النطرون ، وفى أحد السنين بينما كان البابا خرستوذولوس بوادى النطرون ، هجم أتباع ناصر الدولة زعيم الترك على الأديرة واضطهدوا الرهبان وذبحوا كثيرين منهم ، وأخذوا البطريرك أسيرا معهم وأوسعوه إهانة وتعذيبا ولكن الله نجاه بواسطة رجل قبطى يدعى أبا الطيب ، كان رئيس كتبة ناصر الدولة فتوسل إلى مولاه أن يطلقه ، ففعل إكراما لخاطره ودفع أبو الطيب فدية له مبلغ ثلاثة آلاف دينار .[٦١]

٣ـ البابا خرستوذولوس ورأس مارمرقس الرسول :

وفى عهد هذا البطريرك تمكن الأقباط من الاحتفاظ برأس ما مرقس كاروز بلادنا على الرغم من سعى الروم للحصول عليها مقابل عشرة آلاف دينار. وقد أشرنا أيضا إلى ذلك فى حديثنا عن الخليفة المستنصر. ونضيف هنا أن رأس مار مرقس كانت تظهر منها عجائب كثيرة .. ويروى تاريخ البطاركة أن شخصا شك فى قلبه عن صحة هذه الرأس للقديس مارمرقس أم لا ". ففى تلك الليلة ظهر ما مرقس لشقيقه وقال له " أخوك شك فى .. ففى الصباح أعلم أخاه بما رآه فى الحلم، فلما سمع تعجب وارتعب واعترف بما خامره من شك، ومضى إلى حيث رأس القديس وصلى بدموع طالبا الصفح عنه ".[٦٢]

٤ـ البابا خرستوذولوس وطقوس الكنيسة : -

ومن الأمور الحسنة التى تذكر لهذا البطريرك اهتمامه بالنواحى الطقسية فـــى الكنسية والعبادة. ولقد وضع قوانين طقسية ، نسخة منها موجودة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة . وقد بدأ فى إصدار هذه القوانين فى (أول أغسطس سنة ١٠٤٨ م) بعد أقل من سنتين من رسامته بطريركا. وكان أول هذه القوانين خاصا بالمعمودية. وتلاه بقوانين عن العبادة الكنسيّة وخشوع المؤمنين فى دخول الكنيسة. وتناول فى قوانينه أمور كثيرة تتعلق بطاعة الزوجات لأزواجهن - وتكلم عن الصوم الأربعينى وطقس أسبوع البصخة ابتداء من نهاية قداس أحد الشعانين - كما تكلم عن طقس الخماسين وصوم الرسل وصوم يومى الأربعاء والجمعة وصوم الميلاد والغطاس.

تأديبات الرب لشعبه:

أ - سـبق أن ذكـرنا أنه فى زمان الخليفة الفاطمى المستنصر حلت بمصر أيام سود اسـتمرت سـبع سنوات بسبب انخفاض مياه النيل وحدثت مجاعات وانتشرت أوبئة وتـرتب على ذلك قيام حروب أهلية فى مصر نتيجة الغلاء الفاحش وندرة القوت .. وكـان هذا بلا شك تأديبا من الرب لأولاده الذين انحرفوا وحادوا عن طريقه وأخذوا يتشبهون بغير المؤمنين فتكبروا وتصلفوا ..

يقول كاتب البطاركة " ولما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمرها كلهم نصارى وهم الملاك النافذ أمرهم بغوا وعتوا وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر ، وتكبروا وعزت نفوسهم . ووقع بينهم وبين مقدميهم البغضة والحسد . وصـار أكثـر اهـتمامهم بالأمورالعالمية والتجمل والتفاخر والكبرياء على بعضهم البعض. فنزل الأدب من السماء من عند السيد المسيح على جميع النصارى حتى لحق غيرهم من الأمم لينتقم منهم عن جميع ذنوبهم فى هذه الدنيا ويخلصهم فى الآخرة قبل أن يصيروا إليه ... " .[٦٣]

وممـا قاله أيضا " كثرت خطايانا وذنوبنا.. حتى إن جماعة من المسلمين والنصارى أبصروا بأعينهم الدموع تجرى من أعين بعض الصور التى فى الكنائس". [٦٤] "

ب - ومن القصص المؤثرة فيما يختص بتأديبات الرب لشعبه ، أن إنسانا مسيحيا كان دائما يستشفع بالشهيد مرقوريوس (أبو السيفين) وكان يقضى حوائجه مقابل خدمته له .. وفى زمن تأديب الرب هذا استشفع هذا الرجل كعادته بالشهيد مرقوريوس فلم يقض له حوائجه كما اعتاد ، فدخله الشك من جهة هذا الشهيد .

فظهر له الشهيد فى تلك الليلة " وأخرجه إلى موضع واسع ، وأوقفه على جب فيه خيل وسلاح . وقال له هل تعرفنى ؟ أنا هو مرقورة فلا تشك . اعلم إنى أنا واخو تى

الشهداء وغيرنا قد أمرنا بأن لا نشفع فى أحد فى هذا الزمان لأنه زمان أدب . وهذه خيلنا وسلاحنا قد تركناها هنا ".

٥ــ البابا خرستوذولوس ومملكة النوبة المسيحية :

حرص البطريرك الأنبا خرستوذولوس على الصلات الطيبة التى تربط بين الكنيسة فى مصر ومملكة النوبة المسيحية . فما أن وصلته رسالة جرجس ملك النوبة يطلب فيها رسامة مطران لهم لنياحة مطرانهم حتى بادر باختيار راهب تقى ورسمه وأرسله إليهم ، فرح به النوبيون لأنه دشن لهم كنيسة قد بناها سلفه.

وكان ملك النوبة هذا قد قطع الجزية التى كان يرسلها إلى مصر لكنه عاد إلى دفعها بعد أن أقنعه رسول من قبل البابا خرستوذولوس بذلك حفظا للسلام بين الدولتين . وهذا يؤكد أن كنيسة الإسكندرية قد عرفت دائما – كما فعلت فى إثيوبيا – حدود رسالتها فلم تتعد دائرة الدين.

ومما ينبغى ذكره فى هذه الفترة : –

انــه فى عصر هذا البطريرك ساد الانحلال والجهل، ومن أروع الأدلة على ذلك أن المكتــبة التى وصفها المقريزى كأنها أسطورة من نسج الخيال التى كانت تحوى مئة ألــف مجلــد إلــى جانب آيات الفن فى القصور والمتاحف، أصبحت نهبا لكل ناهب وتبددت بأتفه الأثمان.[٦٥]

خامسا: الأنبا كيرلس الثانى البطريرك الــ ٦٧(١٠٧٨ م – ١٠٩٢ م)

كانــت حبــرية هذا البابا الفاضل فى خلافة الخليفة الفاطمى المستنصر الذى سبق أن تحدثــنا عــن عهــده . لكن المتصرف الفعلى فى شئون البلاد كان هو بدر الجمالى الأرمنــى الــذى استحضره الخليفة من سوريا وخلع عليه عدة ألقاب منها لقب " أمير الجيوش " وكان رجلا قوى الشكيمة ، حسن التصرف . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك . علــى أن أعظــم ما يميز هذه الفترة هو الفن المعمارى . فأقيمت الأبنية العظيمة فى القاهــرة وغيــرها مــن المدن الكبيرة . وأحاط بدر الجمالى مصر القديمة والقاهرة بأســوار منيعة . وكان المتولى عمارتها راهب قبطى يدعى يوأنس (يوحنا) ، وهو الذى أشرف على تصميمها.[٦٦]

وفى ملاحظة هامشية للعالم المؤرخ الفريد بتلر على ما ذكره أبو المكارم عن الراهب القبطى يوأنس يقول " ليس هناك دليل اكبر من أن الأقباط كانوا هم مهندسى القاهرة " .. ويذكــر أبــو المكارم أن الراهب يوأنس هو الذى صمم أسوار القاهرة الجديدة فى عهــد بــدر الجمالــى والخليفة الفاطمى المستنصر . وكانت الأسوار الأولى قد بناها جوهــر الصقلى . وأقام بدر الجمالى الأسوار الجديدة بعد قرن من الزمان وكان ذلك

فــى سنة ١٠٨٧ م ولم تبن الأسوار الجديدة مكان الأولى ولكنها أقيمت فى مواضع أخــرى أعطت المدينة مزيدا من الاتساع خاصة من ناحيتى الشمال والجنوب . وقد أقـيمت الأســوار الجديدة من الطوب الأحمر أما أبواب المدينة فبنيت من الحجارة . وهذه الأبواب هى باب النصر وباب الفتوح وباب زويله .

ووســط اســتتباب الأمن والهدوء كلف بدر الجمالى الأقباط بتنظيم الدواوين وتشكيلها وبلغ مقدار ما جبى فى أيامه ضعفى ما كان يجبى قبلا .

العلاقة الطيبة بين البابا كيرلس وبدر الجمالى : -

ـــ بعد أن تمت رسامة البابا كيرلس الثانى بالإسكندرية سار إلى مصر وقصد كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بجزيرة الروضة فى الموضع الذى يقال له المختارة (لذا ترد فــى المخطوطات باسم كنيسة ميخائيل المختارة.[٦٧] فهب لاستقباله الأنبا يعقوب أسقف مصر وأرسل إلى الشيخ أبو الفضل يحيى بن إبراهيم متولى ديوان الأبــواب (رئيس الشــرطة) وديــوان الصــناعة ، يعلمه بوصول البابا البطريرك إلى كنيسة ميخائيل بجزيــرة الروضـــة ، فســارع هذا الشيخ وأرسل حصانا أبيض ليركبه البابا . وكان بصحبته عدد من حفظة الأمن وعبر النيل إلى مصر وكان فى استقباله على الشاطىء جمهــور كبيــر من الناس. وسار البابا إلى قصر الخليفة تتبعه جموع كثيرة ويتقدمه مــوكب مــن خــدام الكنيسة. وهكذا حتى وصل إلى قصر الخليفة المستنصر. وجاء لاستقباله مأمون الدولة (وكان يسمى الأستاذ ، وكان من المقربين للخليفة) - ثم أخذ مأمــون الدولـــة الـــبابا بمفرده وأدخله إلى الخليفة المستنصر وكانت معه أمه وأخته جالستين " وبين أيديهم طيب كثير فضخوه من ذلك الطيب . وقالوا بارك علينا وعلى قصــرنا. فــبارك عليهم ودعا لهم ففرحوا به وقالوا له جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتــنا ". ثــم خرج ووقف على باب القاعة، وأمر بطرس أسقف دقميرة.[٦٨]أن يقرأ الدعاء ، فقرأه ، وبارك هو أيضا ودعاله.[٦٩]

ـــ ثم ذهب البطريرك ومن معه إلى دار أمير الجيوش بدر الجمالى فاستقبل استقبالا حســنا فــدعا لـــه دعاء كثيرا ، وأمر بطرس أسقف دقميرة فقرأ الدعاء ، وأمر بدر الجمالـــى والـــى مصر أن يخرج معه إلى حيث يريد " وأن يراعيه ويخدمه ويقضى حــوائجه مـــادام بمصـــر . فخـــرج مــبجلا ونزل إلى كنيسة السيدة العذراء المعلقة بمصر..ثم طلع بعد أيام إلى كنيسة السيدة بالقاهرة بحارة الروم " .

البابا كيرلس والصوم الكبير:

ولما حل الصوم الكبير خرج قاصدا دير أبو مقار وهناك حدث شيء عجيب فى يوم الخميس الكبير (خميس العهد) بينما كان وعاء الميرون موضوعا على المذبح فاض الميرون على يديه وعلى المذبح من تلقاء ذاته. وكان الأمر موضع دهشة الحاضرين.

البابا كيرلس وبطاركة وملوك الدول الأخرى المجاورة :
أ – وتبادل البابا كيرلس الثانى والأنبا ديونسيوس البطريرك الأنطاكى رسالة السنوديقا (الإيمان المشترك) – وبموجبها كان يذكر اسم كل بطرك فى الصلوات والقداسات فى كنائس الكرسى الآخر.
ب – وفى عهده اعتزل سلمون ملك النوبة شؤون المملكة وتنازل عنها لجورجيوس ابن أخته ، وانفرد هو بالعبادة والنسك (وكان ذلك فى السنة الثانية لبطريركية البابا كيرلس الثانى) فى بيعة على اسم القديس أبو نفر وكان هذا المكان يبعد عن أسوان مسيرة عشرة أيام . وكان والى أسوان يومئذ هو أسعد الدولة شاردكين القواسى . فأتاه أحد رجاله وقال له " يا مولاى أتريد أن أمضى وأحضر لك سلمون الذى كان ملكا على النوبة " قال له " نعم " فذهب فى صحبة عشرين رجلا وفاجأوا البيعة التى فيها سلمون . وأخذوه أسيرا إلى القاهرة. فلما وصل القاهرة استقبل أحسن استقبال وأكرمه بدر الجمالى وأنزله فى دار حسنة. وأقام على هذه الحال نحو سنة ثم تنيح ودفن فى دير الخندق (أنبا رويس) الذى كان فى ذلك الوقت خارج مدينة القاهرة.
وفى أثناء إقامة سلمون ملك النوبة بمصر ظهر بجلاء ما كان بين القبط والنوبيين من الـــرابطة الدينية. وتبادلت الزيارات بينه وبين البطريرك ووجهاء القوم ، الذين بالغوا فـــى إكـــرامه . فكـــان وجوده بينهم هذه المدة الوجيزة سببا فى تعزيز شأنهم وإعلاء مقـــامهم عند أكابر الدولة وعظمائها ولاسيما عند بدر الجمالى، الذى لما علم بما بين الأقباط والنوبيين والأحباش من الرابطة الدينية ، كان يحاول إبرآم معاهدات مع ملوك هاتين الدولتين لتسهيل طرق التجارة وامتدادها بين مصر وهذه البلاد ، كاشف وجهاء الأقـــباط بما فى قلبه ، وطلب منهم بذل المساعى لتنفيذ مقاصده . فلبوا طلبه وشرعوا فـــى فـــتح باب الاتصالات مع ملوك النوبة والحبشة بواسطة الأب البطريرك كيرلس الثانى .. وبعد تداول المحادثات والمكاتبات تم الاتفاق أخيراً وأثنى عليهم . وأنعم على الأب البطريرك بمال يستعين به على إصلاح الديارات والكنائس التى خربت.[٧٠]

انتقام الله من المغرضين وإظهار كرامة خدامه الأبرياء له:
فقـــد ذكر أن خمسة أساقفة تعصبوا ضد الأب البطريرك ولجأوا إلى شخص يدعى " يثيب "ناظر بساتين (خولى) بدر الجمالى وكان قريبا منه ، وتمكنوا من إثارة يثيب ضد البطريرك وشحنوه حتى قدم الشكاوى ضد البطريرك .
نعـــود إلـــى يثـــيب هـــذا الذى تعصب لخصوم البطريرك .. فبعد أن إنصرف الآباء الأســـاقفة من محضر بدر الجمالى عاتب بطرس أحد تلاميذ البطريرك يثيب على ما فعله. فما كان من يثيب إلا أن خاطبه بقبيح الكلام. وحاول أحد الأساقفة أن يهدئ من غضـــبه دون جـــدوى. وازداد غضبه على التلميذ. فلما خرج البطريرك من البستان

حيث كان يعقد الاجتماع – ورأى يثيب هائجا خاطبه بكلام لين فلم يهدأ. ودار كلام بينه وبين البطريرك . وأخيرا قال له البطريرك " يا يثيب إذا كان لك سلطان الأرض، فأنا معى المسيح الذى له سلطان السماء والأرض " . ونزل البطريرك عن دابته وضرب ليثيب مطانية. وإزاء ذلك بكى جماعة من النصارى كانوا حاضرين. ومع ذلك لم يرتدع يثيب.

وفى يوم السبت التالى مباشرة (فى مثل نفس اليوم الذى ضرب البطريرك المطانية ليثيب) ، نما إلى علم أمير الجيوش أموراً ضد يثيب فغضب منه ، وركب لوقته إلى البستان وأمر بضرب رقبته ، وضربت رقبته فى نفس المكان الذى ضرب له فيه الأب البطريرك المطانية . وكان أيضا فى مثل تلك الساعة . فتعجب جميع الناس وإزدادت كرامة الأب البطريرك عندهم ، وعند أمير الجيوش أيضا.

غيوم الصيف بين البابا كيرلس وبدر الجمالى : -

وحدثت أزمة بين بدر الجمالى والأب البطريرك وبعض الأساقفة بسبب هدية أرسلها مطران الحبشة مع أخيه ، لم تقع عند بدر الجمالى موقعا حسنا . وبسبب كلمة غير حكيمة قالها أسقف من حاشية البطريرك غضب أمير الجيوش وقرر على كل أسقف كان حاضرا مع البطريرك (وكان عددهم عشرة) دينارين كل يوم حتى يكتبوا إلى ملك الحبشة، ويسافر أسقفين برسالة إليه .. وانتهى ذلك اللقاء نهاية سيئة ، وأمر بالقبض على أخى مطران الحبشة الذى حمل الهدية .. وبسبب هدية حسنة وصلت من عند ملك النوبة ، طابت نفس أمير الجيوش وأرسل واستدعى البطريرك والأساقفة العشرة وأكرمهم وطيب قلب البطريرك. وكان أمير الجيوش قد طلب من مطران الحبشة ساويرس قبل سفره أن يبنى أربعة مساجد للمسلمين هناك . لكن المطران بنى سبعة مساجد ولكن الأحباش هدموها وأرادوا أن يقتلوا المطران ، بل إن ملك الحبشة قبض على المطران وأعتقله . ولما تأكد أمير الجيوش من ذلك هدأت ثورته.[٧١]

حقيقة ينبغى أن تقال :

(أ) مما هو جدير بالذكر أنه فى بطريركية الأنبا كيرلس الثانى – وعلى وجه التحديد سنة ١٠٨٨ م / ٨٠٤ ش كان عدد الرهبان ببرية شهيت أكثر من سبعمائة راهب كالآتى : أربعمائة بدير أبو مقار ،ومائة خمسة وستون بدير يحنس القصير ، وخمسة وعشرون بدير يحنس كاما (وهذين الديرين اندثرا فيما بعد) ، وعشرون بدير البرموس وأربعون بدير الأنبا بيشوى ، وستون بدير العذراء (السريان) ، وفى مغارة أبو موسى راهبين أحدهما سريانى والآخر قبطى – هذا عدا السواح الذين لا يعرفهم كاتب السيرة .

(ب) عندما تعصب خمسة أساقفة ضد البابا البطريرك اجتمع مجمع الكنيسة المقدس

وكان عدد أعضاء المجمع ٤٧ أسقفا بخلاف الأب البطريرك . وكان منهم ٢٢ أسقفا من الوجه البحرى ٢٢ أسقفا من الوجه القبلى وأسقف نابليون وأسقفى الخندق والجيزة . وهذا يدل على أن عدد الأقباط فى ذلك الوقت ما يزال كبيرا جدا .

سادسا: الأنبا غبريال بن تريك (البطريرك الـ ٧٠)(١١٣١ - ١١٤٥م):

هـو أبو العلا صاعد بن تريك من مدينة مصر ، من عائلة قبطية عريقة ، كان والدة قسا وترمل . وكان كاهنا قديرا عالما متقشفا ، يعيش حياة طاهرة نسكية ، وكان ذا أموال كثيرة .

نشأ نشأة صالحة إذ رباه أبوه الكاهن تربية دينية وثقافية حسنة حتى صار رجلا عالما وكاتبا ملما بعلوم الكنيسة والكتب المقدسة ، فضلا عن أعمال الدواوين ، مقتدرا فى اللغتين القبطية والعربية . كما كان ناسخا ماهرا ، قام بنسخ عدة كتب قبطية وعربية ، الأمر الذى ساعده على التبحر فى علوم الكنيسة وعقائدها.

وعلى الرغم من مسئولياته الحكومية ككاتب فى دواوينها فقد كان ملازما للبيعة. محبا للصلوات، كثير الصدقات، باذلا نفسه لخدمة الكنائس والغرباء والمرضى مفتقدا الأرامل والأيتام ومن فى السجون. كان ذا منزلة كبيرة لدى الوزير أحمد بن الأفضل حفيد بدر الدين الجمالى. ولعل ذلك يتضح من السماح له بتكريس نفسه شماسا للخدمة بكنيسة أبى سيفين مع الاحتفاظ بوظيفته فى الديوان. وكان ذلك بسبب استقامته وأمانته ومقدرته على تصرف الأمور.

أسباب تأخر رسامة البابا غبريال بن تريك:

وبسبب ظروف الأمن المضطربة فى البلاد وكثرة الوشايات ظل كرسى البطريركية شاغرا مده أكثر من سنتين بعد نياحة البطريرك مكاريوس الثانى.

ويمكن تلخيص أسباب تأخير رسامة بطريرك جديد خلفا للبطريرك مكاريوس الثانى فى سببين:

السبب الأول هـو فقر الأقباط الشديد فى تلك الفترة نظرا للظروف المختلفة، الأمر الذى يجعلهم فى حالة عجز عن دفع مبلغ يتراوح من ثلاثة آلاف إلى ستة آلاف دينار لخزينة الدولة لاستصدار مرسوم التنصيب، وذلك بسبب الضرائب الباهظة التى فرضت بسبب الحرب مع الفرنجة.

السبب الثانى هـو خشية أراخنة الأقباط من رفض الوزير التصديق على انتخاب مسيحى بسبب حالة الشئون الدولية ..

وفضلا عن ذلك فقد ازداد الأمر صعوبة بسبب أثنين من الرؤساء أضمرا كراهية شديدة لكل المسيحيين أحدهما مسلم هو ابن أبى قيراط والآخر سامرى ويدعى إبراهيم

– هـذان الشخصان ضللا الخليفة بالقول أن الأقباط جمعوا أموال الكنائس وأرسلوها للفـرنجة لمســاعدتهم. وإزاء ذلك أمر الخليفة بمصادرة أى أموال قبطية سواء كانت خاصــة بالكنيســة أو بأفـراد من الأقباط. وظل الحال كذلك حتى اغتيل كلاهما فى ظروف الفوضى التــى كانت تعم البلاد، وتقلد مناصبيهما بعد ذلك مسيحى ملكانى . وبواسطته سمح الوزير أحمد حفيد بدر الجمالى للأقباط برسامة بطريرك.[٧٢]

وكان وقوع الاختيار عليه بطريركاً بسبب نبوات بعض القديسين والإرشاد عنه دون أن يعـرفوه .فقـد قيل أن سلفه البابا مكاريوس الثانى تنبأ عنه ، كذا الراهب الحبيس بأبـيار . كما أرشد الرهبان الآباء إليه أحد قديسى دير السريان فى ذلك الوقت يدعى يوسـف دون أن يعرف مجرد أسمه ، وذكر أنه فى طفولته كان وهو يلعب مع أترابه من الأطفال يقول لهم أنا بطريرككم ويلبس ثيابا متشابهة لثياب البطاركة .

وقـد رسـم بطريركا فى الخامس من ابريل سنة ١٣١٠ م / ٩ أمشير سنة ٨٤٧ ش ودعى غبريال الثانى لكنه أشتهر باسم البابا غبريال بن تريك.

عبارة واحداً مع لاهوته: –

حـدث وهـو يقـدس أول قـداس له بعد رسامته بطريركا بدير أبو مقار أن قال فى الاعتـراف الأخير عن جسد ربنا يسوع المسيح " وصار واحدا مع لاهوته " . فأنكر الـرهبان علـيه هذا التعبير . أما هو فقال لهم أنه يقولها لأنه هكذا استلمها من الآباء الأساقفة يوم رسامته الذين كانوا يلقنونه .. وبعد مناقشات طويلة استقر منعا من اللبس أن يكون التعبير كالآتى " وصار واحدا مع لاهوته بغير افتراق ولا امتزاج ولا تغيير " . وقـد وافقهم على ذلك وأصدر أمره إلى جميع الكنائس بتلاوة الاعتراف بالصيغة الجديـدة .. هـذه الحادثـة إنما تدل على أكثر من مدلول. فهى تدل على يقظة الآباء الـرهبان فى ذلك العصر وإتقانهم للعلوم اللاهوتية وتمسكهم بمعتقد الكنيسة. كما تدل علــى شـجاعة أولئك الرهبان حينما تصدوا لبطريرك الكنيسة. وتدل كذلك من جهة البابا على اتضاعه وخضوعه للحق .[٧٣]

وفى بداية عهده تنيح الأنبا يوأنس بن سنهوت أسقف مصر ، ولم يرسم هذا البطريرك أسـقفا خلفــا له بل ضم كنائس هذا الكرسى له . وكان ذلك بطلب تقدم به شعب هذا الكرسى.

حالة البلاد فى أيامه واضطهاد الأقباط :

وعلى مستوى الدولة تميزت الفترة التى قضاها هذا البطريرك على الكرسى المرقسى بعـدم الاسـتقرار ، واضـطراب الأمن وكثرة القلاقل ، وكثرة من قتل من الوزراء ورجـال الدولــة ..كما تميزت هذه الفترة بالصراع بين المصريين المسلمين والجالية الأرمينـية كبيـرة العـدد التى استجلبها بدر الجمالى الأرمنى . وكان نتيجة ذلك قتل

بطريرك الأرمن وإحراق دير لهم وقتل من به من الرهبان . كما نهبت كنائس للأقباط.. وفى تلك الفترة كان فى الوزارة شخص يدعى رضوان بن ولحش أصدر أمره بعدم استخدام النصارى فى الدواوين ولا يكونوا نظارا وأن يشدوا زنانيرهم فى أوساطهم ولا يركبوا الخيل وضاعف عليهم وعلى اليهود الجزية ، وغير ذلك من أنواع الضغوط والتحقير الأدبى .. وفى عهد هذا الوزير هجم المسلمون على كنيسة "بمنية زفتى" وكانت باسم مار جرجس ، واستولوا عليها وحولوها إلى مسجد . لكن الأنبا ميخائيل أسقف صهرجت الذى كانت تابعة له الكنيسة، استغاث بالوزير رضوان ابن لخيش وأوضح أنها بيعة قديمة، فأمر بإعادتها له .

وكان البابا غبريال بن تريك رجلا مصلحا وطقسيا وقانونيا وكنسيا:

(أ) منع دفن الموتى بالكنائس:

أصدر أمره بمنع دفن الموتى بالكنائس وبلغ حماسه لذلك أنه أمر بإغلاق كنيسة حارة الروم لأن شعبها خالف تعليماته ودفن بها قمص الكنيسة ، ولكنه عاد وفتحها بسؤال الأراخنة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنه حمل جسد الأنبا مكاريوس سلفه إلى دير أبى مقار ، وكان مدفونا بالكنيسة المعلقة .. كما أصدر أمره بمنع تقديم ذبيحة على اسم الملاك ميخائيل لأن الذبيحة لا تقدم إلا على اسم الله . كما منع الكهنة من شرب الخمر وحارب الشعوذة والتنجيم والتسرى(أى إمتلاك السرارى) .. وفيما يختص بهذه النقطة الأخيرة ، امتنع بعض الأغنياء عن تنفيذ تعليماته فى هذا الشأن فدعا عليهم ، فلم ينقض زمن حتى إنتهوا جميعا .. كما حارب السيمونيه ورسم فى عهده ثلاثة وخمسين أسقفا للايبارشيات القبطية .. ولم يضع هذا البابا يده على شيء من أموال الكنائس وأوقاف الفقراء .

(ب) ترتيب كتاب البصخة المقدسة:

ومن أهم إنجازاته الطقسية ترتيبه لصلوات أسبوع الآلام. وكانت القوانين الرسولية حتى زمان هذا البابا تقضى بقراءة العهدين القديم والجديد مدة هذا الأسبوع بلا ترتيب معين ولذا فقد كان غالبية الشعب يقرأها لذاته وحده ، أى أنها لم تكن تقرأ على مسامع جميع الشعب . فجمع هذا البطريرك العلماء ورؤساء الكهنة وبعض رهبان دير أبو مقار ووضع ترتيبا وعمل كتابا لذلك أسماه البصخة المقدسة. ولعل من الأمور التى دفعته إلى ذلك أن أكثر من كانوا يعملون فى دواوين الدولة كانت لا تمكنهم ظروفهم من تكميل هذه الخدمات.

ومما هو جدير بالذكر أن كتاب البصخة نظمه بصورة أدق فيما بعد شخصية جليلة هو الأنبا بطرس أسقف كرسى البهنسا.(بجوار بنى مزار)[٧٤]

(ج) تلاوة الأناجيل والعظات باللغة العربية:

ذكر أن البابا غبريال بن تريك هو أول من أصدر أمره إلى جميع الكنائس بقراءة

الأناجيل والخطب الكنسية وما إليها باللغة العربية فى الكنائس وذلك بعد تلاوتها باللغة القبطية وذلك بعد أن وجد أن الأقباط يتكلمون العربية . ومن غير المعقول ألا يفهم المصلى لغة الصلاة . لذا فقد بادر بهذا القرار الخطير حتى يتمكن الأقباط من متابعة الصلوات والقراءات والعظات.[٧٥]

(د) ترتيب القوانين الكنسية:

أما عن القوانين الكنسية التى وضعها هذا البطريرك ، فقد تضمنتها ثلاثة كتب:

الكتاب الأول : ٣٨ قانونا يختص بتنظيم أمور البيعة ، وعلاقة الشعب دينيا ومدنيا وواجب الأساقفة نحو رعيتهم وكذلك واجبات الكهنة ، ونهى عن سكنى الرهبان فى العالم بل عليهم أن يمضوا إلى دياراتهم . كما أمر بعدم التقديس إلا بواحد من القداسات الثلاث (الباسيلى ، الغريغورى ، الكيرلسى) . كما ذكر الآباء الأساقفة بانعقاد المجمع المقدس مرتين كل عام ، لكن حرصا على راحتهم أمر أن يحضر واحد من الأساقفة مرة واحدة فى كل سنة إلى القلاية البطريركية للمناقشة فى أحوال كرسيه .

والكتاب الثانى: يختص بتنظيم أمور الاكليروس.

أما الكتاب الثالث: فيختص بالمواريث.

ويقال أن لهذا البطريرك مؤلفات أخرى من بينها " علم الكنيسة " ومنه نسخة محفوظة فى مكتبة الفاتيكان وله أيضا عدة كتب فى التفاسير.[٧٦]

مرضه وظهور السيدة العذراء له :-

وحدث فى الأحد الثالث من الصوم الكبير لسنة ١١٤٤ م أن مرض البابا غبريال من كثرة تقشفه وأصوامه، وازدادت وطأة المرض عليه . وكانت جميع الكنائس ترفع صلوات عنه لكى يهبه الرب الشفاء. فأبصر البطريرك فى حلم السيدة العذراء مريم تقول له " الرب قد وهبك من أجلى أياما أخرى " فقام من مرضه معافى تماما.

كما قيل أنه رأى فى منامه وكأن جماعة من الكهنة والرهبان ومعهم أناجيل وصلبان ومجامر وقالوا له إننا جئنا لافتقادك الآن ، ونحن نعود إليك فى العام المقبل فى مثل هذا الوقت ونأخذك معنا . ثم عوفى من المرض.

نياحته: وفى العام التالى ١١٤٥ م تنيح البابا غبريال بعد أن أكمل جهاده الحسن بعد مرض وصلوا عليه فى كنيسة أبى سيفين ودفن فى جانبها ثم نقل جسده إلى دير أبو مقارة بعد ذلك.

سابعا: البابا يوأنس الخامس(البطريرك الـ ٧٢)(١١٤٧ - ١١٦٦ م)

جلس هذا الأب على الكرسى البطريركى ما يقرب من ١٩ سنه. وعاصر من الخلفاء الفاطميين الحافظ والظافر والفائز والعاضد وهو آخر الخلفاء الفاطميين .وقد كان

راهبا من دير أنبا يحنس القصير ويدعى يوأنس بن أبى الفتح .. وكان أحد المرشحين الثلاثة للكرسى البطريركى فى المرة السابقة وعمل بينهم قرعة فكانت القرعة باسم البطريرك ميخائيل الثانى ..
أجمعت الآراء على اختياره البطريرك الثانى والسبعين. فأرسل الأساقفة كهنة أحضروه من ديره إلى مصر ، ورسم قسا ثم قمصا بكنيسة المعلقة بمصر .
ومنذ رسامة البطريرك الأنبا ميخائيل الثانى البطريرك الـ ٧١ وكان هناك أحد رهبان دير أبو مقار ويدعى يوأنس بن كدران ينافس على الفوز بهذا المنصب . وفى هذه المرة أيضا كرر محاولاته ولجأ إلى السلطات الحكومية، فأحال الخليفة الآمر إلى مجلس يضم الأساقفة وقاضى القضاه وبعض رجال الدولة الكبار.

ويهمنا هنا أن نسجل رأى الآباء الأساقفة الذين أعلنوه فى هذا المجلس:
" قال من حضر من الأساقفة والكهنة ليس لهم بطرك إلا من طلبوه ورغبوا فيه. ولا يكون هو (أى المرشح) طالب ولا راغب بل من أهل الاتضاع والعلم والدين، ومن يشهد له بالعفاف والطهر. وهذه سُنّة القوم من أول ما عبدوا الله بدين النصرانية وإلى هذا الوقت .. إذا صح عندهم أن الرجل الذى يريدوا أن يقدموه عليهم كامل لأوصاف شريعتهم من القداسة والدين والعلم والصلاح والعفاف والرحمة وبقية ما يحتاجوه أن يكون فيه على حكم مذهبهم . أخذوه كرها من غير اختياره وقيدوه بالقيد الحديد لئلا يهرب منهم إلى البرية الجوانية فلا يقدروا عليه.[٧٧]
وكان الخليفة عادلا منصفا متزنا فأمر بأن يكتب سجل ويسير حاجب معهم إلى الإسكندرية ليعقدوا هناك اجتماعا يضم أراخنة الإسكندرية وكهنتها ليختاروا واحدا من أثنين، إما يوأنس ابن أبو الفتح أو يوأنس بن كدران. وكان اجتماعا كبيرا ضم الأساقفة وجميع أراخنة الأقباط بالقاهرة والإسكندرية وجميع الأقاليم بالقطر المصرى ، وسأل الوالى والقاضى والفقهاء والحاضرين عمن يختارون ، فصاح الجميع بفم واحد يوأنس بن أبو الفتح .

وممـا هو جدير بالذكر على قداسة يوأنس بن أبو الفتح أن أحد المسلمين الحاضرين سأله " ما تقول أنت فى هذا الرجل (يوأنس بن كدران) أهو مستحق لهذه الرتبة دونك " . فأجاب " نعم هو أصلح منى وأعلم بالشريعة " . وكان هذا إظهارا لفضيلته ..
وانتهى الأمر برسامته بطريركا بالإسكندرية، وسافر منها إلى مصر حيث قوبل أحسن استقبال ، وساروا به إلى كنيسة أبى سيفين التى جعلها مقر بطريركيته .
ومما يدل على طيبة قلب هذا البطريرك أنه أراد أن يطيب قلب يوأنس بن كدران برسامته أسقفا على سمنود فأمتنع ولم يطع . وعاش حياته بين الدير والريف حتى توفى.

المتاعب التى حاقت بالكنيسة فى ذلك الوقت:

وتميزت فترة هذا البطريرك - فيما يختص بالدولة - باضطراب الأمن وكثرة حوادث قـتل الخلفـاء والـوزراء. وكـان أمرا طبيعيا أن يكون من نصيب الأقباط شيئا من الاضطهاد والمتاعب. فقتل بعضهم وبيع بعضهم كعبيد بثمن بخس .. وهدمت كنائس كثيـرة فـى ضواحى القاهرة بعد أن نهبوا ما فيها ومنها كنيسة الحمرا بحارة الروم البـرانية وكنيســة الزهرى . وزاد الطين بله هجوم الصليبيين بقيادة عامورى على مصر ، وهزيمة المصريين عند بلبيس.[٧٨]

استشهاد الراهب شنوفه:

ومـن الذين استشهدوا فى ذلك الوقت الراهب شنوفه من دير أبو مقار بعد أن أمسكوه وعرضـوا علـيه الإسـلام أبـى فقـتلوه . وحاولوا حرق جسده فلم يحترق . فأخذ المسـيحيون جسده ودفنوه بكنيسة أبى سرجه بمصر القديمة ، وكان ذلك فى يوم ٢٤ من بشنس .

المظالم التى حاقت بالكنيسة على يد شيركويه:

(أ) ومـن المظالم التى حاقت بالكنيسة فى أيام البابا يوأنس الخامس ما حدث نتيجة مزاحمة ضرغام الوزير شاور على منصبه وقوى عليه وأخرجه من مصر فالتجأ إلى نور الدين والى الشام فأنجده وأمده بالقوة والرجال وسلم قيادة الجند لشيركويه الملقب بأسـد الـدين فارسل ضرغام أخاه ناصر الدين بجند ليمنع دخوله إلى مصر، و بعد معـارك حصلت فى بلبيس هزم فيها جيش ضرغام ودخل شيركويه بجنده الظافر إلى القاهـرة وقتل ضرغام وأساء الجندى إلى النصارى ونهبوا المنازل واهتكوا أعراض النساء وأرغموا البعض على اعتناق الإسلام.[٧٩]

ورغـم هـذه الظروف الصعبة ضد الأقباط كان واحد منهم هو الشيخ الأسعد صليب صـاحب الديـوان . قـام بتعمير كنيستى الحمرا والزهرى وبعض الكنائس الأخرى حسبما أستطاع.

إيمان يهودى بالمسيحية:

وفى زمان هذا البطريرك تنصر رجل من اليهود بمصر من كبار قومه ، وكان خبيرا عالما من أعيان قومه ويدعى أبو الفخر بن أزهر . قرأ كتب الديانة المسيحية وتبحر فـيها ، بل أتقن اللغة القبطية وتكلم بها . وكان يجادل اليهود باللغة العبرانية ، ويفسر للنصـارى بالقبطـية ، وعلـى الرغم مما قاساه هذا اليهودى المتنصر من المسلمين والـيهود علـى السواء حتى بلغت إلى محاولات القتل . لكنه ظل ثابتا على الإيمان المسيحى لمدة أربعين سنه ومات مسيحيا.

البابا يؤانس والأنبا ميخائيل مطران الحبشة :

وحـــدث فى زمان هذا البطريرك أن أغتصب عرش الحبشة دخيل بعد أن نفى الملك الشـــرعى فـــوبخه المطـــران القبطـــى الأنبا ميخائيل على ما فعله ، فاغتاظ منه هذا المغتصـــب وبعـــث إلى وزير مصر فى ذلك الوقت العادل بن السلار يلتمس رسامة مطـــران لبلاد الحبشة كما كتب أيضا بهذا الشأن للبطريرك وادعى أن المطران حدث له خلل فى عقله. ولما طلب الوزير من البطريرك رسامة مطران آخر : قال له البابا " ما فى شريعتنا أن نولى إنسان رتبة الكهنوت ، ونرجع نعزله منها ، فإذا مات ولينا غيـــره لان رتـــبة الكهنوت سمائية وليست أرضية " . فغضب الوزير العادل من هذه الإجابة ورفض البطريرك رسامة مطران آخر ، فأمر باعتقاله فى سجن دار الوزارة . وقـــد قاســـى البطريرك من ضيق السجن ونتانة رائحته الشئ الكثير . وظل معتقلا حتى قتل الوزير العادل فأفرج عنه.[٨٠]

ومن الحوادث المؤسفة :-

إن هذا البطريرك حدثت له ضيقه شديدة بسبب عبارة لفظية تخص القداس الالهى فقد كـــان بسمنود بعض رهبان من دير أبو مقار .. أضاف هؤلاء الرهبان إلى الاعتراف الأخيـــر كلمة المحيى كصفة لجسد المسيح " هذا هو الجسد المحيى" واختلف كثيرين علـــى هذه الإضافة مما أدى هذا إلى أن الوزير الصالح بن رزيق أمر باعتقال البابا وكتب منشورات باعتقاله ، وكتب منشورات لتحصيل مبالغ من أساقفة الوجه البحرى. وحدث أن البطريرك فى اعتقاله كان ملازما الصوم والصلاة كعادته ، ورأى حلما قال بعـــده لمـــن معه فى السجن " تقووا بالله وافرحوا فان بعد أيام يسيرة يفرج الله عنى وعنكم " وتم ما قاله البطريرك ضده وتحقق حلمه ، إذ بعد أربعة عشر يوما قتل هذا الوزير الظالم بيد أحد أصاغر قومه وأفرج عنهم .

نياحـــته :-أخيراً تنيح هذا البطريرك فى يوم ٤ من شهر بشنس سنة ٨٨٢ ش / ٢٩ أبريل ١١٦٦ ودفن بكنيسة أبو سيفين بمصر القديمة مع جسد الأنبا غبريال بن تريك ونقلا فى عهد الأنبا مرقس بن زرعه البطريرك التالى إلى دير أبو مقار .

ثامنا: البابا مرقس الثالث (البطريرك الـــ ٧٣) (١١٦٦ - ١١٨٩ م):

جلـــس هذا الأب البطريرك على الكرسى المرقسى نحو أثنين وعشرين سنه ونصف وعاصـــر آخر الخلفاء الفاطميين العاضد وزوال الدولة الفاطمية ، كما عاصر صلاح الدين الأيوبى وبداية الدولة الأيوبية .

كـــان قبل بطريركيته علمانيا باسم أبو الفرج بن أبى أسعد ويعرف بابن زرعه ، كان من أصل شريف سريانى الجنس على نحو ما كان البطريرك ٦٢ إبرآم بن زرعه .. وكان له شهادة حسنة ليس من المسيحيين وحدهم بل من المسلمين أيضا.

.. كان تقيا عفيفا صائما مصليا كثير الصدقات وفعل الخير ، وكان بتولا " عالما فى

دينه خبيرا بأمور الكهنوت " ..
قيل أن البطريرك المتنيح الأنبا يوأنس الخامس تنبأ عنه أنه سيكون البطريرك الذى يأتى بعده .. ولذا فحينما خلا الكرسى البطريركى أجمع الجميع على رسامته. ولذا لم يظل الكرسى البطريركى شاغرا سوى شهر واحد وأربعة عشر يوما.
وجعل مركز بطريركيته فى الكنيسة المعلقة بمصر القديمة.

الوزير يوسف صلاح الدين واضطهاده للأقباط:

ومن أشهر المظالم والمتاعب التى حاقت بالكنيسة وبالأقباط فى أيامه ما ذكر عن اضطهاد الوزير يوسف صلاح الدين للنصارى وأمره بنزع الصلبان من فوق الكنائس ويطلى قبابها وأسوارها باللون الأسود ، وبعدم دق النواقيس . وكان من عادتهم أن يزفوا الصليب يوم عيد أحد الشعانين فى الشوارع فأبطل هذه العادة وشجع ذلك رعاع المسلمين على اغتصاب عدة كنائس وتحويلها إلى مساجد وإرغام كثيرين على اعتناق الإسلام. وتجاسر شخص يدعى جالوش على الوشاية بحق الرهبان، وكتب جملة عرايض"شكاوى" إلى الوزير ، مدعيا أن الرهبان منجمون وسحرة ، وأنهم يعرفون الغيب ويحولون المعادن إلى ذهب وفضة. فأرسل جنودا إلى الأديرة وأهانوا الرهبان وأحضروا شيوخهم مقيدين فأختبرهم الوزير وتحقق من أمرهم ، ولما علم أنهم أبرياء لا يدرون مما اتهموا به أخلى سبيلهم.[٨١]

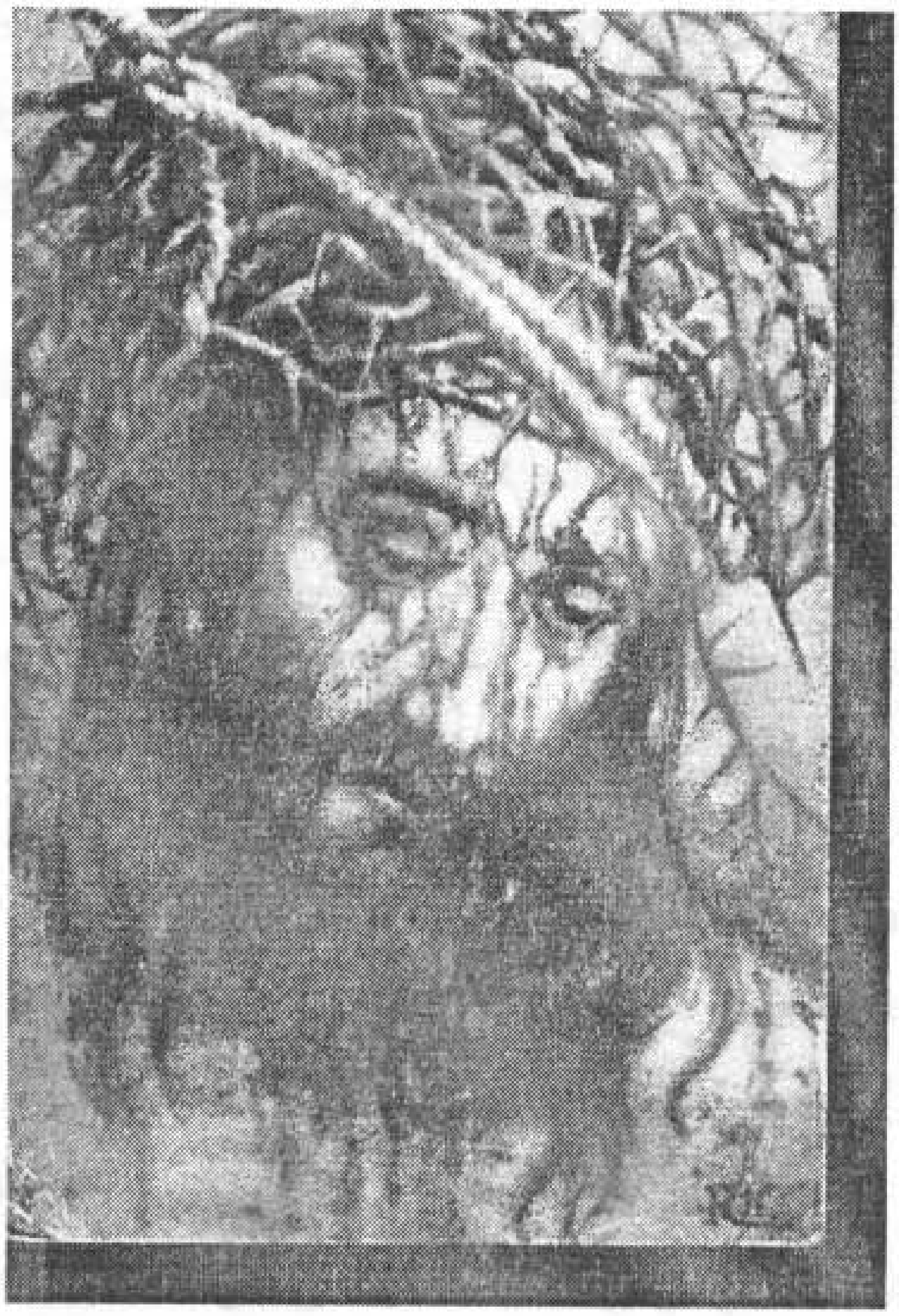

"الفصل الثالث "

قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها
فى عصر الدولة الفاطمية

ســبق أن تكلمنا عن فكرة مختصره عن بعض الآباء البطاركة وما حوت أيامهم من مظــالم وضــيقات وإضــطهادات كثيرة ، وكيف كانوا أبطالا فى الإيمان والعقيدة ، وســوف نــتكلم عــن بعض الشهداء وأشهرهم فى هذا العصر بالإضافة إلى بعض القديسين والأراخنة والعلماء .

١ ـ إيمان الواضح بن أبو الرجاء وإعترافه :

مــن أشــهر الشــهداء فى عصر البابا فيلوثاوس (البطريرك الــ ٦٣) وهو شاب من المســلمين كــان مقيما بمصر ، وكان من المتمسكين بدينه ، بينما كان يسير فى أحد الأيــام رأى تجمعــا من الناس حول إنسان مسلم أعتنق المسيحية يحيط به الجند وقد أعــدوا لــه كمــية هائلة من الحطب ليحرقوه بعد قتله .. أقترب ابن رجاء من ذلك الإنسان المتنصر وقال له " يا إنسان ما الذى حملك على هلاك نفسك بسبب دين تكفر فــيه بالله تعالى وتشرك به آخر ، فتستعجل بهذه النار فى الدنيا وفى الآخرة نار جهنم لأنك تجعل الله ثالث ثلاثة ، وهو واحد لا يشبهه شئ وتقول أن الله ولد . والآن فاسمع منــى ودع عنك هذا الكفر. وعد إلى دينك ، وأنا أجعلك أخا ويكرمك كل واحد " فقال له الشاب المتنصر " لا تنسبنى إلى الكفر والشرك بالله تعالى .. ونحن النصارى إنما نعــبد إله واحد هو الآب والابن والروح القدس. وليس الابن غريب من الله الآب لأنه هو كلمته وكذلك الروح القدس هو روحه. وسر ديننا عجيب مخفى عنكم لان عقولكم لا تحتمله ..

الشهيد يخبره بأنه سوف يؤمن بالسيد المسيح:

وأنا أرى أنك بعد قليل يدنو منك النور ، ويضئ قلبك بنور المسيح وتجاهد عن الذى أنــا أجاهد عنه ، وعلى أسمه أبذل نفسى وجسدى للألم والموت . وستقبل أنت أيضا هذه الآلام التى أنا فيها " .

فلمــا سمع ابن رجاء هذا الكلام حنق عليه ، وخلع نعله من رجله وأخذ يضربه على فمه ووجهه ورأسه وأخذ يلطمه بعنف وقال له " لا يكون هذا أبدا أن أكون مثلك أيها المرذول " . فقال له " سوف تذكر كلامى ، وتعرف صحة قولى " .. ثم ضربوا عنقه بالســيف وطرحوا عليه حطب وبوص كثير وأشعلوا فيه النار .. وظلت النار مشتعلة ثلاثــة أيــام فــى حراسة الجند ، وكان هذا كافيا لان يحول الجسد إلى رماد ، لكن " وجدوا جسده مثل الذهب لم يحترق منه شيئا " .

ابن رجاء وتأنيب الضمير:

وعاد ابن رجاء إلى بيته وامضى ليلته فى الم ووجع قلب مما سمعه من شهيد المسيح وحاول أهله أن يخفف عنه فلم يقدروا .

وفـــى أثناء ذلك علم أن جماعة من أهل مصر مزمعين أن يذهبوا إلى الحج فى بلاد الحجـــاز فطلـــب إلـــى أبـــيه أن يذهب معهم للحج، رحب أبوه وسلمه لصديق له من المسافرين، وأوصاه به .

ظهور القديس أبو مقار له:

وفـــى طـــريقهم إلى الحج - فى احدى الليالى - رأى حلما وفيه شيخ راهب منيـــر جـــدا وقف به وقال له اتبعنى تربح نفسك، فلما استيقظ قص على صديق والده الـــذى هو فى صحبته ذلك الحلم فهدأ من روعه ، وقال إن الراهب هو الشيطان يريد أن يجـــرّبك فلا تفكر فى الأمر ، وتكرر هذا الحلم لليلتين أخريين ، أى أنه رأى الحلم ثلاث مرات على ثلاث ليال .

إنقاذ الشهيد أبو سيفين له:

فلما أتموا الحج ، وفى طريق العودة ،وبعد مسيرة ستة أو سبعة أيام ، توقفوا ليتبولوا ، ثم ركب صديق والده جمله ، أما هو فتأخر وانقطع عنه ، ولم يعد يرى أحد فصار يجـــرى ليلحق بهم دون جدوى - تاه فى الصحراء وجلس خائفا من الوحوش - وإذا بشـــاب يـــركب فرسا بلباس بهى وقف أمامه وقال له " من أنت وكيف تهت فى هذه البرية وحدك " . فقص عليه قصته . فقال له ذلك الفارس أركب خلفى على الفرس " فلما ركب طار به الفرس فى الجو فلم يدر أنه فى السماء ولا فى الأرض حتى صار بسرعة إلى كنيسة الشهيد أبى سيفين بمصر القديمة فانفتح له الباب وحده من غير أن يفتحه أحد " ثم اختفى عنه .

ظـــل مبهوتا وكأنه فى حلم ، لكنه كان يرى القناديل موقده والأيقونات . وفى الصباح دخل قيّم البيعة وظنه لصا وأراد أن يستغيث ، لكن أبا الرجاء أشار إليه بيده ليسكت ويتقدم نحوه ، فلما دنا منه سأله الشاب " ما هذا الموضـع " . أجاب " كنيسة أبـــى ســـيفين بمصر القديمة " سأله " هل هذه فى مدينة مصر " أجابه " نعم . وهوذا أراك كأنك طائش العقل ، فعرفنى خبرك وما حالك " ، أجاب الشاب " كيف لا يضل عقلى وأنا فى هذه الليلة كنت فى الموضع الفلانى وما عرفت كيف وصلت إلى هنا ، الله هو العالم بذلك " .

ودار حـــديث بيـــنه وبين قيم البيعة روى فيه قصته، لكن القيّم شك فى كلامه وحســـبه لصـــا وإن الشهيد أبو سيفين ربطه فى الكنيسة ، سأله الشاب على شكل أبو سيفين وصورته ، فأخذه إلى أيقونته ، فلما رآها قال " حقا هذه صورة الذى ظهر لى ورأيته فى البرية وحملنى على ظهر فرسه هذه إلى هنا " .

ثم بدأ يكشف للقيّم حقيقة أمره وأنه رجل مسلم " وقد رضيت لأجل هذه الأعجوبة أن

أصــير نصرانيا " ، وقال له " أنا ابن رجاء الشاهد وما أقدر اظهر لئلا أحرق بالنار وتحرق البيعة بسببى ، لكن أريد أن تصنع معى جميلا وتأخذ الأجرة من السيد المسيح ، وتخفينــى فــى موضع حتى لا يرانى فيه أحد حتى أدبر ما أفعل " ، وطلب إليه أن يحضــر له كاهنا ليشرح له عن المسيحية " ويثبتنى فى الإيمان فان قلبى قد مال إلى هذا الدين " وبالفعل مضى به القيم إلى شيخ قس عالم تقى فاضل أخذ يشرح له الإيمان ، وظل أياما يدرس .

فلمــا قــوى قلــب ابن رجاء سأل الكاهن الشيخ أن يعمده " فخاف لئلا تكون ضربة من الشيطان، فأشار على الشاب المذكور بأن يمضى إلى وادى هبيب (برية شهيت) فمن كثرة شهوته للمعمودية سأله سؤالا بمطانيات كثيرة، وقال له ربما لا أعيش حتى أصل إلى هناك ، وأخذ يتضرع له ويبكى حتى عمده ، وسماه بولس ، فلما لبس نور حلة المعمودية، التمس ثيابا مزرية ابتاعها من السوق ولبسها وسأله أن يصــلى علــيه وخــرج ولــم يعرفه أحد لتغير زيه وشكله من كثرة صومه وصلاته واجتهاده وانتصابه لقراءة الكتب " .

وصــل الحجــاج إلــى مصر لكن ابن رجاء لم يكن بينهم . بحث عنه إخوته وسألوا صديق والدهم فبكى الرجل وعرفهم أن أخاهم تاه فى الصحراء ليلا " فلما سمعوا هذا منه شقوا ثيابهم وعادوا إلى أبيهم فأخبروه بذلك ، فأقام عليه مناحة وجنازة عظيمة .

فلمــا أنقضت أيام الجنازة حدث أن شاب من أصدقائه القدامى كان ساكناً بجوار بيعة الشــهيد أبــى سيفين بمصر، فأبصره يوما قد خرج من البيعة وعاد إليها وعليه ثياب صوف وعليه زنار صوف ، فقال بالحقيقة أن الناس يتشابهون ولو لم يكن ابن رجاء قد مات لقلت انه هذا " .. ثم قابل أبوه وإخوته وقص عليهم القصة ..

أراد إخــوته أن يــروا ذلــك الشاب فتنكروا واختفيا فى موضع قرب البيعة ينظرون الداخلين وقت صلاة الغروب ، فلما أنقضت الصلاة خرج المصلون ومعهم ابن رجاء ، فــتأملوه وعرفوه وأمسكوا به وقالوا له " ما هو الذى فعلته بنا يا أخونا ، فقال لهما الذى بى ما تعرفاه " .

ثــم مضيا إلى البيت برفق وحكى لهم قصته وكيف أصبح إسمه بولس بعد بالعمودية. فقال له أبوه فضحتنى يا ولدى وفضحت شيخوختى بين القضاة والشهود " . ثم أخذوا يتناقشون معه طويلا وقالوا له " لا تفضحنا فى وسط الناس ولا تخزينا فى هذه المدينة " .. فلمــا لم يجدوا فيه حيله جعلوه فى بيت مظلم ثلاثة أيام بلا طعام ولا شراب دون جدوى .

ولمــا أعياهم أمره تشاوروا على قتله لئلا يفتضحوا ، ثم رقت قلوبهم وأخرجوه سرا ومضوا به إلى الجيزة ، وقالوا له " أبعد عنا نسترح من فضيحتك " أما هو فمضى إلى وادى النطــرون وأقام هناك عند راهب تتلمذ على يديه ورهبنه .. وبعد أيام قليلة قال لــه أحــد الرهبان " إن الرب لا يقبل نصرانيتك إلا أن تمضى إلى مصر حيث تعلن

إيمانـك " .. عاد إلى مصر طاعة لهذا الكلام ومضى إلى منزل أبيه وقد وضع فى قلبه أن يموت على أسم المسيح . فلما رآه أبوه بزى الرهبان أغتاظ منه وقال له " ما هـذه الفضيحة ؟ مضيت وعدت إلى بطرطور صوف - يعنى القلنسوة المقدسة - ثم أخـذه وحبسـه فـى مطمورة مظلمة يطرح فيها كناسه التراب والرماد ووسخ الدار وأغلقهـا بإحكـام ، وأقسم على كل من فى الدار أن لا يعطوه خبزا ولا ماء .. وأمر غلمانه وجواريه أن يرموا عليه كل ما يكنسوه من تراب ورماد ووسخ الدار وغسالة القدور . وأقام كذلك ستة أيام ، وأمه باكية لا تفتر من البكاء بسببه وهى حزينة عليه جدا وكانت تدلى له الخبز والماء بحبل فلا يذوق منه شيئا .

وبعـد الستـة أيـام ضعفت قوته وكان ملازما الصوم والصلاة ليلة ونهاره. وظهـر لـه فى اليوم السابع الراهب الذى كان ظهر له أولا فى طريق مكة وفى يده خبـز ، فظـن أنه خيال، فلم يأكل منه شيئا حتى عرف أنه أمر ظهر له من عند الله ، فقـال لـه الـراهب تعرفنى ، قال له نعم أنت الذى رأيتك فى المنام ثلاث دفعات فى طـريق مكة ، قال له نعم أنا ذاك ، وأنا مقاره أب وادى هبيب .. والآن فقد أرسلت إليك لأعزيك فتقوى وأصبر فان لك مجازاة عظيمة ، ثم غاب عنه ، فأخذ ذلك الخبز وأكل بعد أن صلب عليه فتقويت نفسه " .

وإذ فشـل أبـوه فى كل محاوله لإرجاعه ، حاول أخيراً إذلاله بأن أمر أخاه الأكبـر أن يجامع سرية كان قد رزق منها بولد قبل إيمانه ، يجامعها أمامه ، وإذ لم يفلح فى إثنائه أغرق ابنه الصغير ، أما هو فقال لأبيه" أنا أحب ابنى وهو ولدى غير أنى أحب الله أكثر منه " .

أخيـراً قـدم ضده شكوى للحاكم بأمر الله وكان هو الخليفة فى ذلك الزمان ، فأمر بحضوره مع أبيه عند قاضى القضاة والشهود ليناظروه .. والعجيب أنه لم يثبت لأبيه عليه حجه ، فأمر الحاكم بإطلاقه ليمضى حيث يشاء .

وكـان ابـن رجاء قد سمى نفسه الواضح ، واتصل بالعالم الأنبا ساويرس بن المقفع أسـقف الاشمونين السابق الإشارة إليه ليستفيد من علمه ويتقوى إيمانه فنشأت بينهما صـداقة قوية وكان يقرأ عليه كتب الآباء ويشرحها كما كان يفسر له الكتب المقدسة ويروى له الكثير من سير القديسين خاصة ما يناسبه من سيرهم.

وأقـام الواضـح (بولس) ابن رجاء فى برية شهيت سنتين ، فلما رأوا ما عليه من تقـوى وعلم أمسكوه قهرا وساموه قسا .. فلما نمى خبر رسامته قسا إلى أبيه لم يطق ذلـك ، وأعطى بعض العربان دنانير ليقتلوه - فنصحه بعض الرهبان إزاء ما علموه مـن محاولة قتله - أن يذهب إلى الريف ويختفى فيه فأطاعهم وخرج إلى بلدة تدعى صـدفا.[٨٢]، وأقـام فيها سنتين فى كنيسة على اسم الشهيد تادرس ملازما لخدمتها ليلا ونهارا .. فدخل الشيطان فى قلب قوم من سكان تلك الجهة ، فأذاعوا خبر تنصره فى صدفا والمحلة ، وكان ذلك قبل وفاته بيومين مرض خلالها بحمى شديدة.

وبترتيب إلهى حضر شماس يدعى تيدر بن مينا من منوف إلى البيعة التى كان فيها ابـن رجاء (بولس) فقال له " لا تفارقنى حتى توارينى التراب وتأخذ البركة ، فما بقـى لـى فـى العالم إلا يومين . فإذا أنا توفيت فبادر بدفنى قبل أن يعلم المسلمون فـيأخذوا جسدى فيحرقوه بالنار . وكان قوله روح نبوه .. فبعد يومين تنيح كما قال، فسـمع خبـر موته فى المحلة وصدفا ، فتجمع أهلها وأحاطوا بالكنيسة حيث تنيح .. وهـنا أرشد الله الشماس تيدر بن مينا أن يدفنه بمكان فى الكنيسة . ولما تم ذلك دخل المتجمهرون وطلبوا جسده ، فلم يجدوه .

وحكى عن الواضح بن رجاء أنه قال " كل ما جرى على من عذاب وما حل بى من ألوان لم يقلقنى غير ثلاثة أشياء وهى مجامعة أخى لسريرتى قدامى ، وإغراق ولـدى مـنها قدامـى وأنا أنظره ، وأعظم منهما كون البطريرك يبصرنى وتلاميذه يطالبون بالدنانير على سيامته لى قسيسا وهو ساكت لا يمنعهم ولا يردعهم " . وكان هـؤلاء قـد طلبوا منه مبلغا من المال عقب رسامته قسيسا ، ولما لم يكن معه شيئا " رآهم بعض الأراخنة يطالبوه وقد أزعجوه بالطلب فدفعوا لهم عنه ما طلبوه " .[٨٣]

٢ـ قصة الشهيد الهاشمى :

ذكر كتاب تاريخ البطاركة قصة الشهيد الهاشمى فقال:

" كـان ببغداد إنسان يدعى مقدم ابن ملك ويعرف بالهاشمى ، وأنه لم يهتم قط بشيء من أمور المملكة .. سوى أنه كان يركب حصانه فى كل يوم ومعه الجند ويرصد بيع (كـنائس)النصارى فى وقت القداس ، فيدخلها راكباً حصانه ، ويأمر بأخذ القربان من علـى الهيكل ويكسروه ويخلطوه بالتراب ويقلب الكأس . وكل ما فعل فى بيعة مضى إلـى أخرى وفعل فيها ذلك حتى كادت بغداد تخلو بيعها من القداسات .. وامتنع أكثر الكهـنة عـن القداس خوفا من هذا .. وكانت معونة الله تجذبه إليه وهو لا يدرى .. حيث أنه فى أحد الأيام دخل إلى بيعة من البيع كعادته ومعه بعض الجند وإختبأوا فى مكـان مـا فى أعلى الكنيسة ، ففتح الله عينيه فأبصر فى صينية القربان طفلا جميلا نبـيلا ، وفـى وقت القسمة أبصر الكاهن وقد ذبحه وصفى دمه فى الكأس ، وفصل لحمه قطعة قطعة فى الصينية . فبهت الهاشمى ولم يستطع الحركة . ثم خرج الكاهن يقرب الشعب باللحم وكذلك الشماس بكأس الدم ، وهو ينظراهما ، فتعجب وقال لجنده ألا تروا ماذا يفعله الكاهن فى الصينية . قالوا له نحن نراه . قال لهم كيف نصبر على هذا الكاهن أن يأخذ طفلا يذبحه ويقسم لحمه على هذا الجمع العظيم ويسقيهم من دمه . قالوا له بحق الله يا سيدنا ما نرى نحن إلا خبزا وخمرا . فزاد خوفه وتعجبه . وبقى جنوده والشعب متعجبين لوقوفه باهتا ولم يفعل بالقربان ما جرت به عادته . فلما فرغ الكـاهن وخرج الناس ، استدعى الكاهن وقال له ما رآه . فقال له الكاهن بحق الله ما هـو إلا خبـز وخمر . فلما علم أن هذا السر ما ظهر إلا له فقط ، قال له " أريد أن

تعرفني سر هذا القربان وبدايته " .. فعرفه الكاهن كيف أسس المسيح سر الإفخارستيا ، ثم قال له إنما الله أظهر لك هذا السر الخفى الحقيقى المقدس خلاصا لنفسك .

" ثم إنه قرأ عليه كتب الكنيسة وبين له الأسرار حتى طاب قلبه لاعتناق المسيحية ، فأمر أصحابه بالانصراف وبات هناك مع الكاهن وعمده بالليل وسار نصرانيا .. فلما كان الغد أتاه أصحابه بالدابة فطردهم ولم يكلمهم . وإذ علموا الخبر مضوا إلى أبيه وأعلموه بما كان ، فقام واحضره بالقوة ، وحاول معه باللين والتخويف كى يرجع إلى دينه(الإسلام) فأبى ، عند ذلك أسلمه للعذاب . فعذب عذابا شديدا فلم يرجع عن أمانته . فقطعت رأسه بالسيف على اسم السيد المسيح وتمت شهادته " .. وقد كرم مسيحيو بغداد جسده وبنوا عليه كنيسة عرفت باسم كنيسة الهاشمى " .

٣ـ إيمان مارجرجس المزاحم واستشهاده :

كان استشهاده فى ١٩ بؤونة سنة ٦٩٥ ش الموافق ٢٦ يونيه سنة ٩٧٩ فى خلافة العزيز بالله الفاطمى وبطريركية الأنبا فيلوثاوس ٦٣ - وعلى الرغم من أن عهد العزيز اتسم بالتسامح مع النصارى كما سبق أن أوضحنا لكن الغوغاء والعامة كانوا يثيرون متاعب فى بعض المناطق .. ومن أمثلة ذلك ما حدث بمنطقة طلخا بسبب هذا الشهيد .

كان اسمه مزاحم ، وكان ابنا لرجل يدعى جمعة العطوى وهو مسلم متزوج مسيحية اسمها مريم ، تزوجها بالعنف دون إرادتها وإرادة والديها . وكان من قرية تعرف باسم الدروتين ، مركز طلخا ، دقهلية .. قضى الاثنا عشر سنة الأولى من عمره على دين أبيه ، على أن أمه كانت تواظب على الذهاب إلى الكنيسة وحين عودتها كان يسألها أن تعطيه جزء من القربان البركة الذى كان يستطعمه كالشهد فى فمه .. كانت هذه هى البداية التى حركته نحو التفكير فى اعتناق المسيحية .. وبدأ يتردد على الكنيسة مع أمه فأحبها وأحب طقوسها وآمن بمبادئها واقتنع برسالتها واشتهى أن يصير مسيحياً فقصد الأنبا زخارياس أسقف دمياط وهناك نال سر العماد المقدس على يد أحد كهنته وتناول من الأسرار المقدسة وعرف باسم جرجس المزاحم.

تزوج من فتاة تدعى سويلا ابنة كاهن كنيسة بساط النصارى (مركز طلخا) ويدعى القس ابانوب.

حرك الشيطان قوما ضده فمضوا وأخبروا مدير الأمن بدميره بقصة جرجس المزاحم، الذى وقف أمامه واعترف - حينما سئل - أنه تنصر ، فأمر بتعذيبه حتى سال دمه على الأرض، وبعد أن أمر بحبسه أطلق سراحه بمعجزة ، إذ ظهر ملاك الرب لمدير الأمن فى صورة إنسان وسأله العفو عنه وخلصه من بين يديه . وتعتبر هذه الشهادة الأولى .. ولم يقتصر التعذيب على جرجس المزاحم وحده، بل تعداه إلى زوجته التى

نالتها شدائد كثيرة ، كانت تضرب ضربا مبرحا .. والعجيب فى سيرة هذا الشهيد أنه حيـثما اتجه كان الشيطان يدخل فى احد الناس ويذيع خبر تنصره ووصوله إلى ذلك المكان .

ومن ألوان التعذيب التى احتملها أنهم فى إحدى المرات جعلوا فى عنقه حبلا وسحبوه فـى شوارع تلك البلدة . فجاء رجل من المتجمعين حوله وضربه على رأسه بالسيف فشـقها ، فوقع القديس على الأرض .. وكان فى تلك الفترة يعمل فى معصرة زيت . فـبلغ صاحب المعصرة أن أحد رجاله قتل ، فذهب إلى حيث هو وخلصه من أيديهم وأخـذه معـه ، وكـان فى نيته أن ينتظر حتى يوم صلاة الجمعة ، ويأخذه معه إلى المسـجد فإذا رفض الصلاة مع المصلين أحرقه حيا .. علم بالأمر عامل مسيحى كان يعمـل بمعصرة الزيت فأسرع إليه وأخبره فخرج من تلك الناحية قاصدا محله روح ومـنها إلى سبرباى ثم إلى طنط الجزيرة (قليوبية) ، فأقاموا فيها مدة ثلاث سنوات ، ولكـن عدو الخير دخل فى بعض الأشخاص وأذاعوا خبره ، فذهب إلى ناحية تسمى أخـنا وأقام فيها ثلاث سنوات .. هناك مرض بمرض شديد جدا ثم انتقل هو وزوجته إلـى جهة محلة خلف (بجوار المحلة الكبرى) - ومنها مضيا إلى ناحية الديجولية (حاليا جميانه) ، فأقاموا فيها مدة ثلاث سنوات .. هناك تعاهداً هو وزوجته أن يعيشا فى بتولية كأخ وأخت .. ومن جميانه مضيا إلى بلدة بساط النصارى وهى بلدة زوجته ، فأقامـا فى بيت والدها .. وأخذ يجاهد فى الصلوات حتى أنه كان يضرب كل ليلة خمسمائة مطانية .

لكن الأفكار أخذت تقلقه من كثرة ما عانى من آلام فى كل موضع يذهب إليه ، ففكر فـى الذهاب إلى دير أبو مقار للترهب هناك .. وبينما هو يفكر فى ذلك إذ رأى رؤية كأنـه صـاعد إلـى السـماء جالسا عن يمين السيد المسيح . وسمع صوتا يقول " يا جـرجس تقـو فى الشهادة . طوباك أنك استحققت أن تعد من الشهداء وتنال الإكليل السمائى مع الأبرار فى ملكوت الرب فلا تخف يا جرجس فالتعب يسير والنعيم كثير " .. فلما سمع هذا الكلام تقوى وأعلم زوجته به ، فكان جوابها عليه " يا أخى ما رأيت فـى هـذه الـرؤيا يشير إلى أن الرب لا يريد أن تترهب لكنه يريد أن تظهر اسمه القـدوس وتـنال إكليل الشهادة والفرح العظيم ، وأدعى أنا زوجة شهيد " .. وأخذت تشجعه وتقويه على الجهاد والشهادة.

بعـد ذلك قصد قسا راهبا يدعى شيث وعرض عليه أفكاره من جهة الدير والشهادة ، وبعـد أن نصحه قال له " لكن طوباك يا جرجس إن أنت صبرت على عقوبة واحدة فهـى أخيـر لـك من مقامك فى الدير سنة كاملة " . منذ ذلك الحين بدأ يهيىء نفسه للشهادة وإكليلها .. وكان يتشجع بواسطة الرؤى التى تعلن له.

أما شهادته الثانية فكانت فى دميره أمام أحد الحكام هناك ، بينما كان هو مقيما ببساط

النصـــارى . فحـــرك الشيطان عليه إنسانا شريرا وأخذ يذيع خبره ، وأحضروه إلى دميره ، وهناك أوثقوه وضربوه ضربا مبرحا ، وجعلوا فى عنقه حبلا وذهبوا به إلى دار الـــنائب فأمر أن يطرح فى خزانة مظلمة . ثم أحضروه ثانية أمام النائب وعذبوه كثيـــرا بأنواع شتى . فمنهم من كان يبصق على وجهه ومنهم من يضربه على رأسه بغير رحمة ، ومنهم من ضربه على عنقه ومنكبيه بقطعة حديدية حتى تكسرت عظامه . وكانوا يضربونه وهو موثق ، أما هو فكان لا يفتر عن ذكر السيد المسيح بابتهاج .

اســتدعاه متولـــى الحـــرب(المأمور) بدميره للمثول أمامه وهناك قدم الشهادة الحسنة واعتـــرف بالسيد المسيح قائلا له " حى هو الرب إلهى ، مهما عذبتنى فاننى لن أجحد اســم سيدى ومخلصى يسوع المسيح " ، فعذبوه عذابا شديدا وقيدوه بالقيود الحديدية ، وضـــربه بعضـــهم بقطعة خشب على رأسه فشقوها ، ثم طرحوه فى السجن . وفى منتصـــف تلك الليلة ظهر له رئيس الملائكة ميخائيل وستره بجناحيه وأخذ يشجعه ، ومســـح بيده على جسده ، فللوقت ضمدت جراحاته ، ثم صعد ميخائيل إلى السماء .

وظهرت له السيدة والدة الإله فى شبه حمامة ونشرت جناحيها على رأسه ، ووضعت فمهـــا فـــى موضع الضرب ، وأيقظته من رقاده ، فرفع رأسه وأمسك جناحها الأيمن فطـــارت من يده وامتلأ المكان نورا ، أما جراحاته فشفيت وأحس بقوة فى جسده .. وفـــى الســـجن زارتـــه زوجته القديسة وأخذت تشجعه وروى لها كل ما حدث معه بواسطة الملاك ميخائيل والعذراء مريم.

ومرة ثانية ظهر له الملاك ميخائيل وأضاء كل السجن نور .. وفى مرة أخرى ظهر لـــه السيد المسيح بنور عظيم لم يستطع أن يفتح عينيه فيه وكان معه ميخائيل رئيس الملائكـــة.وفـــى السجن عذب كثيراً وكانت زوجته تزوره وتشجعه وتقويه .. ومرة أخرى ظهر له ملاك الرب ميخائيل الذى كان يستغيث به.

وشجعه وقال له " إن لى اليوم أسبوعاً أسأل الرب عنك فأرسلنى بهذا الرداء ليكون لك بـــه قوة ، تقدم إلى لأغطيك به " فتقدم إليه القديس ونشر عليه الرداء فصار واحداً مع جسده ، ورسم عليه بعلامة الصليب المقدس فشفى لوقته .

قصـــده بعـــض المسيحيين فى السجن لينالوا بركته وطلبوا منه شيئا بركة يضعوه فى مـــنازلهم ، أما هو فأعطاهم الخرق التى على ساقيه وساعديه ورجليه وهى مصبوغة بدمه . وما أن علمت زوجته بذلك حتى ذهبت إليه تقويه وتبكته لأنها خافت عليه من المجد الباطل وقالت له " من أنت حتى استحققت هذه المنزلة وتعطى خرقا من جسدك للـــناس بـــركة ، ألعلك مثل بولس الذى كان الناس يأخذون الخرق التى يضعها على جســـده .. وما أن سمع القديس هذا الكلام حتى بكى بكاء مرا وتعهد أنه ما يعود يفعل مثل ذلك. أخذ الناس المملوءين حقدا وشرا يضغطون على مدير الأمن(متولى الحرب) لكى يسلمهم القديس ليقتلوه حتى أن بعضهم قالوا له سنصير مسيحيين إن لم تسلمنا هذا الرجل.

وبعد أن نالته شدائد كثيرة - لا داعى لذكر تفاصيلها - أعلن له فى رؤيا أن شهادته ستكمل فى ١٩ بؤونة.

ومـرة ثانـية ظهر له السيد المسيح فى شبه رجل أمير وبيده كتاب مفتوح وقال له " السـلام لك يا حبيبى جرجس ذا الاسم الحلو فى فم كل إنسان . تقو وتعز فهوذا جميع الامـك وأتعابـك التى تقبلتها على اسمى مكتوبة فى هذا الكتاب فطوباك . لكن ارفع عينـيك لتنظـر ، فـرفع عينيه نحو السماء فرأى شابا حسن الصورة متمنطقا بلباس أبـيض شـبه مـلاك عظيم يتبعه جمع كثير جميعهم بملابس بيضاء كالثلج . سجدوا جمـيعهم لمن بيده الكتاب . فقال له القديس من هو هذا الملك العظيم الذى يتبعه هذا الجمع ؟ فقال له السيد المسيح بفمه الطاهر . هذا حبيبى جرجس الفلسطينى(الرومانى) الـذى سـميت أنـت باسمه . وأما هذا الجمع الذى يتبعه فهم كافة الشهداء والقديسين جـاءوا جمـيعا ليطلبوا من أجلك لكى تكمل شهادتك " .. ولما فرغ المخلص من هذا الكلام أخفى نفسه عنه.

وفـى الغـد ذهـب مدير الأمن إلى السجن وقال للقديس جرجس المزاحم " ما فائدة انـتظارك هـنا . أذهـب إلى زوجتك وأعلمها بأن تأخذ لك إنسانا يضمنك ويعطينى عشـرين ديـنارا . وأنا لا أسلمك إلى أهل دميره " . فأجابه القديس " ليس معى مال لأعطـيك ، ولا لى أحد يضمنى لك ، فان أرادوا أن يحرقونى بالنار ، وإن أرادوا أن يغرقونى فى البحر فليفعلوا ما يريدون بى " .

وفـى الـيوم التالـى (١٧ بؤونة) شاع خبر أن خطاب الوالى الذى يقضى بإطلاق سراح القديس قد ورد من مصر . فقام جماعة من الشعب وخرجوا قائلين ولو نموت كلنا لا نطلقه ، لكن نخرجه ونحرقه حيا . وظل الناس يضغطون على المأمور فوعد أن يسلمه لهم فى اليوم التالى .. فأسرع الناس إلى السجن حيث القديس وتطلعوا فرأوا قوما يصلون معه فظنوا أنهم جماعة من النصارى ، فبقى بعضهم عند السجن وذهب البعض إلى الوالى يخبرونه ، فأمر أن يذهبوا إلى السجن ويذبحوا بالسيف من يجدوه هناك من النصارى . فلما عادوا إلى السجن لم يجدوا سوى القديس فتعجبوا ، ولم يكن هـؤلاء الذين شوهدوا يصلوا معه سوى أرواح الشهداء والقديسين الذين أتوا إليه فى هذه الساعة الحاسمة ليعضدوه .

أراد الـناس أن يأخـذوه ولا يبقوه للغد لئلا يهرب . فقال لهم " لا أقدر أن أهرب من خدمـة مخلصـى التى أنا مستعد لها " ، فلم يصدقوه ولكن المأمور أسلمه إلى راهب اسمه مينا ليضمنه ، وهو الذى كتب سيرته . فضمنه ولم يتركهم يعذبونه.

وفى لقاءه الأخير مع زوجته طلب إليها أن تبتعد عنه لئلا يقتلوها ، فأجابته " يا أخى وسـيدى أسألك أن لا تنسانى عند لقاءك بالسيد المسيح " . فرسم القديس ذاته بعلامة الصليب وقال لها " يعوضك المسيح يا أختى عن تعبك معى فى هذا الزمان كله . الآن أودعـك وأطلب منكى بأن تذكرينى فى صلواتك لكى يعيننى الرب إلى النهاية". ثم

قبّلت قدميه وقالت له " تعزَ وتقوَ وأنظر إلى الرب ولا تخف من الموت فيضيع جميع تعـبك ". وحتـــى اللحظـــات الأخيرة كانوا يضيّقون عليه لكى ينكر إيمانه لكنه ثبت. ورغـــم الإغراءات الكثيرة ثبت معلنا إيمانه، فنزعوا ثيابه وجلدوه بالسياط حتى سال دمه على الأرض ثم أخذوه إلى موضع الشهادة وأخذوا يضربونه بلا شفقة ولا رحمة - الـــبعض بالعصى والبعض بقطع من حديد. وتم ما قاله المسيح " ستأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه قد قدم قربانا لله ".

وتجمع حوله نحو ألف وخمسمائة من الغوغاء بالعصى والحراب والسيوف ولم يهدأوا مـــن تعذيـــبه. أمـــا هو فلم يفتر عن ترديد اسم السيد المسيح فى فمه. وانقضوا عليه بالحـــراب والسيوف وقطع الحديد يضربونه. ولما لم يمت قالوا كل هذا الذى فعلناه به ولم يمت ولم يفتر عن ذكر إلهه. وأخيرا قال واحد منهم إن الأسم الذى يردده بفمه هو الـــذى يجعلـــه لا يمـــوت، فوثب واحد وأخذ طوبة من الخزف الحاد ووضعها فى فم القديس لكى لا يستطيع ذكر اسم المسيح. أما هو فكان يردده فى قلبه.

أخيـــراً تقـــدم نحوه غلام راكبا حصانا وفى يده حربة وطعنه فى صدره فبرزت من ظهره، فرسم القديس ذاته بعلامة الصليب دون أن يموت. وأخيرا تقدم واحد وضربه ثلاث ضربات بالسيف فلم يقطع السيف فيه شيئا فبهت الجميع لهذا الأمر. وتقدم آخر وضـــربه بالســـيف على رأسه فشقت إلى نصفين. ورغم ذلك أخذوا حجرا يضربونه على رأسه. ومازال الضرب ينهال على رأسه حتى تحطم وتهشم وللوقت أسلم الروح فى يد الرب. وكانت الساعة الثالثة من يوم الخميس ١٩ بؤونة.[٨٤]

كما عاصر البابا خرستوذولوس قديسون وأبرارا كثيرين نذكر منهم :-

١ـ الأنبا باسليوس أسقف أرمنت:-

(أ) من المعاصرين للبابا خرستوذولوس، الأنبا باسيليوس أسقف أرمنت وكان قديس روحانى. ذكر عنه أنه فى زمن المجاعة والغلاء كان يتصدق بكل ما عنده ، وفى ليلة من الليالى طرق رجل مستور (فقير) باب أسقفيته ، فقال لتلميذه - وكان يدعى مينا - أعطـــه خبـــزا . ولم يكن لديه سوى رغيفان من الخبز، فدفع له منهما رغيف ، ثم قـــرع الباب آخر فأعطاه جزء من الرغيف الباقى ، ولم يتبق سوى جزء من الرغيف لوجـــبة الإفطـــار . فلما جلس ليفطر قرع الباب ثالث ، فضجر التلميذ مينا ، فألزمه الأســـقف أن يدفع بقية الرغيف له . ولم يتبق شيئا لإفطاره . وفى المساء قرع إنسان الـــباب فقال لتلميذه أن يفتح لمن يقرع الباب. فقال التلميذ بضيق " ما بقى عندنا شئ ندفعـــه لمن يقرع . كيف أكلمه وليس عندنا شئ نعطيه فألزمه بإجابته " . كان التلميذ يظـــن أن القـــارع سائل من السائلين ، وما أكثر دهشته حينما وجد إنسانا جاء بطعام كثير.[٨٥]

٢ ــ أنبا إيليا أسقف طموه (قبلى الجيزة وعلى مقربة منها)

كـــان شيخا كبيرا جدا ، حدثت معه عجائب كثيرة سمعها كاتب السيرة منه وحضرها وشـــاهدها بنفسه ، ومنها أن الأنبا إيليا كان يصلى القداس يوم عيد مار بقطر الشهيد بكنيسته بالجيزة . وفى منتصف القداس رأى الأسقف نورا عظيما على صورة السيدة العذراء التى فى الهيكل. وظل النور مدة طويلة. وشاهد جميع الشعب الحاضرين هذا النور.

٣ــ الأنبا ميخائيل أسقف تنيس:

وتنيس مدينة مصرية قديمة اندثرت، وكانت تقع بجزيرة فى بحيرة المنزلة – ومازالت الجزيـــرة موجـــودة حتـــى اليوم وتعرف باسم جزيرة تنيس – وتقع على بعد تسعة كيلومترات جنوب غربى مدينة بورسعيد.

٤ ــ الراهب بيسوس:

الذى ترهب بدير أنبا يحنس كاما بوادى النطرون (وقد أندثر الآن)

ويعتبـــر الـــراهب القـــديس بيسوس من الشخصيات العجيبة حقا. ويبدو أنه كان من الســـواح، كمـــا كانت له موهبة النبوة ومعرفة المستقبل، كما كان مقتدرا فى صلواته وبركاته .. ونورد هنا بعض قصص عن ذلك:

انتقاله بالجسد:

+ زاره أحد عشر شخصا من الإسكندرية للتبرك منه ، واستضافهم وقدم لهم طعاما ثم أتـــاهم بجـــره صغيرة من الماء بارك عليها ، وشربوا منها جميعا حتى امتلأوا ، ولم تـــنقص الجرة إلا إلى مقدار نصفها .. وفى الصباح سألهم ألا يدعوا أحدا من أراخنة مصـــر ــ ممن يخرجون إلى البرية فى عيد الغطاس ــ يأتى إليه ، وإلا ترك الدير وذهب إلى مغارة .

وكان موجود بدير أبى مقار أرخن يدعى أبو البدر بن مينا الزرادى وألح فى ضرورة مقابلـــته للاعتراف بذنوبه .. فعلم بذلك بالروح الراهب بيسوس فقال أنه سيذهب لدير أبى مقار حتى لا يدع الجموع الكبيرة من الأراخنة يذهب إليه ، وبالفعل ذهب إلى دير أبو مقار وتقابل مع هذا الأرخن ، ولما عزم على الانصراف الحوا عليه بالمبيت بدير أبـــو مقار حتى ينالوا بركة أكثر . وإزاء إلحاحهم قبل المبيت ، ثم طلب منهم الانفراد للصلاة ، فحبسوه فى صومعة(قلاية) وأغلقوا عليه ، وباتوا أمام بابها ليتباركوا منها ، ويســـمعوا صلواته ويصلون معه .. وما أكثر دهشتهم حين فتحوا القلاية التى حبسوا فـــيها الراهب بيسوس فى الصباح ، فلم يجدوه .. وبالاستعلام عنه من دير أنبا يحنس كامـــا علـــم أنه غادر إلى دير أبو مقار بعد غروب الشمس وعاد قبل صلاة منتصف اللـــيل فتعجب الجميع لأن هذه الرحلة تستغرق أكثر من يومين. كل ذلك جعل كاتب سيرته يسأله عن متى ذهب ومتى عاد فكان جوابه " مالك تسأل فيما لا يفيدك ".[٨٦]

استجابة الله لصلواته :

+ حدث فى سنة ٩٧٨ ش / سنة ١٠٨٢ م أن عرقا تصبب من أعمدة دير أنبا موسى ، وكـذا من عدة صور فى كنيسة الشهيد تادرس بمصر ببنى وائل . حتى أن عرقها كـان يـنحدر مـنها بغزارة كالماء . وحدث فى تلك السنة أن مرض الجدرى إنتشر بصورة وبائية ، ومات بسببه فى أقل من شهر واحد وعشرون ألف صبى فكتب كاتب سـيرة القديس بيسوس إليه أن يصلى من أجل أن يرفع الله هذا الوباء ، كما طلب إليه أن يوصـى رهبان شهيت – وكان عددهم سبعمائة راهب – بأن يصلوا من أجل هذا الموضـوع أيضـا .. وحمـل الرسالة إليه راهب فاضل من دير نهيا (إندثر) كان القـديس بيسوس يحبه .. وفى صباح عيد الميلاد ، طلب راهب دير نهيا من القديس بيسوس أن يعطيه ردا على الرسالة حتى يعود إلى ديره . فقال له بيسوس لقد تخلصوا وانعم عليهم السيد المسيح " . وكتب رسالة جاء فيها " إن السيد المسيح قد خلصهم فى هذا اليوم " وحدث أن الوباء رفع فى اليوم الذى حدده.[٨٧]

إيليـا الثـانى :

+ ومن أمثلة بركة القديس بيسوس تلك القصة التى رواها الشماس أبو حبيب ميخائيل بـن بدير الدمنهورى وهو أحد الذين جمعوا سير البطاركة .. قال أنه كان مختفيا عند القـديس بيسوس بالدير ومعه جماعة من الأخوة النصارى مختفين كذلك . ورآه يضع زيـتا فى المسرجة وبارك عليه ، وأوقدها لهم . وأقام الشماس أبو حبيب عنده خمسة عشـرة لـيلة ينسـخ الكتب كل ليلة إلى منتصف الليل . ولم ينقص الزيت الذى فى المسرجة.[٨٨]

ملابسة تشفى المرضى:

وفـى ذات مـرة حضر إليه راهبان متخاصمان من أحد الأديرة . فاجتهد أن يصلح بيـنهما فقبل الصلح واحد وأبى الثانى ومضى ولم يطعه .. عاد إليه هذا الراهب غير المطـيع بعـد ثلاثة أيام وقد ضرب جسمه بالبرص .. وتوسل إليه أن يلبسه شيئا من ثيابه فألبسه ثوبا ومضى . وعاد فى اليوم التالى ليعيد الثوب بعد أن شفى.[٨٩]

شفـاعتـه:

+ ومن معجزات القديس بيسوس أن راهبا شابا ببرية أبو مقار أصيب بمرض الفالج (الشلل) وفقد النطق ، فحملوه إلى القديس بيسوس بدير أنبا يحنس كاما فوضعه فى كنيسة العذراء التى بالجوسق لمدة ثلاثة أيام . وذكر الراهب بعد ذلك أنه أبصر ثلاثة أشـخاص خارجين من الهيكل ، فقال اثنان منهما للثالث وهو يتقدمهم " أقضى حاجة بيسـوس فى هذا الشاب " . فدفعه برجليه وقال له قم ، فقام صحيحا تماما ، وللوقت نـاداه بيسوس من أسفل دون أن يراه وقال له " يا فلان أنزل " . فنزل الراهب الشاب وقد برئ وسجد على قدميه وتحدث بما رآه وسمعه.

شفائه للمرضى بصلواته:

+ ومن معجزاته أيضا أن واحدا من النصارى فى محله ابن على أصيب بمرض الفالج والخرس فحملوه على دابة إلى القديس بيسوس بديره ، وصلى عليه ثلاثة أيام بلياليها فخرج من عنده معافى تماما ، وعاد إلى بلدته وهو يمجد الله.[٩٠]

صعب عليك أن ترفس مناخس:

+ وروى الشماس يوأنس الراهب – وهو تلميذ له – أن أباه القديس بيسوس صعد إلى الجوسق (القصر) ليصلى ، فدخل الدير ثمانية عشر رجلا سودانيا ، فاستولوا على الدير ، وأمسكوا بواحد من الرهبان وأخذوا يعذبونه . فنزل بيسوس من الجوسق وأمسك رقبة مقدمهم بيده وأخرجه من باب الدير . وفعل ذلك مع الباقين حتى أخرجهم جميعا من الدير ، وأغلق الرهبان باب الدير .. وحلف أولئك السودانيين أن أبصارهم عميت، وان يد بيسوس كانت على رقابهم مثل حجر ثقيل.[٩١]

ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتنى بكم:

+ وفى مدة المجاعة التى عمت البلاد المصرية فى حكم الخليفة المستنصر وحبرية البابا خرستوذولوس ، كان البدو يترددون على دير أنبا يحنس كاما ، ليأخذوا طعاما من الخبز والقمح . وكان القديس بيسوس لا يرد سائلا .. وظل الأمر على هذا المنوال حتى أنه لم يتبق لرهبان الدير إلا قوت يوم واحد فقط يأكلونه ثم يخرجوا من الدير ويهيموا على وجوههم .. فأتاهم قوم يطلبون طعاما فقال بيسوس للرهبان أن يعطوهم ما عندهم . فتذمر الرهبان واغتاظوا ، لكن القديس بيسوس قال لهم فى هدوء " فى آخر النهار يصلك من عند المسيح ما يكفيكم لأيام عديدة ، فلا تضيق صدوركم " .. فدفعوا كل ما عندهم من قمح لهؤلاء القوم . ثم عادوا وقالوا أن ما عندهم طاحونة ولم يكن بالدير سوى طاحونة واحدة فأعطاها لهم .. فتذمر الرهبان على بيسوس وقالوا له " قلت إن القمح يجيئنا عشية وأخذت الطاحونة التى ليس عندنا غيرها ودفعتها لهؤلاء القوم ، فهل إذا جاء القمح نقرقشه أو نسلقه " . قال لهم بيسوس " لا تقلقوا فإن الرب يأتينا بما نحتاجه، فإنه جل اسمه لا يعوزه علم شئ ، فطيبوا نفوسكم " . وفى وقت الغروب وصل جملان قمحا، وعلى ظهر أحدهما طاحونة جديدة أكبر من التى أعطوها، فسبح الرهبان الله ومجدوه.[٩٢]

بركة الرب تغنى ولا يزيد معها تعب :

+ وذكـــر عن الراهب القديس بيسوس انه صعد مرة إلى الجوسق (القصر) ليصلى صـــلاة الســـاعة الثالثة، واصعدوا معه قفة مملوءة خبزا، فجاء إلى الدير قوم يطلبون طعامـــا. فقال بيسوس لتلميذه أعطهم ما فى القفة.وبالفعل أعطوهم كل ما فيها .. فلما فرغ من الصلاة جاء قوم آخرين يطلبون طعاما، فقال بيسوس لتلميذه أن يعطى لهؤلاء القوم شيئا من الخبز، فقال تلميذه يوأنس – الذى روى هذه القصة – لمعلمه بيسوس أمـــا دفعـــت الخبز لأولئك الذين أتوا قبلا ؟ فأجابه بيسوس لقد ملأتها مرة ثانية. فقال التلميذ له " منذ صعدت إلى هنا وأنت قائم تصلى مكانك ما برحته، فمتى ملأتها ؟ فقـــال بيسوس " قد ملأها الرب . وهوذا هى مملوءة خبزا فانزل بعضه للجائعين ".. وأشـــهد يـــوأنس التلميذ الله على نفسه أن بيسوس " لم يمسكها بيده منذ فرغت وكانت فارغة. وكان هو قائم يصلى. وأنا صليت معه صلاة الساعة الثالثة ".[٩٣]

شفاءه للعميان:

وكان أحد الرهبان ويدعى يسطس قد فقد بصره، فصلى عليه بيسوس لمدة شهر كامل إلـــى أن رد إليه البصر ثانية. ويسطس هذا هو أب راهب قديس كان معاصراً للقديس بيســـوس ولمـــا طلبوه ليرسموه بطريركا بعد الأنبا خرستوذولوس هرب واختفى فى بعض البلاد حتى رسم البابا كيرلس الثانى.

آخر أيامه:

وبعـــد نياحة خرستوذولوس اتجهت أفكار الآباء الأساقفة إلى القديس بيسوس ليجعلوه بطريـــركا ، فلما هموا أن يمسكوه صاح عليهم وأخذ حجارة يضرب بها صدره حتى كـــاد يؤذى نفسه . وقال لهم " أنا ابن مملوك تجعلونى بطريرك . لا تطلبونى أنا ولا مقـــار الامنوت (البواب بدير أبو مقار) الذى قد هرب منكم واختفى. ولا تتعبوا فان بطرككم هذا عندكم بدير أبو مقار ".

وفـــيما يختص بهذا القديس فان كتاب تاريخ البطاركة يورد تنبؤات كثيرة له تمت كما تنبأ بها.

٥ ــ بطرس الحبيس فى صومعة سنجار:[٩٤]

كـــان لـــه عجائب كثيرة منها أنه ذات مرة بينما كان يصلى القداس الالهى فى كنيسة دمرو ، وأثناء تقديس القرابين ، وضع إصبعه على حافة الكأس . وفيما يقول " وهذه الكـــأس أيضـــا يجعلهـــا دما كريما للعهد الجديد الذى له " ، إمتلا الكأس حتى نهايته وإنصبغ إصبعه بلون الدم القانى . غشى عليه ولحقه رعب شديد . ومن ذلك اليوم – ولمـــدة خمسة عشر عاما – ظل يربط إصبعه هذا بخرقه حتى لا يراه أحد . وامتنع عن صلاة القداس.[٩٥]

٦ ـ الراهب شنوده بجهة نوسا :

وكـــان راهبا شيخا قديسا يعيش فى صومعة بجهة نوسا.[٩٦]، وكان فاقد السمع فأرسل إلـــيه كاتـــب سيرته بتاريخ البطاركة رسالة للصلاة من أجله هو ومن أجل أخيه فهد وكان كلاهما مقبوض عليه بأمر أمير الجيوش بدر الجمالى. فأرسل إليه ردا قائلا قد خلصكم السيد المسيح اليوم .. وتم الإفراج عنهما فى نفس هذا التوقيت.

٧ ـ الراهب كييل بدير أنبا يحنس القصير:

كشفه ما فى قلوب الناس:-

وهـــو راهـــب قديس يسمى كييل ابن الجندى، كان يكشف ما فى قلوب الناس قبل أن يفصحوا عنها .. قصده جماعة وكان ضمنهم رجل نصرانى من أهل فوه ..

وكان الراهب كييل قلما يفتح لمن يقرع بابه - فلما فتح لهم قال للرجل الذى من فوه " يـــا فـــلان (وســـماه باسمه) ما خفت من السيد المسيح ربنا لما زنيت ليلة الأحد فى الطاحونة بفوه " .. فلما سمع الرجل هذا الكلام سقط على الأرض وتعلق برجل كييل وبكى وسأله أن يستغفر له فضمنه وقال له أن أنت تبت فأنا أضمن لك الغفران فتاب لوقـــته. فقال له هدئ نفسك فإن الرب قد غفر لك ".. ثم أخذ يحدث الباقين كل واحد باسمه ويذكر له ما أتى لأجله قبل أن يفصح به.

سلطانه على الشيطان:

وحدث أن الراهب كييل هذا وقف يصلى ليلة أحد بين يدى صورة السيدة العذراء حتى الصـــباح ، فكلمه إبليس من خلف الصورة وقال له " قد تعبت يا كييل يكفيك . فزجره كييل كعادته معه .. وصلب عليه فصار زوبعة سوداء ومضى عنه.

معرفة وقت نياحته:

عـــرف كييل وقت نياحته وخروجه من هذا العالم ، وطلب إلى الرهبان أن يأتوه يوم الجمعـــة وقـــت الساعة التاسعة ليودعهم فانه راحل عنهم فى ذلك اليوم .. فذهب إليه الـــرهبان وكـــان هـــو بغاية الصحة وكان يخدمهم . ثم قام واستحم ولبس ثيابا نظيفة واضطجع قدامهم وقال اقرأوا على المزامير ثم ودعهم وتنيح.[٩٧]

٨ ـ الشهيد بفام بن بقورة الصواف:

هو ابن أخت أنبا جرجه أسقف ميساره. كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة ويقيم بمصر .. تعـــرض لتجـــربة شديدة حينما ارتد عن المسيحية وأسلم . فرفضه أبوه وأمه وأبعدوه عنهم .. لكن الله لم يتركه إذ ندم على فعلته ، وقرر العودة ثانية إلى المسيحية .

مضى إلى كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل المختارة (وكانت بجزيرة الروضة وتدعى

وقـتذاك جزيرة مصر) ، وأقام بها أياما .. وفكر فى التوجه إلى دير أبو مقار فى صحبة بعض الرهبان والإقامة فيه .. وكان ذلك بناء على مشورتهم . فلما حان وقت المسير غير فكره وقال لهم " ما منفعتى إذا مضيت معكن إلى تلك البرية، ولم اعترف بالمسـيح فى الموضع الذى أنكرته فيه ". وتركهم وشد زناره (علامة نصرانيته) - وأخذ يمشى فى أسواق مصر.

كان أبوه على صلة طيبة بأحد كبار موظفى الدولة ويدعى " عدة الدولة رفق ". فلما رأى المسـلمون زنـاره فـى وسطه بعد إسلامه، أمسكوا به واقتادوه إلى الشرطة ، فاعتقله الوالى وضيق عليه . فمضى أبوه إلى صاحبه عدة الدولة رفق ، ووعده بمبلغ كبير من المال إن هو خلص ابنه .. فقال له عدة الدولة أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا " إلا إذا تظاهـر بالجـنون . وأرسل الشهود إلى الحبس لكى ينظروه ويسمعوا كلامه ،وأخلصه منهم وهو نصرانى " .

كـان معـه فـى الحبس راهب سريانى الجنس أخذ يعظه فأنار قلبه وأبان له طريق الشـهادة حتى حبب إلى نفسه الشهادة على اسم المسيح. وصار الاستشهاد عنده أحلى مـن الشـهد حتى صار يشتهيه ويؤثره على الحياة. فلما دخل إليه الشهود فى السجن كلمهم بعقل واتزان واعترف بالإيمان المسيحى .. فقالوا له إنما قيل لنا أنك فعلت هذا عن جنون أصابك .. فقال لهم " لو كنت مجنونا ما حفظت دينى وإيمانى . وأنا بحمد الله عاقـل مـؤمن بالسيد المسيح له المجد " .. ثم مضى الوالى بالشهود إلى الوزير وشرحوا له ما كان بحضور عدة الدولة رفق فأمر الوزير بقتله.

أبلغـوه فـى السـجن الأمر الذى يقضى بقتله بقصد إرهابه، لكنه ثبت على إيمانه . فأخرجوه من سجن الشرطة وتبعه خلق كثير يحملون العصى وآلات التعذيب .. وفى المكان المعد للقتل ، أخذ نائب الوالى يغريه بإغراءات كثيرة ، ويقدم له الوعود حتى يـرجع عن رأيه ، فقال له الشاب " لو دفعت إلى ملك مصر ما التفت إليه " فرفع يده ولطمـه . وكان فى إصبعه خاتم كبير من الذهب أصاب عينيه فتورمت . وإمعانا فى إرهابـه قـال نائب الوالى للسياف " جرد السيف " فجرده . وقال للشاب " أنظره أنه قاطع " وأرادوا أن يعصبوا عينيه ، لكنه قطع جزء من كم ثوبه وعصب عينيه بيده .. وبـرك علـى الأرض وحول وجهه نحو الشرق ، رسم جبينه بعلامة الصليب ، ومد عنقه . وضربت عنقه فوقع بطنه على الأرض ، وأما رأسه ووجهه فكان منتصبا نحو الشرق ، مما أثار عجب جميع الحاضرين .

أقامـوا أربعـة لحراسـته فى تلك الليلة فرأوا نورا عظيما حل على جسده حتى أنهم فـزعوا منه .. وبعد ذلك أمر الخليفة المستنصر أن يسلم جثمانه لذويه ليدفنوه حيثما شاءوا .. فحمله أبوه إلى كنيسة ميخائيل المختارة ، ودفنه خارج الباب .

وفـى الـيوم الثالث وصل البابا خرستوذولوس إلى هذه البيعة ، ولما علم أنهم دفنوه خارج الباب استنكر هذا التصرف . وقال " لا يدفن الشهيد خارج البيعة . وأمر بهدم

القبــر وأخرج جسده ودخل به إلى الكنيسة ، وكشف عنه الكفن وقبله وتبارك منه . ووجــد علــيه دما سائلا كأنه نزف منه لوقته . فأخذ البطريرك من الدم وصلب على ثــيابه . وبنى مذبحا هناك على اسمه ، وكرزه ودفنه مقابله على سطح الأرض حتى يتبارك منه الناس.[98]

مشاهير الأقباط فى عهد الفاطميين:[99]

تقلد كثير من الأقباط فى عهد الفاطميين الوظائف العالية فى دواوين الحكومة، لاسيما المــتعلقة بالأعمــال الحسابية التى أجادوها وإستقلوا بها تماما. وامتازوا عن غيرهم بوضــع قــواعد دقيقة. فلم يتمكن غيرهم من تسييرها مثلهم .. وكانوا قد أتقنوا اللغة العربية وألفوا بها مؤلفات كثيرة تشهد لهم بغزارة العلم وطول الباع ونقلوا إليها جملة مــؤلفات من اللغتين اليونانية والقبطية. فعرفت الدولة فضلهم وكفاءتهم، فقدرتهم حق تقدير، ومنحتهم الألقاب السامية، ومن أشهر هؤلاء:

الأسعد صليب بن ميخائيل المعروف بابن الايغومانس

ومــن الأراخنة الأقباط فى عصر العاضد الأسعد صليب بن ميخائيل المعروف بابن الايغومانس – كان عالما فاضلا كلفا بالعلم، محبا للعلماء . ولما أحرق شاور الوزير الفسطاط قام هو بتجديد دير مار مينا، وأنشأ به مدرسة ومنتدى علميا كان محط رجال أهــل العلــم والأدب فــى زمانه. وكان له رسالة فى أسرار الكنيسة بخط يده، كانت محفوظة بدار الكتب بمدينة لننجراد بروسيا.[100]

المعلــم ســرور الجلال – كان ضامنا (ملتزما) فى خلافة المستنصر، فكون ثروة طائلــة. وكان محسنا فطنا، مدبرا، فنال بذلك نعمة لدى الخليفة، واكتسب ثقته لصدقه واســتقامته، فلــم يرد له كلمة ولم يرفض له طلبا .. ومع كل ذلك يذكر عنه أنه كان متواضعا كريما جوادا عالى الهمة حسن الأخلاق محبا لعمل الخير لجميع الناس على السواء دون تمييز بين مسيحى ومسلم .. ولذا أحبه الجميع.

الشيخ السعيد أبو الفخر المعروف بابن صاعد:

كان كاتب الرواتب فى خلافة الحافظ (١١٣٠ - ١١٤٩ م) . ثم ترقى إلى رئاسة المجلــس ولمــا توفى تعين مكانه فى وظيفته الأولى ولده الشيخ السعيد شديد الملك. وكان له ولد آخر يسمى السعيد أبو البركات.

الأسعد أبو الخير جرجه بن أبى وهب الشهير بأبن الميقاط :

كان من أكابر الأقباط وأغنيائهم فى زمن الخليفة العاضد (١١٦٠ - ١١٧١ م) آخر الخلفــاء الفاطميين . أدعى عليه شاور الوزير أنه يتخابر مع جنود الصليبيين الفرنجة ســرا . فقبض عليه وصار يعذبه حتى مات .. وهو أصل عائلة كبيرة اشتهرت فيما بعــد بعائلة " النشو " ومنها أبو الفتوح بن الميقاط الذى تقلد رئاسة ديوان الجيش فى أيام الملك العادل الأيوبى.

السيدة ترفة:

كانـــت غنية بمصر القديمة . واشتهرت بالتقوى والغيرة الدينية وأعمال الخير. شيدت كنيســـة على أسم أبو نوفر من مالها الخاص وشيدت أعلاها مكانا فسيحا ليكون ديرا لعذارى الراهبات. واستنسخت جملة كتب مخطوطة وأوقفتها على الدير المذكور.

أبو اليمن يوسف مكراو بن زنبور الشهير بأمين الأمناء:

كـــان أمينا على خزائن الخليفة. ثم تولى نظارة الريف بالوجه البحرى .. ومن مآثره العديدة إنشاء دير أبى السيفين بطموه المطل على النيل قبلى الجيزة على البر الغربى ، وأحاطه ببساتين فسيحة كانت غاية فى البهجة والرونق ، فكان من أعظم المتنزهات حتى أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى كان يتردد عليه كثيرا ويقيم فيه أيام ترويحا عـــن النفس .. وهو أصل عائلة كبيرة اشتهرت بالمجد والكرامة والغنى ، واستمرت زمـــنا طـــويلا . وكان آخر أعضائها ابن القسيس ابن زنبور الذى أسلم فى أيام دولة المماليك وسمى بعلم الدين.

أبو سعد منصور بن أبى اليمن:

كـــان كاتبا بليغا ، وبطلا شجاعا . تولى الوزارة فى أيام الخليفة المستنصر ثم تنازل عنها حين أدرك حرج مركزه لما طالبه الجند الأتراك برواتبهم ، ولم يكن فى الخزينة ما يفى مطامعهم .

الشيخ صفى الدولة ابن أبى ياسر بن علوان الكاتب:

ومن مآثره بناء كنيسة على اسم أجيا صوفيا قرب أهرام الجيزة . وقد زالت معالمها . ويغلب على الظن أنه كان ملكانيا (من كنيسة الروم).

أبو الطيب:

كان كاتب سر ناصر الدولة زعيم الأتراك فى أيام الخليفة المستنصر. وحدث فى أيامه أن أتـــباع ناصـــر الدولـــة بينما كانوا يعبثون فسادا فى الوجه البحرى، هجموا على ديـــارات الـــرهبان ونهـــبوها. وأســـروا البابا خرستوذولوس وكان بأحد هذه الأديرة واحتجـــزوه عـــندهم حتـــى يدفع الأقباط عنه دية يفتدوه بها . فخلصه أبو الطيب من أيديهم.

الشيخ الأحزم:

كان كاتب ديوان النظر وهو ديوان المراجعة على دواوين الأموال. وكان لمن يتولى نظارته حق العزل والولاية.

أبو البركات بن أبى الليث:

كـــان رئـــيس ديوان المجلس . حسده البعض فرفعوا للخليفة تقريرا ضده مدعين أنه يختلس أموال الدولة . كما اتهموه أنه يستخدم أقاربه ويقدمهم على غيرهم ، فلم يلتفت الخليفة لأقوالهم لأنه اكتشف تحامل كاتبيها عليه .

أبو المليح الشهير بمماتى:

كـــان فـــى خلافـــة المستنصـــر ووزارة بـــدر الجمالى. اشتهر بالغنى وعمل الخير والإحسان، عرف عنه إحسانه وصدقاته الكثيرة للجميع - مسلمين ومسيحيين - بدون تمييز خاصة فى أيام المجاعة والغلاء الشديد. وهو جد أسعد بن مهذب بن زكريا الذى أسلم فى وزارة شيركوه أيام العاضد.

وغير هؤلاء كثيرون خلعت عليهم ألقاب الشرف والتبجيل مثل :
الرئيس - هبة الله - الأمجد - الأسعد - الشيخ - نجيب الدولة - تاج الدولة - فخر الدولـــة ... الـــخ . ونســـوق هـــنا أسماء بعض مشاهير الأقباط وأفاضلهم فى زمن الفاطميين.

ومن أمثلة هؤلاء أيضاً:

الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأسقف. كان كاتب سر الأفضل بن بدر الجمالى.

المعلم زوين كان ملتزما بمصر فى خلافة الحافظ.

والشيخ الوجيه أبو الحسن الأبح كان كاتب سر الخليفة الحافظ.

والشـــيخ الأكرم أبى الفضائل بن أبى سعيد - وأبو غالب بن أبى المكارم البلبيسى - والشـــيخ أبـــو زكـــرى الصيرفى - والشيخ أبى البركات بن أبى سعيد هيلان الكاتب المجـــيد - والشيخ ابن أمين الملك بن المهذب - والشيخ أبى اليمن البزاز - والشيخ المهذب أبى أسحق إبراهيم بن أبى سهل الفيومى المعروف بالزقزوق - وفخر الدولة أبـــو المكـــارم بن الفتح الاسكندرانى وغيرهم مما لا يسعنا إحصاء أسمائهم والأعمال التى عملوها ، والخدمات التى قدموها للكنيسة والأديرة .

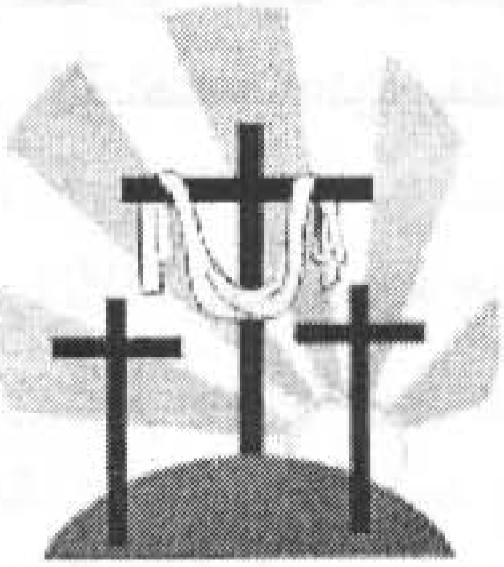

الباب العاشر

تاريخ الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الأيوبية ابتداء من سنة (١١٧١ م - ١٢٥٠ م)

" الفصل الأول "
الدولة الأيوبية والحملات الصليبية(الفرنجة)

لا يمكن الحديث عن الدولة الأيوبية دون أن نتكلم عن الصليبيون "

كان أول عهد منطقة الشرق الأوسط بالحروب الصليبية سنة ١٠٩٦ م ، وآخر عهدها بها سنة ١٢٩٢ م . أى أنها استمرت نحو قرنين من الزمان .. كانت البداية حينما غزت الشواطىء السورية حملة أوروبية اشترك فيها الفاتيكان وانجلترا وفرنسا وألمانيا. وتمكنت تلك الحملة من تأسيس أربع إمارات صليبية هى بيت المقدس وإنطاكية وطرابلس والرها. ساعد تلك الحملات الصليبية على تثبيت أقدامها فى تلك الإمارات، النزاع الذى كان قائما بين السلاجقة السنيين فى العراق والفاطميين الشيعيين فى مصر .. يضاف إلى ذلك الشقاق بين الإمارات الإسلامية نفسها فى المنطقة.

ظهرت فى ذلك الوقت بعض القوى الإسلامية الفتية التى أخذت على عاتقها توحيد المسلمين تحت رايتها ، وتوسيع أملاكها على حساب الإمارات الصليبية ، حتى ينتهى الأمر بطردها نهائيا ، على نحو ما حدث فى استيلاء عماد الدين زنكى على إمارة الرها الصليبية منها وفشل الأوروبيون فى استعادتها ثانية .. وبسقوط الرها فى أيدى المسلمين، ظلت إمارات بيت المقدس وإنطاكية وطرابلس هى مراكز الصليبيين فى المنطقة التى يهاجمون منها.

أولا:ويمكن تلخيص الحملات الصليبية على البلاد المصرية كالآتى:

١ - الحمله الصليبية الأولى:

ومما يذكر عن أولى الحملات الصليبية للبلاد المصرية هذه أنها كانت فى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله وفى أيام البابا مكاريوس الثانى (١١٠٢ م - ١١٢٨ م) وفيها اتجه بولدوين Boldwin ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية إلى البلاد المصرية لغزوها وكان ذلك سنة ١١١٧ ووصل إلى الفرما وفتك بأهلها بلا أدنى تمييز بين مسلم ومسيحى وأشعل النار فيها. واستمر فى زحفه حتى وصل إلى تنيس. لكنه اضطر إلى العودة بعد أن مرض مرض الموت ولم يحاول المصريون الانتقام من ذلك الهجوم ووقفوا موقفا سلبيا حتى نهاية الخلافة الفاطمية. وكانت سياسة وزرائهم هى الموقف السلبى والوقوف موقف الدفاع.[١٠١]

+ ومما يذكر أن الوزير الأفضل لقى حتفه أواخر سنة ١١٢١ مقتولا بتدبير الخليفة الفاطمى الآمر . ولا شك إن الأفضل كان إنسانا حكيما أحسن معاملة الأقباط. لكن غيرة الخليفة من نفوذ وزيره قادته إلى هذه الجريمة الشنعاء.
+ ويذكر عن الخليفة الآمر بأحكام الله أنه كان يتردد على دير نهيا (بجوار الجيزة) ويقضى فيه بضعة أيام . وكان فى كل مرة يزور فيها الدير يمنح رهبانه ألف درهم . أما فى زيارته الأولى فقد أوقف عليه ثلاثين فدانا لا يدفعون عنها مالا . وبلغ جملة ما قدمه للدير أكثر من ثلاثين ألف درهم.

٢ – الحملة الصليبية الثانية:

الحملـــة الصـــليبية الثانـــية جاءت إلى مصر سنة ١١٦٦ م واتفق وصولها مع حملة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وانتهت بانتصار شيركوه ...وعقدت معاهدة كان من أهـــم شـــروطها أن يكون للفرنجة بالقاهرة حامية . كما إتفق الطرفان على أن يكون للفرنجة مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر .

٣ – الحملة الصليبية الثالثة:

الحملـــة الصـــليبية الثالـــثة جاءت إلى مصر سنة ١١٦٨ م وانتهت بانتصار شيركوه ودخـــوله القاهـــرة دخول المنتصر، وقابله أهلها بالترحاب، وأستقبله الخليفة الفاطمى العاضد بأحسن مظاهر الاستقبال، إذ قدر له تخليصه من الوقوع فريسة لحكم الفرنجة. وعلـــى الرغم من اتحاد شاور مع شيركوه فى قتال الفرنجة ، فان شيركوه كان واثقا من أن فرصة امتلاك مصر لن تتاح له مادام شاور فيها . فأمر بالقبض عليه ، وعهد إلى صلاح الدين بأمر قتله . وبالفعل قام صلاح الدين بما عهد إليه . وأسندت الوزارة إلى شيركوه وظل بها مدة شهرين تقريبا مات بعدها ، فتولاها من بعده صلاح الدين . ومن هنا تبدأ مأساة سقوط الفاطميين . فقد كانت سياسة نور الدين السنى المذهب تدور حول القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية.[١٠٢]

٤ – الحملة الصليبية الرابعة جاءت إلى مصر سنة ١١٦٩ م :

فقـــد شرع صلاح الدين فى استماله قلوب الناس إليه ، وأخذت سلطة الخليفة العاضد فـــى الضـــعف . أثـــار ذلك حاشية العاضد فدبروا المكايد للتخلص من صلاح الدين. ومـــنها أنهم كاتبوا الفرنجة ودعوهم إلى مصر للتخلص من صلاح الدين. وهنا دارت معـــركة بين جنود الخليفة وقوات صلاح الدين انتهت بفوز صلاح الدين .. وفى نفس الـــوقت جاءت حملة من الفرنجة إلى دمياط يعاونهم أسطول كان ذلك سنة ١١٦٩ م وحاصـــروا المدينة . لكنهم اضطروا إلى فك الحصار عنها والانسحاب إلى بلادهم . وهكذا فشلت فى غزو دمياط والاستيلاء على مصر.[١٠٣]

ثانيا:استقرار صلاح الدين ونهاية الدولة الفاطمية :

كان لانتصار صلاح الدين وفشل الفرنجة من غزوهم لمدينة دمياط أثر فى ارتفاع نجم صــلاح الدين .. ولما أيقن صلاح الدين أن سلطته استقرت وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى بمصر .. وأنتهى الأمر بإسقاط اسم العاضد من خطبة الجمعة ، وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه . وكان العاضد فى ذلك الوقت مريضا ، فلم يعلم بما كان يجرى . وبوفاة العاضد سقطت الدولة الفاطمية الشيعية سنة ١١٧١ م.[١٠٤]

وجدير بالذكر أن صلاح الدين بدأ حكمه كوزير باتخاذ سياسة عدائية تجاه الأقباط كما سنوضح فيما بعد .

ثالثا:مصر والصليبيون :

فــى زمــان الحمــلات الصــليبية على منطقة الشرق الأوسط (١٠٩٦ - ١٠٩٩) وتأسيس إمارة القدس اللاتينية ، كان يحكم مصر من الناحية الرسمية الفاطميون ، لكن حكامهــا الفعليــين كانــوا هم الوزراء ، وأولهم بدر الجمالى وخلفه فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه ثم غيروهما على نحو ما أشرنا إلى ذلك قبلا .

كان أمرا طبيعيا عندما بدأت الحروب الصليبية أن يشك الحكام المسلمون فى الأقباط مــن جهة تعاطفهم مع هؤلاء الصليبيين القادمين من الغرب إلى الأراضى المقدسة .. كانوا لا يعرفون مسألة الخلاف المذهبى بين أقباط مصر وبين الكنيسة فى الغرب التى تفجرت منذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ بسبب موضوع شخص المسيح وطبيعته ، أهو فــى طبيعة واحدة أم طبيعتين .. فالكل فى نظرهم مسيحيون .. لذا كان على الحكام المسلمين فى مصر أن يراقبوا الأقباط وأن يزيدوا الضرائب عليهم . وكان هذا الاتجاه الذى تتبنيه الدوائر الرسمية الحاكمة طوال هذه الفترة المشئومة للحروب الصليبية .

وبالنســبة للأقــباط ، كانــت الحــروب الصليبية من أكبر الكوارث التى حلــت بهم وبالمسيحيين الشرقيين .. حقا أنهم لم ينعموا بالراحة طوال العصور الإسلامية ، ولم يتوقعوا أبداً أن ينعموا بالمساواة مع جيرانهم المسلمين .. حيث أدرك الأقباط أن عليهم أن يتخلوا عن . الكثير من المتع المادية لكى يحتفظوا بتراثهم الروحى . وكان عليهم - حتى قبل الحروب الصليبية - أن يتعايشوا مع نظم الحكم الاسلامى دون أن يضلوا الطريق .. وكان الخلفاء المسلمون يقدرونهم تقديرا عظيما . ويثقون فيهم ، فكان منهم كتبه الدواوين وجامعو الضرائب ، وأمناء خزائن الخلفاء .

لكن الحروب الصليبية - بما كانت تحمل من معنى حروب الصليب المقدسة - جعلت المسلمين يعادون كل أتباع الصليب، سواء كانوا من اللاتين أو اليونانيين أو الأقباط .. ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة من مراحل تعذيب الأقباط واضطهادهم .. ومن الناحية الأخــرى فــان الكارثــة كانــت مضاعفة بالنسبة للمسيحيين الشرقيين ، فالمسلمون

اضطهدوهم على نحو ما قلنا ، واللاتين الغربيين نظروا إلى المسيحيين الشرقيين – ومـنهم الأقـباط علـى وجه الخصوص ، أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة فى المسيح – كمنشقين وهراطقه وكفرة وأنهم اشر من الوثنيين .

رابعا:موقف الأقباط من الحروب الصليبية :

حاول الصليبيون الاستيلاء على مصر فى خلافة الآمر بن المستعلى الخليفة الفاطمى (١١٠١ – ١١٣٠) ولكنهم فشلوا ، ولشدة غيظهم من عدم تعاون أقباط مصر معهم ، منعوهم من زيارة الاراضى المقدسة .. وقد كتب مؤرخ قبطى يعبر عن ألمه من هذه المعاملة وهذه النظرة يقول " لم يكن حزن اليعاقبه (الأقباط) بأقل من المسلمين ..
بأى حق يمنع النصارى الأقباط من الحج إلى القدس أو الاقتراب من المدينة ؟
إن الصليبيين يكرهوننا، كما لو كنا ضللنا عن الإيمان القويم ".[١٠٥]
والأمر الذى لاشك فيه أن الحملات الصليبية أنشأت موقفا صعبا بالنسبة للأقباط .. فقد تحالف الجهل مع التعصب فى اتهام بعض الأقباط بتهمة مساعدة الصليبيين أو التخابر معهم ..

ويهمنا هنا أن نسجل شهادة عالم مسلم فى العصر الحديث هو أحمد زكى باشا الذى كتب فى مقال له فى مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٩٦١:

"أن اليعاقبه (الأقباط) فى مصر كانوا يتجسسون لصالح صلاح الدين".[١٠٦]

ويقول دكتور على إبراهيم حسن:

" فى العصور الوسطى، ظهر الأقباط فى مصر كطائفة محايدة، وخاصة فى الحروب التى قامت بين المسلمين والصليبيين، إذ لم يثبت أنهم مدوا يد المساعدة للمحاربين من الجانبين".[١٠٧]

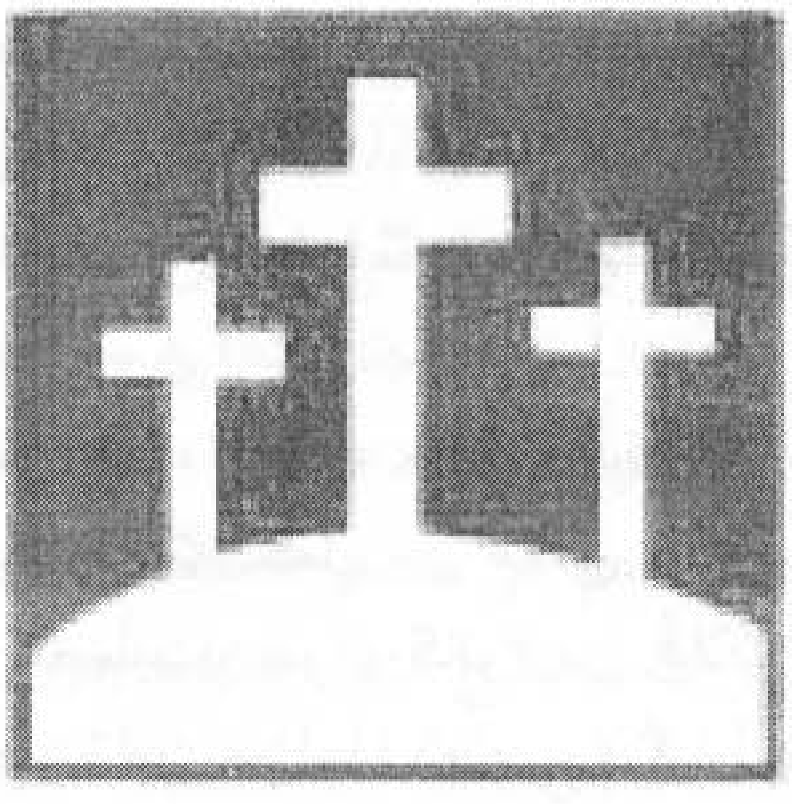

" الفصل الثانى "

صلاح الدين والأقباط

كـــان صـــلاح الـــدين مسلما متدينا، وما أن تولى السلطة حتى أمر بطرد الأقباط من الـــدواوين ، لكنه أضطر إلى إلغاء هذا الإجراء فيما بعد ، بعد أن استقرت له الأمور مـــن أجـــل صـــالح إدارة البلاد .. لكنه أذل الأقباط علانية بفرض زى خاص لهم ، ومـــنعهم مـــن ركـــوب الخيل ، وهى من وسائل التحقير الأدبى . كما فرض عليهم غـــرامات باهظة ، مما أضطرهم إلى بيع معظم ممتلكاتهم ليدفعوا ما فرض عليهم .. وســـلم كثير من الأقباط أراضيهم وممتلكاتهم للعرب ليكونوا تحت حمايتهم ، وآخرون أعلنوا إسلامهم لينقذوا أنفسهم . وكان من هؤلاء بعض من كانوا يتولون وظائف هامة فى الدولة . وكان كل همهم الاحتفاظ بوظائفهم ومراكزهم والنجاة بأنفسهم ..

إسلام زكريا بن أبى المليح بن مماتى:

وأحـــد الأمثلة البارزة على ذلك الكلام السابق هو إسلام عائلة قبطية كبيرة عريقة فى أسيوط . كان رب هذه العائلة يدعى زكريا بن أبى المليح بن مماتى ، ألح فى أن يعفى مـــن الضـــرائب الباهظة وكذلك من مظاهر الإذلال الادبى . لكن دون جدوى .. مما أضطره أن يغير إسمه الأول وصار مسلما مع كل أفراد أسرته .

وهكـــذا أستطاع أن يحتفظ بوظائفه كمسئول عن شؤون الحرب والخزانة ، وأن يعين أبنه ليحل محله .. وكان هذا الرجل معاصرا لآخر الخلفاء الفاطميين وللسلطان صلاح الـــدين .. وكان شاعرا وكاتبا ، أشتهر بكتابته ، ومات فى مدينة حلب سنة ١٢٠٩ . وقد سبق أن أشرنا إليه قبلا.

هدم كنيسة مار مرقس بالإسكندرية:

وفـــى الإســـكندرية عزم الأيوبيون على هدم كاتدرائية مار مرقس التى تطل علـــى ميـــناء الإسكندرية بحجة أنها بحكم موقعها هذا تعتبر حصنا عظيما يمكن أن يســـتفيد منه الصليبيون فيما لو هاجموا الإسكندرية. وحاول النصارى عبثا دفع ألفى دينار لإنقاذ الكنيسة ولكنها خربت عن أخرها.

حملات التأديب والتخريب بصعيد مصر والنوبة:

كمـــا أرسل صلاح الدين حمله لتأديب مملكة النوبة المسيحية، وللقضاء على العناصر القبطية القوية فى صعيد مصر الأعلى.

ولقـــد شـــاهد عام ١١٧٣ م أول غزو إسلامى خطير ومخرب لبلاد النوبة المسيحية، دمـــر خلالـــه ديـــر القديس سمعان الحصين قرب أسوان، ودير آخر عند بلده أبريم، وقـــبض على عدد كبير من السكان من ضمنهم الأسقف القبطى، وزج بهم فى أعماق

السجون، ثم بيعوا عبيدا فى سوق النخاسة .. أما مدينة قفط القبطية العظيمة المزدهرة، فقد خربها الأيوبيون، وهدمت بيوتها وكل أبنيتها ومنشاتها حتى سويت بالأرض. ولم تقم لتلك المدينة قائمة من ذلك التخريب بل أصبحت قرية فقيرة.

أولا:سماحة صلاح الدين نحو الأقباط:

وبانتصارات صلاح الدين المتكررة على الصليبيين، والتى بلغت أخرها بسقوط القدس سنة ١١٨٧ م . تغيرت نفسية الأيوبيين، وأصبحوا أكثر تسامحا من جهة أقباط مصر. ومنحهم السلطان صلاح الدين ديراً ملاصقا للقبر المقدس بالقدس ـ هو المعروف باسم " دير السلطان "ـ مكافئة لمواقفهم النبيلة معه ضد الصليبيين.

ودير السلطان هذا هو الدير الوحيد الذى لا يحمل إسم قديس من القديسين، كما هو الحال فى بقية الأديرة القبطية.

كما أعاد صلاح الدين الكثير من الأقباط إلى وظائفهم العليا فى الدولة وأسترد آخرون أموالهم وممتلكاتهم التى كانوا قد فقدوها بطريقة أو بأخرى .. واختار صلاح الدين قبطيا هو صفى الدولة ابن أبى المعالى الملقب "بابن شرقى" كسكرتير خاص له .

نحن لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان صلاح الدين فى الإجراءات المتعسفة التى اتخذها ضد الأقباط فى بداية حكمة كان مدفوعا بروح التعصب البغيض أم أن ذلك كان لدواعى سياسية ، لكن الروح التى سادت تلك الفترة كانت روحا غير سمحة نحو المسيحيين ، زادها مجئ الصليبيين إلى شرقنا الأوسط ، حتى أن نور الدين صاحب حلب ودمشق كتب يوما إلى الخليفة العباسى يقول له " إن المسلمين حكموا خمسمائة عام ولم يسيئوا إلى النصارى ، أما الآن . وقد انصرمت هذه الأعوام ، يجب ألا يبقى هؤلاء النصارى فى الإمبراطورية الإسلامية ، ومن لا يسلم منهم يقتل " .. لكن الخليفة كان مسلما تقيا عارفا بدينه ، فكتب له يقول " انك لم تفهم تماما أقوال النبى . وإن الله لا يأمرنا أن نقتل من لم يرتكب سوءا ".[١٠٨]

وهناك موقف لصلاح الدين مع نصارى القدس بعد أن فتح المدينة المذكورة ، يظهره بمظهر الإنسان المعتدل .. فلقد نصّت شروط التسليم على أن المسيحيين الفرنجة يعتبرون وحدهم أسرى حرب . وعليهم إن أرادوا فك هذا الأسر أن يدفعوا الديَة الحربية .. أما النصارى من أهل القدس – الذين ليسوا من الفرنجة – فقد طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من الإقامة فى مساكنهم على أن يدفعوا الجزية . فأجابهم إلى طلبهم هذا . فاستقروا واشتروا من الفرنجة ما لم يستطيعوا حمله معهم إلى بلادهم فى عودتهم.[١٠٩]

ومما يذكر فى هذا المقام أن قلعة القاهرة ، وهى من أهم آثار صلاح الدين ، بناها له مهندسان قبطيان هما أبو منصور ، وأبو مشكور .

ثانيا:خلفاء صلاح الدين والأقباط :

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى واجهت مصر حملتين صليبيتين خطرتين : حملة جان دى بـــريين Brienne ، وحملـــة الملـــك لويس التاسع ... نزل جان دى برين على ساحل دمياط واحتل المدينة فحدث رد فعل بين المسلمين تجاه النصارى : هل يستقبلوا الفـــرنجة بحفـــاوة علـــى نحو ما فعل النصارى الأرمن والسوريون خارج مصر .. وتســـاءلوا مـــاذا عســـاه يحدث لو حدث تعاون بين الفريقين ، الأمر الذى يؤدى إلى عواقب خطيرة بالنسبة للمسلمين ..

مثل هذا القلق وهذه الهواجس كانت كافية لبعث الاضطرابات فى القاهرة على وجهة الخصوص " وقد شمل الذهول والفزع جميع السكان ، وراحت الإشاعات حول موقف النصـــارى فأصـــبحوا موضع الريبة ، وثار ضدهم عدد كبير من الناس .. وأصدر الســـلطان أمـــره بتعبـــئة نصـــف سكان مصر والقاهرة مختارين أو مكرهين لمقاتلة الصـــليبيين .. أمـــا النصارى القاطنين فى القاهرة فقد فرضت عليهم ضريبة وكذلك سائر الأغنياء.[١١٠]

استغلال الحرب فى ابتزاز أموال النصارى:

هكذا انتهزت الحكومة فرصة الفزع الذى حل فى البلاد لتملأ خزائنها التى تأثرت من الحـــرب القائمـــة . ومـــا يجب الإشارة إليه هى الطريقة التى استخدمها رجال الحكم ليبتزوا من النصارى أكبر قدر من المال دون استخدام العنف ويورد رينودو فى تاريخ بطاركـــة الإســـكندرية اليعاقبة المنشور بالفرنسية بعض التفاصيل المثيرة .. يقول " أرســـل حـــاكم مصـــر – بعد أن استشار رجال القانون – فى طلب قساوسة الأقباط اليعاقـــبه والملكانيـــين وقـــال لهم : سافروا مع المسلمين . وإمعانا فى تخويفهم قال : لأجـــل الحـــرب اخـــرجوا مع المسلمين . غير أنكم لم تصلوا إلى باب المدينة حتى يقتلونكم وما من أحد يستطيع أن يلومهم فى الظروف التى نحن فيها " .. وكان يقصد بكلامـــه هـــذا الملكانيين ، إذ كان المسلمون يكرهون المسيحيين الملكانيين ويأخذون عليهم حبهم للفرنجة ومحاولة التشبه بهم ومحاكاة عوائدهم . فخاف القسوس الملكانيين مـــن هـــذا الكـــلام خوفا شديدا ، وأسرع أحدهم إلى القول " لدينا مبلغ ألفى دينار " . فأجـــاب الحاكم " حسنا أذهبوا واحضروا هذا المبلغ " . ثم قيل للقسوس الأقباط الذين كانوا حاضرين " إن هؤلاء القوم ليسوا مثلكم فى العدد . إنكم تساوون أربعة وعشرين أمـــثالهم. ولكن إذا فرضنا أنكم لا تساوون إلا عشرة فقط، فعليكم أن تدفعوا لنا عشرة آلاف ديـــنار ". وأخيرا تم الاتفاق على دفع ثلاثة آلاف دينار فقط. ووضعت الأختام على كنيسة المعلقة وكنيسة الملكانيين ومعبد اليهود ".[١١١]

نهب الكنائس واضطهاد النصارى :

وحدث أن جنود القاهرة ، وهم فى طريقهم إلى دمياط ، نهبوا الكنائس التى صادفتهم .. ويبدو أن الاضطهاد كان عنيفا إذ يذكر المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الحبشة ، أن النجاشـــى لابيليلا Labilela صرح سنة ١٢١٨ بدخول عشرة آلاف قبطى فروا مـــن أعمـــال المسلمين الانتقامية .. ولم يكن هناك مبرر لهذا الاضطهاد بدليل أنه لا يـــوجد مستند عربى واحد يتكلم عن مساعدة النصارى للصليبيين . ولكن كان ظهور الصـــليبيين كافيا وحده لإثارة الشك فى قلوب المسلمين . وهذا هو عين ما حدث فى جميع البلدان التى ظهر فيها الصليبيون فى الشرق.[١١٢]

ثالثا:لويس التاسع والملك الصالح :

أمـــا الحملة الصليبية التى قام بها الملك لويس التاسع ملك فرنسا زمن الملك الصالح أيـــوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) (زوج شجرة الدر الأرمينية) فكانت حرب إبادة .. وقـــد أرسل لويس التاسع للملك الصالح رسالة تهديد كلها غطرسة وتبجح - وإن كان الملك الصالح قد رد عليه برسالة لا تقل غطرسة ، إلا أن الجو تلبد بخصوص الأقباط . ولنا صورة واقعية لما حدث فى مدينة دمياط ذاتها.

قتل نصارى دمياط :

فبيـــنما كان لويس يستعد لمحاصرة مدينة دمياط ، قام المسلمون بقتل جميع النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة . وفى اليوم التالى وجد الصليبيون مدينة دمياط خاوية .. بعد ذلك حلت بجيوش لويس التاسع هزيمة ساحقة وأبيدت عن بكرة أبيها ، وأسر لويس التاسع نفسه فى المنصورة . مما أحدث الفزع لعدداً من الصليبيين وبلبل أفكـــارهم ، فأخـــذوا يشكّون فى إيمانهم، ولما خيروا بين القتل واعتناق الإسلام ، لم يترددوا فى اعتناق الإسلام.

وفى مدة الملك الكامل الأيوبى:

تقـــدم إلـــيه راهب يدعى يوحنا كان قد أسلم وبيده قماش وقال له هذا كفنى اقتلنى أو ردنـــى ، فرده وكتب له فرماناً بذلك فافتدى به راهب آخر كان أسلم ، فلم يسمح له الخلـــيفة بل سلمه لمحافظ الإسكندرية ليعذبه وأرسل فى طلب الراهب يوحنا من دير أبى مقار الذى لما حضر أمام الخليفة ولكى يهرب من التعذيب أدعى زورا وبهتانا أن الرهبان حفروا جبا وعثروا فيه على نقود وآنية رومانية أثرية وذهبية ، فأرسل جنودا إلى الدير ليتحققوا من الأمر ، فإذا بهم يجدوها أوانى كنسية فأحضروها ومعها بعض الشيوخ فلما وجدها وتأكد من ذلك بواسطة الكتابة التى عليها والتى توضح أنها نذور من صنع المسيحيين المنتقلين، فأعطاها للرهبان وصرفهم بسلام.[١١٣]

ومن سماحة الملك الكامل أيضا :

انه ركن إلى الأقباط أعمال الدواوين . ورفع مقامهم وعمل على ما فيه راحتهم ، ومن أعظــم الأدلة على ذلك أن أحد الأمراء قبض على بعض الرهبان ، وسلب منهم مبلغا من المال بحجة أنهم تأخروا فى دفع الجزية السنوية وكان هذا المبلغ هو كل ما يملكه الرهبان ، فشكوه للملك الكامل ، الذى لما نظر فى دعواهم ، أمر بإرجاع المال إليهم ومـــن حسنات الملك الكامل أنه اعفى الرهبان من الجزية الشخصية وزار بنفسه دير وادى النطـــرون وتفقد أحوال الرهبان وزار أيضا دير القديس مكاريوس ، فوجد أحد الموظفين المسلمين ساكنا به ، فأمره بالرحيل محافظة على شعور الرهبان .

وبالجملة فقد منع الملك الكامل التعرض للأقباط فى أى شأن من شئون دينهم وأذن لهم ببــناء كنائســـهم التى خربَها المسلمون وأباح لهم فتح ما أغلق منها وإقامة شعائرهم الدينـــية فـــيها جهارا بدون مانع، ولذا تراهم يذكرون للآن فى صلواتهم اليومية هذه العبارة " وحنن الله قلوب المتولين علينا ".

وعلـــى كـــل حـــال كانـــت أحوال الأقباط فى أيام الدولة الأيوبية رغم ما تخللها من صـــعوبات أفضل من غيرها كما قام الأقباط فى هذه الفترة بخدمة الحكومة بكل أمانة حتـــى أن الحكام والأمراء ائتمنوهم على خزائنهم وأموالهم فحافظوا عليها، وسلموهم مصـــالحهم، فســيرّوها على أحسن حال، وتأكد للكل استحالة الاستغناء عنهم أو عدم إمكان تسيير الأعمال بدونهم.[١١٤]

" الفصل الثالث "

قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها في عصر الدولة الأيوبية

أولا:عاصر الأيوبيين فى مصر اثنان من الآباء البطاركة هما:

(١) البابا يوأنس السادس(البطريرك الـ ٧٤)(١١٨٩ م- ١٢١٦م):

كان محبا ومجتهدا فى ضيافة الغرباء وافتقاد المرضى والمحبوسين ... كثير المودة لكل أحد ، ويفعل الخير مع كل أحد وكانت رسامته فى عهد سلطنة صلاح الدين الأيوبى.

ومما هو جدير بالذكر أنه منذ أيام هذا البطريرك بطل إرسال أساقفة إلى الخمس مدن الغربية وذلك نتيجة ارتداد أهلها عن المسيحية واعتناقهم الإسلام وذلك بعد أن ذاقوا اضطهادا مريرا على يد الملوك البيزنطيين الملكانيين ثم الحكام المسلمين ، وقد عاصر كل من الملك العزيز والمنصور والعادل الأول والكامل.

(٢) البابا كيرلس الثالث(البطريرك الـ ٧٥)(١٢٣٥ م - ١٢٤٣ م) الشهير بأبن لقلق :-

وقد عاصر هذا البطريرك كل من الملك الكامل والعادل الثانى والملك الصالح والمعظم . ويقول كاتب سير البطاركة عن البابا يوأنس البطريرك الـ ٧٤ أنه فى اليوم السابق لنياحته " غشى عليه نحو ثلاث ساعات ، ثم فتح عينيه وتحدث مع الحاضرين عنده ، وسألهم عن منصور تلميذه وكان مريضا . فقالوا له مات . فقال كفنوه وادفنوه فأنا غدا أكون عنده ثم غشى عليه دفعة ثانية . ثم فتح عينيه وقال للحاضرين عنده ، يكون بينكم بعدى خلاف عظيم فيمن تقيموه . ويكون الكرسى بلا بطريرك زمانا طويلا حتى يقيم لكم المسيح رجل يأتى به من حيث لا تعرفون، وبالفعل تنيح فى اليوم التالى، كما ظل الكرسى البطريركى شاغرا مدة عشرين سنة تقريبا بسبب الظروف التى واجهتها البلاد بسبب الحملات الصليبية.[١١٥]

وقد حاقت بالكنيسة مظالم وإضطهادات كثيرة بسبب الانقامسات الداخلية والفتن الخارجية نذكر منها :

(١) حدوث بعض المشاكل والاحتكاكات من جانب عامة الناس بسبب مسجد كان ملاصقا للكنيسة المعلقة وتعمد مؤذن المسجد مضايقة البطريرك ، بل كسروا القلاية البطريركية وسرقت منها بعض الأوانى الفضية . المهم أنه بسبب ذلك ذهب جمع غفير من المسلمين إلى الأمير جمال الدين بن يغمر نائب السلطان وشكوا إليه وقالوا "

يــا مولانا هل تغلق المساجد وتفتح الكنائس " فأجابهم " هذا حديث لا يسمع ، بل إن الجميع تفتح أبوابها . ومن أراد المسجد يطلع إليه إلا أنه لا يؤذى أحد ، ولا يتعرض أحــد لآخــر . أمــا هؤلاء النصارى فهم رعية السلطان وأنتم أدرى بذلك . وإن هذا المســجد فقير وأنا أقوم به ، إلا أن التعدى لا يرضى أحد به " .. وكان النصارى مع إخوانهم المسلمين فى سلام وإنصاف واحترام متبادل.[١١٦]

(٢) وحــدثت أواخر أيام البطريرك كيرلس بن لقلق مشاحنات بسبب تجاور مسجد وكنيسة المعلقة واعتدى المسلمون على حائط الكنيسة المجاور للمسجد ، وحدثت بلبلة كبيــرة بســبب ذلك . وكان المسلمون يطلعون على سطح قلاية البطريرك ويؤذنون ويكبرون ، وحدث ما حدث نيتجة ذلك . وعلى الرغم من أن الأمير أحضر قوما منهم وضربهم بشدة كما حبس والى مصر جماعة منهم لكنهم لم يهدأوا.

شفاء الملك الكامل :-

وقــد ذكــر فى أيام هذا البطريرك أن تصادف أن الملك الكامل خرج من القاهرة فى نــزهة قاصدا الإسكندرية ، فعبر بحر ابيار ورأى صومعة راهب حبيس هناك فوقف تحــتها وصــاح عليه فكلمه ودعا له . فشكى الملك له من وجع فى فؤاده ، فصلى له الــراهب الحبيس على قليل من الزيت الطيب ودفعه له وقال " ادهن به موضع الوجع والله الشافى " فدهن به موضع الوجع فبريء لوقته.[١١٧]

وأخيــرا مــن المــؤلفات التــى حفظت له كتاب المعلم والتلميذ .. ولما تنيح استولى السلطان على جميع مخلفاته. وظل الكرسى البطريركى بعده شاغرا نحو سبع سنوات ونصف.

ثانيا:" مشاهير الأقباط فى عصر الأيوبيين "

فى مدة حكم الأيوبيين الذى امتد نحو ثمانين سنة (١١٧١م – ١٢٥٠م) برز كثير مــن مشاهير الأقباط من أهل العلم والذين تقلدوا وظائف عالية بالدولة وحازوا ألقاب الشــرف ممــا يــدل على تسامح الأيوبيين مع الأقباط .. سنذكر بعض أسماء هؤلاء الأقباط، ثم نتكلم بإسهاب عن بعض الشخصيات الهامة :

+ الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى المعروف بابن شرافى:

كــان كاتــب سر السلطان صلاح الدين ، وقد بقى فى خدمته حتى مات وكان محبوبا عند السلطان.

+ الشيخ نشىء (نشو) الدولة أبو الفتوح المعروف بابن الميقاط.

كان رئيس ديوان الجيوش فى أيام الملك العادل. وقد لعب دورا هاما فى رسامة البابا كيرلس الثالث بطريركا كما سبق أن ذكرنا.

" **الأســعد بــن صدقة** ، كاتب دار التفاح ، وزعيم الفريق الذى قاوم رسامة الراهب داود ابن لقلق بطريركا .

+ **الشــيخ أبو سعيد بن أندونة** . كان مستوفيا بالديوان الخاص العادلى فى أيام الملك العادل .

+ **الشــيخ الثقة جبريل** . كان من كبار الأقباط فى أيام الدولة الأيوبية ، وعرف عنه اهتمامه بتجديد الكنائس التى كانت تخرب .

+ **الشيخ شرف الرئاسة** ابن هيلان ، كاتب الجيش .

+ **الشيخ الأسعد أبو الفرج** صليب بن ميخائيل ، كان صاحب ديوان الملك الصالح .

+ **الشيخ السديد أبو الفضائل** المعروف بابن ستمائة . كان كاتب الأمير على بن أحمد الكــردى ، وأمينا على خزائنه وأمواله . ومما يذكر عنه أنه جدد عمارة مشيدة بدير أبى سيفين بمصر القديمة ، وجعلها مقرا للبطريركية .

+ **الشيخ ابن أمين** الملك ابن المهذب أبو سعيد يوحنا الاسكندرانى ، كان كاتبا مجيدا وشاعرا عظيما .

+ **الشيخ المكين** أبو البركات المعروف بابن كتامية .

+ **أمين الدولة ابن المصوف.**

كان أمينا على أموال الحكومة فى أيام السلطان صلاح الدين .

+ **الشيخ أبو المكارم بن حنا ، والشيخ صنيعة الملك أبو الفرج بن الوزير ، والشيخ علــم الســعداء أبو اليمن ، والشيخ أبو الفرج . وجميعهم من عائلة أبو اليمن بن زنبور الذى برز فى عهد الدولة الفاطمية .**

+ **الشيخ الصفى بطرس بن مهنا .**

+ **الأسعد صليب بن ميخائيل ويعرف بابن الايغومانس .**

كــان عالمــا فاضــلا كلفا بالعلم . ولما أحرق شاور الوزير مصر القديمة على نحو ماذكرنا سابقا ، قام هو بتجديد دير مار مينا ، وعمل مدرسة ومنتدى علمى .

+ **أبو سعيد بن الزيات أحد أثرياء الأقباط. والشيخ يحيى بن هبة الله ويلقب بصنيعة الخلافــة. والشيخ مصطفى الملك ابن أبى يوسف. والشيخ علم الرئاسة ابن الصفر. والشيخ فخر السعد بن زيتون .**

+ **الشــيخ أبــو المكــارم.** كان كاتبا ، ولما توفيت زوجته استقال من خدمة الديوان وترهب بأحد الأديرة ثم رسم أسقفا.

+ **بطرس بن التعبان الراهب ويلقب بالشيخ السنى:**

وهــو أستاذ أولاد العسال. كان كاتبا ثم أحب العزلة فترهب وبقى بدير المعلقة بمصر القديمة إلى أن مات فى شيخوخة كبيرة (يبدو أنه تزوج أولا وترمل بعد ووفاة زوجته لأنه الوالد الجسدى لبطرس أبو شاكر إبن الراهب).

ومن مشاهير الشخصيات القبطية فى العصر الأيوبى:

١ - أولاد العسال
٢ - الأنبا بولس البوشى أسقف مصر
٣ - الأنبا يوساب أسقف فوة
٤ - جرجس بن العميد
٥ - معانى أبو المكارم بن بركات
٦ - بطرس أبو شاكر بن الراهب
٧ - علم الرئاسة بن كاتب قيصر
٨ - القس بطرس السدمنتى
٩ - المكين سمعان بن كليل
١٠ - أنبا يوحنا نعمة الله أسقف البرلس
١١ - الأنبا ميخائيل الاتربى الشهير بالجميل أسقف مليح.
١٢ - يوحنا بن زكريا بن سباع.

"الفصل الرابع"

تعليقات على محن تلك الفترة
والأثر الثقافى المتبادل بين المسلمين والأقباط

(أولا) محنة اللغة القبطية:

اللغة القبطية هى اللهجة الدارجة للغة المصرية القديمة فى آخر مراحلها (الديموطيقية) مكتوبة بحروف يونانية ، بعد إضافة سبعة حروف يونانية تمثل الأصوات التى ليس لها مقابل فى اللغة اليونانية .. ومن غزوة الإسكندر الأكبر لمصر فى الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، غدت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، وظلت إلى ما بعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤٠ م .

كانت اليونانية هى لغة الثقافة فى العالم كله وقتذاك . وكانت هى اللغة المستعملة فى مدرسة الإسكندرية الذائعة الصيت . على أن اللغة القبطية ظلت اللغة السائدة بين المصريين الوطنيين (الأقباط) فى أنحاء القطر المصرى . وظلت القبطية لغة رسمية فى الدواوين حتى بعد الفتح العربى لمصر .

فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى ، وولاية واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٧٠٥ أو ٧٠٦ م (٨٧ هـ) أعلنت اللغة العربية لغة رسمية فى البلاد المصرية بدلا من اللغة القبطية . وكان الوالى عبد الله بن عبد الملك يكره النصارى جدا ، فاشتد عليهم وعمل على نزع الكتابة فى الدواوين من أيديهم ، ونقلها إلى العربية .. وكانت اللغة القبطية حتى ذلك الوقت هى اللغة المستخدمة فى دواوين الدولة، وكان الأقباط هم القائمون بسائر الأعمال الإدارية والحسابية فى دواوين الدولة تحت إشراف رئيس منهم يسمى "أثناس". وكان قبلها أمينا على بيت المال فعزله الوالى عبد الله بن عبد الملك وولى مكانه شخصا يسمى "بن يربوع الفزاوى" من حمص.

ولما رأى القبط أن هذا التغيير فى لغة الدواوين يفقدهم وضعهم فى الدولة ، عولوا على تعلم اللغة العربية فظهر ما عرف باسم السلالم ، وهى كتب تحوى الكلمات العربية مكتوبة بحروف قبطية ، على مثال الكتب التى توضع حاليا للأجانب لتعلم اللغة العربية أو العكس . كما نقلت أسماء البلاد إلى العربية فتحرفت عن أصلها.

تقول دكتورة سيدة كاشف[١١٨] " بدأ العرب بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون إلى تعريب البلاد ، وإلى جعل اللغة العربية لغة رسمية ، وذلك لعدم معرفتهم باللغة القبطية . بل إننا نرى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى كان يعى كثيرا من أمور مصر ــ فى ولاية أبيه (٦٥ - ٨٦ هـ)- يأمر بترجمة الإنجيل وعدة كتب

دينـــية مسيحية إلى اللغة العربية ، وذلك ليعرف المسلمون إذا كان فى هذه الكتب ما يمـــس الدين الاسلامى بسوء . وقد حدث فعلا أن عرّبت دواوين الدولة الإسلامية فى ذلـــك الحين ، إذ كانت الدواوين فى البلاد المفتوحة حتى مجيء عبد الملك بن مروان تكـــتب بلغات البلاد المحلية ، فكانت تكتب باليونانية فى الشام ، وبالبهلوية فى العراق والأمصـــار الشـــرقية ، وبالقبطية واليونانية فى مصر . وكان ذلك طبيعيا لقلة خبرة العـــرب بأمور الإدارة، ولأن الكتابة فن خاص . ولكن توسع خبرة العرب واستقرار الدولـــة واتجاهها نحو الوحدة المركزية أدى إلى وجوب التعديل، فضلا عن السياسة العـــربية التـــى سار عليها بنو أمية .. وقد شرع فى هذا التعريب أيام عبد الملك بن مـــروان ، وبـــدء بتعـــريب دواوين الشام والعراق . وكان الحجاج بن يوسف الثقفى صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقا.

أمـــا فـــى مصر فقد بدء فى تعريب دواوينها فى خلافة الوليد بن عبد الملك وذلك فى سنة ٧٠٦ م (٨٧ هـــ) فى ولاية عبد الله بن عبد الملك .. وهكذا أصبحت الدولة من الناحـــية السياسية عربية بمعنى أكمل . وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشـــارها بـــين الموالى والأقباط ، فأصبحت اللغة العربية لغة الدواوين ، كما بدأت تظهـــر طبقة الكتّاب ، كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الإدارة ، فضلا على أنها لغة الثقافة ، بالإضافة إلى كونها لغة السياسة والدين " .

ومـــا لبثت اللغة القبطية أن تلقت ضربة قاصمة على يد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١ م) ، الـــذى أصـــدر أوامر مشدده بإبطال استخدامها نهائيا فى المنازل والطرقات العامة أيضا ، ومعاقبة كل من يستعملها بقطع لسانه ،، كما ضيق علـــى الأولاد والبـــنات والسيدات بالبيوت ، بالأمر بقطع لسان كل سيده تتكلم بها مع أولادهـــا وأطفالهـــا . واقتدى بالحاكم الطاغية فى محاربة اللغة القبطية كثيرون ممن جاءوا بعده . وهكذا باتت اللغة القبطية محصورة داخل جدران الكنائس والأديرة.

وقـــد أتت أيام أشتد فيها الرعب على الكنيسة ، فاضطر الآباء إلى وضع ستائر على أحجـــبة الهياكل وقت التقديم وإجراء الخدمة الإلهية ، خوفا من الحكام الغاشمين الذين كانـــوا إذا سمعوا الصلاة باللغة القبطية ، يهجمون على الكنائس ويفتكون بالذين فيها بدون شفقة ولا رحمة .

وممـــا هو جدير بالذكر أن البطريرك غبريال بن تريك (١١٣١ - ١٤٦ م) هو أول من صرح بقراءة الأناجيل والخطب وما إليها باللغة العربية فى الكنائس . وذلك بعد تلاوتها باللغة القبطية.

ومما يدل على أن اللغة العربية بدأت تناهض اللغة القبطية فى القرن التاسع ، تلك الرؤيا المنسوبة خطأ للأنبا صموئيل القلمونى . والتى يرجح إلى أنها ترجع إلى القرن العاشر ، وهى تحتوى على حث مؤثر على الاهتمام باللغة القبطية ، ومنها نعرف أن اللغة العربية بدأت تحل محل القبطية حتى فى جهات كثيرة بالوجه البحرى .. وظل نجاح اللغة العربية مضطردا ، حتى انه فى القرن الثالث عشر كانت اللغة العربية هى السائدة ، وأخذ علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم بالعربية ، ومن أمثلتهم أولاد العسال الذين وضعوا مؤلفات دينية ولغوية كثيرة ، ومنهم أيضا جرجس بن العميد المعروف بابن المكين وأبو شاكر بن الراهب شماس الكنيسة المعلقة وشمس الرئاسة أبو البركات بن كبر والقس بطرس السدمنتى وعلم الرئاسة بن كاتب قيصر . ولهذا فقد عمد هؤلاء العلماء إلى وضع قواعد مختصرة للغة وتدوين مفرداتها لحفظها من الضياع والاندثار.

وأول من ألف كتابا باللغة العربية من الأقباط هو ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين الذى كان معاصرا للبطريرك أفرام بن زرعة السريانى ٦٢ (٩٧٥ - ٩٧٩ م) وهو الذى ترجم سير الآباء البطاركة مما وجده من مخطوطات بدير الأنبا مقار ودير نهيا، وما وجد بحوزة بعض النصارى باللغة القبطية واليونانية إلى اللغة العربية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت. وساعده فى تصحيح وتنقيح العبارات العربية الواضح بولس بن رجاء الوارد خبرة فى سيرة أنبا فيلوثاؤس البطريرك الـ ٦٣ (٩٧٨ - ١٠٠٣ م)

وعلى الرغم من انتشار العربية فان اللغة القبطية بقيت لغة التخاطب فى الوجه البحرى حتى القرن السابع عشر . ويقول العلامة ماسبيرو فى محاضرة له عن " صلة المصريين الاقدمين بالمصريين الحاليين " ألقاها سنة ١٩٠٨ من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية فى السنين الأولى من القرن السادس عشر ، فى أوائل حكم الأتراك " .. وقال المقريزى من القرن الخامس عشر فى كلامه عن دير موشه " والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى .. ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية " .

وفى القرن الثامن عشر لما قاربت اللغة القبطية على الزوال - كلغة التخاطب بدأ الأقباط يكتبونها بحروف عربية .. لكنها ومع كل هذه الظروف بقيت لغة الكنيسة

(ثانيا) أثر الإسلام فى دين الأقباط وعاداتهم:

لـم يتأثر مسلمو هذا القطر بالأقباط كثيرا بينما تأثر القبطى بمواطنه المسلم دون أن يشعر بذلك. ويمكن توضيح ذلك باختصار على النحو التالى:

ما أخذه الأقباط عن المسلمين :

١ ــ موضوع الطلاق :

فقد ذكر د. جاك تاجر، إن الطلاق الذى كانت تحرمه الكنيسة المصرية بصفة رسمية ، كـان يعمـل به علانية ، بل كانت تعترف به الكنيسة وخاصة فى فترات الضعف والفتور الروحى وعندما اضمحل الأقباط فى عهد العثمانيين . ويكتب الرحالة الفرنسى " دومينيك جونا " عام ١٧٩٥ م " إن عاده الطلاق ليست خاصة بالمسلمين فقط ، بل إنهـا شـائعة أيضا عند المسيحيين الأقباط الذين لم يهتموا بالأسباب التى نص عليها الإنجيل ".[١١٩]

٢ ــ عادة اقتناء العبيد:

لقد حرمت المسيحية حق اقتناء العبيد لكن لا نعلم على وجه التحقيق متى اتبع مسيحيو مصر عادة اقتناء العبيد . وإذا رجعنا إلى ما كتبه المؤرخون فى هذا الصدد ، تبين لنا أنهـم اتـبعوها مبكـراً" سابقا" . ففى عهد البطريرك البابا إبرآم بن زرعه السريانى وخلافه العزيز الفاطمى ، كان معظم الأعيان يملكون الجوارى.

وفـى عام ٨٥٦ هـ (١٤٦٠ م - ١٤٦١ م) أمر صاحب الخراج الأقباط بتسليم جواريهم المسلمات لكثرة عددهم.[١٢٠]

ويذكر " ستوكوف " الذى هبط مصر سنة ١٦٦٢ م أن النصارى اكتسبوا حق شراء الجـوارى بكـل حـرية ، كمـا يذكر رحاله آخرون هذه الواقعة كما أننا نعرف من القصـص التى نقلها لنا الجبرتى عن تصرفات القبطان حسن باشا أن الأقباط أسرفوا فى استعمال حق إقتناء الجوارى.

ويدلـى لنا علماء الحملة الفرنسية بالبيان الآتى " للنصارى فى مصر حق اقتناء العبيد ... ويسـرح لهم باقتناء عدد غير محدود من النساء . لذلك نجد لدى كل أسرة جارية أو اثنتين على الأقل للأعمال المنزلية ".[١٢١]

٣ــ ختان الأطفال :

من العادات التى أخذها الأقباط عن المسلمين ختان الأطفال الذى ألغته المسيحية أو لم يكـن معمولاً به فى مصر قبل دخول العرب ، ولكن حدث بعد ذلك أن أحد البطاركة أرغـم رعيـته على ممارسة الختان ، وفى عام ١١٢٠ م نظم البابا مكاريوس الثانى البطريرك الـ ٦٩ هذه العادة وأمر بختان الأطفال قبل العماد.[١٢٢]

وذهـب الـبابا يوحنا السادس البطريرك الـ ٧٤ (سنة ١٢٠٨ م) إلى أبعد من ذلك حيث أصدر تعليماته المشددة بشأن جعل ختان الأطفال إجباريا.[١٢٣]

٤ـ استعمال الحجاب فى حريم النصارى :

فقد ذكر د. جاك تاجر أن الأقباط لم يسمحوا لزوجاتهم بأن يظهرن أمام الرجال بدون حجـاب. وكانت الطقوس الدينية بمناسبة الزواج تشبه تقاليد المسلمين.كما كانت الفتاة تحـتجب عـندما تصل إلى سن البلوغ، وكان الشاب الذى يريد الزواج يكلف إحدى قـريباته للـبحث عـن عـروس. وإذا تم الاتفاق. حرر الكاهن عقدا وقام بمراسيم الـزواج.وإذا تعهـد العـريس بدفـع مهر. كان عليه أن يقدم نصفه مقدما كما يفعل المسلمون.[١٢٤]

٥ـ تعلق الأقباط بالحج إلى كنيسة القيامة بالقدس :

يـوجد وجه آخر بين المسلمين والأقباط ، وهو تعلق الأقباط بالحج إلى كنيسة القيامة بالقـدس كـى يـنالوا لقـب " حاج " ولا يفوتهم أن يحيطوا سفرهم إلى القدس بنفس المظاهر التى كان يحيط بها المسلمون سفرهم . فكانوا يذهبون على هيئة قوافل كبيرة العـدد. ويـنقل إلينا الجبرتى فى هذا العدد حدثا طريفا بمناسبة حج النصارى. ونحن نعلـم أن الـولاة المتسـامحين صـرحوا للنصارى بزيارة القدس، على أن المماليك حرموهم أحيانا من ذلك، ومن أشهر الحوادث ما كتبه الجبرتى فى حادثة سنة ١١٦٦ هـ (١٧٠٤ م – ١٧٠٥ م) وقد ذكرت بالتفصيل فى عصر الدولة العثمانية.[١٢٥]

٦ـــ ومن العادات التى أخذها الأقباط من المسلمون ما ذكره الدكتور كلوت بك حيث قـال "إن الأقباط يخلعون أحزيتهم قبل أن يدخلوا كنائسهم كما يفعل المسلمون ، وإذا كان الرهبان الأقباط يخلعون أحذيتهم عندما يصلون ، طبقا لتعاليم التوراة ، ولكن فى تلـك الفتـرة كـان الأقـباط يقصـدون تقلـيد المسلمين إذ لم يفعلوا هذا فى الوقت الحاضر".[١٢٦] كما ذهب بعض الأقباط إلى حد الامتناع عن أكل لحم الخنزير.[١٢٧]

ما أخذه المسلمون عن الأقباط :

أهم هذه العادات التى أخذها المسلمون عن الأقباط ، وهى قائمة إلى يومنا هذا – جلب النادبات فى المآتم . ولم تخرج هذه العادة التى ورثها الأقباط عن الفراعنة عن حدود مصر . وقد لاحظ الفرنسيون عند احتلالهم مصر أن الأقباط كانوا يبالغون فى إظهار شعور الحزن أكثر من المسلمين.[١٢٨]

(ثالثا) هل كان الأقباط متساوين بالمسلمين أمام القانون ؟

مـن المـرجح أن العدالة فى أوائل الفتح العربى لم تشوبها أية شائبة . وكانت تبحث شكاوى الأقباط بدقة وعناية . ويذكر التاريخ قصة جنود جيش الاحتلال العربى الذين ادعـوا أحقيـتهم فى تحصيل أموال من بعض القرى المسيحية فطلب الوالى قره بن

شريك إلى رئيس المديرية أن يقوم بالتحقيق فى مكان الحادث وأن يرسل إليه تقريره ليـبت فى أمر هذا الخلاف على ضوء المعلومات الاكيده - ولما كانت القضايا تنظر فــى المساجد لم يكن يسمح للنصارى واليهود بدخولها . ويذكر لنا الكندى أن القاضى خيـر بـن نعيم كان يفصل فى قضايا المسلمين داخل المسجد، ثم يجلس على الباب الخارجى ليفصل فى قضايا أهل الذمة.[١٢٩]

وبعـد مـدة، أى فى عام (١٧٧ - ١٨٤ هـ)) (٧٩٣ - ٨٠٠ م) سمح القاضى محمد بن نصرون بدخول النصارى، إلا أن هذا الإجراء كان يعتبر استثنائيا.[١٣٠]

ومن ناحية أخرى، لم يستطع أى مسيحى أن يدلى بشهادته إذا كان أحد طرفى القضية مسـلما. وكـان القاضى خير بن نعيم يسمح بأن يشهد المسيحى للمسيحى واليهودى لليهودى. وقد ظل هذا النظام معمولا به إلى القرن التاسع عشر.

ويقـص علينـا كلوت بك فى مذكراته أنه تعرض لاعتداء أحد الطلبة. فتألفت محكمة برئاسـة ناظـر الحـربية لمعاقبة المعتدى. وقد استمعت المحكمة إلى أقوال الطالب وزملائه ولكنها رفضت سماع رواية كلوت بك لأنه كان مسيحيا ولا يستطيع أن يشهد ضد مسلم.[١٣١]

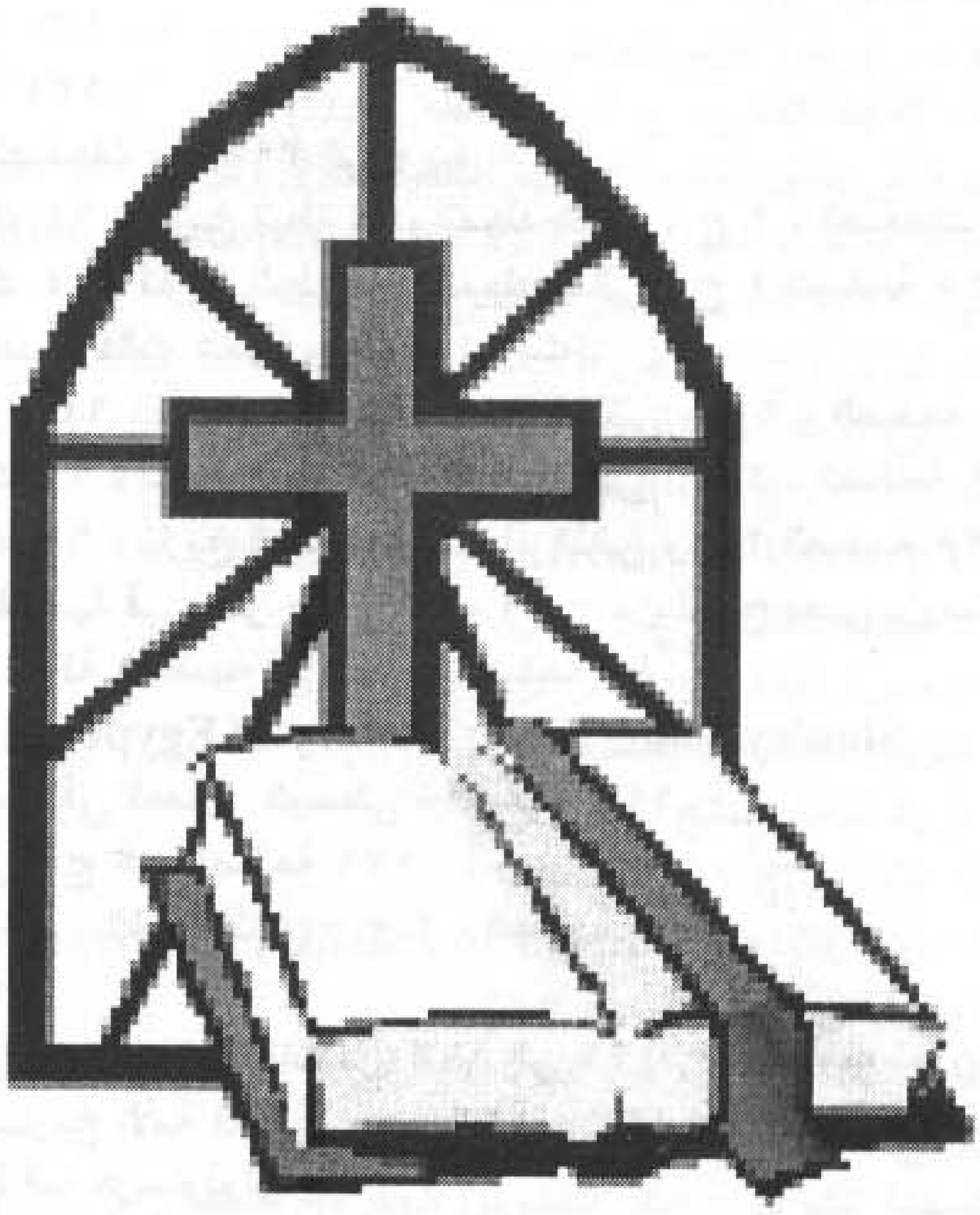

[1] Lane Poole P. 99
[2] (جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٢٠ ، عن ابن إياس ، بدائع الزهور فى واقع الدهور
[3] الدولة الفاطمية فى مصر (للدكتور جمال الدين سرور) ص ٨٦
[4] كتاب أقباط ومسلمون " د . جاك تاجر " ص ١٥١ ، ١٥٢
[5] كتاب كنائس مصر القديمة " المؤرخ الانجليزى الفريد بتلر
[6] كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة . ب٢ ص٢٤٨
[7] كتاب أقباط مسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٢٣ . عن ابن القلانس . قيل فى تاريخ. دمشق وسعيد بن يحى الانطاكى .
[8] هو منشأ بن إبراهيم القرار ، عينه العزيز واليا على بلاد الشام (أنظر : دكتور جمال سرور ، الدولة الفاطمية بمصر ، الصفحة ٨٧).
[9] أدم متز ، ج ١ ، الصفحة ١١٤ عن الكامل فى التاريخ لابن الأثير
[10] دكتور جمال سرور ، الدولة الفاطمية الصفحة ٨٧ - أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٢٤
[11] . fly Lane Poole, History of Egypt in the Middle Ages p. 119 وأقباط ومسلمون الصفحة ١٢٥
12 أقباط ومسلمون ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ - ويروى المقريزى القصة باختصار (ادم متز ج ١ من الحضارة الأمية) ، الصفحة ١١٤ .
13 دكتور جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٨٧ (عن تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى)
14 أقباط ومسلمون ص ١٢٧ ، ١٢٨ (عن ابن القلانسى - ذيل تاريخ دمشق) .
15 Stanly Lane Poole , History of Egypt in the Hiddle - the Middle ages PP. 125 , 126
16 دكتور جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، الصفحة ٩٢
17 دكتور جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٩٤ ، ٩٥ .
18 سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج٢ الصفحة ١٢٣ .
19 سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
20 كتاب أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٢٩،١٣٠
[21] دكتور قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر - العصور الوسطى ، الصفحة ٥٦ .
[22] دكتور قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر - العصور الوسطى ، الصفحة ٥٦ .
[23] أقباط ومسلمون ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ . .
[24] أقباط ومسلمون ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .
[25] المقريزى ، الخطط ، ج ٤ ، الصفحات من ٣٩٨ إلى ٤٠٠
[26] سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحات من ١٢٨ إلى ١٢١ .
[27] سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ الصفحة ١٢٥ .
[28] هى أسم البلدة التى كان بها الدير وكانت عامرة وأهله ثم تخربت .
[29] سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ١٢٥ .
[30] سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ١٢١ .
[31] سيرة الأنبا زخارياس البطريرك ٦٤ ، تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ الصفحة ١٢٥ .
[32] دكتور جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٨٨ ، ٨٩ - من تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى .
[33] د. محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، الصفحة ٨٩ .
[34] Stanley Lane-Poole; History of Egypt in the meddle Ages, p. 136
[35] دكتور على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، الصفحة ١٢٠
[36] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى - ج ٣ ، الصفحة ١٧٦
[37] محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى - ج ٢ ، الصفحة ١٩
[38] أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٣٨
[39] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، الصفحات من ١٧٤ إلى ١٧٦ - أقباط ومسلمون ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
[40] يعقـوب نخلـة روفـيلة ، تـاريخ الأمة القبطية ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ - تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، الصفحة ١٧٦ - سيرة أنبا خرستوذولوس .

[41] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ - أقباط ومسلمون ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

[42] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ - أقباط ومسلمون الصفحة ١٤٠ .
[43] أقباط ومسلمون ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
[44] (الدير المحرق) للأنبا أغريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمى . هامش ص ٦٥ .
[45] وهو غالب ابن النجاح الذى قتل فى عهد الحاكم .
[46] الخطط للمقريزى ج ١٢ ص ٢٩١
[47] كتاب أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٤٥ ، ١٤٦
[48] دكتور على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، الصفحة ٤٨٠
[49] دكتور على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .
[50] المقريزى ، الخطط عن أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٤٩ .
[51] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ٩٢
[52] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحات من ٩٤ إلى ٩٦ .
[53] قصة الكنيسة القبطية الجزء ٣ ص ٢٨
[54] سنكسار يوم ١٩ أبيب - كتاب تاريخ البطاركة الأنبا يوساب (سيرة البابا يوأنس العاشر) - كتاب القديس سمعان الخراز - طبعة ١٩٩٦
[55] كتاب القديس سمعان الخراز طبعة ١٩٩٦
[56] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦
[57] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحات من ١٤٨ إلى ١٥٠ .
[58] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحات من ١٤٨ إلى ١٥٠ .
[59] إيريس المصرى (قصة الكنيسة القبطية ج ١٣ الصفحة ٧٣
[60] منسى يوحنا " تاريخ الكنيسة القبطية "(طبعة ١٩٢٤ م ص ٥١٠)
[61] منسى يوحنا " تاريخ الكنيسة القبطية " ص ٤٤٧
[62] تاريخ البطاركة (المجلد الثانى جـ٣ ص ١٨٠)
[63] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، الصفحة ١٧٣ .
[64] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، الصفحة ١٨٢ .
[65] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، الصفحة ١٩٨ .
[66] قصة الكنيسة القبطية (د . إيريس حبيب المصرى) ب ٣ ص ٩٨)
67 (أنظر تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، الصفحة ٢١٠)
[68] هـنـاك خلـط بين دقميرة فى بعض الكتب - لكنها أسقفية أخرى وكرسى غير دميرة - وهى حاليا تعرف باسم كفر دميـره الجديـد ، تابع لمركز طلخا ، انظر Mainer ; Listen Episcopates . PP . 27 , 28 وانظر أيضا محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، الصفحة ٩٠ .
[69] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
[70] يعقوب نخله روفيله (تاريخ الأمة القبطية ص ١٤٠ ، ١٤١)
[71] تاريخ البطاركة ، المجلد الثانية ، ج ٣ ، الصفحات من ٢٢٠ إلى ٢٢٢
[72] Aziz S, Atiya, History of Eastern Christianity, p. 93
[73] تاريخ البطاركة ، المجلد الثالث ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣
[74] انظر كامل صالح نخلة ، سيرة البابا غبريال بن تريك ص ٣٠ - ٣٢
[75] سليمان نسيم ، تاريخ التربية القبطية ، الصفحة ٩٧ .
[76] سيرة البابا غبريال بن تريك لكامل صالح نخلة ،ص ٣٥
[77] تاريخ البطاركة ، المجلد الثالث ، ج ١ ، الصفحة ٤١ .
[78] Stanley Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, p. 177
[79] الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٣٧٥
[80] تاريخ البطاركة ، المجلد الثالث ، ج ١ ، ص ٥٣ ، ٥٤
[81] الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٣١٢
[82] كانت جزء من مدينة المحلة الكبرى - انظر القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ، ج ١ ، الصفحة ١٨٥ .
[83] تاريخ البطاركة ، والمجلد الثانى ،ج ٢ ص ١٠١ إلى ١١٣
84 عن المخطط الذى نشرته كنيسة دمياط سنة ١٩٦٩
85 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥

86 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحات من ١٨٧ إلى ١٨٩
87 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ١٩٠
88 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ١٩١
89 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ١٩١
90 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ٢٢٨ .
91 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ١٩٢ .
92 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، الصفحة ١٩٢ .
93 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
94 هى الآن كوم سنجار فى جزيرة واقعة فى بحيرة البرلس على بعد ١٠ كيلو متر جنوب غربى قرية البرج الواقعة على البحر المتوسط بإقليم البرلس التابع لمدينة بيلا بشمال الدلتا .
95 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤
96 تابعة لمركز أجا بمحافظة الدقهلية
97 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦
98 تاريخ البطاركة ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ١٧٠ ، ١٧١
99 يعقوب نخلة روفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، ص ١٤٢ ، ١٦٣ - ١٦٨
100 تاريخ البطاركة ، المجلد الثالث ، ج ١ ، الصفحة ١٤ .
101 Stanley Lane - Poole , History of Egypt in the Middle Ages , P ,165
102 دكتور على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، الصفحة ٢٥٢ .
103 دكتور جمال الدين سرور الدولة الفاطمية فى مصر ، الصفحات من ١٣٤ إلى ١٣٦ .
104 دكتور جمال الدين سرور الدولة الفاطمية فى مصر ، الصفحات من ١٣٤ إلى ١٣٦
105 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٦٢ ، عن رينودر ، تاريخ بطاركة الإسكندرية اليعاقبه .
106 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٦٢ .
107 د. على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، الصفحة ٤٩٧
108 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، الصفحة ١٦٣ عن تاريخ ميخائيل السورى .
109 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ - عن الكامل فى التاريخ لابن الأثير
110 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، الصفحة ١١٦ - عن الانطاكى ، الصفحة ٢٣٧
111 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .
112 جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
113 الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٣٧٥
114 تاريخ البطاركة " المجلد الثالث " ج ١ الصفحة ١٢٢
115 كامل صالح نخلة " البابا كيرلس بن لقلق " طبعة دير السريان ص ٢٠ ، ٢١
116 يعقوب نخلة روفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
117 تاريخ البطاركة ، المجلد الثالث ، ج ١ ، الصفحة ١٢٣
118 دكتورة سيدة كاشف فى كتابها مصر فى عصر الولاة ص ١١٩ ، ١٢٠
119 د. جاك تاجر (أقباط ومسلمون) ص ٢٦٦
120 السخاوى التبر المسبوك، ص ٣٨٥
121 كتاب أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ٢٦٧
122 ابن الراهب ص ١٣٩
123 ابن الراهب ص ١٤١
124 د. جاك تاجر (كتاب أقباط ومسلمون) ص ٢٧١
125 د. جاك تاجر (كتاب أقباط ومسلمون) ص ٢٦٩ ، ٢٧٠
126 د. جاك تاجر (كتاب أقباط ومسلمون) ص ٢٦٩ ، ٢٧١
127 كتاب أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ٢٧١
128 الكندى ، ص ٣٥١
129 الكندى ، ص ٣٩٠
130 مطبوعات المكتبة الخاصة لجلالة الملك . نشرها وعلق عليها د. جاك تاجر ، ص ٧٥
131 الكندى ، ص ٣٥١

القسم الرابع

(١٢٥٠م ـ ١٥١٧م)

عصر المماليك

(المماليك البحرية)

و

(المماليك البرجية)

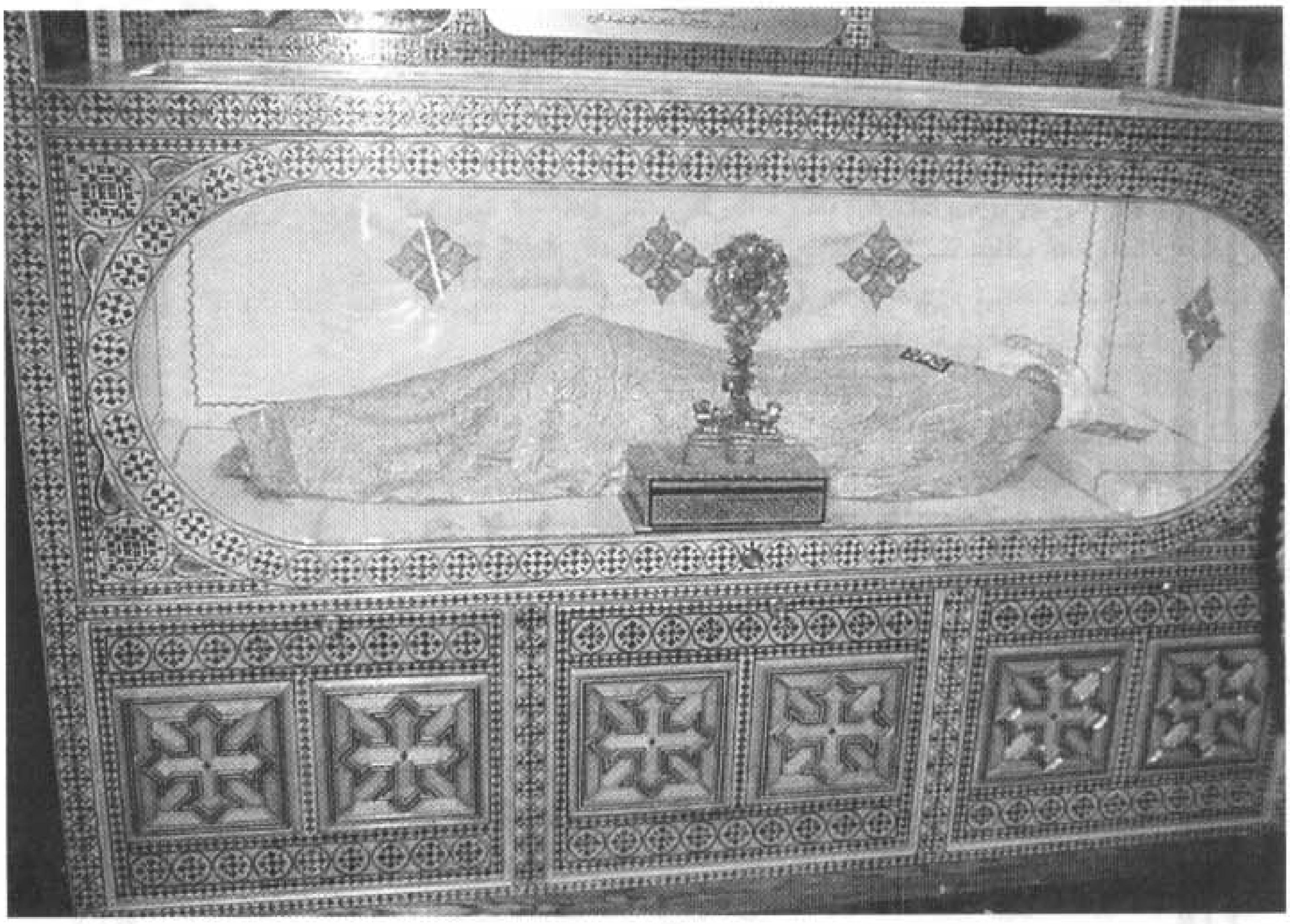

جسد القديس الأنبا يوساب الأبح أسقف جرجا وأخميم
تنيح في ٢٤ يناير سنه ١٨٢٦ م

الباب الحادى عشر

دولة المماليك
المماليك البحرية والمماليك البرجية
(١٢٥٠ م - ١٥١٧ م)

بمـوت الملـك (الصالح أيوب) انتهت الدولة الأيوبية وقامت دولة المماليك الأولى وكانوا يسمون بالمماليك البحرية (١٢٥٠ م - ١٣٨١ م) لإقامتهم وتحصنهم بجزيرة الروضة الواقعة فى وسط النيل الذى كانوا يسمونه بالبحر الأعظم.

وتمييزاً لهم عن دولة أخرى استولت على مصر بعدهم تدعى دولة المماليك الشراكسة (١٣٨٢ م - ١٥١٧ م) (أو المماليك البرجية) الذين سكنوا فى أبراج فوق جبل المقطم.

فمن هم المماليك عموما؟

كلمـة مماليك جمع مملوك يعنى عبارة عن أرّقاء، وهم كانوا عبيداً بيض يشترون بالمـال مـن السلبة (أسواق النخاسة أو الرقيق)، أو يؤسرون فى الحروب أو ممن يختطفونهم بأساليب الخداع تجار الرقيق الذين يقطنون الأقاليم الجبلية الكائنة فى شمال وشرق أوربا، ومعظمهم من أصل تركى. والمعروف عن حكمهم أنه أبشع حكم شهده العـالم، فيذكر عنهم أنهم فى أواخر الحرب العالمية الأولى ذبحوا من الأرمن مليون شخص. ولا يوجد لديهم مبادئ أو قيم إنما اشتياق إلى سفك الدماء.

والمماليك لا ينتمون إلى جنس واحد فمعظمهم من أصل تركى والبعض منهم مـن بحر القلزم والبعض الآخر من القوقاز فى آسيا الصغرى كما كان من بينهم عدد قليل من بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر (نهر دجلة).

والممالـيك لم يشاركوا الشعب المصرى آماله. ولغته العربية يجهلونها أيضا. وتدربوا على الديانة الإسلامية إلا أن إيمانهم بالإسلام جاء سطحيا وكان كل ما تطبعوا عليه هو الطاعة للقائد الذى يتولى قيادتهم.

وكـان الملـك الصـالح نجم الدين الأيوبى قد أكثر من شراء المماليك الترك واتخذهم حرساً خاصاً له فجعل منهم ألفاً لخدمته (١٠٠٠ جندى) وكان من مماليكه أمـراء الدولة والحجَاب، فلما كثر عددهم فى البلاد المصرية أصبحت مصالح الدولة

فى أيدى الأمراء منهم فقويت شوكتهم وتألف منهم جيش مخصوص عظيم تسبب عنه قلاقل عظيمة فى سائر المملكة المصرية.[٢١]
وذلــك بسبب الصراع الدائم مع بعضهم البعض. وعلى الرغم من أن المماليك كانوا عبــيداً لكنهم كانوا يشعرون أنهم أرقى من المصريين والشعوب المفتوحة ولذلك ظلوا منفصــلين عــن المصـــريين عامة والأقباط خاصة على الرغم أن بعض المماليك قد تزوجوا فى بعض الأوقات من بنات النصارى ولكن هذه العلاقة لم توحّد بين المماليك والمصريين لكنهم ظلوا محتفظين بشخصيتهم وما تميزت به من عنجهية.وعلى الرغم من أنهم كانوا دائمى الصراع والقتل مع بعضهم البعض إلا أنهم عند الخطر يكونون كلهــم كرجل واحد – وبكل أسف تعاطف معهم المصريون ضد أقباط مصر لا لشيء سوى ادعاء رابطة الدين وحده .

حالة الأقباط فى ذلك العصر:

بعــد أن عــرفنا أصل المماليك نستطيع أن نتصور مدى الفوضى التى وصلت إليها البلاد فى ظل هذا الحكم الذى كان أقرب إلى الإقطاع الذى يمثله هؤلاء المماليك حيث لا قانــون ولا ديموقراطية ولا ضمان لإنسان يعيش فى هذه البلاد على حياته أو أهله أو على ماله وبلا أدنى مبالغة نستطيع أن نقول أن عصر المماليك كان كارثة عظمى على أقباط مصر.

ونظــراً لتعاطف المصريين المسلمين مع المماليك ضد أقباط مصر لرابطة الدين فقد عانى الأقباط فى ظل حكم المماليك معاناة بلغت حداً زائداً ربما فاق التصور ولم يكن من داع للمتاعب التى حاقت بالأقباط سوى مشاعر الحقد التى امتلأت بها نفوس فريق من المواطنين ضد الأقباط، الذين أثبت التاريخ كفاءتهم فى شتى المجالات الأمر الذى جعــل الاستغناء عنهم فى الدواوين والمصالح الحكومية ضرباً من المستحيل فقد كان الحكام فى كثير من الفترات يستغنون عن الأقباط حيناً ولكن سرعان ما يردونهم إلى أعمالهم ووظائفهم لحدوث خلل بسبب طردهم.

مما سبق يتضح أن أمراء المماليك والديوان السلطانى أقبلوا على استخدام الأقباط فى أعمــال الحكومة لمهارتهم وأمانتهم فى العمل ولأنهم كونوا الطبقة المتعلمة المستنيرة مما أدى إلى تمتعهم بالجاه والسلطان كما تمتع بعضهم بالثروة.

وهكـذا اسـتطاع بعض الأقباط فى عهد السلاطين المماليك أن يشغلوا بعض المراكـز الكبيرة فى الدولة ولكن الحاقدين من عامة الشعب كان يُظهر غضبه بمجرد مـا يـرى قبطيا له نفوذ لأنه لم يعد يقبل أن يكون لأقلية دينية صغيرة حقوق عليه، وتمكـن القبطـى وسط هذه الاعتبارات كلها فى كثير من الفترات أن يسير قُدُماً لأن أخيه المسلم لم يحوز الصفات اللازمة للقيام بجباية الضرائب وفى ما خلا هذه الوظيفة شعر القبطى أنه غير مرغوب فيه وبهذا أصبحت الأمة القبطية جماعة مهمتها تدريب الأخصائيين فى شئون الضرائب والمال.[٣]

وكان سلاطين المماليك لا يأبهون مطلقاً بهذه الأقلية القبطية بل كانوا يعتبرون الأقباط جـزءاً لا يتجـزأ من الأمة لأنهم كانوا يقدمون لهم خدمات قيمة فيما يختص بجباية الضرائب. أضف إلى ذلك أن الحكام كان يمكنهم ابتزاز أموال الأقلية بسهولة دون أن يخشـوا مـن قيامهم بأى حركة ثورية جديدة فرتبوا مصير الأقباط حسب هواهم أو أهـواء الشعب. وكان المسيحيون يدفعون الضرائب أكثر مما يدفع المسلمون كضريبة الجوالـى التـى كانـت تفرض على الرؤوس وهى تضاهى الجزية وكان يعفى منها الصبيان والشيوخ ولكن أمر تقدير من هم الصبية أو الشيوخ متروك إلى جامعها.[٤]

ويقـول الدكتور على إبراهيم حسن فى كتابه (مصر فى العصور الوسطى) شاهداً ومؤكداً للكلام السابق قائلاً " فى عصر المماليك قاسى الأقباط كثيراً تحت حكمهم وإن لـم يتعـرض المماليك لآرائهم ومعتقداتهم الدينية ولكن لم تكن سياسة المماليك فى معاملاتهم واحدة.

والحـق إن الأقـباط كانـوا ذوى نشـاط ظاهر فى دواوين الحكومة وكانت خدمتهم ضرورية لحسن سير الأمور المملوكية فى البلاد فى حين أن الحكومة كانت تقصيهم عـن الوظائف من حين لأخر تجنباً للشغب ،وتحبباً للشعب وإرضاءً لروح التعصب ولكن هذا الإقصاء كان قصير الأمد لأن وجودهم فى تلك الوظائف كان ضرورياً كما تقـدم وكـان حكام مصر من المماليك يشعرون بخلل فى الإدارة الحكومية بعد طرد الأقباط منها .

وكـان شـعور المماليك يـثور علـى رعاياهم الأقباط بسبب العداء بين المماليك والصليبيين، فعندما قامت الحرب بين مصر والصليبيين كان المسلمون يعتبرونها دائماً حرباً بين المسلمين والكفار وكانت الحكومة تحرضهم على هؤلاء الكفار ويظهر هذا فـى شكل اضطهاد لسكان مصر من المسيحيين فكثيراً ما هاجم المسلمين المسيحيين

واعتدوا على نسائهم وأولادهم كما كانت الأعياد الإسلامية الكبيرة فرصة لهجوم الجنود على أحياء الأقباط بحجة البحث عن الجنود.[٥]
وقد استمر حكم السلاطين المماليك والعثمانيين بمصر مدة ما يقرب من خمسة قرون ونصف أى منذ (١٢٥٠ - ١٧٩٨) وامتد نفوذهم أيضاً إلى خارج مصر فوضعوا أيديهم على بلاد أخرى كالشام والحجاز لكنهم احتفظوا بشخصيتهم فى مدة حكمهم فى مصر.

وقد بدأ حكم السلاطين المماليك البحرية (١٢٥٠ م) عندما استقالت الملكة شجرة الدر عن الحكم إلى عز الدين أيبك الذى كان نائبا لها بمملكة مصر ولقب بالملك المعز وتزوج بها.

وعموما كان عصر المماليك كارثة عظمى على أقباط مصر بإصدار مرسوم (٧٠٠ هـ) يحرم استخدام أحد من الأقباط فى دواوين الحكومة إلا من أسلم منهم.[٦]
ونودى بالقاهرة أن من يخالف هذه القيود كان جزاؤه القتل وأعلن الفقهاء عن تذمرهم من التراخى مع المسيحيين وحاولت عامة الشعب القيام على النصارى مما أثار شعور المسيحيين.[٧]

وسنقتصر فى هذه الفترة الطويلة على ذكر بعض الأحداث المتفرقة فى عصر المماليك ومشاهير الإعلام والأقباط فى هذه الفترة بالإضافة إلى فكرة مختصرة عن الآباء البطاركة فى هذه العصور والأبرار المعاصرين لكل منهم كما سنذكر لمحة تاريخية عن سيرة قديسى الكنيسة وعلمائها وأراخنتها فى تلك العصور مع ذكر بعض التفاصيل عن الأحداث القليلة التى لها بعض الأهمية فى سيرة كل منهم .

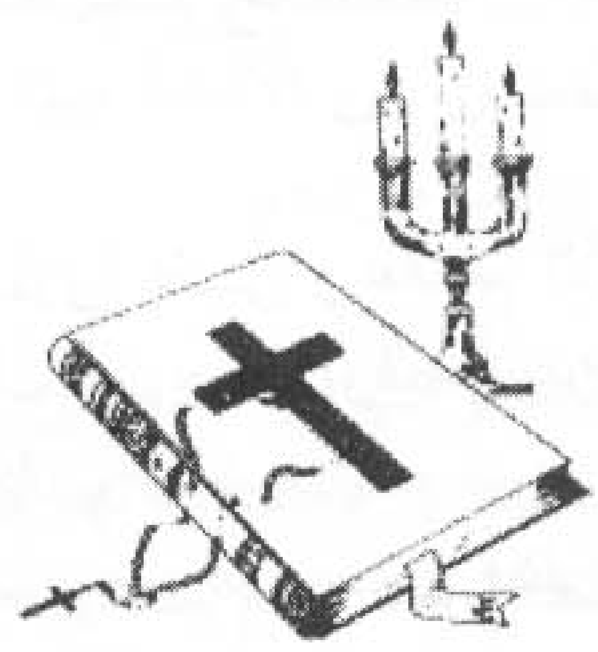

الفصل الأول

الأقباط فى عصر المماليك البحرية
(١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

أولا:أشهر الحوادث المؤسفة فى عصر المماليك البحرية:

١ - فى عهد الأمير عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك (١٢٥٠ م)

حادثة شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن صاعد:

كانت أول مصيبة حاقت بالأقباط على يد شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن صاعد الذى كان طبيبا قبطيا ويدعى ثيئودور (تادرس) ولكنه أسلم فى أيام الملك الكامل وخدم عند الملك الفائز إبراهيم ابن الملك العادل فنسب إليه ودعى بالأسعد شرف الدين أبى القاسم هبة الله بن صاعد الفائزى ولما آلت المملكة للملك نجم الدين الأيوبى ولاه نظارة الدواوين جميعها وبعد قليل غضب عليه فسافر إلى دمشق وبقى بها حتى تولى عز الدين أيبك كرسى السلطنة فعاد من دمشق وتعلق بخدمة الأمير عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك.وبقى فى خدمته إلى أن تسلطن ولقب بالملك المعز فولاه الوزارة وتمكن من الدولة تمكنا زائدا، وحينئذ أظهر خسة ودنائه، فأحدث مظالم كثيرة بين الناس وأول مظلمة بدأ بها أنه تصدى للأقباط فحصّل منهم الجزية مضاعفة وقرر على التجار الأثرياء منهم أموال يدفعونها فى كل عام.[٨]

ويقول المقريزى: إن هذا الوزير أسرع فى وضع ضرائب جديدة أسماها (بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية) فحصل عن طريقها من الناس مالا وفيرا.[٩]

ويحق لنا أن نتعجب فبعد ما أحدثته جيوش الإفرنج من فوضى وإضرابات فى البلاد، وبعد الإضطهادات التى تحملها النصارى من أجل ذلك أن يفكر أصحاب السلطات فى تعيين قبطى وزيرا على مصر ولكن يزول العجب عندما نعرف بأن السلطان لما رأى أن خزانته خالية من المال ولما أراد أن يزيد دخله وأن ينظم أحوال البلاد الداخلية لم يتوانى لحظة فى طلب أحد الفنيين فى المسائل المالية حتى ولو كان هذا الفنى قبطى (الذى هو شرف الدين أبو سعيد)[١٠] الذى سرعان ما حلّت به النقمة لأن الكتاب المقدس يقول " ما يفعله الإنسان إياه يحصد أيضا " (غلا ٦ : ٧) إذ بعد ما قتل المعز أيبك قام من بعده ابنه الملك المنصور فسعى الأمراء ضده واتهموه بأنه يستخف بالسلطان نظرا لصغر سنه (لأن السلطان منصور لما تولى الحكم كان عمره خمسة عشر عاما) فخافت شجرة الدر (والدة السلطان) من الوزير شرف الدين وقبضت عليه وحبسته فى الجبل وأخذت منه صك بمائة ألف دينار ثم قتلوه بعد أن صودرت جميع أمواله وأملاكه.[١١]

٢ـ فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى وابنه بركة خان: (١٢٦٠م - ١٢٩٠م)

حادثة الراهب الحبيس (١٢٦٥ م)

لقد أبتلى الأقباط بكارثة كبيرة ألمت بهم وكانت اشد وقعاً وأكثر تأثيراً فيهم من المصيبة التى نالتهم على يد شرف الدين الوزير القبطى المرتد عن دينه ويرويها المؤرخ القبطى النصرانى المفضل (ابن أبا الفضائل) الذى كتب عنها قائلاً لما قدم السلطان من الشام أمر بالقبض على النصارى واليهود وقبض عليهم (جميعاً) وأوقد لهم النار بالأحطاب فى جورة كانت بالقلعة (التى بنيت داراً للملك) وأراد إحراقهم فاشتراهم (فداهم) الحبيس الراهب بخمسمائة ألف دينار يقدم منها فى كل سنة خمسين ألف دينار.

وكان هذا الحبيس فى بادئ أمره كاتباً ثم ترهب وتوحد فى جبل حلوان فى إحدى مغارات جبل المقطم ويقال أنه وجد فى إحدى المغارات مالاً كثيراً (كنزاً) ولما حصل على هذا المال أخذ يساعد به الفقراء والصعاليك وكل متضايق من سائر الأديان ووصل خبره للسلطان بيبرس الذى أحضره وطلب منه المال ... فقال له الراهب الحبيس أن طلب السلطان منى شيئاً أدفعه من يدى ولكن هذا المال سوف يصل إليك من جهة أخرى وذلك عن طريق من تصادره ويجبر على دفع مبلغ من المال وهو لا يقدر على ما يطلب منه فأنى أعطيه وأساعده على خلاص نفسه منك فلا تتعجل فلما حدثت هذه الواقعة ضمنهم الراهب الحبيس عند السلطان بذلك المال على النصارى.

ويذكر أيضا عن الراهب الحبيس أنه كان يدخل السجن (الحجز) ويطلق منه من كان عليه دين وهو عاجز عن وفائه (دفعه) ثقيلاً كان أو خفيفاً وكذلك لما طلب من أهل الصعيد دفع الأموال المقررة على أهل الذمة سافر إليهم وأدى عنهم ما طلب منهم وكذلك سافر إلى الإسكندرية وفعل نفس الشيء من أعمال الخير والرحمة بالفقراء والمساجين والمعوزين والمتضايقين ورأى أهلها من الكرم والسخاء فى العطاء وقيل أنه أحصى ما وصل إلى بيت المال من جهته بهذه الطريقة فى مدة سنتين فكان ستمائة ألف دينار مصرى بالإضافة إلى ما كان يعطيه من يده سراً للناس وما خلّص به من السجن أناس كثيرين كانوا محجوزين.[١٢]

وتختلف رواية **المقريزى** التى ذكرها بخصوص الراهب الحبيس بعض الشيء عن تلك التى قصها علينا المفضل حيث قال كان قد شبت فى القاهرة حرائق كثيرة فى مدة سفر السلطان اتخذها العامة والغوغاء والمنتفعون وسيلة للإيقاع بالنصارى واليهود واتهمهم بافتعال هذه الأمور التى تفسخ عهدهم (عهد عمر أو العهد العمرى) وأمر بإحراقهم بعد إلقائهم فى حفرة خارج المدينة بجوار القلعة وإشعالها ناراً فجمع منهم عدداً كبيراً فى القلعة وفى ذلك الوقت برز رجل يهودى يسمى بن الكازرونى كان صرافا فى أحد الدواوين وقال للسلطان بحق الله لا تحرقنى مع هؤلاء الملاعين فضحك السلطان والأمراء ثم تقدم الأمير فارس الدين أقطاى اتابك العساكر (رئيس العسكر) فشفع فيهم على أن يلزموا بدفع أموالا عوض (بدل) ما تسببت عنه الحرائق وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار فأفرج عنهم السلطان وتولى البطريرك البابا يؤنس السابع تسديد المال المطلوب.[١٣] وهذا هو الهدف من أمثال هذه الحوادث الحصول على المال بأى وسيلة وبأكبر سرعة – ونستنتج من الروايتين السابقتين أن السلطان الظاهر بيبرس افتعل حادثة القلعة بتهديد النصارى لكى يستولى على المال " الكنز " الذى وجده الراهب الحبيس بعد ما وصلت أخباره له .

وفى أيام ابنه بركة خان (١٢٧٧ م)

كان الأقباط يتظلمون من قسوة الأحكام والمعاملة الغير عادلة وحدث أنه تقرر فى أيام هذا الوالى رفت كل الموظفين الأقباط من ديوان الحربية وأتفق أنه يوم صدور هذا الأمر سقط بناء دير الخندق فى ضواحى القاهرة فخرج خلق كثير من رعاع المسلمين ليكملوا هدمه.

٣ ـ فى أيام الملك المنصور قلاوون (٦٨٢ هـ - ١٢٨٤ م)

(عهد إنشاء وبناء التكايا – ورسم إشارة الصليب المقدس)

تولى الملك المنصور بن قلاوون سنة ١٢٧٩ م ومع أنه عدل الضرائب وساوى فى فرضها بين المسلمين والمسيحيين إلا أن الأقباط لم يسلموا من قسوته ومن قسوة المسلمين أثناء تغيبه فى الحروب ويذكر التاريخ أنه كان قاسياً جداً خالياً من الرحمة.

والدليل على ذلك أنه دفن نصرانياً حياً لتزوجه من امرأة مسلمة وفى نفس الوقت أمر بنزع أنف المرأة.[١٤] ويذكر التاريخ أنه فى سنة ٦٨٣ هـ تمرد المماليك على الملك المنصور وهموا إلى نبذ طاعته فغضب لذلك غضباً شديداً أعمى بصيرته وأفقده

صــوابه فلــم يميز بين المذنب والبرئ والصالح والمتمرد وساق جميع الرعية بعصا واحــدة وعمل السيف بينهم ثلاثة أيام متوالية حتى غصت الشوارع والطرقات بجثث القتلـــى رجالا ونساء وأطفالا فجاء إليه العلماء متوسلين أن يرحم الناس ويرفع عنهم الـــبلاء فأنتـــبه مـــن غفلته وندم على ما فرط منه وأراد أن يكفر عن ذلك فبنى تكايا للمســـاكين ومستشــفيات لمعالجة ذوى الأسقام وأضاف إلى هذه الحسنات ما ظنه من مقتضيات التكفير بأن ضيق على النصارى وأشتد عليهم فأمر بأن لا يركبوا خيولا ولا بغالا وألزمهم بأن يركبوا الحمير ويشدوا الزنانير على أوساطهم وألا يتحدث نصرانى مــع مسلماً وهو راكب، ولا يلبسوا ثياباً مصقولة غير ذلك من أنواع الذل والهوان.[١٥] وظلــت هذه القوانين سارية عليهم حتى خلفه صلاح الدين خليل الملقب بالأشرف فبدأ باضــطهادهم اضــطهاداً شــديداً ولكــنهم ثبــتوا أمامه ثباتاً مدهشاً، ولكى يعلنوا أن الاضطهاد لا يقوى على زعزعة إيمانهم صاروا يرسمون على أيديهم إشارة الصليب المقدس ومن ذلك الحين صارت هذه العادة مستمرة حتى الآن.

٤ ــ فى عهد الملك الأشرف خليل (١٢٩٠ م)

أ) حادثة عين الغزال والسمسار:

كــان بعد موت السلطان قلاوون أن تولى بعده ابنه الملك الأشرف فظن النصارى أن أيــام ذلهــم قــد انقضت فعادوا إلى ركوب الخيل والبغال وأخذوا فى تغيير هيئاتهم وملابســهم وعمــل كثيــر منهم كاتباً عند الأمراء وكان لهم الكلمة المسموعة عندهم لمحافظــتهم علــى أمــوالهم وضبط حساباتهم وتسيير أعمالهم بكل أمانة على أحسن حال.[١٦]

ويقــول المقريزى " إن هؤلاء النصارى أصبحوا يعاملون المسلمين بأنفة وأرادوا أن يظهــروا أهميتهم بارتداء الأزياء (الملابس) الثمينة وإن كانوا فعلوا هذا لأنهم كانوا معتمدين على مكانة الأمراء مخدوميهم وحماية الأمراء لهم".[١٧]

ثــم يــروى المقريزى إن أحد النصارى الذى يدعى اسمه (عين الغزال) الذى كان يعمــل كاتــبا عند الأمراء المماليك كان فى طريقه إلى مصر (مصر القديمة) وهو ذاهــب إلــى دار مخدومــه (مولاه) صادف سمسار شونه مخدومه الذى كان مديناً لمخدومــه بمبلغ كبير من المال ثمن غلة اشتراها من شونه مولاه، فطالب الوكيل بما عليه ولكنه اعتذر وطلب إليه أن يترفق به ويمهله أياماً فلم يقبل منه وأصر أن يدفع له ما هو مطلوب من النقود، وأخذ الكاتب يتوعده ويهدده إما بالدفع أو بالذهاب إلى بيت

الأمير، وعندما امتنع السمسار عن ذلك أمر الكاتب (عين الغزال) غلمانه " الحرس الخاص به " أن يقبضوا عليه ويأخذوه رغماً عنــــــه (عنوة) ومضى به فى اتجاه بـيت الأمير فاجتمع حوله أناس كثيرون حتى سار فى طريقه إلى ميدان " جامع بن طولون ".ورأى المسلمون فى الشوارع الوكيل القبطى (عين الغزال) راكباً وقابضاً علــى يــد المســلم الذى كان يجرى وراءه واندهشوا عندما رأوا المسلم أسيراً فى يد القبطى والتفوا حولهم كل منهم يسأله أن يخلى سبيله وهو يمتنع رافضا فتكاثروا عليه والقوه عن حماره وأطلقوا السمسار وكان قد اقترب من بيت الأمير.

فبعث الكاتب غلمانه إلى الأمير لينجده مما فيه فأرسل إليه الأمير مجموعة من غلمانه (رجـال الأمير وحراسه) فخلصوه من الناس وشرعوا فى القبض عليهم ليفتكوا بهم فصـاحوا عليهم (ما يحل هذا فى شرع الإسلام) هذا ليس فى شرع الإسلام وفروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة واستغاثوا هاتفين (نصر الله السلطان).

فأرســل الســلطان يكشف الخبر فعرفوه ما كان من استطالة الكاتب النصرانى على السمســار وما جرى لهم وزادوا القول بأن النصارى تعاظموا على المسلمين وتكبروا علـيهم فأرسل السلطان إلى الأمير يقول له كيف تسمح لرجالك بأن يعاملوا المسلمين هكذا إكراماً لرجل نصرانى؟ فاعتذر الأمير بعدم علمه بما جرى وخشى السلطان سوء العاقبة من تجمهر المسلمين فغضب وطالب بإحضار (عين الغزال).

أمر السلطان بقتل النصارى أو الإسلام:

وطلــب السلطان من الأمير بدر الدين النائب والأمير سنجر الشجاعى بإحضار جميع النصــارى بــين يديه ليقتلهم فتشفعا الأميران عن الأقباط وعفا عنهم وظلا معه حتى اسـتقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر القديمة أن لا يخدم أحد من النصارى أو اليهود عند الأمراء وأمر الأمراء أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام فمن امتنع منهم ضربت عنقـــــه (قطعت رأسه) ومن أسلم منهم أستخدم عـند الأمــراء (أى عمل كاتب عنده). ورسم للنائب العام (الأمير بدر الدين بيدار) بعـرض جميع مباشرى ديوان السلطان ليفعل معهم ذلك، ولكنهم عندما علموا الأمر اختفوا وهربوا.

نهب بيوت النصارى:

عندما علمت العامة (الغوغاء أو رعاع المسلمين المتطرفين) بأوامر السلطان غاروا علــى بــيوت النصــارى ونهبوها حتى عم النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم وأخــرجوا نســائهم مسبيات وقتلوا جماعة بأيديهم، فقام الأمير بيدار النائب وتكلم مع الســلطان بخصوص الفوضى التى يحدثها العامة فى بيوت النصارى وتلطف به حتى أصــدر السلطان أمراً إلى والى القاهرة أن يركب حصاناً وينادى فى شوارع القاهرة ومصــر القديمة من ينهب بيت نصرانى شنق، وقبض على طائفة من العامة وعنفهم

بعد ما ضربهم فكفوا عن النهب بعد أن نهبوا كنيسة المعلقة بمصر القديمة وقتلوا فيها جماعــة كبيــرة ثــم جمع النائب كثيرا من النصارى كتاب السلطان (ديوانه) وأمر بإحــراقهم فى حفرة كبيرة بسوق الخيل تحت القلعة قائلاً إنى لا أريُد فى دولتى ديواناً نصرانياً فتقدم الأمير بيدار ليشفع فيهم ومازال بالسلطان حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه(قطعت رأسه) فخرج إليهم الأمير وأعلمهم بذلك فآثروا الإسلام عن القتل وكتبت شهادات عليهم بذلك.[١٨]

ويقــول د. جــاك تاجر أن كل هذا حدث والعامة مستمرون على الهجوم على جميع بيوت النصارى ونهبها حتى أن اليهود لم يسلموا من أيديهم ولم تمنعهم تحذيرات والى القاهــرة أو إشــهار إســلام كثيــر من الكتاب لم تمنع هذه الاعتبارات المسلمين من اســتعمال القســوة فــى معاملــتهم (معاملة الذميين) بل كانوا ينتقمون لأنفسهم من النصارى كلما غزا بعض قراصنة البحر الأوربيين سواحلهم.[١٩]

بالإضافة إلى ذلك لم يستحسن عقلاء المسلمين إكراه النصارى على الإسلام فقالوا أن إسلامهم موجب لإذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم الذى كانت تمنعهم نصرانيتهم مــن إظهــاره وربمــا كانوا صائبين فى هذا الفكر لشدة ما لاقوه من شرف الدين بن صاعد الذى تقدم خبره.[٢٠]

نلاحــظ مــن هذه الحادثة أنه قبض على النصارى دون أى تهمة ودون تحقيق معهم وأجبروا على الإسلام على الرغم من أن الإسلام صرح مراراً " لا إكراه فى الدين " ولكــن المماليك كانوا بلا مبادئ وبلا قيم وبلا ضمير سليم وكان هدفهم هو الحصول على المال وإرضاء الأغلبية المسلمة والعامة.

ولــم ينته القرن الثالث عشر إلا بمصائب عظيمة فعم الجوع والوباء بسبب قلة زيادة النيل فضلا عن الحروب والفتن والقلاقل وكان الأقباط مع كل هذه المصائب الضحية الوحــيدة فكثرت عليهم الضرائب وزادت الفتنة وزادت الجزية فمنهم من مات ومنهم مــن أسلم إما تخلصاً من المظالم أو خشية أن يصيروا إلى ما صار إليه من شاهدوهم مــن أقرانهم المسيحيين يقتلون ويستولى على جميع أملاكهم وربما كان البعض طمعاً فى الوصول إلى المراكز الرفيعة.

٥ ـ عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون: (١٢٩٩ م - ١٣٠٨ م)

فى بداية مُلك الناصر بن قلاوون تفشت الأمراض وفتكت بالإنسان والحيوان فأفهمه قاضى الإسلام أن ذلك حدث بسبب وجود المسيحيين فى الدولة وكان هذا القاضى ابنا لأحد المسيحيين واعتنق الإسلام فأرتقى لهذا المنصب وأصبح كارها لديانته الأولى ساعياً جهده على إرغام تابعيها على تركها فكان يوقع بهم كلما أتيحت له الفرصة وكان فى هذه الأيام يجبى من كل فرد من الأقباط دينار فى كل سنة علاوة على الجزية المفروضة عليه برسم نفقة الجنود وغير ما كان يجبى منهم بالاشتراك مع المسلمين مما يسمونه زكاه الدولة ونفقات الاحتفال بوفاء النيل وغير ذلك من الإضطهادات التى فرضت على الأقباط والتى عرفت بمرسوم رجب " ٧٠٠ هـ " والتى حتم على الأقباط فيها لبس ملابس خاصة كما أمر بعدم ركوب الخيل وعدم استخدام المسلمين فى بيوتهم وعدم رفع أصواتهم على أصوات المسلمين وأن لا تعلوا مبانيهم على مبانى المسلمين وان لا تضرب نواقيس الكنائس وحتى فى الحمامات العامة كان المسيحى يميز بجرس فى عنقه.[٢١]

وكانت الإضطهادات التى وقعت على هؤلاء البائسين فى أول هذا الجيل من أهول الويلات والكوارث التى حلت بهم وأنزلتهم فى شدة الهوان ونالهم منها القهر والفقر والمرض وتحول الكثيرين إلى الإسلام ونتيجة لذلك قل عدد الأقباط بالنسبة للمسلمين وهى الظاهرة التى نشاهدها حتى الآن.

وقد ادّعى المقريزى المؤرخ المسلم أن سبب هذه البلايا التى ابتلوا بها تكبر بعضهم فعوقبوا بلبس العمائم الزرقاء وشد الزنانير فى أوساطهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال.والحقيقة أن سبب تراكم البلايا على هؤلاء المساكين هو كثرة تذمرهم من الظلم الذى كان يقع بهم ونزوعهم إلى الاعتراض على الأوامر القاسية التى كانوا يجبرون عليها حتى وقعت الحمية من كثيرين إلى التجرؤ على مخالفة هذه الأوامر فلبسوا العمائم البيضاء بدل السوداء التى حُكم عليهم بلبسها وتأنق بعضهم وتجملوا بلبس الثياب المصقولة وتجاسر بعض الموظفين فظهروا فى الشوارع راكبين خيولا فساء هذا بعض المتعصبين الذين كانوا يفرحون لإذلال النصارى فكانوا يهزأون بهم وينظرون إليهم شذراً وغير ذلك مما جرأ العامة على إهانتهم والاستخفاف بهم وصاروا يفكرون فى طريقة بها يلقون ذلاً لا يقوون بعده على رفع أنوفهم فأقر كبارهم على هدم كل كنائس الأقباط وضرورة تنفيذ كل ما صدر عليهم من القوانين حرفياً.

أ ـ حادثة وزير ملك المغرب (٧٠٠ هـ - ١٣٠١ م)

يذكـر المقريـزى أنه فى وزارة بيبرس الجاشنكير والأمير سيلار أنه فى آخر شهر رجـب مـن عام (٧٠٠ هـ - ١٣٠١ م) قدم إلى مصر وزير ملك المغرب وأقيم بالقاهرة حتى القيام بتأدية فريضة الحج .. ويذكر إنه ذات يوم عندما كان بسوق الخيل تحـت القلعـة أبصر رجلاً راكباً على فرس (حصان) وعليه عمامة بيضاء فرجيه مصـقولة وجماعـة يمشون فى ركابه يسألونه ويتضرعون إليه ويقبلون رجليه وهو معـرض عـنهم وينتهـرهم ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه فقال بعضهم مستنجداً وطالباً المعونة والمساعدة قائلاً " يا مولانا الشيخ بحياة ولدك أنظر فى حالنا " فلم يزده إلا عجرفة وغطرسة وقسوة.

ويسـتطرد المقريزى قائلاً إن الوزير المغربى رق لحالتهم وهم بمخاطبته فى أمرهم وعـندما علم أنه نصرانى غضب لذلك جدا وكاد أن يبطش به ولكنه كف عنه وطلع إلى القلعة.

واجـتمع مع الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كان عهده عهد شؤم وكارثة كبرى على الأقباط ونائبه الأمير بيبرس وتحدث معهما فى أمر اليهود والنصارى وهو يبكى رحمـته للمسلمين وما نالهم من قسوة النصارى (وهم بالعكس مضطهدون ومكسورو الجناح) ثم وعظ الأمراء وحذرهم نقمة الله وتسلط أعدائهم عليهم وذلك بسبب تمكينهم النصـارى ركوب الخيل وتسلطهم على المسلمين وإذلالهم إياهم موضحاً لهم أن عهد ذمتهم قد انقضى من سنة ٦٠٠ هجرية، وأنهم فى المغرب فى غاية الذل والهوان ولا يمكـن لأحـد مـنهم ركـوب الخيل أو يعمل كاتباً فى الجهات الديوانية، وأنكر حال نصارى الديار المصرية وتعديهم بسبب لبسهم أفخر الملابس وركوبهم الخيل والبغال واسـتخدامهم فـى أجـلّ المناصب وتحكمهم فى رقاب المسلمين، فأثر كلامه عليهم ولاسيما الأمير بيبرس فأمر بجمع النصارى واليهود ورسم ألا يستخدم أحداً منهم فى الجهـات السـلطانية ولا عـند الأمراء، وأن تغير عمائمهم فيلبس النصارى العمائم الـزرقاء وتشـدد فـى أوساطهم الزنانير ويلبس اليهود العمائم الصفر والتزام العهد العمرى.[٢٢]

هدم الكنائس وغلقها:

أما الوزير المغربى فلم يرضى بذلك بل حرَض العامة على هدم الكنائس فقاومه تقى الدين القاضى الأعظم وجاهر بأنه لا ينبغى أن تهدم الكنائس المستخدمة فنشأ عن ذلك إغلاق عدة كنائس وهدم الأخرى وحاول النصارى أن يفتحوا كنيسة منها ولما فتحت تهـيج علـيهم الرعاع واشتكوهم للأمراء ووقفوا فى طريق الوزير والأمير وتوسلوا

إلـــيهما أن يرحما الإسلام من تكبر النصارى الذين ينقضون أوامر الحكومة ويفتحون الكنائس بدون تصريح منها وصدر الأمر ثانياً بضرورة تطبيق ما صدر من القوانين علـــيهم ومـــن خالف أمراً ينهب ماله وتقطع رأسه فطلب المسلمون من البطريرك أن يغلـــق جانـــباً مـــن الكـــنائس ولما رأوه رفض تنفيذ أمرهم فقاموا بهدم وتخريب كل الكنائس.

اضطهاد الأقباط وفصلهم من الوظائف:

بعـــد ذلك عهد الحكام المسلمون ثانياً إلى رفت كل قبطى موظف بدفاتر الحكومة يأبى أن يســـلم وكان الغوغاء والرعاع يداومون فى الاستهزاء بهم ورجم المارين منهم فى الشوارع بالحجارة ويتقدمون نحو ما يشاهدونه راكبٌ صغيراً كان أو كبيراً ويجذبونه إلى الأرض ويضربونه بالنعال على عنقه حتى يشرف على الهلاك ووقع ضيق عظيم خصوصـــاً علـــى أقباط مدينتى الإسكندرية والفيوم واشتد المتعصبون فى اضطهادهم حتى لم تكن فى طاقة الحكومة مقاومتهم فتظاهر كثيرون من الأقباط بالإسلام وتغيير زيهم خوفاً من قطع عيشهم (مصدر رزقهم).

وقال المقريزى

وقـــد أكثـــر شعراء العصر فى ذكر تغيير الدين لأهل الذمة فقال علاء الدين على بن مظفر الوداعى

لقد الزم الكفار شاشات ذلـــة — تزيدهم من لعنة الله تشويشـــــا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمـــائما — ولكنهم قد الزموكـــــم براطيشا

وقال شمس الدين الطيبى

تعجبوا للنصارى واليهود معاً — والسامريين لما عمموا الخرقـــــا
كأنما بات بالاصباع متساهلا — فر السماء فأضحى فوقهم رزقـــــا

وحـــدث فى سنة ١٣٠١ م أن تمرد على السلطان معظم مسلمى الصعيد فأرسل إليهم قوة لإخضاعهم فذبحت الألوف من الأقباط والمسلمين على السواء.

الرب يدافع عنكم وأنتم تصمتون:
وفى السنة التالية(١٣٠٢م) حدثت زلزلة دمرت بلاد كثيرة فشعر السلطان أن ذلك كله نتيجة جوره على الأقباط المساكين. حيث يقول الكتاب (لى النقمة أنا أجازى يقول الرب).[٢٣]

ب ـ حادثة عيد الشهيد (١٣٠٣ م)

ففى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) كان للنصارى عادة أن يقيموا احتفالا سنوياً يستمر ثلاثة أيام يبتدئ فى اليوم الثامن من شهر بشنس فى ناحية شبرا الخيمة.[٢٤] يسمونه عيد الشهيد (٨ بشنس – ١٥ مايو) وهو عيد الشهيد يوحنا (يحنس السنهوتى) وكانوا يزعمون أن النيل لا يفى بمائة إذا لم يلق فيه تابوت من الخشب فيه إصبع من أصابع أحد الشهداء وكانوا يحتفلون بعيد الشهيد منذ دخول الإسلام مصر وقبل ذلك أيضا حتى سنة ٧٠٢ هـ.

وكان ذلك أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة ركن الدين بيبرس الذى أمره بإبطال هذا الاحتفال لأسباب أمنية واجتماعية خاصة واحتجاجاً لما يحدث فيه من الأمور المغايرة للآداب والنظام وكان ذلك سنة ١٣٠٣ م وظل ممنوعاً الاحتفال به لمدة ٣٦ عاماً أى إلى سنة ٧٣٨هـ حيث أعيد الاحتفال به.
واستمر هكذا حتى ٧٥٥ هـ حيث تحرك المسلمون على النصارى وقاموا بعمل حصر على الأوقاف القبطية الموقوفة على الأديرة والكنائس التى بلغت ما يقرب من ٢٥ ألف فدان فأستولى عليها الملك الصالح وأمر أن يُوزع جزء منها على المماليك والأمراء زيادة على إقطاعياتهم.
وهدمت عدة كنائس وفى الأيام العشرة الأخيرة من رجب قام الحاجب والأمير علاء الدين على بن الكوارفى والى القاهرة إلى ناحية شبرا الخيمة وهدم كنيسة النصارى وأخذ منها إصبع (ذخيرة) الشهيد التى كانت فى الصندوق وأحضره إلى الملك الصالح فأحرق بين يديه فى الميدان وذرى رماده فى البحر حتى لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من ذلك اليوم إلى هذا العهد.[٢٥]

من هو القديس يحنس السنهوتى:

يذكـــر كتاب السنكسار فى اليوم الثامن من شهر بشنس المبارك شهادة القديس يحنس السنهوتى فيقول.

"فى مثل هذا اليوم استشهد القديس يحنس السنهوتى وقد ولد هذا القديس بسنهوت وهى قرية صغيرة بجوار منيا القمح من أب اسمه مقار وأم اسمها حنة وحدث وهو يرعى غـنم أبيه أن ظهر له ملاك الرب وأراه إكليلا من نور وقال له لماذا أنت جالس هنا والجهاد قائم؟ قم إمضى إلى أتريب (بنها) فودع والديه ومضى إلى الوالى واعترف بالمسيح فسلمه الوالى إلى أحد الجنود ليلاطفه عساه يذعن إلى قوله ولما تسلمه الجندى أجـرى القـديس أمامـــه آيات جعلت الجندى يؤمن أيضا بالسيد المسيح وينال إكليل الشهادة على يد الوالى.

فغضـــب الوالى وعذب القديس بكل أنواع العذاب ولكن الرب كان يقويه ويصبره ثم أرســـله إلـــى إنصـــنا فهناك أيضا صنع الله معه آيات عجيبة وفى الآخر.قطع رأسه بالســـيف وأخـــذ يوليوس الأقفهصى جسده وكفنه وأرسله إلى بلدة سنهوت فتلقاه أهلها بالتسبيح والترتيل ووضعوه فى الكنيسة وجسده الآن فى شبرا الخيمة".

ت ــ واقعة هدم الكنائس ورد فعل الأقباط على ذلك:

ممـــا تقـــدم يوضح للقارئ أن مصر كانت فى عهد دولة المماليك هذه أسوأ حال لعدم معرفة ملوكها كيف تساس البلاد ولا الطرق المؤدية إلى راحة الشعـــــــب (العباد) فأصـــبحت مصر فى أيامهم ميدان قتال وفتن وحروب داخلية فضعف الأمن واستولى الفشـــل وتعطلـــت الأعمال وحل بالناس الويل والبلاء والفقر خصوصاً وان المماليك كانـــوا منقسمين إلى أقسام وأحزاب شتى يحاول كل حزب منهم الاستيلاء على عرش المملكـــة فكثرت المنازعات والمخاصمات والاقتتال، إذا تغلب حزب على آخر وظفر بـــه واســـتولى زعيمه على السلطنة لا يكون فى مأمن إلا إذا أذل الحزب الخاصم له وأضـــعف شـــوكته واســـتولى على ما لرجاله من القطاعات وإعطائها لمعاونيه أما معاملتهم للرعية (الشعب) فكانت بالجور والعنف والقسوة ظنا منهم أن الاشتداد على الأهالـــى وقتل الكثير منهم على أقل سبب يزيد فى هيبتهم ويوقع الرعب والخوف فى قلـــوب الـــناس مـــن جهتهم وهكذا يكونون فى مأمن على مراكزهم من جهة الرعايا الوطنيين وعلى حذر من سائر الأمراء والمماليك الذين من غير الحزب الحاكم.

وبســـبب السياســـة العقيمة وتعطيل الأعمال لاسيما الزراعة ــ لأن معظم الأراضى وأجودها كانت قد نزعت من يد أصحابها وأعطيت للأمراء ــ فقلت فى وجوه الناس

أبـواب الرزق واستولى على كثير منهم الفقر والاحتياج فازداد عدد العامة والأوباش ولاسيما فى مدينة القاهرة.

ولمـا كثر إقبال الأقباط على الإسلام ليحفظوا بذلك مراكزهم أساؤوا معاملة المسلمين بـأن شـددوا علـيهم فـى الأحكام وجمع الأموال والضرائب فأشتكى المسلمون من النصارى الذين أسلموا والنصارى الباقين أيضا على دينهم.
فأصـدر السـلطان أمـراً ألا يبقى منهم أحد فى دواوين الحكومة حتى ولو أسلم وألا يُكرهوا على الإسلام منعاً للانتقام لأنفسهم بواسطة إسلامهم وتوليهم الوظائف العالية، وإذا أسـلم أحد منهم من تلقاء نفسه فلا يبرح باب أحد الجوامع بل يعيش من إحسان المسلمين أهل الخير.
وقـد كان هذا الحكم الصارم موجباً لطمع عامة المسلمين فى النصارى، فهجموا على بـيوت الموسرين منهم الذين فقدوا جاههم بطردهم من خدمة الحكومة ونهبوها، ولكن لم يمض زمن حتى دعت الضرورة إلى إعادتهم للخدمة، ولا يستبعد أن يكونوا أساؤوا معاملـة أصـاغر المسلمين تشفيا لهم على مكايد غيرهم بالتظاهر بالأبهة والافتخار والظلم كما يقال " كمين فى النفس القوّة تخرجه والضعف يخفيه ".

الملك الناصر محمد بن قلاوون وحادثة كنيسة الزهرى:(١٣١٢ م):

يذكـر التاريخ أن الناصر قلاوون خُلع من كرسيه وجلس على كرسى السلطة عوضه بيبرس الجاشنكير ولكن الملك الناصر عاد فقتل بيبرس واسترد عرشه وقد تأكد أن كل مـا حـل بـه كان بسبب ظلمه للنصارى البائسين فصار يحميهم بكل قوة من نهب واستبداد المماليك وتعصب مواطنيهم المسلمين.
ومع هذا فإن الملك الناصر قلاوون لم يستطع إطفاء نار الفتنة وسيل التعصب الذى كـان يملأ قلوب المسلمين ـ رغم كل الاحتياطيات التى اتخذها لمنع امتدادهاـ فكان يقسـو علـى المسـلمين تارة والمسلمين والنصارى تارة أخرى حتى اضطره احتدام المسـلمين بـنار الغضب والهياج الذى أخذ منهم كل ما أخذ إلى التسليم لهم فى نهب بيوت النصارى وقتلهم وسلب أموالهم. [٢٦].
ولقـد طالت مدة حكم هذا السلطان نحو ثلاثين سنة نذكر منها عام (١٣٢٠ م) الذى كـان خـرابا على الأقباط فى جميع أنحاء البلاد مما يجعلنا نعتقد أن هذه الحركة قد دبـرت منذ أمد بعيد ولم يدرك محمد بن قلاوون فى بادئ الأمر خطورة هذه الحركة التـى كانـت تدبـر فى الخفاء ولما طغت عليه بكل أسف اضطر مرغماً أن يساير الجماهير ويقوم هو أيضا باضطهاد النصارى.[٢٧]

ويذكر المقريزى هذه الإضطهادات بتفاصيلها قائلا:

" إنه لما شرع فى بناء ميداناً فسيحاً بالجهة المعروفة الآن بالناصرية فى آخر شـهر ربـيع الأول (٧٢١ هـ) ولما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرى وهى كنيسـة واسـعة الأطراف محكمة البناء وكان بها عدد كثير من النصارى لا يزالون يقـيمون فـيها وبجانـبها أيضـاً عـدة كـنائس فى الموقع الذى يعرف بحكر أغا (هذه المنطقة تحوى الأزهر وزويلة وحارة الروم والغورية حتى منطقة الأنبا رويس بالعباسـية) فأشـار علـيه المغرضـون المتعصبون بهدمها لأنه لا يصح أن تكون للنصارى كنيسة ظاهرة بهذه الكيفية أما هو فلم يرد أن يهدمها بل أمر أن تحفر حول جدرانها حتى تنهار من نفسها ولما كانت على جانب عظيم من المتانة استمرت واقفة ولم تسقط فاغتاظ المسلمون ونقموا على الأقباط لما رأوا السلطان يدافع عنهم وكثرت فـى هـذه الفتـرة العمارات بالعاصمة فتواطأ المسلمون مع بعض الأمراء على هدم الكـنائس لينتقموا من النصارى من جهة وليستخدموا أنقاضها وأدواتها فى العمارات التى كلفوا ببنائها من جهة أخرى .

ويقـول المقريـزى أخذ الفعلة فى الحفر حول الكنيسة (الزهرى) حتى بقيت قائمة وسـط الموقع الذى عينه السلطان ليحفر وهو اليوم بركة الناصرية وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة وكان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها وصارت العامة من غلمان الأمراء العاملين فى الحفر وغيرهم من الغوغاء المتعصبين يصرخون على الأمـراء فى طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول من هذه السنة وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة والعمل فى الحفر متوقف فتجمع عدد من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال (الله أكبر) وامتدت أيديهم نحو كنيسة الزهرى وهدموها حتى بقيت كوما وقتلوا كل من كان فيها مـن النصـارى وأخـذوا جمـيع ما كان فيها وهدموا كنيسة (مارمينا) التى كانت بالحمـراء وكانت مُعَظّمه عند النصارى من قديم الزمان وموضع اعتبارهم وبها عدد من النصارى قد انقطعوا فيها (أى أقام حولها كثير من الرهبان والراهبات) ويحمل إليها نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه الشعب ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيـرة فـوجد فـيها مال كثير مابين نقد ومصاغ وغيره وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالاً وقماشاً وخربوا وأهلكوا كل من فيها فكان أمراً مهولاً ثم مضوا إلى كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداها بكنيسة البنات (دير الراهبات) كان يسكنها بنات النصارى وعدد من الرهبان فكسـروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات وكن زيادة على ستين بنتاً (راهبة) ونزعوا

ثيابهن وسلبوا كل ما وجدوه معهن ونهبوا سائر ما ظفروا به وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها بعد ذلك أشعلوا النار فى بيوت النصارى القائمة حول كنيسة مارمينا وحرقوا الكنائس الثلاث، هذا والناس فى صلاة الجمعة - فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولاً كبيراً من كثرة الغبار ودخان الحريق وكان نتيجة ما حدث من هرج ومرج للناس وشدة حركاتهم ومعهم ما نهبوه أن شبه الناس هذا الحال لهوله بيوم القيامة. وكانت أخبار تلك التعديات قد وصلت إلى مسامع السلطان وقيل له أن لم تسرع فى إنقاذ أقباط بابليون لهلكوا عن آخرهم وذلك لأن الغوغاء لم يكفهم ما حدث بل قاموا إلى بابليون التى يسكنها أكثر الأقباط وأعيانهم قاصدين الفتك بهم، ولكن هؤلاء شعروا بهم قبل وصولهم وأغلقوا باب الحصن القديم وكان داخل سورة ستة كنائس واستعد الأقباط للدفاع عن أنفسهم.

كما بلغ السلطان وجود عصابة أخرى تسعى إلى هدم كنائس الموسكى وحارة زويلة. وفى قلعة الجبل سمع السلطان ضجة عظيمة ورجسه منكره أفزعته فبعث لكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجاً عظيماً وتعجب من جرأة العامة وإقدامهم على ذلك بغير أمره.

وأمر الأمير ايدغمش أمير آخر أن يصطحب جماعة الأشاقية(بعض رجال الأمن) ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله، فأخذ ايدغمش يتهيأ للركوب وإذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضاً بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير وزحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فأغلقها النصارى وهم محاصرون بها وهى على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة ثم تأخر لما راجعه الأمير ايدغمش ونزل من القلعة مع أربعة من الأمراء إلى مصر وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير الماسى الحاجب إلى موقع الحفر وركب الأمير طينال إلى القاهرة وكل منهم معه عدد وافر من الرجال وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو عن أحد فقامت القاهرة ومصر القديمة على ساق وهرب الغوغاء الناهبون فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة لما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس.

ولحق الأمير ايدغمش بمصر القديمة وركب الوالى إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق إلا أن يحرق باب الكنيسة فجرد ايدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالماً لا يقع عليه حصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بإرهاب العامة من

غيـر إهـراق دم ونادى مناديه من بقى من العامة حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامـة ثـم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هناك وترك معه خمسين من الاوشـاقية وأمـا الأميـر الماسـى فإنه وصل إلى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليـتداركها فـإذا بها هدمت عن آخرها وتحولت إلى أكواماً من تراب وليس بها جدار قـائم ونهب الناس ما بها، وعاد الأمراء فرددوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد إلا حنقاً، فما زالوا معه حتى سكن غضبه.
وهكذا هدمت كنائس مصر والفسطاط جميعها أو معظمها وشمل الخوف جميع الأقباط السـاكنين بمصر والفسطاط فلم يجسروا على الخروج من بيتهم وبقوا محبوسين فيها أيامـاً وبعضـهم تركها وسكن بابليون لحصانتها وعدم إمكان الهجوم والتغلب عليها بسهولة.

ويقول المقريزى .

وكـان الأمـر فى هدم هذه الكنائس ضرباً من العجب وهو أن الناس كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعندما فرغوا من الصلاة قام رجل من الأولياء وهـو يصـيح من وسط الجامع " اهدموا الكنيسة التى فى القلعة اهدموها وأكثر من الهـياج المزعج حتى خرج عن الحد فتعجب السلطان والأمراء من قوله ورسم لنقيب الحـراس والحاجب بالفحص عن ذلك فإذا به يرى أنه قد هدمت الكنيسة ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائـس (مارمينا بالزاوية الحمراء) والقاهرة فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلب القبض عليه فلم يوقف له على خبر.

واتفـق أيضاً بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا فى هذا اليوم لصلاة الجمعة أخذ شخص من الفقراء فى الاستعداد للقيام بعدما اذّن وقبل أن يخرج الخطيب صرخ قائلاً واهدموا كنائس الطغيان والكفرة نعم الله اكبر وفتح لله ونصر وصار يزعج نفسه من الأسـاس إلى الأساس فحدق الناس بالنظر إليه ولم يدروا ما خبره واختلفوا فى أمره فقـال أحـدهم هذا مجنون، وقال آخر هذه إشارة لشئ، فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح وطلب مقابلة هذا الرجل بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد، وخرج الناس إلى باب الجامـع فـرأوا الناس ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهب فسألوا عن الخبر فقيل قد نادى السلطان بهدم الكنائس فظن الناس الأمر كما قيل حتى تبـين بعد قليل أن هذا الأمر كان من غير أمر السلطان وكان الذى هدم فى هذا اليوم من الكنائس كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة .

(ومن يوم الأحد ثالث يوم الجمعة الذى حدث فيه هدم كنائس القاهرة ومصر القديمة) ورد الخبـــر من الأمير بدر الدين بيبك المنسى والى الإسكندرية بأنه فى يوم الجمعة تاســع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة وقع فى الناس هرج ومرج وخرجوا من الجامع وقــد وقـــع صياح هدمت الكنائس فركب المملوك من فوره فوجد الكنائس قد صارت كــوماً مـــن التـــراب وهـــدمت عن آخرها وكان عدد الكنائس التى هدمت أربعة فى الإســكندرية واثنـــين فى البحيرة وفى نفس اليوم ذكرُ عن مدينة قوص أن الناس لما فــرغوا مـــن صـــلاة الجمعة قام رجل من الفقراء وقال أيها الفقراء اخرجوا اهدموا الكـــنائس وخـــرجوا من الجامع فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس فهُدمت ستة كنائس كانت ما بين قوص وما حولها فى ساعة واحدة وتواتر الخبر من الوجه القبلى والوجه البحـــرى بكثـــرة ما هدم فى هذا اليوم – وقت صلاة الجمعة وما بعده – من الكنائس والأديـــرة فـــى جمـــيع إقليم مصر كله ما بين قوص والإسكندرية ودمياط والغربية والشرقية ودمنهور والبهنسا وأسوان ومنفلوط والمنيا فاشتد ضيق السلطان على العامة خـــوفاً مـــن فساد الحال وأدرك أن هذه الحوادث دُبرت قبل حدوثها وأراد أن يقاضى مدبـــريها فأمر السلطان بالبحث عن رؤساء العصابة التى تسببت فى هذا الفعل الذميم وإحضـــارهم لديه ليجازيهم بما يستحقون على هذا الاعتداء والافتراء فخاف بعضهم افتضاح الأمر إذ كانت لهم يد فيها فقاموا فى تسكين غضبه وقالوا هذا الأمر ليس من قـــدرة البشر فعله ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما استطاع وما هذا إلا بأمر الله سبحانه وتعالى وبقدرته لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم لـــيكون ما وقع نقمة وعذابا لهم أما الطرق والشوارع فى ذلك اليوم كانت مريعة جدا لأنها كانت غاصة بالنهابين الحاملين منهوبات الكنائس وبيوت النصارى.

ويذكـــر المرحوم جرجس فيلوثاوس عوض فى مجلته " المجلة القبطية " العدد السابع ســنة ١٩٠٧ م صفحة ٣٨٦ عن مسجد السيد البدوى بطنطا أنه كان أولاً هيكلاً وثنياً (من البرابى المصرية) ثم تحول إلى كنيسة كغيره ثم تحولت هذه الكنيسة إلى جامع وهو يحتوى على نحو ٦٠ عمودا من الرخام الابيض ويغلب الظن أن تحويل الكنيسة إلـــى جامع كان فى عهد تخريب الكنائس فى أيام السلطان الناصر بن قلاوون فى يوم الجمعة ٦ ربيع الآخر سنة ٧٢٠ هـــ (٢١ بشنس ١٠٣٦ ش) (١٣٢٠ م) .

وكانت هذه الكنيسة الوحيدة فى طنطا وبتحويلها إلى مسجد حُرم أقباط طنطا من تأدية شـــعائرهم الدينية بمدينتهم فاضطروا إلى الالتجاء إلى بلدة تُدعى سبرباى للصلاة فى كنيستها.[٢٨]

ح ـ حوادث حريق القاهرة :

ويقــول المقريزى لم تمض ثلاثون سنه على حادثة هدم الكنائس حتى وقعت حادثة كانـت أعظـم هولاً من التى قبلها ذلك أن ظهر بمصر فجأة حريق هائل وصار يمتد بسـرعة حتى كاد يلتهم جميع المدينة وكان رجال الحكومة يعملون على إطفاء النار ولكـنه كـان كل يوم يظهر حريق جديد وظن بعضهم من أول وهله أن هذه الحرائق لابـد أن تكون من فعل الأقباط نظير هدم كنائسهم واضطربت البلاد اضطرابا عظيماً وقام المتعصبون من العامة ينادون فى الشوارع أن النصارى هم الذين أشعلوا النار.[٢٩]

وقد أفاض المقريزى المؤرخ المسلم فى سرد هذه الحادثة وعنه استقى باقى المؤرخين إلا أن روح تعصبه ظاهره فيما كتب فهو يروى انه فى يوم جمعة من شهر يوليه من تلـك السـنة قُـبض على راهبين وُجدا خارجين من مدرسة فتحقق ظن المتعصبون وسـلموهما إلى السلطان فأمر بتعذيبهما ولم يكد ينطق بالحكم حتى أتوه براهب آخر وجدوه فى جامع الأزهر ومعه عدة أكياس فيها نفط وقطران وبتعذيبهم اعترفوا بأنهم رهـبان دير يُعرف بدير البغل بجهة طرا وأنهم أربعة عشر وقد تعاهدوا على إحراق مصر والفسطاط انتقاما من المسلمين على هدم كنائسهم وإنهم اقتسموا القاهرة ومصر القديمة فجعلوا للقاهرة ثمانية ولمصر القديمة ستة.
وممـا هو جدير بالذكر أن دير البغل كان باسم القديس أرسانيوس وعرف باسم البغل نسبة إلى إرسال المؤن والماء والاحتياجات الخاصة به من القاهرة عن طريق بغل أو على ظهر بغل وتنيح القديس أرسانيوس بهذا الدير وله فيه مغارة كبيرة، وكان رهبانه ملكانيين أصحاب الطبيعتين للسيد المسيح (أى ليس ديراً قبطياً).
ثـم استطرد المقريزى قائلاً وفى أثناء ذلك ظهرت النار بدار القاضى كريم وهو من عائلة قبطية الأصل وأسلمت من مدة فأستدعى إليه بطريرك الأقباط الذى أكّد له انه لا يعلم شيئا عن هذه الحوادث كما تأسف له قائلاً إنما هذه الحوادث فعل سفهاء المسلمين والنصـارى ولا لـوم على الحكومة إذا أدبّت مرتكبيها فسّر كريم الدين بهذا الجواب الـذى أزال الشك من جهة تواطؤ النصارى عموماً على إيقاع الأذى بالمسلمين وأمر بإعداد بغلة يركبها البطريرك فى العودة إلى داره.

وفـى صباح الغد بينما كان كريم الدين سائراً إلى الديوان حسب عادته سخط علـيه العامة واتهموه بالكفر واجتمع حوله المسلمون وأحاطوا به وأوسعوه سباً وشتماً لأنه يناصر النصارى بعد أن ثبت له إدانتهم على إحراق بيوت المؤمنين فلم يعبأ بهذه

المظاهـرة ولا بهـذه التهديدات وظل سائراً فى طريقه حتى وصل إلى دار السلطان واعلمـه بمـا تحقق من أن هذه الحرائق لم يكن إلا من بعض سفهاء النصارى الذين أرادوا الانـتقام مـن المسـلمين على ما ارتكبوه ضدهم من الفظائع. فأمر السلطان باسـتمرار تعذيب الرهبان حتى يعترفوا بأسماء الأغنياء من الأقباط الذين حرّضوهم علـى هذا الفعل ولكن الرهبان استمروا يحتملون العذاب بصبر. ولما لم يتحولوا عن كلامهـم أرسـل السلطان وهجم على دير البغل واتى بكل من فيه من الرهبان وأمر بحرق أربعة منهم أمام ذلك الجمع المحتشد وانفجر بركان غيظ المسلمين على أثر هذه الحادثـة وجالـوا يبحثون عن الأقباط فى كل مكان ليوردوهم موارد العذاب دون أن يـراعوا أوامر الحكومة فهجموا على بيوتهم ونهبوها وقتلوا من بها بغير رحمة ومن هرب منهم قتلوه فى الطريق. وكانوا إذا عثروا على واحد قبطى فى الشوارع يسلبونه ماله ويذبحونه. وقد أدّت بهم الجرأة إلى أن اجتمع منهم كثيرون تحت قصر السلطان واحـتجوا لمعاملـته النصارى بالرفق. فرآهم حينما كان نازلاً من القلعة إلى الميدان وسـمعهم يصـيحون " نصـر الله الإسلام " ويطلبون من السلطان أن يساعدهم على نصرتهم فلم يهتم بهم وسار إلى الميدان وقبل وصوله أخبر أن أثنين من الأقباط قبض عليهما وهما يحرقان منزلا فاحتدم غيظاً وأمر بحرقهما أحياء أمام الجموع وبينما هم يحرقونهما إذا بكاتب ديوان الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت مولاه وكان نصرانياً فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته إلى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملـوه ليلقوه فى النار فصاح بالشهادتين وأظهر الإسلام وأطلق واتفق حينئذ مرور القاضى كريم الدين بملابسه الرسمية فرجمه الرعاع بالحجارة وقذفوه بكلمات السباب المهيـنة فـأراد أن يـتوارى عنهم فلم يتمكن وظلوا يتبعونه حتى دخلوا خلفه ميدان السلطان الذى لما شاهد هذه الحماقة الزائدة أمر بإجراء التحقيق فأخبره الأميران سيف الـدين وجمـال الدين بأن القوم ثائرون ويلزم أن يسألوا عما يطلبونه، والأوفق تهدئة لخواطـرهم أن يأمـر السلطان بطرد جميع الموظفين الأقباط من دواوين الحكومة. فاسـتهزأ السلطان بكلامهما وطلب من قائد جيشه أن يأخذ قوة عسكرية يجول بها فى كـل شوارع القاهرة مبدداً شمل دعاة الفتنة وحلف برأسه أنه أن لم يحضر له كل من رجـم القاضـى كريم الدين بالحجارة يعرض رأسه للقطع وأرسل مع القاضى أربعة أمـراء كانوا يميلون سراً إلى جماعة الأوباش فأخطروهم بالأمر قبل وصولهم إليهم فتفرقوا جميعهم وألقى القائد القبض على بعض الشحاذين وكل من شاهده فى الشوارع فارتعـب الأهالـى وصاروا يطرحون أنفسهم فى نهر النيل . ولما أحضر المقبوض علـيهم أمام السلطان وكان عددهم مائتى رجل أمر بالشنق على بعضهم وبالقتل على غيرهم وبقطع أيدى الباقين فبكوا بكاءاً مراً وأقسموا أنهم لم يرجموا القاضى فلم يلتفت السلطان إليهم وأصر على مجازاتهم بما أمر فشنق بعضهم فى اليوم الأول وفى اليوم

الثانى قطعت أيدى وأرجل ثلاثة منهم بحضرته وأمر أن يبقى المشنوقون معلقين حتى يراهم الجميع فارتعدت فرائض الأمراء وأخذتهم الشفقة ولكنهم لم يجسروا على طلب العفـو منه وكان القاضى غائباً فلما حضر وشاهد جثث هؤلاء المنكوبين الحظ طرح نفسه أمام السلطان واستعطفه ومازال به حتى عفى عن الباقين.

ولكـن لـم يبـرح السلطان مكانه حتى وفاه خبر بأن النار علقت بجامع ابن طولون والقلعـة وقبض على ثلاثة من الأقباط وقال المقريزى أيضا " أنه باستنطاقهم اعترفوا جهـاراً أنهم من العصابة التى ألت على نفسها إحراق مصر والفسطاط " وسواء كان هـذا الخبر صحيحاً أم تذرع به المتعصبون ليشفوا غليلهم من الأقباط فإن الإشاعات هـيّجت الخواطر على أولئك المساكين. ودام الحريق سبعة أيام والناس يشنّعون على السلطان لأنه لم يجب طلبهم ويطرد الأقباط من الحكومة فاغتاظ السلطان وصار يقتل كل من يجده نصرانياً كان أو مسلماً.واشتد الهياج على الأقباط حتى اختفى هؤلاء من المـوت المحقق الذى كان يتهددهم وتحصنوا داخل بيوتهم لا يجسرون على الخروج منها، لان من كانت الحاجة تدعوه إلى الخروج يُقبض عليه ويقدم للمحاكمة بأنه شُوهد يحرق بيتاً أو جامعاً.

وذات يوم حمل الرعاع قطعة قماش زرقاء رسم عليها صليب أبيض وجالوا يصيحون بنصـرة الإسـلام دون كل الأديان ولا نريد فى البلاد ديناً غير الإسلام أعنّا يا أمير المؤمنين على النصارى ولا ينبغى أن تناصرهم علينا أنصرنا على أهل الكفر. ورأى السـلطان أن نفوسـهم مازالـت متعطشة لشرب دماء الأقباط وأن ما أتاه من إحراق النصارى أحياء ليس كافياً لتسكين غضب المسلمين وإذ كان يعلم أيضا أن معظم هذه الفتـنة مبنـى على الطمع فى مابين أيديهم وسلب أموالهم فخشى معارضتهم وأرسل منـادياً يـنادى فـى الناس أن من يجد نصرانياً ويقدر عليه ويقتله فله ماله فركض الأوباش يفتشون على الأقباط ويا لهول ذلك الكرب الذى لحق بهم فكنت تراهم يجرّون ألـوفا إلى المذابح والذين لم يهلكوا منهم ميّزوهم بلبس خاص فأمروهم بأن لا يتزينوا بزى المسلمين وحكموا عليهم بلبس العمائم الزرقاء وبتعليق أجراس فى أعناقهم خوفاً مـن أن يتدنس مسلم بلبسهم وحرموهم من التوظف بدوائر الحكومة أو الأمراء وكان من الجائز ذبح كل قبطى يُرى لابساً عمامة بيضاء أو راكباً فرساً أو بغلاً وأمروا من يـريد مـنهم أن يـركب حمار بأن يركبه مقلوباً واستمر القتل والنهب مدة أسلم فيها جماعة كثيرة حتى مل الفاتكون رؤية الدماء البشرية تسيل على الأرض فكفّوا من تتبع أثر النصارى ولم يظل هذا السكون بل حدث فى الليلة التالية حريق هائل إنذوى بعده الأقـباط فـى كـل مخبأ رأوه صالحاً لإخفائهم من أمام عيون مضطهديهم واستمروا

مختبئين سنة ونصف أغلقت فى أثنائها كل الكنائس ولكن السلطان استعمل الحكمة بأن أصدر أمرا يمنع اضطهاد النصارى وإشتغل بوضع قانون محكم يسيرون بموجبه.[٣٠]

ويحصى المقريزى المؤرخ المسلم الكنائس التى خُرّبت قائلاً:

كنيسة فى خرائب التتر بقلعة الجبل وكنيسة الزهرى فى الموقع الذى فيه بركة الناصرية وكنيسة الحمراء وكنيسة السبع سقايات وكنيسة بحارة الروم وكنيسة البند قانيين وكنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزائن التتر وكنيسة بالخندق وأربعة كنائس بثغر الإسكندرية وكنيستان بدمنهور وأربع كنائس بالغربية وثلاثة كنائس بالشرقية وستة كنائس بالبهنسا وبأسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب، ثمان كنائس وبقوص وأسوان إحدى عشر كنيسة وبأطفيح مركز الجيزة كنيسة وبقصر الشمع ومصر القديمة ثمان كنائس . وضرب من الديارات شئ كثير وظل دير شهران ودير البغل مدة ليس فيهما أحد من الرهبان وقد حدث هذا الخراب وتلك المصائب فى وقت قصير جدا بالقياس على التحولات التاريخية الأخرى إذ لم يقع مثلها عبر التاريخ البشرى أو الثورات العالمية فى مثل هذا الوقت القصير وقد هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وخرب فيها من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته بالإضافة إلى ذلك وخاصة بعد حالة الهدوء النسبى التى أعقبت فترة الحرائق العامة أصدرت الأوامر بمنع النصارى بالتظاهر بالأبّهة وركوب الخيل والتجمل بلبس الثياب المصقولة والعمائم البيضاء.[٣١]

وساطة ملك برشلونه وملك القسطنطينية:

يذكر المقريزى أن الملك الناصر قلاوون أمر بغلق جميع كنائس النصارى وبقيت مغلقة أكثر من سنة ونصف وفى هذه الفترة جاء إلى مصر وفد من ملك برشلونه (أسبانيا) يحمل فدية لأسير كان قد أسره السلطان، فلما شاهد رجال هذا الوفد ما يقع على رؤوس الأقباط من الظلم والبلاء إنذهلوا وجزعوا جداً ولم يطيقوا رؤية هذا الجو الفظيع والذل ودفعتهم حميتهم أن يطلبوا من السلطان فتح الكنائس مقابل مبلغ من المال يدفعونه له وقد توسط ملك القسطنطينية وملك أسبانيا وقاموا بإرسال وفد فأذن السلطان بفتح كنيستين أحدهما للأقباط والثانية للروم الأرثوذكس.٣٢

ويقول المقريزى أيضا:

إن السلطان لم يجب طلب هذين الملكين إلا لكونهما بعثا إليه بهدايا عظيمة على يد مندوبين من قبلهما. ومما يؤسف له أن السلطان مثّل بالوفد تمثيلاً شنيعاً وهكذا انتهت هذه الحادثة المؤسفة المشؤمة التى أخذت كثيراً من المسلمين والنصارى.[٣٣]

كما أن الأعمال الانتقامية التى قام بها الأقباط قد دبرتها سراً رؤوس جماعة كانت تعتقد أنها بعملها هذا تستطيع أن تقنع الأغلبية بالعدول إلى التعقل والاعتدال فى معاملة الأقباط.واستنكار البطريرك لهذه الأعمال الانتقامية كان دليلاً على أن هذه الأعمال غير مرغوبة لدى الأقباط عامة.

وعلى أى حال فإن تدخل السلطان أنقذ الأقباط مرة أخرى من استفحال الكارثة على الرغم أن بعض المؤرخين ينسبون هذه الحوادث إلى دسائس المماليك الذين كانوا يحسدون الأقباط على نفوذهم فى الدواوين.

خ ـ حادثة هدم كنيسة الست بربارة سنة ٧٢٨ هـ:

حدث فى سنة ١٣٢٩ م لما علم ملك الأحباش بما حل بنصارى مصر أرسل رسولاً بكتاب منه إلى السلطان يعاتبه فيه على هدم الكنائس وقتل الأبرياء ويذكّره بالمعاهدات التى بين سلفائه ملوك مصر السابقين وطلب منه أن يعيد بناء الكنائس التى خرّبت وإلا سوف يقوم بهدم كل جوامع المسلمين التى ببلاده وإذ كانت الحادثة التى شرحناها قد خمدت ولم يرد أن يحرك فيها ساكناً خوفاً من إعادة اشتعال نارها صرف الرسول بغير جواب غير أنه لما هدأت الحال وعاد النظام لم يفت السلطان مصالحة النصارى بأن صرح لهم ببناء بعض الكنائس التى هُدمت بناء على طلبهم ذلك منه على شرط أن لا يتوسعوا فيها أو يزيدوا عليها شيئاً مما كِانت عليه قبل الهدم غير أن بعضها هُدم بعد تمام عمارتها بدعوة أنها لم تبن على حالها القديمة أو أنهم زادوا فى زخرفتها وإعلاء بناءها.[٣٤] ومنها كنيسة للست بربارة حيث رفع النصارى طلباً إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يسألون الإذن فى إعادة بناء كنيسة الست بربارة فأذن لهم فى ذلك فعمّروها أحسن مما كانت فغضبت طائفة المسلمين ورفعوا قضية إلى السلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها فرسم للأمير علم الدين سنجر والى القاهرة بهدم ما أحدثوه فركب وقد اجتمع خلق كثير فبادروا وهدموا الكنيسة كلها فى أسرع وقت وأقاموا فى موقعها محراباً أذنّوا وصلّوا وقرأوا القرآن كل ذلك بأيديهم فلم يتمكن الأقباط من معارضتهم خشية الفتنة فاشتد الأمر على النصارى ولم يكن أمامهم إلا أنهم شكوا أمرهم للقاضى كريم الدين فقام وقعد غضباً لدين إسلامه ومازال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب فهُدم وصار موقعه كوم تراب وبقى على هذا الحال.[٣٥]

ومما يدل على إنحطاط الحال التى انتهى إليها الأقباط التعساء أيضاً هو أنه حدث أن قبطـياً مـن موظفـى الحكومة كان يداين رجلاً يهودياً بمبلغ من المال فلما طُرد من وظيفـته وأصـبح محـتاجاً لماله، توجه لمنزل اليهودى وطالبه بماله عنده فتظاهر اليهودى بأن القبطى كان عازماً على الفتك به فصرخ واستنجد بالعامة فتجمهر حوله كثيـرون مـن المسلمين بقصد الإيقاع بالقبطى ولكن هذا دخل الدار واحتمى بزوجة اليهودى ووافقت على العفو عنه بشرط أن يتنازل عن الدين فقبل ليفوز بحياته.[٣٦]

وهكذا انتهت هذه الحوادث المشئومة التى أضرت كثيراً بالمسلمين والنصارى إذ مما تقـدم يتضـح أنـه لم يخل الحال من وجود تواطؤ واتفاق سرى على إيقاع الضرر بالنصارى والمسلمين وبعضهم ينسب هذا إلى دسائس المماليك الذين كانوا يحسدونهم علـى مـا بـين أيـديهم ومالهم من النفوذ فى الدواوين فاستعانوا على تنفيذ مآربهم بالأوبـاش الـذين كانوا فى ضنك بسبب المظالم التى تقدم وصفها ووافقهم على ذلك بعض جهلاء المسلمين أما عقلاؤهم فكانوا فى كدر من جراء ذلك ولاسيما لعلمهم أن هـذا الاضـطهاد يجر الأقباط إلى الإقبال على الإسلام فيبقون فى مراكزهم ويزداد نفوذهم فينتقمن لأنفسهم بغير مبالاة ولكن كانت هذه الأفكار السليمة قاصرة على بعض الأفراد ولما أشتد الهياج لم يتجرأوا على إظهارها لئلا يصيبهم أكثر مما أصاب كريم الدين وما نجم عنه من الأذى الذى حل بالذين لا يستبعد أنهم كانوا أبرياء.[٣٧]
ومع أن هذا السلطان منع النصارى من التظاهر بالأبهة وركوب الخيل والتجمل بلبس الثـياب المصـقولة والعمـائم البيضـاء إلا أنه من جهة أخرى لم يخل منهم دواوين الحكـومة بالمرة لعدم إمكان تسيير أعمالها بدونهم ولاسيما الحسابية ولكن يظهر أنه جـردهم من الرئاسة والوظائف الإدارية ومن ثم اقتصروا على الحسابية منها فتفننوا فـيها وجعلـوا لهـا قـواعد وروابط دقيقة لم يتسن لغيرهم إتقان معرفتها فصاروا يمارسونها للآن وبذا حفظوا لأنفسهم مراكز هامة فى الحكومة.

٦ ــ عهد الملك الصالح سنة ١٣٥٢ م وتولى المعتد بالله سنة ١٣٥٣ م:

كـان عهده عهد شؤم وكارثة كبرى على الأقباط فقد ذكر المقريزى أن للقبط قـبل حكمـة كان لهم مركز ممتاز لدى أمراء الدولة وكانوا يرتدون الملابس الجليلة الفاخـرة ويركبون الخيل والبغال المطعمة مما كان يغيظ عوام المسلمين (العامة) مـن تعاظم النصارى واعتبروا أن ذلك خروجاً منهم عن الحد فى الجرأة واللياقة إلى أن أتفـق أيام الملك الصالح مرور أحد كتّاب النصارى على الجامع الأزهر بالقاهرة وهـو راكب جواده وقدامه طرادون يمنعن الناس من مزاحمته وخلفه عدد من العبيد

بثياب مهلهله فشق ذلك على جماعة من المسلمين فثاروا عليه وأنزلوه من فرسه وقصدوا قتله بلا ذنب ولا جريمة لولا تدخل البعض فى أمره وتمكنهم من إنقاذه.[٣٨]

ومن أشهر الحوادث فى أيامه:-

أ) حادثة الرجل الذى أجبر على دخول الإسلام:

أتُهم أحد النصارى أنه حفيد رجل كان قد أعتنق الإسلام فحكم القاضى على هذا النصرانى بأن يدخل الإسلام وألقاه فى السجن ليجبره على ذلك فذهب النصارى جميعاً لمقابلة الحاكم وتمكنوا من إطلاق صراح الرجل فى حلكة الليل وفى اليوم التالى توجهت الجماهير إلى منزل القاضى وكان الحاكم قد استدعاه ولامه لوماً شديداً على ما اتخذ من إجراء غير أن الجماهير لم يروق لها الإفراج عن النصرانى فأغلقت الحوانيت وأخذت تقذف الحاكم بالحجارة فاضطر إلى مغادرة المدينة ثم توجهت الجماهير نحو الكنيسة التى بجوار هذه المنطقة فخرّبتها وأحرقت الصلبان والصور التى بها ونشبت القبور وأحرقت الجثث وألقتها فى النيران وبعد ذلك قرروا مهاجمة النصارى القاطنين فى تلك المنطقة.[٣٩]
ولما ارتبكت أحوال البلدة قدم الحاكم تقريراً إلى السلطان يشكو فيه من تصرف قاضى البلدة وتبعه الأقباط بشكوى أخرى إلى الأمير حسام بالقاهرة يطلبون فيها إعادة بناء كنيستهم فلما تقدم القاضى ليحاكم أمام حاكم القاهرة وبّخهم أحد المشايخ لمحاكمتهم لقاضى مسلم من أجل اضطهاده للنصارى غير أن الحكّام أصرّوا على ضرورة عزل القاضى فعُزل.

ب) حادثة حفيد عائلة زينور (علم الدين):

إدّعى العامة على رجل نصرانى من عائلة زينور بأن جده كان قد أسلم وهو لا يزال باقياً على نصرانيته فحكم عليه بالقتل وكان باقياً من هذه العائلة رجل كان قد أسلم وسمُى بعلم الدين حصلت بينه وبين أحد الأفراد منافسه، فادعى عليه بشهادة بعض الشهود الكاذبين أنه يدّعى الإسلام وهو لا يزال باقياً على نصرانيته وزوجته باقية على دين النصارى لم يتركها أو يُكرهها على الإسلام، واستفتى العلماء فأفتوا بأن إذا كانت هذه حالة فأنه يستحق الحرق لا محالة فقبضوا عليه وصاروا يعذبونه حتى مات وكان ذو ثروة طائلة فاستولوا على كل ماله ونهبوا داره وأحضروا زوجته وصاروا يضربونها بالسياط حتى ماتت وقتلوا أبنه أيضا قبل موته.[٤٠]

وبعــد ذلــك أمــر أن تُمنع النصارى من المباشرة ويُستثنى من ذلك ديوان السلطان ودواويــن الأمــراء وأن لا يُكره أحد منهم على إظهار الإسلام فتسلطت العامة عليهم نتــيجة لــذلك وتتــبعوا أثــارهم وأخذوهم فى الطرقات وقطعوا ما عليهم من الثياب وأوجعــوهم ضــرباً ولم يتركوهم حتى يسلموا (كرهاً) وصاروا يشعلون لهم النار لــيلقوهم فــيها فاختفوا فى بيوتهم ولم يتجاسروا على السير وسط الناس واشتد الأمر علــى النصــارى حتى أنهم اختفوا من الطرقات فلم ير منهم ولا من اليهود أحد ولم يكتف المسلمون بهذا الجحود فى المعاملة بل قدّموا طلباً جديداً إلى الحكومة إدّعوا فيه أن الأقــباط بدءوا ينهضون لتجديد كنائسهم وتوسيع مساحتها وطلبوا من السلطان أن يســمح لهــم باضــطهادهم فأمر والى القاهرة أن يبحث هذا الأمر ولكن العامة أبوا الانتظار وشرعوا فى هدم الكنائس فهدموا كنيسة بجوار قناطر السباع وكنيسة بطريق مصر القديمة الغمازين بالجوانية بالقاهرة (كنيسة الملاك ميخائيل).ودير نهيا بالجيزة(دير بأبوا رواش كان به كنيستان الأولى باسم القديسة العذراء مريم والثانية باسم مريم ومرثا أختا لعازر) وكنيسة بولاق الدكرور ونهبوا حواصل ما خربوه من ذلك وكانت كثيرة جداً وأخذوا أخشابها ورخامها وهجموا على كنائس مصر القديمة وأيضاً كنيسة البند قانيين بالقاهرة.

كمــا يذكــر المقريزى أنه فى أيام الملك الصالح سنة ١٣٥٢ م أن الرعاع والغوغاء والعامــة هدموا كنيسة شبرا الخيمة كما نهب العامة من الكنيسة قبل هدمها أكثر من ٤٠ ألف جرة نبيذ.[٤١]

وبعد ذلك أصدر الملك الصالح الأحكام التالية :

إلــى جميع أعمال مصر وبلاد الشام أن لا يُستخدم يهودى ولا نصرانى فى الدواوين وغيره حتى ولو اسلم وأن من أسلم منهم لا يمكّن من العبور إلى بيته ولا من معاشرة أهلــه وأن يُلــزم بملازمــة المســاجد والجوامع وأن من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته أن كان له وارث وإلا فهى لبيت المال . وكان من قــبل يتلقــى البطريــرك ذلك (أى ترث الكنيسة أو البطريرك تركة من يموت من النصارى إذا مات ولم يكن له وارث شرعى).

وقــد تناقلت الأخبار بسرعة من الأقاليم البحرية والقبلية لكثرة وطأة الاضطهاد وهدم الكنائس والمعابد والأديرة.

ويذكــر المقريــزى أنه ما أن تسلم حكام الأقاليم أوامر السلطان السابقة حتى سُمع أن الأقباط فى كل مكان يقبلون بكثرة على اعتناق الديانة الإسلامية وتعلّم القرآن وحولت

كنائسهم إلى مساجد وأنه قد أسلم فى بلدة قليوب فى يوم واحد أكثر من ٤٥٠ قبطياً كما قدّم إلى السلطان الصالح تقريراً يدفع بما للكنيسة من أملاك موقوفة فأحيل على ديوان الأوقاف لخطّة ومعرفة ما تضمنه ووجد مقدار الأطيان الموقوفة ٢٥ ألف فدان فقرر السلطان بأن ينعم بها على الأمراء فاغتصبت من المسيحيين وأعطيت لهم وكان ذلك داعياً لهدم كنائس أخرى ولكن الله المنتقم الجبار لعبيده الأبرار لم يمهل الملك الصالح بل أسرع فى مجازاته على أعماله فسلط عليه أخاه حتى قام عليه وخلعه وتولى الحكم بعده فكان خير عقاب على ما اقترفته يداه ضد شعب الله المسيحى.

٧- الملك الناصر حسن (١٣٥٥ م - ١٣٨١ م)

كان الحاكم المتصرف فى أيامه هو الأمير يلبغا وكان محباً للأقباط ولكن بعض الرعاع قبضوا على قبطى فى سنة ١٣٦٩ م وعذبوه عذاباً أليماً حتى مات بحجة أنهم اشتبهوا فيه بأنه ساحر وأنه تسبب فى وفاة زوجة الملك الشاب وهى ابنة الأمير تاج الدين.

أما أمر الموظفين الأقباط المطرودين فإنه لم يمض زمن حتى دعت الضرورة إلى إعادتهم للخدمة وفى تلك الأيام وفد على مصر سائح إنجليزى كتب يقول أن ملك مصر عرض عليه أن يسلم ويزوّجه بنته ثم أضاف قائلاً أن السلطان قال له أن النصارى بسبب معاصيهم خسروا مصر وسوريا ولو عبدوا الله حقاً لما استطاع أحد أن يقهرهم وان المسلمين يعتقدون أنه يجئ زمن عندما يخلص النصارى النية نحو الخالق سبحانه وتعالى يسودوا على أرض مصر كلها.

ولما هدأت الحال وزال الشقاق والخصام من بين المسلمين والنصارى، حول السلطان نظره إلى تحسين حال الحكومة ، ولكى لا يحول دون تنفيذ مأربه حائل أشغل عامة الناس الذين لا شغل لهم ولا عمل فى إقامة المبانى المشيدة فبنى عدة مدارس وجوامع ومارستانات ومستشفيات وقناطر وأعاد أيضا فحت الخليج الذى كان يصل الإسكندرية بنهر النيل وقد تهدم بسبب اختلال الأحوال وأقام الجسور والسدود فراجت الحال وانفتح باب الرزق فى أوجه الناس ولم يبق احد بغير عمل وتوفرت أسباب المعايش فلم يشك أحد من الجوع أو ألم الفقر إلا من كان الكسل طبعه ولكن لم يرض هذا بعض المماليك والأمراء الذين ألفوا السلب والنهب وإثارة الفتن والقتال فأشغلهم السلطان عن التمكن من مقاصدهم بأن أرسل الكثير منهم إلى الأقطار السودانية وبلاد النوبة لغزوها وتأييد سلطة المملكة المصرية عليها وبذا تمكن السلطان الناصر من تنفيذ أغراضه وبقى بغير منازعة أو مقاوم باقى أيام حياته.[٤٢]

٨ـ الملك المنصور سنة ١٣٨١ م:

ولما مات السلطان الناصر تولى المملكة بعده ولده الأكبر ولكن لم تمض أربعون يوماً حتى عاد أشرار المماليك وأمرائهم من الأقطار السودانية وعزلوه ونفوه واهتكوا أعراض نساء أبيه ونهبوا كل ماله. وكان للناصر ثمانية أولاد فصاروا يتولون المملكة واحداً بعد الآخر ولم يكن لهم فيها غير الاسم فقط فوقعت البلاد فى الفوضى بسبب قتال المماليك مع بعضهم ومحاولة كل فريق منهم الاستيلاء على البلاد والاستقلال بها أما أعمال الحكومة ودواوينها فكانت فى قبضة يد الموظفين المصريين من النصارى الذين أسلموا والباقين على دينهم فقاموا بها أحسن قيام ولذا راجت حال النصارى وتمتعوا بما لهم من الحقوق الوطنية بمساواتهم بالمسلمين فعادوا إلى التظاهر والتجمل باللباس والتأنق فى المأكل وركوب جياد الخيل واتخاذ الخدم وشراء العبيد والجوارى.[٤٣]

وانتشرت فى أيامه ثورات ضد الأقباط رغم منع الحكومة اضطهادهم فقد حدث أن قبطياً يدعى ميخائيل أعلن إسلامه فتهلل به المسلمون وألبسوه حلة فاخرة وأركبوه بغلا للسلطان وطافوا به المدينة بموكب عظيم ورقوه إلى مركز سام فى الحكومة وبعد ارتداده بثلاث سنوات لُقب بالجاحد شعبان وفى نهاية حكم الملك المنصور اختل النظام وفشل حال الرعية.

حقيقة ينبغى أن تقال:

ومن مظاهر وطنيه الأقباط فى القدس وفى كنيسة القيامة بالذات جعلوا أن يقوم على حراسة أبواب كنيسة القيامة عائلتان إسلاميتان هما عائله آل جوده وعائلة آل نسيبه وقد اتفق أن آل جوده هم الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة وان آل نسيبة هم الذين يفتحون الكنيسة فى مواعيدها المقررة ومتى فتح هؤلاء الباب أعادوا المفاتيح إلى أولئك وهكذا دواليك.

" الفصل الثانى "

قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها فى عصر المماليك البحرية

ما أغنى الكنيسة القبطية بقديسيها وعلمائها فى كل الأجيال حتى أنه من المستحيل أن يحصـــى الإنسان كل القديسين فى عصر المماليك البحرية وهى فترة تمتد نحو ١٣٠ سنة لكن نقدم هنا بعض النماذج:

أولا: الآباء البطاركة فى عصر المماليك البحرية (١٢٥٠ م - ١٣٨٢م)

عاصر حكم المماليك البحرية الذى استمر حكمهم ما يقرب من (١٣٢) عاماً ١١ من الآباء البطاركة ابتداء من البابا أثناسيوس الثالث (الـــ ٧٦) إلى البابا غبريال الرابع (البطريـــرك الـــ ٨٦) وسوف نتكلم قليلاً عن هؤلاء البطاركة وعن الأحداث الجسام التـــى حـــدثت فى عهدهم والتى أثرت فى الكنيسة والشعب القبطى ومشاهير وقديسى الكنيسة وعلمائها وأساقفتها وأراخنتها الذين عاصروهم فى هذه الفترة.

١ـ البابا أثناسيوس الثالث (الـــ ٧٦) (١٢٥٠ م - ١٢٢٨ م)

كان شماسا وسيم قسا باسم بولس ولقب بـــ " ولد القس مكارم بن كليل " وكان مركز رئاسته بكنيسة المعلقة.وعاصر كثير من الولاة منهم شجرة الدر والملك المعز وموسى الأشرف والمنصور والمظفر والملك الظاهر بيبرس.

ويُذكر أنه عندما جلس البابا أثناسيوس على الكرسى بذل كل ما فى وسعه لإصلاح ما أفسده سلفه (البابا كيرلس الثالث الشهير بن لقلق) فضغط على الأساقفة الذين ارتقوا لتلك الوظيفة الكهنوتية بواسطة المال (السيمونية) وهو الأسلوب الذى تميز به البابا كيـــرلس بـــن لقلـــق. فعاملهم بقسوة عظيمة فمن الأقباط من استصوب تلك الصرامة ومـــنهم مـــن اســـتهجنها فكانـــت سبباً فى أن ترك كثير من الأساقفة الأقباط الإيمان الأرثوذكسى وفى أيام هذا البطريرك حدثت عدة حوادث نذكر منها حادثة شرف الدين أبـــو القاسم هبه بن صاعد . التى ذكرت فى عهد الأمير عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك وكان عهده كارثة على الأقباط .

وتنـــيح هذا الأب فى اليوم الأول من شهر كيهك المبارك سنة ٩٧٨ ش الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ١٢٦١ م ودفن فى كنيسة القديس مرقوريوس أبو سيفين.[٤٤]

٢ــ البابا يؤانس السابع(البطريرك الــ ٧٨) (١٢٦٢ م – ١٢٦٨م) (١٢٧١ م –١٢٩٣م)

كــان راهبا باسم يوحنا وبعدما سيم بطريركاً كان يُدعى ابن أبى سعيد السكرى . وقد عاصــر كثيــر مــن الملوك والولاة منهم الملك الظاهر ونصر الدين والملك العادل والسـلطان قـلاوون والأشـرف خليل والملك الناصر وذلك لأنه ظل على الكرسى البطريركــى مـا يقــرب من ٢٩ عاماً ونظراً لطول المدة التى قضاها على الكرسى البطريركى جرت على النصارى فى أيامه شدائد كثيرة يطول شرحها وقاسى الأساقفة من الضيق والظلم والاستبداد ما لا يمكن حصره.

ومن أشهر الحوادث فى عصره:

١) حادثة الراهب الحبيس التى كانت فى أيامه وفى عهد الظاهر بيبرس

٢) حادثة انتشار التكايا التى كانت أيام الملك المنصور قلاوون ٦٨٢ هــ

٣) حادثة عين الغزال والسمسار التى كانت أيام الملك الأشرف وذكرت من قبل

٤) ويذكــر أن فــى أيامــه سنة (٦٧٨ هــ) وفى عهد الملك المنصور قلاوون أنه بمجرد ما استقل بالملك واستلم زمام الحكم، كان أول ما فعله هو أنه أصدر أمرا بطرد جميع الكتاب النصارى من ديوان الجيش واستخدم بدلا منهم من المسلمين.[٤٥]

وفى نفس اليوم الذى قامت السلطة بتنفيذ هذا القرار هُدم دير الخندق (دير أو أرض الأنبا رويس بالعباسية) ولم يترك فيه حجر على حجر واشترك جمع غفير فى أعمال التخريب وكانت هذه الحادثة تقريباً سنة ١٢٨٠ م .[٤٦]

وتنــيح البابا يؤانس فى ٢٦ برمودة سنة ١٠٠٩ ش الموافق ٢١ أبريل سنة ١٢٩٣ م ودفن فى دير النسطور بالبساتين فى أيام السلطان الملك الناصر.[٤٧]

٣ــ البابا ثيئودوسيوس الثانى(البطريرك الــ ٧٩)(١٢٩٠م – ١٣٠٠م)

تخــرج من دير أبو فانه وكان يُدعى قبل البطريركية بأبن زويل الإفرنجية نظراً لان ارتقــاءه علــى الكرسى البطريركى كان يخالف الناموس والشريعة حيث أنه فُرض عليه فرضاً، ولأنه كان محباً للرشوة. وقد أظهر الله غضبه فحدث فى أيامه فناء عظيم فــى البلاد وغلاء فاحش وانتشر مرض الطاعون بسبب قلة المياه واضطر الناس إلى أكل الميتة.[٤٨]

ويذكــر الــتاريخ قــائلاً أنــه حدث فى أيام هذا البطريرك (قبل نهاية القرن السابع الهجرى) مصائب عظيمة وويلات كثيرة بسبب انقسام المماليك إلى أحزاب فكان القبط أعظــم ضــحية لهذه المصائب والبلايا واضطهاد الحكام لهم وإلزامهم فى هذه الأيام

الصعبة بدفع غرامات طائلة وزيادة الجزية فمات خلق كثير وأسلم الكثير منهم بعضهم أملاً فى التخلص من المظالم والبعض الآخر طمعاً فى التقدم فى الدواوين والمناصب العليا رغماً عما كانوا يشاهدونه من الغدر بالمتقدمين فى الحكومة ونهب أموالهم وقتلهم والاستيلاء على جميع ممتلكاتهم ومقتنياتهم ولكن الإنسان ميال بطبعه إلى حب التقدم والطمع فى الارتقاء إلى المناصب وقل من يعتبر بغيره.[٤٩]

وقد عاصر هذا البطريرك الملك العادل والملك الناصر محمد بن قلاوون والذى تنيح فى أيامه فى أول يناير سنة ١٣٠٠ م ودُفن فى دير النسطور بالبساتين .

٤ـ البابا يؤانس الثامن (البطريرك الـ ٨٠)

كان راهباً بدير شهران (الأنبا برسوم العريان حالياً) وكان رئيساً له ويُدعى يوحنا بن إبسال وعندما اختير للبطريركية كان يُلقب بابن القديس والمؤتمن . وقد سيم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كان عهده عهد شؤم وكارثة كبرى على الأقباط كما حدث فى أيام رئاسة هذا البابا إضطهادات شديدة على الأقباط حتى ضجروا مما فُرض عليهم من العوايد العديدة وسوء المعاملة وشدة الاضطهاد بزعامة أحد وزراء المغرب الذى أتى إلى مصر بقصد إتمام فريضة الحج فلم يرق له أن القبط يتولون أمور البلاد المالية فحرض الأمراء على إذلال المسيحيين فى البلاد بكافة الوسائل المؤدية إلى اضطهادهم بطرق تأباها الإنسانية.

ومن أشهر ما حدث فى أيامه ما يأتى : -

١) حادثة وزير ملك المغرب التى ذكرت سابقاً .ص ٢٥٣
٢) حادثة إلغاء عيد الشهيد التى ذُكرت سابقاً .ص ٢٥٥
٣) كما ذكر الرواة المسلمون أن كنائس القاهرة أغلقت عدة أيام ويقول أبو الفضائل أن هذه الكنائس ظلت مغلقة لمدة قصيرة وأن الأديرة الموجودة فى الضواحى وغيرها لم تمس بسوء فضلاً عن كنائس الأقاليم ولكن إذا انتقلنا إلى الإسكندرية وجدنا أنه حين وصلت الأوامر إليها بدأت فى هدم الكنائس ومنازل النصارى.[٥٠]

وقضى البابا يؤنس على الكرسى الرسولى ما يقرب من ٢٠ سنه كانت كلها مليئة بالأحزان وشديدة الوطأة عليه وعلى أبنائه المسيحيين حتى أراحه الله من متاعب هذه الحياة ومشقات الاضطهاد وانتقل فى ٢٩ مايو سنة ١٣٢٠ م ودُفن بدير شهران فى أيام الملك محمد بن قلاوون.[٥١]

٥ـ البابا يؤنس التاسع(البطريرك الـ ٨١)

كـان يُدعـى الـراهب يؤنس النقادى وقّدم بطريركاً باسم البابا يؤنس التاسع فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٣٢٠ م . وفى أول عهد رئاسة البابا يؤنس التاسع جرت على النصارى شـدائد كثيرة فقتل منهم من قتل وحُرق من حُرق وأسلم منهم الكثير وأشهروهم على الجمال وألبسوهم العمائم الزرقاء وهدموا الكنائس ونهبوها .[٥٢]
وقـد أجمع المقريزى هذه الحوادث فى جملة واحدة حيث قال فى يوم الجمعة ١٩ من ربـيع الآخـر سنة ٧٢١ هـ هُدت كنائس مصر فى ساعة واحدة كما ذُكر فى أخبار كنيسـة الزهـرى.[٥٣] وقـد أتى بتفاصيل هذه الحوادث كما ذكرنا من قبل حيث ذُكر الهجـوم علـى الكنائس فى الوجهين البحرى والقبلى وحريق مصر والقاهرة وبراءة أقـباط مصر من جريمة الحرق وآثار الحريق والخراب والرماد فى القاهرة ومصر وذُكرت تفاصيلها سابقاً . كما ذُكر انه وقع أخيراً الحريق فى بيت الماسى الحاجب من القلعة وكانت الريح شديدة فقويت النار وصارت إلى بيت الأمير ايدغمش فانزعج أهل القلعـة وأهـل القاهرة وحسبوا أن القلعة جميعها قد أحرقت ولم يُسمع بأشنع من هذه الحرائق ولم تكن هذه الحرائق بفعل فاعل بل أراد الله أن ينذر الباغى على ما ارتكبته يداه من الظلم بالقبط الأبرياء.[٥٤]
وأخيـراً بعـد أن ذاق البابا يؤنس من هذه الشدائد والكروب تنيح فى ٢٩ مارس سنة ١٣٢٧ م ودُفن فى دير النسطور فى أيام السلطان محمد بن قلاوون.[٥٥]

٦ـ البابا بنيامين الثانى(البطريرك الـ ٨٢)(١٣٢٧ م - ١٣٣٩ م):

كـان راهباً بدير جبل طرا وكان يُدعى الراهب بنيامين المصور وسيم بطريركاً فى ١٠ مايو سنة ١٣٢٧ م باسم البابا بنيامين الثانى.

اضطهاد النصارى فى عهده:

فـى أيـام هذا البابا أقيم والى يُدعى شرف الدين النشئ بن تاج وكان رجلاً سيئاً أثار الاضـطهاد الجـبار على المسيحيين وتعذب على يديه الأساقفة والرهبان والراهبات ورجـال الاكليـروس والأراخـنة فقاسـوا على يديه العذابات الشديدة وذاقوا مرارة الاضطهاد الشنيع، كما هُدمت كنيسة الست بربارة عن آخرها وذكرت تفاصيلها سابقاً ولكن الله عز وجل لم يترك شعبه فنال هذا الوالى أشر مما فعله بالمسيحيين حتى مات وخلصت الأمة من سوء تصرفاته ورداءة أعماله ببركة صلوات البابا بنيامين الرجل القديس وحل انتقام رب العدالة على جميع فاعلى الإثم الذين كانت لهم اليد الطولى فى هذه الأعمال الشريرة، وفى أيامه تدخل ملك الحبشة لرفع اضطهاد القبط.[٥٦]

وهكـذا قضـى هذا البطريرك كل أيامه فى جهاد واضطهاد وتخريب فى أيام الملك محمد بن قلاوون وبعد جهاد عظيم وتوالى المصائب على شعبه تنيح فى ٦ يناير سنة ١٩٣٩ م ودُفن فى دير شهران.[٥٧]

٧ـ البابا بطرس الخامس (البطريرك الـ ٨٣) (١٣٤٠ م - ١٣٤٨)

كـان راهبـاً بديـر أبو مقار ويدعى بطرس بن داود واختير بطريركاً باسم بطرس الخامس فى يناير سنة ١٣٤٠ م فى أيام الملك الناصر بن قلاوون.[٥٨] وفى أيامه حدث إثـارة اضـطهاد القبط فى الريف وحادثة الرجل الذى أجبر على دخول الإسلام التى ذُكرت تفاصيلها من قبل.

وفـى أيامه حدث اضطهاد للنصارى فى القاهرة إذ لم يكد البابا بطرس الخامس يعود مـن رحلته إلى الأديرة حتى اندلعت نيران الاضطهاد على شعبه الوديع الهادئ فابتدأ المسلمون بعد ذلك فى التسلط على القبط فهدموا مساكنهم الكائنة أمام مساكن المسلمين وصـاروا يتعقـبونهم فـى الطـرقات ويتعرضون لهم فى الشوارع ويمزقون ثيابهم ويضربونهم بكل قسوة ويلقون عليهم النار المشتعلة حتى اضطر القبط أن يختبئوا عن الأنظار وأصبحوا فى حال يُرثى لها وظلوا ملازمين منازلهم فترة طويلة من الزمان حتى كان يخيل للرائى أنهم قد انقرضوا.

آخر أيام البابا بطرس الخامس:

بعـد كل المصائب التى حلت بالشعب المسيحى اسلم روحه الطاهرة فى ٨ يوليو سنة ١٣٤٨ م ودُفن بكرامة فى دير الحبش.

عاصر البابا بطرس كل من الناصر بن قلاوون - وأبو بكر المنصور - وعلاء الدين الأشـرف واحمـد الناصر - وإسماعيل الصالح وشعبان الكامل - ابن نصر المظفر والسلطان حسنى.[٥٩]

٨ـ البابا مرقس الرابع (البطريرك الـ ٨٤) (١٣٤٨ م - ١٣٦٣ م)

بعد نياحة البابا بطرس الخامس تم اختيار الراهب غبريال من دير شهران وكان ذلك فى ٥ سبتمبر سنة ١٣٤٨ م ولقب بالقليوبى.

وأهم الأحداث فى عهده كالآتى:-

(١) ظهور وباء الطاعون فى مصر وكان وباءً عظيماً مُهلكاً انتشر حتى عم البلاد بلا رحمة وفى مدة الوباء الذى حل بالبلاد أتى رجل قبطى من الريف إلى القاهرة يطوف الشوارع منذراً الناس بالويل أن لم يقلعوا عن شرورهم فقبض عليه وأحضروه أمام قاض الإسلام وصرخ القبطى أمامه بلا خوف أنه أتى ليقنع المسلمين بخطيئتهم فى ترك الديانة المسيحية وأظهر استعداده للاستشهاد فقضى عليه بالعذاب مدة أسبوع وبعد ذلك قُطعت رأسه وأحرقت جثته.

(٢) وفى أيامه صودرت أملاك الكنيسة والأديرة القبطية وقد ذكر تفاصيلها سابقاً وكانت تبلغ ٢٥ ألف فدان كلها موقوفة للكنائس والأديرة. قرر أمراء المماليك أن تُوزع وينعم بهذه الأملاك على الأمراء زيادة فى إقطاعياتهم.[٦٠]

(٣) وفى أيامه هُدمت كنيسة الشهيد بشبرا الخيمة وأخذ الصندوق الذى به ذخائر (إصبع) القديس وأحرق وذرّى رماده فى البحر وذكرت تفاصيلها سابقا.

(٤) وفى أيامه حسد المسلمون النصارى على تقدم مركزهم فى الدولة وانتقام الشهيد من الملك الصالح إذ كان من المرشحين للوزارة وزيران قبطيان مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها وانضم لكل منهما أحزاب فأنتهى الخصام بخلع الملك الصالح وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من أخيه الملك الناصر حسن بالاتفاق مع الأمير تاج الدين وكان الناصر مسجوناً ففاز بجدارة وخلع أخاه فأخرج من السجن وبُويع (وهكذا انتقم الشهيد سريعاً من الملك الصالح بسبب هدم بيعته وحرق إصبعه سريعاً وقيامه باضطهاد النصارى وإذلالهم) وهذا الملك ذُكرت حوادث مفصلة عن عهده الذى كان كارثة كبرى على الأقباط.

(٥) وفى أيام هذا البطريرك حدث فناء عظيم فى القرى أتى على خراب معظم قرى الديار المصرية.

انتقال البابا من هذا العالم:

وبعد جهاد عظيم وصبر على الشدة التى حدثت أيام البابا مرقس الرابع فكانت نياحته فى يوم ٣١ يناير سنة ١٣٦٣ م فى أيام السلطان محمد المنصور ودفن بدير شهران وعاصر كل من السلطان حسن والصالح حسن بن ناصر والناصر ومحمد المنصور.[٦١]

٩ــ البابا يؤانس العاشر (البطريرك الــ ٨٥) (١٣٦٣ م - ١٣٦٩ م)

كان راهباً من دمشق (الشام) ويدعى يوحنا وسيم بطريركاً فى ٧ مايو سنة ١٣٦٣ م فى أيام السلطان شعبان ولُقب باسم المؤتمن الشامى.

فــى الســنة الثانية من تولى هذا البابا على الكرسى المرقسى أصيبت مصر وسوريا بقحط شديد ضيق على الناس حتى أكلوا الكلاب والقطط وأكل البعض منهم أولاده من شدة الجوع، واستمر الحال كذلك فى بعض الأماكن حتى ثلاث سنوات.

وقــد عاصر هذا البطريرك كل من السلطان شعبان وحسن الأشرف وتنيح فى عصر الســلطان علــى بــن شعبان المنصور فى ١٣ يوليو سنة ١٣٦٩ م ودُفن فى مقبرة الحبش.

١٠ــ البابا غبريال الرابع (البطريرك الــ ٨٦)(١٣٧٠ م - ١٣٧٨ م)

كان راهباً بدير المحرق ويُدعى الراهب غبريال واختير للبطريركية فى ٦ يناير سنة ١٣٧٠ م فى أيام السلطان شعبان بن حسن.

وقــد حدث فى عهده أن أصيبت البلاد بحروب أهلية كانت أشد وطأة من الجوع كما حــدث فى أيامه حريق هائل فى القاهرة احترق بسببه نحو خمسمائة دار ولولا سور القاهرة لاحترق نصفها.

نياحتــــــه:

ولمــا أكمــل سعيه أراد الله الذى لا ينس تعب المحبة أن يريحه من أتعاب هذا العالم الفانــى فــنقله إليه فى ٢٨ ابريل سنة ١٣٧٨ م فى أيام سلطة الملك على بن شعبان المنصور ودفن فى مقبرة الحبش.

ثانيا:الآباء الأساقفة والأراخنة فى عصر المماليك البحرية

١ ـ الأنبا بطرس الجميل أسقف مليج:

كان الأنبا بطرس الجميل أسقف مليج من كبار كتبة وأمراء الكنيسة القبطية فى الجيل الرابع عشر للميلاد فى بابوية البابا بطرس الخامس وقد ذكر ابن كبر أنه جمع كتاب السنكسار غير أن النسخ التى عُثر عليها تدل على إن جامعة هو أنبا ميخائيل أسقف أتريب ومليج ولكن ربما يكون قد تمم السير التى نقصت منه خاصة بالشهداء القديسين المتنيحين فى الجيلين الثالث عشر والرابع عشر وجمعها فى سنكسار واحد فنسب إليه.

من مؤلفات الأنبا بطرس:

كتاب البيان: فى خمسة فصول يرد فيه على جمال الدين بن محمد المصرى إثباتاً لدين النصرانية. وكتاب فى بدع الطوائف يدافع فيه عن معتقدات القبط الأرثوذكسيين. وكتاب الإشراق الذى رد فيه على الأرمن ، وقد أشترك مع البابا بطرس الخامس فى تأدية شعائر الميرون.[٦٢]

٢ ـ شمس الرئاسة أبو البركات:

كان الشيخ المؤتمن شمس الرئاسة ابن الشيخ الأكمل قساً لكنيسة المعلقة وكان عالماً فاضلاً ولاهوتياً ضليعاً ومؤرخاً كنسياً من المتضلعين فى التاريخ الكنسى والطقوس وغيرها من العلوم الدينية وكان كاتباً للسلطان البندقدارى وعاش فى أيام الملك المظفر.

لم تقتصر خدمته الكهنوتية على ما أداه من خدمات روحية لأولاده الذين عاشوا تحت رعايته بل امتدت لتشمل الأجيال الآتية من بعده – فقد وضع عدداً غير قليل من الكتب التى مازالت تعتبر مراجع أساسية للباحثين، وأول ما كتب هو كتاب الميرون وصف فيه المواد التى يتألف منها وكيفية طبخة بدقة متناهية.

وقد قام المؤرخ العلامة واللاهوتى الكبير بتأليف أكبر موسوعة لاهوتية للكنيسة وهى معروفة باسمه " كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة " ويتضمن هذا

السفر العظيم جملة قوانين البيعة والمجامع وأخبار الرسل والتلاميذ وقواعد دينية وطقسية وتاريخية وأدبية وتعد من أهم وأكبر الموسوعات الدينية.

كما ألف أيضا خطباً تتلى فى الكنائس والأعياد والمواسم.

كما وضع كتاب " جلاء العقول فى علم الأصول الملقب بكهف الأسرار الخفية فى أسباب المسيحية. ويتضمن هذا الكتاب ثمانية عشر فصلاً فى وحدانية الله وتثليث أقانيمه وتجسد ابنه الإلهى.

وله كتاب " البيان الأظهر فى الرد على من يقول بالقضاء والقدر ". وهى رسالة تبين لنا استمرار الاهتمام بموضوع الحرية الإنسانية مقابل من ينادون بالقضاء والقدر وقد استهدف الآباء فى كتاباتهم فى هذا الموضوع على توضيح المسئولية الملقاة على الإنسان عما يعمل فهو بلا عذر فى اقتراف الشر ولا يستطيع تبرير أخطائه بحجة أنها " قسمه ونصيب ".

وكتاب الرد على المسلمين واليهود.

على أن ابن كبر لم يكتف بالكتابة فى الموضوعات الروحية والأدبية فقط بل وجه اهتمامه إلى اللغة القبطية فقد كان عالماً فى اللغة القبطية وله فيها معجماً معروف باسم " السلم الكبير ".[٦٣]

وقد إشتغل هذا الرجل كاتباً للملك حتى وهو بعد أمير واخلص له وقد عاونه على تأليف كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً مع انه معروف فى أوروبا وهو كتاب " زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ".

ويظن بعض الناس أنه كان طبيباً أيضا لما بدأ فى كتاباته من دقة عن العقاقير والعطور على أن هذا الرجل وخدماته للعالم تتضاءل أمام خدماته الروحية إذ لم يلبس أن ترك الخدمة فى ديوان الملك لينال كرامة الكهنوت ويصبح كاهنا لكنيسة العذراء الشهيرة (بالمعلقة) باسم القس بن كبر.

كذلك وضع ابن كبر قائمة بأسماء المدن والقرى المصرية كما وضع فهرس خاص لجميع الكلمات العبرية التى اقتبسها القبط من أسفار العهد القديم.

وابن كبر كان رجلاً متّضعاً عرف كيف يسلك بجرأة فى عصر طغت عليه ظلومات الأحقاد والقسوة وظلمات القلوب جبناً وتخاذلاً فهو بطل انضم فى سلسلة الآباء الذين استعذبوا الجهاد.

٣ ــ الشهيد بسطوروس:

عاش فى أيام البابا بنيامين الثانى (الـ ٨٢) الذى كان فى أيام السلطان قلاوون وقد كان من بين المعروفين من شهداء هذا العصر وقد حدث أن جحدت أمه الإيمان

المســيحى ولكن بسطوروس ظل مع أبيه على ولائهم للسيد المسيح وبعد سنين طويلة قــام رجــل قاس واشتكى بسطوروس إلى الوالى بحجة أن من كان أحد والديه مسلماً يجب أن يكون هو أيضا مسلماً فاستدعاه الوالى وحاول استمالته إلى إنكار الإيمان فلم يفلح فأمر بتكبيله وإلقائه فى السجن بينما هو مسجون جاءت حمامه بيضاء وقفت على رأســه وســمع حارس السجن بالأمر فأبلغ الوالى بما حدث وعندما أستحضره الوالى أمامــه وهدده بالحرق أن أستمر على التمسك بإيمانه قال له بسطوروس افعل بى ما شــئت ســلطانك على جسدى فقط فأخذه إلى ساحة عامة حيث سمحوا لمن يشاء أن يضربه ويشتمه فتحمل كل ما أذيق من عذاب بصبر وهدوء وفى النهاية قطعوا رأسه بالســيف وهكذا نال الشهادة وقد شاء الله تعالى أن يكرم شهيده فجرت آيات وعجائب عن طريق جسده الذى ذاق أشكال العذاب.

٤ ـ الأنبا برسوم العريان: (١٢٥٧ م - ١٣١٧ م)

كــان أبــوه يدعى الوجيه (مفضل) ويعمل كاتباً متقدماً على صفوف المسئولين فى الديــوان أيــام شــجرة الــدر وهــى المــرأة الأولى التى حكمت مصر منذ ظهور الإسلام.وكلمة (برسوما) كلمة سريانية الأصل تترجم بابن الصوم.

والقديس العظيم الأنبا برسوم العريان علامة واضحة لطالبى الملكوت ونموذج حــى للذين يحبون حياة الجهاد الروحى والقديس لم يكن كاهناً راهباً ولا شماساً ولكنه كــان مــثالاً رائعــا لحياة الجهاد والسعى إلى خلاص النفس عاش فترة فى المغارة الموجــودة بجــوار ديــر القديس أبى سيفين وهناك أستطاع بقوة الصليب أن يُخضع الثعبان المفترس له ويصير أليفا يستأنس بالقديس ويعيش معه.

القديس وإضطهادات البيعة:

بعد أن قطع الأنبا برسوم العريان فى النسك والعبادة شوطا كبيرا وكانت الكنيسة تنعم بمزيد من العدالة والحرية، فحسدها الشيطان، بأن وسوس فى قلوب الولاة المتسلطين ليعملوا على تكدير صفوها ويلهبوا ظهور أبنائها بالسياط، فتنكر المسئولون لمواطنيهم وحرموهم من حقوقهم الوطنية وفرضوا عليهم الغرامات المالية الباهظة ولم يقفوا عند هــذا الحد بل تجاوزوه إلى الزى والملابس فألزموا النصارى بلبس الزنانير والعمائم الســوداء كما منعوهم من ركوب الخيل واستعمال السرج ، وضايقوهم بشتى الطرق والوسائل فلما وقف الأنبا برسوم على هذه المساوئ ، خرج من عزلته وطاف يشجع المسيحيين ويقوى عزائمهم ويعزيهم بكلمات الرب يسوع القائل " فى العالم سيكون لكم ضــيق " ، ويناشــدهم ألا يستســلموا للحزن والكآبة ، فلما وقف الحاكم على نشاطه

التبشـــيرى ، قبض عيه وأوسعه ضرباً ولكماً ثم أودعه فى أعماق السجن ، فقبل ذلك بفرح وبشاشه وأخذ يقوم بين المعتقلين برسالة روحية قوية ، وعندما أفرج عنه انتقل من كنيسة القديس مرقوريوس إلى دير شهران (دير الأنبا برسوم العريان حالياً)

معاصـــــروه:

شجرة الدر والأمير عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك، كما عاصر الظاهر بيبرس البـــندقدارى وابنه بركة خان، بالإضافة إلى الملك المنصور قلاوون والملك الأشرف خليل، ونظراً لطول المدة التى عاشها، فقد امتد عمره إلى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون.كما عاصر كثير من البطاركة منهم البابا غبريال الثالث (البطريرك الـــ ٧٧) والـــبابا يـــؤانس السابع(البطريرك الـــ ٧٨) والبابا ثيئوديسيوس الثانى والبابا يؤانس الثامن.

من أشهر معجزاته:
شفاء الشيخ زين الدين مخلوف المالكى: -

أصـــيب الشـــيخ زين الدين أحد قضاه مصر المشهورين آنذاك بألم فى رجليه لازمه الفـــراش تسعة شهور، وذات ليلة رأى فى منامه رجلاً يرتدى ثوب بالياً من الصوف يســـأله عن علته فقال إننى أشكو من ضعف ساقى وقد عجز الأطباء عن علاجى ثم ســـأل الشـــيخ محدثه فقال له أسمى برسوم الملقب بالعريان فأجابه الشيخ أرجوك أن تطلـــب من الله أن يتحنن على ويمنحنى الشفاء ولكنه لم يتلقى جواباً لان الرجل غاب عن الإبصار.

ولمـــا أستيقظ الشيخ القاضى من نومه طلب أبنه الذى يعمل أيضا بالقضاء وأمره أن يمضـــى إلـــى دير شهران ويحمل معه هدية من الكمثرى ويقدمها إلى القديس برسوم العريان ويخبره بكل أحواله ويطلب منه الدعاء بالشفاء بنعمة المسيح الشافى الذى أقام لعـــازر مـــن الأموات بعد أربعة أيام فذهب الابن وصنع كما أوصاه والده إلى الأنبا برســـوم العـــريان الـــذى أخذ حبه من الكمثرى وبارك عليها وأعطاها للقاضى الذى أوصـــاه قـــائلاً خذ هذه أعطها لوالدك ليأكلها وسينال الشفاء.فصار القاضى إلى والده وأخبـــره بما حدث وأعطاه حبة الكمثرى .وتناولها ليأكلها وقبل أن ينهمها وقف على رجلـــيه معافـــى تمام الشفاء فما كان منه إلا أنه خرج قائلاً بركاتك يا شيخ النصارى بركاتك يا سيدى برسوم العريان.

القديس يزرع البركة:

كـــان يـــوجد فى تلك الأيام أمير يدعى شمس الدين وكان يتردد على القديس برسوم العريان لسماع كلماته ومشاهدة عجائبه وذات يوم نظر إليه القديس برسوم وقـــــال له " هـــل زرعتم قثاء ""التوم" أجاب الأمير وكيف وأنا لست فلاحاً ؟ " قال القديس " إن إخـــوتك زرعـــوا الأرض وتركوا قطعة أرض بدون زراعة فأنا مستعد أن أزرعها فـــذهب الأميـــر إلـــى أخوته فوجدهم زرعوا الأرض وتركوا جزء بدون زراعة حقاً فأخبرهم بما قاله القديس فوافقوا ثم عاد إلى القديس وطلب منه زراعة هذا الجزء الذى لم يُزرع فذهب معه القديس ووضع البذور على اسم الإنجيليين الأطهار ثم قال للأمير أنـــا زرعت الأرض ولن يحدث فى المستقبل ما يضر هذه القطعة، فحفظ الأمير هذا الكـــلام ولـــم يفهم معناه ولكن بعد قليل هجمت الفئران على الأرض المجاورة وكانت الفئـــران تشـــتغل فـــى الأرض المجاورة وكل هذا لم يقترب إلى القطعة التى زرعها القـــديس بل أتت بثمر لم يسبق له مثيل من زراعة القثاء وكان القديس يقول " نزرع بالبركة لكى نحصد بالبركة " (٢ كو ٩: ٦)

ملاحظـــــه:

كـــان الأنبا برسوم العريان من ضمن من قُبض عليهم من النصارى نتيجة الفتنه التى أثارهـــا بين الرعاع مغربى كان مارا بمصر فى طريقه إلى الحج وقد ذكر عن الأنبا برسوم العريان عندما كان داخل السجن أنه أخذ يتضرع إلى الله لكى يرفع عن شعبه مـــا حـــل بـــه من غلاء فاستجاب الأب السماوى إذ صدر الأمر بالإفراج عنه وعن المسجونين من القبط كما صدر أمر بالكف عن مضايقة القبط وتأمينهم على أعمالهم

٥ ــ القديس مرقس الأنطونى:

مـــن أشـــهر الرجال القديسين فى أيام البابا القديس متاؤس الأول البطريرك(الـــ ٨٧) وهو من أشهر القديسين فى عصر المماليك.

ميلاده ونشأته:

ولـــد هذا القديس فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى فى منشأة النصارى فى صعيد مصر من أب اسمه مخلوف وأم مباركه اسمها أوذكسيه.

لمحه من فضائله:

كان ناسكا منذ صغره صديقا للملائكة والشهداء والقديسين وارتوى بالفضائل المسيحية منذ صغره من أمه البارة وأحب السكون والصمت والصوم والسهر منذ نعومة أظافره ودربته أمه كيف يكون شريكاً للقوات السمائية فى الصلاة والتسبيح شهيداً بدون سفك دم، فأحـب حـياة البتولـية فى زمن مبكر من عمره وأصبح الأنبا مرقس الانطونى سـراجاً سـاطعاً فـوق مـنارة يشع فى جبل مظلم ملئ بالشر والفساد وصار حديثاً للسمائيين وهو على الأرض.

وكـان القـديس مرقس كثير البكاء والدموع محباً لقراءة أسفار العهد القديم وخاصة مراثـى أرميا.كما كان محباً للصوم متدرجاً فيه حتى أنه كان يطوى الأسبوع صائماً وكان متواضعاً محباً للجميع ولا يُحزن أحداً، كما كان أيضا محباً للصمت والسكون، مجاهداً ضد الأحلام الشريرة، مشجعاً المؤمنين على الاستشهاد، يرحم الضعفاء ويستر عيوبهم ولا يدين أحداً كما كان رحيماً حتى على الوحوش والحيوانات.

وكان القديس مرقس يعلم أولاده فى كل وقت وبكل الوسائل، ولذلك وهبه الله مواهب كثيـرة وعمـل على يديه معجزات كثيرة وحباه الله أيضا شفافية، فكان يرى أرواح القديسـين، وكان فى شركة واضحة مع القوات السمائية فى القداسات وفى الصلوات، حتى أنه أبصر أو تراءى له السيد المسيح نفسه.

حيـاته الديريــة:

فى الثالث والعشرين من عمره مضى إلى دير القديس الأنبا أنطونيوس ودبر له العلى أن يكون فى رعاية القمص روفائيل النعناعى.

معـاصروه:

عاصر كثيراً من البطاركة والحكام. ومن أشهر الحكام فى تلك الفترة:

١) الملك الناصر بن قلاوون　　٢) الملك الصالح

٣) الملك المنصور.　　٤) دولة المماليك الثانية (برقوق حاكم الديار)

كما عاصر القديس الأنبا فريج الشهير بالأنبا رويس

مواقف من حياته:

(١) عـندما كان القديس فى فترة ترهبه فى دير الأنبا بولا طلب من احد الإخوة أن يصنع له أطعمة متعددة ومتنوعة وعندما سأله الإخوة عن هذه فقال للضيوف، فتعجب الإخوة لأنه لا يوجد فى الدير ضيوف، وليس هناك وسيلة لمعرفة حضور ضيوف أو زائرين فى تلك الفترة، ولكن زال العجب عندما دق ناقوس باب الدير فى تلك الساعة أميـر عربـى يسمى ظيمون وبصحبته جمع كبير أرسله السلطان الملك الناصر إلى الديـر للـبحث عن هارب وتعجب الإخوة من علم القديس وشفافيته إذ أبصر بالروح مجئ الأمير.

(٢) هجـم الفرنجة على الإسكندرية، ونهبوا أموالهم لذا نزل بالنصارى فى مصر ضـيق عظيم بسببهم وأرسل الأمير يلبغا جنودا إلى جميع الأديرة التى تحت سلطانه يطلب الاستيلاء والحصول على أموالهم تعويضاً لما فقد مع الفرنجة فلما وصل الجنود والرسـل إلـى ديـر الأنبا أنطونيوس فقبض الأمير الذى كان معهم على القس متى (البابا متاؤس الأول) رئيس الدير فى تلك الأيام وأهانه كثيراً من أجل الحصول على المـال فتقدم إليه الأنبا مرقس متوسلاً إلى الأمير ليكف عن إيذاء الأب متى فلم يقبل شـفاعته وقـد انتهـر القديس الأمير بغضب لأنه لم يقبل أن يرحم الأب متى واندفع الأمير بحنق وأمر الجند أن تطلق الأب متى وتضرب هذا الشيخ عوضاً عنه .. فنفذوا أمـره ثـم أن الأميـر بعـد فراغه من الضرب قبض على الأنبا مرقس والقس متى وجماعة من الإخوة وسار بهم إلى مصر فقاسوا من الجوع والعطش والمشى حفاه فى البـرية وكان القديس يسأل الأمير أن يسقيهم قليلا من الماء ويكرر الطلب فلا يظفر بشـئ وبمشقة أعطى لهذا الأب قليلاً من الماء وحده دون رفقائه فامتنع الأنبا مرقس ولم يشرب أمام الأمير وانتهره قائلاً هوذا الرب إلهنا يسقينا لأنه كثير المراحم ثم رفع عينـيه نحو السماء وصلى فأمطرت فى الحال مطراً كثيراً حتى أن الأمير ومن معه وقفـوا مكـانهم ولـم تقدر خيولهم على السير لكثرة المياه وجلس الإخوة واستراحوا وشـربوا جمـيعاً وهم فرحون على الرغم من الضيق الذى عانوه وسأل أحد الإخوة القديس أن يصلى لأجلهم لكى يصلوا مصر بسلام ولكن القديس مرقس أخبر هذا الأب قائلاً أن الله لم يدعهم يدخلون مصر بل يعودون إلى ديرهم سالمين وقد تم ذلك فعندما رحلـوا إلى أطفيح جاءت رسالة للأمير بأن يترك الرهبان يعودون إلى ديرهم ويعود هو ورجاله إلى مصر فشكروا الرب ممجدين هذا القديس إذ بصلاته رحمهم الرب .

(٣) كـان الصـاحب كريم الدين بن مكانس يقاسى كثيراً فى عهد السلطان الظاهر بـرقوق ومـن شـدة الضيق الذى حل به تخفى فى زى " خولى " وهرب إلى الأب

المبارك مرقس فلما رآه الأب بهذه الحالة قال له أتعرف الصاحب الكريم بن مكانس ؟ أجـــاب الصاحب المذكور قائلاً ها أنا يا أبى القديس قد أتيت إلى هنا من كثرة الضيق الذى وضعه على السلطان حينئذ أجاب القديس قائلاً تقو يا بنى ولا تخف فإنه من الآن بصـــلوات القديســـين الذين التجأت إليهم لن يؤذيك السلطان بعد فإذهب إلى السلطان وبـــركة ومعـــونة الســـيدة العذراء أم النور ترافقك وتؤازرك وقد كان . فعندما التقى بالســـلطان قابلـــه بالتـــرحاب والمودة والعطف الشديد فتعجب الجميع لما حدث لان الســـلطان لشـــدة قســـوته عليه سابقاً كان قد قبض على إخوته وسلمهم للموت بسببه وعلقهـــم فـــى التابوت – فلم يكن يتوقع الجميع أن يظفر الصاحب بهذه المقابلة لولا صلاة القديس مرقس ولذلك تعجب الجميع ومجدوا الله فى قديسيه.

(٤) لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد (لو ١٢ : ٤)

ذكر عن تاج الدين بن كاتب طوغام أنه جاء إلى القديس مرقس الانطونى يشكو له بعد أن اخـــتلف مـــع إمرأته لأمر ما وقد سعت المرأة لدى المقدم سيف لتنتقم من زوجها فـــنهب المقدم سيف جميع أموال تاج الدين وأراد قتله فطمأنه القديس مرقس وهدأ من روعـــة قائلاً له " لا تخف ولا تضطرب فإن الله الذى رافق يعقوب أثناء هروبه من عيسو وأعاده سالماً يكون معك ويعيدك إلى بيتك آمناً سليماً وكل ما فقد منك يرده لك عشـــرة أضـــعاف فلما سمع الرجل كلام القديس تعزّى ولكنه كان قلقا ومضطربا من بطش المقدم.

ولما علم القديس مرقس بالروح حزنه واضطرابه اخذ كأساً من الفضة ولكنه مكسور وقـــال لـــه قلـــت ما من أحد يلتجئ إلى الله ويرده خاسراً فلا تخف وخذ هذا الكأس الخـــاص بالمـــذبح وأعيده سالماً صحيحاً واشكر الله على عنايته بك وحفظه لك فعند ذهابـــك إلـــى مصر سترى عمل الله وصنيعه واستجابته لطالبيه ولقد تحقق ذلك فعند نزوله إلى أرض مصر علم أن امرأته قد ماتت شر ميتة وقتل المقدم من بعض أعدائه وصـــودرت أملاكه وعاد تاج الدين بن كاتب طوغام إلى الأمير قرط وفاضت خيراته وأصـــلح الكـــأس وأعاده سليماً وقدم للدير كؤوساً كثيرة، وأكثر من تقدماته وقرابينه وعطايـــاه للفقـــراء والمحتاجين، ومساهماته فى تعمير الكنائس والأديرة وتعاون مع القديس مرقس كثيراً وباركه الله فى كل أعماله.

انتقالـــــــــــه:

تنيح القديس فى أيام البابا متاؤس (البطريرك الـ ٨٧) وفى فترة حكم المماليك بقيادة الحاكم برقوق، الذى كان يحب القديس ويستشيره فى أموره الخاصة، عن عمر يقرب من تسعين عاماً فى ١٥ يوليو سنة ١٣٦٨ م.

٦ ـ المفضل المصرى بن أبى الفضائل:

المفضل المصرى هو ابن الفضائل القبطى من كتبة القرن الرابع عشر للميلاد وقد قام بتأليف(كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بين تاريخ ابن العميد) وقد روى فيه أخبار مماليك مصر فى عهد الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ م) إلى الملك الناصر بن قلاوون (١٣٤٠ م) وقد ذكر اسم هذا الكاتب باسم الفضل بدل المفضل.[٦٤]

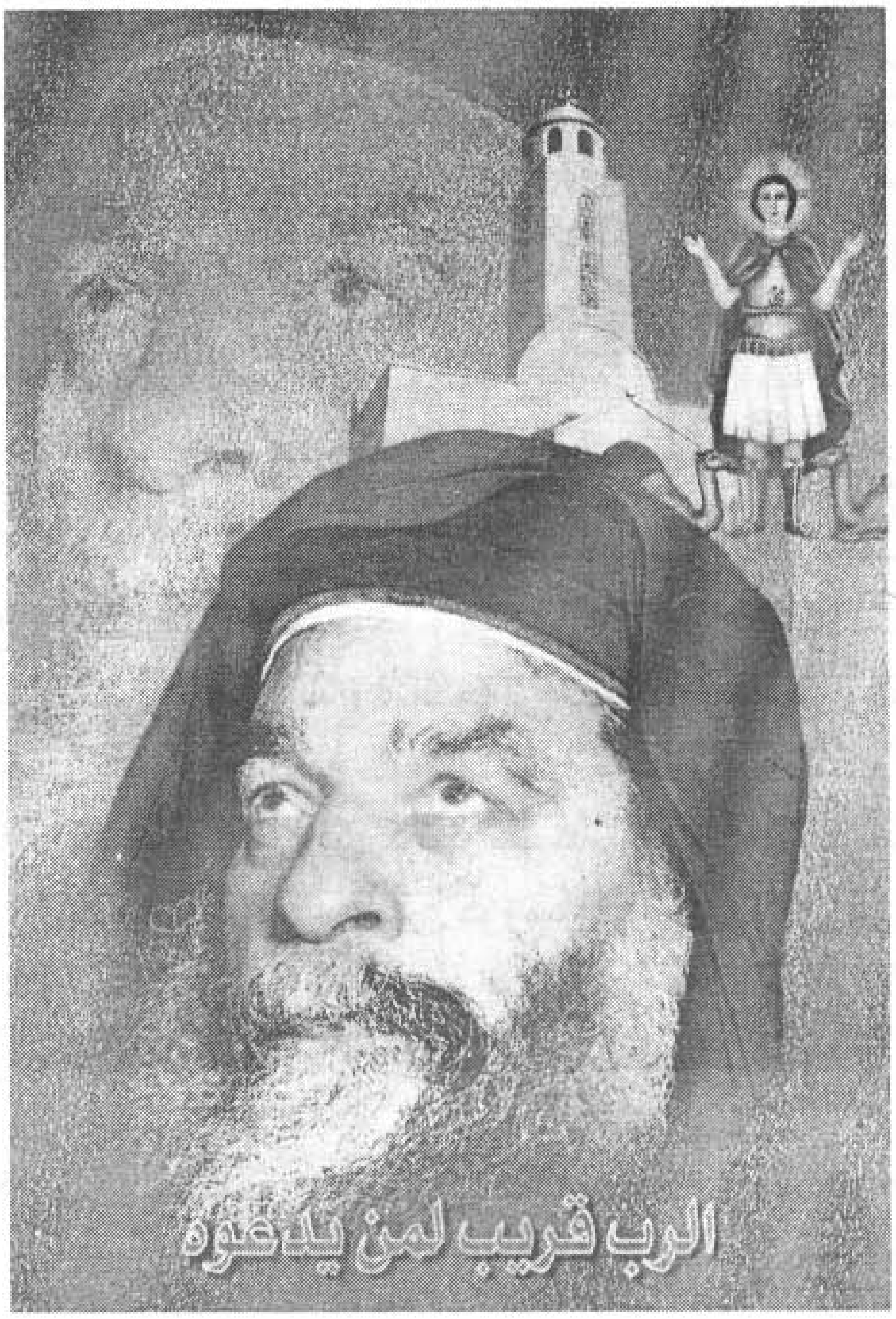

الباب الثانى عشر
عصر المماليك الشراكسة
(٧٨٣ هـ - ٩٢٣ هـ) (١٣٨٢ م - ١٥١٧ م)

" الفصل الأول "
حالة الأقباط فى عصر المماليك الشراكسة

بعـد موت السلطان الناصر حكم مصر الملك المنصور ثم السلطان برقوق وهو أخر سلاطين المماليك البحرية وأول المماليك الشراكسة وفى هذه الفترة اختل النظام وفشل حال الرعية بسبب مطامع المماليك وتمردهم فسادت الفوضى وعز الأمن واستمر هذا إلى أن أزيلت دولة المماليك البحرية وحلت محلها دولة أخرى تسمى بدولة الشراكسة التى أستمر حكمها إلى سنة ١٥١٧ م .

ولـم تكن هذه الدولة أحسن حالاً من الأولى بل كانت اشر منها فتم على يدها خراب الـبلاد وعـم الشقاء جميع الرعية ونقص عدد المصريين نقصا بيّنا بسبب هذه البلايا المتوالية والطاعون والأوبئة والغلاء والقحط المستمر.

أما عدد الأقباط فنقص كثيراً جداً بسبب مظالم الحكام والآفات الربّانية من جهة وإقبال الكثيـر منهم على الإسلام إما طوعاً أو كرهاً من جهة أخرى ولما كثر الإسلام بينهم نفر المسلمون منهم لأنهم كانوا يتزاحمون معهم فى الوظائف الإدارية العالية فأبغضهم المسـلمون وهكـذا لم يقدروا أن يرضوهم سواء اسلموا أو ابقوا على دينهم ولذا آثر بعضهم الموت على المعيشة المرّة.[٦٥]

أولا: سلاطين المماليك الشراكسة وأعمالهم:

١ ـ السلطان برقوق سنة ١٣٨٢ م:

آخـر المماليك البحرية وأول سلاطين المماليك الشراكسة. وحدث فى أيامه أن أميراً مسـلماً تعمد بهدم كنيسة للأقباط كانوا يعدون فيها الأباركة فنهب منها ألف جرة من الخمر المذكور وأمر بكسرها أمام باب زويلة فى الميدان الذى تحت القلعة.

وكان السلطان برقوق عندما تولى السلطة للمرة الثانية كان أحسن حالاً وعدلاً من الأولى بدليل أنه فى أيامه اقترح المجلس الأعلى على برقوق أن يضطهد الأقباط لكنه رفض بل أمر بقتل رجل اعتنق الديانة الإسلامية.

ومن أشهر الحوادث فى عصره:

أ) حادثة كاتب مدينة الطور:

يذكـــر المقريـــزى أن نصـــرانياً من مواليد مدينة الطور وكان يعمل كاتباً فى إحدى الدواوين قصد القاهرة ووقف يخطب ضد الديانة الإسلامية فلما تقدم للتحقيق معه قال للقاضى إن هدفى هو الحصول على شرف الاستشهاد.[٦٦]

ب) حادثة استشهاد جماعة من الرجال والسيدات (سنة ١٣٨٩ م)

يذكــر أنه فى سنة ٧٩١ هــ قدم للقاهرة جماعة من الرجال والسيدات دخلوها بضجة عظــيمة وأعلــنوا على الملأ خروجهم على الإسلام وعزمهم على العودة إلى حظيرة المسيح وأنهم لا يتحولون عنه حتى ولو قُطعت رقابهم وقالوا " لقد جئنا هنا لنكفر عن ضعف إيماننا وإنكارنا للمسيح ونقدم حياتنا على مذبح التضحية لننال بركة الاستشهاد ونعمة السيد المسيح ".

فــتجمع حولهم عامة المسلمين ونصحوهم بالعودة إلى الإسلام ولكنهم رفضوا بجسارة فحــاول المسلمون إرهابهم ليرتدوا وساقوا كثيرين من الرجال إلى ميدان أمام مدرسة الملك الصالح وهناك يجزوّن رؤوسهم الواحد بعد الآخر فلم يتزعزع إيمان واحد منهم وساقوا بعض النساء وعذّبوهم ولكنهم تمسكوا بإيمانهم دون أن يجزعن فجردوهن من ثــيابهن وجروهن إلى سفح الجبل تحت القلعة وقطعت أعناقهن بقسوة زائدة حتى أن بعــض المســلمين المعتدلين استنكروا وقاطعوا هذا الحكم، ونقموا على القاضى الذى حكم به.[٦٧]

ج) حادثة إبطال عيد النيروز (٧٨٧ هــ / ١٣٨٥ م)

فــى عهــد الســلطان الملك الظاهر برقوق قرر إبطال ما كان يعمل فى عيد النيروز فأرسل الحجاب مع جماعة من المماليك السلطانية ووالى الشرطة فطافوا فى الأماكن الخاصــة بالاحــتفالات وفــى الطرقات فمن وجدوه يحتفل بالعيد يضربونه بالمقلاع وصــاروا يقطعــون أيدى كل من يجدوه يحتفل بذلك العيد واستمروا فى ذلك الجور والظلم حتى بطل ذلك الاحتفال من القاهرة وأشهروا النداء بمن يفعل ذلك يشنق فامتنع الناس يومئذ عن ذلك الاحتفال.

د) حادثة الراهب الشهيد:

حـــدث فى أيام السلطان برقوق أن راهباً أخذ يتجول فى الشوارع مجاهراً بالمسيحية ومـــندداً بالـــدين الإسلامى، وكان أمامه رجل وثلاث نساء يشجعونه على الاستشهاد والاعتـــراف جهرا بالمسيح الله الكلمة فقبض على الخمسة وقُطعت رؤوسهم وأحرقت أجسادهم.[٦٨]

٢ ـــ المـــلك العـــادل (سنة ١٤١٢ م)

هـــو أول ملك من ملوك المماليك الشراكسة بعد السلطان برقوق. وقد شرع فى أيامه المسلمون فى تدبير طريقة بها يلاشون الأقباط عن بكرة أبيهم فاهتموا بمعرفة أسمائهم وعـــددهم ومقـــدار ثروتهم وفرض السلطان ضريبة على جميع الأقباط وأنشئوا لهذا مكتباً ليقيدوا فيه أسماء مواليدهم ووفياتهم وقسموهم إلى ثلاث طبقات:

أ) **طبقة الأغنياء:** وقرروا عليهم ضريبة الأربعة دنانير عن كل نفس .

ب) **طبقة المتوسطين:** يدفع كل واحد دينارين.

ج) **طبقة الفقراء:** يدفع كل واحد دينارا واحدا.

٣ ـــ المحمـــــودى (سنة ١٤١٢ م):

وفى عهده صرح المماليك باضطهاد الأقباط، فأغتصب منهم قائد الحرب مبلغاً عظيماً من المال وفرض ضريبة باهظة على الخمر الذى كن يتاجر فيه كثيرون من الأقباط ببابلـــيون، وأمـــر القائـــد جنوده بالهجوم على بابليون بحجة إتلاف ما فيها من خمر فهجموا على الأقباط واستمروا يوقعون منهم ولم يكتفوا حتى استرضاهم الأقباط بمبلغ وافر من المال.

وفـــى سنة ١٤١٨ م صدر أمر برفت الأقباط الذين تمكنوا من التوظف فى الحكومة وبـــدأوا بقبطـــى كان سكرتيراً للوزير الأول فأمر السلطان بحبسه وتعذيبه فعروه من ثـــيابه وجـــروه فى شوارع القاهرة وأمامه موظف مسلم ينادى قائلاً هكذا يفعل بكل موظـــف قبطـــى فأسلم من الموظفين كثيرون واختفى كثير منهم فى منازلهم ولكنهم أسلموا فيما بعد لشدة الضيق.

وقـيل أن كثيـرين منهم أسلموا على زعم أنهم يتمكنون بعد الإسلام من الانتقام من معذبيهم وتميز عصر المحمودى ببعض حوادث التحقير الأدبى للأقباط نذكر منها ما يأتى:
أ) أنــه أرغم النصارى واليهود على لم أكمامهم وتقصير عمائمهم بحيث لا تتجاوز سـبعة أزرع طولاً وطلب إليهم أيضا أن يعلقوا جرساً صغيراً فى عنقهم عند دخول الحمام وأمر نسائهم بارتداء فساتين صفراء (الزى الخاص بالعاهرات).

ب) يذكر أيضا فى ذلك العصر أن منع النصارى من ركوب البغال فى مدينة القاهرة أما فى خارجها فقد صرح لهم بركوبها ولكن على طريقة النساء (مما اضطر بعضهم إلـى اعتـناق الإسلام هربا من هذا الإذلال فانتقلوا من جحيم الذلة إلى نعيم الإجلال والإكرام واستبدال الجياد بدل البغال.[٦٩]

٤ ــ الأشر ف بيبرس باى (سنة ١٤٢٢ م - ١٤٥٣ م):

أكتشف فى أيامه مؤامرة سرية بين ملك الحبشة والصليبيين الغرض منها محو الديانة الإسـلامية. وفـى أيام هذا السلطان رزقت البلاد فى سنة ١٤٢٩ بوباء يسمى الموت الأسـود، وفـتك بأهلها فتكاً ذريعاً وأستأصل عائلات كثيرة وإذ لم يبق منها أحد كان نائـب السـلطان وغيـره من الأمراء والمماليك يستولون على متروكاتهم وأملاكهم مسلمين كانوا أو نصارى حتى اليهود وقال المقريزى أن وطأة هذا الوباء كانت شديدة جـداً حـيث هلك بسببه فى مدينة مصر وحدها فى يوم واحد ١٥ ألف نفس فكان هذا مصيبة أخرى على مصر وأهلها.
عاود هذا الوباء الظهور فى مصر أيام ابن السلطان الأشرف الملك العزيز يوسف سنة ١٤٣٨ م وكان عظيماً أيضا وفتك بالناس فتكاً مريعا.[٧٠]
وفـى أيامـه يذكـر لنا المؤرخ المشهور السخاوى أنه سنة ١٤٤٢ م تم تجديد العهد العمرى حيث حصل النصارى واليهود فى تلك الفترة كثير من الذل والخزى والإهانة والتغـريم ما يفوق الوصف بسبب الترميمات التى قام بها المكلفون سراً فى كنيستهم ورسـم السـلطان بعقد جلسة من القضاة الأربعة وغيرهم من مشايخ الإسلام وأركان الدولة وبطاركة النصارى اليعاقبة والملكيين ورؤساء طوائف اليهود وسئلوا عن العهد المكتـتب علـى أسلافهم فلم يعرفوه فأمر بتجديد العهد عليهم مثال المنقول من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.[٧١] وفى سنتى ١٤٤٩ م ، ١٤٥٠ م هدمت بعض كنائس وأرسلت أنقاضها إلى السلطات المختصة ، ويذكر السخاوى أنه لم يبق فى عام ١٤٥٢ م كنيسة واحدة لم يلحق بها ضرر .

٥ـ المستنجد (سنة ١٤٥٣ م):
وفى أيام المستنجد أوقد المماليك النيران فى الأحياء المسيحية فى القاهرة وباقى المدن المصـــرية وواصلوا النهب والسلب فأرسل ملك الحبشة سفيرا من قبله فى زمن الملك المنصور يوجبه خيراً بالأقباط الذين كانوا حينئذ تحت الاضطهاد.

٦ ـ وفى أيام خوش قدم (سنة ١٤٦١ م):
هجم المماليك على الأقباط فى مصر القديمة ونهبوا منهم كل ما وصلت إليه أيديهم.

٧ ـ فى أيام قايت باى (سنة ١٤٦٧ م):
لم تصدر الحكومة قراراً باضطهاد النصارى ولكن الرعاع لم يكفوا عن التحرش بهم ومحاولة نهبهم وسلبهم كما عمل كثيرون من الأقباط فى بناء القصور التى شيدت فى أيـــام قايـــت بـــاى . وفـــى سنة ١٤٨٤ م هجم عرب الوجه القبلى على ديرى الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا وقتلوا جميع من فيها من الرهبان وبقيا خراباً نحو ثمانين سنة وكانـــتا بهمـــا مكتبـــتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فجمعوها وأحرقوها عن آخرها ولم يبق فيها إلا ما خفى عن عيونهم.[٧٢]

ثانيا:عصر المماليك ووظائف الدولة:

وبالإجمـــال فقد قاسى الأقباط فى عصر المماليك عموماً أكثر مما قاسوه فى العصور السابقة لذلك نجد أن الاضطهاد الذى وقع على الأقباط من أصحاب الحرف والصناع مـــا كان يقع على زملائهم وأخوتهم المسلمين حتى أعتنق الإسلام منهم كثيرون رغبة فـــى تـــرويج بضائعهم كما فرضت على الحجاج الأقباط ضريبتان إضافيتان إحداها ثمانـــية ريالات إذا نوى القبطى على السفر والثانية أربعة ريالات عند دخوله المدينة المقدسة بالقدس.

ثالثا:عصر المماليك وحالة الكنيسة الروحية:

كانت هذه الإضطهادات التى شنتها المماليك على الأقباط فى كثير من الأحوال تحول دون تعيين كثير من الرعاة فى المناصب الدينية كما أن تحول الكثيرين من المسيحية إلـــى الإســـلام كـــان يؤدى إلى فقر الرعاة لقلة ما يحصلون عليه من المسيحيين من إيـــرادات للكنيســـة ، كما حال دون شغل منصب البطريركية مما أدى إلى اضطراب كثير من الأهالى الأقباط فى حياتهم الدينية ، وقد تسبب ذلك فى دفن كثير من الموتى

دون القيام بتأدية الشعائر الدينية عليهم بالإضافة إلى ذلك أدت هذه المحنة إلى زواج كثيرين أيضا دون ممارسة الطقوس الدينية لسر الزواج المقدس .
ولكن رغم هذا التدهور الذى وصلت له الكنيسة لا يقاس بما كان يعانيه الشعب والإكليروس من جهل لمبادئ دينهم فكان يسام كثير من الرعاة دون ما يطلب منهم ثقافة لرعاية شعبهم " أو ليس لديهم الغيرة والمعرفة والدراية الثقافية والكنسية والروحية لرعاية الشعب المسيحى ".
كما أن ما تعرضت له الأديرة والكنائس من تخريب أدى إلى تبديد الثروة وإذا كان قد بقى فيها شيئاً عند الرهبان عملوا إلى إخفائه مما حال دون الإستفاده منه فكان سببا فى انحطاط الإكليروس ثقافياً ودينياً وخلقياً.
وقد تدخل السلاطين فى كثير من الأحيان فى انتخاب الأساقفة وحالوا دون إقامتهم، كما فعل الظاهر بيبرس حين امتنع عن الموافقة على انتخاب مطراناً للحبشة مما أدى إلى لجوء الإمبراطور إلى بطريرك السريان لأجل أن يرسل له مطرانا للحبشة لأن الإمبراطور كان فى أشد الحاجة إلى المطران لرعاية الشعب وتوجيهه روحياً وطقسياً وكنسياً.

رابعا:المماليك وعلاقة الكنيسة القبطية بالكنيسة الحبشية:

كانت العلاقات الدينية بين مصر والحبشة قد أصابها الضعف فى بعض الأوقات إلا أنها تسببت فى إقامة صداقة وطيدة بين أباطرة الحبشة وسلاطين مصر، فقد كان لابد من موافقة السلطان على انتخاب المطران المرسل إلى الحبشة كما أن مصر كانت تحكم الاراضى المقدسة التى يزورها الأحباش فى كل عام، هذا بالإضافة إلى جريان نهر النيل من الحبشة إلى مصر واعتقاد المصريين باستطاعة الأحباش حبس الماء عنهم.
ولذا نجد الإمبراطور " يكونوأملاك " يكتب إلى الظاهر بيبرس قائلاً ومادحاً له " أحقر المماليك يقبل الأرض بين يديك " ، كما أنه أراد أن يسترضيه فذكر له قوله ولما ارتقى الإمبراطور " يحيى صهيون " عرشه كتب إلى السلطان الناصر قلاوون أنه يعامل مسلمى الحبشة معاملة طيبة ويأمل أن يعامل السلطان مسيحى مصر نفس المعاملة .
وحدث أن سمع الإمبراطور " داود " بسوء معاملة السلطان للأقباط فأرسل جيشا دخل الحدود المصرية عند أسوان فأرسل السلطان إلى البطريرك يرجوه أن يكتب إلى إمبراطور الحبشة مذكراً إياه بالصداقة المصرية الحبشية كما كتب السلطان إلى الإمبراطور كتاباً مليئاً بعبارات التقرب والود فرد عليه الإمبراطور " داود " بخطاب

آخـــر يذكره فيه بوجوب المعاملة الحسنة بالأب البطريرك والإخوة النصارى بالديار المصرية ولم ينس الإمبراطور " داود " أن يرسل مع خطابه هدايا عظيمة وضخمة إذ حملها عشرين جملا.

وقـــد قـــوبلت الهدية كما قوبل الوفد أحسن قبولاً، وكتب السلطان خطاباً يقرر فيه رد جميع ما أخذه من الأديرة والكنائس . وكانت الوفود التى تأتى من الحبشة تستقبل بما يليق براسلها من التبجيل والاحترام. فقد أمر السلطان باستقبال الوفد الذى وصل سنة ٩٢٢ هـــــ أى ١٥١٢ م بدق الطبول المحملة على جملين ، كما أرسل الإمبراطور " زرا يعقـــوب " هدية إلى السلطان " حقمق " مع رسولين أحداهما مسيحى وآخر مسلم وكانت الهدية عبارة عن سبعين جارية وطشتاً من الذهب وسيفاً مطعماً بالذهب ويذكرّه فـــيه تجديـــد ما سبق من العهود بين بلاد الحبشة ومصر ليكون ذلك العهد مستمراً . وهكذا كانت العلاقة الدينية سبباً فى قيام صداقة وطيدة بين الدولتين رغم بعد المسافة بينهما واختلاف ديانتهما.

من الحوادث السابقة نلاحظ أن المماليك لم تراع عوائد البلاد كما كانت الحكومات التى قبلها بل كانت مستبدة وغير عالمة بطرق السياسة وكيفية حفظ النظام ولو كانت على غير ذلك لما نسب لمصر الدخول فى الانحطاط المستمر منذ تسلط المماليك عليها والدليل على ذلك إبطال الاحتفال بعيد الشهيد أيام الناصر محمد بن قلاوون (١٣٠٣ م) على الرغم أنه عيد كان يحتفل به قبل دخول الإسلام (العرب) مصر، وإبطال عيد النيروز أيام السلطان برقوق ويعوزنا الوقت الكثير لكى نذكر تاريخ المماليك الشراكسة الذى كان بمثابة فناء للكنيسة القبطية إنما ذكرنا الأحداث البارزة التى وقعت فى هذا العصر وهى تظهر لنا إلى أى حد وصل انحلال الأمة القبطية وكيف عمل المسلمون على ضعف التفوق القبطى فى البلاد ومن جهة أخرى نشاهد شدة حرص السلاطين على إرضاء العامة والغوغاء من الأكثرية المسلمة على الرغم أنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عن خدمات الأقباط ولكنهم حدوا منها لكى يتجنبوا غضب العامة على قدر المستطاع.[٧٣]

" الفصل الثانى "

قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها
فى عصر المماليك الشراكسة (١٣٨٢ م - ١٥١٢ م)

أولا: الآباء البطاركة فى عصر المماليك الشراكسة:

عاصر حكم المماليك الشراكسة الذى استمر ما يقرب من ١٣٠ عام، ثمانى من الآباء البطاركة ابتداء من البابا متاؤس الأول (الـ ٨٧) إلى البابا يؤانس الثالث عشر (الـ ٩٤) وسوف نتكلم قليلاً عن أشهر هؤلاء البطاركة وعن الأحداث الجسام التى حدثت فى عهدهم والتى أثرت فى الكنيسة والشعب القبطى وما عاصروه من مشاهير قديسى الكنيسة وعلمائها وأساقفتها وأراخنتها فى هذه الفترة.

١- البابا متاؤس الأول(البطريرك الـ ٨٧)(١٣٧٨ م - ١٤٠٨ م):

كان راهبا بدير المحرق ويدعى الراهب متى واختير للبطريركية فى ٢٥ يوليو سنة ١٣٧٨ م ولقب بالمسكين.

أشهر الحوادث فى عصره:

١) اضطهاد القس متى والشيخ مرقس الأنطونى من دير القديس الأنبا أنطونيوس حيث هجم طوائف من الإفرنج على مدينة الإسكندرية ونهبوا أموالها وسبوا حريمها ثم تركوهم ومضوا ولقد كان لهذا الحدث أثر سيئ على النصارى فإن الأمير يلبغا الذى كان ملكا فى تلك الأيام قام بالانتقام من هؤلاء النصارى وأرسل إلى جميع الديار الواقعة داخل دائرة سلطته يطلب أموالهم ويستولى على ما لديهم وقد ذُكرت هذه الحادثة فى سيرة الأنبا مرقس سابقاً.

٢) نظراً لامتلاء هذا الأب بالروح القدس وإنصافه فى أحكامه صارت كل محاكمة يتعذر على الملوك والحكام الفصل فيها يرسلونها إلى البابا متاؤس فُتحل بالوحى الإلهى حتى ذاعت شهرته فى جميع البقاع. وتعدت حدود الأقطار المصرية ووصلت الخارج وسمع بها الملوك الذين كانوا يقدمون له الهدايا الثمينة، فكان ملوك الإفرنج يعتقدون فى طهارته ويعترفون ويثقون فى قداسته لكثرة ما عاينوه من محبة هذا الأب القديس لهم وما لمسوه بأيديهم وعقولهم من سلامة أحكامه التى كان ينصف فيها بينهم كل إنصاف وعدل وكان عندما يلمسون منه البركة يلمسون منه هذه العدالة والسلامة والمحبة والإنصاف فى أحكامه وإرشاده ويمجدون الله قائلين " بالحقيقة كما سمعنا كذلك رأينا ".[٧٤]

٣) وكان البابا متاؤس ذا علاقة قوية بالسلطان برقوق (الملك الظاهر برقوق) حتى أنــه (أى السلطان) أشار إلى البابا متاؤس أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة لتجديد السلام معهم.

٤) فشل سعى العامة لهدم كنيسة العذراء بالمعلقة بمصر القديمة ونجاتها:

خــرج الــبابا القديس متاؤس الأول من القاهرة قاصداً الأديرة البحرية ببرية شهيت للاعــتكاف والصــلاة فلما سمع جماعة من المعاندين بتغيبه لأنهم كانوا يخشون بأسه أثناء وجوده بالقاهرة لرابطة المحبة والإخلاص التى تربطه بالسلطان برقوق اغتنموا فرصــة غيابه وسعوا للقيام بهدم كنيسة السيدة العذراء والدة الإله بالمعلقة فلم يمكنهم السـلطان من ذلك فإمتلؤا غيظاً وأخذوا حفنة نار وأطلقوها تحت أساسات تلك البيعة يــريدون حرقها بكاملها لكن الله عز وجل ببركة الراعى الصالح متاؤس لم يدع النار تصــعد إلى علو البيعة وأخذ تلاميذ البابا يطفئون النار من أسفل كما أرسل لهم رب الســلام الحارس على بيعته المقدسة ندى بارداً بكثرة من فوق حتى أطفأ لهيب النار المــتقدة وتعجب الحاضرون من هذه العظمة الربانية ومجدوا الله على حسن صنيعه معهم.[٧٥]

٥) فشل مؤامرة هدم دير شهران:

أراد بعــض المعاندين أن يقوموا على دير شهران ويهدموه فقدموا إلى الملك برقوق عريضة يتهمون فيها رهبان هذا الدير بادعاءات باطلة حتى أذن لهم بهدمه فاجتمعوا لتنفــيذ غرضهم السيئ، ولكن البابا متاؤس لم يمكنهم من ذلك ويحكى أنه اجتمعوا فى ذلــك الــيوم خلــق كثير لا يحصى لهم عدد وظنوا أنهم لكثرتهم يخشى البابا بأسهم ويخــاف شرهم ويسلم لهم الدير ليهدموه، لكن رجل الله الذى يستمد من العلى قوته لم يخف منهم وصار يناديهم ويقاومهم إلى أن قال لهم محتداً " من منكم أيها الناس له يد وسلطان فليجرد سيفه ويقتلنى لانى مادمت حياً لا أمكنكم من أن تهدموا طوبة من بناء هــذا الديــر إلى أن أقف أنا وانتم أمام السلطان وأظهر له الحقيقة وبعد أن تكلم معهم بهــذه الجــرأة المستمدة من قوة إيمانه تركهم البابا ومضى إلى القلعة واستغاث بقوة السلطان برقوق ملك مصر ولما وصل صوت صراخه إلى مسامع الملك أرسل للوقت للكشف عن حقيقة ما نُسب لرهبان الدير المذكور فلما مضى القضاة الأربعة إلى دير شــهران لــبحث الأمــر فلم يجدوا أثراً بالمرة فيما أدعى به المعاكسون ومنعهم من الاعتداء على مبانى الدير فهرب أولئك الشاكون واختفوا من غضب الملك برقوق لئلا يبطش بهم لكذبهم فيما أدعوه.[٧٦]

٦) كما حدث اضطهاد له ولشعبه فى أيام الأمير منطاش والقائد يلبغا:

٧) خلاص البابا متاؤس من الاضطهاد والسجن الذى وقع فيهما بعد موت برقوق

فــى أيام حكم الملك الناصر كان هذا الحاكم قائداً للجيش وكان ينوب عنه الأمير يلبغا الذى كان عصره عصر شؤم على الكنيسة والأقباط وأمر بحصر أبوابهم (أبواب المــنازل والحوانيت والطواحين والأفران والبساتين والسواقي والكروم وفرض عليها ضــرائب باهظـــة) وقبض على البابا متاؤس الأول وسجنه وأحضر نساء النصارى والــيهود وألبســـهم ملابـــس زرقاء وصفراء أمام البطريرك ولكن البابا قاومه بشده فغضـــب الأمير عليه من ذلك واستل سيفه و شرع بضرب رقبة البابا فمد البطريرك رقبــته إليه وسأله أن يقتله فرجع الأمير عن غضبه واندهش لشجاعة البابا وأراد أن يطلـــق ســـراحه ولكن البابا رفض ذلك إلا إذا أطلق أبناءه المسجونين بدون ذنب أو خطأ. فى تلك الأثناء هجم أحد أمراء مصر على السجن وكسر أبوابه الحديدية وأخرج الــبابا مـــتاؤس البطريرك القديس ومن معه من المسجونين من السجن وهزم الأمير يلبغا.[٧٧]

٨) قيام الأمراء باضطهاد البابا متاؤس الأول وفشلهم فى أيام السلطان ناصر فرج:

الحادث الأول:

بعـــد انـــتقال الســـلطان برقوق قام الأمير سودون (أحد أمراء المماليك) باضطهاد المســـيحيين وشن الغارة عليهم بوطأة شديدة فدبر ذات مرة مع المعاندين كميناً صعباً للقضـــاء على المسيحيين، إلا أن الله تمجد ويتمجد اسمه كشف للبابا متاؤس أمر هذه المكـــيدة فقـــام لســـاعته وخرج خفية من قلايته ومضى إلى بيعة الشهيد مرقوريوس وحبس ذاته فيها مدة سبعة أيام وسبع ليالى وهو مداوم على الصلاة بلا انقطاع سائلاً المولـــى تعالى أن يخلص شعبه من هذه المكيدة فرأى فى الرؤية السيدة العذراء مريم تحدثه قائلة له " أن الله قبل طلبه فى خلاص الشعب وأبطل مؤامرة المعاندين السيئة " ، حينئذٍ ابتهج قلب هذا الأب وفرح فرحاً عظيماً وخرج فى اليوم السابع مثل ملاك الله .وبتدبيـــر من الله تعالى أرسل الأمير سودون يطلب حضور البطريرك عنده فى ذلك اليوم وصار يخاطبه بما أضمره الشعب من الحوادث الرديئة الصعبة وفى جملتها أنه أراد أن يلبس النسوة الإزارات الزرقاء وغير ذلك فامتلأ البابا من روح الله وقال له " مَـــن مِن الأمراء الذين تقدموك فعل هكذا مع الرعية ؟ أو مَن مِن البطاركة رضى أن يشهّر ببنات شعبه ويجعلهم عاراً أو إضحوكه لصغار عوام الناس ولكن الحق أقول لك

أيهـــا الأمير، أنك متى شهرت بواحدة من بنات شعبى أنا لا أبرح أن أطلق الخراب و التشـــهير فى بلادكم، من أطراف الحبشة إلى أقاصى مصر ، وأنا أخبرك أيها الأمير إن النصارى ليسوا مثل بقية سكان الأرض ، ولا يوجد سلاطين مسيحيين ينظرون فى تسلطكم عليهم . فامتلأ الأمير خوفا، وأطلق سراح الأب، ولم يعد يخاطبه بشيء حتى تعجب الشعب من شجاعة البابا البطريرك وقوة إقدامه، وسداد إجابته وقدموا الشكر لله تعالى على خلاصهم من هذه التجارب والمحن بشفاعة القديسة العذراء مريم.[٧٨]

الحادثة الثانية:

فـــى إحـــدى المـــرات تكلم أحد الأمراء مع الملك والقضاة أن لا يبقوا نصرانياً على الأرض فـــى مصـــر، فقام البابا متاؤس البطريرك ، وصلى مستنجداً بشفاعة القديس مارجـــرجس ، أن يـــنقذ الأقـــباط من رغبة هذا الأمير ، وقبل أن يتمم البابا توسلاته اســـتجاب الله لصلاته ، حيث سلط الله على هذا الأمير أعداءه فقدموا له كأساً مملوءة سماً فشربها وهو لا يعلم بما دبروه له بمكر وحيطة ومات لساعته ميتة شنيعة ، وانتقم الله منه لسوء تدبيره ضد شعب الله الوديع.[٧٩]

الحادثة الثالثة:

فـــى إحدى المرات غضب البابا متاؤس على الأمير أوزيك ، الذى كان عصره شؤم على الأقباط ، فأقام ستة أيام وستة ليالى مداوماً على الصلاة ، متوسلاً بشفاعة رئيس الملائكـــة ميخائـــيل الطاهر ، ليخلص الشعب من نيره ، فلما انتهى اليوم السادس ولم يســـمع عـــن ذلك الأمير خبراً فأرسل أحد تلاميذه ليستطلع أخباره فوجد التلميذ كتاب تابوت ذلك الأمير على باب داره والناس يستغيثون قائلين هذا الأمير له ستة أيام معذباً من طعنه فى جنبه إلى أن مات فى هذا اليوم فطار التلميذ راكضاً نحو معلمه وأطلعه علـــى جلـــية الأمـــر فـــتعجب البابا وأعطى المجد لله سبحانه وتعالى والشكر لرئيس الملائكة الذى لم يخيب رجائه للخلاص من هذا الأمير الظالم.[٨٠]

فخر الدولة وصلاة الأب متى (البابا متاؤس):

لقد حمل التاريخ فى طياته لقديسنا ذكراً صالحاً وروحاً عطرة أرجت المعذبين وأراحت المتعبين. ذلك أن رجلا يدعى فخر الدين ذكر قصة رائعة للأب متى . ولعل من الخير أن نذكرها كاملة كما قالت رواية المخطوط القديم (ببرية شهيت).

فقال فخر الدولة بالحقيقة أقول لكم: يا إخوتى. إنه لما أدركنى الموت ولم أجد هذا الأب يحضرنى عند موتى ولم أشعر حتى أبصرته فى مقام الدينونة عندما اختطف الملائكة روحى وأقامونى أمام كرسى السيد المسيح، وأبصرت السيد المسيح له المجد

وهو يشير إلى الملائكة الموكلين بى ليشهروا كتاب خطاياى وكنت أبكت على ذنوبى ، وأصابنى فزع لا يعد له فزع فسقطت مرتعباً، وكنت أطلب من يقيمنى ، فلم أجد ولكننى أبصرت هذا الأب وقد أقامنى ، وسأل السيد المسيح أن يعيد روحى إلى حتى أتوب عن خطاياى إلى اقترفتها . ولقد استجاب السيد المسيح لهذا الأب قائلا: قد سمعت لك فى ذلك الإنسان ووهبته لك، ورن فى أذنى قوله: لا تعد تخطئ لئلا يصيبك أشر. ولما أفقت مما أنا فيه ، وتيقظت تحققت أن صلاة الأب متى هى التى أنقذتنى ، فكم من خاطئ رجع إلى عقله بصلاة هذا البار.
ومن هذا الحلم الذى رآه فخر الدولة، يستبين لنا صلاة القديس القوية التى أنقذت ضالا "تائهاً" فى فيافى الشر.

انتقال البابا متاؤس من هذا العالم:

فـــى أيام الأمير جمال الدين الذى كان عهده عهداً مظلماً على الأقباط وكان يقوم بقتل الكثير من الناس ويستولى على أموالهم وكان يبحث فى إيجاد علة على البابا ليقتله بها وتنفــيذا لمؤامرته أرسل رسلاً خفية إلى أرض الحجاز واليمن ليقدموا عرايض ضد الــبابا يدّعــون عليه فيها أن البطريرك يرسل فى وقت رسله إلى بلاد الحبشة ليحث ملكها على تخريب مكة وما فيها . ولما علم بالروح أن العرايض كُتبت ضده استعان كعادتـــه بشفاعة السيدة العذراء والدة الإله كى تأخذ نفسه إليها بغير سفك دم حتى لا يـــنال شعبه شدة ولا صعوبة – ورغم أن مندوبا البابا حملوا إلى هذا الأمير خمسمائة ألـــف درهم من مال البطريركية لعله يطيب قلبه ويكف عن تهديد البابا لكنه لم يرتدع ولـــذلك عندما حضر رُسل الملك يوم الأحد أو ليلة الاثنين ٣١ ديسمبر سنة ١٤٠٨ م إلـــى دار البطريركية كان البابا قد أسلم روحه الطاهرة استجابة لطلبته ودفن فى دير الخندق (الأنبا رويس) .
وانـــتقم الله من هذا الأمير الظالم حيث سلط عليه من وشى به عند الملك فقبض عليه وعاقبه، واستولى على ممتلكاته ولم يسلم من الضرب والعقوبة حتى مات شر ميتة.[٨١]

٢ــ البابا غبريال الخامس:(البطريرك الـــ ٨٨):

كـــان ملقب بمستوفى الجيزة وعرف باسم غبريال الأمجد، وكان راهباً بدير القلمون بالفيوم ثم سيم بطريركا فى سنة ١٤٠٩ م فى أيام سلطة الملك فرج بن برقوق.
وفى أيامه قطعت الكنيسة الحبشية الإعانة التى كانت ترسلها إلى الكنيسة المصرية مما تســبب عن فراغ الخزانة البطريركية من المال واعتماد البابا فى الحصول على قوته الضـــرورى على مساعدة أولاده الأراخنة. وقد تم فى أيامه رسامة بطريرك انطاكى

فــى مصــر، كما كان فى عهده يلقى التجار المسلمون فى بلاد الأحباش معاملة سيئة فدعته الحكومة المصرية سنة ١٤١٨ م ولما مثل أمام مجلس الحكومة هددوه بالموت، إذا لــم يمــنع الأحــباش الذين تحت سلطته من مضايقة التجار المسلمين النازلين فى بلادهم، فوعدهم بالاتصال بملك الأحباش ليمتنع عن هذه المعاملة، ورغم ما قاسى هذا الــبابا الوديــع مــن الاضطهاد الشديد مدة رئاسته، فأنه بذل مجهوداً كبيراً فى سبيل إصــلاح ما أفسدته يد الاضطهاد والمحافظة على شعبه من قوة رجال الحكومة ومما يذكــره الــتاريخ حــدثت زلزلة عظيمة بمصر سنة ١٤٢٤ م ومن مؤلفاته كتاباً فى الطقوس الكنسية.

انتقالــــــه:

ولمــا أكمل جهاده بسلام تنيح فى سنة ١٤٢٧ م فى عهد السلطان ابن نصر الأشرف ودفن بإكرام فى كنيسة بابليون الدرج.[٨٢]

٣ــ البابا يؤانس الحادى عشر (البطريرك الــ ٨٩) (١٤٢٧ م– ١٤٥٢م):

هــو القــس الأسعد أبو الفرج خادم بيعة الشهيد مرقوريوس أبى سيفين بدرب البحر فســطاط مصــر والشــهير باسم فرج المقسى وكان مشهوراً بالفضيلة والعلم ويقوم بالتدريس فى مدرسة قبطية عظيمة بالمكس. وقد سيم بطريركاً فى سنة ١٤٢٧ م باسم البابا يؤانس الحادى عشر.

أهم حوادث البلاد فى عهده:

توقــف النــيل عــن الوفاء بعطائه وهبط مستوى الماء فيه سريعاً فى سنة ١٤٢٩ م فعطشــت الــبلاد ووقع الغلاء، كما حدث وباء شديد سنة ١٤٣٨ م بالإضافة إلى هذه النكــبات. حــدث فى سنة ١٤٤٩ م غلاء شديد جدا، وارتفعت الأسعار، واستمر هذا الغــلاء ســنتين، قاسى الشعب أثنائها اقسى الأهوال وأفظع المجاعات، وذلك لأنه فى أثناء الغلاء تفشى مرض الطاعون وازدادت وطأته، ثم خفت إصابته فى أيام خماسين المسيحيين.[٨٣] وفى سنة ١٤٥٠م زاد البلاء، عندما وقف النيل عن الوفاء فضج الناس وشحّت الغلات واشتد قلق العالم.

أهم حوادث الكنيسة وأخبارها:

فى أيامه حدثت زيارة بطريرك أنطا كية لبطريرك الإسكندرية وكان هذا سنة ١٤٣٠ م ، كما حدث فى أيامه طبخ الميرون المقدس للكرسى الانطاكى .

وفـــى أيامـــه أيضا حدث حصر لكنائس النصارى واليهود ونظموا حملة لاضطهادهم وخاصة كنيسة للملكيين ومجمع لليهود فى قصر الشمع كما أمر القضاة بضرب ثلاثة من اليهود مات اثنان منهم وأسلم الثالث وذلك سنة ١٤٤٢م.

وفى أيامه تم تجديد العهد العمرى وذلك سنة ١٤٤٢ م . كما أصدر السلطان أمـــراً بعدم القيام بتجديد أى كنيسة أو دير أو صومعة أو قلاية أو بيعة ولا يصلح ما خـــرب أو نقب من جدرانها أو أخشابها إلا بإذن من السلطان ومن يخالف كان جزاءه المـــوت كمـــا أرسل ملك الحبشة فى أيامه بعثة إلى مصر سنة ١٤٤٣ م تحمل هدايا للســـلطان قـــام المغرضون بتشويه معناها فكان من نتائجها اضطهاد للنصارى ومنع بطريرك النصارى من الاتصال بالأحباش دون وساطة الدولة.

وفـــى أيامـــه تـــم هـــدم ما كان موجوداً بجبل طور سيناء وشبه الجزيرة من كنائس وصوامع مستجدة وبهدم ما ارتفع من بناء الكنائس المجاورة للجامع وتسليم أنقاض ما كان يُهدم لبيت مال المسلمين وذلك بأمر القضاء وكان ذلك فى سنة ١٤٤٦ م . ومما تقـــدم يظهـــر جلياً تحامل رجال القضاء تحاملاً يتنافى مع سمو الأديان الإلهية وروح الإســـلام نفسه بل يتضح من ذلك بلا أدنى شك روح البغضاء المسيطرة على عقول رجال هذا العصر بدلاً من روح التسامح التى تبشر بها الشريعة السمحاء.

وفـــى أيامـــه تم هدم كنيسة الملكيين بقصر الشمع سنة ١٤٤٧ م بأمر السلطان حسداً وطمعـــاً وأمـــر ببـــيع أنقاضها وأن يعمر من ثمنها المسجد المجاور القديم الذى كان بجانبها الغربى المعروف بمسجد الطليحى.

وهكـــذا كانت الأحكام التى تصدر باسم العدالة هى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وأحكامه بل مبنية على حكم الاستبداد والتعصب الغادر. ويقول السخاوى فى كتابه أن الســـيد شـــهاب أبـــو العباس القسطنطينى الأصل والمصرى المولد القاضى الشافعى الشـــهير بالنعمانى، كان نقمه على أهل الذمة فيما يبنونه فى كنائسهم وكان هو المهتم بهـــدم كنيسة الملكيين بقصر الشمع وأنه نكل بالنصارى حتى أسلم على يديه ثمانون وفى أيامه لا توجد كنيسة إلا وقد نالها من السيد شهاب الدين إما الهدم أو بعض هدم وإمـــا إزالـــة منبر أو إزالة حجاب وقد أصابه الله بأمراض البواسير والفتق وغيرهما ونال من الله القصاص العادل على تعصبه الأعمى وتعديه على بيعة الله ظلماً وغدراً ومات فى ٢٨ يناير سنة ١٤٤٨ م .

معاصروه:

عاصر البابا يؤانس سلطنه الملك الأشرف برسباى من دولة المماليك وخلافه المعتد الـــثالث داود أبـــى الفتح ابن المتوكل العباسى والملك العزيز (جمال الدين يوسف بن الأشرف سنة ١٤٣٨ م) وفى نفس السنة عزل الملك العزيز وبويع أتابك جيشه سيف

الدين حقمق ولقبَ بالملك الظاهر وبعد وفاة المعتز بويع أخيه ولقبَ بالخليفة المستكفى بـالله الـثالث العباسى (١٤٤٢ م) وفى سنة ١٤٠٥م توفى الخليفة المستكفى وبويع أخوه ولقبَ الخليفة القائم بأمر الله العباسى.

نياحته

وبعد جهاد متواصل أكمل سعيه الحسن وأراد الله الذى لا ينس تعب المحبة أن يريحه من أتعاب هذا العالم فنقله إليه فى ٤ مايو سنة ١٤٥٢ م فى سلطنة فخر الدولة عثمان بن القائم بأمر الله المُلقب بالمنصور.

٤ــ البابا يؤانس الثالث عشر(البطريرك الــ ٩٤) (١٤٨٤ م - ١٥٢٤م)

كــان يدعى الراهب يوحنا بن المصرى وقد سيم بطريركا فى ١٥ أمشير سنة ١٢٠٠ ش (١٠ فبراير سنة ١٤٨٤ م) باسم البابا يؤانس الثالث عشر فى أيام الملك قايتباى أبو النصر الأشرف.

وقد كان هذا البابا رجلاً فاضلاً وعالماً كبيراً وكان محسناً باراً وله مؤلفات كبيرة فى الـدين وفــى أيامــه رسم بابا روميه طبيباً فى الجيش البرتغالى مطرانا على الحبش وســماه بطريرك الإسكندرية وقد قام البابا يؤانس بإحضار جسد القديس مرقوريوس أبى سيفين إلى البيعة المكرسة باسمه فى مصر القديمة بدرب البحر فى سنة ١٤٨٨ م كما قام بإهداء كتاب الطب الروحانى إلى الأنبا إبرآم أسقف جزيرة قبرص التى كانت أسقفية قبطية منذ القدم وفى أيامه حضرت إلى مصر بعثه حبشية لزيارة بيت المقدس سنة ١٥١٥ م.

أبروشيات الخمس مدن الغربية:

كانــت الخمــس مــدن الغربية من أهم المراكز المسيحية التابعة للكرسى الإسكندرى وكانـــت أبروشياتها عامرة تشغلها الأساقفة حتى قبيل الفتح العثمانى للديار المصرية وآخــر أســقف ســيم لهذه البلاد هو الأنبا قرياقص الذى هجر كرسيه فى بداية الفتح العثمانى واعتزل بجبل شهيت ودعى اسمه ساويرس وله مؤلفات بدير السريان.

معاصــروه:

عاصــر كــل مــن الســلطان قايتباى أبو النصر الأشرف والسلطان قنصوة الغورى والسلطان طومان باى والسلطان سليم الأول أول سلاطين الدولة العثمانية سنة ١٥١٧ م م.

نياحتــه:

تنيح فى ٥ فبراير سنة ١٥٢٤ م ودفن فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويله.

ثانيا: أشهر القديسين والعلماء والأراخنة
فى عصر المماليك الشراكسة

١ ـــ اشـــتهر من كتّاب الأقباط وأساقفتها فى عصر الشراكسة الأنبا قرياقس أسقف البهنسا وهو من رجال القرن الخامس عشر للميلاد وقام بوضع عدة ميامر متفرقة فى مـــديح العـــذراء وفى قيامة السيد المسيح وفى هروب العائلة المقدسة إلى مصر وفى مديح الشهيد بقطر.

٢ ـــ كما اشتهر أيضا فى هذه الفترة الأنبا بطرس الملقب بالجميل أسقف مليج الذى كان فى أيام البابا بطرس الخامس وله ثلاث كتب فى العقيدة والإيمان.

أشهر شهداء هذه الحقبة: -

بمـــا أن الإضـــطهادات لـــم تهدأ قط خلال هذه الحقبة استشهد العدد الوفير من أبناء الكنيســـة وبـــناتها وقد احتفظ التاريخ لنا بأسماء البعض منهم بنيانا لنفوسنا وترسيخاً لعقيدتنا وسوف نذكر أمثلة منهم :

١ ـــ القديس صليب الشهيد:

كـــان فى عهد البابا يؤانس الثالث عشر، ولد فى بلدة هور مركز ملوى محافظة المنيا وكان والداه خائفا الله فربياه التربية الروحية الحقة وعرفا كيف يجعلان العقيدة ترسخ فـــى أعماقه فلا يرضى بها بديلاً ولما بلغ سن الشباب فكر والده فى اختيار زوجة له مـــن أقاربـــه وزوّجاه رغم إرادته، ولم يعرف القديس إمرأته وظلا بتولين تحرساهما العناية الإلهية ويظلاهما ملاك الرب من كل رجس وعيب.
عقـــب زواج صـــليب هجر وترك والديه وصار يتجول فى الجبال والبرارى ويزور الأديـــرة ويعـــزى نفسه الطاهرة بعشرة القديسين والنساك المتعبدين. ولما عثر عليه أهلـــه، قيدّوه بالحديد حتى لا يفارقهم، ولكنهم رأوا أن هذه القيود قد انحلت من قدميه وانفتحت أقفالها من نفسها بقوة السيد المسيح الحالة فيه.
كـــان صليب يواصل ليله بنهاره بالصلوات وكانت أمنيته الوحيدة التوسل لوالدة الإله القديســـة مـــريم أن تعينه على نيل إكليل الشهادة على اسم ابنها الحبيب، فظهرت له

السيدة العذراء مريم فى حلم وأفهمته أن طلبته أجيبت، وسينال أمنيته وسيكون الملاك الطاهر ميخائيل فى حراسته.

بداية تجاربه وآلامه: -

قبض عليه جماعة من الغوغاء المتعصبين وقدموه لحاكم البلاد لإعلانه بإيمانه بالسيد المسيح فانهالت عليه الشتائم والإهانات واللكمات، كما رجموه نتيجة تمسكه واعترافه بالسيد المسيح، فلم يصيبه شئ لان ملاك الرب كان يحرسه. وبعد ذلك أودعه الحاكم فــى الســجن فكــان كلما وضع السجان الحديد فى رجليه، كان يجده حراً طليقاً. وقد اعتــرف بإيمانه بالسيد المسيح أمام حاكم أو والى مصر، الذى أرسله الملك الأشرف قنصوة الغورى، وظل معترفاً ومتمسكاً بإيمانه، فأرسله الملك إلى القضاة الذين قرروا إعدامه وإشهاره فى ارض مصر وشوارعها مكبلاً بالحديد وتم تنفيذ ذلك.

وبعــد جهاد مرير قطعت رأسه فى ٣ كيهك سنة ٢٢٩ ش ونال إكليل الشهادة، بركته تكون معنا آمين.

٢ ــ القديس سيدراك الأنطونى وفضل الله ورفيقهم المختار داود البنا:

وهؤلاء الثلاثة نزلوا من جبل القديس الأنبا أنطونيوس ليكونوا على استعداد أن ينالوا إكليل الشهادة، وقد اقتدوا بأبى الرهبان الذى نزل إلى الإسكندرية فى أيام مكسيميانوس وهــو يقــول لأذهبن إلى حيث نيران العذاب، فإن سمحت النعمة الإلهية بإستشهادى تجدنــى مستعدا وإن لم تسمح بذلك أكون على أقل تقدير واقفا إلى جانب المضطهدين من أبناء القديس مرقس الأنجيلى .

٣ ــ البكر الطاهر حديد:

مــن أهالــى الجيزة وقد حكموا عليه أن يتبع جده فى العذاب فأجابهم" عجّلوا بقتلى يا هؤلاء فليس لى أب ولا أم ولا جد سوى المسيح"

٤ ــ القس يعقوب:

الــذى اضطره الأمير يلبغا السالمى إلى إنكار المسيح فهرب إلى المساء وفى الصباح أعلن اعترافه بالمسيح فنال إكليل الشهادة.

٥ ــ منصور بن بطرس ورفيقه داود:

وقــد سعى بهما إبراهيم السريانى وجرّهما من برية شهيت إلى مصر، رغبة فى أن يــدفعهما إلــى جحد الإيمان ولكنهما صبرا وجاهدا وصرعا الشيطان، بأن نالا إكليل

الشهادة وقد نفذت بسالتهما إلى قلب إبراهيم فدفعته إلى التوبة وإلى أن يسير بدوره فى طريق الاستشهاد فيكفر عن خطيئته بدمه.

٦ ــ الشاب المجاهد ماماديوس المدعو ميخائيل:

ويتضــح من اسمه ومن مسلكه أنه كان مسلماً ثم آمن بالمسيح ونال صبغة المعمودية ولما عاقبه الحكام وكانوا يسألوه عن اسمه فيجيب إسمى الأول الذى أطلقه علىّ أبواى فهــو ماماديوس أما أسمى الذى أموت وأحيا به فهو ميخائيل وظل ثابتاً لا يعطى غير هذا الجواب إلى أن قطعوا رأسه بحد السيف.

٧ــ سيرة الأنبا رويس:(١٣٣٤ م - ١٤٠٤ م)

كان معاصراً للبابا متاؤس الكبير (الـــ ٨٧) والأب الروحى لأنبا مرقس الانطونى. وكـــان فقيراً مُستَهزاً به وكان والده قد ارتد عن الإيمان خائراً أمام الاضطهاد العنيف الذى أصاب المؤمنين فى ذلك العصر لكنه عاد إلى الإيمان المسيحى بصلوات ابنه .

وقديســنا بطــل فى قوة تمسكه بالإيمان لذلك نال عطايا الروح ما لم يناله آخر سوى الذين كانوا يعيشون وراء الله فى كل عصر.

إن كــل سطر فى حياة الأنبا رويس يؤكد أن حياة القداسة ممكنة مهما كان هناك من معطلات أمام الذى يطلبها وما أمجدها من حياة ينالها أى إنسان من طالبى الله فى أى عصر . والذى يهمنا فى حياة الأنبا رويس السمة الرسوليه التى كان يعيش بها ، سمة الكرازة بإنجيل السيد المسيح والمناداة بالتوبة للناس .

حقا لم يكن الأنبا رويس كاهناً ولا راهباً ولا شماساً بل ولا قارئاً إنه لم يعرف القراءة ولا الكتابة فهو كان شخصاً علمانياً عادياً كادحاً يأكل خبزه بعرق جبينه ومع ذلك فهو يطلــب مـــا هو فوق يطلب الحياة الأفضل ولهذا لم يكن يعيش كما يعيش الباقون بل عـــاش كما يحق لإنجيل المسيح . ولإحساسه بعظمة الحياة الأبدية المقدسة كان يجول يدعــو الـــناس إليها .. بل يبكى ويتمزق قلبه ويصرخ إلى الله من أجل الذين تركوا وصايا الله كما يقول فى المزمور " الكآبة ملكتنى من أجل الخطاة الذين تركوا ناموسك " (مز ١١٩) .

وفى كرازته وتوبيخه للمتهاونين لم يخجل أو يخاف المقاومين واضعاً كل هذه النفوس فى قلبه يريدها أن تحيا فى حرية الروح التى حرره منها ابن الله ويشتاق ويرجو لها مـــن كل قلبه بدموع أن تطلب الحياة الأبدية التى مات المسيح على الصليب وقام لكى يقيمنا لها.

ولأن الأنبا رويس تحكم فى شهوته وفى ذاته فقد أستطاع أن يجذب حتى أعدائه إلى ربه واستطاع أن ينطق بكلمة الله الحية الفعالة المصحوبة بقوة الروح القدس فتنفذ إلى قلوب الناس مجددة حياتهم إلى شبه حياة السيد المسيح. هذا كله إلى جانب حياته المسيحية العميقة من أصوام وزهد شديد فى المأكولات والملابس والممتلكات وافتقاره إلى المأوى كذلك من صحته واحتماله الآلام، يشبه السيد المسيح، ومواظبته على الخلوات والصلوات والقداسات والتناول بكل خشوع ورهبة وتقوى ، كما لم تكن الفلاحة وبيع الملح عائقا عن أن يهتم بعبادته والعكوف على الصلاة والتأمل .

زمن القديس:

كان القديس الأنبا فريج معاصراً للأنبا متاؤس البطريرك السابع والثمانون والقديس مرقس الانطونى وذلك فى زمان السلطان الظاهر برقوق. وفى ذلك الحين صارت موجه غلاء عمت المسكونة (سنة ١١٢٠ ش) وكانت الكنيسة فى تلك الزمان تعيش فى وسط ظلام دامس وشر كثير وسط جيل معوج ملتو ومع شديد الأسف لم يكن بالكنيسة فى ذلك الوقت معزّون أو معلمون وفى ذلك الزمان حدثت ضيقات كثيرة وإضطهادات عنيفة على القبط وكانت كلمة الرب عزيزة فى تلك الأيام.

حالة الأقباط فى عصر الأنبا رويس: (القرن الرابع عشر)

كان هذا القرن شؤماً على الكنيسة خربت فيه الكنائس والأديرة تخريباً فظيعاً وصودرت ممتلكاتها وهدم معظم الأديرة وضوعفت الجزية على الأقباط وقُتل من قُتل وأسلم من أسلم. حتى أشرف الأقباط على الفناء وكان للكنائس أوقاف تبلغ نحو ٢٥ ألف من الأفدنة أخذها الملك الصالح بن محمد بن قلاوون من الأقباط وأنعم بها على الأمراء ولم يأت آخر القرن هذا حتى كانت أبروشيات كثيرة فى الوجه البحرى قد تلاشت لانقراض النصارى بها من جراء تعسف هؤلاء الحكام الأردياء.

مواقف من حياته:

(١) صمته واحتماله للألم:

درب نفسه أن يضبط لسانه إلى حد أنه كان يمكث شهور لم يلفظ بكلمة. ولقد بلغ به الصمت أنه حين استدعاه الأمير سودون ليسمع كلمة منه وقف أمامه مطبق الشفتين وأمر بضربه أربعين عصا وانهال الجنود عليه حتى تهرأ لحمه وسال دمه وعلى الرغم من ألامه المبرحة لم يفتح فمه واحتدم الأمير غيظاً وأمر بتشهيره أى بأن يلبسوه مسحاً ويطوفوا به فى الشوارع والميادين وفى هذه الطواف هزأ به كل من

يراه ويضربه ويرمى عليه الطين والزلط وينخسه بالأسياخ ولما رآه الجند يتأرجح فى إغمــاؤه القوا به على الأرض فإذا بالسيد المسيح يظهر له ويشفيه والعجيب أنه خلال الضــرب والــرجم والتنخيس لم يفتح فمه على الإطلاق بل ولم تبدر منه صرخة ألم واحده.

(٢) جهاده وشجاعته:

أ - فى ذات مرة طالبوه أن يعلن مسيحيته لأنه مكشوف الرأس مما يجعل ديانته غير معروفه (لأن المسيحيين كانت تميزهم عمامة خاصة فى ذلك الزمان) فأسرع بشراء قمــاش أزرق ليستعمل لهذا الغرض واعترف بشجاعة فائقة ولم ينكر مسيحيته، وكان دائما يحمل صليبه الخشبى كجندى صالح ليسوع المسيح.

ب - وفــى إحــدى المرات أراد جماعة من القضاة أن يمتحنوا شجاعته فذهبوا إليه وبمجــرد أن رآهم تشدد ووقف أمامهم كالأسد وقال لهم " ماذا تطلبون ؟ " فقالوا نريد أن نعرف ديانتك فأشار إلى الصليب المدقوق على يده واعترف بالمسيح جهراً ثم ظل يرسم ذاته بعلامة الصليب المقدسة من رأسه إلى قدميه واعترف بالمسيح جهراً حتى اقشــعروا مــنه وخرجوا وهم مذهولين وهكذا كان يفعل مع كل من يسأله عن ديانته وظل ثابتاً محصناً نفسه دائماً بعلامة الصليب حتى نياحته. ويعتبر الأنبا رويس بطلاً مــن أبطــال الإيمــان فقــد كــان عصره رديئاً ارتد كثيرون فيه عن الإيمان بسبب الاضطهاد أما هو فتعبد حيث قل المتعبدون وظل ثابتاً على أمانته.

ج ـ سجــن القــديــس:

فلما تعبوا من بطشهم بالقديس زجوا به فى السجن وهناك بدأ التلميذ المرافق له يعاتب القــديس قــائلاً " لــو كنت تكلمت مع الأمير ولو كلمة واحدة لما نلت هذه العقوبات الصــعبة " فقال له " أما تفهم ما احتمل سيدنا يسوع المسيح فى جسده من الألم والجلد والسياط والأشواك وهو واقف أمام بيلاطس متألم ولم يجبه بكلمة وهو الذى علمنا أن نتبع آثاره كيف تلومنى على السكوت ؟ " .

وكــان مع القديس فى السجن حوالى ثمانين مسيحياً كانوا مأسورين ومقيدين منذ عدة شهور ولما رأوه ألقوا بوجوههم على جراحاته ثم سألوه بدموع من أجل نجاتهم فرفع الأنــبا رويــس عينيه نحو السماء وتضرع إلى السيد المسيح أن ينجيهم فلم ينته من صلاته حتى جاء قداسة البابا متاؤس يحمل إليهم الفرج فخرجوا فرحين وهم يسبحون الله وكلهم متعجبين لان ذلك واضحا فيه عمل الله من أجل صلاة القديس.

(٣) رحمتـــــــــه:

كان القديس الأنبا رويس كثير الرحمة والشفقة على الأرامل والأيتام والفقراء ولم يكن يميز بين مسلم ومسيحى بل كان يعامل الجميع معاملة واحدة من اللطف والإشفاق.

(٤) موهبة التنبؤ:

لقـد أعطى الله الأنبا رويس موهبة التنبؤ فكان يخبر بأمور آتية حسب وعود الإنجيل وكـان أحيانا وهو جالس مع تلاميذه يكشف له الرب فيرى ما يحدث فى أماكن بعيدة ويخبرهم به.

أ ـ تنبأ القديس بانتصار الملك الظاهر برقوق: -

ثارت حرب شعواء بين الملك برقوق والأمير منطاش بمصر وانكسر الظاهر برقوق وقـبض الأمير منطاش على عساكره وقيدهم وحبسهم بالقلعة وحزن الشعب كله على انكسار الملك برقوق فقال لهم الأنبا رويس لا تحزنوا سيخرج الملك برقوق من منفاه وينتصر على عدوه الأمير منطاش فتعجبوا كثيراً لهذا القول ولم يصدقوا.

وفـى الغـد أمطر الله برداً كثيفاً من السماء على معسكر الأمير منطاش وتبدد شمل جـنوده وثقب الملك برقوق جدران الجب (السجن) فى القلعة وخرجوا منه وهجموا علـى البقية من عساكر منطاش وهزموهم شر هزيمة ورجع الملك برقوق من أسره فقابله جميع الشعب بنشيد الظفر وهم يهتفون " ينصر الله السلطان ".

ب - وفى مرة تنبأ القديس بغلاء كان مزمعا أن يحل بالبلاد:

وقد ظن تلاميذه أنه سيبطئ ولكنه أنذرهم بأنه يحل فعلاً فلما علم الناس اشتروا قمحاً كثيـراً قبل أن تعم موجه الغلاء التى ارتفعت فيها الأسعار (ارتفع سعر أردب القمح من ٤ درهم إلى ٤٠ درهم) وأنقذ بذلك القديس نفوساً كثيرة من المدن ولاسيما الفقراء وقـد وقع هذا الغلاء سنة ١١٢٠ للشهداء إى قبل نياحة القديس بسنة واحدة ولما سألوه عن زمانه قال " أنا أطلب من الرب أن أموت قبل أن أعاين ذلك اليوم لأن الشدة التى ستكون عند زواله أشد وأصعب مما رأيتم أثناء وجوده " وفعلاً تنيح القديس قبل زوال الغلاء.

(٥) رحيـــل القـــديـــس:

أقـام القـديس الأنبا فريج فى منزل أبيه حتى بلغ العشرين من عمره وحدث أن وقع اضطهاد شديد على الأقباط فى ذلك الحين وقاسوا من جرائه ضيقات شديدة حتى خرج

كثيـرون عن الإيمان ومنهم إسحق والد القديس ومن فرط حزن القديس قرر الرحيل مـن بلدته فذهب إلى برية الشيخ المجاورة لهم وحبس نفسه أياماً لا يأكل ولا يشرب، حتى أصاب جسده من التعب والإنهاك الشئ الكثير وأخذ يصلى إلى الله من شدة ألمه وحـزنه ثم انتقل إلى القاهرة وفى الطريق أختطف فى رؤيا إلى السماء ثم توجه إلى الـوجه القبلى ولما بدأت عجائبه ومعجزاته تنتشر فى البلاد لأن عطر سيرته وصيت قداسته وصلت عبر الأماكن، فأنكر نفسه وتخلى عن كل شيء حتى اسمه وتسمى باسم جمله (رويس) وأخفى اسمه الأول (فريج) وطاف القديس معظم بلاد مصر وصار يتـنقل مـن جهة إلى أخرى من قوص إلى دمياط ومنها إلى الإسكندرية وهو يعمل بـيديـه ليحصـل على كفافه ولم يقتنى جبة ولا عمامة بل كان عريانا إلا مما يستر جسـمه وكـان مكشوف الرأس ولم يحلق شعر رأسه مطلقاً فأصبح كسواح البرارى وكان قليل الكلام ولم يكن له بيت ولا مأوى فعاش غريباً باكياً ودموعه تنسكب وكان يقضـى أغلب ليله فى الصلاة والنوح وظل هكذا حتى دانت نياحته المباركة فرقد فى الـرب وكان هذا حدثاً مؤلماً لكل الذين عرفوه عن قرب وعن بعد أما جسده الطاهر فدفنوه بكنيسة العذراء بالخندق المعروف حالياً بدير الأنبا رويس بالعباسية بالقاهرة فى يوم الأحد الموافق ٢١ بابة سنة ١١٢١ ش الموافق ١٤٩٤/١٠/١٨م.

وهكـذا بعد حياة كلها كفاح متواصل ودعت الأرض رجلاً من أطهر رجالها النساك وصدرته إلى السماء كعينة مقدسة ليكون شفيعا أمام الله من أجلنا.

بركة صلواته تكون معنا آمين.

1

2 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخلة روفيلة) تاريخ الأمة القبطية (أ . ل . بتشر)

3 كتاب أقباط ومسلمون (د . جاك تاجر ص ١٧٢)

4 كتاب أقباط ومصريون بين الماضى والحاضر (القس داوود عزيز)

5 مصر فى العصور الوسطى (د . على إبراهيم حسن)

6 مصر فى العصور الوسطى (د . على إبراهيم حسن)

7 مصر فى العصور الوسطى (د . على إبراهيم حسن)

8 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخلة روفيلة ص ٢٥)

9 الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٣٧

10 أقباط ومسلمون (د . جاك تاجر ص ١٧٤)

11 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخلة روفيلة)

12 تاريخ أبى الفضائل (جـ ١٢ ص ٤٧٧)

13 كتاب السلوك لمعرفة الملوك طبعة دار الكتاب المصرية جـ ١ ص ٥٣٥

[14] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيلة) ص ٢٠٨

[15] راجع تاريخ المماليك فى مصر ترجمة عن الإنجليزية إلى العربية محمود عابدين وسليم حسن ص ٦٠ .

[16] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢١٠

[17] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله)

[18] الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٤٩٧

[19] كتاب أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر ص ١٧٨)

[20] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله)

[21] أقباط مصر بين الماضى والحاضر (القس داود عزيز)

[22] الخطط للمقريزى ص ٤٩٨

[23] تاريخ الكنيسة منسى يوحنا ص ٥٠٧

[24] بالقبطية (شوبرى) وهى مركبة من كلمتين (شوب) مدينة ، (برى) شمس

[25] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢١٨

[26] منسى يوحنا (كتاب تاريخ الكنيسة) ص ٥٠٧

[27] كتاب أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر ص ١٨٠)

[28] أقباط مصر بين الماضى والحاضر (القس داود عزيز)

[29] منسى يوحنا ص ٥١٠

30 كتاب تاريخ الكنيسة القبطية (للقس منسى يوحنا) ص ٥١٢.

[31] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢٣٥

[32] تاريخ الكنيسة القبطية (منسى يوحنا) ص ٥٠٧

[33] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيلة) ص ٢٣٥

[34] الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٥١١

[35] تاريخ الكنيسة القبطية (منسى يوحنا) ص ٥١٢

[36] تاريخ الكنيسة القبطية (منسى يوحنا) ص ٥١٣

[37] تاريخ الكنيسة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢٣٦ ـ الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٥١١

[38] الخطط للمقريزى ص ٤٠٥

[39] أقباط ومسلمون (د.جاك تاجر)

[40] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله)

41 تاريخ الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا الخطط للمقريزى (ص ٢٩٢)

42 تاريخ الكنيسة القبطية للأستاذة إيريس حبيب المصرى

43 كتاب تاريخ الكنيسة القبطية (للقس منسى يوحنا)

44 تاريخ البطاركة الجزء الثانى ص ١٥ (كامل صالح نخله) .

45 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢٠٨

[46] أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٧٦

47 تاريخ البطاركة الجزء الثانى من ص ٢٢ (كامل صالح نخله)

[48] كتاب تاريخ البطاركة الحلقة الثانية ص ٢٤

[49] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص٢١٤

[50] أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٧٩

[51] تاريخ فوه ص ١٦٤ وكتاب تاريخ ص ٣٧١ أ

[52] تاريخ البطاركة (كامل صالح نخله) الجزء الثانى صفحة ٣٥

[53] الخطط للمقريزى (الجزء الرابع) ص ٤٠٥

[54] الخطط للمقريزى (الجزء الرابع) ص ٤٣٣

[55] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٧١ ، فوه ص ١٦٤ ، كتاب تاريخ بطاركة الإسكندرية ص ٩٢ .

[56] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٧٣

[57] تاريخ البطاركة الجزء الثانى (كامل صالح نخله)

[58] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٧٣ ، فوه ص ١٦٤ أ

[59] تاريخ البطاركة (الجزء الثانى) (كامل صالح نخله) ص ٥٣

[60] خطط المقريزى جزء رابع ص ٤٠٥

[61] تاريخ البطاركة الجزء الثانى (كامل صالح نخله) ص ٦٣

[62] المخطوطات العربية ص ٦٢

[63] المخطوطات العربية ص ١٨ ، ١٩

[64] المخطوطات العربية ص ١٦٥ - ١٩٣

[65] أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٩١

[66] أقباط ومسلمون (د. جاك تاجر) ص ١٩١ تاريخ الأمة القبطية " يعقوب نخله روفيله " ص ٢٤٢

[67] تاريخ الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا "

[68] تاريخ الكنيسة " للقس منسى يوحنا "

[69] الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٢٩٢

[70] تاريخ الأمة القبطية ص ٢٤٠

[71] السخاوى " التبر المسبوك فى سير الملوك " طبعة بولاق ص ٦ـ التوقيتات الألمانية ص ١٤١ ، ص ١٤٢

[72] تاريخ الكنيسة القبطية (الجزء الرابع) للدكتورة إيريس حبيب المصرى .

[73] تاريخ الأمة القبطية "يعقوب نخلة روفيله "

[74] فوة ص ١٧١ وكتاب ١٥ تاريخ ص ١٨١ ، (٢٨٢)

[75] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٢٨٦ وفوه ص ١٧٣

[76] كتاب تاريخ ص ٢٨٦ + فوة ١٧٣أ

[77] كتاب التاريخ ص ٢٨٦ + فوه ١٧٣ أ

[78] كتاب ١٥ تاريخ ٢٨٦ و ٢٨٧ + فوه ١٧٣ ، ١٧٤

[79] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٩١ + فوه ص ١٧٦

[80] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٩١ + فوة ١٧٦

[81] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٩٤ + فوة ص ١٧٨

[82] كتاب ١٥ تاريخ ص ٢٩٦ + فوة ص ١٨٣

[83] السخاوى ص ٢٥٤

القسم الخامس

(١٥١٧م – ١٨٨١م)

من بداية

أسرة محمد على

حتى بداية

ثورة عرابى

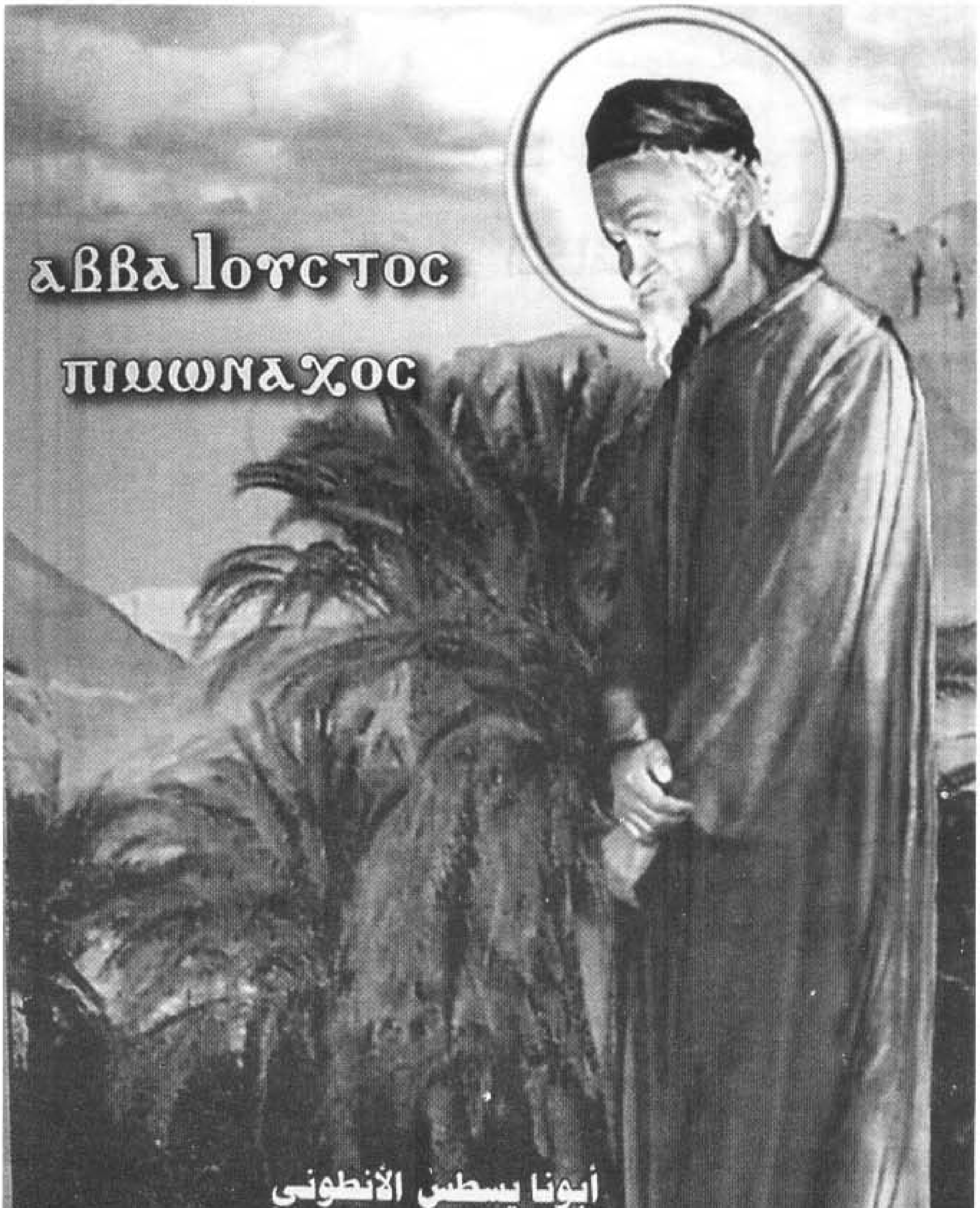
ⲁⲃⲃⲁ Ⲓⲟⲩⲥⲧⲟⲥ
ⲡⲓⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ
أبونا يسطس الأنطونى
عيد نياحته ٨ كيهك

الباب الثالث عشر

تاريخ الكنيسة القبطية فى عصر الدولة العثمانية
(١٥١٧ م - ١٧٩٨ م)

" الفصل الأول "
الدولة العثمانية وسياستها مع الأقباط

بمقتل طومان (الملك الأشرف) وتعليقه على باب زويلة بواسطة السلطان سليم، كانت نهاية دولة المماليك الشراكسة أو البرجية التى أسسها السلطان برقوق، وتسلطت نحو ١٣٩ سنة ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر أحدى الولايات العثمانية الكبيرة.

ودخلت مصر عصراً مظلماً وهو من أظلم عصورها التاريخية ويشابه ظلمه العصر الرومانى وتحولت مصر إلى مجرد ولاية عثمانية ترسخ فى قيود الذل والاستبداد وفى سلسلة متصلة من مآس استنزاف ثرواتها الزراعية والصناعية والتجارية الأمر الذى تمخض عنه الضعف والاضمحلال فى العلم والأدب وكانت من نتائج كل هذا تدهور مصر وتناقص عدد سكانها الأمر الذى انعكس بشدة على الأقباط.

ولم تكن حالة الأقباط (الكنيسة القبطية) فى عهد الدولة العثمانية أحسن حالاً مما كانت عليه فى أيام دولة المماليك البحرية والشراكسة (البرجية) فإنه لم يكن للولاة هدف سوى استنزاف أموال الناس بأية طريقة كانت وبدون استثناء ولا تمييز بين مسلم ونصرانى ولا سيما لأن الولاة الذين كانوا يأتون إليها من القسطنطينية لم تستمر مدة ولاية الواحد منهم أكثر من سنة وإذا سمح له بالبقاء فى منصبه أكثر من ذلك لا يكون إلا ببذل الأموال الطائلة طمعاً فى تحصيل ما يزيد عما دفعه أضعافاً. زيادة على ذلك انقسام المماليك على ذاتهم وقيامهم على بعضهم تارة وعلى الوالى تارة أخرى.

ويذكر التاريخ أن السلطان سليم الأول سار على منوال الملوك الفاتحين من الجور والظلم ولم يغب الأقباط عن ذاكرة أى فاتح لمصر ليتركهم يتذوقون طعم الراحة بل كانوا دائما فى طليعة المنكوبين ويهتم بأمرهم السلطان بأن يزيد القسوة عليهم فيضطهدهم بشدة ومع أن السنين التى سلفت كان الأقباط فيها يشعرون بالراحة نوعا إلا أنه لما بدأ هذا السلطان باضطهاده للنصارى تحرك عليهم المسلمون قاصدين إذلالهم غير أن أصحاب الحرف والأعمال منهم كانوا معافين من الاضطهاد لمعرفة

المسلمين باحتياجهم إليهم ولهذا كانوا يحببون إليهم الإسلام لترويج بضاعتهم أكثر فاعتنق فى أثناء الفتح العثمانى كثيرون من الصناع المسيحيين للديانة الإسلامية.

ويذكر التاريخ أيضا أن السلطان سليم الأول أخذ معه إلى إستانبول أمهر الصناع المصريين وأمهر المهندسين المصريين وكبار الشخصيات اللامعة وكان منهم شخصية قبطية هو (المعلم بركات كبير ديوان الملك الأشرف) فأعجب بذكائه وسعة مداركه وفى المهجر (إستانبول) قام المعلم بركات بتنظيم الأعمال المالية فى ديوان السلطان.

لقد كانت فلسفة الحاكم العثمانى أن الإمبراطورية العثمانية تنقسم إلى قسمين (القسم الأول وهم العثمانيون) والقسم الثانى (هم رعايا) وهم سكان الولايات العثمانية الذين عليهم توفير حاجات الحكام وفقاً للمشيئة الإدارية. فالأتراك العثمانيون يستحلون كل شيء يقع فى أيديهم فلا يهمهم مصلحة الولاية أو سكانها بل المهم فقط هو توفير الحياة المترفهة للعثمانيين. كما نظر العثمانيون إلى الوظائف الحكومية على أنها لمن يدفع لهم المال الأكثر فلذلك طبقوا سياسة المزاد فى تولى الوظائف كما تركوا للموظف حق جمع ما يستطيع جمعه من الأهالى مادام قد دفع لهم ما حددوه من ضرائب سواء على شاغرى الوظائف أو على سائر الأهالى.

ولكن سرعان ما نجح الأمراء المماليك فى الاحتفاظ بسلطانهم فى الإدارة المحلية بواسطة خبرتهم السابقة فى حكم المصريين فى نظير دفع ما يطلبه الأتراك من أموال. وهكذا ابتلى الأقباط من ظلم الأتراك العثمانيين ومعاونيهم.

إلا أن الأقباط على كل حال عاشوا تلك المدة مع مواطنيهم المسلمين فى حال أفضل مما مضى واشتركوا معاً فى مر العيش وحلوه، غير أنهم كانوا يزيدون عنهم فى دفع الجزية التى صارت تسمى بالجباية أو الجوالى والتى استعملوا الجور فى تحصيلها منهم.

ويمكن التركيز على عدة نقاط فى عصر الأتراك العثمانيين منها:

١ ـ حالة أقباط مصر فى عصر الأتراك (العثمانيين):

كون أقباط الشرق (مصر) جزراً صغيرة وسط محيط إسلامى ويخضعون لبطريركية خاصة هى بطريركية الإسكندرية التى كانت محرومة من الثقافة الدينية ومحرومة من الموارد الخارجية التى يمكن أن تستمد منها ثقافة أخرى ولذا لم يجد أقباط مصر من يعتنى بهم بشكل جدى ولم يتمتعوا بالحرية التى يتمتع بها مسيحيو العالم أجمع حتى الذين كانوا يعيشون داخل مصر.

٢ ـ بعض الأحكام العرفية التى طبقت فى دولة الأتراك (العثمانيين):

لقد كان حكم الأتراك على الكنيسة القبطية غاية فى القسوة نتيجة للأحكام التعسفية الظالمة التى صدرت ولزم تنفيذها على الأقباط نذكر منها:

١ - حرمان المسيحيين من الوقوف على قدم المساواة مع المسلمين.
٢ - إلزام المسيحيون بالمسير على يسار الطريق.
٣ - حرمان المسيحيون من ركوب الخيل.
٤ - حرمان المسيحيين أن يجاهروا بشهادتهم الدينية.
٥ - حرمان المسيحيين من الإفطار فى شهر رمضان.
٦ - حرمان المسيحيون من استخدام المسلمين.

٣ـ بعض الأعمال التى كان يقوم بها الأقباط فى عهد الأتراك (العثمانيين):

١ - لم تمتنع الحكومة عن تعيين الأقباط فى الوظائف العامة على نطاق واسع لأنهم كانوا ذو خبرة ومهارة فنية ولما اشتهروا به من الأمانة فى العمل وحسن الإدارة.

٢ - نظراً لأن أغلب المصريين (أقباط ومسلمون) كانوا محرومين من ملكية الأرض الزراعية فلم يكن أمام أقباط مصر سوى الاشتغال بالزراعة فى الريف لذلك كانت سكنى الأقباط فى المدينة ضئيلة جداً.

٣ - نظراً لسكنى الفلاحين المزارعين بالريف أصبح سكنى المدن قاصراً على الصناع بحكم نظمها السائدة وكادت تكون وقفاً على المسلمين إذ كانت كل صناعة خاضعة لشيخ فمثلاً كانوا يقولون شيخ الحدادين وشيخ الخيمة وشيخ السروجية وهكذا، ومازالت بعض هذه الألقاب حتى الآن.

٤ ـ أشهر المناطق التى كان يسكنها الأقباط فى القاهرة:

كان سكنى الأقباط فى القاهرة فى مناطق ثلاث وهى:
المنطقة الأولى وهى التى تمتد حالياً من الخاذندار حتى باب الحديد تحدها بركة الأزبكية من الغرب والجنوب وتنتهى فى الشمال بخليج يخرج من النيل جنوب الترعة البولاقية يسمى بالخليج الناصرى وكانت تطل من الشرق على مزارع واسعة تزرع بالفجل وتحمل اسم الفجالة ويصل هذه المنطقة بباب الحديد (وكان يطلق عليها اسم المقص) قنطرة تسمى الليمون ومازال هذا الحى يحمل اسمه حتى الآن "كوبرى الليمون" . والمعروف أن حارة النصارى يقوم فى وسطها دير قديم للراهبات يسمى بالعزباوية "نسبة إلى عزبة الأزبكية" وكنيسة حارة الروم حيث يوجد المقر البابوى. ويعمل أو يحترف أهل هذا الحى بتجارة العلف والشموع والبخور والعطارة.

المنطقة الثانية وهى قريبة من حى السيدة زينب حتى مشارف القلعة وسميت منطقة حارة السقايين.

المنطقة الثالثة وهى منطقة الصاغة حالياً حتى حارة زويلة واحتراف أهلها صناعة الذهب والفضة وتسليف النقود مقابل رهان ، وقد اختيرت هذه المنطقة لقربها من النحاسين حيث توجد تجارة النحاس ومن الغورية حيث توجد تجارة وصناعة الصابون والمنسوجات فكان فلاحو الريف يقصدونها حال نزولهم القاهرة لتجهيز بناتهم وكانت الدكاكين تطل على حارات ضيقة وهى فى الوقت نفسه كانت مداخل بيوتهم تقود إلى حوش متسع تطل عليه البيوت على هيئة مربع وغالباً ما يحمل الحوش اسم صاحبه مثل حوش الشماع .

٥ ـ الأتراك العثمانيون والتفريق فى المعاملة بين الأقباط والأجانب والمسلمين:

فى الوقت الذى كان فيه أقباط مصر يقاسون من سوء المعاملة كان المسيحيون الأجانب يعيشون فى بحبوحة الإمتيازات الأجنبية التى منحها لهم المماليك والأتراك فقد عاشوا فى أحياء خاصة مازالت تحمل أسماءهم مثل حارة الروم وحارة النصارى وحارة اليهود ومناطق أخرى كثيرة وكانوا يتمتعون بحرياتهم فى بناء كنائسهم ومعابدهم وترميمها . وإذا كان المسلمون قد وجدوا المورد الروحى والثقافى فى الأزهر بالإضافة إلى الإمتيازات الخاصة والعامة لهم من جهة حرية بناء الجوامع والمدارس وترميمها وإلى غير ذلك من الإمتيازات ، نجد أن أقباط مصر قد حُرموا من أى مورد ثقافى روحى ، فقد كان تعليمهم قاصراً على بعض الكتاتيب الملحقة بالكنائس تعلمهم القراءة العربية والحساب وبعض الترانيم والألحان والتفاسير ، ولذا نجد أن الكهنة الأقباط كانوا دون المستوى الثقافى والروحى المطلوب بكثير ولكن هذا المركز الضعيف للأقباط لا يعنى عدم ظهورهم فى الحياة العامة ، فقد عُرفوا بمهارتهم فى الأعمال الإدارية والحسابية فاعتمد عليهم المماليك والأتراك اعتمادا كبيراً فاحتلوا بنسبة كبيرة بين موظفى الحكومة ، وقد أدت هذه الثقة إلى ظهور بعض الشخصيات القوية التى استطاعت بمكانتها الشخصية أن تلعب دوراً على مسرح الأحداث .

٦ ـ مصير اللغة القبطية فى عصر الدولة العثمانية:

أما اللغة القبطية كانت شبه قد تلاشت بالمرة فى أيام خلافة الحاكم بأمر الله (الفاطمى) فى القرن العاشر (٩٠٦ - ١٠٢١ م) إلا أن المقريزى يذكر أن الرهبان ظلوا يتكلمون بها حتى القرن الخامس عشر وأن بعض النساء والأطفال فى الصعيد ورهبان الأديرة الكائنة حول أسيوط وأهل درنكة من كبيرهم إلى صغيرهم

كانـــوا يتكلمون بها فى ذلك العصر ، وذكر أيضا **فاتسليب** العالم الذى زار مصر سنة ١٦٧٢ م أنه وجد بين الأقباط من يتكلم بلغته الأصلية.

ولما وفد نابليون إمبراطور فرنسا واحتل مصر سنة ١٧٩٨ م طلب أن يسمع من يتكلم باللغـــة القبطـــية فأحضروا له بقبطى من الصعيد يجيدها ولم ينازعه فى هذا الامتياز سوى امرأة عجوز.

٧ــ حالة المسيحية فى النوبة والخمس مدن الغربية:

تضـــاعف أوجاع الأقباط وامتداد نفوذ الحكم العثمانى إلى مملكة النوبة المسيحية التى كان ملوكها حتى القرن الثالث عشر مسيحيون خاضعون للسلطان المصرى يدفعون له الجـــزية ولكـــن بعـــد الفتح العثمانى أخذت الحكومة المسيحية فى بلاد النوبة تضعف تدريجياً حتى حلت محلها حكومة إسلامية اجتهدت فى محو النصرانية من تلك البلاد حـــيث قام الوالى أوذبيمير بالهجوم على النوبة واستولى على منطقة إبريم التى كانت بمـــثابة الحصن الواقى للنوبة الجنوبية وسرعان ما سقطت النوبة فى فأصبح التعذيب والإرهـــاب وابتـــزاز الأمـــوال بوسائلهم المعتادة، ونتج عن هذه الخطة الشريرة أن المســـيحيين النوبيـــين لم يكن أمامهم إلا الاستشهاد أو الهجرة أو التحول إلى الإسلام فكثـــر عـــدد الشهداء وأسلم الكثيرين ومن خلص من الموت هاجر إلى مديرية أسوان واســـتوطنوا فـــيها ومـــن بقى فى بلاد النوبة صار فى عوايده كالمسلم، وهكذا زالت المسيحية من النوبة تماماً.

وهكـــذا أهمـــل أمر الدين المسيحى فى النوبة والخمس مدن الغربية (التى قامت فيها حكـــومة إســـلامية منذ الفتح العثمانى) وبطل فى تلك البلاد وألزم مسيحيو الواحات باعتناق الدين الإسلامى وقلبت كنائسهم إلى مساجد).

٨ــ الادعاء بنهاية العالم:

قـــيل أنه فى شهر يونيو سنة ١٧٣٤ ادعى رجل قبطى من أهل التخيلات الفاسدة أن العالم سيقضى يوم الجمعة المقبل فذاع الخبر فى كل مكان وحل الهلع فى القلوب ولما ســـئل عـــن حقـــيقة الخبر قال مؤكدا " احبسونى فى أى مكان شئتم وإذا لم يتم قولى اذبحونى " فزاد خوف الناس ولما جاء الميعاد ولم يحصل شئ لم يكذبه الناس بل قالوا إن الأولياء التمسوا من الله أن يعفى عن العالم فعفى عنه.

" الفصل الثانى "
أحوال الكنيسة والأقباط فى ظل الحكم العثمانى

أولا:أشهر المظالم التى حاقت بالكنيسة والأقباط فى هذه الفترة:

(١) حادثة الثلاثة المباشرين السكارى (١٥٢١ م):

بعـد انتصـار السـلطان سليمان على الإفرنج أقيمت الاحتفالات بالقاهرة سبعة أيام متوالية، وحدث أن أتى إلى بيت القاضى بشر، ثلاثة مباشرين من النصارى ليتفرجوا على الزينة فسكروا هناك سكراً فاحشاً وتجاهروا بالمعاصى، حتى خرجوا عن الحد. فأرسـل القاضـى بشر ينهاهم عن ذلك فما سمعوا له كلاماً، وتزايد منهم الحال حتى خرجوا عن الحد فجاء بنفسه وأغلظ عليهم فى القول وسبّهم فسبّوه وأفحشوا فى السبّ له وسبّوا دين الإسلام، على ما قيل ، فأرسل القاضى بشر من قبض عليهم وتوجه بهم إلى المدرسة الصالحية وحضر القضاة الأربعة وكان ذلك اليوم يوم جمعة قبل الصلاة فلمـا حضر قاضى القضاة المالكى محى الدين الدميرى قامت عنده البينة بما وقع من النصـارى فـى حـق القاضى بشر الحنفى . ولم يوافق القاضى المالكى بقتل الثلاثة المباشـرين النصارى قائلاً يجب عليهم الحد والتعذير فإنهم كانوا سكارى، وكذلك قال باقـى القضـاة فلما سمع القاضى بشر الحنفى بذلك ثار على القضاة وأغلظ فى القول علـى قاضـى القضاة المالكى واجتمع بالمدرسة الصالحية الجمع الكثير من العوام، وهمّـوا بـأن يـرجموا القضـاة فى ذلك اليوم. ثم أن بعض الإنكشارية قبض على النصارى وأخرجهم من المدرسة الصالحية فلما خرجوا هجم عليهم الغوغاء من العامة وقطعوهم قطعاً قطعاً واجتمع السواد الأعظم من العوام بباب المدرسة وأخذوا فى رجم النصـارى الذين كانوا محجوزين بالمدرسة، وأخذوا السقائف التى تقع على الدكاكين ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار فاحترقوا وصاروا كالرماد. [١]

(٢) حادثة عرب الهوارة: -

عـندما كثـرت الثورات الداخلية بين الأمراء والمماليك والولاة والسلاطين والأتراك العثمانيين انتهز أهل الفساد ولا سيما العرب المعروفين بالهوارة هذه الثورات الداخلية وقامـوا بالسلب والنهب للبيوت وسفك دماء الرجال النصارى الذين لا لهم ولا عليهم بالإضافة إلى سبى النساء.

ويذكر ابن إياس أنهم انتهزوا محاصرة المماليك للوالى فى القلعة وهجموا على مدينة أخمـيم فى الوجه القبلى وكان معظم سكانها من النصارى، ونهبوها وخربوها وقتلوا

كثيـــرا من أهلها ولم يمض وقت قصير حتى استولى عرب الهوارة على معظم بلاد الوجه القبلى، فأصبح نصارى هذه المنطقة ينتموا إليهم، فأدخلوهم فى ذمتهم وحموهم، فصار القبطى يخاطب العربى الذى ينتمى إليه (بدَوى) والعربى يسمى القبطى الذى تحت حمايته (بنصرانى) وهكذا كانت عيشتهم فى هذه المدة راضية نوعاً لا يكدرهم إلا الحوادث والرزايا التى كانت تطرأ أحيانا بسبب اختلال الأحوال كما تقدم القول.

(٣) حوادث التحقير الأدبى:

التزم الأقباط فى عصر السلاطين العثمانيين الأتراك الاعتدال فى سلوكهم واقلعوا عن التباهـــى والفخفخـــة وكل ما كانوا يتهمون به من الترفع الذى جلب عليهم فى الأيام السالفة (عصر المماليك) مصائب عظيمة كما تقدم وعاشوا مدة فى أمان وسلام مع إخـــوانهم المســـلمين كإخـــوان تجمعهم الجامعة الوطنية، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم صابرين فى الشدائد وتقلبات الزمان.

ولكـــن نقـــول مع الأسف أن بعض كبار مشايخ المسلمين لم يشاؤا أن يكون الأقباط مساويين لهم فى حرية استعمال عوائدهم والتمتع بالحقوق الوطنية.

إذ يقـــول الجبرتى فى أيام القبطان حسن باشا (١٧٨٥ م) أيام السلطان عبد الحميد الأول نـــودى علـــى النصارى بأن لا يركبون الدواب، ولا يستخدمون المسلمون، ولا يشتروا الجوارى والعبيد، وإن من كان عنده شئ من ذلك باعه أو أعتقه. وأن يلزموا زيهـــم الاصلى من شد الزنار والزنوط وأن يغيروا أسمائهم التى على أسماء الأنبياء كإبـــراهيم وموســـى وعيسى وإسحق. فغير الموظفون عند المسلمين أسمائهم وعرف القبطـــى بإســـمين، اسم ينادى به فى مركز عمله واسم ينادى به بين أهله. كما يذكر الجبرتـــى أنـــه عـــندما لبس الأقباط الزنوط وشد الزنار تسلط العامة عليهم وتتبعوهم بالإيذاء ومن وجدوه بغير زنار رجموه بالحجارة وذرَوا التراب فى وجهه.[٢]

(٤) حوادث السلب والنهب: -

عندما قام والى مصر عام ١٧٨٥ م القبطان حسن باشا ليؤكد سيادة الباب العالى على مصـــر أبـــى أن يغادر البلاد قبل أن يملأ جعبته الخاصة بالنقود، فقام بعدة إجراءات تعسفية ضد النصارى تحقيقاً لمآربه.

ويقـــول الجبرتـــى أن حسن باشا قائد جيش السلطان عبد الحميد الأول (١٧٨٤ م) أرســـل إلى القاضى وأمره بالكشف عن جميع ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهرى على الأديرة والكنائس من أطيان وأملاك، والمقصود من ذلك استجلاب الدراهم. كما نودى على النصارى أن يحضروا جميع ما عندهم من الجوارى والعبيد، وإن لم يفعلوا ذلك وقع التفتيش على ذلك فى دورهم وأماكنهم وتخلصوا من ذلك بمال كثير فحصل العفو لهم ، وبعد يومين نودى على النصارى بإحضار ما عندهم من الجوارى والعبيد ساعة

تاريخه ، ثم نزلت العساكر وهجمت على بيوت النصارى لإحضار ما فيها فكان شيئاً كثيراً وأحضروهم إلى القبطان وأخرجوهم إلى المزاد وباعوهم واشترى الاغلبيه منهم العسكر وصاروا يبيعون منهم على الناس بالمرابحة ، ولم يكتف بذلك بل قرر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمراء المصرية مبلغ كبير من المال يبلغ ٧٥ ألف ريال ، كما أمر أيضا بإحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو فى ملكهما، وأن يكتب جميع ذلك فى قوائم ويقرر عليهم أجره مثلها فى العام وأن يكشف فى السجل على ما هو دار فى أملاكهم ، ثم قرر أيضا خمسمائة كيس تجمع من النصارى فقاموا بتقسيمها على أفرادهم فحصل لفقرائهم الضرر الزائد ، وقرر أيضا على كل شخص دينار جزيه (العال كالدون) وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة .

(٥) زيارة الأراضى المقدسة وحوادث الاختطاف:

ويقول أبو دقن المتقدم ذكره:

إذا قصد أحد الأقباط لزيارة الأراضى المقدسة كان لابد لهم من دفع غرامتين نظير التصريح له بذلك إحداهم للحكومة المصرية قبل قيامه والثانية عند وصوله إلى المدينة المقدسة وبسبب فداحة الغرامات امتنع الكثير منهم عن تأدية هذه الفريضة .

ولأسباب أخرى لم نقف على حقيقتها منع نصارى مصر مدة من الزمن عن زيارة الأراضى المقدسة وفى سنة ١٧٥٣ م سعى الأقباط بواسطة بعض كبارهم فى تجديد هذه العادة السنوية مع كونهم لم يجدوا معارضة من الحكومة ولكن تصدى لهم بعض كبار المشايخ فخابت مساعيهم.

ويقول الجبرتى: إن النصارى الأقباط قصدوا الحج إلى البيت المقدس برئاسة نيروز (كاتب رضوان كتخدا) الذى قدم إلى الشيخ عبد الله الشبراوى المفتى هدية ثمينة وألف دينار فكتب له فتوى وجواباً ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من ديانتهم وزيارتهم فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا فى قضاء أشغالهم وتسهيل أغراضهم وأحضروا العربان ليسيروا فى طريقهم وأعطوهم أموالاً.

وشاع أمر هذه الحادثة فى البلد واستنكرها المسلمون والتقى الشيخ عبد الله الشبراوى (المفتى) مع الشيخ البكرى الذى قام بتبكيته قائلاً كيف ترضى وتفتى للنصارى وتأذن لهما بذلك فإن ذلك سوف يصير سُنّه ويخرجون فى العام المقبل للحج ويعتبر سنه عليك وزرها إلى يوم القيامة، فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عنده مغتاظا وأذن للعامة بالخروج على النصارى ونهب ما معهم فاجتمع الغوغاء عليهم وهجموا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى ونهبوا ما معهم وجرّسوهم ونهبوا أيضا كنيسة الأنبا رويس بدير الخندق.[٣]

(٦) مواقف مؤلمه امتدادا لاسلوب النهب:

يذكر التاريخ والمؤرخ المسلم الجبرتى أن قبطان باشا قبض على راهب من النصارى واستخلص منه صندوقاً من ودائع النصارى وقبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال..
كما قبض على بعض نساء من أسرة المعلم إبراهيم الجوهرى فأقروا على خبايا أخرجوا منها أمتعه وأوانى ذهب وفضة وسروجا وغيرها.
وفى أيام السلطان عبد الحميد الأول وبعد سفر القبطان سنة ١٧٨٧ م تعرض الأقباط للاضطهاد مرة أخرى ويروى الجبرتى عن عبدى باشا والى الدولة وإسماعيل باشا أنهما حضرا الاحتفال بالمولد النبوى بمنزل الشيخ البكرى والتفت الباشا إلى جهة حارة النصارى وسأل عنها وعن سكانها وقيل له أنها بيوت النصارى، فأمر بهدمها فى الحال فسعى الأقباط فى المصالحة وتمت مقابل خمسة وثلاثين ألف ريال ، دفع السوريون منها ١٧٠٠٠ ودفع الأقباط الباقى.[٤]

ثانيا:الأقباط والجزية فى عهد الأتراك العثمانيين:

فى سلطنة محمود بن مصطفى:

سنة ١٧٣٣ م أمر حاكم كل قسم بأن يفرض ضريبة على الأقباط الساكنين فى دائرته زيادة عن الجزية المقررة على الأقباط واليهود وكانت تحصل منهم على ثلاث درجات الدرجة الأولى تدفع ٤٢٠ بارة عن كل نفس والثانية ٢٨٠ بارة والثالثة ١٠٠ بارة، وقد فرضت على جميع الذكور منهم بلا استثناء وألزم البطريرك بدفع الضريبة عن القسوس والخدام.

ثالثا:رأى الرحالة الأجانب فى عصر الأتراك:

كان عصر الدولة العثمانية عصراً شؤماً على المصريين عامة والأقباط خاصة وانتشرت فيه الفوضى والظلم والإقطاع وذلك نتيجة لحدوث خلل فى الإدارة والسلطة وسوء تصرف الولاة والحكام مما دعى قنصل فرنسا و (ميدميليه) والجبرتى والرحالة بوكول الانجليزى الذى أتى إلى مصر سائحاً فى سنة ١٧٣٧م وأقام بها بضعة أشهر وإذ كانت الحال فيها هادئة تمكن من الطواف فى جملة بلاد منها ولكنه قال فى كتابه إنه قلما كان يمضى يوم لم يسمع فيه بموت أحد الأمراء وزعماء المماليك مسموماً، ولذا لم يأمنوا لبعضهم ولا يخفى على القارئ ما تكون عليه البلاد فى مثل هذه الأحوال السيئة فلا غرابة إذا سمعنا أن أهل مصر عموماً لم يأمنوا فى ذلك الزمن على أعراضهم ولا أموالهم وأن الفقر ضرب أطنابه فى جميع البلاد.

وباختصار (الأقباط والمسلمون نسيج واحد):

رغم المظالم التي حاقت بالكنيسة فى عصر العثمانيين وحوادث السلب والنهب والسرقة التى انتشرت إلا أن النصارى كما تقدم القول قد نعموا بعض الفترات التى عملوا فيها عند الأمراء المماليك والسلاطين الأتراك وكانوا أشبه بالمديرين والوكلاء فضلا عن أن الولاة والحكام جعلوهم موضع ثقتهم وسلموهم إدارة مصالحهم وأشغالهم وحساباتهم فقاموا بها أحسن قيام وكثيراً ما كانت أسماؤهم تقرن بأسمائهم فيقال مثلاً المعلم غبريال السادات والمعلم يوسف الالفى والمعلم منقريوس الموره وغير ذلك نسبه إلى مخدوميهم ولما توسموا فيهم الصدق والأمانة أودعوهم أسرارهم فحفظوها وإستشروهم فى بعض أمورهم المهمة فوجدوا فى آرائهم خيراً وصواباً. وكانوا يدبرونها أحسن تدبير أدى ذلك إلى الاعتقاد بأن الأقباط على بينة تامة بالسحر والتنجيم والعرافة.

وعرف عقلاء المسلمين أهمية الأقباط والاحتياج إليهم فقدروهم حق قدرهم وأدخلوهم فى حمايتهم ومنحوهم مزيّة المساواة بالإفرنج وغيرهم الذين كانوا يعيشون فى مصر تحت حماية دولهم كما قال أبو دقن فى كتابه المتقدم ذكره.[5]

كلمه حق ينبغى أن تقال:

تأكيدا على ما جاء تحت العنوان السابق باختصار ودليلا على خلود الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة- ما جاء فى كتاب " الهلال والصليب " للأستاذ عبد التواب يوسف - انه فى أيام البابا بطرس السادس المعروف بالأسيوطى (البطريرك الـ ١٠٤) فى أواخر عهد العثمانيين حدث خلاف بينه وبين الأمير (أمين ايواظ) وطلب إليه البطريرك أن يحتكم فى الخلاف بينهما إلى علماء الأزهر واجتمع العلماء ثم خرجوا على الناس بقرارهم وهو أن البطريرك على حق وأن الأمير ليس صاحب حق.هكذا عامل المسلمون الذين يؤمنون ما فى الإسلام من سماحة إخوتهم الأقباط معامله طيبه.

وكتب د. رفعت السعيد عن موضوع (الأقباط والمسلمون نسيج مصرى واحد) فقال:

"عندما ثار المصريون على الحكم العثمانى وأقام شيخ العرب همام حكومته فى صعيد مصر فى منتصف القرن الـ ١٨ وقف الأقباط إلى جواره يقدمون له ما استطاعوا من عون وعندما حوصر الشيخ همام بالصعيد ومنع من الاتجار مع بقية البلاد المصرية المجاورة كان الأقباط يقومون بشحن القمح من القرى التابعة لشيخ العرب همام لبيعه لحسابه فى القاهرة."[6]

" الفصل الثالث "

قديسوا ومشاهير الكنيسة القبطية فى عصر الدولة العثمانية

(١٥١٧ م - ١٧٩٨ م)

أولا: الآباء البطاركة:

عاصــر حكــم الدولة العثمانية الذى أستمر ما يقرب من ثلاثة قرون (٢٨٦ عاماً) ثلاثة عشر من الآباء البطاركة إبتداءا من البابا غبريال السابع (الــ ٩٥) إلى البابا يــوأنس الــثامن عشــر (البطريرك الــ ١٠٧) وسوف نتكلم قليلا عن أشهر هؤلاء الــبطاركة وعــن الأحــداث الجسام التى حدثت فى عهدهم والتى أثرت فى الكنيسة والشــعب القبطــى ومن عاصروهم من مشاهير وقديسو الكنيسة وعلمائها وأساقفتها وأراخنتها فى هذه الفترة ، وتشمل هذه الفترة سيرة ١٤ بطريركاً .

١ــ البابا غبريال السابع (البطريرك الــ ٩٥)(١٥٢٥ م - ١٥٦٨ م):

كــان يعرف بابن مهنا ومن منشية أبو عايشه التى بجانب دير المحرق وترهب بدير السيدة العذراء (السريان) باسم الراهب روفائيل وقد اختير للبطريركية فى سنة١٥٢٥م باسم البابا غبريال السابع وهو أول بطريرك اختير من دير السريان.[٧]

أعماله مدة البطريركية: -

اهــتم بتعميــر الأديرة وخاصة دير الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا ودير الميمون ودير المحــرق وقــد سجل الآباء الرهبان بدير الأنبا أنطونيوس فى ذكراه اعترافا بفضله فكتبوا على حائط الكنيسة الأثرية تحت أيقونة الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا بالخورس الأوســط ما يؤيد ذلك، وفى أيامه عاد دير الأنبا بولا إلى خرابة إذ سطا عليه عربان بنــى عطية ونهبوه وشنقوا فيه أحد الرهبان وأخذوا أوانى البيعة وتركوا الدير خراباً خالياً من الرهبان فحزن جداً البابا غبريال واهتم به ثانيا وعمّره لأنه كان شديد الغيرة علــى عمــارة الأديــرة وفــى أيامه أيضا عادت إثيوبيا إلى أحضان الكنيسة القبطية المرقسية.

نياحتـــــــــه:

وفى سنة ١٥٧٨ م فرض السلطان على جميع التجار الخواجات واليهود ومن جملتهم النصارى ألفين دينار بسبب سفر الجيش المتوجه به سنان باشا الوزير العثمانى فتوجه البابا حزيناً إلى دير القديس أنطونيوس بالميمون وعند وصوله إلى الميمون مات فيها ودفن فى مقبرة جديدة تحت جسد القديس مرقوريوس بمصر القديمة.

٢ــ البابا يوأنس الرابع عشر(البطريرك الــ ٩٦)(١٥٧١م - ١٥٨٦م):

الشـــهير بالمنفلوطـــى، من بلدة منفلوط وترهب بدير السيدة العذراء البراموس ببرية شهيت واختير بطريركاً فى سنة ١٥٧١ م باسم البابا يوأنس وفى أيامه أصدرت الدولة مرســوماً بتغييـــر لون عمائم النصارى وجعلها سوداء اللون كما ألزمت اليهود بلبس الطراطير.[٨]

وفى أيامه أستشهد القديس يوحنا القليوبى الذى سوف نذكر قصته فيما بعد.

نياحـــته: تنـــيح البابا فى سنة ١٥٨٦ م ودفن فى برما ثم نقل جسده إلى دير السريان وكان ذلك فى أيام السلطان مراد الثالث.

٣ــ البابا غبريال الثامن (البطريرك الــ ٩٧)(١٥٨٧ م - ١٦٠٣ م):

كان راهبا فى دير الأنبا بيشوى باسم الراهب شنودة وسيم بطريركا باسم البابا غبريال الثامن فى سنة ١٥٨٧ م وكان ذلك أيام السلطان العثمانى مراد الثالث.

الحوادث السياسية فى عهده: -

حدث فى عهد هذا البابا إضطرابات عديدة بين العسكر والولاة بمصر وانتشر بسببها طاعون عظيم وقحط ماحق وثورات عديدة، وفى هذا العهد تسربت عادة التدخين إلى مصر وهى لم تكن معروفة فى البلاد المصرية من قبل ، وفى أيامه سعى بابا روميه مـــرة ثانية لضم الكنيسة القبطية كما قام بمعاكسة الكنيسة القبطية فى الحبشة (إثيوبيا) وقـــد قـــام الوالـــى بعزل البابا مدة من الزمن ثم أعيد إلى كرسيه كما حدث فى أيامه زلـــزال عنيف أسقط عدداً من المنازل والمنارات بل وتفلق من شدته جبل المقطم إلى ثلاث فلق قرب اطفيح وتفجر الماء من هذا الفلق.[٩]

تعديل الأصوام فى سنة ١٦٠٢ م : -

أصدر البابا غبريال بتعديل الاصوام فى الكنيسة القبطية كما يأتى:

١) أن يكون صوم الرسل من يوم عيد العذراء ٢١ بؤونة وفطره فى ٥ أبيب.

٢) أن يكون صوم السيدة العذراء الذى يحل فى شهر مسرى اختياريا فمن صامه وفاء لنذر، قطعه على نفسه فله ثوابه ومن لم يصمه فلا جناح عليه.

٣) أن يبدأ صوم الميلاد من أول شهر كيهك ويكون فصحه عيد الميلاد (أى أن صوم الميلاد ٢٨ يوما فقط).

٤) أن لا تصام ثلاثة أيام نينوى.

وقد وافقت عليه الأمة القبطية وقتئذ.ولأنه لم يأخذ بهذا التعديل موافقة المجمع المقدس لم يستمر قراره طويلا.

نياحتـــــــه: تنيح فى سنة ١٦٠٣ م ودفن بمقبرة دير السريان وذلك فى أيام السلطان العثمانى أحمد الثانى.

٤ـ البابا مرقس الخامس (البطريرك الـ ٩٨)(١٦٠٣ م - ١٦١٦ م):

كـان مــن أهالى البياضية وترهب بدير أبو مقار باسم الراهب مرقس المقارى سنة ١٦٠٣ م. أختيـر بطريركا باسم البابا مرقس الخامس فى أيام السلطان محمد الثالث وولاية الوزير على باشا السلحدار.

ومن أعمـــــاله:

- قـام بـزيارة القـدس الشـريف واعتنى بأملاك الأقباط هناك. وقد نال هذا البابا اضـطهادا شـديداً مــن أقباط الوجه البحرى بسبب الاصوام والزيجة (طالبوا بتعدد الــزوجات) وكـان نتيجـتها حبسه فى برج بالإسكندرية مدة طويلة وقاموا بسيامة بطريـركاً خلافــه وبعد مدة توجه نصارى القاهرة وتدخلوا للإفراج عن البابا مرقس وطـرد الـبابا الدخيل وكان الذين تسببوا فى حبس البابا مرقس قد أبادهم الله سريعا وقطع ذريتهم وهدم منازلهم وصارت خراباً.

نيـــــاحته :

فــى أيـام السلطان عثمان وولاية مصطفى باشا على مصر تنيح فى سنة ١٦١٩ م ودفن فى مقبرة البطاركة بدير أبو مقار ببرية شهيت.

٥ـ البابا يوأنس الخامس عشر(البطريرك الـ ٩٩)(١٦١٩ م ـ ١٦٢٩ م):

كان من أهل ملوى وترهب بدير القديس أنطونيوس بالبحر الأحمر باسم الراهب يوحنا الملوانـــى. وفى سنة ١٦١٩ م سيم بطريركاً باسم البابا يوأنس الخامس عشر فى أيام السلطان عثمان وولاية مصطفى باشا والى مصر.

حدوث الوباء فى عهده:

فى أيامه حدث وباء أطلق عليه الموت الأسود سنة ١٦٢٢ م كما حدث وباء آخر سنة ١٦٢٥ م وخـــلال هذه الأوبئة والمجاعات والاضطرابات ذاق الأقباط ظلماً مضاعفاً فكثيــراً ما كانوا يلزمونهم بالسير على الشمال ليتركوا اليمين لغيرهم وكثيراً ما كانوا يمنعونهم من ركوب الخيل وما هو أمر من هذا كله كثيراً ما كانوا يمنعونهم من إقامة شعائرهم الدينية والتضييق بكل أنواعه.

ومن أشهر الذين عاصروه القس يوسف البرماوى.

نياحتـــــه:
تنـــيح فـــى سنة ١٦٢٩ م ودفن فى دير القديس الأنبا بيشوى فى أيام السلطان مراد الرابع.

٦ـ البابا متاؤس الثالث (البطريرك الـ ١٠٠)(١٦٣١ م - ١٦٤٦ م):

كان يدعى تادرس من طوخ النصارى (بمديرية المنوفية). وترهب بدير القديس أبو مقـــار باســـم الراهب تادرس المقارى وفى سنة ١٦٣١ م سيم بطريركاً باسم متاؤس وذلـــك فـــى أيـــام الأمير حسن قائمقام الوالى موسى باشا المخلوع. وفى أيامه حدث اضـــطهاد للـــبابا بسبب رسوم الولاية كما حدث فى أيامه أيضا غلاء عظيم فى البلاد وهبط مستوى النيل هبوطاً كبيراً.

نياحتـــــه:
تنـــيح فـــى سنة ١٦٤٦ م ودفن فى كنيسة مارجرجس بطوخ دلكة (طوخ النصارى) وكان ذلك فى أيام السلطان إبراهيم الأول وكان والى مصر وقت وفاته محمد باشا بن حيدر باشا.

٧ـ البابا مرقس السادس(البطريرك الـ ١٠١)(١٦٤٦ م - ١٦٥٦ م):

نشأته ورهبنتـــــه: -

نشـــأ فـــى ناحية بهجورة بالوجه القبلى، وترهب بدير القديس الأنبا أنطونيوس باسم الـــراهب مرقس الانطونى .. وقد سيم بطريركاً فى سنة ١٦٤٦ م باسم البابا مرقس السادس وكان ذلك فى أيام السلطان إبراهيم الأول وكان محمد باشا بن حيدر باشا والياً على مصر.
وقد حدث فى أيامه أن ثار الرهبان عليه وتسببوا فى سجنه ثم أفرج عليه بعد مدة من الزمن وفى سنة ١٤٤٩ نودى بالبلاد أن لا يركب النصارى خيولاً ولا يلبسون الشدود (أحـــزمة) ولا طواقـــى جوخ حمراء ولا مراكيب وإنما يلبسون شدودا زرقاء طول الواحدة ٢٠ زراعا وإلى جانب هذا الضنك أمعن الوالى فى التتقيل على القبط بإبطال حقـــوق الـــوراثة وإقامة نفسه وريثاً لمن يموت فيستولى على أموال اليتامى الأرامل والثكلـــى ولكـــى يتسنى له أن يستولى على أكبر مقدار من الإرث كان يقتل رجلاً أو أثنين يومياً حتى قيل أن عدد ضحاياه بلغ ألفاً ومائتى رجل.
ومن أشهر الرجال فى عصره أبو دقن المنوفى.

نياحتـــــه :
تنيح فى سنة ١٦٥٦ ودفن فى مقبرة البطاركة بكنيسة مرقوريوس بمصر القديمة.

٨ـ البابا متاؤس الرابع" الشهير بالميرى"(البطريرك الـ ١٠٢) (١٦٦٠ م - ١٦٧٥ م):

كان يدعى باسم الراهب القمص جرجس الميرى " كان رئيساً لدير البراموس " سيم بطريركاً سنة ١٦٦٠ م فى أيام السلطان محمد الرابع وقد حدث حريق كبير فى أيامه جهة حارة زويلة مات فيها خلق كثير وتخربت فيه عمائر كثيرة وذلك سنة ١٦٦٩ م . وفى أيامه وخاصة سنة ١٦٧٠ م انتشر موت عظيم بمصر وضواحيها بسبب وباء عظيم دعى وباء الحريق وفنى كثير من الخلق بسببه. وكان البابا متاؤس الرابع هو آخر من سكن من البطاركة فى حارة زويلة وأول من نقل الكرسى البطريركى من حارة زويلة إلى حارة الروم سنة ١٦٦٠ م.

حوادث مؤلمة:

ذكر الأب فاتسليب عن البابا قائلاً:

" إن البابا شكى له من معاملة الأتراك إذ يسمحون لكل بطاركة الطوائف الأخرى بالخروج وحرية التنقل فى المدينة فلا يتعرض لهم أحد وكان لهم الحرية فى عمل ما يشاءون أما هو فكان الوحيد الموضوع تحت مراقبة الأتراك فكان ممنوعاً من الخروج كما كان محرماً عليه الاتصال بالجاليات الأجنبية وغير مسموح له بالسفر إلى أية جهة وكانت حياته مهددة فى كل لحظة.

اضطهاد الأتراك للقبط فى عهده:

هنا ويجب القول بكل صراحة أنه ما من طائفة فى مصر من الطوائف غير الإسلامية كانت تعامل باضطهاد شديد غير أقباط مصر أصحاب البلاد الأصليين الذين كانوا يعتبرون عكرة العالم بالنسبة للمسلمين حتى وصلت معاملتهم للقبط أقل قيمة من معاملتهم ليهود مصر فكانوا يسيئون إليهم ويعاملونهم حسب أهوائهم وكانوا يغلقون لهم الكنائس ويقفلون عليهم أبواب بيوتهم لأتفه الأسباب ويظلمونهم ظلماً فاضحاً حتى يغرموهم بدفع غرامات مالية باهظة.

وفى سنة ١٦٧٢ م قاس القبط اضطهاداً فظيعاً حيث أن بعض الجند الأتراك قاموا بذبح امرأة خليعة وألقوا بجثتها قريباً من بركة الأزبكية، ونتيجة لذلك قام العساكر ظلماً وعدواناً بغلق بيوت النصارى المتاخمة لهذه المنطقة وأجبروهم على دفع غرامة قدرها ألف دينار دية لهذا الدم المهدور إذا أرادوا أن يفتحوا بيوتهم ويسعوا على معاشهم.

وفى أيامه أيضاً زادت فريضة الضرائب على المسيحيين كما ذكرنا فى حالة الأقباط فى العصر العثمانى.

أعماله الرعوية:
كمـــا حدثت فى أيامه معجزات خاصة بأيقونة رئيس الملائكة ميخائيل، وهى موجودة بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية، ومن رسم القديس لوقا.
وفى أيامه كان لا يزال موجوداً بوادى النطرون سبعة أديرة (١) أبو مقار (٢) يوأنس القصير (٣) الأنبا بيشوى (٤) مكسيموس ودوماديوس (٥) أنبا موسى الأسود (٦) أنبا يحنس كاما (٧) السريان.

فشل المؤامرات الشيطانية أمام وداعة وتقوى البابا متاؤس: -

ذات مـــرة أراد بعـــض الغوغاء أن يهدموا كنيسة القديس مرقوريوس بمصر القديمة ولكى يصبغوا على عملهم صبغة قانونية طلبوا من الوالى أن يعين لهما أغا وتوجهوا إلـــى الديـــوان وعينوا من قبل الدولة أغا للقيام بتنفيذ هذه المهمة فلما بلغ الخبر البابا الأنـــبا مـــتاؤس اغـــتم غمـــاً شديداً وأقام ليلة ساهراً متشفعاً وطالباً مساعدة القديس مرقوريوس. فما كاد الجند يقترب حتى وقع عليهم حائط بجوارهم فماتوا جميعاً وشاع الخبر فى المدينة كلها فاضطربوا وعدلوا عن مشورتهم الرديئة وقدم البابا الشكر لله .

نياحـــته: تنيح فى سنة ١٦٧٥ م ودفن فى مقابر البطاركة بكنيسة القديس مرقوريوس بمصر القديمة.

٩ــ البابا يوأنس السادس عشر(البطريرك الـ ١٠٣)(١٦٧٦ م – ١٧١٨ م):

" **الشـــهير بالطوخـــى** " كان من ناحية طوخ النصارى بالمنوفية. وكان اسمه إبراهيم وترهب بدير الأنبا أنطونيوس باسم الراهب إبراهيم الانطونى وسيم بطريكاً باسم البابا يـــوأنس ســـنة ١٦٧٦ م. وحـــدث فى أيامه اشتد الغلاء فى البلاد وكان ذلك فى سنة ١٦٧٨ م.

اضطهاد النصارى واليهود بشتى الوسائل سنة ١٦٧٨ م:

وفضـــلاً عمـــا أصـــاب البلاد من الغلاء نودى فى نفس السنة أن يعلق النصارى فى رقبـــتهم جلجلين وفى رقبة اليهودى جلجال واحد وأن يضع كل من اليهود والنصارى عمـــائمهم وألا يلبســـوا أثواب من الجوخ أو الصدف كما أنه نودى أن لا تأتزر نساء النصارى بمآزر بيضاء وتكون ملابس النصارى عموماً سوداء.
وفـــى زمن ولاية أحمد قره محمد باشا الذى سعى إليه أحد الحاسدين مدعياً أن طائفة النصـــارى أحـــدثت بنـــياناً جديداً فى كنائسهم، فقام الوالى ببحث الأمر وأمر بإغلاق الكـــنائس وهدم ما تم تجديده ولم يشفع فى ذلك لكى يلغى الأوامر سوى إعطائه مبلغا خاصا له وهو " صره من الدراهم ".

أعماله الرعوية وتنظيم بعض الأوقاف والطقوس:

صـــنع فى أيامه الميرون المقدس وذلك سنة ١٧٠٣ م، كما زار دير الأنبا أنطونيوس ثلاثة مرات وقام بتعمير دير الأنبا بولا أول السواح.

وفى أيامه أيضا تم فصل وقف دير الأنبا أنطونيوس عن أوقاف دير الأنبا بولا.

كما حدث فى أيامه عدم وفاء النيل وما نتج عنه من وباء وغلاء وفناء للبشر وذلك فى سنة ١٦٩٥ م، وأعجوبة فيضانه على يديه.

وفى أيامه أقام نظار لكل كنائس القاهرة وقام بتعمير القلاية البطريركية بحارة الروم وتعمير كنائس وأديرة ومحلات القدس الشريف.

وفى سنة ١٧١١ م حدثت زلزلة عظيمة وحل الجراد بالبلاد وكان ذلك فى عيد القيامة المجـيد فرحم الله العباد بنزول أمطار وإطلاق الرعود فمات الجراد ونجت البلاد من مصائبهم.

كمـــا حدث فى أيامه ترتيب طقس " حق الذخيرة المقدسة "وحملها للمرضى والمقعدين والمطروحين فى منازلهم وصار العمل بذلك الترتيب إلى يومنا هذا.

نياحتــــــــــــه:

لقد حدث سنة ١٧١٨ م وباء شديد آخر، مات من جرائه خلق عظيم وتنيح بسببه البابا ودفن فى مدفن البطاركة بكنيسة القديس مرقوريوس بمصر القديمة وذلك فى مدة حكم السلطان العثمانى أحمد الثالث.

١٠ــ البابا بطرس السادس البطريرك (الــ ١٠٤) (١٧١٨ - ١٧٢٦ م):

الملقــب بطرس الاسيوطى. ولد بأسيوط وسمى باسم مرجان وترهب فى دير القديس الأنــبا أنطونيوس وسيم قساً ورئيساً لدير القديس الأنبا بولا وسيم بطريركاً باسم البابا بطرس السادس فى سنة ١٧١٨ م فى أيام السلطان أحمد الثالث. وفى أيامه قتل المعلم لطف الله شاكر.

حوادث مؤسفـــــــــة: -

حـــدث فـــى أيامـــة فـــرض غـــرامات على الأقباط بلغت مائة ألف ريال على أقباط الإسكندرية وهدموا الكنائس واضطر غالبية الناس إلى الهروب من المدينة.

نياحتـــــه:

تنـيح فـــى سنة ١٧٢٦ م ودفن فى مقبرة الآباء البطاركة بكنيسة الشهيد مرقوريوس بمصر القديمة وذلك فى أيام سلطنة أحمد الثالث العثمانى.

١١ــ البابا يوأنس السابع عشر (البطريرك الــ ١٠٥)(١٧٢٧ م - ١٧٤٥م):

الشــهير يــوأنس الملوانى. كان يدعى باسم عبد السيد من أهالى ملوى وترهب بدير الأنبا أنطونيوس ولكنه سيم قساً بدير الأنبا بولا باسم القس عبد السيد واختير بطريركاً ســنة ١٧٢٧ م فى أيام السلطان أحمد الثالث العثمانى ودعى باسم البابا يوأنس السابع عشــر وفــى أيامه أبطلت عادة استلام الصليب والعكاز من مقبرة سلفائهم البطاركة واستمرت هكذا إلى يومنا هذا.

رسامة أساقفة للحبشة:

فى أيامه رسم ثلاثة أساقفة للحبشة أحدهم قبطى والآخران حبشيان فقبض عليهم حاكم ميناء مصوع الاسلامى وأكره أحد الحبشيين على اعتناقه الإسلام، وأما الثانى فتمكن عــن طريق الرشوة الهرب والوصول إلى القاهرة، وأما القبطى فاختفى. وعندما قام الــبابا برســامة مطران قبطى جديد تكررت المأساة ولكن الأسقف الحبشى تمكن من تسهيل سبل الفرار للمطران القبطى أما هو فقد دفع فدية وأطلق سراحه.

وفى أيامه اهتم بتعمير دير القديس الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا. كما تم فى أيامه زيادة الضرائب على النصارى واليهود ثلاثة أضعاف.

وفى سنة ١٧٤٠ م حدث غلاء عظيم وزلزلة عظيمة زعزعة أساسات الأرض.

نياحتــــــــــة:-

وفــى ســنة ١٧٤٥ م تنيح البابا ودفن فى مقبرة البطاركة بكنيسة الشهيد مرقوريوس بمصر القديمة فى عهد السلطان محمد الأول.

١٢ــ البابا مرقس السابع البطريرك (الــ ١٠٦) (١٧٤٥ م - ١٧٦٩ م):

كــان مــن أهالى قلوصنا واسمه سمعان وترهب بدير الأنبا بولا ودعى باسم الراهب ســمعان واختيــر للبطريــركية باســم البابا مرقس السابع فى سنة ١٧٤٥ م فى أيام السلطان العثمانى محمد الأول. وفى أيامه منع الأقباط من زيارة بيت المقدس وحدثت حادثــة نهــب وسطو وضرب حجاج بيت المقدس بقيادة المعلم نيروز كاتب رضوان كــتخدا التى ذكرناها سابقاً. ومن أشهر الأساقفة فى أيامه الأنبا بطرس كبير مطارنة الصعيد.

نياحتــــه: -

تنــيح فى سنة ١٧٦٩ م ودفن فى مقبرة البطاركة بكنيسة الشهيد مرقوريوس بمصر القديمة فى أيام السلطان مصطفى الثالث.

١٣ــ البابا يوأنس الثامن عشر البطريرك (الـ ١٠٧)(١٧٦٩ م – ١٧٩٦م):

مــن أهالــى الفــيوم وكان يدعى يوسف وترهب بدير الأنبا أنطونيوس باسم الراهب يوسف الأنطونى وسيم بطريركاً باسم البابا يوأنس الثامن عشر سنة ١٧٦٩ م فى عهد السـلطان مصطفى الثالث العثمانى. وفى أيامه أستولى حسن باشا التركى على خزانة وأموال البطريركية.

ومــن أشــهر الأساقفة فى عصره الأنبا يوساب الأبح الرجل اللاهوتى الذى ذكرت علاقته بالبابا يوأنس بالتفصيل فى كتاب الأساقفة المشهورين بدير الأنبا أنطونيوس.

مشاهير الأقباط فى عهده:

١ – المعلمان رزق وإبراهيم الجوهرى.   ٢ – المعلم واصف

كمــا حــدث فــى عهده معظم حوادث التحقير الأدبى التى ذكرناها سابقاً فى الكنيسة القبطــية فى عصر الدولة العثمانية كذلك امتد التعسف إلى جعل ركوب الخيل قاصرا علــى المسلمين أما القبط وبقية غير المسلمين فكانوا لا يركبون غير الحمير فإذا مر علــيهم أصــغر مملوك كان عليهم الترجل وتقديم الإنحنائة الواجبة وكان يجرى أمام المملــوك ســايس ليمهد الطريق لسيده ومن لم يسرع فى التنفيذ كان نصيبه الضرب بالعصا.[١٠] وفى سنة ١٧٩١ م حدث وباء شديد مات بسببه الألوف المؤلفة وذلك حين تضــافرت الطبيعة مع طغيان إبراهيم بك ومراد بك إذ هطلت الأمطار مرارا بطريقة غير معهودة فى مصر حتى تسببت فى انحدار سيل المياه من الجبال وملئت الشوارع والبيوت والمحلات إلى حد أن عدداً من البيوت فى حى الحسينية سقط وقد صحب هذه السيول رعد قاصف وبروق تخطف الإبصار فامتلأت القلوب فزعا ثم تفشى الوباء فى أعقاب هذه السيول تفشياً مزعجاً حتى لقد كان الناس يرددون فى ذهابهم وإيابهم كلمة " يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف " . وقد قام بعمل الميرون المقدس سنة ١٧٨٦ م .

نيــــاحته:

تنيح سنة ١٧٩٦ م ودفن فى مقبرة البطاركة بكنيسة الشهيد مرقوريوس بمصر القديمة وذلك أيام إمارة إبراهيم بك ومراد بك.

" ثانيا " أشهر الأساقفة والأراخنة فى عصر الدولة العثمانية

١ ــ الأنبا ميخائيل (العلامة):

كان أسقفا على البهنسا والاشمونين وكان من أبرز المطارنة أيام البابا بطرس السادس وقد كتب هذا الأسقف شرحاً وافياً للعقيدة الأرثوذكسية رد به على أضاليل لاون.

٢ ــ الأنبا بطرس كبير مطارنة الصعيد:

كان راهباً بدير السيدة العذراء مريم (السريان) باسم الراهب بطرس ثم أختير رئيساً علـــى ديره بالإضافة إلى مطالبته بالإشراف على بقية الأديرة فى وادى النطرون ثم ســامه الـــبابا مـــرقس الســـابع مطراناً على كرسى جرجا وأخميم والصعيد الأعلى (قفط وقوص وإسنا وأرمنت).

وكـــان معاصـــراً للمعلم إبراهيم الجوهرى ودارت بينهما مكاتبات بخصوص تعمير وتـــرميم الدير وفى أواخر أيام البابا مرقس السابع وأثناء مرضه كان ينوب عنه فى هذه المسئولية لأنه كان ضمن الآباء المجاهدين فى سبيل العقيدة الأرثوذكسية.

وقـــد وضـــع كـــتاباً لتعليم شعبه الإيمان السليم، ورداً على الهرطقات ربما يكون هو "كتاب البرهان " وهو موسوعة لاهوتية.[١١]

٣ ــ القس الراهب يوسف الزير البرماوى:

كـــان خادمـــاً بكنيســـة مارجرجس ببرما ويؤخذ من كتاباته أنه عاصر الأنبا يوأنس الخامس عشر وخليفته المباشر الأنبا متاؤس الثالث عشر ، والشئ الوحيد الذى نعرفه إلى جانب كهنوته أنه كان يجيد اللغة القبطية كما كان فصيحاً ومتقدماً فى اللغة العربية وعمـــل كاتباً للأمير غطاس وقد وضع بعض كتاباته فى بيته الخاص ، وبعضها فى دار الأمير الذى كان حين يراه يكتب يدعه فى عجلة ولا يمنعه منه.

ومن الكتب المتبقية عنه:

أ ــ مخطوطه محفوظة بالمتحف القبطى رقم٣١٢مكتوبة بالقبطية والعربية والتركية.

ب – مخطوطة أخرى محفوظة فى الكنيسة فى برما.

ج ــ كتاب خاص باللقان.

٤ ــ الراهب القديس الشهيد يوحنا القليوبى:

فـــى أيـــام البابا يوأنس الرابع عشر البطريرك (الـــ ٩٦) قد حدث أن أقتنص أحد الحكام هذا الراهب خارج الدير ولم يكتف بمنعه من العودة إلى البرية المقدسة بل أراد إقحامه على إنكار المسيح له المجد ، ورفض الراهب رفضاً باتاً أن ينكر السيد المسيح فصدر الحكم عليه بغرس السكاكين الحادة فى يديه وإيقاد مشاعل على كتفيه ووضعه

على جمل يطوف به شوارع المدينة تحيط به الغوغاء الصاخبة ، فتحمل هذا كله فى صمت تام ويبدوا أن هدوءه زاد الحاكم غضباً فأصدر أمره بربط يوحنا على عدد من الخشـب وخلال ضربه وتعذيبه استودع روحه بين ايدى أبيه السماوى ونال الإكليل المعد للذين يصبرون إلى المنتهى ، وكان استشهاد الراهب القديس يوحنا القليوبى يوم الأحـد المـبارك الموافق ٣٠ هاتور سنة ١٢٩٨ ش (١٥٨٢/١٢/٦ م) وفى اليوم التالـى أنـزلوا جثمانه الطاهر على الخشبة وسلموه للقبط الذين مضوا به إلى كنيسة القديسـة الشـهيدة بربارة بمصر القديمة حيث أقاموا عليه الصلوات الكنسية ورفعوا الأسرار المقدسة ثم دفنوه بتلك البيعة المقدسة مثوى الشهداء .

٥ ـ استشهاد قسيس فرنسى:

أتهـم بعض الفرنسيين القاطنين بالناصرة القس " كليمنت ريكوليه " بالخيانة وأنه يبدد أمـوال الكنيسـة المخصصة للاحسانات فخاف القس وفر هارباً إلى الوالى فى القلعة وطلـب إليه أن يقبل إسلامه. وكان ذلك فى يوم ٢٣ ابريل سنة ١٧٠٣ م ولما حضر بـين يدى الوالى بعد يومين وطلب منه تأييد إسلامه على يد شهود فقال أنه نصرانى ويعـيش ويموت نصرانياً. وفى يوم ٢٨ من نفس الشهر ختّنوه بالرغم عنه وقدموا له ثـياباً وعمامة فلبس الثياب وألقى بالعمامة على الأرض فضربوه ضرباً مبرحاً حتى كـادت روحه تفارقه،ثم زجوه فى السجن ، وبقى فيه أياماً وبينما كان القنصل يسعى لـدى الوالى فى خلاصه وإطلاق سبيله ، وصله كتاب يطلب فيه أن يتركه ليكفر عما حدث منه ، وينال أكليل الشهادة.

وفـى يـوم ١٧ مايو سنة ١٧٠٣ ضرب عنق القسيس على مشهد من الناس وسلّموا جثته للقنصل الذى أخذها ودفنها فى مدافن الأقباط بدير الخندق.[١٢]

٦ ـ يوسف أبو دقن المنوفى:

مـن كبار الاراخنة فى القرن السابع وكان معاصراً للبابا مرقس السادس. وهو رجل قبطـى من أهل الفضل والوجاهة وضع كتاب بعنوان " التاريخ الحقيقى للقبط فى ليبيا والنوبة والحبشة، ضمنه تفصيلات عن حالة القبط الاجتماعية والروحية وعاداتهم وقدم دفاعـاً منطقـياً عـن عقيدتهم الأرثوذكسية، ثم قارن بعد ذلك بينهم وبين غيرهم من المسيحيين فى مصر. ومع أنه أورد هذه المقارنة إلا أنه وضعها فى أسلوب من الأدب واللياقة.[١٣]

ويقول أبو دقن أن أعضاء الكنيسة القبطية مشهورون فى كل ممالك العالم بلقب ممتاز وهـو (**مسيحيو الحزام**). وليس بعجيب أن كتابه هذا موجود الآن بجامعة أوكسفورد بإنجلتـرا شأنه فى ذلك شأن العديد من كتبنا الموجودة فى مختلف مكتبات العالم تشهد بأسـلوبها وتـرتيبها لدقة مؤلفيها وشدة حرصهم على العقيدة وعنايتهم بتوصيلها إلى

شـــعبهم، وما كان يخطر على بالهم أنها ستكون رسالة إلى شعوب بعيدة، ولكن هكذا سمح الآب السماوى. ولقد طبع وترجم كتاب أبو دقن إلى اللاتينية سنة ١٦٧٥ م وإلى الإنجليـــزية ســـنة ١٦٩٣ م ثم طبع فى هولندا سنة ١٧٤٠ م ومما يؤسف له أن هذا الكـــتاب لـــم يجد من يبحث عنه ويعمل على نشره فى بلاده وبين مواطنيه فحقا أنه " ليس لنبى كرامة فى وطنه ".[١٤]

٧ ــ نصرانى السنجق:

هو المعلم عوض القبطى كان يعمل كاتبا فى ديوان الوالى وكان مشهورا بين الجميع بلقـــب نصـــرانى السنجق وقد مات هذا الكاتب مسموما لأن التعصب التركى الأعمى جعلهم يزعمون أن اضطهاد القبط يؤهلهم للجنة، وكان معاصرا للبابا مرقس السادس والأرخن أبو دقن المنوفى.[١٥]

٨ ــ المعلم مرقوريوس الشهير بـــ " ديك أبيض ":

هـــو مـــن كبار أراخنة الأقباط الذين كانوا فى أيام البابا بطرس السادس، وكان كاتباً للجورجـــى إبـــراهيم الصابونجى أحد أمراء المماليك وقد أقامه البابا بطرس السادس ناظـــراً علـــى كنيســـة الســـيدة العذراء المعروفة بالعدوية فاهتم بتجديدها وإصلاحها وتزيينها وكان معاصراً لأرخن آخر يدعى المعلم جرجس أبو شحاته الذى تزوج من أخت المعلم لطف الله كما كان يقوم بعمل الخير فى الكنائس ومساعدة الفقراء فى مدة حياته حتى نال رضاء البابا بطرس عليه وسكن فردوس النعيم.

٩ ــ المعلم لطف الله أبو يوسف:

كـــان متزوجاً بنت أخ البابا يوأنس السادس عشر وهو من أراخنة الأقباط المشهورين ومعاصـــر للبابا بطرس السادس. وكان المتولى على مصر يومئذ الوالى رجب باشا فســـعى إليه جماعة بأن وشوا فى حق المعلم لطف الله فأوقع رجب باشا الوالى الطلب علـــى المعلم لطف الله ولكن جماعة من أكابر الدولة والذين يحبون هذا المعلم تمكنوا مـــن تطيـــيب خاطر الوالى المذكور بنحو أربعين كيساً قام بدفعها من عنده من ماله الخـــاص ولـــم يأخـــذ من الاراخنة شيئاً لأنه كان رجلاً غنياً ولم يكن فى زمانه من يعادلـــه ثـــروة وجاهـــا وكان طيب القلب ومتمسك بدينه. ومن أشهر أعماله الاهتمام بتعميـــر كنيســـة المـــلاك ميخائيل بمصر القديمة وكنيسة مارمينا بفم الخليج. كما قام بمصاريف حفل إقامة البطريك على الكرسى. إلا أن الشيطان أثار عليه من قتله وهو فى طريقه إلى منزله فى شهر مسرى سنة ١٤٣٦ ش فقاموا بتجنيزه، وعمل له البابا بطرس ألف قداس باسمه.[١٦]

١٠ ـ المعلم لطف الله أبو شاكر:

كـــان من أشهر الاراخنة فى أيام البابا يوأنس الثامن عشر وكان مشهوداً له بالصلاح والـــتقوى فعيـــنه البابا ناظراً على دير القديس الأنبا أنطونيوس أب الرهبان ، وكان المعلـــم لطف الله مهتماً بعمارة هذا الدير فقام بإعادة بناء كنيسة الآباء الرسل وكنيسة الأنبا مرقس بالدير المذكور وقام البابا يوأنس بتدشينهما . وعندما اشتعلت نار الثورة بين المماليك كان المعلم المذكور من أنصار إسماعيل بك الذى كان قائما ضد مراد بك وإبـــراهيم بك وكان يقوم بخدمته بكل إخلاص . وفى أثناء اشتعال هذه الثورة أرسل إســـماعيل بك إلى المعلم لطف الله أبو شاكر هجانة برسالة منه يستعلم فيها عن غزو مصـــر فكـــتب له الرد المطلوب وسلمه إلى الهجانة وعاد بالرسالة إلى إسماعيل بك ولكـــن الغزاة تمكنوا من الإيقاع به أثناء الطريق وأخذوا منه الرسالة وأطلعوا عليها فوجدوها بخط المعلم لطف الله وبعد ذلك قبضوا على المعلم المذكور فى ٢ يونيه سنة ١٧٧٨ م ثـــم أفـــرج عنه وفى نفس العام حضر إلى دير الأنبا أنطونيوس مع عرب الجبل (القافلة المعتادة) فقتله أحد العربان الذى انتقم منه الله لروح شهيده.[١٧]

١١ ـ المعلم رزق كبير المباشرين:

بـــدأ فى أول عهده كاتبا بالجمارك ثم سكرتيرا لدار صك النقود ورفعته ثقة على بك الكبيـــر بـــه إلـــى مدير حسابات الحكومة وقتئذ، وذلك على الرغم من قسوة على بك الكبير على القبط ثم رفعته هذه الثقة أيضا إلى رئاسة الدواوين واعتمد على بك الكبير علـــيه فجعله مستشاره الخاص بالإضافة إلى مناصبه السابقة وعاون على بك معاونة صـــادقة فـــى تحقـــيق أهدافه الذى كان يهدف إليها من الاستقلال بمصر ورفع الحكم العثمانـــى عـــنها فتوافر للمعلم رزق من النفوذ والسلطة مالم يتوافر لأحد من رجال الدولة.

وقـــد أســـتخدم المعلم رزق لمعاونته فى عمله كثير من الأقباط رغم كراهية على بك الكبيـــر لهـــم فكـــان المعلم رزق بذلك صاحب مدرسة تأهل الأقباط لأن يحتلوا اكبر مناصـــب الدولة لكفاءتهم وأمانتهم وسعى فى أوقات كثيرة كما يقول الجبرتى فى رفع الاضطهاد عن القبط ورفع الذل عنهم.[١٨]

المعلم رزق والحاج عمر الطرابلسى:

كـــان بمدينة دمياط فى أيام المعلم رزق رجل تاجر مشهور يدعى الحاج عمر بن عبد الوهاب الطرابلسى الأصل، وحدث بينه وبين أحد النصارى التجار بهذا الثغر منافسة أدت إلـــى المشـــاحنة الديـــنية فأغتاظ لذلك الحاج عمر وحضر إلى مصر لينتقم منه وادعـــى زوراً أن النصـــرانى سب دينه واستفتى بعض كبار المشايخ فأفتوا بحرقه، وأمروا بإحضاره لتنفيذ الحكم، وعلى أثر حضور التاجر النصرانى قام باتصالات مع

المعلم رزق وكبار النصارى بمصر الذين عن طريق الهدايا استطاعوا أن يغيروا الدعوى قائلين أن النصرانى لم يسبه بالألفاظ الذى إدّعاها الحاج عمر ثم قاموا بمصالحة النصرانى مع الحاج عمر الذى سامحه وعاد إلى دمياط بعد أن خابت مساعيه ولم يبلغ إلى قصده بفضل مساعى المعلم رزق. ولان الكتاب المقدس يقول " لى النقمة أنا أجازى يقول الرب " فيذكر التاريخ أن بعد هذه الحادثة بقليل انتهت رئاسة على بك الكبير فقبض على الحاج عمر ونهب داره وأمواله وأنزله فى مركب مع نساءه وأرسله إلى طرابلس " الشام " منفياً.[19])

المعلم رزق والعالم الانجليزى " بروس ":

كان المعلم رزق مجتهداً ودارساً وباحثاً حتى أن التاريخ سجل أنه كان عارفاً بعلم الفلك. وقد زار مصر فى أيامه الرحالة الانجليزى " بروس " وهو فى طريقه إلى بلاد الحبشة وقد استطاع المعلم رزق عن طريق نفوذه الإفراج عن أمتعة " بروس " بدون رسوم جمركية عليها والتسهيل فى سرعة خروجها من الجمارك فأراد بروس أن يكافئه بأن أرسل إلى المعلم رزق هبه مالية كبيرة تقديراً لجهوده فردها إليه المعلم رزق مع هديه أخرى من عنده ولكنه طلب عوض ذلك أن يشرح له كيفية استعمال هذه الآلات الفلكية الحديثة التى كانت معه فلبّى طلبه وشرح له ما أراد.[20]

كان المعلم رزق معاصراً للبابا يوأنس الثامن عشر والمعلم إبراهيم الجوهرى ويقول الجبرتى فى كتابه أنه بلغ من العظمة مالم يبلغه قبطى آخر. ويقال أن على بك أبو الذهب عزله من منصبه، وبعد أن نزع أبو الذهب الرئاسة من على بك الكبير قيل أنه قتل المعلم رزق. .

١٢ ـ المعلم إبراهيم الجوهرى " سلطان القبط "[21]

نبغ المعلم إبراهيم الجوهرى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى مصر هو والمعلم رزق، وذلك فى العصر الذى ظهر فيه رجل بمصر من كبار المماليك يسمى على بك الكبير ويقول الجبرتى أنه فى هذا العصر ارتفع شأن النصارى بهذين الرجلين " إبراهيم ورزق " .

وقد اشتهر منذ حداثته بنسخ الكتب الدينية وتقديمها إلى الكنائس على نفقته الخاصة كما كان يعمل كاتباً عند أحد أمراء المماليك ثم عمل كاتباً لدى المعلم رزق رئيس الكتّاب وقتئذ.

كما كان على صلة وثيقة بالبابا يوأنس الثامن عشر.

+ كان معاصراً على بك الكبير وعلى بك أبو الذهب وإبراهيم بك ومراد بك حكام مصر. فى أيام إبراهيم بك تقلد المعلم إبراهيم الجوهرى رئاسة كتّاب القطر المصرى

وهــى أســمى الوظائف الحكومية فى ذلك العصر وكان بمثابة رئيساً للوزراء " فى عصرنا الحالى.
+ كــان لــه ولد يدعى يوسف تنيح فى سن الشباب ورزق ببنت تدعى دميانه عاشت عذراء.

من جهة أعماله لا نستطيع أن نحصر أعمال هذا الرجل العظيم فكم من الكنائس ساهم فــى بنائها وساعد فى ترميمها وكم من أديرة قام بتشييد أسوار وكنائس وقصور بها، وكم من بيوت فتحها، وفى الحقيقة انه كان يعتبر ماله ليس ملكا له بل كان يصرفه فى كــل عمــل خيــرى، وإلى الآن نجد وقفيات على كنائس وأديرة باسم المعلم إبراهيم الجوهرى.
ومما هو جدير بالذكر أنه يوجد بمحفوظات البطريركية عقود الوقف الذى بلغت ٢٣٨ عقدا وبلغت أثمان العقارات الموهوبة إلى الفقراء ١٥ ألف ريال بعملة تلك الأيام.
وعــندما أنهى المعلم إبراهيم الجوهرى جهاده على الأرض وانتقل إلى الفردوس سنة ١٧٩٦ م قــال عنه الأنبا يوساب الشهير بابن الابح أسقف جرجا وأخميم فى تأبينه ما مــؤداه " أنــه كــان أعظم أهل زمانه وكان محباً لله يوزع كل ما يقتنيه على الفقراء المساكين. فكان عيناً للأعمى ورجلاً للأعرج ومعيناً للأرملة وأباً لليتيم، ورئيساً مهتماً بكافــة الأديــرة ومدبــراً لكل الكنائس وكان محباً لكافة الطوائف يساهم الكل ويحب الجميع ويقضى حوائج الكافة ولا يميز واحدا عن الآخر فى قضاء الحق، وهكذا يمكننا أن نقــول مع الكتاب المقدس إن " ذكرى الصديق للبركة " (أم ١٠ : ٧) "والصديق يكون لذكرى أبدى " (مز ١١٢ : ٦)

وللمعلم إبراهيم الجوهرى حوادث كثيرة ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة.
١ــ الاستيلاء على مقتنيات المعلم إبراهيم الجوهرى:

عندما تمرد وحضر إلى مصر حسن باشا قبطان موفداً من قبل الدولة العثمانية وتقاتل مــع إبراهيم بك ومراد بك وإضطرهما إلى الهروب إلى أعالى الصعيد وهرب معهما المعلــم إبراهيم الجوهرى وبعض الأمراء، أرسل حسن باشا إلى قاضى القضاة طالباً إحصاء ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهرى على الكنائس والديارات من أطيان وأملاك وغيــر ذلك. ثم أرسل واستدعى زوجة المعلم إبراهيم، التى كانت قد اختبأت فى بيت حســن أغا، وأجبرها على الاعتراف بأماكن حاجاتهم ومتعلقاتهم فاستولوا على أمتعة وأوانــى ذهــب وفضــة وسروج وغيرها، بيعت بأثمان غالية كما قاموا بنهب بيت المرحوم يوسف بن المعلم إبراهيم وأخرجوا كل مافيه من فرش وأمتعة وأوانى ذهب وفضــة وصينى وأتوا بها إلى حسن باشا فباعها بين يديه بالمزاد وكانت بكثرة زائدة حتى أستغرق بيعها عدة أيام.

ثم عاد المعلم إبراهيم الجوهرى سنة ١٧٩١ م مع إبراهيم بك ومراد بك وعادت إليه سـطوته وذلـك بعد سفر حسن باشا إلى الاستانة ولكن لم يستمر ذلك أكثر من أربع سنوات إذ تنيح فى أوائل سنة ١٧٩٦ م.

٢ـ المعلم إبراهيم الجوهرى ولسان الشر:

ذكـر أن أخيه، المعلم جرجس الجوهرى، كان ممتطياً جواداً ومارا فى احدى الطرق فأهانـه أحد المشايخ ويبدو أن هذه الإهانة تكررت مراراً فتألم المعلم جرجس من هذه الإهانـات وأخبـر أخيه المعلم إبراهيم بها فأجابه قائلاً " غدا أقطع لسانه " وفى اليوم التالـى أستدل المعلم إبراهيم على منزل الشيخ وأرسل له هدايا سمناً وجبناً إلى غير ذلـك بدون علم أخيه فلما التقى المعلم جرجس مرة أخرى مع الشيخ رحب به ترحيباً شـديداً داعـياً له، الأمر الذى جعله فى حيرة واندهاش ولما عاد علم بما فعله شقيقه وأدرك حقـيقة قـوله " سأقطع لك لسانه " إذ حوله من البغضه إلى المحبة والإكرام وبـذلك تمم قول الرسول " أن جاع عدوك فأطعمه وإن عطش فاسقه فإنك بذلك تضع جمر نار على رأسه "(رو ١٢: ٢٠).

٣ – المعلم إبراهيم الجوهرى وبناء الكنيسة المرقسية الكبرى:

المعلـم إبراهيم الجوهرى هو صاحب المسعى فى سبيل الحصول على ترخيص بناء كنيسـة المرقسـية الكبرى بالدرب الواسع بالازبكية وتفصيل ذلك أن إحدى أميرات البـيت السلطانى فى الأستانه قدمت إلى مصر فى طريقها إلى الحجاز لقضاء مناسك الحج، فقام المعلم إبراهيم الجوهرى على خدمة الأميرة السلطانة بنفسه وقدم لها وقت سـفرها هدايا نفيسة فأرادت أن تكافئه على صنيعه مكافأة ترفع من شأنه فى السلطنة ولكنه التمس منها فقط استصدار فرمان سلطانى بتشييد كنيسة فى الازبكية بالقرب من سكنه، فلم تستقر قدماها فى الاستانه حتى أصدرت له الفرمان وأرسلته إليه، ولكن لم تمهله المنية قبل أن يشرع فى بناء الكنيسة ، فلما تولى منصبه أخوه جرجس اتحد مع الـبابا مـرقس وأعيان الأمة وشرعوا فى العمل وقد تم بناء الكنيسة فى ملك الأمير يعقوب والمعلم ملطى .

٤ – مقتنيات المعلم إبراهيم الجوهرى وابنته دميانة:

قـيل أيضا بعد نياحة المعلم إبراهيم الجوهرى أن وشى بعض الأشرار إلى الوالى فى ابـنة المعلـم إبراهيم، المدعوة دميانه، مدعين أنها تحفظ أموال أبيها التى أخذها من الحكومة فلما سُألت عن ذلك، طلبت أن يستمهلها عدة أيام حتى تحضر له ما طلبه، ثم طافت القاهرة تجمع الفقراء والمعوزين والأرامل وأحضرتهم إليه وقالت له إن أموال ومخازن أبى هى موضوعه فى بطون هؤلاء، فلما عرف الوالى الحقيقة صرفها وذكر والدها بالخير.

الباب الرابع عشر
الحملة الفرنسية على مصر
(١٧٩٨ - ١٨٠١)

" الفصل الأول "
الحملة الفرنسية وسياستها تجاه المصريين والأقباط

أولا:حالة مصر قبل دخول الحملة الفرنسية:

اشـــتد ظلم الحكام فى مصر، مراد بك وإبراهيم بك وقتئذ، وضجرت الرعية من هذا الظلم ومن البطش الذى لحق بالمواطنين وبحقوقهم بدون وجه حق. وقد امتد هذا الظلم والبطش إلى الرعايا الأجانب المقيمين فى مصر حتى أنهم اشتكوا إلى دولهم من سوء معاملـــة المصـــريين لهـــم ... وقـــد سعت هذه الدول الأجنبية لدى كل من مراد بك وإبراهيم بك بطلب العدول عن ظلم رعاياهم ومعاملتهم معاملة حسنة، فلم يستجيبا إلى هـــذا الطلب، فأغضب ذلك الدول الأجنبية، وتسبب فى توتر العلاقات. اقتنص نابليون هـــذه الفرصـــة واعتبرها سبباً أضافه إلى الأسباب الأخرى لتحقيق حلمه بغزو مصر وضمّها إلى الإمبراطورية الفرنسية.

ولما شاع الخبر أن عساكر الجيش الفرنسى قادمة إشتغل الأمراء بالاستعداد لمقابلتهم واختل النظام وسادت الفوضى وكثر اللصوص وقطاع الطرق فى البلاد وهاج سكان القاهـــرة وماجوا وهجموا على بيوت وكنائس النصارى الأقباط والسوريين والإفرنج والاروام بدعـــوى البحث عما فيها من الأسلحة، واتخذ أهل الفساد والطمع هذا المناخ ذريعـــة لشرورهم فنهبوا بيوت الذين لا قدرة لهم على المقاومة، وأشار البعض بقتل جميع النصارى عن آخرهم، لولا أن مراحم الله تداركت شعبه لأنه معين من ليس له معـــين - حيث عارضهم فى ذلك إبراهيم بك وقاومهم ومنعهم، وعلى الرغم من ذلك إنهـــم كانوا يقتلون كل من يصادفونه من النصارى دون تمييز بين الرجل والمرأة.[٢٢] واحتمى بعض النصارى الإفرنج وغيرهم فى دار إبراهيم بك فقبلتهم زوجته وآوتهم. كمـــا قام المصريون وقبضوا على قنصل فرنسا وبعض التجار الإفرنج وحبسوهم فى القلعة وبقوا فيها إلى أن دخلت عساكر فرنسا القاهرة فأطلقوا سبيلهم بالإضافة إلى ذلك هجم رعاع الناس على بيوت البكوات والأمراء، الذين فروا من أمام الجيش الفرنسى، ونهبوها.

والمؤرخـــون يتســـاءلون عما دار بخلد البكوات والأمراء ودفعهم إلى هذا الفرار هل كانـــوا يتصـــورون أن الدولة العثمانية قادرة على استرداد مصر ، وأن واجبهم يحتم علـــيهم أن يكونـــوا بجانب هذه القوات الزاحفة لإستردادها، ولماذا فضلوا أن يكونوا تحت الحكم العثمانى الفاسد بدلاً من أن يكونوا تحت حكم فرنسى لم يعرفوا بعد ما إذ

كـــان فاسداً فساد الحكم التركى أو دونه أو يفوقه ، لا يوجد تعليلاً لهذا الهروب سوى أن هؤلاء الناس تصرفوا تحت تأثير ما اعتنقوه من قومية إسلامية جعلتهم يفضلون أن يكونـــوا تحـــت حكـــم فاسد ظاهره إسلامى على أن يكونوا تحت حكم كافر وإن كان صالحا.[٢٣]

وبســـبب ضعف المماليك ونزاعهم المتواصل مع أنفسهم تارة ومع تركيا تارة أخرى، وبسبب تخلف كل من تركيا والمماليك عن النظم الحربية ، ومستوى الأسلحة السائدة ، بالإضافة إلى حرمان المصريين من الاندماج فى سلك الجيش ، استطاع الفرنسيون أن يتغلـــبوا بسهولة على مقاومة المصريين فى الإسكندرية ، فدخلوها وأذاع قائد الحملة نابليون بونابرت منشورا على المصريين أنه صديق لهم لا يبغى سوى تخليصهم من هـــؤلاء المماليـــك الـــذين أساءوا إلى مصر وتسببوا فى تعطيل التجارة الفرنسية مع المصريين .[٢٤]

ثانيا:الحملة الفرنسية وأبعادها السياسية:

علـــى الـــرغم مـــن استمرار الحملة الفرنسية بمصر فترة قصيرة وهى حوالى ثلاث سنوات وبضعة أشهر إلا أنها كانت فترة هامة فى التاريخ القبطى والكنسى والمصرى لعدة أسباب منها:

أولا: إنها أول محاولة منذ الحروب الصليبية قامت بها دولة غير مسلمة لغزو وادى النيل.

ثانيا : أول مرة منذ الفتح العربى تحكم مصر دولة مسيحية.

ثالثا : لأول مرة منذ ظهور الإسلام يحاول بعض مسيحى أوروبا التعاون مع مسلمى مصر.

ثالثا:بين الثورة الفرنسية بأوروبا والحملة الفرنسية على مصر:

عـــندما قامت الثورة الفرنسية الكبرى فى فرنسا سنة ١٧٨٩ م أعقبتها ثورات أخرى وكانـــت الـــثورة الفرنسية ثورة دموية كثر فيها القتل والشنق وأعلنت منذ بدايتها أنها مســـتعدة لـــتوريد وتصـــدير مـــبادىء الـــثورة للشـــعوب الأخـــرى وأهـــم مبادئها (الحرية - الإخاء - المساواة).

وكانـــت هناك إمبراطوريات عاتية فى أوربا تتزعمها الإمبراطورية البريطانية العدو اللدود لفرنسا والتى قيل عنها " الإمبراطورية التى لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها ". وأهمهـــا الهند ومستعمرات الشرق الأقصى، وعندما قامت الإمبراطورية بالتكتل فى أوروبـــا ضد فرنسا، فكر نابليون قطـــع خطـــوط المواصلات عليها فى الشرق، ورأى أن ذلك يتحقق بتأسيس إمبراطورية فرنسية فى الشرق.

فعــرض نابليون هذا الرأى على مجلس الإدارة الذى كان قائما بتدبير شئون المملكة وشــرح لهم ما يعود على فرنسا من الخير الكثير لو فتحوا مصر، وما زال بهم تارة بالإقــناع وتارة بالتهديد بالاستعفاء حتى وافقوه، فجهز جيشا مؤلفا من ٣٧ ألف مقاتل وجماعة من أهل العلم وأرباب الصنائع ودخل إلى الإسكندرية واحتلها فى أول يوليو ســنة ١٧٩٨ م، وكانت نظرة مماليك مصر إلى الحملة الفرنسية أنها محاولة للقضاء علــى الإسلام، والبعض الآخر منهم، اعتبرها غارة من غارات القراصنة الأوربيين أوسع مدى من سابقاتها.

رابعا:سياسة بونابرت وموقف الفرنسيين من الأقباط:

تمــثل هذه الفترة منعطفا عظيما فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والأقباط فى مصر وقد فطن لهذا العنصران أنهما معاً أمام مشكلة جديدة (فى هذه الفترة).

أ ــ سياسة بونابرت الإسلامية:

تقــدم نابلــيون بونابــرت إلى أسوار الإسكندرية على انه حامى الإسلام بل بطل من أبطاله، ولكى يؤكد هذا الادعاء كان باكورة أعماله تصريحه للقوات الفرنسية المتأهبة لغــزو مصــر قائلاً لهم .. أن لا ينازعوا الشعب الاسلامى فى دينه .. وأن يعاملوهم معاملة حسنة، وأن يحترموا رجال الدين، وأن يظهروا روح التسامح للمواسم التى أمر بهــا القــرآن، واحتــرام المساجد بالإضافة إلى ذلك صرح للمشايخ والقضاة قائلاً أن الفرنســيين مسالمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخرّبوا فــيها كرســى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيــرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلــة المســلمين ومــع ذلك فان الفرنسيون فى كل وقت من الأوقات كانوا محبين مخلصــين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه (هذا نفاق نابليون وسوف نوضح ذلك فيما بعد).

وأكثــر مــن ذلــك لــم ينقض شهر على نزول نابليون الإسكندرية حتى اشترك مع المسلمين فى الاحتفال بالمولد النبوى، ولما كان يريد أن يقوم بأكبر دعاية حول موقفه هذا، فقد كتب إلى الجنرال " مارمونا " بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٧٩٨ م يقول " ... انى أكثر الناس اقتناعا بصفوه الديانة الإسلامية وقداستها ".

وفــى نفــس الــيوم كتب إلى الشيخ المسيرى قائلاً له " أرجوا إلا يتأخر الوقت الذى أســتطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقفة فى البلاد ووضع نظام ثابت يرتكز على مبادىء القرآن الحقة الوحيدة التى تستطيع إسعاد البشر دون سواها ".

كمـــا يــؤكد نابلــيون تعاطفه مع الإسلام فى رسالته إلى والى حلب فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ م قــائلا لـــه " إنـــنا لسنا مثل باقى الشعوب الهمجية الذين كانوا يأتون إليكم لمحاربـــة إيمـــانكم وعقيدتكم ولكننا نعترف أن إيمانكم رفيع القدر وسوف نعتنق نحن الفرنســيين ديــنكم وعقــيدتكم عــندما تحل الساعة أو الوقت المناسب وفيها يصبح الفرنسيون المستشرقون مسلمين مؤمنين حقيقيين.[٢٥]

هل كان بونابرت صادقا فى دعواه:

لقد كان بونابرت لا دينى ولا يعترف بوجود الله فقد كان ملحدا بل مضطهداً للمسيحية على الرغم من أن بيته تحول بعد موته إلى دار للكتاب المقدس، ولكن نابليون لم يكن يعتــرف بالدين، ومن ضمن الحوادث التى ذكرت عنه ، أنه فى حفلة التتويج الخاص بـــه ، تعمل الدولة المسيحية طقس دينى لمسح الملوك ، ويقوم البابا بتلبيس الملك تاج الإمبــراطورية ، ولكـــن عند تجليس نابليون رفض ذلك ، وخطف التاج من يد البابا وألبسه لنفسه ، فإذا كان نابليون يعامل المسيحية التى ولد فيها بهذا الأسلوب فكم يكون موقفه من الأديان الأخرى ، هذا مجرد مثال . ويذكر أنه عندما دخل الإسكندرية أعلن إنه حامى حمى الإسلام.

لذلك كله فلم يكن دفاعه عن الإسلام يشكل أى ضغط أو معاناة نفسية له، أو ترجيح من جانبه لدين على أخر ... حتى أن اعتناقه الإسلام فيما بعد كان أمراً سهلاً بالنسبة له، فلم يسبب له أى قلق ، ولم يكن يشعر أنه يترك دينا ليعتنق دينا آخراً ... وقد أوضحنا انه كان لا دينى وملحد ... ولم يكن اعتناقه الإسلام سوى مناورة سياسية لخدمة أهدافه العسكرية وخططه للسيطرة على البلاد والاستقرار فيها.

وكان من الأمور المشجعة على هذا المسلك الأسباب الآتية:

١) انهزام نابليون أمام عكا.

٢) غــرق الأســطول الفرنسى فى أبى قير وقطع خط المواصلات بينه وبين فرنسا وفقد كل أمل فى وصول أى نجدة له.

٣) إرضاء للشعب المصرى وكسب عطف هذا الشعب الذى تدين غالبيته بالإسلام.

٤) أن يكــون له مبرر شرعى لمواجهة الدولة العثمانية (التى كانت تنادى بالخلافة الإسلامية)

ب - كيف عامل نابليون الأقباط:

لما كان بونابرت متشبعا بروح المساواة والإخاء فقد أبى أن يقع فريق من الشعب تحت نير الاضطهاد أو أن يحرم من الحياة الحرة - غير أنه يلاحظ عدم اهتمامه بمنح الأقباط حرياتهم دفعة واحدة وخاصة حرية العبادة - ولما طلب الأقباط إليه أن يلغى القيود التى فرضها المماليك والعثمانيين على شعائرهم الدينية أجاب على المعلم

جرجس الجوهرى بخطاب مؤرخ فى ٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ م (استلمت الكتاب الذى أرسلته الأمة القبطية وأنه من دواعى سرورى حماية هذه الأمة التى لن تكون من الآن فصاعداً موضع الاحتقار، وعندما تتيح لى الظروف الشىء الذى لا أراه بعيداً، قد أسمح لها أن تقيم شعائرها الدينية علانية كما هو الحال فى أوروبا حيث يمارس كل إنسان عقيدته، وسأعاقب بشدة القرى التى قتل فيها الأقباط أثناء الثورات التى نشبت وأنك تستطيع من الآن أن تخبر أبناء طائفتك بأنى أسمح لهم بأن يحملوا السلاح ويركبوا البغال والخيول ويضعوا العمامات على رؤوسهم ويتزينوا بما يشاؤن .

وتعد هذه الرسالة الإجراء العملى الوحيد الذى استفاد منه الأقباط فى عهد بونابرت الذى ما لبث أن ألغى ما وعدهم به .

ويقول الجبرتى: ... نودى فى أول رمضان بأن النصارى لا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شئ من ذلك.

ثم يقص الجبرتى الحادث الآتى :

إن بعض الرعية من الفقهاء المتعصبين مروا على بعض النصارى وهم يدخّنون فى شهر رمضان فانتهرهم أحد الفقهاء فرد عليهم النصارى بالمثل فنزل أحدهم وضرب نصرانيا منهم واجتمع عليهم الناس وحضر حاكم المنطقة الذى ساقهم إلى القائمقام الذى سأل النصارى الحاضرين عن عادتهم فى ذلك فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون فى الأسواق ولا بمرأى من المسلمين أبدا، فضرب النصرانى وترك المعمم لسبيله .

وإن كان عداء بونابرت للأقباط لم يذهب به إلى حد الاضطهاد فانه على أى حال لم يكن رقيقاً بهم ، وان كان قد استعان بهم فى جباية الضرائب كما فعل المماليك من قبله ، ولكنه اتخذ هذا الإجراء مرغماً إذ كان يتكلم عنهم بقسوة شديدة فيقول " أنهم لصوص مكروهون فى البلاد غير أنه يجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لإدارة البلاد دون سواهم " . لذلك عين المعلم جرجس الجوهرى مباشراً عاماً ومنحه السلطان على سائر المباشرين، ولكنه حرص على أن يكون معه موظف فرنسى لمراقبته، ثم لم يزل بونابرت منذ هذه اللحظة يترقب أول فرصة للتخلص من الجوهرى، ولما ترك نابليون بونابرت مصر أرسل إلى الجنرال كليبر كتابا مؤرخاً فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ م يقول له فيه بصراحة " ... كنت مرغماً إن سارت الأمور سيرها الطبيعى أن أضع نظاما جديدا للضرائب يجعلنا نستغنى تقريباً عن خدمات الأقباط.. "

وبالرغم من حاجة نابليون إلى زيادة عدد جيشه لم يفكر قط فى الاستعانة بالأقباط، كما أن الأقباط أنفسهم لم يظهروا حماساً زائداً فى طلب تجنيدهم فلم تؤلف الفرقة

القبطية كما سنبينه بعد - إلا فى عهد الجنرال كليبر وفى ظروف خارجة تماما عن إرادة الأقباط.

كان نابليون يأمل من وراء استغنائه عن خدمات الأقباط مراقبة دخل الضرائب مراقبة فعلية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فانه كان يرغب خاصة فى ترضية المسلمين، وكتب إلى قواده فى عدة مناسبات يقول فيها " مهما فعلتم تأكدوا من أن النصارى فى صفكم فلا تترددوا إذن فى تفضيل المسلمين على النصارى ". وكرر هذا القول على الجنرال كليبر قبل رحيله إلى فرنسا حيث صرح علانية " نعم إنى اكره النصارى ولقد سحقت ديانتهم وحطمت هياكلهم وقتلت قساوستهم وهشمت صلبانهم ونكرت إيمانهم وعلى الرغم من ذلك فإنى أراهم يفرحون لفرحى ويتألمون لألمى، فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحى ؟ وما الفائدة التى أجنيها من هذا العمل ؟

خامسا:موقف المسلمين تجاه الحملة الفرنسية والمظالم التى حاقت بالأقباط:

لقد أتيح لنا بفضل المستندات الثابتة التى ذكرناها أن نجزم بأن بونابرت حاول بأقواله وأعماله كسب عطف المسلمين ولم يذهب طبعا لإرضائهم إلى حد اضطهاد النصارى ولكنه لم يبد لهؤلاء ما يدل على عطفه عليهم . ولقد قام نابليون بونابرت ببعض التشريعات الجديدة التى كانت فرصة ليشعر المصريون بكيانهم وكون ما يسمى بمجلس أسماه " شئون الديوان " وهو يتكون من شيوخ الأزهر وبعض الفرنسيين وكان عمله هو توصيل الأمور والحوادث للحاكم الأعلى الفرنسى (أى تقديم المشورة للحاكم الفرنسى) وهو أول رغبة لاشتراك المصريين فى الحكم ولم يكن لغير المسلمين ممثلون فى هذا المجلس - وكان هناك الديوان الصغير مكونا من ١٢عضوا نصفهم ميسحيين برئاسة المعلم ملطى.

ولكن بونابرت لم يوفق فى إزالة البغضاء من قلوب المسلمين بسبب وجوده بينهم وذلك بالرغم من المظاهر المرائية فكان يشعر أن الشعب يتحمل حكمه كارها وأنه يترقب الفرصة التى تتاح له للتخلص منه.

ولما تحدث الجبرتى عن زيارة القواد الفرنسيين للأعيان بمناسبة الأعياد الإسلامية صرح بأن الأعيان كانوا يستقبلونهم بشئ من الترحيب المصطنع وقد مزقت ثورة القاهرة الأولى الستار الذى يخفى وراءه مهزلة التعاون بين المسلمين والفرنسيين وقد دبرت المؤامرة لقيام هذه الثورة فى الأزهر حيث كان بونابرت يعلن مزيد عطفه على الإسلام.

وكانت هذه الثورة بعد ثلاث أشهر من مجئ الحملة الفرنسية وكان من نتائجها حرق كنيسة حارة الروم التى كانت مقراً للبطريركية وأمر البطريرك البابا مرقس الثامن بنقل البطريركية مؤقتا لحارة النصارى فى الازبكية وقتل كثير من النصارى ونهبت

بيوتهم، ولم تكن هذه الثورة من أجل استقلال مصر، وإنما كانت تعبيراً عن الاستياء لانتصار نابليون على الأتراك.

والسؤال الذى يثيره المؤرخون لماذا حرقت الكنيسة وقتل النصارى ونهبت بيوتهم إذا كانت هذه الثورة تعبيرا عن استيائهم لانتصار نابليون على الأتراك ؟

وكان نتيجة لهذه الثورة أن قام نابليون بإلغاء الديوان وإعادة تشكيله فى صورة جديدة - كما قام نابليون بعزل قاضى القضاة العثمانى وطلب أن ينتخبوا مصرياً بدلا منه، وكتب للمشايخ بذلك ، ومن العجيب والمؤسف أن المشايخ رفضوا . وفضلوا استعمار الخلافة الإسلامية العثمانية الهمايونية على استقلال مصر ولكنهم فى النهاية انتخبوا، مكرهين، واحدا اسمه الشيخ أحمد العريش.

ويقول الجبرتى:

وفى ذات يوم .. نزل أحد مشايخ الأزهر وبدأ ينادى بالمدينة أن كل مؤمن موحد بلله عليه أن يتوجه إلى الجامع الأزهر لأن اليوم ينبغى لنا أن نبارى الكفار، وقد أخذ الفرنسيون على غرة، بينما كانوا يطوفون فى شوارع العاصمة بدون أسلحة وقد قتل الغوغاء جميع الذين تعاونوا مع الفرنسيين سواء كانوا مسلمين أو نصارى.

ولما قرر بونابرت أن يعطف على الثوار لم يصدقه أحد، لما أراد بعض النصارى المطالبة بتعويض عما لحق بهم وبمساكنهم من أضرار رفض المسلمون التقدم بمثل هذا الطلب لاعتقادهم الراسخ أن أحدا لن يستمع إلى شكواهم كما ورد ذلك فى تاريخ الجبرتى.

ولما علم الناس بعد أسابيع أن القوات العثمانية احتلت قلعة أبى قير، أظهروا الفرح والسرور وتجاهروا بلعن النصارى، ولكن المماليك وأنصارهم من المصريين لم يستطيعوا الثبات بالاشتراك مع العثمانيين أمام نابليون الذى انتصر عليهم بسهولة.[٢٦]

ويذكر الجبرتى المؤرخ المسلم مكملا هذه الحادثة قائلا:

ولما شعر ناصف باشا القائد التركى بهزيمته أراد أن يغطى فشله بتوجيه غضب الشعب ضد غيره، ولم يجد من يستثيره الغضب الشعبى ضده غير المسيحيين فأصدر أمراً بقتل النصارى دون تفريق بين أجنبى وسورى وقبطى، وكان هذا الأمر الوحشى لم ينفذه الجيش وحده بل شاركه فيه العامة أيضا - على أن مراحم الله شملت شعبه لأنه معين من ليس له معين ، ليتبارك إسمه ، فذهب ضابط تركى اسمه عثمان بك إلى ناصف باشا وقال له ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة فإن ذلك مخالف للإرادة السنية ، وعندها صدر الأمر بالكف عن هذه المذبحة ،وهكذا نجد أن الآب السماوى يقيم لأولاده من يدافع عنهم حتى من صفوف الباطشين بهم.[٢٧]

ثم عاد نابليون إلى القاهرة فأضطر الأعيان والعلماء وأعضاء الديوان أن يتوجهوا إلى داره ليقدموا له فروض التهانى بمناسبة عودته السعيدة – ولاحظ بونابرت مرة أخرى حزنهم وخيبة أملهم ولكنه لم يحاول الانتقام منهم أو تعديل سياسته إزاءهم. غير أنه لامهم بلهجة هادئة على موقفهم فقال " أيها العلماء والأعيان إنى أتعجب من حزنكم لانتصارى، إنكم لم تقدروا موقفى إزاءكم حتى الآن مع أنى كررت لكم أننى مسلم وأنى مؤمن بأن لا اله إلا الله وأنى أجل النبى وأحب المسلمين ".

ويتضـح مـن ذلك أن العلاقات مع المحتل لم تكن طيبة إلا فى المظهر – وإذا كان بونابـرت قد استمر فى إظهار صداقته نحو المسلمين إلا أنه شعر بفشله فى إقناعهم بحسـن نيته وبأن القوة لابد منها لإقرار النظام إذ كان الشعب ينظر إليه كرجل كافر يقود جيشاً من الكفار، وأن وجوده بمصر كان يشجع النصارى على حساب المسلمين، غير أنه أمل حتى آخر لحظة فى قدرته على إزالة عداء الشعب نحوه، وكان إصراره هـذا يسـتحق كل الإعجاب ولاسيما أن قواده كانوا يدارون غيظهم من هذه السياسة. ولـذلك لمـا آل الحكم إلى الجنرال " كليبر " لم يتردد هذا القائد فى محاباة النصارى ويأذن الجنرال للمعلم يعقوب بتكوين الفرقة القبطية.

ومن أكثر المواقف المؤسفة فى أيام الجنرال كليبر أنه أثناء قتاله للعدو الأعظم يوسف باشا أراد الترك (نصوح باشا) أن يتسلوّا فلم يجدوا من تسلية تشغلهم غير قتل القبط ، فـدخل نصـوح باشـا القاهـرة من باب النصر وباب الفتوح ثم قال للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ، فعندما سمعوا منه ذلك حاصروا وجاهدوا وصاروا يقتلون مـن يصادفونه منهم ، وذهبت طائفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التى بناحية بين السـورين وبـاب الشـعرية وجهة الموسكى ، فصاروا يقتحمون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى أثقل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم ، ثم رأى عثمان كتخدا أن اكتناز المال انفع له من قتل الناس فأعلن أن كـل مـن يقبض على نصرانى أو يهودى يحضره إليه وحين يقع هؤلاء فى قبضته يطالبهم بمبلغ معين من المال مقابل إطلاق سراحهم.[٢٨]

وقال الجبرتى المؤرخ المسلم حضر أيضا رجل مغربى وفعل أمورا من النهب والقتل لمـن لا يجـوز قـتله، وأكثر من ذلك كان يتجسس على البيوت التى فيها الفرنسيين والنصارى فكان يهجم عليهم ومعه جمع كثير من العامة الغوغاء والعسكر فيقتلون من يجدونـه مـنهم وينهبون الدار ويسبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً فيما على رأسها وشعرها من الذهب.

وقـتلوا أيضـا النصارى الذين كانوا فى بولاق ونهبوا بيوتهم، وعلى كل لم ينج من أيـديهم مـن النصـارى فى هذه الفتنة سوى الذين تسلقوا السور وفروا على معسكر

الفرنسـيين، والذين افتدوا أنفسهم بالمال، أما سكان الازبكية أخذ الجنرال يعقوب على عهدته حماية تلك الجهة والمدافعة عنها لأنها منطقة يسكنها كثير من النصارى الأقباط ولاسيما يوجد بها البطرخانة التى كانت مطمع أنظار أهل الفساد، وقد أظهر الجنرال يعقـوب ورجالـه بسـالة رائعـة فى الدفاع ضد حسن بك الجداوى الذى أراد الفتك بالنصارى فى هذه المنطقة المرة بعد الأخرى كما سنوضح فيما بعد .

سادسا:موقف الأقباط تجاه الحملة الفرنسية :

كـان المصـرى المسـلم يعتقد أن القبطى الذى استعبده المماليك وأذلوه تأثر بوجود الجيوش المسيحية (الفرنسية) فى الأراضى المصرية وأنه أظهر استعداده للانضمام إليهم، لـذلك لمـا وصـلت الأساطيل الفرنسية إلى مياه الإسكندرية ظل الفرنسيون والأقباط موضع شك السلطات العثمانية، وتعرض الفرنسيون والأقباط من جراء ذلك إلى أعمال السوء، وقد طلبت السلطات العثمانية عند دخول الحملة الفرنسية إلى بعض الرعايا الإفرنج ألا يغادروا أماكنهم، بينما أرسلت البعض الآخر إلى القلعة، ويقال أن مـراد بك قرر قطع رؤوسهم إلا أنه أرجأ تنفيذ خطته إلى ما بعد انتصاره بناء على مشورة " كاربو روستى " قنصل النمسا، وكان الأقباط ينتظرون نفس المصير، ولكن إبراهيم بك توسط لهم وأنقذهم من مصيرهم المحتوم.

ويكتب نقولا ترك فى هذا الشأن قائلاً أن إبراهيم بك كان يرسل للأقباط يطمئنهم على محلاتهم وعلى أرواحهم وأموالهم ويطلق المناداة فى كل بلد على حفظ الرعايا وعدم التعرض لهم.[٢٩]

علـى أن الجبرتى يضيف إلى ذلك قوله " صار الأمراء يفتشون فى محلات الإفرنج علـى الأسـلحة وغيـرها وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والاروام والكـنائس والأديـرة علـى الأسلحة فكان العامة لا يرضون إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عن تنفيذ ذلك ، ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة.[٣٠]

س : هل كان فى موقف الأقباط هنا ما يبرر هذه الروح الانتقامية ضد المسلمين ؟

لا ومـن المحتمل أن يكون الأقباط قد وجدوا فى قدوم الفرنسيين أبناء دينهم ما يلطف مـن مصـيرهم ومـا يخلصهم من هذا الحكم التركى الفاسد ، ويخلصهم من القومية الإسـلامية التـى اصـطنعتها الخلافة ، ثم الأتراك العثمانيون من بعدهم ، من اجل القضاء على القوميات الوطنية للبلاد التى دخلت فى نظامها ، فأقبلوا يعينونها بمختلف الوسـائل ، فكل مساعدة تقدم للفرنسيين إنما هى مسمار فى نعش الاحتلال التركى ، وعلـى الـرغم من ذلك كان موقف الأقباط من الأوربيين سلبيا ، والوثائق التى عثر عليها المؤرخون عن الحملة الفرنسية تجزم بأن الأقباط لم يحاولوا مساعدة الغزاة.[٣١]

س: - هل يؤخذ على الأقباط موقفهم السلبى وقت الخطر ؟

وللإجابــة علـــى هذا السؤال وجه المؤرخون سؤالاً آخر هل كان فى استطاعتهم أن يقومــوا بعمل ما بعد أن جردتهم السلطات العثمانية من سلاحهم ؟ يعتقد أن النصارى كانوا أضعف من أن يستطيعوا اتخاذ أى قرار، فرضخوا لأوامر الأغلبية وكانوا أثناء القتال يعتبرون أنفسهم متضامنين مع إخوتهم المسلمين.

ونلاحــظ أن بونابرت أول من أرسل فى طلب المعلم جرجس الجوهرى الذى قدم إلى الجنــرال الفرنسى أعيان الأقباط، ومن الطبيعى أن ينتهز الأقباط هذه الفرصة ليقدموا فــروض الطاعــة والخضــوع للرجل الذى جلس على أنقاض المماليك والعثمانيين ورسخت قدمه فى البلاد.[٣٢]

وقلــق المســلمون لعمــل الأقباط هذا مما دعا الجبرتى إلى اتهام النصارى صراحة بالتعاون مع الفرنسيين ومساعدتهم فى حروبهم مع المماليك والعثمانيين وعلى رأسهم الجنرال يعقوب الذى كون الفرقة القبطية، وكانت بمثابة فرقة مساعدة للجيش الفرنسى ، والــثابت أن الأقباط لم يكونوا أول من زودوا الجيش الفرنسى بالرجال ، فقد سبقهم إلـــى ذلك عمر القلقجى الذى توسط لمحاربة الفحامين وجمع منهم ومن غيرهم عدداً وفيــراً وعرضـــه علـــى رئـــيس عسكر الفرنسيين فأختار منهم الشباب وأولى القوة وأعطاهم سلاحاً وآلات الحرب ورتبهم عسكرياً ، وجعل عمر المذكور رئيسهم ، وقام بتدريبهم أحد الجنود الفرنسيين ، ثم انضم إلى الفرنسيين المماليك من بعدهم المغاربة ، أما الأقباط فكانوا أخر من التحق بالجيوش الفرنسية.[٣٣]

ثم يحمل المسلمون المباشرين الأقباط الذين يقومون بجباية الضرائب بالقوة (بالجلد) ويصفوهم بالخيانة، وقال الجبرتى أن الأقباط والسوريين واليونانيين واليهود أصبحوا لا يحــتملون، لأنهم يركبون الخيل ويحملون السلاح، وهنا نتذكر كلمات السيد المسيح له المجد " تكونون مبغضين من جميع الأمم من أجل اسمى " (مت ١٠ - ٢٢).

ولكــن ســبق إيضاح كيف كان بونابرت يعامل الأقباط بقسوة شديدة وأنهم لم يفوزوا بمعاملــة اســتثنائية إلا بعد أن تولى الجنرال كليبر الحكم، وبعد أن ثار سكان القاهرة مــرة أخرى على الفرنسيين، ما لبث أن ألغيت الإجراءات الاستثنائية بعد مقتل القائد الجنــرال كليبر، حيث قام المصريون بثورة ثانية بقيادة السيد عمر مكرم، ونلاحظ أن هذه الثورة لم تكن انتفاضة قومية إنما كانت بسبب كثرة الضرائب التى فرضها كليبر مــن ناحــية، ومــن ناحــية أخرى كان غرضها رفض الحملة الفرنسية والترحيب بالاستعمار التركى، لكى تبقى مصر فى التبعية للخلافة الإسلامية.

سابعا:أسوأ الحوادث التى حلت بالأقباط فى هذه الفترة:

بعـد فشـل المفاوضات بين كليبر وبين إنجلترا فى الجلاء عن مصر فكر فى تنظيم أمـوره علـى أساس بقاءه فى مصر فترة أطول وفى هذه الفترة كان كليبر قد سمح للجيش التركى أن يستوطن بالصحراء الشرقية، وقد تسلل منهم سراً المصريون الذين رافقـوا الجـيش التركى وأسرعوا ودخلوا خلسة إلى القاهرة بقيادة السيد عمر مكرم نقـيب الأشراف ومصطفى باشا، الذى أمر بفرض ثلاث ألاف كيس على الأهالى من أجـل ترحيل الفرنسيين، كما أمر بقتل النصارى ونزول الجند إلى القاهرة ينهبون ما وصـلت إليهم أيديهم، كما يقول الجبرتى المؤرخ المسلم المصرى المعاصر أن الناس تمنوا عودة الفرنسيين من كثرة الظلم الذى حل بهم على ايدى الأتراك .[٣٤]

ونلاحـظ أيضـا لما اغتال سليمان الحلبى الجنرال كليبر تحرك نار الانتقام فى قلوب الجـنود الفرنسيين ، واشتعلت فجأة وقال نقولا ترك أنه كان فى نية العساكر الفرنسية أن يبيدوا جميع سكان القاهرة من مسلمين ونصارى .

وجـاء مينو خلفاً للجنرال كليبر وقد أظهر مينو ريبته من المباشر القبطى ، ولما كان القبطى غير محبوب من الفرنسيين ، فقد تحمل مضايقات لا حصر لها ، بينما تعرض المباشـرون لرقابة شديدة " ، وكان الفرنسيون يعاقبون بقسوة المباشرين الأقباط كما كان الفرنسيون يقولون على الأقباط أنهم أقلية مكروهة من المسلمين ، وإذا كان علينا أن نضـمن لهم العدل والحرية ولكن ليس من الحكمة بل من الخطر أن نتحالف معهم ونمـنحهم الامتيازات ، لذلك سيحضر رؤساؤهم ورؤساء الأمتين اليونانية والسورية جلسات الديوان على أن يكون رأيهم استشاريا فقط .[٣٥]

وعمـل ميـنو علـى تحقيق مشروع بونابرت الخاص بتجريد الموظفين الأقباط من إمتيازاتهم وقد الغى فعلا وظائف المباشرين فى النظام الادارى الجديد.[٣٦]

أما الأقباط فقد اتهموا بدورهم الفرنسيين بأنهم يريدون التخلص منهم كى يختلسوا مال الخـزينة العامة، وعلى العموم فإن هذه الإجراءات التعسفية الموجهة ضدهم، جعلتهم يتمـنون جلاء الفرنسيين عن الأراضى المصرية، نعم إنهم كانوا يعلمون أن أخواتهم المصـريين المسلمين سوف يحاولون الانتقام منهم إذا ما رحل الفرنسيون عن البلاد ومـع ذلك اختاروا أقل الضررين وفضلوا أن يقاسوا العذاب على أيدى المسلمين مدة من الزمن على حرمانهم من وظائفهم إلى الأبد.[٣٧]

ثامنا:دروس من الحملة الفرنسية:

دام احـــتلال الفرنســـيين لمصر ما يقرب من ثلاث سنوات ولكن هذه الفترة الوجيزة كانت حافلة بالأحداث ومليئة بالعظات.

ويمكننا أن نستنتج من حوادث هذه الحملة ثلاث مسائل هامة:

أولا: إن احتقار المسلمين للأقباط جعل التفاهم بين هذين العنصرين من أعسر الأمور.

ثانـــيا: إن وجــود أمة مسيحية فى مصر أساءت إلى العلاقات بين الأقباط والمسلمين بالرغم من أن هذه الأمة كانت مشجعة بروح العطف على الأغلبية المسلمة.

ثالـــثا: إن الأقباط الذين اضطهدهم المماليك واحتقروهم أصبحوا يرحبون بأمم أوربا المسيحية على شرط أن تكون هذه الأمم منزهة عن كل غرض دينى.

وباختصـــار فان هذه الثلاث سنوات التى قضاها الفرنسيون فى مصر لأثمن لدينا فى الـــتاريخ من هذه القرون الأربعة الطويلة التى مكثها العثمانيون فى مصر، فقد علمتنا دروساً كانت نعم الزاد فيما خلف من أيامنا، فقد تعلمنا قيمة هؤلاء الأتراك والمماليك الذين يستأسدون علينا وهم أجبن من الأرانب، كما علمتنا أن بلدنا مصر شيء تتكالب الدول على امتلاكه، وإنها شيء يستحق أن نثور لأجله وندافع عنه، كما دفعت بأقباط مصـــر لأن يظهـــروا قوميتهم الغافلة فيتقدموا الصفوف كى يصرخوا فى إخوانهم إن الوقت قد حان لأن يفكوا هذا الظلم عن عيونهم فيسعوا نحو الاستقلال التام بعيدين عن تـــركيا، وإن ولاءهم للخليفة أو لأمير المؤمنين لن يغنى عن استقلالهم المفقود شيئاً، وإن رابطـــتهم الإسلامية لا تعنى خضوعهم للأجانب ولو كانوا مسلمين، كما لا تعنى عـــداءهم لإخـــوانهم فى الوطن وإن كانوا مسيحيين، فالدين لله والوطن للجميع، وكان الأقـــباط هـــم الذين حملوا مشعل هذا الرأى فأعلنوه وسعوا دونه رغم ما وجدوه من مواطنـــيهم من الجحود وسوء الظن، ورغم ما نالوه من عنت واضطهاد دفع بعضهم حياته ثمنا له.[٣٨]

كلمة حق ينبغى أن تقال:

رغم المظالم التى حاقت بالكنيسة فى هذه الفترة والحوادث المؤسفة التى حلت بالأقباط فى أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر لكن كانت هناك صورا مشرفة توضح خلود الـــوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة، وإن رباط هذه الوحدة سيظل خالدا عبر الأجيال حتى يوم القيامة.

قصة مسلم وقبطى فى السجن:

عـــندما قاتـــل الأقـــباط بجانب المسلمين تحت قيادة محمد كريم وسقط عدد كبير من الشـــهداء مـــن المسلمين والمسيحيين وحدث أن اتهم الفرنسيون مسلما وقبطيا بترويج

الإشـــاعات ضد الفرنسيين والقى بهما فى السجن ثم أفرجوا عليهما بكفالة مائه ريال وإذا لـــم يـــدفعها كل واحد منهما يقطع لسانه حتى لا يتحدث بالسوء مرة أخرى عن الفرنســيين وكانـــت المائة ريال فوق طاقه الرجلين ورفض الفرنسيون شفاعة علماء المسلمين للرجلين وتأزم الموقف، فاستدان الشيخ مصطفى الصاوى مبلغ المائتى ريال من صديق ودفعها فدية للقبطى والمسلم معا فسأله الفرنسيون كيف تدفع الفدية للقبطى ؟ فأجـــاب الشيخ الصاوى أن الرجلين المسلم والقبطى من أبناء مصر أصحاب الحق فـــى الحياة على الأرض كما أن المسلم السجين أعلن انه لن يغادر زنزانته فى سجن القلعة إلا إذا أفرجوا عن زميله القبطى، وصدر قرار الإفراج وخرج المسلم والمسيحى مـــن الســـجن واستقبلتهما الجماهير بالطبول والدفوف والمزامير من باب القلعة حتى وصـــلوا بهمـــا إلـــى الجامع الأزهر ثم إلى كنيسة مارمرقس فى الأزبكية وهى مقر بطريركية الأقباط الأرثوذكس .

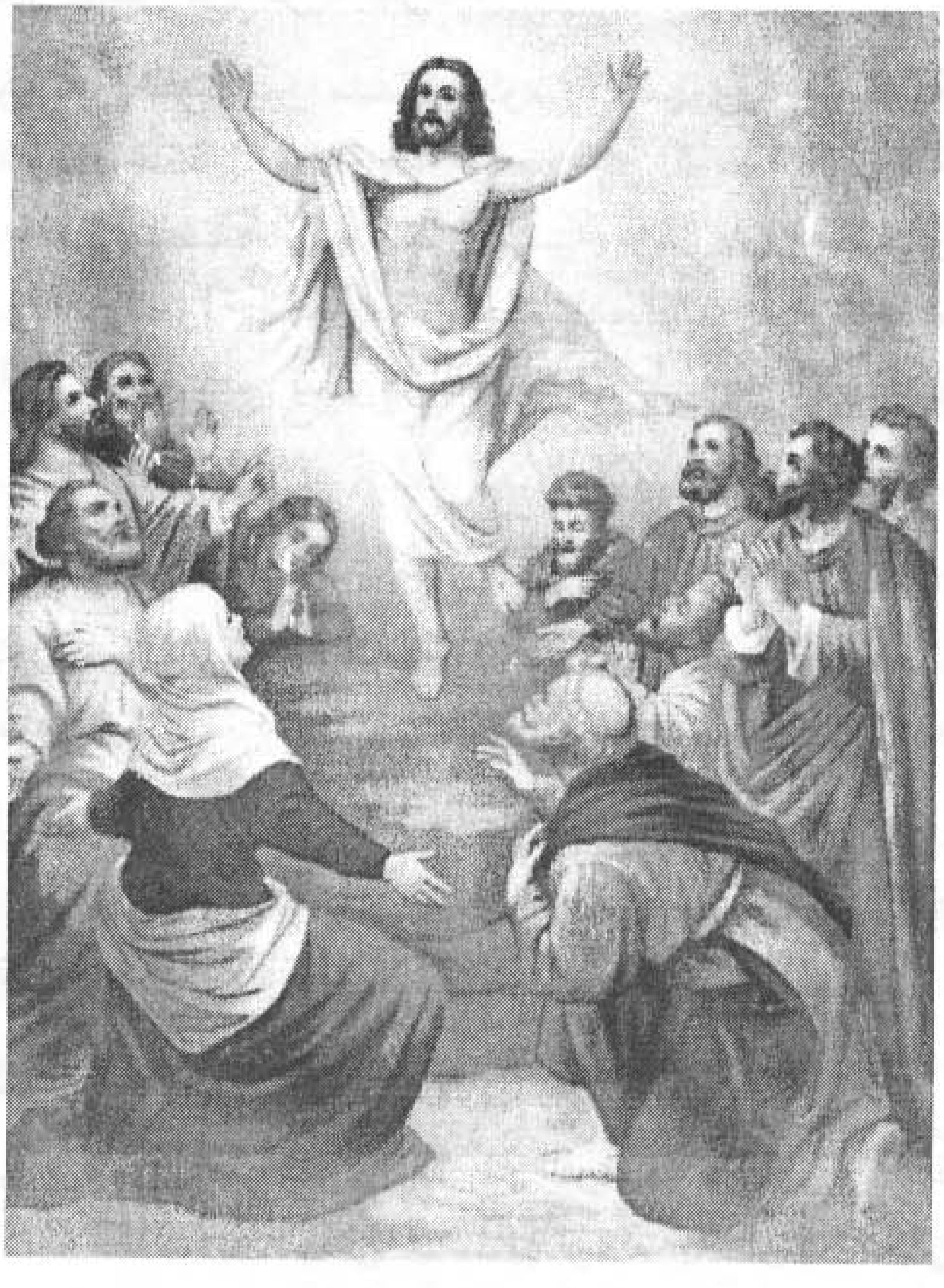

" الفصل الثانى "
أبرز الشخصيات القبطية أيام الحملة الفرنسية

١ ـ الجنرال يعقوب. **٢ ـ المعلم جرجس الجوهرى**
٣ ـ المعلم ملطى. **٤ ـ المعلم انطون أبو طاقية.**

(أولا) الجنرال يعقوب (المعلم يعقوب يوحنا):

هـو أول قبطـى ألف جيشا قبطياً بقيادته، وكان رفيقا للقائد الفرنسى " ديسيه " الذى أهداه سيفاً فخرياً " نقشت على اليد هذه العبارة، معركة عين القوصية " إعلانا بفضل يعقـوب فـى هـذه الموقعة (٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ م) حيث كان يقود مع ديسيه الحملـة الفرنسية إلى الصعيد لإخضاع المماليك الذين كانوا يبلغون عشرة أمثالهم فى العدد والعدة ولكن ببسالته وحكمته انتصر على المماليك واستحق التكريم.ولا يزال هذا السيف موجودا عند الباقين من أفراد أسرته.[٣٩]

وهو أول رجل من غير الفرنسيين منحته حكومة الجمهورية الفرنسية رتبة قائد، ولقبه الشـريف حسن شريف مكة " بعظيم حملة ديسيه فى الوجه القبلى، " كما أن المماليك طلـبوا وسـاطته فـى الصلح بينهم وبين ديسيه، وهو أول مصرى وضع مشروعا لاسـتقلال مصـر عن الدولة العلية وعن حكم المماليك، إذ أرادها بلادا حرة خالصة لأهلها ولكن المنية لم تمهله حتى ينال موافقة الدول على هذا الاستقلال.[٤٠]

أعماله الحربية مع المماليك:

فى سنة ١٧٨٦ م رافق مراد بك فى محاربته للترك، وكان له نصيب من النصر الذى أحرزه مراد بك كما كان يشترك مع المماليك فى حروبهم وغزواتهم.[٤١]

أعماله مع الفرنسيين:

نظـراً لأن هـذا الـرجل كان فارساً شجاعاً ألقيت على عاتقه مهام لا يستطيع غيره النهوض بأعبائها، ولكنه أداها على خير ما يرام وبأفضل أسلوب، ابتغاء الوصول إلى تحرير البلاد من نير المماليك والترك.

أعماله المالية والإدارية لحملة الصعيد الفرنسية:

فقـد نهض يعقوب وحده بأعباء تموين الحملة الفرنسية والجيوش المتفرقة على طول النـيل ولـيس ذلـك فقـط بل نهض أيضا بإدارة مالية الوجه القبلى كله من توزيع الضرائب وجبايتها والتوفيق بين الأوامر الإدارية الجديدة التى كان يصدرها الجنرال ديسيه والأنظمة الجديدة المألوفة فى البلاد.

وهـذه المقدرة الفائقة جعلت للمعلم يعقوب كلمة مسموعة فى الشئون الإدارية والمالية ومـن أعظم الأمثلة على ذلك أنه، لما كان الجنرال بليار يتولى الإشراف على جباية الضـرائب تأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن تسديدها، فقبض على بعض من مشـايخها رهينة عنده، واتفق أن المعلم يعقوب وصل إلى بنى سويف آتيا من مديرية الفـيوم بصحبة الجنرال ديسيه بعد إخضاعها، وعلم بالأمر فاحتج بشدة على تصرف بلـيار ونصـح باسـتعمال الأناة فى الجباية والكف عن إرهاق الشعب وإخلاء سبيل المشايخ الأسرى، فأقره الفرنسيون وفى مقدمتهم ديسيه على رأية وعملوا بنصيحته.

وهكذا كان المعلم يعقوب عماد حملة الصعيد ضد المماليك ودعامتها بل أكثر من ذلك فقد وضع خطة لحملة تسير حتى النوبة لإتمام إخضاع المماليك بالوجه القبلى ونفذت هـذه الخطـة وأتمـت الحملة مهمتها، فبددوا شمل المماليك الذين كانوا بقيادة زعيم المماليك إبراهيم بك ومراد بك، وعاد ديسيه إلى أسيوط واتخذها مركزاً عاماً للقيادة ومعه المعلم يعقوب وكبار ضباطه.[٤٢]

مع كليبر:

عمـل المعلـم يعقوب مع الجنرال كليبر فى تنفيذ مشروعاته وقد منحه لقب كولونيل (أى مقـدم) كما منحه الجنرال مينو رتبة جنرال (أى لواء) . وكان بمثابة وزيرا للمالـية، وقـد أدار الأمور والمصالح إدارياً ومالياً إدارة حسنة بما خوله قادة الحملة الفرنسية من سلطة واسعة.

كمـا كـان للمعلم يعقوب الفضل فى تنظيم فرقة من السعاه (الهجانة) تتولى أعمال البريد، وقد أعجب بها الجنرال ديسيه لأنها جعلته على اتصال دائم بجنوده فى الشمال والجنوب فكان يرسل الجرحى إلى القاهرة ويتزود منها بالمؤن والذخيرة.[٤٣]

وهنا يجب أن نقف وقفة قصيرة لنسأل هل كان المعلم يعقوب بتعاونه مع الفرنسيين رجلاً خائنا لوطنه ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نقول:

أن المعلـم يعقـوب عاش فى ظل الحكم التركى أكثر من خمسين عاما وشاهد معاناة بـلاده والمسيحيين من سوء الحال وإذا كان قد نجح فى جمع ثروة، فان ذلك لم يمنعه مـن أن يلمس ما عاناه مواطنوه أقباط مصر، من الذل والهوان، فأدرك أن هذا الحكم التركى وحكم المماليك هو أسوأ أنواع الحكم فى العالم، وان أية محاولة للتخلص منه ولو إلى حكم شيطان آخر هى الوطنية نفسها.

وإذا كان المعلم يعقوب قد عمل على استتباب الأمر للفرنسيين المحتلين، فإن الثائرين علـى هذا الحكم لم يرجوا أكثر من إرجاع الحكم التركى، فلا معنى مطلقا بأن يرمى الأول بالخيانة ويوصف الآخرون بالوطنية.[٤٤]

الفيلق القبطى:

حسب يعقوب حساباً للطوارىء بعد ما شعر أن مصر محرومة من جيش وطنى يمكن الاعـتماد علـيه، ففكـر فى تأليف فرقة قبطية وطلب ذلك من الفرنسيين فوافقوا له بتألـيفها، فجمعهـا مـن شباب أهل الصعيد الذين عملوا فى الجيش الفرنسى صنّاعاً وعمّـالاً وكانـوا نحو ألفين ووكل أمر تدريبهم على الحركات العسكرية إلى ضباط انـتقاهم كليبـر لهذا الغرض فأظهروا براعة فى تعلم هذه الفنون، وضم يعقوب إلى الألفين شاب شباباً آخرين فألف منهم الفيلق القبطى، ولكن معظم هؤلاء الشبان عادوا بعـد ذلـك إلى قراهم ولم يبق منهم سوى ٧٠٠ أو ٨٠٠ مقاتل تولى يعقوب قيادتهم وجهزهم بالسلاح والمؤن من ماله الخاص.

وقـد ترك لنا التاريخ شهادتين من رجال الحملة الفرنسية تثبتان تأليف هذا الفيلق وما بذله يعقوب من المال فى هذا السبيل.[٤٥]

بعض الحوادث التى عاصرها الجنرال يعقوب:

ثورة القاهرة فى مارس سنة ١٨٠٠:

عندما انشغل كليبر فى المعركة مع العدو الأعظم قائد الجيش التركى عند عين شمس تظاهر ناصف باشا القائد العام للجيش العثمانى بالهروب من أمام كليبر ودخل القاهرة خلسـة مع كثير من أفراد الجيش التركى وابتدأ عمله فيها بذبح جميع الأقباط وبنهب كل الأحياء المسيحية، أخذ الأتراك والعامة يبحثون عن كل مسيحى فيذبحونه بلا شفقة ولا رحمـة، وكانوا يذبحون الرجال ويفضحون النساء ثم يجلدوهن عرايا، ويقطعون رؤوس الأطفال أمام أمهاتهم، وأكثر من ذلك أخذوا يحرّضون الغوغاء على رفع راية العصـيان وإعـلان الثورة فى وجه الفرنسيين.[٤٦] ولم تقف الثورة عند هذا الحد، بل أرادت أن تؤثر على الحى القبطى (كلوت بك وحارة النصارى) وإبادة أهله، لولا أن المعلم يعقوب كان ذكياً وشجاعاً، فأحسن الدفاع عن الأقباط وأنقذهم، إذ اظهر فى تلك الظـروف العصيبة مواقف عظيمة، واستيقظت فيه الروح الحربية، فحصّن منزله فى الـدرب الواسـع وثبت إلى النهاية أمام خطر شديد كان فيه خصمه اللدود حسن بك الجـداوى (احد كبار المماليك) الذى حاربه يعقوب يوماً كاملاً حتى سقط عدد كبير من رجاله قتلى ، وعندما عاود حسن الجداوى الهجوم فى اليوم التالى وحاصر القلعة التـى كـان يحتمى بها الجنرال يعقوب بحارة النصارى لم يكل الجنرال يعقوب عن التضحية فى الدفاع عن الأقباط . فأمر الجنرال يعقوب رجاله بفتح أبواب القلعة وأمر فرسانه أن يخترقوا سياج الأسلحة بجيادهم فاخترقوها وفشل الحصار الذى كان يؤدى ، لو نجح ، إلى فناء أقباط القاهرة عن بكرة أبيهم.[٤٧]

ويقول المرحوم يعقوب نخلة روفيلة ما يأتى:

"وكان حى الأقباط فى الازبكية محصوراً بين القلعة التى أنشأها يعقوب بجوار الجامع الأزهر من جانب وقنطرة الدكة من جانب آخر "، وقيل أن بعض الثائرين هجموا عليه من جهة شارع القبيلة المعروف الآن بالسوق الكبير وسوق النصارى من نقطة كانت مهملة ودخلوا درب الجنينة وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجارا، فأسرع يعقوب لإنقاذ الموقف بأن أخرج من عصّاراته الخاصة بالزيت وعصّارات غيره جميع فحول الجاموس وأوقفها أمام البوابة وحصرها بين قوتين من العسكر وأمر الجنود بأن يرشقوا أجسامها بأسنة الرماح فتزاحمت على البوابة فزحزحت الأحجار التى ورائها وانفتحت فدخل الجنود وقبضوا على الثائرين".[٤٨]

الأيام الأخيرة فى حياة الجنرال يعقوب:

بعد ما غادر الجنرال يعقوب القطر المصرى مع الجيوش الفرنسية كان يأمل أن يصل إلى فرنسا لا ليعيش فيها ويقطع صلته ببلاده بل ليتقرب إلى حكومتها بما كان له من منزلة فى نفوس الحكام الفرنسيين،ثم ليتخذ ذلك وسيلة إلى خدمة وطنه بالمشروع الذى كان يشغل فكره إلا وهو استقلال مصر ، ولكن الأقدار قطعت عليه أحلامه اللذيذة وسارت رياحها على غير ما تشتهى آماله ، فإذا به أدركته المنية وهو فى البارجة بعد ٦ أيام من رحيله فى يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١ م وممن خرج مع الحملة الفرنسية أيضا الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى المشهور ، وكان قد عينه نابليون مترجماً لجيشه وبعد هجرته إلى فرنسا نال فيها مركزا سامياً ووضع أول قاموس فرنسى عربى .

مشروع الجنرال يعقوب لاستقلال مصر:

وهنا نأتى إلى أمجد صفحة فى تاريخ الجنرال يعقوب فانه فى اليومين اللذين اقامهما فى البارجة قبل مرضه اتصل بقائدها جوزيف إدموندس وأخذ يحدثه بما كان يجول فى نفسه عن مستقبل بلاده، فلقى منه إصغاءها وإقبالا عليه واهتماماً بحديثه، لأنه عرف قدرة وأدرك انه زعيم قومه فوثق به وكاشفه بما أعده من مشروعات لاستقلال مصر، ولم يحضر هذا الحديث سوى سكرتيرة لاسكاريس، ولما توفى يعقوب تولى لاسكاريس تدوين ذلك الحديث فى مذكرات قدمها إلى جوزيف أدموندس وبسط فيها مشروع الاستقلال ونوع الحكومة الوطنية التى تؤلف فى ظل هذا الاستقلال، وطلب من القومندان جوزيف ادموندس أن يبلغها للحكومة الإنجليزية وبقيت هذه الوثائق محفوظة فى وزارة الخارجية الإنجليزية إلى أن عثر عليها من سنوات.

أقوال المؤرخين بعد اكتشاف الوثائق:

+ **يقـــول الأســـتاذ محمد صبرى** ما ملخصه: "إن يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنسى الـــتحق بخدمة الفرنسيين الذين دخلوا إلى مصر أصدقاء يحملون راية جديدة هى راية الحـــرية وبـــارح مصر على رأس وفد مصرى مؤلف من أعيان القبط وكانت فكرته الأساســـية مخاطـــبة إنجلتـــرا فى أمر استقلال مصر ولكن وفاته العاجلة فى الطريق قضت فجأة على مشروع مفاوضته دول أوروبا فى ذلك الاستقلال".[٤٩]

+ **ويقول الأستاذ شفيق غربال** فى مؤلفين له أحدهما باللغة الإنجليزية والثانى باللغة العـــربية وعنوانه الجنرال يعقوب والفارس لا سكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١ وقد طبع سنة ١٩٣٢ يقول:

مـــدافعا ومبرئاً التهم الباطلة التى نسبت إلى الجنرال يعقوب من بعض الكتاب العرب بأنـــه رجـــلاً خائناً تعاون مع الفرنسيين وساهم فى ذلّ الشعب المصرى ويقول بهذا الصدد ما يأتى :

"بـــدأت بعـــد العـــثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وفى طبيعة علاقته بالفرنسيين، أن خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين، خدمات من نوع ما كـــان يقـــوم بـــه للفرنسيين جرجس الجوهرى وملطى وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقـــباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص من جهة أخرى مما كانوا فـــيه مـــن امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجـــة الحكـــام إلـــيهم، وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربى".

ومـــن حقـــق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاســـع عشـــر يجـــد أن الطوائف غير الإسلامية منها نظرت فى أول الأمر للتدخل الغربـــى فى شئونها، بالعين التى نظر بها يعقوب فى أواخر القرن الثامن عشر، ومن أهم الأسباب التى شجعت فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى ، تخليص وطنه من حكم لا هـــو عثمانى ولا مملوكى وإنما هو مزيج من مساوىء الفوضى والعنف والإسراف ، ولا خيـــر فـــيه للمحكومـــين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة ، فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قـــدوم بونابرت ، وأمكنه من خلال تأييده للاحتلال إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فـــى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية ، كان يعتبرها العنصر المرجح فـــى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها ـــ(لأن سر انتصار الفرنسيين هو فى جـــودة نظمهم العسكرية)ـــ وكانت تعتبر قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر ، وهكذا عمـــل الجنـــرال يعقوب على أن يكون لفئة من المصريين يد فى تعزيز مصير البلاد

بـدلا مـن أن يبقـى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصورا على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين .

يوجد تعليق للأستاذ / شفيق غربال على مقدمة باللغة الفرنسية لمقـال بقلـم السـيد / جورج دوان سنة ١٩٢٤ م نشرته الجمعية الجغرافية الملكية بعنوان " **مصر المستقلة - مشروع سنة ١٨٠١ م** " نختار منه الفقرة الآتية ونصها:

"والـذى نـروم أن نذكـره وننبه إليه هنا على ضوء الوثائق التى وجدت حديثا فى محفوظات وزارة الخارجية الإنجليزية هو أن فكرة الاستقلال المصرى التى نشأت فى ظـل حملـة بونابرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للمصريين، فان واحدا منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم ، إلا أن موته قبل الأوان فـى أغسـطس سنة ١٨٠١ م حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوروبا".[٥٠]

ونشـر للأسـتاذ سـلامة موسى فى جريدة " مصر " القبطية عدة مقالات يمجد فيها أعمال الجنرال يعقوب الذى اعتبره أول من رفع صوته فى مصر وفى أوروبا مطالبا بحرية البلاد واستقلالها (جريدة مصر العدد الصادر فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦) .

"ومـع كـل هـذا لم يرض الأقباط على اتجاهات الجنرال يعقوب إذ تزوج بعد وفاة زوجـته الأولى من زوجة سورية بطريقة غير شرعية، وكان البطريرك غير راضى على تصرفات يعقوب وزيّه المختلف".

كمـا يمكننا أن نضيف إلى كل هذا أن الجنرال يعقوب كثيرا ما اتخذ موقفا معاديا من الكنيسة، كما انه رغم ما يملكه من أموال طائلة، لم يرمم كنيسة واحدة ولم يوقف على أى كنيسـة شيئا من ماله، ولكن الأمر الذى يرفضه المؤرخون لهذه الفترة رفضاً باتاً هـو نعـت الجنـرال يعقوب القبطى بالخيانة لوطنه بل ويؤكدون أن أكثر المواطنين إخلاصاً لهذا الوطن هم الأقباط.

(ثانيا) المعلم جرجس الجوهرى:

ليسـت شـهرة المعلم جرجس الجوهرى فقط فى علو المنصب وعظم المكانة بل لما امـتاز بـه مـن العقل وكرم الأخلاق وعمل المعروف للجميع بدون تمييز بين مسلم ونصرانى، وعدم التدخل فى مالا يعنيه، وعظم النفس والصدق ، حتى نال ثقة جميع مرووسيه على اختلاف أجناسهم .

ولقد كانت ظروف المعلم جرجس غير ظروف أخيه، لأن المعلم إبراهيم باشر أعماله مـدة حياته مع الأمراء المماليك ولكن المعلم جرجس باشر أمور الحكومة فى أربعة عهود مختلفة واحتك بكثير من حكام متباينين فى العادات والأخلاق والدين.

أولا: فى مدة حكم المماليك:

يذكـر التاريخ أنه لما مات أخوه المعلم إبراهيم الجوهرى قلده إبراهيم منصبه فأصبح كبير كتبة مصر.

ثانيا: فى مدة حكم الفرنسيين:

اعتبـره الفرنسـيون عميد الأقباط فأجلوه واحترموه وإستصحبه نابليون بونابرت إلى لويس فى إحدى المهام ، كما استصحبه الفرنسيون فى عبورهم للنيل عند بولاق عقب وصول الجيش العثمانى إلى أبى قير بصحبة حلفائهم الإنجليز ، وظل المعلم جرجس محافظـاً علـى رئاسة الكتّاب والمباشرة ، وحائزا على ثقة الفرنسيين ورضاء أعيان المصـريين وكـبار المشـايخ والسادة ، حتى تم جلاء الفرنسيين عن مصر فى سنة ١٠٨١ م .

ثالثا: فى مدة حكم الأتراك:

حيـنما دخل الأتراك والمماليك القاهرة على أثر انسحاب الفرنسيين ساد الاضطراب وهـرب عـدد كبير من الأقباط إلى مصر القديمة والجيزة. وفى أول سنة ١٨٠٣ م ثـارت العسـاكر التـركية وزحفوا على حارة النصارى ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهرى وأخذوا منه أشياء نفيسة وفراوى ثمينة.[٥١]

رابعا: فى مدة حكم محمد على:

وبعـد أن تولى محمد على الحكم نال لديه (المعلم جرجس) المقام الأول لما يسديه إلـيهم مـن الهدايا والرغائب، حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى، وكان عظيم النفس ويعطـى العطايا ويوزع على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوى والبن، ويعطى ويهب غير أن الوالى سرعان ما انقلب عليه بعد ذلك مختلقاً سبباً، وهو عدم مبادرته إلى جباية كل ما كان يطلبه من الضرائب(لعل ذلـك كان شفقة من المعلم جرجس على الأهالى)، ولشدة حاجة محمد على للأموال ، قبض عليه ومن معه من الأقباط بحجة أن فى ذمته مبالغ متأخرة من حساب التزامه . وإسـتدعى المعلـم غالى كاتب الالفى واسند إليه الرياسة مكانه، وبعد مراجعة المعلم غالـى حساب الجوهرى أمر الوالى بالإفراج عنه على شريطة دفع مبلغ طائل فرضه عليه، فاضطر المعلم جرجس بسبب ذلك إلى بيع كثير من أملاكه فى الازبكية وقنطرة الدكة، ثم لجأ إلى الصعيد ويقال أن محمد على قد نفاه هناك.

وقـبل رحـيله إلى الصعيد جمع كل حجج أملاكه وسلمها إلى البطريركية كوقف لها لتنفق من ريعها، فوضعت البطريركية اليد عليها وبقيت فى حوزتها للآن، وقد صرح لـه بالعودة إلى القاهرة بعد أربع سنوات فعاد سنة ١٨٠٩ م وقابل الباشا، فأكرمه ثم

نــزل بيته الذى كان المعلم غالى قد أعده له ، وتقاطر وجوه المدينة من جميع الملل للترحيب به ، ولكن المنية عاجلته فتنيح فى سنة ١٨١٠ ودفن بدير مارجرجس بمصر القديمـــة بجوار أخيه المعلم إبراهيم الجوهرى ، وقد كتب المؤرخ الجبرتى عن المعلم جرجس الجوهرى قائلاً إنه نافذ الكلمة واسع الصدر عظيم النفس ، أما خدماته للأقباط فــلا تقــل عما فعله أخوه المعلم إبراهيم الجوهرى ، فكان شريكه فى تعمير الكنائس والأديرة ، ووقف العقارات عليها إلى غير ذلك من وجوه البر والإحسان .

(ثالثا) المعلم ملطى:

كــان كاتــباً عــند أيوب بك الدفتر دار من مماليك محمد بك أبو الذهب، ولما احتل الفرنسـيون الـبلاد كونوا ديوانا للنظر فى القضايا العامة وجعلوا المعلم ملطى رئيساً عليه بموافقة أعضائه من مسلمين ونصارى وذلك لما امتاز به هذا الرجل العظيم من الخبـرة وحسن التدبير، واستمر المعلم ملطى يدير الديوان بمهارة مدة حكم الفرنسيين وبعد خروجهم القى القبض عليه وقطعت رأسه عند باب زويلة.

(رابعا) المعلم انطون أبو طاقية:

اشتهر فى مدة حكم الفرنساويين، وكان ثرياً، وقد زاره نابليون فى أواخر سنة ١٧٩٩ م وكــان محتاجاً للمال فنزع المعلم أنطون طاقيته من فوق رأسه وأخذ يملأ بها المال حتــى اسـتوفى نابلـيون حاجته، فارتفعت قيمته فى عينيه، فولاة فى وظائف كثيرة، وكبيــرة فقــام المعلــم انطــون بمســئولياتها خير قيام، إلا أنه رفع كثيرا من المال والضــرائب عــن كاهل الأهالى، فلم يرق عمله هذا فى نظر الفرنسيين فقبضوا عليه وســجنوه فى القلعة حتى يدفع ما تأخر عليه من حساب البلاد فدفعه من ماله الخاص فى الحال.

ويذكــر التاريخ أنه فى أيام الجنرال الفرنسى مينو كان الفرنسيون يعاقبون المباشرين الأقــباط ويعاملــونهم معاملة سيئة ويتربصون بهم للاستقصاء عنهم وأتهم " ستيف الفرنســى الأقباط باختلاس مبلغ كبير من المال فأمر مينو بالقبض على المعلم انطون أبو طاقية وتغريمه ٧٥٠ ألف جنية لتعويض الخسائر فدفعها من ماله الخاص.

ولمــا ترك الفرنسيون مصر قبض محمد باشا أبو مرق، الحاكم فى ذلك الوقت، على المعلــم انطــون مــع اثنين من كبار القبط هما المعلم إبراهيم زيدان والمعلم عبد الله بــركات وقــتلهم ســنة ١٨٠٢ م بدون تهمة وبدون محاكمة وبدون ذنب وأمر ببيع أملاكهم فى المزاد الذى استمر عدة أيام.

وأيضــا يذكــر الــتاريخ انه فى سنة ١٨٥٣ سافر المعلم إبراهيم عوض حفيد المعلم انطــون إلــى باريس ليطالب بالمال الذى دفعه جده إلى نابليون إمبراطور فرنسا فرد علــيه نابليون الثالث قائلاً له أن هذا المال كان قد فرض على الأقباط فدفعه عنهم أبو طاقية إلا أنه دفع له أجرة نفقات السفر مبلغ ٤٥٠٠ ليرة فرنساوية.[٥٢]

الفصل الثالث

حالة الأقباط والكنيسة فى عصر يوسف باشا الصدر الأعظم
(١٨٠١ - ١٨٠٥)

بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، تركوا الأقباط لا حول لهم ولا قوة، وتركوا المسلمين فى حالة هياج شديد وكراهية للأقباط بسبب مساواتهم بعض الشيء مع المسلمين أثناء وجود الحملة الفرنسية، وبسبب بعض التسهيلات التى حصلوا عليها فى التعيينات والوظائف، مما جعل المسلمون يتهمون القبطى بالتعاون مع المسيحى الاجنبى (الفرنسى)، مع أن الأقباط كما أوضحنا لم يرغبوا فى وجود الأجانب بينهم، بل تمنوا رحيلهم، ولكن المسلم الذى تحمل السوء من جراء أعمال القمع أثناء ثورتى القاهرة، حاول أن يثأر لنفسه من النصارى، وأهان الأقباط وفرض عليهم الغرامات وحكم على بعض أعيانهم بالقتل (مثل المعلم ملطى).

ويقول الجبرتى: رفع كثير من العامة شكاياتهم إلى الأتراك عن ظلم وقع عليهم أيام.[٥٣] الاحتلال الفرنسى وعزّوا هذا الظلم إلى المعلم يعقوب فسرعان ما حقق فى الأمر وأثبت التحقيق عكس ما ظنوا، حيث ظهر لمحمد مرق الذى تولى الحكم فى مصر بعد خروج الفرنسيين، أن الظالم الحقيقى فى الخيانة لم يكن المعلم يعقوب بل كان مصطفى الطاراتى، فقام القائد المذكور بقطع رأسه بين المفارق فى باب الشعرية، ولكن لم تلبث الأحوال أن اضطربت أيام طاهر باشا وعجز الوالى عن حفظ الأمن ونشرت جنوده فى الأرض فساداً وفى أثناء هذه الفوضى قبضوا على المعلم ملطى وقطعوا رأسه هو وكثير من الأقباط.[٥٤]

ويذكر القس منسى أن يوسف باشا الصدر الأعظم قتل ثلاثة من أعيان الأقباط بدعوى أنهم كانوا من أنصار الفرنسيين ثم استولى على أموالهم وممتلكاتهم ففر كثيرون من الأقباط من أمام وجه الأتراك وفرضت عليهم غرامة بصفة فدية عن أنفسهم.[٥٥]

الباب الخامس عشر
الأقباط فى عهد أسرة محمد على وإبراهيم باشا
(١٨٠٥ - ١٨٤٩ م)

" الفصل الأول "

تمهيـــــد ومدخـــــل

الطريق إلى الإرادة المصرية الحرة المستقلة ويوم(١٣ مايو ١٨٠٥)

أولا:إختيار محمد على واليا على مصر:

فـــى هذا اليوم التاريخى فى مسيرة الحركة الوطنية المصرية مارست فيه الأمة كلها حقوق المواطنة ووضعت لنفسها أساس الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير واتخاذ القرار.حيث قام نواب الشعب المصرى وزعمائه بكل طبقاته وفئاته بمسلميه وأقباطه. بقـيادة السـيد عمر مكرم بخلع الوالى التركى خورشد باشا عن ولاية مصر وتولية محمد على الحكم باختيار الشعب وبإرادته وقوته وسلطته...

فـبعد أن اجـتمع نواب الشعب فى دار المحكمة وحولهم الجماهير المحتشدة تؤيدهم وتؤازرهم.. ذهبوا إلى مقر إقامة محمد على وابلغوه بقرار الأمة قائلين:" إننا لا نريد هـذا الباشا واليا علينا ولابد من عزله من الولاية .. إننا خلعناه من الولاية ". وعندما سـألهم محمد على :" ومن تريدونه واليا"؟ قالوا جميعا فى صوت واحدا :" لا نرضى إلا بك، وتكون واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير "...

ثـم نهـض السـيد عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوى وشيخ الأزهر وألبساه خلعة الولاية وأمروا بان ينادى به فى أنحاء المدينة واليا على مصر.[٥٦]

وأثناء ثورة الشعب ضد الوالى التركى التقى السيد عمر مكرم بعمر بك احد مستشارى خورشـيد باشا الذى كان يجادل ويرفض القرارات التى أخذت قائلا :" كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله... وأولى الأمر منكم ؟".

فأجابه السيد عمر مكرم على الفور:" أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العـادل وهذا رجل ظالم وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة وهـذا شئ مألوف من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه".[٥٧]

ثانيا:الثورة الشعبية لتأييد محمد على:

وإزاء رفض الوالى لقرار عزله تصاعدت الثورة الشعبية وحمل السلاح كل قادر على حمله وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح واشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على اختلاف اعمارهم ومراكزهم وطوائفهم، وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة.[٥٨] ...

ومن ناحية أخرى عقد عمر مكرم اجتماعا فى بيته حضره كتخدا (وكيل) محمد على وجرجس الجوهرى كبير المباشرين الأقباط والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والقاضى وتشاوروا معا على كيفية إجبار الوالى التركى على تسليم القلعة التى يتحصن بها مع زيادة الحصار لها وتقوية الاستحكامات والمتاريس.[٥٩]

ونشب القتال بين الوالى والشعب استمر حتى الخامس من أغسطس عندما استسلم خورشيد باشا وترك القلعة ورحل عن البلاد وخاصة بعد صدور فرمان من السلطان العثمانى فى التاسع من يوليو بتثبيت محمد على واليا على مصر حيث رضى بذلك العلماء والرعية (الشعب).

وبذلك توجت الثورة بفوز إرادة الأمة كلها واستقر الحكم لمن اختاره نواب الشعب واليا عليهم لتبدأ مصر عصر النهضة الحديثة فى كل الاتجاهات.

وقد عبر كلوت بك فى كتابة عن هذا الموقف الشعبى قائلا:

" لقد أغرى الشيوخ محمد على بتقلد زمام الأحكام. وهم بما لهم من النفوذ الادبى والدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبداهة نواب الأمة ووكلاءها وغنى عن البيان انه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى اخذ على نفسه القيام بها."[٦٠]

ثالثا:استقرار الحكم لمحمد على بعد انتصاره على الإنجليز والمماليك:

وحدث انه بعد عام حاول الإنجليز والمماليك عزل محمد على بفرمان من السلطان العثمانى بعد الضغط عليه ولكن المصريين كتبوا رسالة إلى السلطان يرفضون فيها بعودة الحكم إلى المماليك وإنهم متمسكون بولاية محمد على فقالوا:

" إن محمد على باشا كافل الإقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقاطع المعتدين وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله والشريعة مقامه فى أيامه ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفض بالضعفاء وأهل القرى والأرياف وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها من أيام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم ويسلبون أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكلف الخارجية عن الحد. أما الآن فجميع أهل القطر المصرى مطمئنون بولاية هذا الوزير".[٦١]

وحارب محمد على والشعب المصرى المماليك وانتصروا عليهم كما تصدوا للحملة الإنجليزية بقيادة الجنرال فريزر عام ١٨٠٧ وهزموا فانسحبوا من البلاد... وفشلت محاولات العزل .[٦٢]

وهكذا استقر الحكم لمحمد على لكى يبدأ فى تنفيذ المشروع الكبير فى بناء الدولة الحديثة لأنه أدرك منذ أيامه الأولى فى مصر انه لم يتول أمر باشاوية عثمانية عادية بل جلس على عرش مملكة عظيمة كل ما حوله فيها يشهد بما كان لملوكها وسلاطينها وان عناية الله سلمته حكم أمة واحدة يدر نيلها وأرضها الفيض العميم... كما أدرك أن لابد لحكم مصر من انتهاج مناهج جديدة يحقق بها رجاء الناس فيه.[٦٣]

من الوقائع التاريخية السابقة لتولية محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ : يمكن أن نخلص إلى ما يلى:

أولا: إن الشعب المصرى كله (أقباطا ومسلمين) كانت له الكلمة الأولى واليد العليا فى تحقيق أرادته ورغبته فى اختيار السلطة الحاكمة التى يقبل التعامل معها والتى تحقق مصـالحة... ومـن ثـم كان للمصريين حق المشاركة السياسية فى اتخاذ القرار فى مؤسسـات الحكـم وهذه لا تكون إلا من صفة المواطنة بركنيها المشاركة فى الحكم والمساواة بين جميع المواطنين .. وإذا كان الدستور هو المصدر الاساسى الذى يقرر صـفة المواطنة فانه على النظام الدستورى الأصيل والفعال لا يصبح له قوة وفاعلية إلا إذا كان تسجيلا لإنجازات حركة تجرى على صعيد الواقع تسود فيها العناصر ذات الوعى والإرادة من اجل استخلاص حقوق المحكومين أي أن البحث المجدى فى مبدأ المواطنة يكون فى " الحركة الدستورية ".[٦٤]

ويشـرح أسـتاذنا الدكـتور ولـيم سليمان قلادة فاعلية الحركة الدستورية فى الواقع المصرى فيقول:

" إن الحقـيقة الأساسية فى التاريخ الدستورى المصرى هى أن اختراق حاجز السلطة والعبور من حالة المحكومين إلى سلطات الحكام هذا كله تم بواسطة مكونات الجماعة الأقـباط والمسـلمين وهكذا صارت لكل مصرى صفة المواطنة ليس باستخلاص من نـص مسبق ولكن من خلال المشاركة الأصلية فى الحركة الدستورية فقد دخل أهل الأرض مجال السياسة والحكم معا وبجهد مشترك وفى وقت واحد...

وفى واقع الأمر فان الحياة المشتركة للشعب تمضى كل يوم فى هدوء كما تجرى مياه النـيل مجسدة فى كل عمل قيم ومفاهيم المساحة المشتركة التى ارتضاها أبناء مصر القبط والمسلمون لها خلفية مرجعية كامنة فى وجدانهم وضمائرهم ويظل هذا كله غير ملحوظ إلى أن تأتى اللحظة الحرجة المصيرية التى تحتاج لإخراج مصر من المأزق إلـى إعلان موقف موحد... حينئذ تتجسد اللحظة الدستورية إعلانا جديدا مبدعا عن وحدة الشعب المصرى ....".[٦٥]

" وحـين تـنجح الحركة الدستورية فى اختراق حاجز السلطة وتتم اللحظة الدستورية وتسجل إنجازات الحركة فى وثيقة هى الدستور الذى يعلن أن " الشعب ــ كل الشعب ــ صار هو القوة السياسية صاحبة السيادة ومصدر الشرعية فى المجتمع وحينئذ تبدأ الممارسة العملية لإحكام الدستور من خلال مشاركة الجماعة فى اتخاذ القرار المناسب فى شئون حياتها ".[٦٦]

ثانـيا: إن الوعى القومى والشعور الوطنى للشعب المصرى كله أقباطا ومسلمين لن يتـراجع بل سوف ينمو ويتصاعد مع الأحداث عبر سنوات ممارسة الحقوق السياسية كمواطنـين كتعبير للحياة المشتركة والمصير الواحد لأمة واحدة وستصل مع الثورة العـرابية وما بعدها لمفهوم " مصر لمصريين "... وسوف يظل هذا التصاعد الوطنى حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بتحقيق الحرية والاستقلال.

ثالـــثا: إن محمـــد علـــى أدرك منذ لحظة المناداة به واليا على مصر باختيار وإرادة المصـــريين أن الشـــعب المصـــرى هو صاحب الدور الرئيسى والمساهم الفعال فى المشروع الكبير الذى يحلم به فى نهضة مصرية شاملة وبناء الدولة الحديثة لذلك نجده خـــلال ســـنوات حكمة يضع أساس مشاركة المصريين فى مشروع النهضة والعمل الوطنى.

مـــن ناحية أخرى نجد أن محمد على أراد أن يكون حكمه لمصر وراثيا لأولاده من بعـــده وسعى لذلك بكل جهده وقوته وتحقق له ما أراد مع التسوية التى تمت بمعاهدة لندن ١٨٤٠ والتى وضعت مصر فى إطار الدولة العثمانية ولكن منحت الحكم لأسرة محمـــد على وأعطته حق أن يكون له قوة عسكرية لكن محدودة وأيضا حق التصرف فى موارد البلاد بما تمليه عليه مصلحتها بعد أن يؤدى الجزية المفروضة عليه للدولة العثمانـــية ... وقـــد ظلت هذه التسوية فى أساسها — قائمة حتى انتهت فعلا بإعلان الحماية البريطانية على مصر فى سنة ١٩١٤ وقانونا بتنازل تركيا عن سيادتها على مصر فى مؤتمر لوزان فى سنة ١٩٢٣.[٦٧]

رابعا: أن أقباط مصر كان لهم المشاركة الوطنية الايجابية فى هذه الأحداث كمواطنين لهم الحقوق السياسية كاملة ... فنجد جرجس الجوهرى كبير المباشرين الأقباط يشترك فى اجتماعات زعماء ونواب الأمة فى بيت السيد عمر مكرم من اجل كيفية تنفيذ قرار الشـــعب بعزل خورشيد باشا وتأكيد توليه محمد على الحكم كذلك مشاركة العامة من الأقـــباط فى أحداث الثورة الشعبية ضد الوالى التركى ثم ضد المماليك ثم ضد حملة فريزر الإنجليزية...

وهذه المشاركة الوطنية للأقباط والتى سوف تنمو وتتصاعد عبر السنوات ومن خلال الأحداث والمواقف الوطنية إلى جانب الأدوار التى يقومون بها لصالح الوطن ولصالح المجـــتمع المصرى وتؤكد أن هذه الصفحة الجديدة من تاريخ الأقباط فى مصر ينقلهم مـــن مركزهم كأهل ذمة يؤدون الجزية بمقتضى معاهدة بابليون الأولى فى سنة ٦٤١ إلـــى مركزهم كمواطنين ينتمون لهذا الوطن الحبيب مصر التى يعيشون فيها بل تعيش هى فيهم كما قال يوما قداسة البابا شنودة الثالث .[٦٨]

وهكذا عندما نجح محمد على فى الحصول على فرمان بتولية حكم مصر سنة ١٨٠٥ م أخذ فى فرض الضرائب وتنظيم جبايتها والتجأ إلى من يجيد هذا العمل فكان المعلم غالـــى أبـــو طاقية هو اليد اليمنى لمحمد على، ويقال أنه هو الذى أوصى إليه بإلغاء نظـــام الالتزام ، ووضع نظام الضريبة الثابتة على الأرض الزراعية بعد تقسيمها إلى مـــراتب حســـب جودتها فكان بمثابة وزيراً للمالية كما كان النظام الإدارى بيد المعلم باسيليوس فكان هو والمعلم غالى كما يقول المؤرخون الكل فى الكل بالنسبة للحكومة المصـــرية ، وقد لجأ المعلم غالى إلى تعيين كثير من الأقباط فى الوظائف الصغرى لمعاونته .

رابعا:من هو محمد على:

هـو أول حـاكم مسلم اتبع سياسة تسامح حقه وهو يعتبر مؤسس مصر الحديثة وإليه يرجع ضم مدينة الإسكندرية إلى مصر (الوطن المصرى) بعد أن ظلت سبع سنوات تابعة للسلطان التركى مباشرة. وسياسة التسامح هذه بالإضافة إلى استعانته بالخبرات الأجنبـية هـو سـر تفوقه وتوفيقه، إذ بمجرد ما استقرت الأمور فى يده قضى على التفرقة بين القبطى والمسلم لأن كلاهما يستطيعان أن يقدما له أحسن الخدمات، ورأى أيضـا أنـه لا داعـى لتحقير الأقباط بدون سبب، لأن الشخص لا يؤدى واجبه على أحسن وجه إلا إذا كان الشخص محترماً بين الناس.

وقد عبر كلوت بك عن هذا الموقف وتلك المشاعر لمحمد على بقوله:"..... وهو شديد التمسـك بديـنه من غير تعصب ولا تنطع ولقد اظهر دوما من التسامح نحو الأديان جميعا ما هو مشاهد بالعيان بل هو أول أمير مسلم شمل المسيحيين بحمايته ورعايته واتخـذ من الوسائل ما كفل لهم الاحترام والتوقير، أولى البعض منهم مودته ووضع فيهم ثقته ورفعهم إلى شرائف الرتب وسلمهم مقاليد الحكم والقيادة وانعم عليهم برتبة البكوية...".[٦٩]

خامسا:أثر سياسة محمد على فى معاملته للمواطنين المصريين:

اتجهت سياسة محمد على إلى مساواة غير المسلمين بالمسلمين فى الحقوق والواجبات، فعـين بطرس أغا مأموراً لمركز برديس، وميخائيل أغا للفشن، بالوجه القبلى، وفرح أغـا لدير مـواس، وتكلا سيداروس لبهجورة، وأنطون أبو طاقية فى الشرقية. ولا نستطيع أن نقول أن محمد على اتبع هذه السياسة نتيجة لاتساع أفقه بل لأنه كان تاجراً قـبل أن يكون واليا والروح التجارية تحتم عليه البحث عن المنفعة أينما كانت ولذلك اتجهت سياسة محمد على إلى البحث عن الكفاءات والاستفادة بها دون النظر إلى أى شيء آخر.

ولـم تلبث هذه السياسة أن أتت ثمارها فانتشرت روح المساواة بين جميع المصريين فـى جميع القرى المصرية وتعاون المسلمون والمسيحيون تعاوناً صادقا فإذا ما اتجه محمـد على إلى سياسة التوسع الحربى، تحمل الأقباط نصيبهم إلى جانب المسلمين، واخـتلطت دمـاؤهم فـى وديان الشام وجبال المورة وسهول آسيا الصغرى، وتحمل الجمـيع عـبء التضـحية لأجل مجد الوطن، وظل الأقباط طوال عصر محمد على عنصـراً فـى بحر الأمة المصرية التى تعيش فى سلام، ولم تقع بهم إلا إضطهادات خفـيفة، حيث فرض عليهم محمد على باشا غرامة تقدر بمائتى ألف ريال ليمول منها محمـد على مرتبات الجيش (جنوده) وأمر اثنين من كبار الأقباط الكاثوليك وهما المعلم غالى وورثه فيكتور وكيل دائرة عثمان بك البرديسى الذى مات وقتئذ بأن يدفعا من المبلغ ثمانين ألف والباقى يدفعه الأقباط الأرثوذكس.

والأقباط فى عهد محمد على عرفوا الحرية والمساواة إذ أعطى لهم الفرصة للمشاركة فى العمل الوطنى وبناء الدولة الحديثة.

ويمكن أن نجمل الصورة المشرقة لنهضة مصر فى عهده من خلال ما يلى:

١ـــ بـدأ محمد على فى سنة ١٨٢٠ تأسيس الجيش المصرى النظامى لكى يكون تدعـيما للاستقلال مصر واسند إلى الضابط الفرنسى الكولونيل والذى عرف فيما بعد بسـليمان باشـا الفرنساوى مهمة بناء المؤسسة العسكرية الحديثة فبدأ بمدرسة أسوان الحـربية لـتكون النواة الأولى من ضباط الجيش ثم تجنيد المصريين سنة ١٨٢٣ ثم تأسيس المدارس المتنوعة مثل التجهيزية والمشاة والفرسان والمدفعية وأركان الحرب والموسيقى العسكرية ثم المدرسة البحرية ومصانع الأسلحة والمدافع والبنادق ومعامل البارود ومخازنها... ثم الترسانة البحرية ببولاق والإسكندرية.[٧١]... وقد بلغ عدد أفراد الجيش فـى سنة ١٨٣٩ نحو ٣٧٦ ألف جندى ويذكر أن محمد على قد الحق مائة قبطى بالعمل فى ترسانة الإسكندرية.[٧٢]

٢ـــ كان من مظاهر النهضة الحديثة اهتمام محمد على بالتعليم والثقافة فأنشأ العديد مـن المـدارس المتخصصـة مثل المهندسخانة والطب والصيدلة والألسن والمدارس الابتدائية وانشأ لها ديوان خاص بها (وزارة المعارف ـ ثم وزارة التعليم) وكان أول وزير لها مصطفى مختار بك...
كما وجه محمد على اهتمامه إلى إرسال تسع بعثات علمية إلى أوروبا وخاصة فرنسا وكانـت أول هـذه البعثات عام ١٨٢٦ وتتألف من ٤٤ طالبا وفى كافة التخصصات ويذكـر أن رفاعـة الطهطاوى رائد النهضة الثقافية بمصر كان ضمن هذه البعثة.[٧٣]
ويقدر مجموع طلاب البعثات فى عهد محمد على ٣١٩ طالبا وهذا عدد عظيم إذ قيس بدرجة الثقافة التى بلغتها مصر وقد كان لكل هؤلاء أثرا كبيرا فى نهضة مصر.
أمـا الأقـباط فلم يرسل محمد على إلا واحدا هو ابراهيم السبكى ضمن أفراد البعثة الخامسـة سـنة ١٨٤٤ لدراسـة الطب البيطرى وعندما عاد عين فى مدرسة الطب البيطرى فى يوليو سنة١٩٤٨.[٧٤]
ويـرى المستشار طارق البشرى انه من أسباب عدم اختيار الأقباط فى بعثات محمد على يرجع إلى أن ما اختص به القبط من مهن فى جهاز إدارة محمد على لم يستشعر الوالـى الحاجة فيها إلى خبرة أجنبية ثابتة من إرسال البعوث فيها وهى مهن الإدارة المالـية والحسـابات ومسح الاراضى والموازين وغير ذلك كما يلاحظ من استقراء أسـماء المبعوثـين أن منهم من كانوا مسيحيين غير مصريين من الأرمن وغيرهم، الأمـر الذى يستبعد معه أن يكون الوالى قد جعل الإسلام شرطا فى المبعوث أو جعل المسيحية مانعا من الالتحاق بالبعثات، كما يلاحظ أيضا أن الغالبية من المبعوثين كانوا

مـن غيـر المصـريين الأصليين (الفلاحين) بل كانوا من الأتراك الجراكسة أو من المعـتمدين مـن ذوى الأصول التركية والجركسية وذلك لأن هدف الوالى كان إعداد قـيادات المسـتقبل فـى وظائـف الجيش والإدارة مما كان لا يزال وقف على غير المصـريين لـذلك نـدر فيهم المصريون. وبذلك يظهر أن عدم وجود القبط في هذه البعثات أساسه الندرة الواضحة للعنصر المصرى ذاته فيها وليس عنصر الدين.[٧٥]

٣ـ ومن الدعائم الأساسية لنهضة مصر السياسية الاقتصادية التى اتخذها محمد على والتـى قامـت على سيطرة الدولة على مرافق البلاد الاقتصادية والتنظيم الدقيق لها وأيضا زيادة موارد الثروة .[٧٦]
وقد حقق ذلك من خلال الاهتمام بالزراعة والاراضى الزراعية حيث قام بإلغاء نظام الالتـزام وأقـام نظام العهد وتوزيع الاراضى المصادرة على المصريين وشق الترع وإضـافة الجسور والقناطر وإقامة القناطر الخيرية وزيادة مساحة الاراضى الزراعية وغرس الأشجار على مختلف أنواعها وزراعة القطن كما أقام المصانع المختلفة مثل الغـزل والنسـيج فى اغلب أقاليم مصر وسبك الحديد وألواح النحاس ومعامل تكرير السكر فضلا عن العمران والتجارة الخارجية.[٧٧]
ولاشك أن الفلاحين من الأقباط كان لهم نصيبا فى هذه الاراضى وزراعة المحاصيل الجديـدة التى ادخلها محمد على كما أن كبار الموظفين صاروا من عداد كبار ملاك الاراضـى وفى عام ١٨٣٧ امتلك صغار الموظفين الاراضى وصار لكل واحد منهم مسـاحة خمسـين فدانا واتسعت قاعدة صغار الموظفين القبط مع إعادة تنظيم الإدارة ومع التوسع فى زراعة القطن كما استعان بالحرفيين والصناع القبط فى المصانع التى أنشاها.[٧٨]

٤ـ ظل الأقباط يدفعون الجزية للحكام المسلمين منذ عام ٦٤١ ولكن محمد على عمل علـى إعفاء بعض الأقباط من دفع الجزية بحكم عملهم مثل الذين يعملون فى ترسانة الإسكندرية فقد جاء فى هذا الأمر سنة ١٨٣١ ما يلى:
" يقتضى إتباع الأصول المدونة بها وربط ماهية ومرتب الصنف الذى يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهادية لكونهم يؤدون مصالح الميرى ومن اللزوم رعايتهم ورفاهيتهم ".[٧٩] ثـم أصـدر فـى عام ١٨٣٩ مرسوما بإعفاء الأقباط من دفع الجزية ولكن هذا المرسوم تعطل بتنفيذه عدة سنوات للاحتياج إلى الأموال الكثيرة.[٨٠]

٥ـ بالرغم من جهود محمد على فى تهيئة المناخ الاجتماعى فى مصر للمساواة بين الأقباط والمسلمين كمصريين ومواطنين إلا أن هناك حالات كثيرة من صور التعصب البغيض والتطرف المرفوض وكانت دمياط مثلا لذلك فقد جرت بها عدة حوادث تبين سـوء معاملة الأقباط!! وتأتى فى مقدمتها قصة الشهيد سيدهم بشاى الذى سوف تأتى قصته فيما بعد.

وأخيرا يمكن القول إن محمد على ساهم بمجهوداته وقراراته فى تغيير صورة مصر والمصريين ووضع أساسا ليسير عليها خلفاؤه من أسرته فى بناء مصر الحديثة.

سادسا: أهم قرارات محمد على بخصوص سياسة التسامح:

(١) إلغاء قيود الزى:

الغـــى محمـــد على قيود الزى الذى كان مفروضاً على الأقباط فى العصور السابقة، ونتـيجة لـذلك غضــب المســلمون على محمد على لما حظى به الأقباط، بدليل أن الجبرتـــى يحدثـــنا عـــن الأمر الذى صدر عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) إلى الأقباط والأروام بـــأن يلزموا زيهم الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض لأنهم خرجوا عـــن الحد فى كل شيء ويتعممون بالشالات الكشمير الملونة والغالية الثمن ويركبون الرهوانات والبغال والخيول وأمامهم وخلفهم الخدم بأيديهم العصى يطردون الناس عن طـــريقهم ويلبســـون الأســـلحة وتخـــرج الطائفة منهم إلى الخلاء ينصبون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص.[٨١]

(٢) حرية ممارسة الطقوس الدينية وبناء الكنائس:

يعتبـــر عصر محمد على من أزهى العصور التى مرت بالكنيسة القبطية فالغى القيود التى كانت تفرض على الأقباط لممارسة طقوسهم الدينية ولم يرفض للأقباط أى طلب تقدمـــوا به لبناء أو إصلاح الكنائس وتحوى مخطوطات قصر عابدين عدداً كبيراً من الأوامر الخاصة بالكنائس حررت بالصيغة الآتية:

أمر إلى ... بشأن التصريح لطائفة الأقباط بتعمير الكنيسة ومساعدتهم فى ذلك وعدم ممانعتهم. وفى عهد سعيد باشا والخديوى إسماعيل.[٨٢] تعددت أوامر بناء الكنائس وقد رأينا الولاة أنفسهم يستعجلون تنفيذه.[٨٣]

(٣) زيارة الأراضى المقدسة:

كـــان الأقـــباط فـــى عهد المماليك يعانون صعوبات كثيرة للحصول على إذن بزيارة الأراضـــى المقدسة ولكنهم استطاعوا بعد ذلك أن يقوموا كل عام بهذا الغرض تحت رعايـــة الســـلطات وبتسهيلات من محمد على وأول وثيقة عثرنا عليها تعود إلى عام ١٢٤١ هـــــ (١٨٢٥ م) يوصى فيها محمد على متسلم غزة (بالقبط الذين يريدون الحج إلى القدس أن لا يدع لأحد مجالاً فى التدخّل فى شئونهم).[٨٤]

ووثائـــق أخرى مؤرخة عامى (١٨٢٧ م، ١٨٢٨ م) كانت موجهة إلى متسلمى غزة والقـــدس وكـــان الباشا يوصيهم بحماية الراهب القبطى والزوار الأقباط الوافدين إلى

القدس كعادتهم كل سنة حاملين قفص الشموع إلى كنيستهم التى بالقدس وبحمايتهم وإكرامهم عند وصولهم إلى غزة والقدس.[٨٥]

(٤) تحسينه لحالة الأقباط ومؤازرتهم أحيانا واحترام دينهم:

لم يكتف محمد على بالتسامح وتحسينه لحالة الأقباط بل ذهب إلى حد عدم تردده فى مؤازرتهم أحيانا ويتضح ذلك مما يأتى:

أ) إمداد الأقباط بالأسلحة:

حدث فى عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ م) أثناء تمرد حامية القاهرة أن اعتصم النصارى وقد استبد بهم الرعب فى أحيائهم وأقاموا عليها المتاريس وأغلقوا بعض الأبواب وتسلحوا بالبنادق فقام محمد على باشا وأمدهم بالبارود وآلات الحرب وأمنهم على أرواحهم ومنازلهم [٨٦]

ب) حادثة جلد التاجر القبطى وسجن حاكم دمياط:

وقد حدث عام ١٨٤٥ م شجار فى مدينة دمياط بين تاجر غلال متنقل مسلم ومزارع قبطى، فسب المزارع (الحمّار) الذى ذهب يشكو إلى السلطات، فما كان من حكام دمياط إلا بضرب القبطى خمسمائة ضربة والطواف به فى الحى النصرانى ليهان أمام الجميع، ولما علم محمد على بهذا الحادث، أرسل أحد كبار ضبّاطه الذى أمر بسجن حاكم دمياط خمس سنوات فى قلعة أبى قير وتغريمه مبلغا كبيرا من المال.[٨٧]

ج) السماح بلبس الصلبان:

ذكر أن مطران الأقباط الكاثوليك صرح للدكتور بونج أنه كان يتجول فى أنحاء المدينة معلقاً صليبه على صدره بحيث يراه الجميع ولم يحاول احد سبّه أو إهانته وأن الأقباط يستطيعون ممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة.[٨٨]

أضف إلى ذلك أن السلطات نفسها كانت تحترم الدين المسيحى فقد أمر محمد على عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) أن تقام الصلوات لترفع مياه النيل وخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضا واجتمعوا بالروضة وضمنهم القساوسة والرهبان وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير فى تجمل زائد وصحبتهم طائفة من أتباع الباشا بالعصى المفضض.[٨٩]

د) أول حاكم مسلم منح الأقباط رتبة البكوية:

كان محمد على أول حاكم مسلم منح الموظفين الأقباط رتبة البكوية، واتخذ له مستشارين من النصارى. نذكر باسيليوس ابن المعلم غالى الذى عينه محمد على مديرا لحسابات الحكومة المصرية بعد أن انعم عليه بلقب بك وهو أول من منح هذا اللقب من الأقباط.[٩٠]

هـ) تعيين وشغل الأقباط لكثير من المناصب الحكومية:
عهد محمد على للأقباط بالنواحى الإدارية والمالية فى اغلب الدواوين والمصالح نظرا لخبـراتهم وكفـاءتهم فـى هذا المجال فكان منهم كبار المباشرين (المسئولون عن تحصـيل الضرائب الثابتة فى نظام الالتزام الذى كان قائما فى مصر). فنذكر المعلم جرجس الجوهرى ـ شقيق المعلم ابراهيم الجوهرى ـ رئيس المباشرين والذى شهد لـه الجبرتـى " إنـه كان عظيم النفس يعطى العطايا ويهب للجميع وعند قدوم شهر رمضان كان يفرق الشموع والعسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ..."[٩١]

وهناك أيضا العديد من الشخصيات القبطية التى شغلت مناصب وظيفية نذكر منهم:
المعلـم منصور صربامون بديوان الجمرك ببولاق ومعه المعلم رزق الله الصباغ ـ جـرجس ميـنا الصباغ بتفتيش الدائرة السنية ـ المعلمون جرجس ويعقوب وبشارة وجرجس الطويل وأخيه حنا الطويل ومنقريوس البتانونى وإبراهيم نخله وهم كتبه فى ديوان محمد على كما نذكر حنا المنقبادى سكرتير مديرية عموم قبلى.[٩٢] وأيضا نخله ابـراهيم سكرتير وكاتم أسرار شريف باشا الكبير.[٩٣]. إلى جانب كبير التجار غبريال شنودة الذى كان يدفع مبالغ للوالى عندما يحتاج إلى أموال من تجار أسيوط.[٩٤]
كـذلك نذكـر عبود باشا احد المباشرين الأقباط الذى كان يحبه محمد على ويثق به ويقول:" لولا الملامة لقلدته الدفترارية ".[٩٥]

وربما نريد أن نسأل بعد الحوادث السابقة وسياسة التسامح الدينى للأقباط هل يفهم من ذلك أن محمد على لم يكن مهتماً أو محباً لدينه وعقيدته الإسلامية ؟
بالطبع لا بدليل الآتى:

سابعا:مظالم محمد على تجاه الأقباط:

أ ـ عـندما أرسل محمد على أول بعثة علمية إلى فرنسا كانت هذه البعثة خالية من الطلبة الأقباط لأنه لم يحاول أن يعلمهم التعليم الحديث ولأنه كان يختار طلبته من بين خريجى الأزهر.[٩٦]

ب ـ كـان محمد على يكافىء الذين يعتنقون الإسلام فيمنحهم مبالغ نقدية ويعينهم فى الوظائـف الحكومـية.[٩٧] ولـم يتـردد فى معاقبة المسلمين المرتدين علانية ويذكر المستشـرق لـين أنـه قابـل فى شارع القاهرة امرأة ارتدت عن الإسلام وتزوجت بنصرانى فحكم عليها بالإغراق.[٩٨]

ج ـ حث محمد على الكولونيل " سيف " سليمان باشا إلى اعتناق الإسلام لكى يتولى قيادة الجيش حيث لا يجوز لغير المسلم بأن يتولى هذا المنصب، كما ذكر الجبرتى أن محمـد علـى قال لأحد المباشرين النصارى الذى يدعى عبود باشا والذى كان محمد علـى يحـبه ويـثق بـه، قال له لولا ملامة المسلمين لى أنك قبطى لكنت قد قلدتك

الدفتـــردارية، وهـــو المنصب الذى يتولاه ابنه إبراهيم باشا وهذا الاعتراف الصريح يحدد بوضوح موقف محمد على من الذميين.[٩٩]

د ـــ بالإضـــافة إلى كل ما سبق كان محمد على هو الآخر لم يحاول أن يدخل الأقباط الجيش النظامى لأنه لا يرى فى الأقباط إلا مباشرين ومحاسبين ممتازين. وعدم الثقة فيهم ثقة كاملة.

هـــ ـــ محمد على وأهل دمياط:

علـــى الرغم مما رأيناه من التسامح والعدالة والمساواة التى نادى بها محمد على غير أن جـــو دمـــياط الإجتماعى كان سيئاً جداً فى عهده ـــ حيث كانت مقر لكثيرين من السياســـيين وسجناً للجنود الألبانيين وغيرهم الذين كانوا يسيئون معاملة الأقباط ، ظنا منهم أن لهم صلة بالصليبيين ، ويتضح ذلك من التقرير المقدم للخديوى فى ذلك الحين **ـــ ونقتصر فيه على بعض الحوادث :**

(١) حادثة إسلام رجل أرمنى:

فـــى أوائـــل ســـنة ١٨٤٤ م حضـــر رجل أرمنى يعمل بثغر الإسكندرية إلى دمياط واســـتأجر محـــلاً ولما رأى ضيق الحال أراد الهجرة خارج الديار المصرية وحاول الحصول على تذكرة للخروج ولكنه عجز عن ذلك فأضطر بدافع من كثيرين أن يقدم طلب إسلامه للمحافظ للحصول على هذه التذكرة ففعل ذلك وصارت له زفة كبيرة فى شـــوارع الـــبلدة بالطبول حيث أركبوه على حصان وكانوا يطوفون البلدة ويرجمون بيوت النصارى بالحجارة.

(٢) حادثة المعلم الياس الرومى:

خرج المعلم الياس متوجها إلى محل عمله فصادف رجل شرير ظل يسير وراءه وهو يســـبه ويشتمه، وانضم إليه آخرون وأخذوا يقذفونه بالحجارة، فما كان من المعلم أن الـــتفت إلـــيهم وانتهرهم ووبخهم ، فتوجه أحدهم إلى المحكمة واشتكى عليه زوار أن النصـــرانى ضربنى، فاستدعاه القاضى وأرسله إلى المحافظ ، الذى عرض عليه إما الجلـــد أو الإســـلام لولا أن دبرت العناية الإلهية وجود الخواجة فرنسيس والخواجة يعقوب يكن وهما من كبراء القناصل عند المحافظ فأفرج عنه.[١٠٠]

(٣) حادثة باسيلى الخولى:

ذهـــب باسيلى إلى درويش يطلب مبلغاً من المال كان قد استلفه منه درويش من قبل وقـــد احـــتاج إليه باسيلى ولكن درويش قابله بالشتائم والسب واللعن وقال له ليس لك عـــندى شيء بل أكثر من ذلك قام وصفعه على وجهه ثم انهال بالعصى على رأسه، وتجمـــع بعـــض مـــن عبيده وأوسعوه ضرباً، ثم أرسل درويش ساع من طرفه إلى

المحافظ، وادعى على باسيلى أنه هو الذى ضربه، واحضر شهود زور وشهدوا بذلك وعرض عليه إما الإسلام أو الجلد. وهكذا مثل كل الحوادث السابقة.

(٤) حادثة سيدهم بشاى:

كـــان ســـيدهم بشـــاى كاتبا بالديوان بثغر دمياط فى أيام محمد على باشا (١٨٤٤ م) وقامت ثورة من الرعاع بالثغر وقبضوا على سيدهم بشاى وادعوا عليه أنه سب الدين الإسلامى، وكان بريئاً من ذلك، إلا أنه قدّم للمحاكمة وشهد عليه أمام القاضى الشرعى الشهود الزور، فحكم عليه بالدخول فى الإسلام أو القتل، فرفض الدخول فى الإسلام، فجلــده وأرسله إلى محافظ الثغر فبعد ما فحص القضية حكم عليه زورا بمثل ما حكم علــيه القاضى فأنكر سيدهم بشاى الإسلام واستهان بالقتل فجلد وجر وجهه من فوق ســلم قصر المحافظة إلى أسفله ثم طاف به العسكر بعد أن أركبوه جاموسة بالمقلوب فــى شوارع المدينة، وبعد أربعة أيام أعادوا الكرة عليه حيث عروه من ثيابه وألبسوه كرشــة خــروف فى رأسه ولطّخوا جسده بالأوحال وعلقوا فى رأسه مقشتين ملوثين بالقــاذورات وكلابّــين حديــد فى جنبيه بهم قطع من اللحم، وربطوا كلبين وقطة فيه ليتعاركوا وينهشوا فى لحمه ومروا به فى شوارع المدينة بقصد الاستهزاء، ولم يكفوا عن الضرب بالعصى والسياط والأحذية، حتى برز لحمه من عظمه، كما كانوا يلقون عليه الزفت المغلى ثم رموه أمام بيته فمات بعد خمسة أيام.

فــرفع الأقــباط شــكواهم إلى محمد على الذى طلب بدوره تقريرا مفصلا من السيد ميخائــيل سرور احد كبار الأقباط بدمياط، وقد عرف منه مدى الظلم الذى وقع على الشــهيد سيدهم بشاى الذى فأمر بإعادة التحقيق بدقة، وإتضحت براءة القديس الشهيد سيدهم بشاى، ومن ثم حكم الوالى بإدانة كل من القاضى والمحافظ ونفاهما عقاباً لهما، ، ومــن أجل تهدئة النفوس أمر محمد على بتكريم الشهيد سيدهم فى كل أنحاء دمياط وتشييع جنازته رسميا مع رفع الأعلام والصلبان، وعلى أثر ذلك احتفل الأقباط بجنازة الشــهيد احتفالا رائعاً نادر المثال، حيث شمل جميع الطوائف وتقلد كثيرون الأسلحة وســار الموكب فى حراسة جمع غفير من الجنود ولبس الكهنة ملابسهم الكهنوتية مع لفــيف مــن الشمامسة حتى وصلوا به إلى الكنيسة حيث أتموا مراسيم الصلاة ودفنوه بأرض كنيسة مار جرجس.
ومنذ ذلك التاريخ صرح للمسيحيين برفع الصليب جهاراً فى جنازاتهم.[١٠١]

وباختصار فقد أجمع نقاد هذا العصر على تقدم العلاقات بين المسلمين والأقباط تقدماً محسوساً ولكنهم أخذوا على الحكومة عدم اعترافها إلى ذلك الوقت بالمساواة علناً بين الدين المسيحى والإسلامى.

ثامنا:محمد على والبابا البطريرك:

تولـــى محمد على ولاية مصر فى حبرية البابا مرقس الثامن(البطريرك الـــ ١٠٨) (١٧٩٦ــ١٨٠٩) وهو البابا الذى نقل الكرسى البطريركى من كنيسة الروم الأثرية إلى المقر الجديد بالازبكية والتى سبق واعده الأرخن المبارك المعلم ابراهيم الجوهرى قبل نياحته كما قام قداسته بتشييد الكنيسة المرقسية الكبرى وكرسها عام ١٨٠١ .١٠٢

وهو أيضا البابا الذى قام بسيامته أول مطران عام بالكنيسة باسم "الأنبا ثيؤفيلس" وذلك عـــام ١٨٠٨ لـــيكون معينا له فى تدبير أمور البطريركية نظرا لشيخوخته وهو الذى خلفه على كرسى القديس مارمرقس بعد نياحته بثلاثة أيام باسم "البابا بطرس السابع" (البطريرك الـــ ١٠٩) (١٨٠٩ــ١٨٥٢) وعرف بالبابا بطرس الجاولى.١٠٣

وكـــان محمـــد على يحترم البابا بطرس ويوقره جدا ولا يرفض له طلبا وخاصة فيما يتعلق ببناء الكنائس وتعميرها مثل الكنيسة المرقسية بالإسكندرية ومبانى دير السلطان بالقدس.١٠٤

ويذكر أن مخطوطات قصر عابدين تحوى عددا كبيرا من الأوامر الخاصة من محمد علـــى الخاصـــة بالكـــنائس وقد حررت بالصيغة الآتية:" أمر إلى ... بشأن التصريح لطائفة الأقباط بتعمير الكنيسة ومساعدتهم فى ذلك وعدم ممانعتهم.".١٠٥

كمـــا زادت مكانـــة الـــبابا بطرس وكرامته فى عينى محمد على عندما استجاب الله لصـــلوات الـــبابا والمؤمنين بارتفاع منسوب مياه نهر النيل بعد إقامة صلوات القداس الالهـــى على شاطئ النهر ثم إلقاء قداسته لقربانة من البركة مع الماء الذى غسل به الاوانى المقدسة فى النهر.١٠٦

أضـــف إلى ذلك ما شاهده الوالى من معجزات جرت مثل شفاء إبنتة زهره هانم من الـــروح الـــنجس الذى سكنها بصلوات القديس الأنبا صرابامون أسقف المنوفية وهو ممسكا بصليب قداسة البابا وأيضا قصة انبثاق النور فى كنيسة القيامة على يدى البابا بطرس وبحضور ابراهيم باشا ابن محمد على.

وممـــا هو جدير بالذكر أن للبابا بطرس السابع موقفا وطنيا رائعا أشاد به محمد على نفســـه. فقد حدث أن قيصر روسيا أرسل إلى قداسة البابا يعرض عليه حماية الكنيسة القبطـــية وان يكـــون تحت رعايته فقال البابا للأمير الروسى مندوب القيصر:" وهل ملككـــم يحيا إلى الأبد ؟" فأجاب بالنفى وانه يموت مثل سائر البشر. فرد عليه قداسته رافضا عرضه قائلا :" إذن انتم تعيشون تحت رعاية ملك يموت أما نحن فنعيش تحت رعاية ملك لا يموت، هذا الإله العظيم الذى لا نريد أن نتخذ غيره بديلا".

فبهت الأمير من موقف البابا وعندما علم محمد على بهذا الأمر قام لوقته وتوجه إلى المقـــر الـــبابوى بالازبكـــية وتقابل مع قداسة البابا وشكره على ما أبداه من الشهامة

والوطنـــية والإخلاص العظيمة لملكه، فأجابه قداسته بكل تواضع :" لا تشكر من قام بـــواجب عليه نحو بلاد تظلله وتظلل إخوته فى الجنسية والوطنية ". فقال محمد على متأثرا بهذا الموقف ودموعه فى عينيه:" لقد رفعت بعملك شأنى وشأن أمتك ".١٠٧

موت محمد على و ابنه ابراهيم باشا وقتل عباس حلمى الأول:

مرض محمد على واعتلت صحته ولم يعد قادرا على ممارسة شئون الحكم فتولى ابنه ابـــراهيم باشا حكم مصر فى مارس ١٨٤٨ ولكنه توفى بعد سبعة شهور ونصف فى نوفمبـــر مـــن نفس العام فتولى عباس حلمى الأول ابن احمد طوسون ابن محمد على ولاية مصر منذ نوفمبر ١٨٤٨ وحتى يوليو ١٨٥٤ حيث مات مقتولا فى قصره.

ويطلق المؤرخون على عصر عباس حلمى الأول عصر الرجعية والردة:

لان فـــيه وقفـــت حـــركة التقدم والنهضة التى ظهرت فى عهد محمد على، فأقصى الخبـــراء الأجانـــب واســـتغنى عنهم وأغلق المدارس ونفى إلى السودان اغلب علماء مصـــر وفى مقدمتهم رفاعة الطهطاوى واستدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى فرنسا كما أهمل القوات البحرية وأشرك الجيش فى حرب القرم التى قامت بين روسيا وتركيا (٥٤ـــ ١٨٥٦).١٠٨

وفـــى عهـــده تنيح البابا بطرس السابع فى ٥ ابريل ١٨٥٢ بعد أن جلس على كرسى مارمـــرقس الرســـول ٤٢ ســـنة و٣ اشـــهر و١١ يوما ودفن بمقبرة الآباء البطاركة بالكنيسة المرقسية بالازبكية بجوار سلفه البابا مرقس الثامن.

وقد اختلف الأقباط حول اختيار البطريرك الجديد للكنيسة وكان القمص داود الانطونى مـــن بـــين المرشحين فضلا عن تردد الوالى عباس باشا فى إصدار تصريح الرسامة وعليه استقر الرأى على سيامة القمص داود مطرانا عاما باسم "الأنبا كيرلس" فى ١٧ ابريل ١٨٥٣.. ثم احتفل بتنصيبه بطريركا فى ١٧ يوليو ١٨٥٤ فأصبح البابا كيرلس الرابع البطريرك الـــ ١١٠ والمعروف بابى الإصلاح (١٨٥٤- ١٨٦١).١٠٩

ومن ناحية أخرى نجد هذا الوالى كان يبغض الأقباط ولم يسترح لكل ما حصلوا عليه أيام محمد على فعزم على طردهم من الدواوين الحكومية بل ونقلهم إلى السودان.

وقد كتب الأستاذ محمد أمين حسونة فى كتابه يقول عن هذا الموقف:

" وكـــان يـــبغض النصـــارى فأخرج منهم من كان يتولى منصبا حكوميا ونالهم أذى واضـــطهاد شديد، ولما امتلأ قلبه حقدا وحسدا ثار غضبه عليهم وأصدر أمرا بإخراج جميع النصارى من الاراضى المصرية ونقلهم إلى السودان غير أن الله لم يسمح بذلك وتـــدخل بعض المعتدلين وعجل الله بموته كما رأيناه (قتل فى قصره) ولم يمض على توليته سوى خمسة أعوام.١١٠

وما هو جدير بالذكر

إن الإمام الأكبر ابراهيم الباجورى شيخ الأزهر (١٨٤٧ـ١٨٦٠) رفض قرار الوالى بنفى الأقباط خارج البلاد مصرا بذلك على حضور الآخر فى إطار الجماعة الوطنية١١١ فقال له:

".. الحمد لله الذى لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ ولم يستول عليه خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته إلى اليوم الأخير فلماذا هذا الأمر الذى أصدرته بنفيهم...".

فغضب عباس وقال لأتباعه: خذوه عنى.١١٢

ومما هو جدير بالذكر أيضا

إن الحكومة بعد ما طردت الأقباط من الدواوين اضطرت لاحتياجها إلى أناس ذوى فطنة أن تستخدم الكثيرين من الأقباط فى أعمالهم فقاموا بتنظيمها أحسن قيام فوضعهم كبار المسلمين وعظمائهم والولاة والحكام موضع ثقتهم وسلموا إليهم إدارة المصالح والأشغال والحسابات وكثيرا ما كانوا يكنون بأسمائهم. فيقال مثلاً المعلم غبريال السادات والمعلم يوسف الألفى والمعلم منقريوس المورلى ، وغير ذلك نسبة لمخدوميهم الذين اعتقدوا فيهم الأمانة والإخلاص فعهدوا إليهم بمسائلهم الشخصية فكانوا يديرونها أحسن تدبير وأدى ذلك إلى الاعتقاد بأن الأقباط على بينه تامة بالسحر والتنجيم والعرافة .

تاسعا:أشهر الشخصيات فى عصر محمد على:

المعلم غالى وابنه باسليوس:

كان كاتب محمد بك الألفى أحد أمراء المماليك ثم أسند إليه محمد على منصب كبير المباشرين بعد غضبه على المعلم جرجس الجوهرى، وكان المعلم غالى يسهل لمحمد على أمر تحصيل الضرائب، ولكن هذا الأمر انقلب عليه فى النهاية.

وكان جشع محمد على فى تحصيل الضرائب لا يقف عند حد، فقد طلب الباشا محمد على من المعلم غالى ألف كيس، فقسم جمعها على المباشرين والكتبة وجمعها فى أقرب وقت ولكن كان جمعها بسرعة موجباً لغير ما كان يتوقعه المعلم غالى وسبباً فى جلب الغدر عليه وعلى غيره ، فإن الباشا بعد قليل أمر بمحاصرة بيته وبيت المعلم جرجس الطويل وأخيه حنا وفرنسيس أخى المعلم غالى والمعلم فلتاؤس واثنين آخرين وأخرجوهم منها بصورة منكرة ، وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم ، فلما حضروا بين يديه قال لهم أريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه ، وأمر بحبسهم وإلا يدفعوا ثلاثين ألف كيس ، وبعد أيام أفرج عنهم بواسطة شخص يسمى حسين أفندى الروزمانجى ، على

شـرط أن يدفعـوا سـبعة آلاف كيس ، فقاموا بدفعها (ونلاحظ هنا أن هذه الحادثة تكررت كثيرا فى عصور المماليك والأتراك وليس مؤداها هدف سوى جمع المال بأى وسـيلة) وليس هناك سوى الأقباط الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة (سوى الإيمان بالله والعمل على مرضاته) .

ولم تمض سبعة شهور حتى قبض عليهم ثانياً وحبسهم فى القلعة وختموا على دورهم ثم أنزلوا المعلم غالى والمعلم فلتاؤوس فى موكب ليسافروا إلى دمياط كمنفيين ثم عفا عنهم وأعاد المعلم غالى إلى منصبه على شرط أن يدفع أربعة وعشرين ألف كيس - وتكـرر حدوث ذلك من محمد على فكان يغضب عليه ويعزله من منصبه ويرميه فى السجن ويضربه مئات الكرابيج ثم يعيده إلى منصبه بعد دفع مبلغ طائل كما عرفنا من قبل .

وعـندما أراد محمـد علـى تغيير هيئة الدواوين واستبدالها بغيرها تكون أقدر منها وتفـوقها فـى النظام مما تعود بالفائدة على الخزينة فلم يتردد فى الإفراج عن المعلم غالـى والاستفادة من خبرته وكفاءته ما دام هذا يعود بالفائدة على الخزينة، وبعد ما كلـف المعلـم غالى بذلك، قسم المعلم غالى البلاد إلى مديريات وأقسام والأطيان إلى أحـواض وقـبائل وفتح أبواب تحصيل أموال للخزينة وابتكر أشياء كثيرة وحسابات تحقق مقداراً وافراً من المال لذلك ينسب إلى المعلم غالى تأسيس مصلحة المساحة كما كـان له دوره فى تشجيع صناعة الأسلحة محلياً، ومن الأعمال الجليلة أيضا اقتراحه علـى محمد على بالقيام بحفر قناة بين بحر الروم وبحر العرب ولكنه لم ينفذ ونتيجة لنجاحه الكبير قابله محمد على بالرضا، وأثنى عليه ومن ثم اتخذه كاتماً لسره وخصه بمباشرة الأعمال الحسابية التى ابتكرها فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم.

واسـتمر المعلـم غالى فى هذا المنصب الجليل حتى مايو سنة ١٨٨٢ م حيث أطلق إبراهيم باشا رصاص مسدسه عليه فى زفتى، أما ابنه طوبيا فخر صريعاً، [١١٣] وهكذا لقى المعلم غالى جزاء أمانته ووطنيته وخدمته بعد أن أدى أجل الخدمات لمحمد على ولإبراهيم باشا قاتله.

وقد بقيت جثته ملقاة مدة يومين لا يجرؤ أحد على القيام بدفنها حتى استأذن رزق أغا حاكم الشرقية فى دفنها فأقيمت الصلاة على المعلم غالى بكنيسة أبى سيفين بزفتى ثم دفن بجوارها.[١١٤]

ويذكر صاحب تاريخ الأمة القبطية أن قتل المعلم غالى لأسباب لا تزال حقيقتها خافية علينـا - ولعل الرأى الصحيح هو مقاومة المعلم غالى لجشع إبراهيم باشا لرغبته فى تحصيل ضرائب على النخيل ولقد رفض المعلم غالى رفقاً بالمصريين وعدم إرهاقهم بتعدد الضرائب ولكن إبراهيم باشا أصر على فرض الضرائب فطلب المعلم غالى أن

يعــرض الرأى على أفندينا الكبير وهو يقصد بذلك محمد على فكان من إبراهيم باشا إلا أن أجابــه بــإطلاق رصاص مسدسه عليه فخر المعلم غالى صريعاً سنة ١٨٢٢ م.[١١٥]

ويذكــر التاريخ أيضا أن محمد على استدعى باسيليوس نجل المعلم غالى وقال له هل أنــت حــزين لمــوت أبيك ؟ فقال له باسيليوس لم يمت أبى مادام مولاى الأمير حيا فأعجب به محمد على وأسند إليه وظيفة رئيس المحاسبة فى الحكومة المصرية وأنعم عليه برتبة " بك " وهو أول من منح هذه الرتبة من القبط.

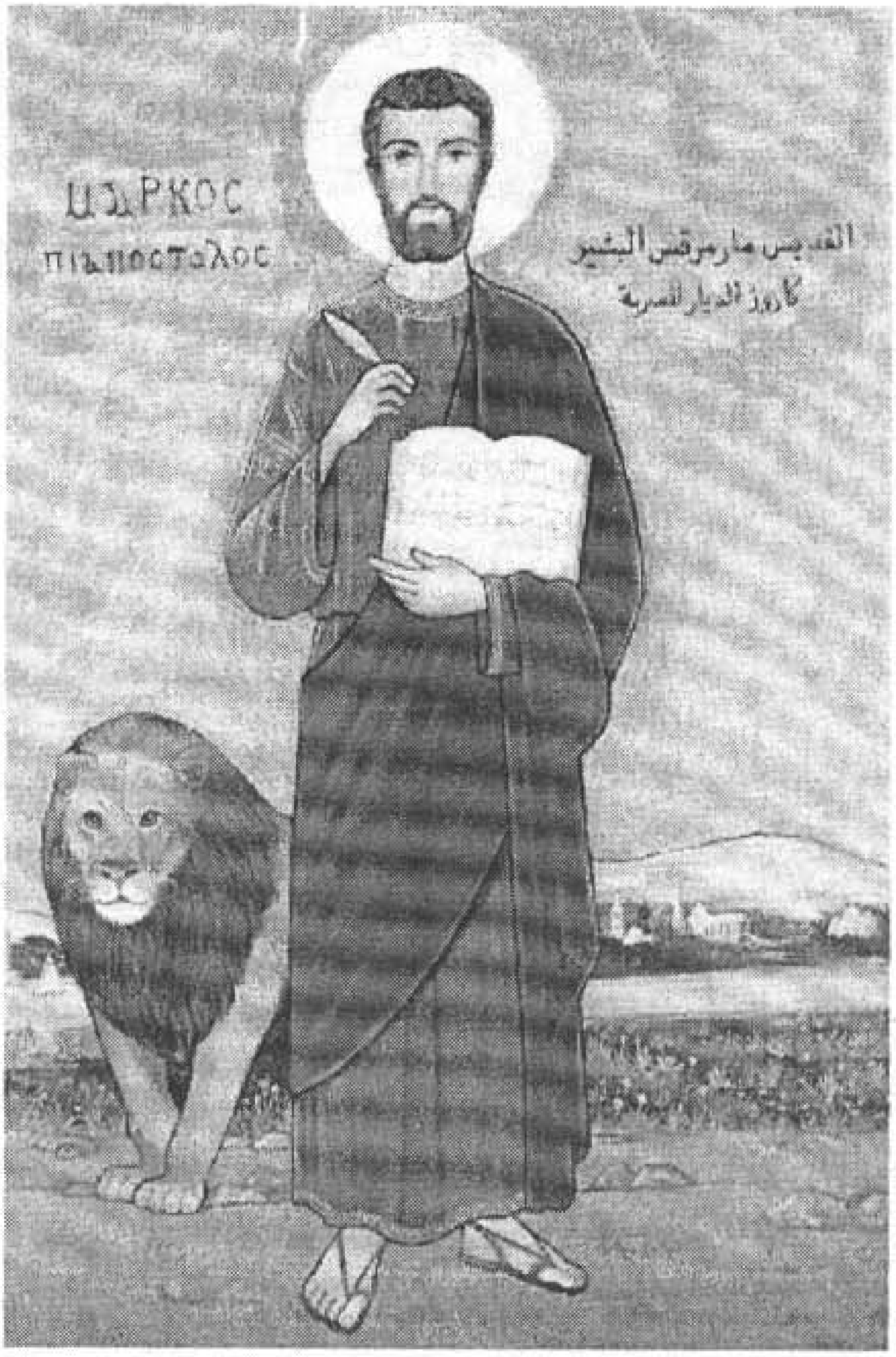

" الفصل الثانى "
الكنيسة القبطية والأقباط فى عصر خلفاء محمد على

أولا ــ الأقباط فى عصر عباس باشا (١٨٤٩ م - ١٨٥٤ م):

لمــا تولـــى مصـــر عباس باشا الأول سنة ١٨٤٩ عزم على تقليل نفوذ الأقباط من الدواوين فاختار أربعة من طلبة المدارس الأميرية وسلم كل رئيس ديوان واحداً منهم لـــيعلمه مسك الدفاتر وتدريبهم على الأعمال الحسابية، بحيث بعد سنة يكونوا قادرين علـــى أن يقوموا مقامهم وإلا سوف يقتلهم - ثم صمم على طرد الأقباط من البلاد إذا رفضـــوا الإسلام، فساد بين الأقباط الأربعة رؤساء الدواوين الخوف والذعر، وكانوا يحســـبون لهذا الأمر حساباً عظيماً، حتى أن بعضهم لما قضى عليه شهر أو شهران وتحقـــق فـــى تلمـــيذه عدم الميل للتعليم قال أنه لم يبقى من عمره سوى عشرة أشهر وهكذا كل ما مضى عليه شهر آخر فكان يتوقع الموت على الدوام ويستعد له - غير أن المنـــية عاجلته (أى عباس باشا) بالقتل وبهذا تخلص الموظفون الأقباط من هذه الورطة.[١١٦]

وحقا صدق قول الكتاب المقدس " لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم ... ويل للشرير شر لأن مجازاة يديه تعمل به ... لتأته التهلكة وهو لا يعلم ولتثبت به الشبكة التى أخفاها وفى التهلكة نفسها ليقع ... لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر. ليكن بنوة أيتاماً وامرأته أرملة (أش ٣: ١٠، ١١ + مز ٣٥، ١٠٩)

ومن أشهر الحوادث المؤسفة لعباس باشا:

الذى كان عهده عهد شؤم على الأقباط فقد ذكر الأستاذ محمد أمين حسونة فى كتابه " كفاح الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر " هذه الحادثة تحت عنوان الوالى المجنون ما يلى:

وكـــان يـــبغض النصـــارى فأخـــرج منهم من كان يتولى منصباً حكومياً ونالهم أذى واضطهاد شديد. ولما امتلأ قلبه حقداً وحسداً ثار غضبه عليهم، وفكر أن يتخلص منهم إمـــا بإخـــراج النصارى من الأراضى المصرية ونقلهم إلى السودان أو بتدبير مذبحة لأبادتهم عن آخرهم، غير أن الله لم يسمح بذلك وقد وقف مفتى الديار المصرية ضده ووبخـــه قـــائلا " إن دين الإسلام يأبى عليك هذه الفعلة الشنعاء فالأقباط هم أهل ذمه ويجب احترامهم وتوفير الأمان لهم".

ويحدثـــنا الـــتاريخ انـــه وجد ميتا فى اليوم التالى الذى أزمع فيه تنفيذ فعلته الخسيسة وهكذا تقدرون فتضحك الأقدار ولم يمضى على توليته سوى خمسه أعوام.[١١٧]

ثانياً ـ عصر محمد سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣):

بعد وفاة عباس حلمى الأول عام ١٨٥٤ تولى حكم مصر محمد سعيد باشا ابن محمد على الكبير وظل واليا حتى يوم وفاته فى يناير ١٨٦٣..

أعـــاد سـعيد النهضة مرة أخرى فكانت هناك الإصلاحات الزراعية ووضع اللائحة السـعيدية لـتكون أساسـا للتشريع الخاص بملكية الأطيان فى مصر، وأيضا أعمال التعميـر والسـكك الحديديـة والتلغرافات، كما اهتم بالإصلاحات الحربية والاهتمام بالجيش كذلك إصلاح الموانى وإنشاء شركات الملاحة البحرية ولكنه فى نفس الوقت لم يهتم بالتعليم بالقدر الكافى الذى يتناسب مع إصلاحاته المتعددة فى حين أعاد رفاعة الطهطاوى من السودان وعهد إليه بنظارة مدرستها الحربية.

والـــى سعيد باشا يرجع بداية التدخل الاجنبى فى مصر وفتح البلاد على مصراعيها لــرؤوس الأموال والمشروعات الأوروبية، كذلك الاقتراض من بيوت المال الأجنبية حتى وصلت ديون مصر عند وفاته نحو سبعة ملايين جنيها.[١١٨]

سعيد باشا والأقباط:

وكـــان الأقباط فى عصر سعيد باشا قد انتهوا إلى حالة يتمكنون معها إلى المعيشة مع مواطنيهم المسلمين إلا أنه حظر عليهم استعمال السلاح منذ قاموا بالدفاع عن أنفسهم تحت قيادة الجنرال يعقوب.

كما كان الأقباط فى العصور السابقة ممنوعين من التجنيد والاشتراك فى الجيوش لعدم الـثقة فيهم، وخوفا من خيانتهم للجيش الإسلامى، ولرغبة الحكام فى منع الأقباط من الالـتحاق والحصول على المناصب العسكرية، إلا أن سعيد باشا عمل على استمرار روح التسامح الدينى ومبدأ المساواة فقام بتطبيق قانون الخدمة العسكرية على الأقباط، فأصدر أمراً بضرورة تجنيدهم فاتخذ ذلك بعض المسلمين وسيلة لاضطهادهم، فقبضوا فـى أسيوط على كل الذكور فى أغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكرية ولم يتركوا ولا واحداً منهم لإعالة النساء والأولاد.[١١٩]

وكـــان قـــواد الجـيش المسلمين يستبدون بالعساكر الأقباط ويعاملونهم بقسوة ليعتنقوا الإسلام الذى يكون شرطا لترقيتهم، على الرغم أن الإسلام يقول " لا إكراه فى الدين " فلمـــا رأى البابا كيرلس الرابع استغلال تجنيد الأقباط لإذلالهم، شكى أمرهم إلى ذوى النفوذ من قناصل أوربا فى مصر، فأرغموا سعيد باشا على إعفاء الأقباط من الخدمة العسـكرية وإما يحسن هذه السياسة وإصلاحها، وقد سبب ذلك الموضوع غيظ سعيد باشـا من البطريرك مما جعله يفكر فى قتله وقد شجعه إلى ذلك وشاية قنصل إنجلترا زورا إلـــى سـعيد باشا، على أن البابا كيرلس الرابع يريد الخروج عن طاعة الدولة وجعـل الكنيسـة القبطية تحت حماية القيصرية الروسية، وذلك لأن بعض الطوائف المسـيحية الأجنبية (اليسوعيين والكاثوليك) لم يجدوا تعاوناً من البابا كيرلس معهم فوشوا بذلك زوراً.

ويذكر التاريخ أنه بعد موت البابا كيرلس الرابع مسموماً بالطريقة التركية المشهورة، قام سعيد باشا بطرد مئات من موظفى الأقباط، ومع ذلك كان سعيد باشا أول من دعى النصـــارى إلـــى حمل السلاح بمحض إرادته، وقبل أن يخضع السلطان إلى مطالب الدول الأجنبية فيعلن الخط الهمايونى المؤرخ فى ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ م.

وعلـــى الـــرغم أن سعيد باشا كان متعصباً ضد الأقباط ولكن كان له بعض المواقف الحسنة نحوهم نذكر منها:

أ - ألغـــى سعيد باشا الأفراح التى كانت تقام فى حالة اعتناق قبطى الديانة الإسلامية وقـــد كتب الوالى إلى مديراً من جرجا فى هذا الشأن يقول " علمت بأنه لسبب إسلام قبطـــى بسوهاج تجّمع بعض الأهالى والشبان، وتوجهوا عند القاضى وأخذوا المذكور ومروا به بالأسواق متظاهرين ومفتخرين بإسلامه، وحيث أن هذا العمل كدر خواطر الأقباط الأجانب، وعند وصول علمكم بذلك قمتم بتفريق المتظاهرين تهدئه لخواطرهم ثم عزلتم عمدة الناحية لسبب تساهله وتسامحه فى ذلك أيضا.وحيث أن هذه الإجراءات ولو أنها أوجبت الممنونية وإنما يجب أيضا بحسب التنبيهات بأنه عند حدوث مثل هذا الأمر ينبغى إفادة هذا الطرف ومراعاة هذه الظروف..١٢٠

ب - أضـــف إلـــى ذلك أن سعيد باشا هو الذى ألغى الجزية المفروضة على الذميين بأمر أصدره فى ديسمبر سنة ١٨٥٥ م

ج - كما أن روح تسامحه ظهرت فى سلسلة من أعماله قد يطول بنا سردها، فقد عين مسيحيا حاكماً على مصوع بالسودان وهو إجراء يميز عهده أحسن تمييز ويهدف إلى إفادة البلاد لكل الكفاءات مهما كانت الديانة التى تنتمى إليها .

د - ونضـــيف إلـــى ذلـــك أن سعيد باشا سمح للجنود المصريين أن يمارسوا ديانتهم المسيحية علانية دون خوف أو ريبة .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن سعيد باشا هو الذى منح فردينان دليسبس امتياز حفر قـــناة الســـويس، وتأسيس شركة لها حق الامتياز لمدة ٩٠ عاما ابتداء من تاريخ فتح القناة (فتحت عام ١٨٦٩) وتصبح بعدها ملكا لمصر وقد بدأ الحفر فى ٢٥ إبريل عام ١٢١.١٨٥٩

كمـــا صدر فى أيامه الفرمان العالى الموشح بالخط الهمايونى الذى كان بمثابة خطابا للوكالة المطلقة بخصوص الإصلاحات (فبراير سنة ١٨٥٦ م).١٢٢

تعريب الفرمان العالى(الموشح بالخط الهمايونى)
موجود نصه بملحق الجزء الأول من سلسلة كتاب وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها المعاصر

ثالثا ـ عصر إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٨ م):

أولا:الخديو إسماعيل والمشاركة القبطية(١٨٦٦)

بعد أن توفى الوالى سعيد باشا تولى حكم مصر الخديو إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد على الكبير، وكان الخديو إسماعيل يحمل مشروعا يواصل به مشروع جده محمد على فى نهضة مصر الحديثة حيث كان يسعى إلى:

١ـــ توسيع نطاق استقلال مصر من تبعية الدولة العثمانية بالحصول على عدد من الامتـيازات والفرمانات السلطانية والخطوط العثمانية منها تغيير نظام توارث العرش لـيؤول إلـى اكبر أنجاله بدلا من اكبر أفراد أسرة محمد على وذلك فى سنة ١٨٦٦ وأيضـا الحصول على لقب "الخديو" بدلا من الوالى فى عام ١٨٦٧ وفرمانا يحق له الاسـتدانة مـن الخارج دون قيد أو شرط فى ١٨٧٢. كذلك الفرمان الجامع ١٨٧٣ بخصوص أملاك الخديوية فى مصر والسودان وسن القوانين والأنظمة الداخلية وحق عقـد الاتفاقات والمعاهدات التجارية وحق الاقتراض من الخارج وزيادة الجيش وحق بـناء السفن الحربية... ولكنه حقق كل هذه المكاسب عن طريق دفع أموال طائلة مع الهـدايا والرشاوى وهذا دعاه إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية وكانت زيارة السـلطان عـبد العزيز (١٨٦١ــ ١٨٧٦) لمصر سنة ١٨٦٣ نموذجا لهذا الإسراف الشـديد فقد غمره وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة حتى ملاء بها سفينته بأكملها عدا رشـوة الأمـوال للصدر الأعظم فؤاد باشا التى وصلت إلى ستين ألفا من الجنيهات ليكون عونا له فى الأستانة.[١٢٣]

٢ـــ الرغبة فى أن تكون مصر قطعة من أوروبا نظرا لنزعته الأوروبية مما جعله يـثق فـى الأوروبيين ويركن إليهم فى كل شئ ،وفتح أبواب البلاد على مصراعيها للـتدخل الاجنبى إلى الاقتراض والاستدانة بلا حساب من بيوت المال الأجنبية وكان نتـيجة ذلـك التغلغل الاجنبى فى اغلب مرافق الأمة بالدولة فتولوا المناصب الكبرى وصـار لهم نفوذ مالى وسياسى وأيضا فرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد وتعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة المصرية، وإنشاء صندوق الدين، وهذا أوقع مصر تحت نيـر السـيطرة الأجنبـية التى ظلت تتصاعد إلى أن حدث الاحتلال عام ١٨٨٢.[١٢٤] وقصـة قناة السويس فى الانتهاء من حفرها وحفل افتتاحها عام ١٨٦٩ والتعويضات عن تحقيق شروط الامتياز قد بلغ ١٨ مليونا من الجنيهات فضلا عن بيع أسهم مصر فـى القـناة بـ ٤ ملايين جنيه فقط لانجلترا والتنازل عن ١٥% من أرباح القناة من أجـل سـداد ديـون إسماعيل بل واهم من كل هذا أن انجلترا وضعت يدها على قناة السويس أولا ثم مصر كلها ثانيا.[١٢٥]

ولكـن يذكـر للخديـو إسـماعيل أعمـال التعمير المختلفة مثل ترعتا الإبراهيمية والإسـماعيلية والقناطر والمنشآت البحرية والحربية ومعامل تكرير السكر ومصانع النسيج ومد السكك الحديدية فى أنحاء القطر المصرى وتعميم التلغرافات والمستشفيات واتساع الرقعة الزراعية فضلا عن عددا كبيرا من القصور الملكية.

كمـا إليه يرجع الاهتمام بالبعثات العلمية لأوروبا والتعليم والثقافة وأيضا إنشاء أول مجلس للنظار (مجلس الوزراء) ومجلس شورى النواب وبداية الحياة النيابية فى مصر وإصـدار أول دسـتور مصرى قائم على أحدث المبادئ العصرية وأيضا مشروعات النظام القضائى من محاكم الأقاليم أو المحاكم المختلطة.[١٢٦]

إلا أن انجلترا وفرنسا قاما بخلع إسماعيل عن عرش مصر فى ١٨٧٩ وبفرمان من السلطان العثمانى الذى أراد التخلص منه بسبب النزعة الاستقلالية التى كانت لديه وتم تنصيب ابنه توفيق باشا بدلا منه.

ثانيا:إسماعيل باشا والتسامح الدينى:

قطـع الأقبـاط فى عهد الخديو إسماعيل خطوات كبرى وثابتة فى مسيرة المشاركة الوطنـية حـيث نالوا من حقوق المواطنة ما لم ينالوه قبلا ويرجع ذلك إلى شخصية إسـماعيل وروحه العادلة وحرصه على محو كل الرواسب التى ترسبت عن الأجيال السابقة للتمييز بين المسلمين والأقباط فقد كان يتعامل مع الأقباط مثلما كان يتعامل مع المسـلمين باعتباريهما شعبا واحدا ونسيجا واحدا، ولا شك أن روح الخديو إسماعيل وقـراراته تجـاه الأقـباط كانت سندا لهم بل هى وثيقة تاريخية فى تاريخ المواطنة المصـرية وتـاريخ الحركة القومية الوطنية لجميع المصرين وانه لولا مسألة التدخل الاجنبـى ونفـوذه فى مصر مع قضية الديون لاقترن اسم الخديو إسماعيل بمشروع استقلال مصر التام وبالتالى مصر لجميع المصريين.

ثالثا: الخديو إسماعيل والأقباط:

ويمكن أن نجمل مواقف الخديو إسماعيل من الأقباط كما يلى:

كـان الخديوى إسماعيل يحترم قداسة البابا بطريرك الكنيسة ويوقره وكانت العلاقة بيـنهما علـى خير ما يرام بل كان يستجيب لطلبات البطريرك فورا ويجزل للكنيسة العطايا والمنح فنذكر:

١ـ الخديو إسماعيل وشارع كلوت بك:

عـند تنظـيم شوارع القاهرة ومنها فتح شارع كلوت بك كان لابد من مرور الشارع بالكنيسـة المرقسـية الكبـرى ومقـر البطريرك وهذا الأمر يتطلب هد الكنيسة ولما عرضـت الحكومة على قداسة البابا ديمتريوس الثانى أن تبنى كنيسة أخرى أفخم من الحالية مع دار للبطريركية أفضل رفض قداسته وذهب قداسته لعرض الموضوع على الخديو إسماعيل الذى لم يتردد فى حسم الموضوع بقوله:" لتكن إرادة البطريرك وليبق المعـبد (الكنيسـة) قائمـا كما هو".[١٢٧] وبالفعل تغيرت خطة تنظيم الشوارع وظلت الكنيسة والبطريركية حتى اليوم كما هى.

٢ـ الخديو إسماعيل والإرساليات الأجنبية:
رغم انفتاح الخديو إسماعيل على الدول الأوروبية وفتح باب مصر على مصراعيه للغرب إلا انه كان يبغض ولا يرتاح للإرساليات الأجنبية البروتستانتية التى كانت تعمل فى مصر لأنه كان يراها تستهدف إضعاف الروح الوطنية وتماسك وحدة الشعب المصرى الواحد فأمر بإعداد باخرة حكومية ليسافر عليها البابا ديمتريوس الثانى ومعه عددا من الآباء والخدام يتقدمهم الايغومانوس فيلوثيؤس عوض إلى كل المدن والقرى فى الوجه القبلى وحتى الحدود المصرية لكى يفتقد الشعب القبطى ويرد كل الذين ابتعدوا عن الكنيسة الام تحت تأثير هذه الإرساليات وقد مكثت هذه الرحلة نحو ثلاثة اشهر.[١٢٨]

٣ـ البابا ديمتريوس الثانى والسلطان عبد العزيز:
قام السلطان عبد العزيز بزيارة مصر سنة ١٨٦٣ تلبية لدعوة الخديو إسماعيل له وهو السلطان الوحيد الذى زار مصر بعد السلطان سليم الأول (١٥١٧- ١٥٢٠) الذى جاء إليها غازيا سنة ١٥١٧ وقضى فى ضيافة الخديو عشرة أيام لقى فيها كل مظاهر الإكرام والحفاوة البالغة ...
وفى حفل الاستقبال كان البابا ديمتريوس الثانى من ضمن الشخصيات الموجودة مع العلماء والوزراء وقناصل الدولة وكبار الشخصيات البارزة فى الدولة وكان التقليد السلطانى يقضى أن من يدعى للمثول بين يدى السلطان يقبل طرف ثوبه ولما جاء دور قداسة البابا قام بتقبيل صدر السلطان من ناحية القلب فاندهش السلطان والحاضرون جميعا وعندما سأله السلطان عن هذا التصرف قال له البطريرك " إنما أنا اقبل يد الله ملك الملوك وسلطان السلاطين لأنه فى الكتاب المقدس هناك آية تقول إن قلب الملك فى يد الله ".[١٢٩] فانشرح السلطان وابتهج لهذا المعنى الطيب واغتبط الخديو إسماعيل ومنح البابا أراضى من أملاك الحكومة للصرف منها.[١٣٠]

رابعا : الخديو إسماعيل و "مجلس شورى النواب":

يمثل عام ١٨٦٦ نقطة انطلاق فى مسيرة الحركة الوطنية المصرية نحو قيام الحياة النيابية فى مصر فيها يقوم نواب الشعب المنتخبون بالمشاركة فى العمل الوطنى فى التشريع والتقنين والمراقبة.
فقد قام الخديو إسماعيل بتأسيس "مجلس شورى النواب" (البرلمان أو مجلس الشعب)
ووضع لنظامه لائحتين:
الأولى هى اللائحة الأساسية وتتكون من ١٨ مادة بخصوص سلطته وطريقة انتخابه وموعد اجتماعه.
أما الثانية وهى اللائحة التنظيمية وتتكون من ٦١ مادة وهى تعتبر لائحة داخلية لعمل المجلس.
وإذا كان تأسيس هذا المجلس يعتبر منحة من الخديو إسماعيل من غير أن تسبقه حركة مطالبة من الأمة كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، أو بسبب ضغط الطبقات المصرية الجديدة فى الريف والحضر كما يقول الدكتور لويس عوض.[١٣١]

فـــإن هذا لا يقلل من أهمية وقيمة وشأن هذه الخطوة التاريخية التى اتخذها الخديوى إســـماعيل وذلك لكونها الخطوة التى استمرت وتصاعدت فى البلاد فى تكوين الحياة النيابية ومؤسساتها الدستورية بمصر حتى الآن كما أنها الخطوة التى بدأ يشارك فيها الأقباط فى العمل الوطنى وبناء الدولة .

ويذكـــر أن الخديـــو إســـماعيل قـــرر ترشيح الأقباط لانتخاب مجلس شورى النواب كمواطنـــين مصريين لهم حق الترشيح وفقا للمادة الثانية من اللائحة الأساسية إذ جاء فيها " يجوز انتخاب من بلغ عمره خمسة وعشرين سنة وما فوق ذلك بشرط أن يكون موصـــوفا بالرشد والكمال وان يكون من الأشخاص المعلومين عند الحكومة بأنه من الأهالـــى التابعين لها ومن أولاد الوطن " كما قال الخديو لنوبار بخصوص انتخابات المجلس:" عندنا أقباط أيضا بين المنتخبين وقد فتحنا الأبواب للمسلمين والأقباط بدون تمييز ".

مجلس شورى النواب الأول(١٨٦٦)

تكون أول مجلس شورى النواب من ٧٥ عضوا وكان من ضمنهم الأقباط:

١ــ المعلم سليمان سيدهم عمدة بندف (من نواب الشرقية والقليوبية)

٢ــ جرجس برسوم عمدة بنى سلامة (من نواب بنى سويف والفيوم)

٣ــ ميخائيل أثناسيوس عمدة اشروبة (من نواب المنيا وبنى مزار)

مجلس شورى النواب الثانى (١٨٧٠)

تكون هذا المجلس أيضا من ٧٥ عضوا وكان من بينهم الأقباط:

١ــ المعلم فرج ابراهيم عمدة ديرمواس (من نواب أسيوط)

٢ــ حنا افندى يوسف عمدة نزلة الفلاحين (من نواب المنيا وبنى مزار)

مجلس شورى النواب الثالث (١٨٧٦)

تكون هذا المجلس من ٧٥ عضوا وكان من بينهم الأقباط:

١ــ حنا افندى يوسف عمدة نزلة الفلاحين (من نواب المنيا وبنى مزار)

٢ــ ميخائيل فرج عمدة ديرمواس (من نواب أسيوط)

٣ــ عبد الشهيد بطرس عن البلينا (من نواب جرجا)

خامسا : الخديوى إسماعيل وتعيين الأقباط فى مناصب عالية:

قـــام الخديـــوى إسماعيل بتعيين بعض الأقباط فى مراكز كمسئولين داخل نظام العمل والحكم فى البلاد فنجد:

١ــ واصف بك عزمى كبير التشريفاتية (رئيس ديوان الخديو)

٢ــ جرجس بك الفيشاوى سكرتيرا للخديو

٣ــ عوض بك سرور مديرا (محافظا) للقليوبية

٤ــ جرجس بك وصفى مديرا للمنوفية

٥ــ ابراهيم روفائيل الطوخى رئيس إدارة السودان بالقاهرة.[١٣٢]

٦ــ تعيين قضاة من الأقباط فى المحاكم.

سادسا: الخديوى إسماعيل واهتمامه بالتعليم:

كـــان الخديو إسماعيل يهتم بالمدارس القبطية التى بلغت فى عهده اثنى عشر مدرسة فقـد أصــدر أمـــرا عالـــيا إلى وزارة المالية يطلب فيها تقديم منحة مالية قدرها ألفا وخمسمائة فدان للصرف عليها وجاء نصه كما يلى :

" إنـــه نظـــرا لمــــا علم إلينا من حصول السعى والاجتهاد من بطريركية الأقباط فى استعداد وانتظام مكاتب ومدارس وإيجاد معلمين بها لتعليم الأطفال ما يلزم من العلوم واللغـــات الأجنبـــية ونحو ذلك، وسعيها فى هذا النوع أوجب الممنونية عندنا، فلأجل مســـاعدتها علـــى ذلــك وتوســـعة دائرة التعليم الجارية بمكاتبها قد سمحت مكارمنا بالإحســـان علـــى تلك البطريركية بألف وخمسمائة فدان عشورية من أطيان المتروك والمستعبدات الموجودة بالمديريات على ذمة الميرى " ...

كما أصدر أمرا عاليا آخر بان يتم امتحان تلاميذ المدارس القبطية أمام لجنة حكومية من كبار العلماء يرأسه إسماعيل باشا الفلكى.[١٣٣]

مـــن ناحية أخرى عملت المدارس الحكومية (الأميرية) على قبول التلاميذ من الأقباط النصـــارى بـــدون تفـــرقة فقد قال احد أعضاء مجلس شورى النواب ــ وبناء على إرشادات الخديو إسماعيل ــ وهو محمد الشواربى:

" إن الأقـــباط مـــا خـــرجوا عن كونهم من أبناء الوطن ولذلك يجب أن يكونوا ضمن المدارس التى تعمل بالمديريات ولا يكون خارجا منها حتى أرادوا الدخول فيها ".

و قد حرص الأقباط على دخول المدارس الأميرية فنجد:

- مدرسة الإدارة والألسن (الحقوق) ١٣٧ خريجا من عام ١٨٨٧ إلى ١٩١٠
- مدرسة الطب ٦٦ خريجا من عام ١٨٨٦ إلى ١٩١٠
- مدرسة المهندسخانة ٣٦ خريجا من عام ١٨٦٦ إلى ١٩١٠
- مدرسة المعلمين التوفيقية ١٨ خريجا من عام ١٨٨٨ إلى ١٩١٠
- مدرسة الأوقاف عدد الأقباط ٣٤٣ من عام ١٨٨٩ إلى ١٩١١
- المكاتب الأهلية عدد الأقباط ١٤٥ عام ١٨٨٩ و٩١٢ عام ١٩١١

أضـــف إلـــى ذلـــك أن الخديو إسماعيل حرص على أن يكون الأقباط ضمن تشكيل البعثات العلمية إلى أوروبا فنجد كل من:

جـــرجس قلـــدس القاضى ــ مسيحة لبيب ــ نسيم بك وصفى ــ فرج نصحى (بعثة التاريخ الطبيعى عام ١٨٦٧) ــ ميخائيل كحيل (بعثة الإدارة والحقوق عام ١٨٦٨) ــ بنى عبيد (بعثة الطب عام ١٨٧٩) ــ قسطندى فهمى.... وغيرهم.

ومـــن أشهر العلماء الذين فى هذه الفترة العالم الكبير وصفى بك الذى طلب العلم فى الأزهر ووضع كتاب (الخلاصة الذهبية فى علم العربية) فكان أول كتاب فى النحو كما وضع كتاب (مرآه الظرف فى فن الصرف).

سابعا: اهتمامه بترابط الأسرة الاجتماعي:

أما الخديوى إسماعيل الذى تلقى علومه فى فينا ثم فى باريس فقد وجد عند عودته إلى بــلاده " إن الجو يصلح لإتباع سياسة من التسامح على أوسع نطاق،وقد رأينا صورة مــن تعامــل الخديــو إســماعيل مع الأقباط ودورهم الايجابى فى المشاركة الوطنية كمصريين .وقد أراد إسماعيل باشا كأسلافه ألا تسبب المسائل الدينية أى احتكاك بين الأقباط والمسلمين، وعبر عن خطته بوضوح فى الأمر الصادر عند تولية السلطة ردا على سؤال وجهه إليه أحد كبار الموظفين، قال فى الإفادة المؤرخة فى ١٠ محرم سنة ١٢٨٠ هــ (١٨٦٣ م)

"إن خليل عوض الحاوى من أهالى السلمية ومن طائفة الأقباط قدم عرضاً يطلب فيه الخروج عن الدين المسيحى برغبته وبدون إجبار واعتناقه الدين الإسلامى، فانه يجب استحضــاركم قسـيس مــن قسس الأقباط وعمدة من عمدة الأقباط لأجل إقرار خليل عــوض الحــاوى أمامهم بأنه راغب اعتناق دين الإسلام من غير أن يجبره أحد فى ذلــك، لأجل إلا تكون هذه المسألة وسيلة فيما بعد للتشكى، وبعد إقراره أمامهم يصير التصديق منهم على الإقرار ويحفظ بالمديرية."[١٣٤]

ولــم تكن هذه الإجراءات الدقيقة تتبع فى مصر قبل ذلك التاريخ بل كانت الإجراءات فى مثل هذه الأحوال بسيطة للغاية، وهذا يدل على قمة العدالة فى أحكامه.

ثامنا:الخديوى إسماعيل واللائحة الوطنية:

كانت المسألة المالية والرقابة الثنائية للوزيرين الانجليزى والفرنسى فى وزارة نوبار باشــا (٢٨ أغســطس ١٨٧٨ــ ٢٣ فبراير ١٨٧٩) التى سميت بالوزارة الأوروبية وثــورة الضــباط المصــريين ضد هذه الوزارة وأيضا وزارة محمد توفيق باشا ابن الخديو إسماعيل (١٥ مارس ١٨٧٩ــ ٧ابريل ١٨٧٩) سببا فى تصاعد أزمة سياسية فى البلاد قام خلالها مجلس شورى النواب أثناء انعقاد الدور الثالث لها (يناير ــ يوليو ١٨٧٩) وبرئاســة احمد رشيد باشا بإرسال عريضة إلى الخديو إسماعيل وقع عليها جمــيع الأعضــاء اعترضــوا فيها من مسلك الوزارة تجاه المجلس والاحتجاج على المشــروع المالــى الذى فيه إعلانا صارخا بإفلاس الحكومة المصرية.إلا أن وزارة توفيق باشا وتحت ضغط الوزيرين الأجنبيين وتدخلاهما المباشر أصدرت قرارا بفض دورة مجلــس شــورى النواب بل وانتهاء مدته وعدم تحديد موعد لإجراء انتخابات جديدة فشعر المصريون بحسهم القومى الوطنى بضرورة التخلص من التدخل الاجنبى وإسقاط هذه الوزارة التى امتهنت كرامة الأمة وانتهكت حقوقها ومصالحها.

فعقــد الــنواب والعلماء والتجار والأعيان وكبار الشخصيات والاجتماعات فى منزل الســيد علــى البكرى نقيب الأشراف ثم فى منزل إسماعيل راغب باشا وزير المالية الســابق ورئــيس أول مجلس شورى النواب وكونوا جمعية وطنية من صفوة رجال مصر.

ثم اعدوا " اللائحة الوطنية " والتى تتضمن:

١ــــ قــبول المشروع المالى الذى قدمه مجلس شورى النواب لتسويه الأزمة المالية ورفض المشروع المالى للوزارة.

٢ــــ تعــديل نظــام مجلــس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس الأوروبية.

٣ــــ أن يكون تشكيل الوزارة مستقلا مع إقصاء الوزيرين الأجنبيين على أن الخديو مــوافقا علــيها كذلك وان يكون مجلس النظار مسئولا أمام مجلس النواب عن جميع تصرفاته.[١٣٥]

وقــد وقــع على هذه اللائحة الوطنية ٣٠٠ من الشخصيات المصرية البارزة يتقدمهم الإمــام الأكبر محمد المهدى العباسى شيخ الأزهر ومفتى الديار وقداسة البابا كيرلس الخامس بطريرك الكرازة المرقسية وحاخام اليهود.[١٣٦]

وقد قبل الخديو إسماعيل هذه اللائحة الوطنية إذ رأى انه سيحقق هدفين:

١ـ أن يبدو أمام جميع الإطراف معبرا عن الآمال الوطنية.

٢ـــ الــتخلص مــن الــنظارة الأوروبــية وتشكيل نظارة لا يشترك فيها الناظرين الأجنبيان.[١٣٧]

كما قدمت وزارة توفيق باشا استقالتها وكلف شريف باشا بتشكيل الوزارة الجديدة فقام بتأليف أول وزارة وطنية (٧ابريل ــ ٥ يوليو ١٨٧٩).

وابــتهج المصــريون جمــيعا لــنجاح الحركة الوطنية فى تحقيق مصالح المصريين والحفــاظ علــى حقوقهم وتكون وفد من كبار الشخصيات المصرية للتوجه إلى قصر عابــدين لــتقديم واجب الشكر للخديو إسماعيل وكان من بينهم البابا كيرلس الخامس حيث استقبلهم الخديو بكل إكرام ورعاية وحثهم على التضافر والتعاون.

كما أقيمت الاحتفالات الوطنية ابتهاجا بالعهد الجديد وأقام السيد على البكرى فى منزله مأدبــة كبــرى يــوم ٩ ابريل ١٨٧٩ حضرها الخديو إسماعيل وكبار رجال الدولة والشخصيات المصرية البارزة ومن بينهم قداسة البابا كيرلس الخامس.[١٣٨]

وفى ٢٢ ابريل أصدر الخديو إسماعيل المرسوم المالى الذى يساعد الحكومة الوطنية على العمل لإنقاذ مصر من الأزمة المالية ومنع التدخل الاوروبى.

ولكن كان رد الفعل الغاضب من الأوروبيين سريعا حيث رفضوا وزارة شريف باشا بــل رفضوا إسماعيل باشا نفسه ومن ثم سعت انجلترا وفرنسا وبمساعدة ألمانيا لدى الباب العالى لإصدار فرمان بخلع الخديو إسماعيل عن عرش مصر وتم ذلك فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ .[١٣٩]

فكانت ضربة للحركة الوطنية المصرية التى لم تهنأ بإنجازها بعد!!! ... ولكن كانت هناك فى نفس الوقت قيمة ومعنى ومبدأ فى وجود دور للمصريين جميعا فى المواجهة ضد التدخل الاجنبى والحكم الاستبدادى. كما أبرزت ولأول مرة دور الجيش المصرى فــى مســاندة ومؤازرة الحركة القومية الوطنية المصرية وهذا فى حد ذاته كان يمثل الإرهاصات الأولى للثورة العرابية بعد أقل من سنتين.

نماذج مضيئة للتمازج الوطنى:

وباختصـــار نستطيع أن نؤكد، معتمدين إلى بعض الأدلة أن العلاقات بين عنصرى الأمة (الأقباط والمسلمين) فى عصر الخديوى إسماعيل تحسنت تحسناً ملحوظاً وأن مبدأ المساواة السياسية والاجتماعية أصبح شيئاً فشيئاً أمراً مألوفاً.[١٤٠]

ومــن أعظــم الأمثلة العملية لذلك أن أنشأ مرقس بك يوسف فى طنطا سنة ١٨٦٥م مسجداً فى بلدة جناح كما أنشأ قلينى فهمى باشا مسجداً ضخماً وإلى جواره بنى كنيسة بعــزبة بالمنيا رمزا للوحدة الوطنية حتى إن ساشو المبعوث إلى مصر لدى الحكومة الفرنســية الــذى زار مصر سنة ١٨٦٨ م كتب إلى (دروى) وزير معارف فرنسا قــائلاً " إنـــى أنتهــز هــذه الفرصة لأنوه بالتسامح الدينى المنتشر فى أنحاء مصر والمرفرف على الجميع دون استثناء مما يشرّف قوانين البلاد وشمائل أهلها."[١٤١]

ولكــن أجمل مدح لهذه الفترة هو الذى تفوه به إسماعيل باشا نفسه فقد قال يوماً لجبــرائيل شــارم الوالــى التركى يعيش المسيحيون فى تركيا فى جو من التسامح المشــوب بالاحــتقار وأمــا فــى مصــر يعيشــون فى جو من التسامح المقرون بالاحترام."[١٤٢]

رابعا ـ عهد الخديوى توفيق

أولا: عهد الخديوى توفيق والاحتلال البريطانى(١٨٧٩ م- ١٨٨٢ م):

قامــت انجلتــرا وفرنســا بخلع إسماعيل عن عرش مصر فى ١٨٧٩ وبفرمان من الســلطان العثمانـــى الذى أراد التخلص منه بسبب النزعة الاستقلالية التى كانت لديه بالإضافة إلى الديون الكثيرة التى تسبب فيها وتم تنصيب ابنه توفيق باشا بدلا منه.

ثانيا:الخديوى توفيق والثورة العرابية(١٨٨١)

تولى محمد توفيق باشا حكم مصر فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ بعد خلع أبيه الخديو إسماعيل ... وكلــف شريف باشا بتشكيل وزارته الثانية وابدى موافقته عليها وعلى برنامجها الدستورى لحين أن يهدأ الموقف وتمر الأيام الأولى لحكمة بسلام بعد الأزمة السياسية التـــى انتهت بخلع والده عن عرش مصر .ولكن الخديو استدعى شريف باشا بعد ٥٢ يــوما فقــط وقبل استقالة وزارته!! ثم شكل وزارة جديدة برئاسته استمرت ٣٣ يوما فقط!! أصدر خلالها مرسوما بتعيين رقيبين انجليزى وفرنسى بالوزارة وبالتالى عادت الرقابة الثنائية الأجنبية مرة أخرى.

ثم استدعى الخديوى توفيق مصطفى باشا رياض من أوروبا وكلفه بتشكيل الوزارة فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩. التى أقرت سلطات الرقابة الثنائية فصار الرقيبان الأجنبيان يتدخلان فى كل شئ من شئون الحكومة المالية وبمرسوم من الخديوى يؤكد هذا النظام الرقابى والتدخل الاجنبى عم السخط فى نفوس المصريين فكانت بداية نحو الثورة.١٤٣!!.

فى نفس الوقت تكونت لجنة سميت بـ "لجنة التصفية" بهدف وضع خطة لتسوية ديون مصر وعلاقتها بالدول الدائنة مع وضع نظام مالى لمصر وقد صدر مرسوم بتشكيلها وقانون عملها فى ابريل ويوليو ١٨٨٠ وهى تتألف من مندوبين عن انجلترا ومندوبين عن فرنسا ومندوب عن كل من ألمانيا والنمسا وايطاليا ومصر ويرأس هذه اللجنة رفيرس ويلسون الانجليزى (صاحب المشروع المالى فى وزارة توفيق الأولى والذى رفضته الجمعية الوطنية فى اللائحة التى قدمتها للخديو إسماعيل سنة ١٨٧٩) وكان العضو المصرى الذى يمثل الحكومة المصرية هو بطرس باشا غالى.١٤٤

وكان أيضا بطرس باشا غالى عضوا فى اللجان التى شكلتها حكومة رياض باشا لإعداد قوانين المحاكم المختلطة بالبلاد مع اللجنة الدولية المكلفة بذلك.

ومما هو جدير بالذكر كانت هذه الفترة نكسة أصابت القومية المصرية فى الصميم وعادت بالبلاد إلى الحالة التى تركتها فى بداية القرن التاسع عشر، وهى حالة التبعية إلى دولة قوية دون أن يملك أهلها من أمرهم إلا الخضوع والاستسلام، فلا غرابة إذا نظر المصريون إلى هذا العصر كاحلك فترة فى تاريخهم الحديث وخاصة بعد عزل الخديوى وإعلان الحماية البريطانية على مصر.

وإذا كانت هذه الفترة سوداء حالكة على المصريين فهى على الأقباط أشد سواداً، ولكى نوضح ذلك ينبغى أن نعلم أنه عندما تولى الخديوى توفيق عرش مصر سنة ١٨٧٩ م، كان أحمقاً جداً وقصير النظر وضيق الأفق لا يعمل لمستقبل البلاد، لذلك حدثت فى أيامه ثورات فى الجيش كثيرة.

الخديو توفيق ونياشين لآباء الكنيسة:

مع الاحتفالات التى أقامها الخديو توفيق بمناسبة مرور عام على توليه عرش مصر استقبل فى قصره برأس التين بالإسكندرية فى ٢٩ يونيو ١٨٨٠ قداسة البابا كيرلس الخامس والوفد القبطى المرافق له ومعه الوفد الايوبى الذى جاء إلى مصر لتدعيم العلاقات بين البلدين وقد كتب المؤرخ ميخائيل شاروبيم عن هذه المقابلة قائلا "... وفى الثانى من شهر يوليو عاد إلى القاهرة الوفد الحبشى بعد أن لبث فى مدينة الإسكندرية أياما وقبل عودته زار الخديو فى مقره وكان يرافقه "كيرلس" بطرك الطائفة القبطية (الأقباط) فأنعم عليه الخديو بالنيشان المجيدى من الرتبة المعروفة بغران اوفسيه وعلى أسقف القاهرة نيشان من رتبة اوفسيه وعلى كل من رجال الوفد

الذكور بسلسلة وساعة من الذهب قلت وهذه أول مرة اهديت فيها بطاركة هذه الطائفة وأساقفتها نياشين الاعتبار من قبل الحكومة منذ أن دخل مصر عمرو بن العاص إلى عهد الخديو توفيق الحالى فعدت له من المزايا التى لم يسبقه إليها احد ممن تولى ملك هذه البلاد ".١٤٥٠

مصر للمصريين:

كـــان الخديو توفيق وحكومة رياض باشا يحكمان البلاد حكما مطلقا استبداديا فتعطل مجلـــس شـــورى النواب وتجمد إعلان دستور ١٨٧٩ الذى أعدته وزارة شريف باشا والـــتدخل الاجنبى المباشر واضطهاد المعارضة وخاصة فى الجيش حيث عمل وزير الحـــربية عثمان باشا رفقى على الانحياز الكامل للضباط الأتراك الشراكسة ومعاملة الضـــباط المصـــريين معاملة سيئة وحرمانهم من حقوقهم كما لم يكن هناك عدلا ولا قانونا ولا قضاء ولا حرية ولا مساواة ولا ضمانات تكفل للناس حقوقهم وحياتهم إلى جانـــب اســـلوب السخرة والنفى إلى اقاصى السودان ولذلك كان المصريون يشعرون بالسخط وبالتذمر على سوء الحكم القائم وكانت رغبتهم فى التخلص من هذا النظام
وكانـــت صرخة "مصر للمصريين" هى حجر الأساس فى الوطنية المصرية لمواجهة هـــذا الحكم الاستبدادى فتألف الحزب الوطنى الاهلى فى نوفمبر ١٨٧٩ من الوطنيين ومـــؤيدى الإصلاح وبرئاسة احمد عرابى ووضع البرنامج كل من الإمام محمد عبده ولـــويس صابونجى واعتبر بعد ذلك ميثاقا للعمل الوطنى ولحركة احمد عرابى وأكد هذا البرنامج فى مادته الخامسة عن وحدة الشعب المصرى الواحد بصرف النظر عن المعتقد الدينى فقال انه :" حزب سياسى لا دينى فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب واغلبه مسلمون لان تسعة أعشار المصريين من المسلمين وجميع النصارى والـــيهود وكـــل مـــن يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه لأنه لا ينظر إلى اخـــتلاف المعتقدات ".. كما أكد البرنامج بوضوح أن الحزب "يعلم أن الجميع إخوان وان حقـــوقهم فـــى السياســـة والشرائع متساوية ... فالجامعة الوطنية المصرية تضم المصريين على اختلاف الأديان والمعتقدات ..." .

أخيرا فـــى شـــتاء (١٨٨١ م - ١٨٨٢ م) أصـــبح مركز الخديوى توفيق حرجاً وأصبح الجنود المصريون فى حالة غطرسة ووقاحة وتهديد متزايد وانتشرت الفوضى وأصـــبح الإنسان لا يأمن على روحه ولا ماله وتعرض النساء المسيحيات والأجانب للسب والإهانة.

وفـــى يونـــيو ســـنة ١٨٨٢ حدثت ثورة عرابى باشا وقام رعاع الإسكندرية بمذبحة عظـــيمة قـــاس فيها المسيحيون كل أنواع العذاب فلجأ الأجانب منهم والوطنيون إلى بطريركية الأقباط بالإسكندرية وهاجر كثيرون منهم إلى داخل البلاد.

الموضوعات الهامة فى هذه الفترة: ١ ـ الإرساليات الكاثوليكية:

أخذ الإفرنج يفدون إلى مصر فى القرن السابع عشر لمزاولة التجارة وأرسل بابا روما جماعة من الرهبان لنشر المذهب الكاثوليكى بين الأقباط ولكن لم يتحقق هذا فجدد البابويين مساعيهم فى القرن الثامن عشر وحاولوا اجتذاب الأقباط فى الوجه القبلى فتبعهم عدد قليل منهم وقد نشأ عن ذلك مشاكل بسبب الأحوال الشخصية بين الأرثوذكس والكاثوليك وقد كانت سلطة الفصل فى تلك الأحوال للبطريرك القبطى الأرثوذكسى.

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) نشطت الإرساليات الكاثوليكية ودخلت بدخول كثير من الإفرنج ولم يتركوها بعد خروج الفرنساويين بل لبثوا يتمتعون بحماية فرنسا ولما تولى محمد على باشا مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) استخدم من هؤلاء كثيرين فى مصالح عديدة وتتابعت الإرساليات اللاتينية (من فرنسيسكان وفرير وجزويت) لبث المذهب الرومانى ولكنهم لم ينجحوا .[١٤٦]
وتمخضت مساعى كل من الكاثوليك والوالى على اعتناق المعلم غالى وابنه باسيليوس وأخيه فرنسيس للمذهب الكاثوليكى مع عائلاتهم وأنصارهم وهكذا وضع الكاثوليك أقدامهم فى مصر فوجد ما يعرف بالأقباط الكاثوليك التابعون لبابا روما وكان أول بابا كاثوليكى قبطى هو الأنبا كيرلس مقار الذى رسم فى ١٩ يونيو سنة ١٨٩٩ فحاول أن يستميل الأقباط إلى كنيسته فلم ينجح.
وأخيراً أدرك أنه أخطأ فى ترك عقيدة آبائه الأرثوذكسية وجاهر بذلك أمام الكثيرين، فلما سمع بذلك بابا روما عزله وعين آخرا مكانه، كما تم تعيين أسقفا لطيبه وأسقفا للصعيد مركزه طهطا وأسقف لمصر الوسطى مركزه المنيا وبعد عزل الأنبا كيرلس مقار تفرغ لمطالعة كتب اليونان واللاتين من مصادرها وخرج منها بتصحيح اعتقاده ورجوعه إلى العقيدة الأصلية فكتب كتابا هو " الوضع الإلهى فى تأسيس الكنيسة ".

٢ ـ الإرساليات البروتستانتية:

دخل المذهب البروتستانتى إلى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر عندما جاء مرسل أمريكى يدعى الدكتور لاذن وأقام بالإسكندرية ثم جاء مرسل إسكتلندى هو الدكتور يوحنا هوج ثم طافا البلاد راكبين النيل يدعوان إلى مذهبيهما وفى سنة ١٨٦٢ جعلا مركز تبشيرهما القاهرة وبعد ذلك اتخذ الدكتور هوج مدينة أسيوط سنة ١٨٦٥ مقراً لنشاطه واستطاع أن يؤسس بها كنيسة بروتستانتية سنة ١٨٦٢ م وكثرت المحاولات وتم توزيع الكتب والنشرات المجانية حتى تكونت فى عهده كنائس بروتستانتية مثل الكنيسة الإنجيلية وكنيسة البلاميس والإصلاح والسبتيين والادفنتست والرسولى والحامى وغيرها.[١٤٧]

" الفصل الثالث "

قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها وشهداؤها
فى أثناء الحملة الفرنسية بمصر وفى عهد أسرة محمد على
(١٧٩٨ - ١٨٨٢)

مـــا أغنـــى الكنيســـة القبطية بقديسيها وعلمائها فى كل الأجيال إنه من المستحيل أن يحصـــى الإنسان كل القديسين فى هذه الفترة التى تمتد نحو ٨٠ عاما لكننا نقدم بعض النماذج:

أولا: الآباء البطاركة فى أيام الحملة الفرنسية وأسرة محمد على:

عاصـــر هذه الفترة أربعة من الآباء البطاركة ابتداء من البابا مرقس الثامن إلى البابا ديمتريوس الثانى وسوف نتكلم قليلاً عن سيرة هؤلاء البطاركة، وعن بعض الأحداث الجســام التـــى حـــدثت فـــى عهدهم، والتى أثرت فى الكنيسة والشعب القبطى، وما عاصروه من مشاهير وقديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها فى فترة كل بطريرك.

١ـــ البابا مرقس الثامن (البطريرك الــ ١٠٨)(١٧٩٦ - ١٨٠٩ م):

ولد فى بلدة طما ودعى باسم يوحنا وترهب بدير الأنبا أنطونيوس باسم الراهب يوحنا الأنطونـــى وسيم بطريركاً فى سنة ١٧٩٦ م باسم البابا مرقس الثامن وذلك فى عهد السلطان سليم الثالث العثمانى وشيخى البلد إبراهيم بك ومراد بك.

وفـــى أيامه جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م ثم رحلت عن البلاد بعد حوالى ثلاث سنوات ونصف وعادت مصر إلى الحكم العثمانى سنة ١٨٠١م وتوالت الفتن والمؤامرات حتى تمكن محمد على باشا الكبير من الوصول إلى الحكم (منصب الوالى) العثمانى سنة ١٨٠٥ م فدخلت مصر فى عصر الأسرة المحمدية العلوية.[١٤٨]

وفـــى أيامه حدثت مواقف مؤسفة ومظالم للكنيسة وللأقباط ذكرناها فى أثناء الحديث عن الحملة الفرنسية وفى سرد شخصية الجنرال يعقوب، ومن أمثلة هذه النكبات التى حاقت بهم حرق الكنيستين العليا والسفلى بحارة الروم.

وفى أيامه نقل المقر البطريركى من حارة الروم إلى حارة الأزبكية، حيث نجح المعلم إبراهيم الجوهرى فى أخذ فرمان ببناء كنيسة بالـدرب الواسع وبناء مقر بطريركى، وقام أخوه المعلم جرجس بإتمام هذا المشروع وتم نقل مقر البابا إلى هذه الكنيسة التى أطلق عليها اسم كاتدرائية الكاروز مرقس، فعرفت باسمه الكنيسة المرقسية.

وكان البابا مرقس الثامن عالماً فكتب بعض القوانين الخاصة بالأنظمة الواجب إتباعها بالكنيسة أثناء إقامة الصلوات.

مشاهير الرجال فى عهده:

لقـد امـتاز عهد البابا مرقس الثامن برجال عظام اشتهروا فى مجال الدين والسياسة امتيازاً عظيماً مما يسجل لهم بالفخر والإكرام ونخص بالذكر منهم : –

١ – الأنبا يوساب الأبح أسقف جرجا وأخميم. ٢ – المعلم جرجس الجوهرى
٣ – المعلم ملطى. ٤ –الجنرال يعقوب

نياحـته: – تنيح البابا مرقس سنة ١٨٠٩ م ودفن فى مقبرة البطاركة بالازبكية وهو أول بطريرك دفن فيها.

٢ـ البابا بطرس السابع(البطريرك الـ١٠٩)(١٨١٠ م – ١٨٥٢ م):

من قرية الجاولى بمركز منفلوط محافظة أسيوط.

وترهب بدير الأنبا أنطونيوس ثم عينه البابا مرقس مطراناً عاماً باسم الأنبا ثاوفيلوس وهو أول مطراناً عاما بالكنيسة القبطية منذ عدة قرون وبعد نياحة الأنبا مرقس اجمع الجميع على اختياره بطريركاً باسم البابا بطرس السابع وكان ذلك فى أيام محمد على باشا.

ويذكـر عـن الـبابا بطرس الجاولى أنه أول بطريرك اتخذ الكنيسة المرقسية مقرا بابويـــا (بالأذبكية) ووضعت عليه الأيدى بها.

تجديد كرسى النوبة:

وفــى أيامه تم تجديد النوبة، بعد أن اسقط العثمانيون سنة ١٥١٧ م الحكومة الوطنية واسـتبدلوها بـولاة من جيش تركى ، الذين اخذوا يطاردون النصرانية ، ويتعقبون تابعـيها ، حتـى قضوا عليها تماماً فى أواخر القرن السابع عشر ، وظلت خالية من النصارى حتى فتحها المصريون فى عهد محمد على باشا سنة ١٨٢٣ م حيث هاجر إلـيها كثيـرون من الأقباط الذين شرعوا فى بناء الكنائس ، وطلبوا من البابا بطرس يسألونه رسامة أسقفاً لهم فرسم لهم أسقفا باسم الأنبا دميانوس .
وهكـذا بـدأت الخدمة الكنسية والرعوية فى أيام البابا بطرس بعد أن انقطعت حوالى ٢٠٠ عاماً وفاح عبير فضائله وتقواه وأعطاه الله موهبة صنع الآيات
وسوف نذكر قليل من المواقف والحوادث الهامة فى حياته منها:

(١) حادثة نور القبر الإلهى:

عـــندما كـــان إبراهيم باشا (ابن محمد على باشا) حاكماً لبلاد الشام وشيع إليه احد رجاله أن النصارى يدّعون أن نورا عجيباً ينبعث سنويا من قبر السيد المسيح فى ليلة ســبت النور - فشك فى صحة هذا الأمر واستدعى على الفور البابا بطرس الجاولى إلـــى بـــيت المقدس، فأكد البابا بطرس للوالى صحة هذه الظاهرة، فطلب الوالى من البطريـــرك قائلاً له أريد أن أرى النور يفيض من يديك ، فأجابه البابا والدموع ملء عينـــيه أن النور مزمع أن يفيض على يديك يا أفندينا لا على يدى أنا الخاطىء - ثم أفهمه البابا بطرس ، أن هذا الأمر من حق بطريرك أورشليم للروم الأرثوذكس ولكنه أصـــر أن يشترك معه فى الصلاة ، فقام بطريرك الروم والأقباط ولازم الصوم ثلاثة أيام حتى تجوز هذه التجربة التى يترتب عليها إعدام أبرياء .

ولمـــا حـــان الوقت المحدد، دخل الحبران الكبيران (القبر المقدس) ومعهما إبراهيم باشا، وأخذ يصليان بحرارة وانسحاق وما أن انتهى بالصلاة المعتادة إذ بالنور يتفجر وينبـــثق من القبر المقدس بشكل أرعب الباشا وأوقعه فى ذهول عميق حتى كاد يسقط على الأرض، وهو يهتف قائلاً " أمان بابا أمان "

(٢) وطنية البابا بطرس وتمسكه باستقلال كنيسته:

كـــان الـــبابا بطرس أمينا فى وطنيته مخلصاً لبلاده وحكومته، فقد زاره مرة السفير الروســـى وعرض عليه حماية حكومة القيصر للأقباط كنيسة وشعباً كأقليات، فأبتسم الـــباب فـــى وجه محدثه وسأله برفق ومودة قائلا له هل ملككم (قيصر روسيا) يمـــوت أم يعيش إلى الأبد ؟ فقال الزائر هو يموت طبعا مثل كل بنى البشر، فأجاب البطريـــرك أن كـــان قيصـــر روسيا يموت فنحن نفضل أن يكون حامى الكنيسة هو راعـــيها الإلـــه الحقيقى، الملك الذى لا يموت بل يعيش إلى الأبد، وليس لملكه نهاية ورفض حماية الأقباط كأقليات.

وانطلق السفير إلى محمد على باشا، فسأله عما رأى بمصر، فأجابه لم تدهشنى عظمة الأهـــرام ولا ارتفاع المسلات ولم يبهرنى كل ما فى القطر المصرى من عجائب بل أثرّت فى نفسى فقط زيارتى للرجل التقى بطريرك الأقباط، ثم روى له ما جرى بينهم فطفح السرور فى وجه محمد على باشا وقام فى نفس اليوم إلى الدار البطريركية وقدم الشـــكر الجزيل للبابا بطرس على ما أبداه من وطنية حقة والإخلاص للبلاد ورفضه حماية الأقباط كأقليات.

فقـال لــه البابا بطرس لا تشكر من قام بواجب عليه نحو بلاده ، فقال له محمد على باشـا والدمــوع تنهمر من عينيه ، قد رفعت اليوم شأنك وشأن مصر فليكن لك مقام محمـد على بمصر ، ولتكن مركبة معدة لركبك كمركبته ، ومنذ ذلك اليوم ازداد مقام البابا عند محمد على ، وعظمت ثقته بأبناء الأقباط ، فأفسح لهم مجال العمل فى شتى المرافق الحكومية.

(٣) حكمتـــــه:

ذكـر أن أقـباط الجاولى، مسقط رأس البابا بطرس كانوا متضايقين للغاية من قسوة بعـض العـائلات الإسـلامية المتطـرفة والمتعصـبة، وسوء معاملتهم لهم وبنهب محصــولاتهم وعـدم فهمهـم للدين الإسلامى على حقيقته، وما فيه من سماحة لغير المسلمين، فلكى يخلص البابا بطرس قومه من شرهم ، استدعى أكابر أقباط تلك البلدة وكلفهـم بانتقاء مائتى فدان ، من أفضل أطيانهم وقدمها هدية لشريف باشا ، فما كان من الباشا بعد أن دخلت الأرض حوزته ، أن عين لها مندوبا من قبله " مثل حاكم أو ناظـر يكون له وحده حق الأشراف على شئون البلدة كلها بما فيها أراضى الأقباط ، وبذلك تخلص الأقباط من هذه المشكلة ، وتحاشوا استبداد الجماعات المتطرفة بالأقباط

(٤) زيادة نهر النيل بصلوات البابا بطرس:

حـدثت سنة ١٨٣٤ م أن جاء النيل ناقصاً جداً فضج الناس لذلك وخشوا وطأة الغلاء وانتشار الوباء والجوع والجفاف ، ولما أشتد انزعاج الناس من هبوط النيل ، استغاثوا بمحمـد على باشا طالبين إليه أن يأمر رجال الدين ، " كل طائفة أو ملة " بمفردها ، كــى يرفعوا صلوات ويتلوا الطلبات ، كى يبارك الله فى مياه النيل وتروى الأراضى الـزراعية ، فاسـتجاب لندائهم ، واجتمع أولا المسلمين للصلاة وكثرة الدعاء وتلاوة الصلوات والاستسقاء ثم تلاهم اليهود من بعدهم الروم فالسوريين ثم الأفرنج فلم ينتقل مــاء النـيل مــن مكانه ولم يرتفع عن مستواه أو يفيض ، وبعد ذلك جاء دور البابا بطرس الذى استدعى لفيفا من الأساقفة والاكليروس ، وخرج على رأسهم إلى شاطىء النهـر ، وأقام صلاة القداس المبارك بقلوب مؤمنة خاشعة طالبة من الله أن يرفع عن مصر كل أنواع البلايا والجفاف والوباء والغلاء ... ، وبعد انتهاء غسل أوانى الخدمة طرح ماء الغسيل على قربانه من الحمل المبارك فى ماء النهر، فتمجد اسم الله وبارك الله تعالـى الماء فى الحال وكأن بركاناً قد ظهر وارتفعت المياه واضطربت الأمواج وفاضـت، فانكـب الـبابا بطرس والحاضرون معه على وجوههم سجوداً لله ودهش الحاضرون من عظم الآية وظهورها على يد هذا البطريرك المتضع صاحب الإيمان القوى بالله.

(٥) تمــت فى أيامه رفع راية الصليب جهارا فى جنازة الأقباط بعد حادث استشهاد القديس سيدهم بشاى فى دمياط

معاصروه:

عاصر البابا بطرس كل من محمد على باشا (١٨٠٥ م – ١٨٤٨ م) وابنه إبراهيم باشـــا (١٨٤٨ م– ١٨٥١ م) وأشهر الأساقفة فى عصره الأنبا يوساب الأبح والأنبا صرابمون أبو طرحه والقديس الشهيد سيدهم بشاى والأرخن الكبير المعلم جرجس.

نياحـــته : – تنــيح الــبابا فى إبريل سنة ١٨٥٢ م ودفن فى مقبرة البطاركة بجوار الكنيسة المرقسية بكلوت بك .

٣ــ الباب كيرلس الرابع(البطريرك الــ١١٠)(١٨٥٣ م – ١٨٦١ م): (الشهير بأبى الإصلاح)

ولـــد سـنة ١٨١٦ م بـــبلدة الصوامعة الشرقية وترهب بدير الأنبا أنطونيوس باسم الـــراهب داود الأنطونى وسيم مطراناً عاماً للكرازة المرقسية سنة ١٨٥٣ م ثم تولى البطريركية فى يونيو سنة ١٨٥٤ م . وذلك فى أيام الخديوي سعيد باشا.

البطريرك المحب للعلم:

إلـــى جـــوار عبادته وتأملاته انكب على المطالعة والدرس، وتعمق فى دراسة اللغات العربية والقبطية واليونانية والتركية، كما ألم بالإنجليزية والإيطالية، وأنشأ مدرسة فى عـــزبة الديـــر ببوش(ناصر بنى سويف) الحق بها مكتبة عامة لتسقيف الشعب ومن اهـــتمامه بـــالعلم انشـــأ أول مطبعة خاصة فى مصر تعتبر هذه المطبعة ثالث مطبعة عـــرفتها مصـــر فى بدء نهضتها، فالمطبعة الأولى هى التى دخلت البلاد مع الحملة الفرنسية، والثانية مطبعة بولاق الميرية، وكانت الثالثة مطبعة الدار البطريركية.[١٤٩]

اهتمامه بنشأة الإكليركية:

فقـــد وضـــع الـــبابا كيرلس اللبنة الأولى فى تأسيس الإكليركية واهتم بإنشاء مدرسة لاهوتية لتثقيف رجال الدين وإعدادهم للكهنوت فاختار شبابا صغارا ليتلقوا دروساً فى اللغـــة والألحـــان الكنسية والموسيقى والعلوم الدينية وعمل للطلبة زياً خاصاً يرتدونه أثناء الخدمة، وأقام البابا كيرلس بكل دير مكتبة لتعليم الرهبان.

اهتمامه بإنشاء المدارس:

لأنـــه كان شخصاً محباً للعلم لذلك نشر العلم بين الناس وانشأ المدارس الآتية: مدرسة الأقـــباط للبنين ، مدرسة الأقباط للبنات بجوار البطريركية ، ومدرسة أخرى للبنين ،

ومدرســة أخــرى للبنات بحارة السقايين ، وكانت مدارسه بالمجان ، وكذلك الأدوات والكتب تصرف للطلبة بدون مقابل حتى اتهموه بالإسراف .
وقد تخرج فى مدارسه كثير من كبار رجال الدولة مثال ذلك بعض رؤساء الوزارات كبطــرس باشا غالى وحسين باشا رشدى ويوسف بك وهبة وعبد الخالق باشا ثروت وعــبد الحمــيد مصطفى باشا وكيل وزارة المالية ــ محمود عبد الرازق باشا وكيل وزارة الداخلــية ــ كمــا تخــرج منها كثير من الوزراء ووكلاء الوزارات والأعيان والمستشارين ورؤساء الجمعيات الكبرى وأيضاً بعض المؤرخين مثل إسماعيل حسين باشا وكيل وزارة المعارف ــ والمستشارون احمد شرف الدين بك ــ مينا ابراهيم بك ــ حــنا نصــرالله باشا ــ والمؤرخ ميخائيل شاروبيم بك جد الدكتور بطرس غالى الأمين العام السابق للأمم المتحدة، وأيضا المؤرخ يعقوب نخله روفيله بك.
وتحمل البابا كيرلس الرابع فى سبيل نشر هذا العلم محاربات العرفاء الذين ظنوا فى ذلك القضاء على كتاتيبهم وما يتلقونه من رواتب، فأشاعوا أن مدارس البابا تعلم الكفر وفساد الأخلاق وفساد العقائد.

اهتمامه بإنشاء المكتبات العامة:

فهو أول من أنشأ مكتبة عامة وعممها فى المدارس فأنشأ مكتبة عامة بمدرسة الأقباط الكبــرى التى بجوار البطريركية وبلغت شهرتها أن رئيس الوزراء يوسف باشا وهبه أهداها مكتبته النفيسة.

اهتمامه بتعليم الفتاة:

كــان البابا كيرلس الرابع أول من أهتم بتعليم البنات فى الشرق العربى كله قبل قاسم أمــين بما يقرب من ٥٠ عاماً، فأنشأ لهن مدرستين إحداها فى الأزبكية والأخرى فى حــارة الســقايين، واحتمل نتيجة ذلك كراهية وبغضة شديدة من البعض حتى رفعوا شــكواهم إلى الوالى طالبين إليه إغلاق المدرسة لأنه لا يليق بالبنت أن تتعلم، ولكن الوالى انضم إلى صف أبى الإصلاح إلى درجة جعلتــه يوقف بعض الأفدنة إلى هذه المدرسة.

اهتمامه بالأسرة المسيحية:

أقام البابا كيرلس الرابع الأسرة على أساس المحبة، واهتم بالمرأة ، فكما أقام المدارس لتعليمها كذلك أطلق حريتها وأنصفها فى حقها من الميراث أسوة بأخيها، ومنع زواج البنات قبل سن الرشد ، وهكذا سبق قانون تحديد سن الزواج فى مصر بنحو مائة عام ، كما منع الإكراه بالزواج وأصر على أن يؤخذ رضا الطرفين قبل عقد الزواج ورسم عمــل العقد الإبتدائى (قبل الإكليل حتى يتأكد من الوئام والاتفاق بين طرفى الزواج قبل الإكليل الذى لا يمكن فسخه وكان يتشدد فى الطلاق تشدداً لا مثيل له) .

رسول محبة : -

كـان البابا كيرلس الرابع رسول محبة وسلام بين الجميع وقد بذل مجهوداً فى توحيد الكـنائس بفضـل حسن علاقته بالطوائف الأخرى ، حتى أن رؤساء الكنائس اليونان والأرمـن الروس كانوا إذا ما سافروا إلى الخارج ، أوكلوا له تدبير شئون كنائسه ، وكان صديقاً لكثيرين من علماء الأزهر وللشيخ الأكبر وكان يعقد معهم حلقات مذاكرة ومناظرة فى جو من الألفة والمحبة .

وطنية البابا كيرلس الرابع وإصلاحاته:

لاحـظ الـبابا كيرلس أن أقباط مصر لم ينالوا ما يستحقون من الترقى وحرموا من الوصـول إلـى مناصب الدولة العالية بسبب قبطيتهم، فانتهز فرصة صدور الفرمان السلطانى فى ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ (الخط الهمايونى) وما ينص عليه من قرارات تـنادى بمسـاواة جمـيع المواطنين والتمتع بكافة الحقوق دون النظر إلى معتقداتهم وديانـتهم، فـتقدم الـبابا كيرلس إلى الوالى سعيد باشا، وطلب منه تطبيق نصوص الفرمان على أقباط مصر فوعده الباشا بذلك.

وقد كان البابا كيرلس الرابع وطنياً متحمساً لمصريته ووطنه فقد أشاع المغرضون أنه طلـب مـن أمير البلاد إعفاء القبط من الخدمة العسكرية فتصدى لهذه الإشاعة البابا كيرلس وصرح علانية قائلاً حاشا أن أكون جباناً بهذا المقدار حتى لا أعرف للوطنية أو افتـرى على أبنائى الأقباط بتجردهم من محبة وطنهم وعدم الميل لخدمته والدفاع عنه وحماية حدوده وأرضه فليس هذا ما طلبته ولا ما أطلبه.

البابا كيرلس الرابع وسعيد باشا وإمبراطور إثيوبيا:

كـان إمبـراطور إثيوبـيا تـيودور الثانى (١٨٥٥- ١٨٦٨) ديكتاتوريا حاد المزاج ويبغض المصريين جدا وقد كانت علاقته بالمطران القبطى الأنبا سلامه الثالث متوترة فى اغلب الأوقات وصلت إلى حد تحديد إقامته نحو ثلاث سنوات انتهت بنياحته عام ١٨٦٧.

وكانت هناك مشاكل بين إثيوبيا ومصر على الحدود فكلف الوالى سعيد باشا من البابا كيـرلس السفر إلى إثيوبيا لإيجاد حل مع الإمبراطور تيودور فسافر قداسة البابا رغم مشقة الطريق والسفر إلى هناك فى عام ١٨٥٦ وتقابل مع الإمبراطور الذى كان يشك فـى نـوايا الـبابا متهما إياه بالحضور للاستيلاء على عرشه لكى يعطيه للمصريين والأتراك...[١٥٠]

وفـــى نفـــس الـــوقت قام سعيد باشا بإرسال الجيش المصرى إلى الحدود مما جعل الإمبـــراطور يعتقد أن البابا يدبر مكيدة له فقبض عليه مع المطران واودعهما السجن لمدة خمسة أيام وصمم على قتليهما ولكن الملكة ورجال البلاط طالبوه بالتيقن أولا من مهمـــة البطريرك الذى أرسل بدوره للوالى يخبره انه نجح فى مهمته الوطنية للصلح مع الإمبراطور فقام سعيد باشا بسحب الجيش وتأكد الإمبراطور من براءة البابا فأفرج عـــنه معتذرا ثم سمح له بالعودة إلى مصر وعاد البابا إلى كرسيه بعد نجاحه كرسول سلام بين الدولتين ولما رجع إلى مصر استقبل سعيد باشا بحفاوة كبيرة.[١٥١]

صفاته وفضائله:

كان البابا كيرلس الرابع يتمتع بالعديد من الفضائل والكثير من الصفات الحميدة نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر:

(١) إنصاف المرأة:

استدعاه يوماً سعيد باشا والى مصر ليكون حكما فى قضية ميراث ، بين رجل وامرأة أخـــته وكان من الأراخنة التابعين للكنيسة الرومانية ، فقال سعيد باشا للبطريرك هل تعطى المرأة مثل الرجل أم نصف نصيبه فى الميراث ؟ فأجاب البابا كيرلس قائلاً له إذا عملـــت المرأة عملاً حسنا كالرجل فهل يجازيها الله بأقل مما يجازى به الرجل ؟ فقـــال ســـعيد باشا حاشا أن يكون الله ظالماً حتى يعاملها بأقل مما يعامل به الرجل !! فقـــال لـــه البطريرك فإذا كان فى السماء تأخذ المرأة نصيباً كالرجل فمن الأفضل أن تأخـــذه فـــى الأرض أيضا فاقتنع سعيد باشا بحكمة وحكم بأن يكون للمرأة مثل حظ الرجل فى هذه القضية.

(٢) سرعة الخاطر فى الجواب:

ذكـــر عـــن البابا كيرلس الرابع أنه زار سعيد باشا فى قصره، وكان ذلك فى وجود بعـــض شيوخ الإسلام وأحد علماء الأزهر المتعصبين الذى أخذ يتحرش بالبطريرك قـــائلاً له ، يا جناب البطريرك أن لكم كتابا منزّلا ولكن يا للخسارة إنكم تشركون بالله وتقولون أن المسيح ابن الله ومساويا له فى الجوهر ، فقال له البطريرك فى الحال ماذا نعمل وقد حيرنا القرآن ؟ فقال له العالم الأزهرى يتبرأ القرآن الشريف من ذلك، فقال له البطريرك لقد جاء فى سورة الشورى " وليس كمثله شيء (٤٢ : ٩) فقال العالم الأزهـــرى الكاف زائدة ، فقال له البطريرك نحذفها فقال له العالم لا يمكن ، فقال له البطريرك نعمل بحكمها ، فقال العالم لا يمكن ، عندئذ قال له البطريرك من أين أتت الحيـــرة فسكت العالم ولم يبد جوابا وحاول أحد شيوخ الإسلام بأن يحول الكلام حتى ينقذ العالم المسلم من الورطة التى سقط فيها فقال له " لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن " .

(٣) الكنائس فى عصره:

كـــان التضييق شديداً على المسيحيين لعدم إنشاء الكنائس ولكن فى أيام البابا كيرلس الـــرابع اســـتطاع بحكمته وحسن علاقته الوثيقة مع الوالى سعيد باشا الذى أباح لهم الحرية فى بناء الكنائس وتجديد ما تهدم رغما عن المعارضات الشديدة فى إنشائها.

ولـــذلك نجد بناء كنيسة جديدة فى البطرخانة القديمة بالأزبكية وبناء كنيسة جديدة بدلا من القديمة بحارة السقايين.

كما ذكر أن القمص يوسف موسى راعى كنيسة مارجرجس بميت غمر قد أتاه شاكيا من محاولة الحكومة له هدم باب الكنيسة لأنه عندما قام بتجديده ارتفع عن أصله " أى كبر طوله " فأوعز إليه البابا كيرلس أن يلحق به عند ذو الفقار باشا وفعلاً، فإنه بعد أن استقر البابا عند الباشا ظهر القسيس، فاستدعاه الباشا إليه قائلاً له لماذا جئت إلى هنا؟ فأجابه إنى جئت شاكيا من تعدى الحكومة لى وصدور أمر بأن أجعل الباب قصيرا أى مـــنخفض بحـــيث لا يمكن للرجل أن يمر به إلا إذا انحنى، فقال له البطريرك يجب عليك إطاعة أولى الأمر ولا تخالفهم مادمت محكوما ولا ملك لك يدافع عنك.

فعـــندما سمع ذو الفقار باشا هذه الكلمات قام من فورة وقابل سعيد باشا وقال له : فى أيـــام عـــدلك لا يصح أن نسمع بمثل هذه الأعمال، فأمر أن يبنى الحائط على حساب الحكومة ويرتفع الباب .

ولما رأى أهالى دقادوس أن باب كنيستهم فى جهة غير ملائمة نقلوه من الجهة القبلية إلى الجهة الغربية وجعلوه مرتفعا لدرجة لم يكن لهم فى سابق عهده بالوصول إليها .

ويذكـــر الـــتاريخ أنـــه عـــند بناء كنيسة جديدة فى مدينة طنطا ألقى أحد المتطرفين المتعصبين من المسلمين بنفسه عند وضع أساس الكنيسة حتى يعطل البناء فأمر مدير الأمن فى ذلك الوقت بالبناء عليه ولكن أحد القسوس الذى كان موجوداً وقتئذ طلب من المدير إخراجه حسما للمشاكل وتجنباً لإيجاد الكراهية والحقد وهكذا كانت أيامه فاتحة خيـــر على الأقباط حيث ألغيت كل القيود التى تعطل بناء الكنائس وترميمها فى عهد هذا الرجل العظيم.ولذلك أتعجب إذا كان هذا يحدث أيام الباشاوات فماذا جرى لمصر الآن.

البابا كيرلس الرابع وقناصل الدول : -

كـــان محمـــد علـــى باشا والذين ورثوا الحكم من بعده يستعينون بالأجانب وخاصة الفرنســـيين مـــنهم لتدعـــيم سلطانهم وتنفيذ مشروعاتهم العسكرية والإنشائية والثقافية ولكنهم كانوا يتحاملون على أى مواطن ينال منهم مأربا عن طريق قناصل الدول التى تتمـــتع بـــنفوذ لديهم ، ولما رأوا أن بعض القناصل يذكرون إسم البابا كيرلس أمامهم

بالتقديـــر والثناء، أخذوا منه خيفة ، وصاروا ينظرون إليه بشيء من الريبة والقلق ، قـــادهم إلـــى ذلـــك سعيه المتواصل فى توحيد الكنائس والعمل على رقى أبناء أمته المهضومة الحقوق . وكانت لهذه الأسباب وأسباب أخرى سببا فى أن يقرر أمير البلاد سعيد باشا إلى التخلص من البابا كيرلس الرابع بالطرق المتبعة فى قصور المستبدين وذلك بعد ازدياد مخاوف الطغاة، وخاصة عندما وشى إليهم قنصل إنجلترا زورا ، بأن البطريـــرك يـــريد الخـــروج عن طاعة الدولة ، وجعل الكنيسة القبطية تحت حماية القيصرية الروسية .[١٥٢]

نهاية البابا كيرلس الرابع:

فـــى تلـــك الأيام التى كثرت فيها الشائعات والدسائس، استدعى محافظ القاهرة غبطة البطريـــرك لمقابلـــته فورا لأمر هام، لا يتم إلا بحضوره شخصياً، إلا أن البطريرك صـــرف رســـول الحـــاكم وأفهمه أنه لا يمكن حضوره الآن لظروف شخصية ولكن المحافظ أصر على حضور البطريرك وأرسل فى طلبه مراراً ، وإذ لم يجد البابا مفرا من هذه المقابلة الإجبارية تحامل على نفسه وتوجه إلى سراى المحافظ وإن كنا لا نعلم تفاصـــيل الحـــديث الذى دار بينها ، ولكن أكده المؤرخون المعاصرون أن البطريرك عـــندما دس له الأعداء السم فى القهوة فلم يقبل معتذرا بالصوم لأنه سمعهم يتكلمون بالتـــركية التـــى كـــان يعرفها فى هذا الوقت ، ولما نجا البابا عاد إلى مقره أثر هذه المقابلة حزيناً خائر القوى محموماً شاعراً أن النية مبيتة على قتله ، ولازم الفراش بعد وصـــوله للبطريركية مباشرة ، فلما سمعت الدوائر المتآمرة بمرض البابا أرسلت إليه طبيـــبا لعادتـــه فأجرى عليه فحوصا طبية ثم كتب له تذكرة بالدواء ولكن لم يؤتى له الـــدواء . ولكن لكى لا يطول المرض وتكشف الأيام عن خططهم الإجرامية أوعزوا إلى الأنبا كيريل مطران الأرمن بالقاهرة عميل الحاكم وصديق البطريرك، والخواجة حـــنا مسّـــره، أن يذهبا فى الحال إلى الدار البطريركية، وأن يأخذا معهما طبيباً آخر فـــدخل الثلاثة إلى مخدع البطريرك المريض وأفهمه المطران المنافق أن يثق فى هذا الطبـــيب لأنـــه طبيب الوالى ويعمل بموجب توجيهاته والواقع أنه كان خائناً مأجوراً فأعطـــى البطريرك جرعة سامة، فقد وعيه على الفور وسقط شعر رأسه ولحيته على الوسادة، ثم انحل جسده ومات. وكان ذلك فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ م ووضع جثمانه فـــى المقبرة الجديدة التى أعدّها لنفسه فى كنيسة الشهيد أستفانوس الملاصقة للكنيسة المرقسية الكبرى.

٤ـ البابا ديمتريوس الثانى(البطريرك الـ ١١١)(١٨٦٢ م - ١٨٧٠ م):

ترهب بدير أبو مقار باسم الراهب ميخائيل المقارى وسيم بطريركا باسم البابا ديمتريوس الثانى فى يونيو سنة ١٨٦٢ م وكان ذلك فى أيام سعيد باشا.

وأهم أعماله قام بتكميل بناء الكنيسة المرقسية الكبرى بالأزبكية كما اهتم بإدارة المدارس القبطية وترقيتها.

فى أيامه توفى سعيد باشا وجاء بعده إسماعيل باشا الذى فى أيامه نال القبط ما لم ينالوه فى أيام غيره حيث أنعم على المدارس القبطية وعلى البطريركية بأوقاف كثيرة.

زيارة السلطان عبد العزيز بك:

ولما زار السلطان عبد العزيز بك مصر سنة ١٨٦٣ م ، قبّل البابا صدر السلطان بدلا من تقبيل يديه قائلاً " أن قلب الملك فى يد الله ملك الملوك وسلطان السلاطين فلما سمع السلطان ترجمة هذه العبارة ابتسم مسرورا وأنعم بألف فدان من أملاك الحكومة للمدارس القبطية ثم زادها الخديوي إسماعيل خمسمائة فدان أخرى فى محافظة الشرقية .[١٥٣]

زيارة البابا للأقاليم القبلية والقضاء على الشيعة البروتستانتية: -

عندما علم البابا بنشاط الإرساليات الأجنبية فى الصعيد ، طاف فى مركب بخارى أعدها له الخديوي إسماعيل ، على مدن وقرى الصعيد حتى إسنا ، ونجح فى إقناع الكثيرين بالرجوع إلى كنيستهم القبطية الأرثوذكسية وهكذا كان التعاون بين الحكومة والكنيسة لنبذ الحركات والبدع الأجنبية.[١٥٤]

نياحته :

تنيح البابا دمتريوس الثانى فى ١٨ يناير سنة ١٨٧٠ م ودفن بجوار البابا كيرلس الرابع فى المقبرة التى بكنيسة الشهيد إستفانوس بالأذبكية.

" ثانيا " أشهر الأساقفة فى هذه الفترة:

١ ــ الأنبا يوساب الأبح أسقف جرجا وأخميم

٢ ــ الأنبا باسيليوس مطران القدس (١٨٥٦ - ١٨٩٩)

لــه سـيرة عطـرة ذكرت بالتفصيل مع سيرة الأنبا يوساب الأبح أسقف جرجا وأخمـيم وسيرة الأنبا صرابامون أسقف المنوفية الشهير " بأبى طرحة " فى كـتاب مشاهير الأساقفة الذين اختيروا من رهبان دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس إعداد الراهب القمص أنطونيوس الأنطونى ويباع بدير الأنبا أنطونيوس.

٣ ــ الأنبا صرابامون أسقف المنوفية الشهير " بأبى طرحة "

والأنــبا صرابامون أسقف المنوفية الشهير " بأبى طرحة " له سيرة عطرة تحتاج إلى بحث كبير ولكننا سوف نذكر وباختصار شديد.

بعض المواقف الهادفة فى حياته:

كيف دخل إلى الرهبنة:

+ كــان اســمه صــليب ويحترف مهنة بيع الزيت فى القاهرة وفى أحدى مشاجرات النسـوة الشـريرات قـتل ولد إحداهن، فاتهمت صليب تاجر الزيت أنه هو القاتل ، فتجمهـر جمهـور كثيـر وساقوه إلى الحاكم وهناك شهدوا عليه أنه هو القاتل ، أما صليب فكان يبرأ نفسه أمام الحاكم ، بقوله " أنا مظلوم وهو يبكى " ولكن أصر الجميع قائلين أنه هو الذى قتله ونحن شاهدون على ذلك ، وفيما هو متحير تذكر قول الكتاب المقـدس " فتعظم نفسى فى عينى الرب فينقذنى من كل ضيق (١ صم ٢٦ : ٢٤) " فـرفع صـليب قلـبه إلى الله وتشفع بالسيدة العذراء قائلاً " إذا أنقذنى الرب من هذه الـورطة والـتهمة الباطلة سوف أكرس حياتى كلها لله " وبكى وصلى بحرقة ثم قال للطفـل المقـتول بإيمان كبير " يقيمك الرب لتخبرهم عمن قتلك فقام الطفل فى الحال بإذن من الله الرحيم وأخبر عمن قتله وعاد فرقد ثانية فأفرجوا عنه وهم متحيرون مما رأوه وكانــوا يضربونه ويقولون عنه ساحر ساحر . وهكذا عندما رأى صليب كيف أنقـذه الله ، وخوفا من المجد الباطل الذى قد يناله بسبب هذه المعجزة العجيبة ، ترك حماره بما عليه تاركاً كل ما يملكه ورحل إلى البرية الشرقية.

وترهب بدير الأنبا أنطونيوس. ثم أختير أسقفاً للمنوفية واشتهر بأبى طرحة.

عاقبة من لا يستحى برجال الله:

والله دائمــا يثار لكرامة أولاده ويذل أعداءهم ومبغضيهم ويرد لهم الكرامة مضاعفة ولا عجب وهو القائل " الذى يرذلكم يرذلنى " (لو ١٠ : ١٦) ويقول أيضا مبغضو الصـدّيق يعاقبون (مز ٣٤ : ٢١) وقد ذكر له مواقف كثيرة تعلمنا أن الرب سريع لطلبته معطيا إياه سلطانا وقوة فيها مثال ذلك : -

+ ذكر عنه أنه فى إحدى المرات عندما كان فى طريقه إلى البطرخانة قصد ثلاثة من الشبان المستهترين السخرية منه إذ تمدد أحدهم أرضاً كميت ووقف الاثنان يبكيان لدى مـــروره طالبين منه إحسانا للنفقة على جنازة فقيديهما ، فقال لهما أهذا ميت ؟ قالا له نعم ميت ، ثم كرر هذا السؤال هل أنتما متأكدين أنه ميت ؟ فزادوا سخرية منه قائلين " لـــه نعم ميت " فأعطاهما الأنبا صرابامون مبلغا من المال وهو يقول لهما خذا هذا المبلغ وادفناه به ما دمتا قلتا أنه ميت ثم أنصرف.

فلمـــا أرادا إيقاظ رفيقيهما إذا به قد فارق الحياة " ميتا " فأخذاه ودفناه نادمين عما بدا منهما تائبين طالبين من الله المغفرة والرحمة.

قصة العبد الأسود:

+ ذكر عن الأنبا صرابامون أنه فى أثناء مروره فى زياراته السنوية تعرض له عبد أســـود " مجرم " وطلب من الأنبا صرابامون إعطاءه ما معه من نقود وإلا فأنزل عن دابتك واخلع ملابسك فأجابه القديس إخلى لى الطريق يا بنى مالى ومالك فما كان من العبد إلا أن رفع يده ليهوى بنبوته (عصاه الغليظة) على رأس الأنبا صرابامون فقال له القديس أنت رفعت يدك على ، طيب خليها مرفوعة فظلت يده مرفوعة كالتمثال ، ثم تركه الأنبا صرابامون ومضى إلى أقرب ضيعة ليتفقد فيها شعبه وبات فيها ، وفى الصباح أخذ دابته وخرج ليصل بها إلى أقرب قرية أخرى ، وفى الطريق وجد العبد " المجرم " مثبتا فى مكانه مربوط اليد وهو يصرخ من شدة الألم ، وقد التف حوله أناس كثيرون يتعجبون بما صنعه الله فيه ، ولما رأى الأنبا صرابامون قادماً استغاث به أن يرحمه فعفا عنه الأنبا صرابامون وندم العبد على ما فعله ، ولم يحترف اللصوصية بعـــد ذلك وظل يخدم الأنبا صرابامون ويهتم ببغلته التى كان يركبها فى تنقلاته بقية حياته إلى أن توفى .

اليد التى لمستنى تشل:

+ ذكر عن الأنبا صرابامون أنه فى ذات يوم كان قاصداً زيارة كنيسة السيدة العذراء الأثرية بحارة زويلة ماراً بشارع درب مصطفى وكان طريقاً ضيقاً مزدحماً بالسكان الذين أكثرهم ذو مستوى متواضع ومنخفض، فتعلقت بملابسه إحدى الباغيات قاصدة إهانـــته والاســـتهزاء به، بعد أن تراهنت واتفقت مع بعض عشيرتها أن تمثل به فى الطريق، فما كان منه إلا أن سألها برفق، أن تدعه وشأنه، ولكنها لم ترتدع ولم تتركه، فصـــرخ فيها قائلاً اليد التى لمستنى تشل، وللحال شل ذراعها، فاستغاثت به صارخة مـــن الألـــم الذى لحق بها، وتضرعت إليه نادمة أن يرحمها ويشفيها فصلى إلى الله وشفاها بعد أن تعهدت بعدم العودة إلى سخافتها.

موهبة إخراج الأرواح الشريرة:

+ ذكر عن الأنبا صرابامون أنه عندما ينتهى من صلاة القداس كان يؤتى إليه بالمصابين والذين عليهم أرواح نجسة والمرضى ويضعوهم أمامه وخلفه ، فكان يأخذ بيده قلة ماء ويتلو على كل واحد منهم المزمور الرابع والثلاثين " دِن يارب الذين يظلموننى قاتل الذين يقتلوننى " ثم يصرخ فى الروح النجس ويأمره بالخروج من المريض فيخرج فى الحال كما حدث فى المعجزة الآتية : -

شفاء زهرة بنت محمد على باشا:

+ كان محمد على له ابنة تدعى زهرة وقد اعتراها روح نجس واحتار الأطباء فى علاجها فاستدعى الأنبا صرابامون أبى طرحة الذى توجه إلى القصر فأدخلوه إلى مخدع الأميرة ولما إبتدا فى الصلاة تحرك الشيطان فيها بغيظ شديد وألقى بالأميرة صرعى على الأرض وصرخت بأصوات مزعجة ثم رسم علامة الصليب على الماء ورشه على وجه الأميرة فصرخ الشيطان بصوت عظيم مزعج وخرج منها ونهضت الأميرة معفية سليمة، ورغب محمد على أن يكافىء الأنبا صرابامون فقدم الوالى له كيسا به أربعة آلاف جنية) فرفض قبولها قائلاً ليس لى أن أربح بمواهب الله " ولكن أسأل دولتكم أن تميلوا نحو أبناء الطائفة القبطية للعمل فى الوظائف الحكومية.

قوة الروح القدس فيه:

+ لقد كان الأنبا صرابامون ينمو ويتقوى فى الروح والنعمة وكان الروح القدس يعمل فيه بقوة وقد ذكرت عنه فى هذا المجال حوادث كثيرة منها: -

أمان يا بابا:

+ أصدر عباس باشا الأول والى مصر أمره بإعدام جميع السحرة والمنجمين فوشى الواشون له بأن القديس صرابامون من هؤلاء السحرة بل من أكبرهم، وأنه هو الذى شفى زهرة بنت محمد على باشا بسحره، فطلبه الأمير لقتله ولما حضر قابله الأمير بازدراء فقال له " هل أنت من السحرة والدجالين " فقال له الأنبا صرابامون " أنا رجل مسكين ولا أدرى شيئاً من ذلك " فقال له الأمير " ألم تكن أنت الذى شفيت زهرة هانم ؟ فامتلأ القديس من القوة الإلهية وصرخ " هذه قوة الله فأرتعب عباس باشا فى الحال وصرخ قائلا أمان بابا، ثم طيب خاطره وأكرمه وصرفه بكل وقار وسلام.

نياحته ودفنه:

+ تنيح الأنبا صرابامون فى سنة ١٨٥٣ م ودفن بجوار البابا بطرس الجاولى بالكنيسة المرقسية بالأزبكية.

" ثالثا " مشاهير رجال القبط فى عهد أسرة محمد على:

١ - وهبه بك الجيزاوى الذى كان رئيساً لكتبة وزارة المالية.
٢ - تادرس أفندى عريان الذى كان رئيساً لديوان المالية.
٣ - دميان بك جاد كان له مكانة كبيرة عند الخديوى حتى أن دواوين الحكومة تعطلت يوم وفاته.
٤ - عريان بك تادرس وإخوته الذى كان رئيس كتبة وزارة المالية.
٥ - سعد ميخائيل عبده الذى كان من كبار موظفى الحكومة.
٦ - مرقس بك يوسف الذى كان كبير كتبة مركز طنطا وأنشأ الجمعية الخيرية القبطية وبنى مدرسة الأقباط الكبرى.
٧ - رزق أغا حاكم الشرقية.
٨ - مكرم أغا حاكم أطفيح.
٩ - ميخائيل أغا حاكم الفشن.
١٠ - بطرس أغا حاكم برديس.

١١ـ الياس بقطر واضع أول قاموس عربى فرنسى

وضع هذا القاموس الياس بقطر وكان من نوابغ القبط فى أوائل القرن التاسع عشر وقد ولد فى أسيوط سنة ١٧٨٤ وظهر نبوغه فى اللغة الفرنسية وحين جاءت الحملة الفرنسية على مر عمل مترجما مع الفرنسيين وساعد علماء الحملة فى وضع كتاب "وصف مصر" وقد رحل إلى فرنسا مع الفرنسيين عند خروجهم من مصر وعين مدرسا بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وتوفى سنة ١٨٢١م وطبع قاموسه فى باريس سنة ١٨٢٨ .[155]

[1] ابن اياس ١ جـ ٣ ص ٢٦٨ – ٢٦٩
2 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢٢٦ ـ د. جاك تاجر (أقباط ومسلمون) ص ٢٠٠
3 الجبرتى جـ ٢ ص ١٥٣
4 الجبرتى جـ ٢ ص ١٥٤
5 تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢٦٤
6 جريدة الأهالى العدد ٤٩٥ الصادر بتاريخ ٣ ابريل ١٩٩١
7 فوة ص ١٨٤
8 بن الراهب ص ٢٤٤
9 تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر (عمر الاسكندرانى – سليم حسين)
10 الدربدج من ص ١٤٦
11 سلسة باباوات الكرسى الاسكندرى (كامل صالح نخله) الحلقة الرابعة .
12 تاريخ البطاركة (كامل صالح نخلة) جـ ٤ ص ١٦١
13 يعقوب نخله روفيلة ص ٢٥٤ .
14 وأسرار من المعرف القبطية لنصرى تادرس جـ ١ ص ٥٠ – ٥١ .
[15] موجز تاريخ البطاركة (يعقوب جرجس وأشرف زاهر رياض) جـ ٢ ص ٦٧
[16] تاريخ الكنيسة القبطية (إيريس حبيب المصرى) جـ ٤
[17] تاريخ البطاركة الحلقة الخامسة (كمال صالح نخله) ص ٣٩
[18] المسيحيون وضريبة المصرية (د. زاهر رياض) ص ٢٣
[19] كتاب تاريخ مدينة أو محافظة وأبروشية دمياط .
[20] تاريخ الأمة القبطية ص ٢٧٢ ، ٢٧٣
[21] تاريخ الأمة القبطية ص ٢٧٢ ، ٢٧٣
[22] الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ .
[23] المسيحيين والقومية المصرية (د . زاهر رياض) ص ٣٣ .
[24] الجبرتى جـ ٣ ص ٧ .
[25] وثائق الحملة الفرنسية
[26] الجبرتى جـ ٢٣ ص ٧٥ .
27 اليرموس (الجبرتى) جـ ٢ ص ٥٣ .
28 (الجبرتى جـ ٢ ص ٣٧) .
29 مذكرات ص ١٣ .
30 الجبرتى جـ ١٤ ص ٧
31 الأقباط فى القرن العشرين جـ ٢ ص ٤١ .
32 أقباط ومسلمون ص ٢١٨ .
[33] عبد الرحمن الجبرتى ص ٢٨
[34] تاريخ الأمة القبطية (يعقوب نخله روفيله) ص ٢٩٢ .
[35] أقباط ومسلمون ص ٢١٩
[36] أقباط ومسلمون جاك تاجر ص ٢٢٠ .
[37] د. جاك تاجر أقباط ومسلمون ص ٢٢٠ .
[38] المسيحيون والقومية المصرية (د . زاهر رياض) ص ٤٢ .
[39] تاريخ الأمة القبطية – الحلقة الثالثة الجنرال يعقوب واستقلال مصر .
[40] نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر (توفيق إسكاروس جـ ٢

[41] المسيحيون والقومية المصرية (د . زاهر رياض ص ٥٠ ، والمجتمع القبطى فى مصر فى القرن التاسع عشر (رياض سوريال) ص ٤٣ .
[42] نقولا الترك (ذكر تلك جمهورية الفرنساويين الديار المصرية) .
[43] التاريخ القبطى (الجنرال يعقوب واستقلال مصر للقاهرة سنة ١٩٣٥ .
[44] أقباط مصريين الماضى والحاضر (القس عزيز) ص ٧١ .
[45] تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثالثة) الجنرال يعقوب ص ٢٤ - ٢٧ .
[46] كتاب تاريخ الأمة القبطية - المجلد الرابع (أ ل يتشرا) ص ٣٠٠ .
47 الأقباط فى القرن العشرين جـ ٢ ص ٤١ رياض سوريال .
48 كتاب تاريخ الأمة القبطية فى ص ٢٩٤
[49] فى مؤلفه تاريخ مصر الحديث المطبوع سنة ١٩٢٦
[50] تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثالثة) الجنرال يعقوب ص ٤٨
[51] الجبرتى جزء ٣ ص ٢٥٦ .
[52] كتاب أقباط ومسلمون (د . جاك تاجر) ص ٢١٩ .
[53] أقباط ومسلمون (د . جاك تاجر) ص ٢٣٠ .
[54] الجبرتى الجزء الرابع ص ١٣١ .
55 تاريخ الكنيسة القبطية (للقس منسى يوحنا) ص ٦٠٧ .
56 عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . دار المعارف ١٩٨١ الطبعة الرابعة الجزء الثانى ص ٣٣٧ الطبعة الاحتفالية ١٩٩٧ ص ٤٦
57 المرجع السابق : ص ٣٤١
58 عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة الجزء الثالث ص ٧٣ .
59 المرجع السابق ص ٧٤.
60 د. كلوت بك : لمحة عامة عن مصر ترجمة محمد مسعود دار الموقف العربى ١٩٨١ الطبعة الثانية ص ٦٢.
[61] عبد الرحمن الرافعى عصر محمد على مكتبة نهضة مصر ١٩٥١ الطبعة الثالثة ص ٣٣.
[62] المرجع السابق ص ٣٥ إلى ص ٧٦.
[63] شفيق غربال : محمد على الكبير دار الهلال ١٩٨٦ ص ٤٨.
64 د . وليم سليمان قلادة مقال " الأقباط من الذمية إلى المواطنة" فى كتاب مصر فى القرن ٢١ الآمال والتحديات مركز الأهرام للترجمة والنشر الطبعة الأولى ١٩٩٦.
65 د. وليم سليمان قلادة : نشأة مبدأ المواطنة المركز القبطى للدراسات الاجتماعية الطبعة الثالثة ١٩٩٥ ص ١٤.
66 المرجع السابق ص ١٤.
[67] دكتور حسن عثمان تاريخ مصر الحديثة ص ٣٣٩
68 د. سيدة إسماعيل كاشف مصر فى عصر الولاة الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٨٨. ص ١٩.
69 أ.ب كلوت لك المرجع السابق الجزء الأول ص ٨٠.
70 تاريخ الكنيسة القبطية (القس منسى يوحنا ص ٦٠٧)
71 عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ٣٧٢- ٤٢٢
72 د. سيدة إسماعيل كاشف مصر الإسلامية وأهل الذمة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ ص ٦١
73 عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ٤٦٤- ٤٩٦
74 المرجع السابق ص ٤٩٣
75 طارق البشرى المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٨٨ ص ٢٣
76 د. حسن عثمان المرجع السابق ص ٣١٩
77 عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ٥٧٢- ٦٠٥
78 ابوسيف يوسف الأقباط والقومية العربية مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى ١٩٨٧ ص ١٠
79 سيدة إسماعيل كاشف المرجع السابق ص ٦١ و ٦٢
80 الأنبا يؤانس أسقف الغربية السابق الأوراق التحضيرية السابقة

81 الجبرتى جـ ٤ ص ٢٨٨
82 محفوظات عابدين سجل ٧٢٨ تركى " ديوان الخديوى " (بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٥ هـ - ١٨١٩ م)
83 محفوظات عابدين أمر عالى بتاريخ ١٨ رمضان ١٢٧١ هـ - ١٨٥٤ م سجل ١٨٨٢ ص ٤٢٦
84 محفوظات عابدين سجل ١٩ " معية تركى " بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٤١ هـ - ١٨٢٥ م .
85 محفوظات عابدين سجل ٧٤٠ " معية تركى " ص ٤٠ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٤٣ وسجل ٧٣٩ ص ٥٦ بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٤ هـ .
86 الجبرتى جـ ٤ ص ٢٢٦
87 **Fatom , A History of the Egyption Revolution IL , P 236 - 237**
88 **J Bowring Report on Egypt and Candia P . 149 .**
89 الجبرتى جـ ص ١٢١ - ١٢٣
90 رياض سوريال المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩ مكتبة المحبة ١٩٨٤ ص ٤٩
91 عبد الرحمن الجبرتى المرجع السابق الجزء الرابع ص ١٣٤
92 إيريس حبيب المصرى المرجع السابق ص ٢٨٩- ٢٩٤
93 وهو جد المؤرخ الكبير كامل صالح نخله انظر كامل صالح المرجع السابق ص ١٧٥
94 رمزى تادرس المرجع السابق الجزء الثالث ص ٧٢
95 عبد الرحمن الجبرتى المرجع السابق الجزء الرابع ص ٣٠٣
96 أقباط ومسلمون (د . جاك تاجر ص ٢٣٥ أو الجبرتى جـ ص ١٣٠
97 تذكر الأمر الصادر بتاريخ غزة شوال ١٢٤١ هـ (سجل ٥٧ معية سنية تركى ص ٣٤ والأمر الصادر بتاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٤١ (سجل ٢١ معه تركى ص ٨٤) .
98 **Memmers and Customs of the Modern Egyption P . 126 .**
99 الجبرتى جـ ٤ ص ٣٠٣
100 كتاب تاريخ ايبارشية دمياط (القمص بيشوى عبد المسيح (سنة ١٩٩٠)
101 تاريخ إيبارشية دمياط (القمص بيشوى عبد المسيح) سنة ١٩٩٠
102 كامل صالح نخله سلسلة تاريخ الباباوات بطاركة الكرسى الإسكندرى الحلقة الخامسة دير السيدة العذراء السريان الطبعة الأولى ١٩٥٤ ص ٨٠و٨١.
103 كامل صالح نخله المرجع السابق ص ١١٤.
104 كامل صالح نخله المرجع السابق ص ١٢٥،١٢٨
105 جاك تاجر المرجع السابق ص ٢٣٢
106 إيريس حبيب المصرى قصة الكنيسة القبطية الكتاب الرابع ١٩٧٥ وص ٢٦٢
107 رمزى تادرس الأقباط فى القرن العشرين الجزء الأول ١٩١١ ص ٥٠و٥١
108 عبد الرحمن الرافعى عصر إسماعيل الجزء الأول دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٨٢ ص ١٥-٢٧.
109 الراهب القس زخارياس الانطونى : البابا كيرلس الرابع (أبو الإصلاح) ١٩٩٤ ص ٤٦،٤٧.
110 محمد أمين حسونة كفاح شعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر المجلد الأول ١٩٥٥ ص ١٢٦
111 د. وليم سليمان قلادة المقال السابق ص ١٨٦

113 تاريخ الكنيسة القبطية الجزء الثانى ص ٨٩ - القاهرة سنة ١٩٦٢
114 رمز تادرس (الأقباط فى القرن العشرين جزء ٣ ص ٥٦
115 المجتمع القبطى فى مصر فى القرن التاسع عشر لرياض سوريال ص ٤٨
116 تاريخ الكنيسة القبطية (للقس منسى يوحنا) ص ٦٠٩
117 كتاب محمد أمين حسونة هـ " كفاب الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر " المجلد الأول ص ١٢٦ طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٥
118 عبد الرحمن الرافعى عصر إسماعيل الجزء الأول دار المعارف الطبعة الثالثة ص ٣٠- ٤٩
119 مخطوطات عابدين (سجل ٥٠٥ - معية سنية تركى رقم ٢١)
120 مخطوطات عابدين (أمر عالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٧٩ جـ (١٨٦٢ م سجل ٥٣٠ معية سقية تركى ص ٨)

121 المرجع السابق ص ٦٠- ٦٩

122 **Egypte Content Poraime .P43 - 44**

123 عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٧٨ـ ٨٦.

124 المرجع السابق : ص ٧٧.

125 المرجع السابق ص ٩٣ـ ١٠٦ ويمكن دراسة مسألة ديون الخديو إسماعيل بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتاب عصر إسماعيل من ص ٣٢ إلى ص ٨١.

126 عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل الجزء الثانى دار المعارف ١٩٨٢ ص ٨٣و٨٩و٢١٣و٢٥٩.

127 جاك تاجر ـ المرجع السابق ص ٢٣٩

128 كامل صالح نخله ـ المرجع السابق ص ٣٣٣ ـــــ إيريس حبيب المصرى المرجع السابق ص ٣٦٦

129 أم ٢١ : ١ .

130 كامل صالح نخله ـ المرجع السابق ص ٢٣٢ ــــــ إيريس حبيب المصرى المرجع السابق ص ٣٦٧

131 أمير نصر ـ المشاركة الوطنية للأقباط فى العصر الحديث ـ الجزء الأول ـ ص٣٧

132 أمير نصر ـ المشاركة الوطنية للأقباط فى العصر الحديث ـ الجزء الأول ـ ص٣٩

133 أمير نصر ـ المشاركة الوطنية للأقباط فى العصر الحديث ـ الجزء الأول ـ ص٣٩

134 محفوظات عابدين سجل ٥٣٠ معية سقية تركى بتاريخ ٢٠ محرم ١٢٧٠هـ

135 عبد الرحمن الرافعى :المرجع السابق ص ١٩٩ ـ ٢٠٢
د. يونان لبيب رزق تاريخ الوزارات المصرية مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٧٥ ص ٦٧.

136 عبد الرحمن الرافعى :المرجع السابق ص٢٠٣

137 د. يونان لبيب رزق المرجع السابق ص ٦٧.

138 عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ٢١٠

139 د. احمد عبد الرحيم مصطفى مصر والمسألة المصرية دار المعارف ١٩٦٥ ص ٩٨-١٠٧.

140 الأقباط فى الحياة السياسية (د . سمير بحر)

141 **Ropport Oht 1,instruction Publique On , F Egypte Paris Join 1868**

142 **Cimg Mois nu Cairo P . 162**

143 عبد الرحمن الرافعى الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ـ الدار القومية للطباعة والنشر ص ٤١ و ٤٩ .

144 عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ٦٠ و ٦١ .

145 أمير نصر ـ المشاركة الوطنية للأقباط فى العصر الحديث ـ الجزء الأول ـ ص٥٠ .

146 الأقباط ومشاهيرهم (توفيق إسكاروس (١ ص ١١٧)

147 مذكرات فى تاريخ الكنيسة (باقى جيد بشارة)

148 سلسلة تاريخ الباباوات البطاركة الكرسى الإسكندرية الحلقة الخامسة (كامل صالح نخلة)

149 نوابغ القبط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر (الجزء الأول) توفيق إسكاروس)

150 د. انتونى سوريال الكنيسة القبطية وكنيسة إثيوبيا أسقفية الدراسات العليا ١٩٨٥ ص ١٠٧

151 كامل صالح نخله المرجع السابق ص ٢٢٠

152 ذكرى مصلح عظيم (جرجس فليوثاؤس عوض)

153 سلسلة تاريخ البابوات بطاركة الكرسى المرقسى الحلقة الخامسة (ص ٢٣٢) لكامل صالح نخلة

154 (كتاب ١٥ تاريخ ص ٣١٣ أ)

155 (خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر) كامل صالح نخله وفريد كامل.

الملاحق

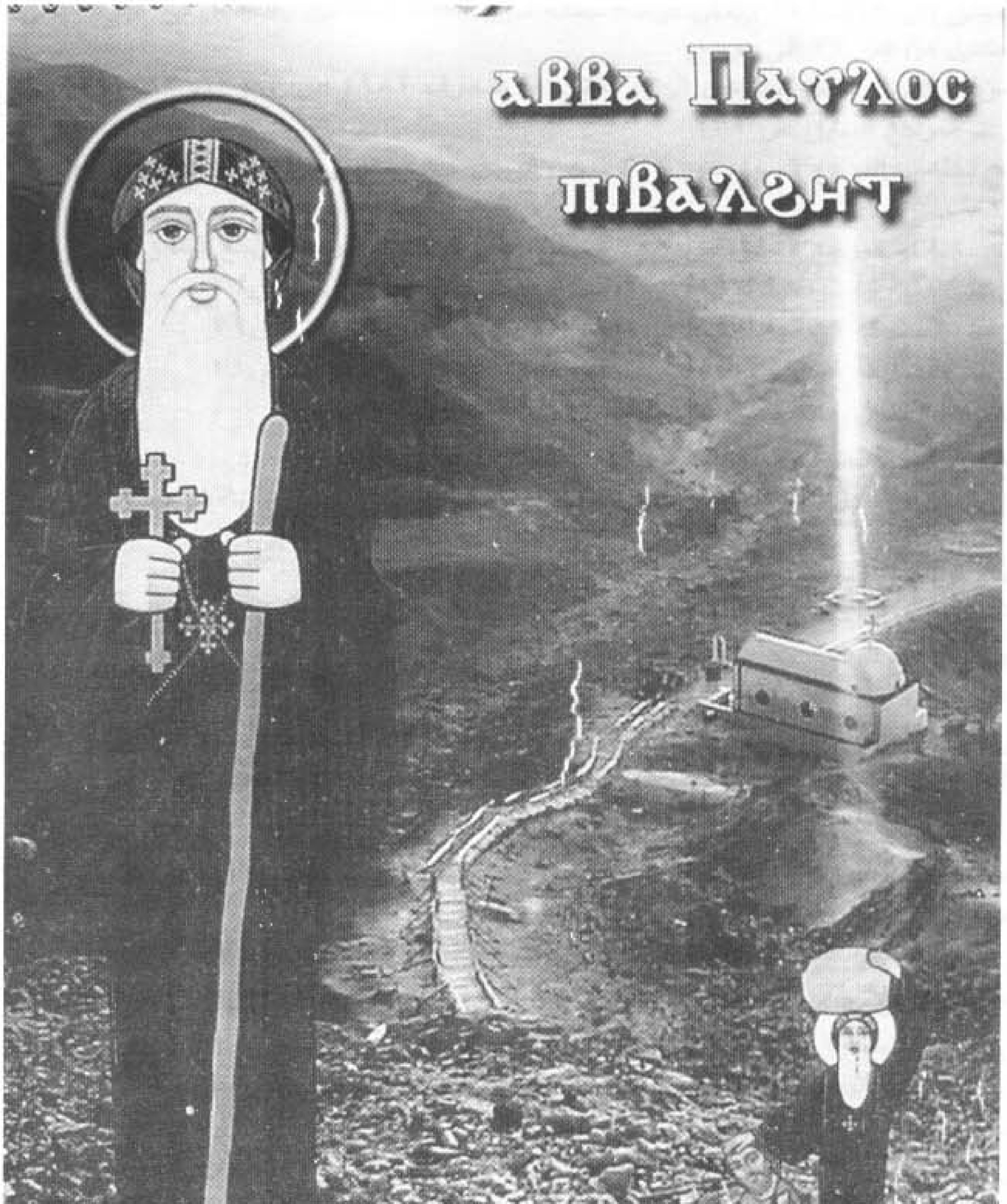
ⲁⲃⲃⲁ Ⲡⲁⲩⲗⲟⲥ
ⲡⲓⲃⲁⲗϩⲏⲧ
الانبا بولس البسيط
عيد تدشين كنيسته ١٨ أمشير

ملحق رقم (١)
ملخص وقائع الغزو العربي لمصر

سنة ٦٣٨م:

بعد تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب، قابله عمرو بن العاص وأعاد عليه الإلحاح في طلب فتح مصر، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة، وقال له إنه ليس في البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها غنى وثروة،... وأن مصر تكون قوة للمسلمين إذ هم ملكوها، وكان اجتماع القائد بالخليفة في(الجابية) قرب دمشق. **(بتلر ص٢٢٦)**

ديسمبر ٦٣٩م:

وافق الخليفة وهو متردد على سير عمرو بن العاص لمصر، سار عمرو في جيش صغير من أربعة آلاف جندي (٤٠٠٠) أكثرهم من قبيلة عك وإن كان الكندي يقول أن الثلث كانوا من قبيلة غافق، ويروي ابن دقماق أنه كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم وممن أسلم من الفرس، وقد سماهم في كتابه، سار بهم من عند الحدود بين مصر وفلسطين حتى صار عند رفح وهي على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر، فأتت عند ذلك رسل (تحت المطي) تحمل رسالة من الخليفة، ففطن عمرو إلى ما فيها، وظن أن الخليفة لابد قد عاد إلى شكه في الأمر، خاشيا من الإقدام والمضي فيما عزم عليه. فلم يأخذ الرسالة من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذى ربما كان الحد الفاصل بين أرض مصر وفلسطين، وبلغ بسيره الوادي الصغير الذي عند العريش، وهناك أتى له بالكتاب فقرأه ثم سأل من حوله أنحن في مصر أم في الشام ؟ فقيل له نحن في مصر. فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال: إذن نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين، وكان الخليفة يأمره بالرجوع إذا كان بعد في فلسطين، فإذا كان قد دخل أرض مصر فليسر على بركة الله ووعده أن يدعوا الله له بالنصر وان يرسل له الإمداد. **(بتلر ص ٢٢٨ ــ ٢٣٠)**

يناير ٦٤٠م الاستيلاء على بلوز (الفرما):

وصل العرب إلى مدينة بلوز، واسمها بالقبطية (برمون)، ويسميها العرب (الفرما)، في نهاية سنة ٦٣٩م وكانت مدينة قوية بها حصون وبها كثير من الآثار المصرية والكنائس والأديرة. وكان لها مرفأ متصلا بالمدينة بخليج يجري من البحر، وكان فرع من النيل اسمه الفرع البلوزي يصل إلى البحر بقربها، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق. استمرت الحرب متقطعة بين العرب وبين حامية المدينة مدة شهر أو شهرين. واستولى العرب عليها بعد قتال عنيف، وهدموا الحصن، وأحرقوا السفن وخربوا الكنائس الباقية بها. **(بتلرــ ص٢٣٤ وكامل صالح ص٦٥)**

أوائل مايو ٦٤٠م غارة عمرو الأولى على الفيوم:
وكانت ثغور الفيوم ومداخلها قد حرست حراسة حسنة وأقام الروم ربيئة لهم في حجر اللاهون،.. فعدل العرب إلى جانب الصحراء وجعلوا يشتاقون ما لاقوا من النعم، فأخذوا منها عددا عظيما، وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة اسمها البهنسا ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال، ولم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم، وعادوا أدراجهم منحدرين مع النهر . **(بتلر ص٢٥٤ و ٢٥٥)**

٦ يونيو ٦٤٠م وصول الإمداد للعرب:
وصل الإمداد بقيادة الزبير بن العوام ابن عم النبي وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة، وكان معه أربعة آلاف رجل، ثم جاء في عقبه كتيبتان كل منهما أربعة آلاف رجل، فكان جميع ما جاء من الإمداد أثنى عشر ألفا. **(بتلر ص ٢٥٦)**

منتصف يوليو ٦٤٠ عين شمس وموقعة أم دنين:
تجمعت جيوش العرب عند هليوبوليس، وكانوا يسمونها عين شمس واسمها بالقبطية (أون)، وكانت معروفة بعظمة آثارها، ومركزها العلمي، ومما يذكر أن أفلاطون كان يتلقى فيها العلم. **(بتلر ص٢٥٨)**
وأعد العرب كمينين لجيش الروم، وأمروهما عمرو أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته إذا ما سنحت لهما الفرصة، وحدثت المعركة في الموضع الذي يسمى اليوم (العباسية). واستولى العرب بعد انتصارهم هذا على حصن أم دنين (بين عابدين والأزبكية الآن)، وهرب من كان فيه من الروم إلى حصن بابليون أو إلى حصن نقيوس . **(بتلر ص٢٦٣)**

أواخر يوليو ٦٤٠م الاستيلاء على الفيوم:
لما بلغت أنباء نصر العرب إلى الفيوم غادرها من بها من المسالح، فخرج (دومنتيانوس) من المدينة، في الليل وسار إلى (أبويط) ثم هرب إلى نقيوس، ولما بلغ نبأ هروبه إلى عمرو بن العاص، بعث كتيبة من جنده عبروا النهر وفتحوا مدينتي الفيوم وأبويط وأحدثوا في أهلها مقتلة عظيمة. **(بتلر ص٢٦٤)**

أوائل سبتمبر ٦٤٠م بدء حصار حصن بابليون (مدة الحصار كانت ٧ أشهر):
وكان حصنا عظيما، أسواره بارتفاع نحو ستين قدما وسمكها ثمانية عشر قدما، وبه أربعة أبراج بارزة بينها مسافات غير متساوية، وكان ماء النيل يجري تحت أسواره والسفن ترسوا تحتها، وكان به صرحان عظيمان، وكل صرح من هذين الصرحين، دائريا يبلغ قطره نحو مائة قدم، وكان الصاعد إلى أعلى الصروح يشرف على منظر عظيم يبلغ مداه المقطم من الشرق وإلى الجيزة والأهرام وصحراء لوبيا

من الغرب، وإلى قطع كبيرة من نهر النيل من الشمال والجنوب، وكان الناظر من هناك لا يقف شئ دون بصره حتى يبلغ مدينة عين شمس. **(بتلر ص ٢٧٠)**
وكانت جزيرة الروضة كذلك ذات حصون مانعة في ذلك الوقت، وكانت تزيد من قوة حصن بابليون وخطره الحربي، بأنها في وسط النهر تملك زمامه.ويظهر من قول بن دقماق أن العرب غزوا تلك الجزيرة في أثناء حصارهم لحصن بابليون، فلما خرج الروم من هناك هدم عمرو بعض أسوارها وحصونها. **(بتلر ص٢٧٢)**

أكتوبر ٦٤٠م معاهدة بابليون الأولى لتسليم الحصن:

خرج قيرس المقوقس سرا من حصن بابليون وذهب إلى جزيرة الروضة لمفاوضة العرب، وأرسل من هناك رسلا إلى عمرو بن العاص، ورد عمرو على المقوقس بقوله: **ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال:ـ**

1 ـ إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا.
٢ـ وإن أبيتم، فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون.
٣ـ وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال، حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين.

وقد كرر عبادة بن الصامت، المتكلم باسم العرب، كرر هذه الشروط للمقوقس عدة مرات. وانتهت هذه المقابلة باختلاف الآراء وعاد العرب إلى الحرب، ولكن الدائرة كانت على الروم، فجعلتهم يفكرون في العودة إلى المفاوضة.
عادت المفاوضات مرة أخرى، وكانت الخصلة التي أختارها الروم، هي الجزية والإذعان، فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الإمبراطور، فإذا أقره نفذ. وعندما وصلت أخبار هذه المعاهدة إلى هرقل أرسل إلى المقوقس يأمره أن يأتي إليه على عجل. **(بتلر ص ٢٨٤)**

منتصف نوفمبر ٦٤٠م هرقل يستدعي المقوقس إلى القسطنطينية:

وصل المقوقس إلى القسطنطينية، بعد أن استدعاه الإمبراطور هرقل، وحاول أن يدافع عن نفسه أمام الإمبراطور بكلام لم يقتنع به هرقل، وغضب عليه واتهمه بأنه خان الدولة وتخلى عنها للعرب، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه إلى حاكم المدينة، فشهر به وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريدا. وكان المقوقس يرى أن العرب هم قوم الموت. **(بتلر ص٢٩١)**
وأن الله أخرجهم لخراب الأرض. **(بتلر ص٢٨٦)**

قرب نهاية عام ٦٤٠:

بعد رفض هرقل لمعاهدة المقوقس، عاد القتال بين العرب والروم حول الحصن (حصن بابليون)، إلى أن وصلت الأخبار بموت هرقل.

١١ فبراير ٦٤١م موت هرقل:

توفى هرقل بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة، وكان عمره ٦٦ عاما، وكانت وفاته قبل فتح حصن بابليون بشهرين تقريبا، وبعد وفاته، تولى الأمر بعده، بعهد منه، ولداه قسطنطين ابن زوجته أدوقيه، وهرقل (هرقلوناس) ابن زوجته الأخرى مرتينه.

إبريل ٦٤١م تسليم حصن بابليون للعرب:

كان لموت هرقل أثره السيئ على جنود الحصن، وبعد محاولة العرب تسلق أسوار الحصن، عرض قائده (جورج) أن يسلم الحصن للعرب على أن يأمن كل من كان هناك من الجنود على أنفسهم، فقبل عمرو منهم الصلح، وكتب عهد الصلح (بين جورج وعمرو) على أن يخرج الجند من الحصن في ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، أما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذها العرب، ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزاء، وكانت مدة الحصار سبعة أشهر. **(بتلرص٢٩٩)**

١٣ مايو ٦٤١م استيلاء العرب على نقيوس وما حولها:

مدينة نقيوس، كائنة على فرع رشيد في الشمال الغربي من منوف (قرية ابشادي وزاوية رزين الآن)، وكانت مدينة عظيمة حصينة حافلة بالآثار المصرية، وكانت مركزا لأسقفية كبيرة، وأشهر أساقفتها يوحنا النقيوسي، الذى عاصر الفتح العربي وكتب تاريخه المشهور. **(كامل صالح ص٨٧)**

استطاع العرب أن يقتحموا الحصن والمدينة، بعد هروب قائد حاميتها الروماني (دومنتيانوس)، الذي لاذ بالفرار إلى الإسكندرية، ودخلوا المدينة وأوقعوا بأهلها وقعة عظيمة، قال يوحنا النيقوسي: "فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها، ولم ينج من دخل الكنائس لائذا، ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا)، وجدوا بها (اسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة إلى القائد (تيودور) وكان مختبئا في حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم".

ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان، فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس في يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) في السنة الخامسة عشرة من سني الدورة .ويقع ذلك التاريخ في اليوم الثالث عشر من شهر مايو ٦٤١م.

ويقول بتلر ص٣١١ و ٣١٢ : "وقد أثبتنا هنا نص قول الأسقف القبطي لأنه يدل على ما كان عليه القبط من قلة حب للعرب الفاتحين، ولكي نظهر أنهم ما كان لهم أن يحبوهم، وقد كان منهم ما كان. وقد كانت نقيوس معقلا من معاقل الدين القبطي، ولا

شك أن الناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها في قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس، وكان العرب في وقعتهم لم يفرقوا بين قبطي ورومي. وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر في معاملة العرب. . . وكان العرب ينظرون إلى كلا الحزبين نظرة الازدراء، ولا يأمنون لأيهما ولا يتعاهدون مع أحد منهما. وفي طريقهم إلى نقيوس، مر العرب بمدينة قديمة معروفة باسم طرنوتي، أو كما يسميها العرب الطرانة، وحدثت هناك موقعة انهزم فيها الروم، وواصل عمرو سيره إلى نقيوس. **(بتلر ص ٣١٠)**

وفي مواصلة طريقهم إلى نقيوس، مر العرب بقرية صغيرة على الجانب الغربي للنيل تعرف اليوم بخربة وردان، ويذكر بتلر فى هامش ص٣٠٩ نقلا عن المقريزي قصة هذه القرية فيقول: وكان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التي تعرف اليوم بخربة وردان، واختلف علينا السبب الذي خربت لأجله. فحدثنا سعيد بن عفير أن عمر لما توجه إلى نقيوس عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فأختطفه أهل الخربة فغيبوه، ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه فى بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها، وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو، ووجه إليهم وردان فقتلهم وخربها، فهي خراب إلى اليوم.

وبعد مذبحة نقيوس والاستيلاء عليها، واصل العرب سيرهم إلى مدينة كريون وهي آخر سلسلة من الحصون بين حصن بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، سوى ما كان لها من خطر عظيم في الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التي عليها جل اعتماد الإسكندرية في طعامها وشرابها، ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا حصن نقيوس. وحدث هناك قتال عنيف، ولم تكن تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير كريون، بل كان قتالا شديدا استمر بضعة عشر يوما.

ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصرا لإحدى الطائفتين، بل تساوت فيها الكفتان، ولكن مؤرخي العرب يقولون إنها كانت نصرا عظيما للمسلمين.وبفتح العرب لكريون، خلا أمامهم الطريق إلى الإسكندرية، وكان عدد جيش عمرو عشرين ألفا غيرالحاميات التي تركها في بابليون ونقيوس وغيرها. **(بتلر ص ٣١٦ و٣١٧)**

٢٥ مايو ٦٤١م موت قسطنطين ابن هرقل:

بعد موت هرقل في ١١ فبراير ٦٤١م، كان قد تولى الملك بعده ولداه، وهما: قسطنطين، ابنه من زوجته أدوقية، وهرقلوناس (هرقل) إبنه من زوجته الثانية مرتينة.

وكان قسطنطين قد قام بإعداد العدة وتجهيز الجيش والسفن اللازمة لإرسالها إلى مصر، وما كاد كل ذلك يعد، حتى مرض ومات في ٢٥ مايو ٦٤١م، بعد أن حكم

مائة يوم فقط. وبموته، آل الحكم كله إلى أخيه هرقلوناس، الذى سار على عكس نهج أخوه قسطنطين، وأعد العدة لإرجاع المقوقس إلى مصر، وأباح له أن يصالح العرب.

آخر يونيو ٦٤١م الهجوم على الإسكندرية:

سار عمرو بن العاص بجيشه متجها إلى الإسكندرية من ناحية الجنوب الشرقي للمدينة، وكانت الإسكندرية، كما يصفها بتلر ص٣١٧، ذات عظمة بارعة نادرة تتجلى لمن يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرباضها. فقد كانت الإسكندرية حتى القرن السابع أجمل مدائن العالم وأبهتها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئا يعدلها، اللهم إلا روما وقرطاجنة القديمتين.

وكانت الأسوار منيعة تحميها آلات المجانيق القوية، ولم تكن للعرب خبرة في فنون الحصار وحربه، وعندما حمل عمرو بن العاص بجيشه أول مقدمه على أسوار المدينة، كانت حملة طائشة غير موفقة، فرمت مجانيق الروم من فوق الأسوار على جنده وابلا من الحجارة العظيمة، فارتدوا باعدين عن مدى رميها، ولم يجرؤا بعد ذلك على أن يتعرضوا لقذائفها، وقنع المسلمون أن يجعلوا عسكرهم بعيدا عن منالها، وانتظروا أن يتجرأ عدوهم ويحمله التهور على الخروج إليهم.

ولم يكن ثمة حصار للإسكندرية بالمعنى الصحيح، فقد كان البحر يحمي المدينة من جهة الشمال، وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب، وكان إلى الغرب ترعة (الثعبان)، فلم يبق من فرج إلا شرقها وجنوبها الشرقي، ولم يستطع المحاصرون أن يقتربوا من الأسوار من ذلك الفرج، وقد تأكد عمرو أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم.

وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية، فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء الأسوار فيئا للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة، وهدموا كثيرا منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك في سفن بالنيل إلى حصن بابليون كي يقيموا به جسرا ليعبروا عليه إلى مدينة لم يستطيعوا من قبل أن يعبروا إليها. **(بتلر ص٣٢١)**

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيو، ولم يكن عمرو بالرجل الذي يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعته فتحها عنوة، فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقا من شئ واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدو وناجزهم القتال، صبروا وثبتوا وغلبوه. وعلى ذلك عول على أن يخلف في معسكره جيشا كافيا للرباط، وأن يسير هو مع من بقي من الجنود، فيضرب بهم في بلاد مصر السفلى (مدن الدلتا). **(بتلر ص ٣٢٠)**

سار عمرو بن العاص بمجموعة من جنوده إلى(كريون) ومن ثم إلى (دمنهور) ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذي يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخا) وكان ذلك الموضع إلى شمال المدينة الحديثة (طنطا) على نحو أثنى عشر ميلا منها، وهو قصبة الإقليم، وكان موضعا حصينا، ولم يفلح عمرو في تحقيق ما كان يريده من

النزول على تلك المدينة بغتة وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه. فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهي على نحو ستة أميال في الشمال الغربي من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا إلى (دمسيس)، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم يستطيعوا فتحهما، ولم يجد أهليهما مشقة في صد العرب.

ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التي على فرع النيل الشرقي، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة (دمياط)، ولعل تلك الغزوة كانت على يد سرية عمرو في هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن في مصر السفلى.

ولنذكر أن العرب قضوا في عملهم في هذا الإقليم أثنى عشر شهرا إلى ذلك الوقت. وبعد ذلك الغزوات التي أوقع فيها عمرو بالبلاد وغنم منها عاد إلى حصن بابليون ومن معه دون أن يجني كبير فائدة.

وإن لنا لدلالة في غزواته تلك في مصر السفلى، وما لاقاه فيها من القتال في مواضع كثيرة، وعجزه في كل ما حاوله من الفتح في بلاد الشمال القصوى، فإن ذلك يزيدنا برهانا على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس : أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع ، وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه. **(بتلر ص ٣٢٢ و٣٢٣)**

١٤ سبتمبر ٦٤١م عودة قيرس المقوقس إلى مصر:

أعاد الإمبراطور الجديد هرقلوناس، أعاد المقوقس من منفاه إلى الإسكندرية، وأباح له أن يصالح العرب.

٨ نوفمبر ٦٤١م كتابة عقد تسليم الإسكندرية:

كان كبار الروم في الإسكندرية أحزابا وشيعا، تباعد بينهم الإحن ويغري بينهم التحاسد، وكان حرص كل من الحزبين، الأخضر والأزرق، على القتال فيما بينهم، أعظم من حرصهم على حرب العدو الرابض عند أبواب مدينتهم. **(بتلر ص٣٣)**

وأما ما كان يجول في قرارة نفس المقوقس من مختلف النزعات، فأمر لا يصل إليه الحدس ولا يبلغه التصور، فقد طمع في أن يثيبه المسلمون على مساعدته لهم بأن يبسطوا يده على الكنيسة القبطية في مصر، ويكون عند ذلك مالكا لأمر ليس أحد في القسطنطينية سلطان عليه، إذ كان قيرس المقوقس يريد أن يزيد في سلطانه الديني بالإسكندرية ويقيمه على أطلال الدولة بعد خرابها، ولسنا نجد رأيا آخر أكثر ملاءمة لما بدا منه، فهو خير رأي نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين عمرو من صلات خفية، وما قارفه من خيانة دولته الرومانية، فلنصفه بأنه خائنا للدولة في ما توهمه صلاحا للكنيسة. **(بتلر ص ٣٣١)**

وكان عمرو قد عاد إلى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد، أو على الأقل بلاد مصر الوسطى، كيما يستريح بأصحابه في أوان فيضان النيل، وفيما كان هناك في الحصن، وافاه المقوقس وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم، فرحب به عمرو وأكرم وفادته.

وكتب عقد الصلح (صلح تسليم الإسكندرية)، يوم ٨ نوفمبر ٦٤١م وأهم شروطه:

١ ــ أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

٢ ــ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهي في أول شهر بابه القبطي، الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢م.

٣ ــ أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعي لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم عن القتال.

٤ ــ أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل، على أن يدفع كل شهر جزاء معلومًا ما بقي في أرض مصر في رحلته.

٥ ــ أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردها.

٦ ــ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أى تدخل.

٧ ــ أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

٨ ــ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لإنفاذ العقد. **(بتلر ص ٣٤٣)**

أمضي عهد الصلح في بابليون في يوم الخميس ٨ نوفمبر ٦٤١م وكان لا بد من إقراره من إمبراطور الروم، كما كان لا بد له من إقرار خليفة المسلمين، عمر بن الخطاب، فأوفد عمرو بن العاص، معاوية بن حذيج الكندي، وأمره أن يحمل أنباء ما حدث إلى عمر بن الخطاب الخليفة في مكة، وكان في مدة الهدنة وهي إحدى عشر شهرا، متسع من الوقت يكفي لذلك وما يلزم من الرسوم ، ثم عاد قيرس المقوقس مسرعا إلى الإسكندرية يحمل معه كتاب الصلح.

أرسلت الرسائل إلى الإمبراطور هرقلوناس تفضي إليه بشروط الصلح، وطلب منه المقوقس أن يقرها. ثم دعا المقوقس كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، وأخذ يسهب في ذكر الضرورة التي استوجبت عقده، وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكن كان فوزا ما أشأمه.

(بتلر ص ٣٥٣)

ويقول بتلر، ص ٣٥٨ :" فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذي عقده قيرس لم تكن ثمة ضرورة في الحرب تدعوا إليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه، لا يمر بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة وكانت الإسكندرية تطيق الصبر على الحصار مدة سنتين أو ثلاثة، ريثما يلي الأمر حاكم صلب القناة، فإذا ما كان ذلك، لم يكن من المستبعد أن تعود مصر إلى الروم، ... ولكن قيرس المقوقس أسلمها للعدو خفية وعفوا بغير أن تدعوه إلى ذلك ضرورة. وإنا لا نكاد

نعرف في تاريخ الإسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها". وقد خابت آمال أهل الإسكندرية، بعد ذلك، بهذا الفتح خيبة ما كان أمرها.

١٠ ديسمبر ٦٤١م أداء القسط الأول من جزية الإسكندرية للعرب:

ما كان المقوقس يستطيع أن يبقي خطته في ستر الخفاء بعد ذلك طويلا، فقد علم أهل الإسكندرية بالأمر بغتة، وقد فاجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة، وما كان أشد عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدو لم يأت ليقاتلهم، بل أتى ليحمل الجزية التي اتفق عليها قيرس المقوقس في عقد الصلح الذي طلبه وكتبه معهم على تسليم المدينة، فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا، وذهبوا غير مصدقين حتى أتوا قصر البطريق، وكان الخطر في تلك اللحظة محدقا بحياته، إذ تهافت الناس يريدون أن يحصبوه.

ولكنه استطاع بما أوتي من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته، وتهوين خيانته، في مقالته التي قالها بين الناس، وجعل يبرر ما كان منه قائلا: إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه، وما قصد غلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم، وأن الصلح حقن دمائهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم، ومن أراد أن يعيش في ارض مسيحية كان له الخيار في ترك الإسكندرية، وما كان أمر الخيار بين الهجرة من الإسكندرية وبين الإذعان للمسلمين بالأمر الهين، فلم يتمالك البطريرك معه، بل بكى، وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه إنما بذل جهده في أمرهم، وأن عليهم أن يرضوا بالصلح.

بهذا استطاع قيرس المقوقس مرة أخرى أن يفوز برأيه المشؤم، وأخذ الناس يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم، ووضعوا المال في سفينة خرجت من الباب الجنوبي الذي تدخل منه الترعة، وذهب به المقوقس بنفسه، ليحمله إلى قائد المسلمين.

(بتلر ص ٣٥٤)

٢١ مارس ٦٤٢م موت قيرس المقوقس:

في أواخر أيامه استولى عليه الهم وغرق في الحزن، واجتمعت عليه المخاوف، ففي القسطنطينية بويع لقسطانز وحده بالملك في آخر نوفمبر ٦٤١م، وأبعد جميع أصدقاء المقوقس، وأعيد إلى السلطة من كان عدوا شديد العداوة له. وخشي أن يأمر الإمبراطور الجديد بنفيه أو بقتله.

ورأى أن الناس قد أنكروا سياسته للدين إنكارا لا أمل معه في عودة الرضى عنه، ورأى سياسته في أمور الدنيا وقد أصابها العار.

وكان أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته في أمر عودة الأقباط الذين كانوا قد لجأو إلى الإسكندرية، عودتهم إلى قراهم وإلى منازلهم. وذكر ما قارفه من الذنوب وما أصابه من الفشل والخذلان، وكان قلبه يؤنبه، وندم على تفريطه في أمر مصر، وبكى على تضييعه لها.

وظلت الأقدار تغمره والهموم تحيط به حتى أصابه داء (الدوسنطاريا) في يوم أحد السعف، ومات منه في يوم الخميس الذي بعده في ٢١ مارس ٦٤٢م.
(بتلر ص ٣٨٠ و ٣٨١)

يوليو ٦٤٢م القتال للاستيلاء على مدن شمال الدلتا:

قاومت مدن شمال الدلتا، مثل: إخنا ، رشيد ، البرلس ، دمياط ، خيس ، بلهيب ، سخا ، سلطيس ، فرطسا ، تنيس ، شطا ، وغيرها. قاومت الفتح العربي مقاومة شديدة.

ويذكر بتلر ص ٣٧٧: أن مقاومة المصريين للعرب استطال أمرها في بلاد مصر السفلى، وظلت إلى ما بعد فتح الإسكندرية، وإذا ذكر أن أهل تنيس وما يليها من البلاد الواقعة في إقليم تلك البحيرة، كانوا من القبط الخلص، تنبض قلوبهم بما تنبض به قلوب القبط، عرفنا أن وقوع تلك الوقعة في ذلك الوقت، دليل جديد على فساد رأيين طالما خدعا الناس وتقادم عليهما الدهر وهما يكفران الحقيقة، وهذان الرأيان هما : أن مصر سلمت للعرب بغير قتال، وأن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص مما كانوا فيه .

لقد كانت خيانة قيرس المقوقس للإسكندرية، سببا في القضاء على آخر آمال المسيحيين بالفوز في مصر، ولكن من العجب مع ذلك أن تدافع هذه البلاد المتفرقة في مصر السفلى، جيوش الغزاة العرب وتقاومهم نحو عام آخر. ففي هذه آية على أن أهلها كانوا قوما من أولى النخوة والحفاظ، بقوا على عهد دينهم وثبتوا عليه، ولكن التاريخ لم يجزهم بذلك ما يستحقونه من حسن الأحدوثة، بل لبث ينكر عليهم زمنا طويلا.

وكانت الإسكندرية قد ازدحمت بمن لجأ إليها من جميع أنحاء مصر، خوفا على أنفسهم من مداهمة العرب لمدنهم وقراهم، التي لم تكن بمثل حصانة الإسكندرية ومنعتها.

ولما عقدت معاهدة تسليم الإسكندرية بين المقوقس والعرب، كان من شروطها أن جنود الروم ومن حل بالإسكندرية من الرومان لهم الخيار إذا شاءوا جلوا عنها بحرا وبرا، وأما القبط فلم يذكروا فيه بشيء، فلما رأى اللاجئون بالإسكندرية أن السفن تحمل كل يوم طوائف من الناس إلى قبرص وردوس وبيزنطة، قلقوا وحنوا إلى الرجوع إلى قراهم، فذهبوا إلى المقوقس وطلبوا إليه أن يكلم لهم عمراً في ذلك، وكانوا يعرفون صلته الوثيقة بقائد العرب، ولكن الظاهر أن عمراً لم يبيح لهم الجلاء، ولا عجب في أن يخيب سعي البطريرك في هذا الأمر، إذا عرفنا أن طلبه هذا كان قبل شهر مارس، إذ كانت الحرب لا تزال ثائرة في بعض قرى مصر السفلى، وكان أكثر اللائذين من مصر السفلى، فلو أبيح لهم الرجوع إلى قراهم لما أمن أن يقاتلوا جنود المسلمين بأنفسهم، أو أن يمدوا المدائن التي كانت لا تزال مصرة على القتال ولم يفتحها المسلمون بعد.

غير أن قيرس آلمه ألا يجيبه عمرو إلى طلبه، وكان ألمه من ذلك شديداً، فقد كان يطمع أن يستميل إليه بعض القبط، ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى أن ينسيهم شيئا من حقدهم عليه، فكان هذا الرفض الذي رفضه عمرو لطلبه، ضربة شديدة أصابت سياسته في هذا الشأن. **(بتلر ص ٣٧٩)**

وأضيف هنا إلى كلام بتلر، بأن موقف عمرو بن العاص من الأقباط اللاجئين إلى الإسكندرية، ورفضه عودتهم إلى مدنهم وقراهم، خوفا من انضمامهم إلى محاربة العرب وقتال جنود المسلمين بأنفسهم، يؤكد لنا بوضوح، كذب وبطلان ادعاء ترحيب الأقباط بالعرب الفاتحين، لأنه لو كان هناك أدنى نوع من هذا الترحيب المزعوم من جهة الأقباط، لما رفض عمرو السماح لهم بالعودة إلى ديارهم.

١٧ سبتمبر ٦٤٢م جلاء الروم الأول عن الإسكندرية:

كان يقوم على ترحيل جنود الروم من الإسكندرية ومن بلاد مصر السفلى، اثنان من القادة، هما (تيودور) الذي أصبح حاكم مصر بعد موت المقوقس و(قسطنطين) الذي أصبح القائد الأعلى لجيش الروم بعد (تيودور).

وفي ١٧ سبتمبر ٦٤٢م : كانت حوالى مائة (١٠٠) سفينة من أسطول الروم تحل قلاعها وترفع مراسيها وتسير إلى قبرص بمن كان عليها من فلول الروم الذين كان يقدر عددهم بنحو ثلاثين ألف (٣٠ ألف) جندي، يحملون معهم متاعهم، ويرفرف عليهم الأسى.

٢٩ سبتمبر ٦٤٢م العرب يدخلون الإسكندرية لأول مرة:

بعد رحيل جنود الرومان، وانتهاء مدة الهدنة (أحد عشر شهرا)، التي حددتها معاهدة تسليم المدينة بين المقوقس وعمرو، فتحت أبواب الإسكندرية ليدخلها العرب لأول مرة.

شتاء ٦٤٢ ــ٦٤٣ غزوة عمرو الأولى (لبنتابوليس):

سار عمرو حتى بلغ (برقة)، والظاهر أنها سلمت للعرب صلحاً، على أن تدفع ١٣ ألف دينار جزية كل عام، **وجاء في شروط الصلح شرطان عجيبان:**

١ــ أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة.

٢ــ كان عليهم أن يحملوا الجزية إلى مصر،حتى لا يدخل جباة الجزية إلى بلادهم. **(بتلر ص٤٤٥)**

ثم سار عمرو إلى (طرابلس) وكانت أمنع حصوناً واعز جيشاً، وكانت بها مسلحة كبيرة من الروم، صبرت على الحصار بضعة أسابيع، ولكن لما لم يأتها أى إمداد من جهة البحر، وكاد جيشها يهلك من شدّة الجوع، وجهد القتال، وقعت المدينة في أيدي العرب، فأسرع الجنود الرومان إلى سفنهم، وهربوا منها عن طريق البحر.

وسار عمرو بعد ذلك مسرعا إلى (سبرة)، وطلع على المدينة بغتة، وهاجمها في أول الصباح، وأخذ الناس على غرة، وأخذ المدينة عنوة، وأعمل فيها النهب. ثم عاد بجيشه، ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدار كبير من الغنائم، إلى مصر، وعاد عمرو إلى حصن بابليون. **(بتلر ص ٤٤٦)**

خريف سنة ٦٤٤م عودة (ظهور) البابا بنيامين:

كتب عمرو بن العاص (وعد، أو عهد أمان) للبابا بنيامين، وكان البابا مختفياً في مكان مجهول لا يعلم به أحد، وكانت صورة هذا الوعد كما يلي: أينما كان بطريق القبط بنيامين، نعده الحماية والأمان، وعهد الله، فليأت البطريرك إلى ها هنا في أمان واطمئنان ليلي أمر ديانته ويرعى أهل ملته. **(بتلر ص ٤٥٥)**

وكانت مدة غياب البابا عن كرسيه ١٣ سنة، عشر سنين في عهد الرومان وحكم المقوقس، وثلاث سنوات في مدة حكم العرب.

ويذكر هنا بتلر ملاحظة هامة، ويقول في ص٤٥٧: "وإنه لمن الجدير بالالتفات أن هذا البطريق الطريد لم يحمّله على الخروج من اختفائه فتح المسلمين لمصر واستقرار أمرهم في البلاد، ولا خروج جيوش الروم عنها، وليس أدل من هذا على افتراء التاريخ على القبط، واتهامهم كذباً بأنهم ساعدوا العرب ورحبوا بهم ورأوا فيهم الخلاص، مع أنهم أعداء بلادهم. ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب لكان ذلك عن أمر بطريقهم أو رضائه، ولو رضي بنيامين بمثل هذه المساعدة وأقرها لما بقي في منفاه ثلاث سنوات بعد تمام النصر للعرب، ثم لا يعود بعد ذلك من مخبئه إلا بعهد وأمان لا شرط فيه.

ولو لم يكن في الحوادث دليل على كذب هذه المقولة غير هذا الحادث، لكان برهانا قوياً، وإن لم يكن برهاناً قاطعاً فهو حلقة نضمه إلى سلسلة ما لدينا من الأدلة، وقد أصبحت سلسلة لا يقوى على نقضها شئ.

أكتوبر ٦٤٤م عمرو بن الخطاب يولي عبد الله سعد بن أبي سرح جبآيا للخراج:

كانت العلاقة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص، علاقة متوترة وغير طيبة، وقد كرر ابن الخطاب إرسال خطابات شديدة اللهجة وغير ودية إلى ابن العاص، يؤنبه فيها بشدة، على تأخيره في إرسال الخراج، من الأموال والخيرات إلى دار الخلافة بمكة. ويقول ابن الخطاب في أحد خطاباته: "أما بعد فإني عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج ....

ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج ومن حسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو قوت المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام". **(بتلر ص٤٧٣)**

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسل محمد بن سلمة إلى مصر و أمره أن يجبي ما استطاع من المال فوق الجزية التي أرسلها عمرو بن العاص من قبل. ثم

أرسل بعد ذلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وولاه حكم الصعيد والفيوم، وجباية الخراج.

٧ نوفمبر ٦٤٤م مقتل الخليفة عمر بن الخطاب ودفنه:

كان من آخر ما أتاه عمر بن الخطاب في حياته، أن قلل من سلطان عمرو بن العاص، وذلك بأن ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، حكم الصعيد والفيوم، وجعل إليه جباية الخراج.

١٠ نوفمبر ٦٤٤م عثمان بن عفان يتولى الخلافة في مكة:

بويع عثمان بالخلافة في مكة بعد دفن عمر بثلاث ليال (كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي، صفحة ١٠٣).

ويذكر بتلر ص ٤٨١: أنه عندما تولى عثمان الخلافة، عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر تماما، وجمع ولايتها جميعها لعبد الله بن أبي سرح، وكان يقيم في مدينة (شطنوه) في إقليم الفيوم. وقد اختلفت الآراء في هذا الوالي الجديد لمصر، فيصفه الطبري بأنه لم يكن في وكلاء عثمان أسوأ من عبد الله والى مصر. وقد ولاه الخليفة عثمان قصدا، لكي يزيد في جباية الجزية، وقد جعل عبد الله بن أبي سرح، أول همه زيادة الضرائب على أهل الإسكندرية.

وخرج عمرو بن العاص من مصر بعد عزله، وسار إلى المدينة ناقما على عثمان. (تاريخ الخلفاء للسيوطي).

نهاية سنة ٦٤٥م ثورة الإسكندرية بقيادة (منويل):

بعث الإمبراطور قسطانز في القسطنطينية، بأسطول عظيم يتكون من حوالي ٣٠٠ سفينة محملة بالجنود بقيادة منويل للاستيلاء على الإسكندرية، وكان بالمدينة حوالي ألف جندي من العرب للدفاع عنها، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعا إلا نفراً قليلا منهم استطاعوا النجاة، وعادت بذلك الإسكندرية إلى ملك الروم، وكان عمرو عند ذلك في مكة معزولا، وقد أضاع الجنود الروم الوقت والفرص كعادتهم، فساروا في بلاد مصر السفلى، يغصبون الأموال والأطعمة من الناس.

آخر فصل الربيع ٦٤٤م عودة عمرو بن العاص، وموقعة نقيوس الثانية:

لما وصلت أنباء ثورة الإسكندرية، إلى مكة، أمر الخليفة عثمان بأن يعود عمرو بن العاص إلى قيادة جيش العرب في مصر، وكانت نقيوس وحصن بابليون، وغيرها، لا تزال في يد العرب.

ولم يكن من رأي عمرو أن يسرع في أمره، وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة، الذي كان عند ذلك قائد مسلحة حصن بابليون، إذ كان يرى أن التأخير ضار بالمسلمين، مصلح لأمر الروم، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدو قبل أن يأتيه

المدد، أو يثب أهل مصر جميعا وينقضوا على العرب. ولكن عمرو، كان يرى خلاف ذلك، فقال: ولا ولكن أدعهم حتى يسيروا إليّ فإنهم يصيبون من مروا به، فيخزي الله بعضهم ببعض. وإنه لمن الجدير بالذكر أن قواد العرب في هذا الوقت لم يميزوا بين قبطي ورومي، بل ظنوا أن الفئتين معاً فعمل على قتالهم.

وهذا يدل على أنه لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى توقع محبة القبط لهم، ولا حيادهم في قتال الروم. ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب عند أول مجيئهم إلى مصر ورأوا فيهم الخلاص، لركن قوّاد العرب في هذا الوقت إلى ولاء القبط ومحبتهم، ولتوقعوا منهم الود والمساعدة. **(بتلر ص ٤٨٦)**

وسار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس، وهناك لقيهم طلائع العرب، ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفا، ودارت معركة حامية بين الطرفين، انتهت بهزيمة جيش الروم، الذي انسحب إلى الإسكندرية، وأقفل الروم أبواب المدينة واستعدوا للحصار.

صيف سنة ٦٤٦م إعادة فتح العرب للإسكندرية:

كما يقول بتلر في ص ٣٥٧، : إنا لا نكاد نعرف في تاريخ الإسكندرية، أنها أخذت مرة عنوة، بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها. فقد قيل إنه كان في الإسكندرية، بواب اسمه (ابن بسامه)، سأل عمراً أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب، فأجابه عمرو على ذلك.ومهما يكن منّ الأمر، فقد أخذ العرب المدينة عنوة، ودخلوها يقتلون، ويغنمون، ويحرقون، حتى ذهب في الحريق كل ما كان باقياً على مقربة من الباب في الحي الشرقي، ومن ذلك كنيسة القديس مرقس، واستمر القتل حتى بلغ وسط المدينة، فأمرهم عمرو برفع أيديهم، وبنى مسجداً في الموضع الذى أمر فيه عمرو برفع السيف، وهو مسجد الرحمة. وقد لاذت طائفة من جند الروم بسفنهم، فهربوا في البحر، ولكن كثيرا منهم قتل في المدينة، وكان منويل من بين من قتل، وأخذ العرب النساء والذراري فجعلوهم فيئاً. **(بتلر ص ٤٨٨)**

وهدم عمرو الأسوار الشرقية حتى سواها بالأرض.وأخذ أسرى من الإسكندرية ومن البلاد المجاورة مثل بلهيب وخيس وسلطيس وقرطسا وسخا ، وبعث بهم إلى المدينة، ولكن الخليفة عثمان أعادهم إلى ذمة المسلمين على شرط الجزية.

وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية مقراً له، ولكن الخليفة عثمان لم يرض بذلك، كما أباها عليه الخليفة الذي قبله(عمر).ولم يبق عمرو في مصر بعد استقرار الأمر إلا شهراً واحداً، ثم خرج عنها لعبد الله بن سعد . **(بتلر ص ٤٩٧)**

خريف سنة ٦٤٦م استدعاء عمرو بن العاص إلى مكة:

عرض الخليفة عثمان بن عفان على عمرو ابن العاص أن يجعله قائد جند مصر، على أن يكون عبد الله بن سعد بن أبى سرح، حاكمها وعاملا على ولاية خراجها، ولكن عمرو بن العاص رفض، ورد قائلا: أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها،

وآخر يحلبها .ولكن الخليفة لم يبق عليه إذ قد فرغ من غرضه منه، وقضى به على ثورة مصر، وكان في حاجة عند ذلك إلى من يستخرج له الأموال من أهلها، فوجد طلبته في عبد الله بن أبي سرح، وخرج عمرو على ذلك من البلاد.(**بتلر ص ٥٠٠**)

أغسطس سنة ٦٥٨م تولية عمرو حاكما لمصر:

بعد مقتل عثمان، تولى الخلافة، علي بن أبي طالب، ولكن مبايعته للخلافة لم تكن بالإجماع، فثار نزاع دموي طويل، بين علي ومعاوية، انتهى بمقتل علي، وتنازل إبنه الحسن عن الخلافة لمعاوية.

وكان عمرو بن العاص موالياً لمعاوية في نزاعه مع علي، وجاء إلى مصر مناصراً له، فعينه معاوية بعد ذلك، واليا على مصر مكافأة له على مساعدته، ودفاعه عنه، ضد على بن أبي طالب. **(بتلر ص ٥٠٣)**

٣ يناير ٦٦٢م وفاة البابا بنيامين

٦ يناير ٦٦٤م موت عمرو ودفنه في سفح المقطم، ولكن قبره نسى مكانه.
(بتلر ص ٥٠٥)

ملحق رقم (٢)

هل رحب المصريون (الأقباط) بالغزو العربي لمصر ؟

لكي تكون الإجابة على هذا السؤال وغيره من الأسئلة المتصلة بهذا الموضوع إجابة كافية واضحة، أرى أنه لابد أن يتناول البحث والدراسة ثلاثة جوانب أساسية متصلة به وهي : ــ

١ــ الجانب التاريخي.

٢ــ الجانب التحليلي والمنطقي.

٣ــ الجانب الإيماني والعقائدي لدى الأقباط.

وربط هذه الجوانب الثلاثة ببعضها يمكن أن يفيد كثيرا في إجلاء الحقائق. ولكي تتكامل الصورة التاريخية الحقيقية وتتضح معالمها دون تزييف أو تمويه وبلا أقنعة أو حجاب لإخفائها، فأنه من الأهمية بمكان أن نستند إلى ثلاثة أنواع من المصادر التاريخية التى تناولت هذا الموضوع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وهذه المصادر التاريخية الثلاثة هي :ـ

١ــ مصادر إسلامية عربيه [شهد شاهد من أهلهم]

٢ــ مصادر قبطية [شهادة المجني عليهم]

٣ــ مصادر أجنبية [شهادة طرف محايد]

فالمصادر العربية الإسلامية في هذا الموضوع من أهمها:

كتابات المقريزى الملقب بشيخ مؤرخي مصر الإسلامية وعميد المؤرخين السالفين جميعا، من ابن الحكم إلى الجبرتي.

وكذلك مجموعة كتب أخرى هامة مثل كتاب تاريخ أديرة وادي النطرون للأمير عمر طوسون ــ طبع في القاهرة سنة ١٩٣٥.

وكتب الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ــ أستاذة التاريخ بكلية البنات ــ جامعة عين شمس ــ وكتب الدكتور ضياء الدين الريس، وغيرهم.

والمصادر القبطية لهذا الموضوع أهمها على الإطلاق: هو كتاب تاريخ يوحنا النقيوسى أسقف نقيوس ــ أبشاتي ــ بالمنوفية الآن، والذي عاصر مأساة الفتح العربي لمصر في القرن السابع الميلادي، وسجل مشاهداته لأحداثها الدامية. وقد كتب كتابه بلغته القبطية ثم ترجم فيما بعد إلى اللغة الحبشية والعربية، ولكن فُقدت النسخ القبطية والعربية وعثرت البعثة البريطانية إلى بلاد الحبشة على النسخة الحبشية، وتوجد الآن في المتحف البريطاني بلندن، ونسخه في المكتبة الأهلية بباريس، وقام المستشرق زوتنبرج بالترجمة من الحبشية إلى الفرنسية، ثم قام المؤرخ كامل صالح نخله بالترجمة من الفرنسية إلى العربية سنة ١٩٤٨.

ويقول الدكتور الفريد بتلر: "أنه لم يكن في الإمكان أن يكتب تاريخ الفتح العربي لمصر لولا العثور على هذه النسخة" **ـ بتلر صفحه ٣٠**
كذلك كتاب تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين، وكتاب الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة للأسقف ايسوذورس، وكتاب البابا بنيامين الأول والفتح العربي لمصر، للمؤرخ كامل صالح نخله وغيرهم.

والمصادر الأجنبية التي تناولت هذا الموضوع: أهمها كتاب فتح العرب لمصر تأليف الدكتور ألفريد بتلر، وتعريب محمد فريد أبو حديد بك، والناشر مكتبة مدبولي ـ القاهرة ١٩٩٠ ضمن سلسلة كتب صفحة من تاريخ مصر. وقد وصف المعرب في مقدمة الكتاب بأن المؤلف ألفريد بتلر رجل باحث لم يقصد من تأليفه كتابه إلا بيان الحقيقة ناصعة وأنه كان نزيها في بحثه، وأن المؤلف فضل التعرض لبعض مفتريات التاريخ كانت شائعة بين الناس يأخذونها تلقفا بغير تمحيص ـ وأنه تناول في بحثه مسألة طالما رددها المؤرخون وهي اتهام المصريين القبط بأنهم كانوا دائما يرحبون بالغزاة الأجانب وأظهر كذب ما إدعاه المغرضون من المؤرخين. (صفحة ٢٠)
ويقول المؤلف نفسه في مقدمته: " قد حاولنا كذلك أن نكتب بغير تحيز إلى جانب القبط أو العرب، كنا ممن يحملون لكلا الشعبين العربي والقبطي أكبر الإعجاب، على أننا لا يحملنا ذلك على الانحياز لأحدهم فما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق". (ص ٤٢،٤٣)

ويمكننا تلخيص أهم الحجج والأدلة التي يرددها الكُتاب العرب لتبرير ادعائهم بموضوع ترحيب الأقباط بالفتح العربي فيما يلي :
١ ـ لتخليصهم من ظلم الرومان.
٢ـ لما سمعوه ولمسوه في العرب من العدل والرحمة والسماحة وحسن المعاملة .
٣ـ قصة السبعون ألف ـ ٧٠٠٠٠ ـ راهب.
٤ـ ظهور البابا بنيامين.
٥ ـ دين الإسلام قريب من عقيدة الأقباط.
٦ـ العهود والشروط بين العرب والأقباط.
٧ـ إكرام العرب للأرمانوسه ابنة المقوقس.

هذه هي أهم الادعاءات والحجج التي يطلقها الكُتاب والمؤرخون العرب كدليل منهم على أن الأقباط قد رحبوا بالفتح العربي لمصر، وكما يقول بتلر: " إنها مسألة يحب المؤرخون العرب الخوض فيها رغم ما يقعون فيه من الخلط والاختلاف، ...وذلك لأن عهدنا بكُتاب العرب لا يحسنون تفهم التاريخ ولا يدركون نظامه ولا يعبأون بإحكام الصلة بين حوادثه، وإن أول من كتب تاريخ الفتح العربي من مؤرخي

العرب كتبه بعد نحو مائتي عام منه، لذلك لم يكن عجبا ذلك الخلط الذي وقع في الرواية والتشويه الذي أصابها". (صفحة ٣٤٥)

ولنناقش باختصار هذه النقاط من مختلف الجوانب التاريخية والمنطقية والعقائدية.

الادعاء الأول:رحب الأقباط بالعرب لتخليصهم من ظلم الرومان:

لقد كان الفاتحون العرب واضحين كل الوضوح، في هدفهم المعلن الصريح من مجيئهم إلى مصر فاتحين، ولم يذكر أحداً منهم موضوع أو قصة الإنقاذ هذه، لم يذكر هذا الادعاء إلا بعض الكتاب المحدثين، وكما تقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، في كتابها (عبد العزيز بن مروان)،سلسلة كتب أعلام العرب، تقول في صفحة ١٣٢ :
"أننا لا نجد في المراجع القديمة ما يشير إليه بعض المحدثين من أن الأقباط استنجدوا بعمر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم".
فلم يكن العرب هدفهم إنقاذ أحد أو مساعدة أحد.
وإذا كان الأقباط قد رحبوا بالعرب ليخلصوهم من ظلم الرومان، فلماذا لم يرحبوا بالمستعمرين الآخرين الذين جاؤا بعد العرب ليخلصوهم من ظلم العرب؟
الحقيقة أن الأقباط حرصوا بكل دقة وعناية على تنفيذ مبادئ وتعاليم كتابهم المقدس التي ترفض وتحذر وتحرم الالتجاء أو الاستعانة بإنسان مهما كانت مكانته ليخلصهم من إنسان آخر مهما كان ظلمه أو جبروته.
والتاريخ أصدق شاهد على ذلك، والمؤرخ بتلر وغيره يؤكدون أنه لم يرحب القبط بالفرس ليخلصوهم من الرومان، كما لم يرحبوا بالرومان ليخلصوهم من الفرس بعد ذلك ، كما لم يرحبوا بالعرب ليخلصوهم من الرومان، كما لم يرحبوا بأى فاتح أو مستعمر بعد ذلك ليخلصهم من العرب.
مثل موقف البابا خائيل الأول البابا (٤٦) (٧٢٨ ــ ٧٥٢م) من كرياكوس ملك النوبة المسيحي أيام عبد الملك بن مروان (٧٤١ م).
ومثل ما حدث مع البابا بطرس الجاولى [البابا١٠٩] (١٨٠٩ ــ١٨٥٢ م) أيام محمد علي باشا (١٨٠٩ ــ١٨٤٨م) والى مصر، عندما جاءه سفير دولة روسيا.

الادعاء الثاني: رحب الأقباط بالفتح العربي لما سمعوه ولمسوه في العرب من العدل والرحمة والسماحة وحسن المعاملة.

ولنعود هنا إلى التاريخ لنستعرض بعض الأحداث المؤلمة والأعمال الوحشية التي صاحبت الفتح العربي لمصر، والتي تنفي هذا الادعاء تماما.
ا ــ تخريب القرى وسبي أهلها وقتلهم.
يذكر أن عمرو حين توجه إلى الإسكندرية، خرب القرية التي تعرف اليوم بخربة وردان. واختلف علينا السبب الذي خربت له، فحدثنا سعيد بن عفير أن عمرو لما توجه إلى نقيوس لقتال الروم، عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح، فاختطفه أهل

الخربة فغيبوه، فتفقده عمر وسأل عنه وقفا أثره، فوجدوه في بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها.**كتاب الخطط للمقريزي ــ الجزء الأول(٨) صفحة ٣١٣**

ويذكر يوحنا النقيوسي في الفصل (١١٢) الثاني عشر بعد المائة استيلاء العرب على إقليم الفيوم وبويط فيقول :
" أن العرب استولوا على إقليم الفيوم وبويط وأحدثوا فيهما مذبحة هائلة".
وفي الفصل (١١٥) يذكر فتح أنصنا وبلاد الريف ونقيوس فيقول: " في زمن الصيف سار عمرو إلى سخا وطوخ دمسيس أملا في إخضاع المصريين قبل الفيضان ولكنه فشل، وكذا صدته دمياط حيث أراد أن يحرق ثمار المزارع وأخيرا عاد إلى جيوشه المقيمة في بابيلون مصر وأعطاهم الغنيمة التي أخذها من الأهالي الذين هاجروا إلى الإسكندرية بعد أن هدم منازلهم وبنى من الحديد والأخشاب التي جمعها من الهدم قنطرة توصل بين قلعة بابيلون ومدينة البحرين ثم أمر بحرق المدينة، وقد تنبه السكان إلى هذا الخطر فخلصوا أموالهم وتركوا مدينتهم، وقام المسلمون بحرقها، ولكن السكان عادوا إلى المدينة وأطفأوا الحريق، ووجه المسلمون حملتهم على مدن أخرى ونهبوا أموال سكانها وارتكبوا ضدهم أعمالا عنيفة .."

ويذكر يوحنا النقيوسي في الفصل (١١٨) الاستيلاء على نقيوس **(بعد هروب الجيش الروماني من المدينة)** فيقول: " أتى المسلمون بعد ذلك إلى نيقيوس واستولوا على المدينة ولم يجدوا فيها جنديا واحدا يقاومهم، فقتلوا كل من صادفهم في الشوارع وفي الكنائس، ثم توجهوا بعد ذلك إلى بلدان أخرى وأغاروا عليها وقتلوا كل من وجدوه فيها، وتقابلوا في مدينة صا باسكوتارس ورجاله الذين كانوا من عائلة القائد تيودور داخل سياج كرم فقتلوهم.
كل هذا يزيدنا برهانا على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس:

أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو أن تدافع.
وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه".
أليس ادعاء غريب أن التخريب يقابل بالترحيب والقتل والسبي والتدمير يقابل بالسرور والتقدير

٢ــــ نهب الكنوز والأموال ومصادرة الأملاك وفرض الإتاوات.
كما حدث لبطرس أيام عمرو بن العاص
وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي من قبط مصر، لأنه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، ويكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا وخمسين إردبا دنانير". **(المقريزي الجزء الأول(٤) صفحة (١٤٠).**

ويذكر يوحنا النقيوسي في الفصل (١١٣) احتلال العرب لأتريب ومنوف: " أن عمر قبض على القضاة الرومانيين وقيد أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأطواق الخشبية، ونهب أموالا كثيرة وضاعف ضريبة المال على الفلاحين وأجبرهم على تقديم علف الخيول، وقام بأعمال فظيعة عديدة...

وحدث الرعب في كل المدن المصرية وأخذ الأهالي في الهرب إلى مدينة الإسكندرية تاركين أملاكهم وأموالهم وحيواناتهم. وانضم إلى الغزاة الكثيرون من سكان مصر الأجانب الذين أتوا من الأقطار المجاورة واعتنقوا دينهم، ودخل الغزاة المدن واستولوا على أموال كل المصريين الذين هربوا".

وفي الفصل (١٢١) يقول يوحنا النقيوسي: "ويستحيل على الإنسان أن يصف حزن وأوجاع المدينة بأكملها فكان الأهالي يقدمون أولادهم بدلا من المبالغ الضخمة المطلوب منهم دفعها شهرياً، ولم يوجد من يقوم بمساعدتهم، وقد تركهم الله ودفعهم إلى أيدي أعدائهم".

وتحت عنوان (ذكر خليج مصر) يقول المقريزي: " قال ابن عبد الحكم، ذكر حفر خليج أمير المؤمنين رضي الله عنه: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال: إن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة الرمادة، فكتب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: (من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاصي بن العاص ... سلام. أما بعد، فلعمري يا عمر ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه ....) فكتب إليه عمرو: (من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين. أما بعد، فيالبيك ثم يالبيك، قد بعثت إليك بعيرا أولها عندك وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته). فبعث إليه بعير عظيمة. فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر، يتبع بعضها بعضا. فلما قدمت على عمر رضي الله عنه، وسع بها على الناس، ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام، ويتغذوا بلحمه، ويحتذوا بجلده، وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره. فوسع الله بذلك على الناس". **(المقريزي الجزء الثالث (٣٠) صفحة (٥٤٣)**

٣ــ مرارة الإذلال وقسوة الإهانات التي تعرض لها الأقباط:
وهذا واضح من الحوادث التى ذكرناها عند الغزو العربى لمصر.
كما يدعم هذه الحقيقة أن الخلفية الفكرية والعقائدية وراء هذا الموضوع هو نص الآية ٢٩ من سورة التوبة ٩: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية

عن يد وهم صاغرون". وكلمة صاغرون، نجدها في قواميس ومعاجم اللغة العربية بمعنى أذلاء.

فغير المسلم فى ظل الإسلام لابد أن يذل، وهذا ما فرضه عمرو بن العاص على المصريين، وأمرهم أن يختاروا واحدة من ثلاثة خصال، أعلنها لهم وكررها وشدد عليها وهي: إما الإسلام أو دفع الجزية عن يد وهم صاغرون وإما السيف.

كرر المقريزي ذكر هذه الخصال في الجزء الأول (١٤) ثلاث مرات صفحات ٥٤٤ و ٥٤٥ و ٥٤٧. ويؤكدها د.ألفريد بتلر ص ٢٨٤ .

الادعاء الثالث:قصة السبعون ألف راهب (٧٠٠٠٠)

قصة السبعون ألف راهب الذين خرجوا من وادي النطرون، وبيد كل واحد منهم عكاز، وإلتقوا مع عمرو بن العاص خلال رجوعه من الإسكندرية يطلبون أمانة لهم على أنفسهم وأديرتهم.

هذه القصة وهمية، وهناك أشياء أساسية كثيرة تنفي هذه القصة تماما وتهدمها من أساسها، منها:

١ ــ عدد الرهبان في وادي النطرون في ذلك الوقت لم يكن يصل ولا حتى إلى واحد إلى عشرون (١/٢٠) من رقم السبعون ألفا المذكورة .

ولنقرأ في كتاب وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة، للأمير عمر طوسون، صفحة ٤٠ ما يلي:

"وعدد السبعين ألف راهب الذي ذكره المقريزي في عبارته الآنفة لا ريب في أن فيه مبالغة كبيرة، فقد روى المعاصرون كما سبق ذكر ذلك أنه لم يكن يوجد في هذه المنطقة أكثر ٣٥٠٠ راهب في أواسط القرن السادس الميلادي. وأنه لما كان دميانوس بطريركا أغار البربر على وادى النطرون ففر منه رهبانه، وأنه لما زاره بعد ذلك البطريرك بنيامين حوالى سنة ٦٣٠م، أى قبل الفتح العربي بعشرة أعوام، وجد به عددا قليلا من الرهبان بسبب العوائق التي كانوا يلاقونها من البربر في سبيل تجمعهم من جديد، بل يؤخذ من هذه الرواية أن عدد الثلاثة آلاف والخمسمائة راهب الذين وجدوا في أواسط القرن السادس الميلادي كان قد نقص كثيرا قبيل الفتح العربي".

ونضيف إلى ما قاله الأمير عمر طوسون، أن منطقة وادي النطرون أو برية شهيت أو برية الاسقيط، كانت قد تعرضت لعدة عمليات سطو ونهب وتخريب من جانب قبائل الصحراء (العربان) أو من جانب الفرس الذين احتلوا مصر من سنة ٦١٧ م إلى سنة ٦٢٨ م.

فيذكر كتاب البابا بنيامين الأول، للمؤرخ كامل صلح نخلة، ص ١٧: "لقد كانت حالة البلاد في اضطراب، ففي سنة ٥٨٣م قام في الغرب قبائل الصحراء الذين اغتصبوا مركز الأقاليم الليبية وغزوا مصر وتقدموا فيها حتى بلغوا شواطئ النيل بعد أن خربوا أديرة برية شهيت ووادي النطرون، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد بعد الموقعة التي شهرها عليهم القائد أرستوماك.

ثم أغار الفرس على مصر سنة ٦٢٧م دون أن يتمكن الإمبراطور من صدهم.. وكان الفرس أثناء الحصار (حصار الإسكندرية) يوقعون بما حول المدينة من الريف ولا سيما ما فيه من الأديرة. وقد كان بأرض الإسكندرية نحو الستمائة من الأديرة لها حصون وأبراج، وقعت في أيدي الفرس وقتلوا من فيها من الرجال ونهبوا ما فيها من الأموال والذخائر وهدموا الكنائس والأبنية واستولوا على الكنوز العلمية التي كانت تملأ خزائنها".كتاب كامل صالح نخله ص٢٠ و ابن المقفع كتاب ٦٣ تاريخ ص ٨٦
لذلك اضطر الرهبان الأقباط في وادي النطرون إلى اللجوء إلى الصعيد والاختفاء في الجبال، ولم يكن موجودا بأديرة وادي النطرون وقت الفتح العربي إلا أعدادا قليلة جدا من الرهبان. بل لقد كان البابا بنيامين الأول، هو نفسه أيضا متخفيا يتنقل سرا من مكان إلى آخر. وبعد أن تمكن الرومان من طرد الفرس من مصر سنة ٦٢٨م، وعودة الاحتلال الروماني لمصر مرة أخرى، تجددت الخلافات القديمة بينهم وبين الأقباط أصحاب البلاد الشرعيين، ولم يكن الخلاف في حقيقته خلافا مذهبيا كما يتوهم أو يزعم البعض، بل كان خلافا وطنيا سياسيا بالدرجة الأولى، ألبسوه ثوب الخلاف المذهبي شكليا ومظهريا. وأي باحث مدقق لما حدث في مجمع خلقيدونية سنة٤٥١م، لابد أن يصل إلى هذه النتيجة الهامة وهي أن ما حدث في هذا المجمع، لم يكن سوى خلافا في الألفاظ والتعبيرات، ولم يكن أبدا خلافا في جوهر الأمور العقائدية أو اللاهوتية.

٢ــــ **لم يكن من الممكن أن ينتظم سبعون ألف راهب في مسيرة هائلة** وبهذا الشكل الذي تصوره لنا هذه القصة الخيالية، دون أن يحصلوا على موافقة رئيسهم للقيام بهذه المسيرة، فكيف حصلوا على هذه الموافقة ؟ بينما تؤكد جميع المصادر أن البابا بنيامين لم يكن موجودا، لا في الإسكندرية ولا في وادي النطرون ولا في أي مكان آخر معروف، يمكّنه من سهولة الاتصال وسرعته، بهذا الحشد الهائل من الرهبان.

٣ــ **تذكر لنا هذه القصة الوهمية أن السبعون ألف راهب كان بيد كل واحد منهم عكاز**، ومن الواضح هنا أن مؤلف هذه القصة لا يعرف أن موضوع حمل العكاز بيد كل راهب، أمر يتنافى مع التقاليد الرهبانية المعروفة والمستقرة في الكنيسة القبطية، والتي لا تجيز حمل العكاز إلا للآباء الشيوخ فقط.

...لا شك أن هذه القصة هي إحدى القصص الخيالية الكثيرة التي ذكرها مؤرخو العرب.

الادعاء الرابع: ظهور البابا بنيامين بعد نداء عمرو بن العاص:

يذكرنا هذا الموقف بموقف سابق مشابه له تماما، بين البابا أندرونيكوس [البابا ٣٧] والملك خسرو ملك الفرس سنة ٦١٧م. وقد تساعدنا المقارنة الموضوعية بين الموقفين المتشابهين والمتقاربين زمنيا، على إجلاء وإظهار الحقيقة. فظهور البابا بنيامين بعد

الفتح العربي بثلاث سنوات، يشابه موقف سلفه البابا أندرونيكوس بعد الغزو الفارسي لمصر سنة ٦١٧م. وتشابه الأحداث والمواقف.

وثمة ملاحظة يمكننا إضافتها هنا وهي أن عمرو قام بعمل نداء إلى البابا بنيامين، وهذا يؤكد أن عمرو بن العاص لم يكن يعرف مكان اختفاء البابا بنيامين وأن جميع من كانوا مع عمرو أو على صلة به، لم يكونوا يعرفون ذلك أيضا، وإلا لكان يكفي أن يرسل عمرو مع أحدهم رسالة شخصية إلى البابا، وهذا واضح أيضا من صيغة أمر الأمان الذى أرسله، كما يوردها بتلر في الفصل ٢٧ ص٤٥٥:

الادعاء الخامس: دين الإسلام قريب من عقيدة الأقباط:

يقول الدكتور حسين مؤنس في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ــ العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ــ إصدار وزارة الثقافة ــ ص٣٦٨: "لم تكن العقيدة المسيحية إذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد.. وكان الرأي السائد عند زعماء الأقباط في السيد المسيح قريبا جدا من الإسلام..ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون منهم إلى الإسلام دون جهد كبير.."

وقد نقل هذه الفقرات عن حسين مؤنس، كاتب آخر يسمى حامد سليمان، نقل دون تفكير أو بحث أو دراسة أو أي دليل، وحتى دون أن يذكر صراحة و بوضوح المصدر الذي نقل عنه كل هذه المغالطات الساذجة المكشوفة، نقلها إلى كتابه الذي يسميه [من القبطية إلى الإسلام.(قصة فتح مصر] الناشر المكتب العربي للمعارف)

يقول حامد سليمان، ص ٧٦: "وكان الرأي السائد عند عامة الأقباط المصريين ورهبانهم الأطهار في ذلك الوقت، قريبا جدا من رأى الإسلام في السيد المسيح عليه السلام، ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون من المصريين إلى الإسلام دون جدل أو جهد كبير".

هذا الادعاء بعيد تماما عن الحقيقة كما هو مجاف تماما لأي منطق سليم.

كذلك لا يمكن أن يكون الأقباط وقت الفتح العربي لمصر ،قد عرفوا رأي الإسلام بوضوح ودقة، في السيد المسيح، للأسباب الآتية:

أولا: لم تكن هناك نسخة واحدة من المصحف متفق عليها بين جميع المسلمين .

ثانيا: كانت الكتابة العربية ذاتها، كتابة قاصرة جدا، ومعقدة، تختلط فيها الحروف بلا تمييز، وتتعدد احتمالات قراءة الكلمات.

ثالثا: أن اللغة العربية لم يكن لها وجود ملموس يذكر، بين المصريين، فلغتهم جميعا، هي اللغة المصرية (القبطية) لغتهم القومية التي كتبوا وتكلموا بها، وترجموا جميع كتبهم المقدسة إليها.

رابعا: القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم، الذي رفض ويرفض أصحابه، وحتى اليوم، ترجمته إلى أية لغة أخرى من لغات البشر. وجميع الترجمات الموجودة الآن غير معترف بها رسميا.

فكيف إذن أمكنهم قراءة المصحف؟، وأي مصحف ؟. ومعرفة رأي الإسلام بوضوح في السيد المسيح.

فمن المعروف أنه أيام الخليفة عمر بن الخطاب، أيام الفتح العربي لمصر، لم يكن هناك مصحف واحد متفق عليه، وإنما كان يوجد عشرات المصاحف، تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا، وكان صاحب كل مصحف يرى أن مصحفه

هو وحده المصحف الصحيح، وأن بقية المصاحف خطأ، وكان بعضهم يكفر البعض الآخر، وكاد أن يكون بينهم فتنة. **(السجستاني ص٢٨.)**

الإدعاء السادس: العهود والشروط التي فرضها الغزاة العرب على المصريين:

يقول الدكتور ا.س.ترتون في كتابه، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة الدكتور حسن حبشي، دار المعارف ــ ١٩٦٧م ــ ص١، تحت عنوان، عهد عمر: "جرت العادة أيام الخلفاء على فرض قيود معينة يلتزمها غير المسلمين في حياتهم العامة والخاصة، وتعتبر هذه القيود ثمنا يدفعونه لقاء تمتعهم بالعيش في دار الإسلام، ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل المعترف بها، وهي المسيحية واليهودية والمجوسية والسامرية والصائبة، ويعرف أتباع هذه النحل بأهل الذمة، والمعتقد أنه ورد في القرآن ما يؤيد هذه القيود في قوله تعالى: "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

وقد اشتمل العهد المعروف بعهد عمر بن الخطاب، على تلك الامتيازات المختلفة، ولهذا العهد صور متباينة.

وبعد أن يستعرض ترتون صور بعض هذه العهود المنسوبة إلى عمر، أو إلى قادة جيوش الفتح العربي في أيامه، يقول في صفحة ٧:

"بذلك ننتهي إلى خاتمة لا نستطيع منها فكاكا، هي أننا لا نعرف كيف كان عهد عمر، ولا نعرف أية مجموعة من معاهدات الصلح يمكن أن توسم باسمه، والظاهر أنه كان من التقاليد المرعية في مدارس الفقه وضع نماذج للعهود والمعاهدات، ومن أمثلتها العهد الوارد في كتاب [الأم] للشافعي، والذي ننقله كحقيقة بينة عن الحدود المفروضة على أهل الكتاب، إذ يرد فيه ــ بعد ما هو مألوف من ذكر اسم البلد المعاهد وأميره ــ قوله: لك ولهم وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم، وذلك أن يجري عليكم حكم الإسلام، ولا حكم خلافه بحال يلزمكم، ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه في شئ رأيناه نلزمكم به، وعلى أن أحدا منكم ان ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله عز وجل أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به فقد برئت منه ذمة أمير المؤمنين وذمة جميع المسلمين، ونقض ما أعطي عليه الأمان، وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال أهل الحرب ودماؤهم، وعلى أن أحدا من رجالهم أن أصاب مسلمة بزنا، أو قطع الطريق على مسلم، أو فتن مسلما عن

دينه، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال، أو بدلالة على عورة المسلمين وإيواء لعيونهم فقد نقض عهده، و أحل دمه وماله، وان نال مسلما بما دون هنا في ماله أو عرضه، أو نال به من مسلم فمنعه من كافر له عهد أو أمان لزمه فيه الحكم، وعلى أن نتتبع أفعالكم في كل ما جرى بينكم وبين المسلم، فما كان لا يحل لمسلم لكم فيه فعل رددناه وعاقبناكم عليه، وذلك أن تبيعوا مسلما بيعا حرا، ما عندكم من خمر أو لحم خنزير أو دم ميتة أو غيره، ونبطل البيع بينكم فيه، ونأخذ ثمنه منكم إن أعطاكموه، ولا نرده عليكم إن كان قائما، ونريقه إن كان خمرا أو دما، ونحرقه ان كان ميتة، وان استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئا ونعاقبكم عليه، وعلى ألا تسقوه أو تطعموه محرما، أو تزوجوه بشهود منكم أو بنكاح فاسد عندنا، وما بايعتم به كافرا منكم أو من غيركم لم نتتبعكم فيه ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به، وإذا أراد البائع منكم أو المبتاع نقض البيع وأتانا طالبا له فان كان منتقضا عندنا نقضناه، وان كان جائزا أجزناه، إلا أنه إذا قبض المبيع لم يرده لأنه بيع بين مشركين، ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر يحاكمكم أجريناكم على حكم الإسلام، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه. وإذا قتلتم مسلما أو معاهدا منكم أو من غيركم خطأ فالدية على عواتقكم كما تكون على عواتق المسلمين، وان قتل منكم رجل بلا قرابة فالدية عليه من ماله وإذا قتله عمدا فعليه القصاص، إلا أن تشاء ورثته دية فيأخذونها، ومن سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعه، إذا سرق ما يجب فيه القطع وغرم، ومن قذف وكان للمقذوف حد، حد له، وان لم يكن له حد عزر، حتى تكون أحكام الإسلام جارية عليكم بهذه المعاني فيما سمينا وما لم نسمى .

وعلى أن ليس لكم أن تظهروا الصليب في شئ من أمصار المسلمين، وألا تعلنوا بالشرك، ولا تبنوا كنيسة ولا موضع مجتمع لصلاتكم، ولا تضربوا بناقوس، ولا تظهروا لأحد من المسلمين قولكم بالشرك في عيسى بن مريم ولا في غيره.

وعليكم أن تلبسوا الزنانير من فوق جميع الثياب والأردية وغيرها حتى لا تخفي الزنانير، وتخالفوا المسلمين بسروجكم وركوبكم، وتباينوا قل أنسكم وقلانسهم بعلم تجعلونه بقلانسكم، وألا تأخذوا على المسلمين سروات الطريق ولا المجالس في الأسواق، وان يؤدي كل بالغ من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله جزية رأسه، دينارا مثقالا جيدا في رأس كل سنة، ولا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤديه أو يقيم به من يؤديه عنه، ومن افتقر منكم فجزيته عليه حتى تؤدى، وليس الفقر بدافع عنكم شيئا، ولا ناقض لذمتكم عما بها، فمتى وجدنا عندكم شيئا أخذتم به، ولا شئ عليكم في أموالكم سوى جزيتكم ما أقمتم في بلادكم واختلفتم بلاد المسلمين غير تجار، وليس لكم دخول مكة بحال ما، وان اختلفتم بتجارة ــ على أن تؤدوا من جميع تجارتكم العشر للمسلمين ــ فلكم دخول جميع بلاد المسلمين إلا مكة، والمقام بجميع بلاد المسلمين كما شئتم إلا الحجاز، فليس لكم المقام ببلد منها إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه، ومن نبت الشعر منكم تحت ثيابه أو احتلم أو استكمل خمس عشرة سنة قبل ذلك فهذه الشروط لازمة ان رضيها، وان لم يرضها فلا عقد له، ولا جزية على

أبنائكم الصغار ولا على صبي غير بالغ ولا على مغلوب على عقله ولا مملوك، فإذا أفاق المغلوب على عقله، وبلغ الصبي، وعتق المملوك منكم فدان دينكم فعليه مثل جزيتكم، والشرط عليكم وعلى من رضيه، ومن سخطه منكم نبذنا إليه، ولكم أن نمنعكم ــ وما يحل ملكه عندنا لكم ــ ممن أرادكم من مسلم أو غيره بظلم بما نمنع به أنفسنا وأموالنا ونحكم لكم فيه على ما جرى حكمنا عليه بما نحكم به في أموالنا، وما يلزم المحكوم في أنفسكم فليس علينا أن نمنع لكم شيئا ملكتموه محرما من دم ولا ميتة ولا خمر ولا خنزير، كما نمنع ما يحل ملكه، ولا نعرض لكم فيه إلا أنا لا ندعكم تظهرونه في أمصار المسلمين، فما ناله مسلم أو غيره لم نغرمه ثمنه لأنه محرم ولا ثمن لمحرم، ونزجره عن العرض لكم فيه، فان عاد أدب بغير غرامة في شئ منه، وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه عليكم، وإلا تغشوا مسلما، ولا تظاهروا عدوهم عليهم بقول ولا فعل، ولكم عهد الله وميثاقه وذمة فلان أمير المؤمنين وذمة المسلمين بالوفاء لكم، وعلى من بلغ من أبنائكم، ما عليكم بما أعطيناكم ما وفيتم بجميع ما شرطنا عليكم، فان غيرتم أو بدلتم فذمة الله ثم ذمة فلان أمير المؤمنين والمسلمين بريئة منكم، ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضية إذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنا فيه، ومن لم يرض نبذنا إليه.

ويعود ــ ترتون ــ إلى الحديث عن عهد عمر، مرة أخرى في الفصل الثالث من كتابه ــ أهل الذمة في الإسلام ــ ص ٣٥ ــ عند تناوله موضوع الكنائس والأديرة، فيقول: "اشترط عهد عمر على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئا، وألا يجددوا ما خرب منها وما تهدم، أو أن يعيدوا بناء البيع القائمة في نواح من المدن آهلة بالمسلمين...."

ويرجح أن عهد عمر المشار إليه ليس هو العهد الذي بين أيدينا حاليا، وهناك فكرة قد تكون قديمة نظرا لنسبتها لابن عباس وهي القائلة، ان كل مصر مصرته العرب فليس للذميين أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة، ولا يضربوا فيه بناقوس، وكل مصر مصرته العجم ففتحه الله على العرب فنزلوا على حكمهم فللعجم ما في عهدهم، وللعرب أن يوفوا لهم بذلك. **(كتاب الخراج ــ أبو يوسف ــ ص٨٨)**

أما بالنسبة إلى الشروط أو الخصال التى فرضها عمر، فيوضحها لنا الشيخ المقريزى في **كتاب الخطط الجزء الأول (١٤) ص٥٤٤ ــ ٥٤٧:**

هذه هي نماذج العهود أو القيود، إذا توخينا الدقة في التعبير، وتلك هي الخصال والشروط، فهل لأي قارئ للتاريخ أو دارس لتلك الوثائق، غير منحاز، أن يصفها بغير أنها عهود وشروط بين غالب متشامخ ومغلوب لا حول له ولا قوة، بين جبار يحمل السيف ومقهور لا يملك إلا أن يقبل صاغرا.

وإن أبعد شئ عن الحقيقة والمنطق، أن توصف بأنها بين منقذين متطوعين من جهة، ومستغيثين مرحبين من الجهة الأخرى، أو أنها عهود وشروط بين مجموعتين من الأصدقاء المتعاونين المتحابين.

إنها في الحقيقة عهود إذلال وشروط مهانة، إنها تعبير عن وضع شاذ بين طرفين، أحدهما يحمل السيف في يده، والطرف الآخر، وجد ذلك السيف ينهال بقسوة وعنف فوق رقبته، إنها كما يسميها البعض، حكم القوي على الضعيف.

الإدعاء السابع: إكرام العرب لأرمانوسة ابنة المقوقس:

يقول كتاب [من القبطية إلى الإسلام] لمؤلفه حامد سليمان، ص٤٤: أن عمرو بن العاص، كان قد عثر على أرمانوسه ابنة المقوقس في مدينة بلبيس، فأكرمها وبعث بها إلى أبيها معززة مكرمة، ... وأن عمرو أحب أن يجامل زعيم القبط (المقوقس)، بإكرام ابنته (أرمانوسه)، على ما أظهره القبط من الميل إلى الغزو العربي لإنقاذهم.

وفي صفحة رقم ٢٥، من نفس الكتاب، يقول المؤلف: "كان المقوقس هو الحاكم الملكي من قبل روما الذي يجمع بين السلطة المدنية كحاكم مصر والسلطة الدينية كبطريرك للكنيسة القبطية في مصر.."

وهذا هو سر أن بعض الكتب كانت تطلق عليه حاكم مصر، والبعض الآخر كان يطلق عليه كبير أقباط مصر، وفي الواقع أنه كان حاكما مدنيا لمصر.

أما بالنسبة للكنيسة القبطية فقد كان أحد الدخلاء على بطاركة هذه الكنيسة العتيدة والمفروض دينيا على أقباط مصر.. أما البطريرك الحقيقي في ذلك الوقت فكان الأنبا بنيامين وهو البطريرك رقم(٣٨) في تاريخ هذه الكنيسة القبطية.

وفي صفحة ٢٦ يقول: "كان المقوقس، مجرد حاكم لمصر، ولكنه كان البطريرك غير الشرعي لأقباط مصر ... أما الذي فرضه على شعب مصر فهو هرقل أحد أباطرة الرومان".

ولكن وفي نفس الصفحة يقول المؤلف، أن المقوقس هو جرجس بن مينا.وأنه مصري من أصل يوناني، من الذين استقر أجدادهم في الإسكندرية...ورغم يونانيته فقد كان الرجل يميل لأقباط مصر، ويرثي لحالهم.

وعاد هرقل بعد توطيد ملكه على المملكة الرومانية في الشام، حيث لاحظ أن القابض على أمور أقباط مصر هو المقوقس، فتركه يحكم واهتم بالسيطرة العسكرية على مدن مصر، ولكي يتقرب هرقل من المصريين كلف كيروس أحد أساقفة الرومان، بأن يقرب بين مذهب الكنيسة الرومانية والكنيسة المصرية. ولكن كيروس أساء إلى المصريين وفشل في مهمته، فهرب كثير من الأقباط من الإسكندرية بعد أن عاد الاضطهاد لرجال الكنيسة القبطية وعلى رأسهم البطريرك بنيامين. ولذلك انضم المقوقس الذي كان يميل للأقباط إلى قضية المصريين والكنيسة القبطية، وأصبح لديه استعداد للتفاهم مع أية قوة يمكن أن يخلص بها الأقباط من اضطهاد البيزنطيين.

ويعطينا مؤلف هذا الكلام، نموذجا لما يصف به الدكتور بتلر المؤرخون العرب، بأنهم لا يحسنون تفهم التاريخ، ولا يدركون نظامه، ولا يعبأون بأحكام الصلة بين حوادثه.

فمن هو المقوقس؟ حسب روايات السيد المؤلف حامد سليمان.

هل هو الحاكم الذي فرضه هرقل على الأقباط ؟ أم هو المخلص الذي يريد أن يخلص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين ؟.

هل هو البطريرك غير الشرعي المفروض على الأقباط ؟ أم هو ذلك الرجل الذي يميل لقضية الأقباط ويرثي لحالهم ؟.

هل كان أحد الدخلاء على بطاركة الكنيسة القبطية العتيدة، والمفروض دينيا على أقباط مصر ؟ أم كان ذلك الذي تأثر بالمذهب الذي كان يؤمن به الأقباط ؟.

هل هرقل هو الذي عينه وفرضه ؟ أم أن هرقل جاء فلاحظ أنه هو القابض على أمر الأقباط فتركه يحكم ؟.

وهل إكرام العرب لابنة هذا الرجل يمكن أن يعد مجاملة من العرب للأقباط؟

كلام عجيب متضارب لا أساس له ولا منطق.

والآن من هو هذا المقوقس إذن ؟

يقدم لنا، كامل صالح نخلة، عضو لجنة التاريخ القبطي، في كتابه عن، البابا بنيامين الأول، البطريرك الثامن والثلاثون، دراسة مستفيضة وشاملة حول هذا الموضوع، ص١٤٢ تحت عنوان، بحث تاريخي عن المقوقس. يقول:

"أطلق مؤرخو العرب والقبط أسم المقوقس على الوالي الذي كان له أعظم نصيب في حوادث الفتح العربي وكان العامل القوي على تسليم مصر إليهم".

واختلف العرب على حقيقة شخص المقوقس واسمه وجنسه، وخلطوا في ذلك بأن لقبوه بعظيم القبط، ودعوه باسم المقوقس جرجس بن مينا. ولم يكن المقوقس قبطيا كما توهم مؤرخو العرب ومن جاراهم من الغربيين، بل انه رومي الجنس وهو قيرش أسقف فاسيس بأرمينيا من بلاد القوقاس بآسيا. وقع اختيار الإمبراطور هرقل عليه لمهمة توحيد المذاهب الدينية المسيحية في مملكته وعلى الأخص في مصر وسائر المشرق، فعينه بطريركا ملكيا للكرسي السكندري بدل البطريرك جورج الملكي وولاه جباية الخراج في الوقت ذاته، وأصبح يجمع بين يديه السلطتين الدينية والمدنية في مصر. ...

ولم يحصل قط في عهد حكم الرومان والروم البيزنطيين أن تقلد ولاية الحكم في مصر منذ أغسطس قيصر إلى وقت هرقل، والى قبطي أي مصري الأصل.

ولبثت حقيقة مسألة واسم المقوقس ومنصبه وجنسيته، زمنا طويلا غامضة ومعضلة عسرة الحل، إلا أنه أمكن الوصول إلى حلها، بالرجوع إلى كتّاب التاريخ المحققين، المعاصرين لهذا المقوقس والذين دونوا حوادث الفتح العربي وأظهروا شخصية المقوقس وجنسيته بكل وضوح في كتبهم، سواء كانت بالقبطية الصعيدية أو البحيرية أو العربية، وأيدهم علماء التاريخ الأوربيين وغيرهم.

ويبدأ البحث بذكر المصادر، وأهمها:

١ ــ المصادر القبطية

٢ ــ المصادر الإسلامية

٣ ــ مصادر العرب المسيحيين

٤ ــ مصادر اليونانيين

٥ ــ المصادر الإفرنجية

ويذكر لنا كامل صالح نخلة، أكثر من عشرة مراجع قبطية، تعتبر من أهم المراجع حول هذا الموضوع، بعضها مخطوطات باللغة القبطية، ترجع إلى القرن السابع الميلادي، مثل تاريخ حياة الأنبا شنودة رئيس المتوحدين، وتاريخ الأنبا صموئيل القلموني رئيس دير القلمون، والذي كان قد تعرض للإهانات والتعذيب، بيد المقوقس نفسه، وكتاب البابا أغاثون البطريرك (٣٩)، يصف ما جرى للبابا بنيامين البطريرك (٣٨) سلفه. كذلك كتاب تاريخ يوحنا النقيوسي، ومجموعة أخرى من الكتب والوثائق الهامة.

وقد أجمعت هذه المصادر القبطية على أن المقوقس كان بطريركا وواليا في آن واحد، جامعا بين يديه السلطتين الدينية والمدنية، وأنه لم يكن قبطيا بل كان روميا وأن الفتح العربي تم على يديه.

أما المصادر الإسلامية فيشير إليها كامل صالح نخلة، نقلا عن كتاب [الفتح العربي] لبتلرص٥٢٣ فيذكر البلاذي والطبري وسعيد بن بطريق وابن الأثير وأبو صالح وياقوت ومكين وابن خلدون وابن دقماق والمقريزي والواقدي وأبو المحاسن والسيوطي.

ويقول كامل نخلة: "انه يظهر جليا من أقوال كبار مؤرخي العرب المسلمين، أنهم كانوا في حيرة عظيمة وأن اختلافاتهم كثيرة، إذ ليس لديهم عن هذا الحادث سوى معلومات غير دقيقة، ولكنهم ذكروا المقوقس ولقبوه بعظيم القبط أو أمير القبط، ولم يذكروا أنه كان قبطيا، وأنه لم يكن من القبط، إلا أن البعض منهم ذكر أنه كان يونانيا وكان واليا من قبل هرقل".

أما مصادر العرب المسيحيين فهم سعيد بن بطريق، سوري الأصل ويعرف باسم البطريرك أفتيخوس الملكي السكندري، المولود سنة ٨٧٦م. وأبو الفرج بن العبري، وهو سرياني الأصل من رجال القرن الثالث عشر.

يذكر ابن بطريق، أن المقوقس كان عاملا لهرقل على الأموال في مصر، وأن هرقل صيّر قيرش بطريركا على الإسكندرية، وأنه كان مارونيا، وذكر أن البطريرك فاوض عمرو أثناء الاقتتال في الإسكندرية.

أما مصادر اليونانيين فهى : ١ــ نيقوفورس ٢ ــ تيوفانس

ويتضح من أقوال هذين المؤرخين، أن قيرش بطريرك الإسكندرية الملكي، كانت له الكلمة في الأمور المدنية والمالية والحربية.

وبالنسبة للمصادر الإفرنجية فهي :

١ ــ فون رنك ٢ ــ دو جوج ٣ ــ كرابيسك ٤ ــ ملن
٥ ــ استانلي بول ٦ ــ بوري ٧ ــ أميلينو ٨ ــ بريره
٩ ــ بتلر ١٠ ــ جان ماسبيرو

أثبت بتلر إثباتا علميا أن المقوقس لم يكن سوى قيرش البطريرك الملكي بالإسكندرية، الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر، وأنه كان يونانيا، ولم يكن قبطيا، وأنه هو المقصود بالمقوقس في وقت غزو العرب لمصر، وقد طابقت أبحاث العلامة بتلر ما وصل إليه العلامة بريرا، والعلامة جان ماسبيرو، (كتاب تاريخ بطاركة الكرسي السكندري ــ تأليف جان ماسبيرو طبعة باريس سنة ١٩٢٣ ص ٣٥٣).

ويصل المؤرخ كامل صالح نخله في نهاية بحثه إلى الاستنتاج العام الآتي:

١ ــ إن المقوقس لم يكن قبطيا بل إنه رومي الجنس.
٢ ــ إن المقوقس هو نفس قيرش البطريرك الملكي السكندري.
٣ ــ إن قيرش جمع بين يديه السلطتين الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور هرقل.
٤ ــ إن المقوقس قيرش أغتال خراج مصر ولم يقدمه لمولاه الإمبراطور هرقل.
٥ ــ إنه هو الذي قاد جيوش الروم وفاوض العرب في الصلح وسلم البلاد إليهم.

أما معنى كلمة المقوقس، فيقول الدكتور الفريد بتلر: كتبت هذه الكلمة في النصوص القبطية [إبقفقيوس] وفي النصوص اليونانية [قفقاسيوس] أي القوقازي، لأن موطن قيرش وأصله، كان من أهم مواضيع التساؤل بين آل الإسكندرية...
وذلك لأن هرقل نقل قيرش من مركز الرئاسة الدينية في فاسيس ببلاد القوقاز. ونشأ من هذه الكلمة الاسم العربي [المقوقس].

[كامل صالح نخلة ــ البابا بنيامين ــ ص ١٥٨، وبتلر ص ٥٣٩]

والظاهر أن قصة بعث المقوقس باثنين من الأساقفة وهما أبو مريام (أو أبو مرتام) وأبو مريم لمفاوضة العرب لم تكن سوى قصة بعث بها الوهم. فلم يكن بين الأساقفة أحد بتلك الأسماء، ولعل تلك القصة لم تنشأ إلا من الخطأ العظيم الذي وقع فيه مؤرخو العرب عندما قرأوا أخبار هذه الحوادث، وقد اختلطت فيها حوادث التاريخ بالخرافات اختلاطا فاحشا، ومسخها النساخون عند نقلهم منها فلم يتحروا فيها الدقة. ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة، وإنهم فاوضوا عمراً في ذلك الوقت. ويقول الطبري فوق هذا إن عمراً طلب إلى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة في النسب إذ تجمعهم (هاجر). ولكن القبط قالوا إن هذه قرابة ما أبعدها، فأمهلهم عمرو أربعة أيام ليأتوا بما استقروا عليه، ولكن ما كان قائد الروم لينظر في مثل هذا القول. **(بتلر ص ٢٤٧ .)**

ملحق رقم (٣)
المسجد الأقصى وقبة الصخرة
والحرم القدسى

المسجد الأقصى فى عهد الرسول:

كـــان هـــذا الاسم (المسجد الأقصى) يطلق فيما مضى على الحرم القدسى كله وقد اقتبســـه المسلمون من حادث الإسراء يوم اسرى بالنبى العربى الكريم إلى هذه الديار وفى ذلك نزلت الآية الكريمة (سورة الإسراء آية ١) " سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله " .

كان هذا فى أوائل عهد النبى وقبل أن يفتح بيت المقدس على يد المسلمين وكان النبى محمـــد (صـــلعم) فى السنة الأولى بعد الهجرة يولى وجهه وهو يصلى فى المدينة شـــطر القدس معتبرا إياها (بيت الله فى أرضه) ولما رأى من غدر اليهود ومكرهم غير قبلته واستبدلها بالكعبة وقد تم ذلك فى السنة الثانية للهجرة وفى ذلك نزلت الآيات الكريمة التالية:

" ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمة وجه الله "... (سورة البقرة آيه ١٥)

" ومـــا جعنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبتيه وإن كانـــت لكبيرة إلا على الذين هدى الله أو ما كان الله ليضيع إيمانكم أن الله بالناس رءوف رحـــيم. وقـــد ترى تقلب وجهك فى السماء فليوليك قبلة ترضاها فول وجهك شـــطر المســـجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره " (سورة البقرة الآيتان ١٤٣، ١٤٤)

عبد الملك بن مروان والمسجد الأقصى وقبة الصخرة:

وفـــى زمن عبد الملك بن مروان بنى المسجدان الصخرة والأقصى ويقول المؤرخون إن عـــبد الملـــك أراد أن يصـــرف الناس عن التفكير بالسفر إلى الحجاز (وكان ابن الزبير قد ثار ضده وأعلن استقلاله) وأن يشغلهم عن الكعبة ببناء هذا الأثر العظيم.

وقـــد بنـــى مســـجد قـــبة الصـــخر (ســـنه ٦٦ هـــ — ٦٨٥ م) وفرغوا منه سنه (٧٢ هـــ — ٦٩١ م)أما المسجد الأقصى فقد شرع فى بناءه عبد الملك بن مروان سنه (٧٤ هـــ — ٦٩٣ م)

وإنه تم(انتهى) فى زمن ابنه الوليد (٨٦ هـــ — ٧٠٥ م)

وقد قام الوليد بتغطيه قبة الأقصى بالنحاس، وقد أخذه من كنيسة فى بعلبك. أما الحائط الشرقى من المسجد الأقصى فقد سقط فى عهد الوليد فبناه من جديد.

ولـــم يبقـــى من بناء المسجد الذى بناه عبد الملك بن مروان وابنه إلا القليل، إذ تأثر المبنى بالعوامل الطبيعية فأعيد بناء أقسام منه فى العهود العباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والجزء الأكبر من البناء الحالى للمسجد يرجع إلى الخليفة الفاطمى الظاهر لإعـــزاز دين الله. وقد ضيق المسجد من الشرق ومن الغرب فحذف أربعة أروقة من كل جانب وصنع له الأبواب السبعة ، أما الأقواس السبعة التى تواجه الأبواب وتصنع الـــرواق الشمالى فقد أقامها الملك عيسى بن أيوب عام ٦١٤ هـــ / ١٢١٧ ميلادية .

(كتاب البابا شنودة والقدس للكاتب ممدوح الشيخ)

ومـــن الـــذين قالوا أن الذى بناه عبد الملك بن مراون المقدسى سنه ٩٨٥ م فى كتابه (أحســـن التقاسيم فى معرفه الأقاليم) وقد أيد ذلك مجد الدين سنه ١٤٩٦ فى كتاب (الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل)

ومن القائلين أن الذى أكمله وقام ببناء السور الوليد المؤرخ الإسكندرى اوتيمنوس سنه ٩٣٩ ومـــنهم أيضـــا ابـــن الأثير وقد قال كرزويل أن المسجد الأقصى تم بناءه فى الموضع الذى بنى عمر بن الخطاب عليه المسجد الخاص به.

ومن آثار مسجد عمر بالمسجد الأقصى:

أ - فى صدر الجامع الأقصى من جهة الشرق مجمع معقود بالحجر وبه محراب

ب - ومـــن جهة الغرب يظهر الجامع فى صحن المسجد مكان معقود يعرف بجامع المغاربة.

وقد ذكر المؤرخ البيزنطى تيؤفانوس (٧٥١ – ٨١٨) أن الخليفة عمر بن الخطاب بنـــى مسجدة فى منطقة الهيكل الخربة.(كتاب تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى عارف باشا العارف ص ١٥٢)

وقد ذكرت مجلة الآثار (٥-٦ ص ٢٤٧)

أن هـــناك بعثه انجليزيه قامت سنه ١٩٠٩ حفرت فى إسطبل داود ومهد عيسى على جانـــب الصـــخرة وأشيع أنهم اكتشفوا تابوت العهد واللوحين الحجريين المدونة فيهما الوصايا العشر.

الحرم القدسى:

هو عبارة عن المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخر وما بينهما من منشآت وما حولها مـــن الأســـوار هـــى التـــى يعبر عنها فى يومنا هذا بالحرم القدسى ومساحته حوالى ٢٦٠,٦٥٠ م٢. وهو فوق سهل مرتفع كان فيما مضى يدعى (تل المريا) ذلك التل الذى ورد ذكره فى سفر التكوين يوم أتى إبراهيم بولده اسحق إلى هذا المكان ليضحى به وهو أيضا المكان الذى كان فيه (بيدر أرونه اليبوسى) الذى اشتراه داود بخمسين شاقلا من الفضة ليقيم عليه الهيكل .

محتويات أو مكونات الحرم القدسى:

١ – المسجد الأقصى. ٢– مسجد قبة الصخرة ٣– فناء الصخرة

٤ – القباب:

قبة المسلة – قبة المعراج – قبة النبى – قبة يوسف – القبة النبوية – قبة الشيخ الخليلى – قبة الحفز – قبة موسى – قبة سليمان

٥ – مساطب الحرم:

مسطبة الكرم – مسطبة علاء الدين البصير – مسطبة العشاق

٦ – مآذن الحرم:

مئذنة باب المغاربة – مئذنة باب السلسلة – مئذنة باب القوامة – مئذنة باب الأسباط

٧ – أروقة الحرم:

الرواق الممتد من باب القوامة إلى باب القاهر

الرواق الممتد من باب الناظر إلى باب القطانين

الرواق الممتد من باب القطانين إلى باب السلسلة

الرواق الممتد من باب السلسلة إلى باب المغاربة

الرواق الممتد من باب الأسباط إلى باب حطة

الرواق الممتد من باب حطة إلى باب الهتم

الرواق الممتد من باب الهتم إلى باب القوامة

٨ – أبواب الحرم:

الأبواب المفتوحة:

باب الأسباط – باب حطة – باب شرف الأنبياء – باب القوامة – باب الناظر – باب الحديد – باب القطانين – باب المتوضأ – باب السلسلة – باب المغاربة

الأبواب المغلقة:

باب السكينه – باب الرحمة – باب التوبة – باب البراق.

٩ – مياه الحرم:

آبار الحرم:

السبل والأحواض:

الكأس – سبيل باب الحبس – سبيل قايتباى – سبيل البديوى – سبيل شعلان – سبيل قاسم باشا – سبيل السلطان سليمان

الينابيع

العروب – برك سليمان – قناة السبيل – رأس العين

أهم المراجع

١ــ تاريخ الكنيسة القبطية بعد مجمع خلقيدونية(لمثلث الرحمات الأنبا يوأنس)
أسقف الغربية المتنيح
٢ــ مذكرات فى تاريخ الكنيسة القبطية (لمثلث الرحمات الأنبا يوأنس)
أسقف الغربية المتنيح
٣ــ تاريخ البطاركة (الحلقة الخامسة) لكامل صالح نخله.
٤ــ سلسلة تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى "تأليف الشماس كامل صالح نخلة".
٥ــ نوابغ الأقباط ومشاهيرهم للمؤرخ توفيق اسكاروس.
٦ــ الخريدة النفسية فى تاريخ الكنيسة للأسقف ايسيذوروس.
٧ــ تاريخ الكنيسة القبطية للقس منسى يوحنا.
٨ــ تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخله روفيلة.
٩ــ تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس أسقف الاشمونين.
١٠ــ تاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف فوة.
١١ــ تاريخ الأمة القبطية وكنيستها للسيدة بتشر.
١٢ــ أقباط ومسلمون للدكتور جاك تاجر.
١٣ــ القول الأبريزى للعلامة المقريزى "عن الأقباط".

الفهــــــــــرس

صفحة

أصل الأقباط أو المصريــــين ١٠
الأقباط تحت حكم الدولة الرومانية ١٢
الباب الأول: مدرسة الإسكندرية وأشهر فلاسفتها ١٣
الفصل الأول:مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ١٣
الفصل الثانى العلامة أوريجانوس. ٢٠
الباب الثانى المجامع الكنسية. ٢٨
الفصل الأول "المجمع المسكونى الأول مجمع نيقيـــــة. ٣١
الفصل الثانى "مجمع القسطنطينية المسكونى. ٣٥
الفصل الثالث "المجمع المسكونى الثالث "أفسس الأول" ٣٧
الفصل الرابع "مجمع أفسس الثانــــــى". ٣٩
الفصل الخامس "مجمع خلقيدونية". ٤٠
الباب الثالث الشرق بعد مجمع خلقيدونية. ٤٢
الفصل الأول "الشرق فى الفترة ما بين سنه(٤٥١م - ٦٤١م) ٤٢
الفصل الثانى : الاحتلال الفارسى لمصر ٤٧
الباب الرابع:الكنيسة القبطية فى ظل الحكم الإسلامى. ٥٣
الفصل الأول:الغزو العربى لمصــــر ٥٦
أولا: أسباب إنتصارات العرب. ٦١
ثانيا:موقف الأقباط من العرب الغزاة. ٦٢
ثالثا:كيف عامل العرب أقباط مصر عند الغزو. ٦٣
حريق مكتبه الإسكندرية: ٦٥
الفصل الثانى:سياسة العرب الغزاة تجاه الأقباط ٦٩
أولا: الشريعة الإسلامية وأهل الذمة. ٦٩
ثانيا:أهل الذمة وعهد عمــــر. ٦٩
ثالثا:الأقباط والنظام المالـــى. ٧٠
رابعا:أهل الذمة ووظائف الدولـــة. ٧٢
خامسا:القيود الخارجية المفروضة على أهل الذمة. ٧٣
سادسا:أهل الذمة ودية من يقتل منهم . ٧٤
سابعا:الإسلام والمرتـــد. ٧٥
ثامنا:الإسلام وشهادة الذمـــــى. ٧٥
الفصل الثالث:آراء إسلامية معتدلة بخصوص أهل الذمة فى الإسلام ٧٦

أولا: الجزيـــــــــة. ٧٦
ثانيا: الـــزى الخـــاص. ٧٧
ثالثا: وقف بناء الكنائس والبيـــع الجديـــدة. ٧٨
الباب الخامس:الكنيسة فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية. ٨٠
" **الفصل الأول ":الأقباط وخلفاء الدولة الأموية.** ٨٠
أولا: فى عصر الخلفاء الراشدين. ٨٠
ثانيا فى عصر الخلفاء الأمويين. ٨٠
عبد الملك بن مروان وبناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ٨٢
الفصل الثانى: أمثله من المتاعب التى حاقت بالكنيسة فى هذه الفترة ٨٨
أولا:أمثله لبعض أنواع التحقير الادبى:- ٨٨
ثانياً: بعض صور لما حل بأقباط مصر من اضطهاد ومعاناة. ٩٠
ثالثا : ثورات الأقباط. ٩٧
رابعا:نزوح العرب إلى مصـــــر. ١٠١
خامسا:انتشار الإسلام والمسلمين وانشغالهم بالزراعة: ١٠٢
" **الفصل الثالث "قديسوا الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها فى هذه الفترة** ١٠٣
أولا: البابا بنيامين الأول(البطريرك الـــ٣٨). ١٠٣
(أ) محاولة سرقة رأس مارمرقس. ١٠٣
ثانيا: البابا أغاثو (البطريرك الــ ٣٩). ١٠٥
ثالثا: البابا يوحنا الثالث (البطريرك الــ ٤٠) ١٠٥
رابعاً: البابا خائيل (البطريرك الــ ٤٦). ١٠٧
خامساً: أنبا مويسيس أسقف أوسيم: ١١١
سادساً:اشهر النساك القديسون:- ١١١
أشهر العلماء وكتّاب السير. ١١٢
الباب السادس:الكنيسة القبطية فى عصر الدولة العباسية. ١١٣
الفصل الأول:خلفاء الدولة العباسية ١١٣
اشهر خلفاء الدولة العباسية. ١١٣
الفصل الثانى:أحوال الكنيسة القبطية وشعبها فى العصر العباسى ١١٥
أولا: كثره عدد الولاة. ١١٥
ثانيا: سياسة الخلفاء العباسيين والولاة أساسها المنفعة المادية. ١١٥
ثالثا: العباسيون لم يكن لهم سياسة ثابتة فى حكم البلاد. ١١٦
الفصل الثالث:أمثلة من المتاعب التى حاقت بالكنيسة . ١١٨
أولا: فى عهد الخليفة الهادى. ١١٨
ثانياً:فى أيام الخليفة هارون الرشيد:(٧٨٦م) ١١٨

ثالثاً: الخليفة المأمون بن الخليفة هارون الرشيد (٨١٣ م) ١١٨
رابعاً: فى عهد الخليفة المتوكل:(٨٤٧م) ١١٩
خامساً:الخليفة المعتز سنة ٨٦٦ م. ١٢١
سادسا:ثورات الأقباط فى عصر الدولة العباسية. ١٢١
سابعا:أشهر الحوادث المؤسفة فى العصر العباسى . ١٢٤
" الفصل الرابع "قديسوا الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها . ١٢٧
أولا: البابا مينا الأول(البطريرك الـ ٤٧). ١٢٧
ثانياً: البابا ياكوبوس (يعقوب). ١٢٨
ثالثاً: البابا يوساب(البطريرك الـ ٥٢). ١٢٩
رابعاً: البابا شنوده الأول (سانوتيوس)(البطريرك الـ ٥٥) ١٣١
مشاهير المسيحيين من الأطباء فى العصر العباسى. ١٣٢
الباب السابع:الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الطولونية ١٤٠
الفصل الأول:سياسة خلفاء الدوله الطولونية والأقباط ١٤٠
دراسة أحوال الكنيسة القبطية وشعبها من خلال ولاتها . ١٤٠
أولا: عصر أحمد بن طولون. ١٤٠
قتل سعيد بن كاتب الفرغانى. ١٤٣
ثانيا: عصر خماروية بن أحمد بن طولون . ١٤٤
ثالثا: حالة الكنيسة بعد مقتل خماروية. ١٤٦
الباب الثامن:الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الإخشيدية. ١٤٧
الفصل الأول:أحوال الكنيسة القبطية وملامحها ١٤٧
الفصل الثانى:أشهر العلماء الأقباط فى عصر الدولة الإخشيدية ١٤٩
الباب التاسع:تاريخ الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الفاطمية ١٥٧
الفصل الأول:خلفاء الدولة الفاطمية ومعاونوهم. ١٥٧
(أ) المعز لدين الله (٩٦٩ - ٩٧٦ م). ١٥٨
(ب) العزيز بأمر الله (٩٧٦ - ٩٩٦) ١٦٠
(ج) الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) ١٦٢
ملامح من شخصية الحاكم بأمر الله. ١٦٤
الحاكم بأمر الله وأقباط مصر. ١٦٦
١ ـــ قتل فهد بن إبراهيم. ١٦٧
٢ـــ هدم كنيسة القيامة بالقدس. ١٦٨
٣ - اعتناق الإسلام أو الخروج من مصر وهدم الكنائس. ١٦٨
٤ـــ اضطهاد عام مع بعض أنواع التحقير الأدبى للأقباط. ١٦٨
٥ـــ إلقاء البابا زخارياس للسباع. ١٦٩

٦ــ مجاهرة بقيرة الرشيدى بإيمانه المسيحى: ١٧٠
٧ــ مجاهرة كثيرين علانية بطلب العودة إلى مسيحيتهم : ١٧١
٨ــ بناء دير شهران. ١٧٢
٩ــ محنة اللغة القبطية فى عهده. ١٧٢
١٠ــ إصدار وثيقة أمان للأقباط. ١٧٢
(د) الخليفة الظاهر. ١٧٣
(هــ) المستنصر بالله (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) ١٧٣
١ - اضطهاد البابا خرستوذولوس فى أيام القاضى عبد الوهاب. ١٧٤
٢ - أمثلة من مظالم اليازورى للأقباط. ١٧٤
٣ــ قتل ابن أخى الأنبا جورجى أسقف ابروشية ميسارة. ١٧٦
٤ــ سماحة بعض الحكام المسلمين تجاه الأقباط. ١٧٧
٥ــ المظالم التى حاقت بالأقباط عن طريق قبيلة اللواته. ١٧٧
٦ ــ بدر الجمالى وقتله الأمراء الأتراك: ١٧٨
٧ــ أواخر أيام بدر الجمالى وأشهر حوادث ابنه " شاهنشاه ". ١٧٩
٨ - نهاية الدولة الفاطمية. ١٧٩
(و) الخليفة الفاطمى العاضد وحرق مدينة الفسطاط. ١٨٠
ومن أشهر الحوادث فى فترة ضعف الدولة الفاطمية. ١٨٠
(أ) هدم كنيسة الملاك بالروضة وأظلمت الشمس: ١٨٠
(ب) الاستيلاء على بساتين الأقباط: ١٨١
الفصل الثانى:الآباء البطاركة فى العصر الفاطمى. ١٨٣
أولاــ الأنبا إبرآم (البطريرك الــ ٦٢). ١٨٣
حادثة نقل جبل المقطم سنة ٩٧٨. ١٨٣
ثانيا: الأنبا زخارياس(البطريرك الــ ٦٤). ١٨٦
ثالثا: الأنبا شنوده الثانى (البطريرك الــ ٦٥). ١٨٩
رابعا: الأنبا خرستوذولوس(البطريرك الــ ٦٦). ١٨٩
خامسا: الأنبا كيرلس الثانى (البطريرك الــ ٦٧). ١٩٢
سادسا: الأنبا غبريال بن تريك (البطريرك الــ ٧٠). ١٩٦
سابعا: البابا يوأنس الخامس(البطريرك الــ ٧٢). ١٩٩
المظالم التى حاقت بالكنيسة على يد شيركويه. ٢٠١
البابا يؤانس والأنبا ميخائيل مطران الحبشة . ٢٠٢
ثامنا: البابا مرقس الثالث (البطريرك الــ ٧٣). ٢٠٢
الوزير يوسف صلاح الدين وإضطهاده للأقباط. ٢٠٣
الفصل الثالث: قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها. ٢٠٤

١ ــ إيمان الواضح بن أبو الرجاء وإعترافه. ٢٠٤
٢ــ قصة الشهيد الهاشمى. ٢٠٨
٣ــ إيمان مارجرجس المزاحم واستشهاده. ٢٠٩
قديسون فى عصر البابا خرستوذولوس. ٢١٣
١ــ الأنبا باسليوس أسقف أرمنت. ٢١٣
٢ ــ أنبا إيليا أسقف طموه (قبلى الجيزة وعلى مقربة منها) ٢١٤
٣ــ الأنبا ميخائيل أسقف تنيس. ٢١٤
٤ ــ الراهب بيسوس. ٢١٤
٥ ــ بطرس الحبيس فى صومعة سنجار. ٢١٧
٦ ــ الراهب شنوده بجهة نوسا كشفه ما فى قلوب الناس. ٢١٨
٧ ــ الراهب كييل بدير أنبا يحنس القصير. ٢١٨
٨ ــ الشهيد بفام بن بقورة الصواف. ٢١٨
مشاهير الأقباط فى عهد الفاطميين. ٢٢٠
الباب العاشر:تاريخ الكنيسة القبطية فى عصر الدولة الأيوبية ٢٢٣
الفصل الأول:الدولة الأيوبية والحملات الصليبية(الفرنجة) ٢٢٣
أولا:ويمكن تلخيص الحملات الصليبية على البلاد المصرية كالآتى: ٢٢٣
١ – الحمله الصليبية الأولى. ٢٢٣
٢ – الحملة الصليبية الثانية. ٢٢٤
٣ – الحملة الصليبية الثالثة. ٢٢٤
٤ – الحملة الصليبية الرابعة جاءت إلى مصر سنة ١١٦٩ م. ٢٢٤
ثانيا:استقرار صلاح الدين ونهاية الدولة الفاطمية. ٢٢٥
ثالثا:مصر والصليبيون. ٢٢٥
رابعا:موقف الأقباط من الحروب الصليبية. ٢٢٦
الفصل الثانى:صلاح الدين والأقباط. ٢٢٧
أولا:سماحة صلاح الدين نحو الأقباط. ٢٢٨
ثانيا:خلفاء صلاح الدين والأقباط. ٢٢٩
ثالثا:لويس التاسع والملك الصالح. ٢٣٠
الفصل الثالث:قديسوا الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها. ٢٣٢
أولا:عاصر الأيوبيين فى مصر اثنان من الآباء البطاركة هما: ٢٣٢
(١) البابا يوأنس السادس(البطريرك الــ ٧٤) ٢٣٢
(٢) البابا كيرلس الثالث(البطريرك الــ ٧٥) الشهير بأبن لقلق. ٢٣٢
ثانيا: مشاهير الأقباط فى عصر الأيوبيين. ٢٣٣
الفصل الرابع:مواضيع متنوعة عن الفترة السابقة. ٢٣٦

(أولا) محنة اللغة القبطية. ٢٣٦
(ثانيا) أثر الإسلام فى دين الأقباط وعاداتهم. ٢٣٩
ما أخذه الأقباط عن المسلمين. ٢٣٩
ما أخذه المسلمون عن الأقباط. ٢٤٠
(ثالثا) هل كان الأقباط متساوين بالمسلمين أمام القانون ؟ ٢٤٠
الباب الحادى عشر: دولة المماليك(المماليك البحرية والبرجية) ٢٤٧
الفصل الأول: الأقباط فى عصر المماليك البحرية ٢٥١
أشهر الحوادث المؤسفة فى عصر المماليك البحرية: ٢٥١
١ - فى عهد الأمير عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك . ٢٥١
٢ـ فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى وابنه بركة خان: ٢٥٢
حادثة الراهب الحبيس (١٢٦٥ م) ٢٥٢
وفى أيام ابنه بركة خان (١٢٧٧ م) ٢٥٣
٣ ـ فى أيام الملك المنصور قلاوون . ٢٥٣
٤ ـ فى عهد الملك الأشرف خليل (١٢٩٠ م) ٢٥٤
حادثة عين الغزال والسمسار: ٢٥٤
٥ ـ عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون. ٢٥٧
أ ـ حادثة وزير ملك المغرب. ٢٥٨
ب ـ حادثة عيد الشهيد (١٣٠٣ م) ٢٦٠
ت ـ واقعة هدم الكنائس ورد فعل الأقباط على ذلك. ٢٦١
ث ـ حادثة هدم الكنائس ٢٦٢
ج ـ حادثة كنيسة الزهرى: (١٣١٢ م) ٢٦٣
ح ـ حوادث حريق القاهرة : ٢٦٧
خ - حادثة هدم كنيسة الست بربارة سنة ٧٢٨ هـ: ٢٧١
٦ ـ عهد الملك الصالح سنة ١٣٥٢ م وتولى المعتد بالله سنة ١٣٥٣ م: ٢٧٢
ومن أشهر الحوادث فى أيامه:- ٢٧٣
أـ حادثة الرجل الذى أجبر على دخول الإسلام: ٢٧٣
ب ـ حادثة حفيد عائلة زينور (علم الدين): ٢٧٣
٧ـ الملك الناصر حسن (١٣٥٥ م - ١٣٨١ م) ٢٧٥
٨ـ الملك المنصور سنة ١٣٨١ م: ٢٧٦
الفصل الثانى:قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها ٢٧٧
أولا: الآباء البطاركة فى عصر المماليك البحرية. ٢٧٧
١ـ البابا أثناسيوس الثالث (الـ ٧٦). ٢٧٧
٢ـ البابا يؤانس السابع(البطريرك الـ ٧٨). ٢٧٨

٣ــ البابا ثيئودوسيوس الثانى(البطريرك الــ ٧٩). ٢٧٨
٤ــ البابا يؤانس الثامن (البطريرك الــ ٨٠) ٢٧٩
٥ــ البابا يؤنس التاسع(البطريرك الــ ٨١) ٢٨٠
٦ــ البابا بنيامين الثانى(البطريرك الــ ٨٢). ٢٨٠
٧ــ البابا بطرس الخامس (البطريرك الــ ٨٣). ٢٨١
٨ــ البابا مرقس الرابع (البطريرك الــ ٨٤). ٢٨١
٩ــ البابا يؤانس العاشر (البطريرك الــ ٨٥). ٢٨٣
١٠ــ البابا غبريال الرابع (البطريرك الــ ٨٦). ٢٨٣
ثانيا:الآباء الأساقفة والأراخنة فى عصر المماليك البحرية ٢٨٤
١ ــ الأنبا بطرس الجميل أسقف مليج. ٢٨٤
٢ – شمس الرئاسة أبو البركات. ٢٨٤
٣ – الشهيد بسطوروس. ٢٨٥
٤ ــ الأنبا برسوم العريان. ٢٨٦
٥ ــ تاريخ القديس مرقس الأنطونى. ٢٨٨
٦ ــ المفضل المصرى بن أبى الفضائل. ٢٩٢
الباب الثانى عشر: عصر المماليك الشراكسة ٢٩٣
الفصل الأول:تاريخ الأقباط فى عصر المماليك الشراكسة ٢٩٣
أولا: سلاطين المماليك الشراكسة وأعمالهم. ٢٩٣
١ ــ السلطان برقوق سنة ١٣٨٢ م: ٢٩٣
ومن أشهر الحوادث فى عصره: ٢٩٤
أ) حادثة كاتب مدينة الطور: ٢٩٤
ب) حادثة استشهاد جماعة من الرجال والسيدات. ٢٩٤
ج) حادثة إبطال عيد النيروز (٧٨٧ هــ / ١٣٨٥ م) ٢٩٤
د) حادثة الراهب الشهيد: ٢٩٥
٢ ــ الملك العادل (سنة ١٤١٢ م) ٢٩٥
٣ ــ المحمودى (سنة ١٤١٢ م): ٢٩٥
٤ ــ الأشرف بيبرس باى (سنة ١٤٢٢ م - ١٤٥٣ م). ٢٩٦
٥ــ المستنجد (سنة ١٤٥٣ م): ٢٩٧
٦ ــ وفى أيام خوش قدم (سنة ١٤٦١ م). ٢٩٧
٧ ــ فى أيام قايت باى (سنة ١٤٦٧ م). ٢٩٧
ثانيا:عصر المماليك ووظائف الدولة: ٢٩٧
ثالثا:عصر المماليك وحالة الكنيسة الروحية: ٢٩٧
رابعا:المماليك وعلاقة الكنيسة القبطية بالكنيسة الحبشية: ٢٩٨

الفصل الثانى:قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها ٣٠٠
أولا: الآباء البطاركة فى عصر المماليك الشراكسة: ٣٠٠
١ـ البابا متاؤس الأول(البطريرك الـ ٨٧). ٣٠٠
٢ـ البابا غبريال الخامس:(البطريرك الـ ٨٨). ٣٠٤
٣ـ البابا يؤانس الحادى عشر(البطريرك الـ ٨٩) ٣٠٥
٤ـ البابا يؤانس الثالث عشر(البطريرك الـ ٩٤) ٣٠٧
ثانيا:أشهر القديسين والعلماء والأراخنة فى عصر المماليك الشراكسة ٣٠٨
١ ـ القديس صليب الشهيد. ٣٠٨
٢ ـ القديس سيدراك الأنطونى ٣٠٩
٣ ـ البكر الطاهر حديد من ٣٠٩
٤ ـ القس يعقوب ٣٠٩
٥ ـ منصور بن بطرس ورفيقه داود ٣٠٩
٦ ـ الشاب المجاهد ماماديوس المدعو ميخائيل ٣١٠
٧ـ سيرة الأنبا رويس ٣١٠
الباب الثالث عشر:تاريخ الكنيسة القبطية فى عصر الدولة العثمانية ٣١٩
الفصل الأول:الدولة العثمانية وسياستها مع الأقباط ٣١٩
١ ـ حالة أقباط مصر فى عصر الأتراك (العثمانيين): ٣٢٠
٢ ـ بعض الأحكام العرفية التى طبقت . ٣٢١
٣ـ بعض الأعمال التى كان يقوم بها الأقباط . ٣٢١
٤ ـ أشهر المناطق التى كان يسكنها الأقباط فى القاهرة: ٣٢١
٥ ـ الأتراك العثمانيون والتفريق فى المعاملة . ٣٢٢
٦ ـ مصير اللغة القبطية فى عصر الدولة العثمانية: ٣٢٢
٧ـ حالة المسيحية فى النوبة والخمس مدن الغربية: ٣٢٣
٨ـ الادعاء بنهاية العالم: ٣٢٣
الفصل الثانى :أحوال الكنيسة والأقباط. ٣٢٤
أولا:أشهر المظالم التى حاقت بالكنيسة والأقباط فى هذه الفترة: ٣٢٤
(١) حادثة الثلاثة المباشرين السكارى (١٥٢١ م): ٣٢٤
(٢) حادثة عرب الهوارة. ٣٢٤
(٣) حوادث التحقير الأدبى: ٣٢٥
(٤) حوادث السلب والنهب. ٣٢٥
(٥) زيارة الأراضى المقدسة وحوادث الاختطاف: ٣٢٦
(٦) مواقف مؤلمه امتدادا لاسلوب النهب: ٣٢٧
ثانيا:الأقباط والجزية فى عهد الأتراك العثمانيين: ٣٢٧

فى سلطنة محمود بن مصطفى: ٣٢٧
ثالثا:رأى الرحالة الأجانب فى عصر الأتراك: ٣٢٧
الفصل الثالث: قديسوا ومشاهير الكنيسة القبطية ٣٢٩
أولا: الآباء البطاركة: ٣٢٩
١ـ البابا غبريال السابع (البطريرك الـ ٩٥) ٣٢٩
٢ـ البابا يوأنس الرابع عشر(البطريرك الـ ٩٦) ٣٣٠
٣ـ البابا غبريال الثامن (البطريرك الـ ٩٧) ٣٣٠
٤ـ البابا مرقس الخامس (البطريرك الـ ٩٨) ٣٣١
٥ـ البابا يوأنس الخامس عشر(البطريرك الـ ٩٩) ٣٣١
٦ـ البابا متاؤس الثالث (البطريرك الـ ١٠٠) ٣٣٢
٧ـ البابا مرقس السادس(البطريرك الـ ١٠١) ٣٣٢
٨ـ البابا متاؤس الرابع (البطريرك الـ ١٠٢) ٣٣٣
٩ـ البابا يوأنس السادس عشر(البطريرك الـ ١٠٣) ٣٣٤
١٠ـ البابا بطرس السادس البطريرك (الـ ١٠٤) ٣٣٥
١١ـ البابا يوأنس السابع عشر(البطريرك الـ ١٠٥) ٣٣٦
١٢ـ البابا مرقس السابع البطريرك (الـ ١٠٦) ٣٣٦
١٣ـ البابا يوأنس الثامن عشر البطريرك (الـ ١٠٧) ٣٣٧
" ثانيا " أشهر الأساقفة والأراخنة فى عصر الدولة العثمانية ٣٣٨
١ ـ الأنبا ميخائيل (العلامة): ٣٣٨
٢ ـ الأنبا بطرس كبير مطارنة الصعيد: ٣٣٨
٣ ـ القس الراهب يوسف الزير البرماوى: ٣٣٨
٤ ـ الراهب القديس الشهيد يوحنا القليوبى: ٣٣٨
٥ ـ استشهاد قسيس فرنسى: ٣٣٩
٦ ـ يوسف أبو دقن المنوفى: ٣٣٩
٧ ـ نصرانى السنجق: ٣٤٠
٨ ـ المعلم مرقوريوس الشهير بـ " ديك أبيض ". ٣٤٠
٩ ـ المعلم لطف الله أبو يوسف: ٣٤٠
١٠ ـ المعلم لطف الله أبو شاكر: ٣٤١
١١ ـ المعلم رزق كبير المباشرين: ٣٤١
١٢ ـ المعلم إبراهيم الجوهرى " سلطان القبط " ٣٤٢
الباب الرابع عشر:الحملة الفرنسية على مصر ٣٤٥
الفصل الأول:الحملة الفرنسية وسياستها تجاه المصريين والأقباط ٣٤٥
أولا:حالة مصر قبل دخول الحملة الفرنسية: ٣٤٥

ثانيا:الحملة الفرنسية وأبعادها السياسية: ٣٤٦
ثالثا:بين الثورة الفرنسية بأوروبا والحملة الفرنسية على مصر: ٣٤٦
رابعا:سياسة بونابرت وموقف الفرنسيين من الأقباط: ٣٤٧
أ ــ سياسة بونابرت الإسلامية. ٣٤٧
هل كان بونابرت صادقا فى دعواه. ٣٤٨
ب – كيف عامل نابليون الأقباط: ٣٤٨
خامسا: المسلمين مع الحملة الفرنسية والمظالم التى حاقت بالأقباط. ٣٥٠
سادسا:موقف الأقباط تجاه الحملة الفرنسية. ٣٥٣
س: – هل يؤخذ على الأقباط موقفهم السلبى وقت الخطر ؟ ٣٥٤
سابعا:أسوأ الحوادث التى حلت بالأقباط فى هذه الفترة: ٣٥٥
ثامنا:دروس الحملة الفرنسية: ٣٥٦
الفصل الثانى:أبرز الشخصيات أيام الحملة الفرنسية: ٣٥٨
١ – الجنرال يعقوب. ٣٥٨
٢ – المعلم جرجس الجوهرى ٣٦٣
٣ – المعلم ملطى. ٣٦٥
٤ – المعلم انطون أبو طاقية. ٣٦٥
الفصل الثالث: الأقباط والكنيسة فى عصر يوسف باشا. ٣٦٦
الباب الخامس عشر:الأقباط فى عهد أسرة محمد على وإبراهيم باشا ٣٦٧
الفصل الأول:الإرادة المصرية الحرة المستقلة ويوم(١٣ مايو ١٨٠٥) ٣٦٧
من هو محمد على ٣٧١
أثر سياسة محمد على فى معاملته للمواطنين المصريين. ٣٧١
أهم قراراته بخصوص سياسة التسامح. ٣٧٤
محمد على والبابا البطريرك. ٣٧٩
أشهر الشخصيات فى عصر محمد على. ٣٨١
المعلم غالى وابنه باسليوس. ٣٨١
الفصل الثانى:الكنيسة القبطية والأقباط فى عصر خلفاء محمد على ٣٨٤
أولا ــ الأقباط فى عصر عباس باشا. ٣٨٤
ثانياً ــ عصر محمد سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣). ٣٨٥
ثالثا ــ عصر إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٨ م). ٣٨٧
أولا:الخديو إسماعيل والمشاركة القبطية(١٨٦٦) ٣٨٧
ثانيا:إسماعيل باشا والتسامح الدينى. ٣٨٨
ثالثا: الخديو إسماعيل والأقباط: ٣٨٨
رابعا : الخديو إسماعيل و "مجلس شورى النواب": ٣٨٩

خامسا : الخديوى إسماعيل وتعيين الأقباط فى مناصب عالية: ٣٩٠
سادسا: الخديوى إسماعيل واهتمامه بالتعليم: ٣٩١
سابعا: اهتمامه بترابط الأسرة الاجتماعي: ٣٩٢
ثامنا:الخديوى إسماعيل واللائحة الوطنية: ٣٩٢
رابعا_ عهد الخديوى توفيق والاحتلال البريطانى. ٣٩٤
الخديوى توفيق والثورة العرابية(١٨٨١) ٣٩٤
الموضوعات الهامة فى هذه الفترة: ٣٩٧
١ _ الإرساليات الكاثوليكية: ٣٩٧
٢ _ الإرساليات البروتستانتية: ٣٩٧
الفصل الثالث:قديسو الكنيسة وعلماؤها وأراخنتها وشهداءها ٣٩٨
أولا: الآباء البطاركة فى أيام الحملة الفرنسية وأسرة محمد على: ٣٩٨
١_ البابا مرقس الثامن (البطريرك الـ ١٠٨) ٣٩٨
٢_ البابا بطرس السابع(البطريرك الـ١٠٩) ٣٩٩
٣_ الباب كيرلس الرابع(البطريرك الـ١١٠) ٤٠٢
٤_ البابا ديمتريوس الثانى(البطريرك الـ ١١١) ٤٠٨
" ثانيا " أشهر الأساقفة فى هذه الفترة: ٤٠٩
١ _ الأنبا يوساب الأبح أسقف جرجا وأخميم ٤٠٩
٢ _ الأنبا باسيليوس مطران القدس (١٨٥٦ - ١٨٩٩) ٤٠٩
٣ _ الأنبا صرابامون أسقف المنوفية الشهير " بأبى طرحة " ٤٠٩
" ثالثا " مشاهير رجال القبط فى عهد أسرة محمد على: ٤١٢
الملاحق ٤١٧
ملحق رقم (١) ملخص وقائع الغزو العربي لمصر. ٤١٩
ملحق رقم (٢) هل رحب (الأقباط) بالغزو العربي لمصر ؟ ٤٣٤
ملحق رقم (٣)المسجد الأقصى وقبة الصخرة والحرم القدسى ٤٤٩

صدر من هذه السلسلة

أولاً: وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها

من بعد عصر الرسل حتى نهاية عصر أسرة محمد علــى

ثانياً: سلسلة كتاب وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها المعاصر

١ ـ الجزء الأول من بداية الاحتلال البريطانى حتى ثوره يوليو ١٩٥٢

٢ـ الجزء الثانى فى عصر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والبابا كيرلس السادس

٣ـ الجزء الثالث فى عصر الرئيس الراحل أنور السادات والبابا شنودة الثالث

٤ـ الجزء الرابع فى عصر الرئيس محمد حسنى مبارك والبابا شنودة الثالث

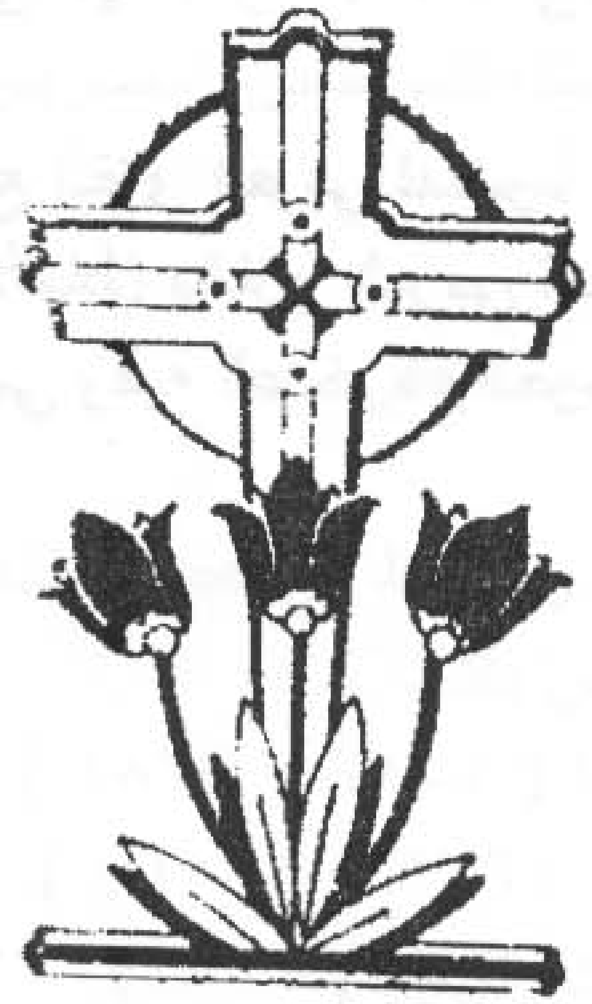

قال نبى المسلمين

" استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم ".

كما أوصي عند وفاته " الله، الله فى قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله".

ومن حديث له أيضاً" إن قبط مصر أخوال وأصهار، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم ".

ولما سئل " كيف يكونون أعواناً على ديننا يا رسول الله؟ قال " يكفونكم أعمال الدنيا و تتفرغون للعبادة ".

وقال أيضاً " لو بقي إبراهيم حيا ما تركت قبطياً إلا وقد رفعت عنه الجزية. (إبراهيم هو ابن النبى من ماريه القبطية)

كما أوصى خليفته بالمسيحيين أن يوفى لهم بعهدهم وألا يُكلفوا فوق طاقاتهم.

كما قال عبد الله بن عمرو:

(قبط مصر أكرم الناس خارج الجزيرة العربية وأسمحهم يداً وأفضلهم عنصراً، ومن أراد أن ينظر الفردوس أو ينظر إلى مثيلاتها فى الدنيا فلينظر إلى مصر حين يخضر زرعها وينبثر ثمرها).